سلسلة بلاغتنا ولغتنا - ١ -

البلاغة

فنونها وأفنانها

علم المعاني

الدكتور فضل حسن عبّاس
كلية الشريعة - الجامعة الأردنية

دار الفرقان للنشر والتوزيع

سلسلة بلاغتنا ولغتنا - ١ -

البلاغة

فنونها وأفنانها

علم المعاني

الدكتور فضل حسن عبّاس

كلية الشريعة - الجامعة الأردنية

دار الفرقان للنشر والتوزيع

Bibliotheca Alexandrina

0039886

مَكتَبَةُ لِسَانُ العَرَب

رابط بديل

lisanerab.com

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

البلاغة

فنونها وأفنانها

طبعة مزيدة ومنقحة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الطبعة الثانية

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الثالثة

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الرابعة

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

تمتاز هذه الطبعة بالتصحيح والضبط والزيادة والتطبيقات والفهارس

دار الفرقان

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب: ٩٢١٥٢٦

فاكس: ٦٤٨٢٦٢

هاتف: ٦٤٠٩٢٧ - ٦٤٥٩٢٧

فرع إربد. مقابل جامعة اليرموك. هاتف ٢٧٦٥٠٦

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

سلسلة بلاغتنا ولغتنا
(١)
علم المعاني

البلاغة
فنونها وأفنانها

(علم المعاني)

تأليف
الدكتور فضل حسن عباس
كلية الشريعة – الجامعة الاردنية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام التامَّان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أما بعد:

فلقد نفدت ـ ولله الحمد ـ الطبعة الأولى من هٰذا الكتاب منذ أكثر من سنة، وهٰذه الطبعة الثانية لهٰذا الكتاب؛ أرجو أن يجد فيها عشاق البلاغة العربية، ومحبُّوها، والتَّوَّاقون للوقوف على بعض مظاهر الإعجاز القرآني، والمتذوقون للبيان العربي؛ أرجو أن يجد فيها هٰؤلاء وغيرهم من المثقفين بغيتهم إمتاعاً وإقناعاً.

ويعلم الله ما بذلته من جُهد، وما لقيته من جَهد في إخراج هٰذه الطبعة؛ تيسيراً على القارىء الكريم.

وسيدرك القارىء أن هٰذه الطبعة لا تمتاز عن سابقتها بجمال الحرف المستعمل وأناقة المطهر فحسب، بل إن هناك أموراً كثيرة امتازت بها هٰذه الطبعة، وأهمها:

١ ـ تصحيح الأخطاء المطبعية الكثيرة.

٢ ـ إضافة بعض القضايا العلمية في كثير من موضوعات الكتاب.

٣ ـ توضيح بعض العبارات، وزيادة عدد كبير من الأمثلة من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، وأشعار العرب.

٤ ـ ضبط الآيات القرآنية والأشعار والألفاظ الموهمة بالشكل؛ اتقاء للخطإ في قراءتها.

٥ ـ شرح الأبيات الشعرية عندما يقتضي المقام ذلك، وعزوها إلى قائليها..

٦ ـ ترجمة الأعلام الواردة في الكتاب من شعراء وكتاب.

٧ ـ تفصيل مادة الكتاب وترقيمها بالشكل الذي يعين القارىء على فهم المقصود من الفقرة، واستيعاب الموضوع بسهولة.

٨ ـ وإتماماً للفائدة؛ قمنا بتحليل سورة من كتاب الله تعالى تحليلاً بيانيًّا موجزاً، يتصل بمادة الكتاب؛ علم المعاني.

وأخيراً لا يفوتني أن أذكر بخيرٍ كلَّ من ساهم في إخراج هٰذا الكتاب بعمل أو قول، ونبهني إلى بعض القضايا التي تحتاج للمراجعة، كما وأخص بالشكر الذين بذلوا جهداً طيباً في تنضيد مادة الكتاب، وإخراجه على هٰذه الصورة الأنيقة، وكما أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ عبد الهادي حماد الذي بذل جهداً في تصحيح هذه السلسلة، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

والله أسأل أن ينفع به، وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه، وأن يجعله ذخراً لي ولوالديَّ ولأسرتي وذويَّ إنه سميع قريب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

د. فضل حسن عباس
عمان في ٢٢ جمادى الأولى ١٤٠٩هـ
١ كانون الثاني ١٩٨٩م

□□□

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، منه العون وعليه التكلان، والصلاة والسلام على أفصحِ الناسِ منطقاً، وأشرفِهم لساناً، وأثْبَتِهم جَناناً؛ سيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه؛ أئمةِ القولِ، وأساطينِ البيانِ، ومَن تبعَهُم بإحسانٍ..

أما بعدُ:

فهٰذه مباحثُ في البلاغة العربية؛ فنِّ القولِ، أرجو أنْ تكونَ دانيةَ القطوفِ، سهلَةَ المنالِ، وارفةَ الظلالِ، دَفَعَني لكتابتها وتسجيلها ما كنتُ أجِدُهُ في نفسي من معاناة ومكابدة؛ ما كنتُ أجِدُه دارساً وأنا جالس على كرسي التلمذة، وما وجدته بعد ذٰلك معلماً ملقناً وأنا على كرسي التدريس.

وأنا لا أزعُمُ أنْ سآتي بجديد، ولكنْ كلُّ الذي أرجوهُ أن أكونَ ـ وقد أفدتُ من حالَتَيِ الدرسِ والتدريسِ ـ قد أدْرَكْتُ مواطن الصعوبة، ومواضع الإشكالات، وأسباب الغموض التي تحول بين الدارسينَ وبين الإفادة من هٰذا الفن الذي يهذِّبُ الطباعَ، ويثقِّفُ الألسنةَ، ويرهِفُ الحِسَّ، مما أودَعَهُ الأئمة في كتبهم، ونظمتهُ أفكارهم، وجادت به قرائحهم، فسطرتْهُ أقلامُهم، وإنه لكنزٌ ـ لو تعلمونَ ـ عظيمٌ.

ولعلَّ أكثر ما يضيقُ بهِ الدارسونَ ذَرْعاً، ويثقل عليهم سمعاً، ويَحول بينهم وبين أن تَخْتَرِقَ هٰذه القواعدُ ألبابَهم:

١ ـ **الأسلوب:** فهٰذه الكتب الحديثة، رغم ما بذل مؤلفوها ـ جزاهم الله خيراً ـ من جهد؛ نجدها في كثير من موضوعاتها غير ميسرة الأسلوب، ولا يمكن أن يَسْبر غورَها إلا مَن أُعطي حظًّا وافراً من تأسيس لغوي جيِّد.

٢ ـ **هذه الأمثلة التي نجدها تنتقل من كتاب إلى كتاب؛** مع قلتها، وخفاء دلالتها في كثير من الحالات على ما يُراد تقريره وتصويره للنفس حتى تتفاعل معه.

٣ ـ **ذكر بعض القضايا التي لا تدعو الضرورة لذكرها:** مع التناقض أحياناً في ما يُراد تقريره من قواعد، وما يستشهد عليه من أمثلة.

لذلك كان **هدفي الأول** الإكثارَ من الشواهد، وبخاصة خير الكلام من الكتاب الكريم، والسنة النبوية، والكلام البليغ؛ شعراً ونثراً، ومع ذٰلك، فلقد رأيتُني مضطرًّا أن آتيَ ببعض الأمثلة من الواقع الذي نحياهُ؛ تسهيلاً للقارىء، كي يستوعب الفكرة التي يُراد تقريرها.

أما **الهدف الثاني** فهو أنْ اجْعَلَ القارىء على صلة بتراثنا البلاغي، مما كتبه الأقدمون مشكورين، وبخاصة عبدالقاهر ـ رحمه الله تعالى ـ وقد أشرح بعض العبارات التي تحتاج إلى توضيح وشرح.

وهناك هدف ثالث: وهو أنني حاولت أن أُلِمَّ بكثير من القضايا البلاغية، والمسائل ذات الشأن التي تغاضى عنها كثير من الكتاب الفضلاء.

ورابع هذه الأهداف، وأعظمها، وأَوْلاها بالذكر، هو ما قصدت إليه بأن يكون القارىء على صلة بقضية الإعجاز القرآني من حيثُ النظمُ.

وهٰذا الكتاب هو الأول من سلسلة «بلاغتنا ولغتنا»، ويليه الكتاب الثاني، ويتضمن مباحث علمي البيان والبديع، أما الكتاب الثالث فهو: «البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية».

وقد تكون هناك مباحثُ أخرى في هٰذه السلسلة، نرجو الله أن يوفقنا لإصدارها.

والله أسأل أن يهيىء الخير لتلافي ما نجده حائلاً بين الدارسين وبين تذوق حلاوة القـرآن الكـريم، وهي خطوة على الطريق، إن أصبت فالله وليُّ التوفيق، وإن كانت الأخرى قد تنبّه لها ناقد حكيم، ففوق كل ذي علم عليم.

د. فضل حسن عباس
عمان في ١٥ شعبان ١٤٠٥هـ
الموافق ٥ أيار ١٩٨٥م

□□□

الفصاحة والبلاغة

وهو يضم خمسة فصول:

١ ـ الفصل الأول: الفصاحة والبلاغة؛ تعريف ومقارنة.

٢ ـ الفصل الثاني: الفصاحة عند علماء اللغة.

٣ ـ الفصل الثالث: البلاغة عند علماء اللغة.

٤ ـ الفصل الرابع: ما هو الأسلوب؟

٥ ـ الفصل الخامس: لمحة تاريخية عن البلاغة.

الفصل الأول

الفصاحة والبلاغة؛ تعريف ومقارنة

■ فروع اللغة العربية:

اللغة العربية ذات علوم كثيرة؛ تنتسب إليها، تتفرع منها، وتنبثق عنها، وكل علم له شأنه وشأوه، والحاجة الماسّة الداعية إليه، وكل علم له دوره الذي يقوم به، وفائدته الاصطلاحية والجمالية التي تُستفادُ منه.

ومع أنَّ لكل علم أغراضه الخاصة به؛ إلا أن هٰذه العلوم جميعاً يكمِّلُ بعضها بعضاً، فبينها صلة ورحم؛ لأنها منبثقة جميعها، ومتولدة كلها؛ من ابنة عدنان؛ لغة القرآن. فنحن نجد صلة وثيقة بين علمي النحو والصرف، ومتن اللغة وفقه اللغة، وعلوم البيان والبلاغة.

ومع أن لكل دوره ـ كما قلنا ـ إلا أن لعلوم البلاغة آثارها الحسيَّة والنفسيَّة التي تتصلُ اتصالاً مباشراً بمناحي الحياة المتعددة؛ دينية كانت، أو اجتماعية، أو سياسية، ذٰلك أن البيان هو السحر الحلال!

والبلاغة هي التي تمكِّن المتكلم أن يأسرَ المخاطبينَ حينما يخترق ببيانه وأسلوبه ألبابهم وقلوبهم، وإذا كان الناس يشترون العبيد بأموالهم، فإنهم يشترون الأحرار بإحسانهم، ولقد قال أبو الفتح البُستي قديماً[1]:

أَحْسِنْ إلى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُمُ ... فطالَما اسْتَعْبَدَ الإنْسانَ إحْسانُ[2]

---

(1) علي بن محمد بن الحسين، توفي سنة (٤٠٠هـ).

(2) انظر «الجواهر من تراث العرب» (ص٩٧).

وكما يكونُ الإحسان بما يفرّج الكَرْبَ، ويستر الجسم، ويشبع البطن؛ فإنه لكائنٌ كذلك بما يمتع العواطف، ويقنع العقول، ويؤثر في النفوس.

ولكن؛ ما هي الفصاحة والبلاغة؟ وما هي علومهما؟ ذلك ما سنحاول أن نعرض له، مستمدين من الله العون.

ولكن؛ ما هي الفصاحة والبلاغة؟ وما هي علومها؟ ذٰلك ما سنحاول أن نعرض له، مستمدين من الله العون.

■ مدخل إلى هٰذا الموضوع:

حينما نذهب نلتمس في المعاجم معنى الفصاحة والبلاغة؛ فإننا نجد أن هاتين الكلمتين لم تخرجا عن السنن المألوفة، والطريقة المعروفة؛ في وضع العرب لكلماتهم، ونحن نعلم أن الكلمات التي ننطق بها الآن وُضِعَ أكثرها لتدل على أشياء مادية محسوسة؛ ذٰلك لأن العرب - كغيرهم من أمم الدنيا - لم تكن لهم في نشأتهم الأولى إلا الأمور الضرورية التي يتعاملون معها، ويحتاجون إليها، وهي في الأغلب أمور ساذجة، لا تخرج عن الحاجات الأولى لأي أمة، فلم تكن هناك أمور معنوية، وقضايا حضارية؛ ليضعوا لها الكلمات التي تدلُّ عليها، فأيّ كلمة ذات دلالة ثقافية وحضارية وفكرية؛ فإنك حينما ترجعها إلى أصل وضعها ستجد أنها وُضعت أول ما وضعت لتدل على شيء محسوس، ثم تدرجوا في استعمالها من هٰذا الشيء المحسوس إلى ما كانت تدعو الحاجة إليه من أمور طارئة، مع ملاحظة أن هناك صلة بين هٰذه المعاني التي وُضِعَتْ لها هٰذه الكلمات، وإن كانت قد مرت بمراحل كثيرة متباعدة حيناً، وغير متباعدة حيناً آخر.

خذ مثلاً كلمة (كتاب)؛ التي لا نكاد اليوم نذكر لها غير هٰذا المعنى الذي هو آلة الثقافة، ووسيلة العلم، فالكتاب هو ذٰلك الشيء الذي يصلنا بما حولنا، وبما هو بعيد عنّا من شتى العوالم والمعارف.

ولكننا حينما ننظر في هٰذه المادة؛ مادة (ك ت ب)؛ نجد أن العرب أول ما

وضعوها لغير هٰذه الدلالة التي نجدها اليوم؛ لأنهم - بالطبع - لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة، وإنما كان وضعها لشيء هم في أمسِّ الحاجة إليه، إنهم يريدون أن يستروا أجسامهم وعوراتهم، وأن يتّقوا الحر والبرد، لا بد إذن من لباس، وهٰذا اللباس لا بد له من خياطة وحياكة ونسج، لذا نجد كلمة (كَتْب) تدل على ضم الخيوط بعضها لبعض، فالكَتْبُ لغة إذن: الضم والجمع.

ثم تُوسِّعَ في هٰذه الكلمة حينما دعت الحاجة، وألحّت الضرورة، وأصبح العرب قبائل متعددة؛ يغزو بعضهم بعضاً، فلا بد لكل قبيلة من أشداء يدافعون عنها، وتتقي بهم شر الأعداء؛ كما وقاهم اللباس شر الحر والبرد، وعندما رأوا هٰؤلاء المدافعين وهم يتجمّعون؛ ينضمُّ بعضُهم إلى بعض، كان لا بد من كلمة توضع لهم، وتناسب في الدلالة عليهم، فوضعت كلمة (كتيبة).

وامتدَّ الزمن، وامتدت معه جذور الأمة، واتسعت الفروع المنبثقة من هٰذه الجذور، وأصبح العرب لهم صلتهم بغيرهم من الأمم، وصارت هناك معاملات وأغراض دعتهم إلى أن يعرفوا الخط ورسم الأحرف، وأن يقرؤوا ما يجيء لهم من غيرهم، فلا بد إذن من كلمة يضعونها أو اسم لهٰذا المولود الجديد؛ وهو ضم الحروف بعضها إلى بعض، فوضعوا لهٰذه كلمة (كتب) كذٰلك.

ونحن نجد صلة قوية بين هٰذه المعاني الثلاثة؛ لا من حيث الشكل والهيئة التي نتجت عن ضم الخيوط بعضها إلى بعض، وتجَمُّعِ المقاتلين بعضهم إلى بعض، وضم الحروف بعضها إلى بعض؛ أقول: نجد صلة لا من حيث الناحية الشكلية فحسب، وإنما من حيث الناحية الوظيفية المعنوية كذٰلك، فكما أن النسج الذي ضُمَّت فيه الخيوط يقيهم الحر والبرد، ويستر عوراتهم، كذٰلك الجند تقيهم الاعتداء والعار، وهٰكذا الكتابة والقراءة تقيهم أنواعاً كثيرة من الأذى، وتجلب لهم أشياء كثيرة من الخير. . .

وهٰكذا؛ إذا أخذتَ أي كلمة من الكلمات تجد أنها مرت بهٰذه المراحل،

وتدرجوا في استعمالها من معنى إلى معنى.

أحببت أن أقدم لك هٰذه المقدمة، وآثرت البدء بها كي تكون مدخلاً للحديث عن الفصاحة والبلاغة، حتى لا تتشعب بك السبل وأنت تقرأ في كتب كثيرة؛ فإنهم عندما يتكلمون عن الفصاحة والبلاغة؛ يذكرون لهما معاني كثيرة، وموضوعات متعددة، مع أنها كلها ترجع إلى أصل واحد.

فلماذا وضع العربُ هٰذه المادَّة، ولأي شيء وُضِعَتْ، واللغة ـ كما قلنا من قبل ـ من الحاجات الضرورية للأمم والشعوب والأفراد، فالكلمة حينما توضع لا توضع ترفاً ولا سرفاً؟!

■ الفصاحة لغة:

مادة فصاحة (ف ص ح)؛ كانَ أول وضع لها عند العرب يتناسب مع حاجاتهم الأساسية، فالأنعام تشكل جانباً مهمًّا في حياتهم، ينسجون أصوافها وأوبارها وأشعارها ثياباً لهم، ويأكلون لحومها، ويُقرونَ أضيافهم، ويشربونَ ألبانَها، وصدق الله تعالى: ﴿وإنَّ لكُمْ في الأنعامِ لَعِبْرَةً نُسْقيكُمْ ممَّا في بُطونِهِ مِن بينِ فَرْثٍ ودَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً للشَّارِبينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿واللهُ جَعَلَ لكُمْ مِن بُيوتِكُم سَكَناً وجَعَلَ لكُم مِن جُلودِ الأنْعـامِ بُيوتـاً تَسْتَخِفُّـونَهـا يومَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إقامَتِكُم ومِن أصْوافِها وأوْبارِها وأشْعارِها أثاثاً ومَتاعاً إلى حينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

لا نعجب إذن أن نجد هٰذه المادة ـ مادة (ف ص ح) ـ يضعها العرب للَّبنِ الذي يُحْلَبُ مِن الأنعام، هٰذا اللبن حينما يحلب تعلوه رغوة، فإذا خلا هٰذا اللبن من الرغوة التي تشـوبـه سـمي فصيحـاً، إذن: (فصـح اللبن)؛ لأنه خلا من الرغوة التي تشوبه وتكدِّره، وذهب كل ما ليس منه.

واستعملت هٰذه الكلمة لتدلَّ على الظهور، والإبانة، والسلامة من كل ما يشوب الشيء ويكدِّره؛ فأفصح الصبح؛ حينما تزول الظلمة التي تختلط بضوئه، ثم أفصح الصبي؛ إذا بدأ يُحْسِنُ النطق بالحروف والكلمات، وأفصح الأعجمي؛ إذا استطاع أن

يتخلص من لكنته القديمة، ويتغلب عليها، وأصبح نطقه بالحروف العربية سليماً صحيحاً، لا تشوبه شائبة.

ثم استعملت الفصاحة فيما بعدُ لتدل على الكلام الظاهر في معناه، الخفيف على لسان من ينطق به، وعلى سمع من يوجّه إليه، ثم صار بعد ذلك للفصاحة فصلها الخاص بها، الذي تُعرف فيه شروطها ومجالاتها من أنواع القول.

■ البلاغة لغة:

أما البلاغة، فيظهر أنها وُضِعَت أول ما وضعت لتدل على الوصول إلى المكان، والنهاية إلى الغاية التي يقصدها العرب في بداوتهم ورحيلهم من مكان إلى مكان.

ثم تطور هٰذا اللفظ ليشمل مع هٰذا المدلول الحسيّ أموراً معنوية ينتهي بها صاحبها إلى ما يريد أن يصل إليه من غايات متعددة.

ولعلَّ ما قيل فيها من تعريفات يؤيِّد ما ذهبتُ إليه، فلم تكن البلاغة محصورةً في القول أولاً، وإن كان القول فيما بعد أصبح أوسع ميادينها، بل ميدانها الوحيد، ولا أود أن أشغلك بهٰذه التعريفات[1]، فهي مبثوثة في كتب كثيرة، وجلُّها مأخوذٌ من كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ[2].

مما تقدم ندرك أنَّ للفصاحة والبلاغة أصلين مختلفين في أول الوضع؛ فالفصاحة وضِعَت للخلوص من الشوائب؛ لأنها وضعت لخلوص اللبن مما عليه من رغوة،

---

(١) قال الأصمعي عن البليغ؛ إنه: «من طبق المفصل، وأغناك عن المفسر».
وقال أبو العتاهية: «البليغ كل من أفهمك من حاجته من غير إعادة».
وقيل: «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه؛ فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك».

(٢) عمرو بن بحر بن ميجبوب الكناني بالولاء الليثي، أبو عثمان، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية، مولده ووفاته في البصرة، فُلِجَ آخر عمره، وكان مشوه الخلقة، ومات والكتاب على صدره، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. مات سنة (٢٥٥ هـ).

والبلاغة للوصول والانتهاء، ففي أول الوضع كانت الكلمة الأولى غير الثانية، ولكن بعد أن تطورتا وأصبحت كل منهما صفة للقول والكلام الجيد؛ رأينا من يمزج بينهما بعد هٰذا التطور، فوجدنا كثيراً من العلماء لا يفرِّقونَ بين الفصاحة والبلاغة، بل يعدُّونهما شيئاً واحداً.

الفصاحة والبلاغة والبراعة والبديع؛ كلها تدل على شيء واحد، وهو الكلام الجيد السهل الذي لا عيب فيه.

توحيد هٰذه الكلمات روعي فيه المدلول الذي تدل عليه، ولم يراعَ فيه أصل الوضع اللغوي، ولا نظن أن هٰذا متفق مع منطق الأشياء، فالتحديد الدقيق، ولمح الفوارق بين الأشياء، ووضع كل شيء في دائرة خاصة؛ كل أولٰئك أمور متأخرة.

حينما ننظر إلى كلمة (فلسفة)؛ نجد أنها كانت تشمل أنواعاً كثيرة من العلوم، ثم بدأت تنفصل عن هٰذه العلوم شيئاً فشيئاً، إلى أن بقي لها موضوعاتها الخاصة ذات الإطار الخاص.

■ الفرق بين الكلمتين على ضوء القرآن الكريم:

الذي يهمنا الآن أن نقرر أن الفرق بين الفصاحة والبلاغة لم يظهر مبكراً، ففي القرن الخامس الهجري نجد ابن سنان الخفاجي[1] في «سر الفصاحة» يفرق بينهما، ولكننا نجد عبدالقاهر[2] ـ رحمه الله ـ لا يفرق بين الفصاحة والبلاغة.

وبعد عبدالقاهر أصبحت التفرقة بين الفصاحة والبلاغة أمراً يكاد يجمع عليه العلماء، وهٰذا هو المسلك الذي نقتنع به، لا لأنه صار أمراً مسلماً ممَّن جاؤوا بعد

---

(١) عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الخفاجي، وُلد سنة (٤٢٣ هـ)، اخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وغيره، مات مسموماً بقلعة عزاز من أعمال حلب سنة (٤٦٦ هـ). [الأعلام: ٤ / ١٢٢].

(٢) عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني الأشعري الشافعي، أبو بكر؛ نحوي، بياني، متكلم، فقيه، مفسر، توفي بجرجان سنة (٤٧١ هـ). [معجم المؤلفين: ٥ / ٣١٠].

عبدالقاهر، فلو كنّا متّبعين مقلِّدين لكانَ حريًّا بنا أن نتّبِعَ شيخَ البلاغةِ؛ جامع شتاتها، وعميد بُناتها، ومزين بَناتها، ولكن لأن الوضع الأول للكلمتين ليس واحداً ـ لما عرفت ـ هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى ـ وهي إن لم تكن أقوى من صاحبتها، فهي مماثلة لها ـ وهي ما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى، والحق أن القرآن ينبغي أن يكون المرجع والفيصل الذي نُهْرَعُ إليه عندما نريد الموازنة بين الكلمات، وعندما نريد المعنى الدقيق والمدلول الواضح، فكتاب الله تعالى هو الأساس في ذٰلك.

وردت مادة (فصاحة) في قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وأخِي هارونُ هُوَ أفْصَحُ مِنِّي لِسانـاً فأرْسِلْهُ مَعي رِدْءاً يُصَدِّقُني إنِّي أخافُ أنْ يُكَذِّبونِ﴾ [القصص: ٣٤].

أما مادة (بلاغة)؛ فلقد وردت في كتاب الله تعالى في آيات كثيرة، لكنها تحدثنا عن أصل الوضع للكلمة، مثل: ﴿وتَحْمِلُ أثقالَكُم إلى بَلَدٍ لمْ تَكونوا بالِغيهِ إلاَّ بشِقِّ الأنْفُسِ﴾ [النحل: ٧]، ﴿حَتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: ٦٠]، ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمسِ﴾ [الكهف: ٨٦]، ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ بَينَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣]، وقد تُحَدِّثنا عن معنى آخر: ﴿ولمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ واسْتَوى﴾ [القصص: ١٤].

ولكن المعنى الذي نريده، والذي نحن بصدده، هو ما جاء في قوله تعالى في سورة النساء حديثاً عن الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إلى النبي ﷺ، وما أُنزل من قبله، ولكنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أُمِروا أن يكفروا به، ويريد الشيطانُ أن يُضِلَّهُم ضلالاً بعيداً؛ يقول الله لنبيه: ﴿أولٰئكَ الذينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في قُلوبِهِم فأعْرِضْ عنهُم وعِظْهُمْ وقُلْ لهُم في أنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَليغاً﴾ [النساء: ٦٣].

هٰذه الآية الكريمة يمكن أن نستعين بها؛ لتلقي لنا ضوءاً على ما يُقصد بالبلاغة، فكلمة (بليغ) جاءت صفة للقول، وهٰذا القول ينبغي أن يكون لهم في أنفسهم.

ونفهم من النص الكريم أن البلاغة إنَّما تكون أول ما تكون في القول الذي لقائله

هدف منه، وأن هٰذا القـول ينبغي أن يكـونَ مؤثِّـراً في النفوس؛ يفتحُ أبوابها، ويهزُّ جوانبها، ولن يكون كذٰلك إلا إذا كانَ متلائماً متَّسِقاً متفقاً مع المخاطبين المتحدث إليهم.

ندرك إذن على ضوء استعمالات القرآن الكريم أن الفصاحة أُسنِدَتْ إلى اللسان، وأن البلاغة غايتها النفوس، من أجل هٰذا فإن اليقين الذي أطمئنُّ إليه يقضي بالتفرقة بين الفصاحة والبلاغة.

ولكن قبل ذكر الفروق بينهما، حريٌّ بنا أن نقفَ عند مدلول كل كلمة من حيث الاصطلاحُ، بعد أن عرفنا الوضع اللغويّ، والتدرج الذي مرَّت به هاتان الكلمتان.

□□□

الفصل الثاني

الفصاحة عند علماء اللغة

إن من أول مَن تحدَّث حديثاً شافياً عن الفصاحة هو ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة»، ومَن بعده اغترفوا منه، ونقلوا عنه، ومِن بعده ابن الأثير[1] في «المثل السائر».

أما عبدالقاهر؛ فمع أنه كان معاصراً لابن سنان، إلا أنّ بحثه ـ كما نعلم ـ كانَ في شيء آخر، كان حديثه عن النظم، ولهذا لم يخصَّ الكلمة باهتمام وكثير بحث، ومع ذلك فهو يرى أن الفصاحة والبلاغة شيء واحد.

من أجل ذلك سنكتفي بالنقل عن ابن سنان وابن الأثير، وسنجد أن الذين جاؤوا بعدَهُما لم يخرجوا عما قرره هذان العالمان، مع الفرق ـ بالطبع ـ بينَ كل مما قرره المتقدمون، وذكره المتأخرون، فالذي ذكره المتأخرون قليل الأمثلة، مختصر العبارة.

يمثِّلُ المتأخرين خيرَ تمثيل الخطيب القزويني[2] صاحبِ «التلخيص»، ويمثل

(١) نصر الله بن محمد الشيباني، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، ولد سنة (٥٥٨ هـ) في جزيرة ابن عمر، وتعلم بالموصل حيث نشأ أخواه، حفظ شعر أبي تمام والبحتري، مات ببغداد سنة (٦٣٧ هـ).

(٢) جلال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أبي دلف العجلي القزويني الشافعي، فقيه، أصولي، محدث، أديب، عالم بالعربية والمعاني والبيان، أصيب بالفالج ومات في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة (٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م).

المتقدمين العَلَمانَ الآنفا الذكر؛ ابن سنان، وابن الأثير.

■ الفصاحة عند صاحب «التلخيص»:

ولن أسير في الترتيب التاريخي والزمني، بل سأبيِّنُ أولاً ما ذكره صاحب «التلخيص»[1]، وإنما اخترناه لأن الذين جاؤوا بعده كانوا عالة عليه.

يقول القزويني في «التلخيص»:

«الفصاحة يوصف بها المفرد، والكلام، والمتكلم».

أولاً: ويبيِّن الفصاحة في المفرد ـ أي: في الكلمة ـ، فيشترط لها شروطاً ثلاثة: الخلو من تنافر الحروف أولاً، والغرابة ثانياً، ومخالفة القياس ثالثاً.

فالتنافر نحو: «غدائره مستشزرات إلى العلى»، والغرابة نحو: «وفاحماً ومرسناً مسرَّجا»، أي: كالسيف السريجيّ في الدقة والاستواء، أو كالسِّراج في البريق واللمعان، والمخالفة نحو: «الحمد لله العليّ الأجلل».

قيل: ومن الكراهة في السمع نحو: «كريم الجِرِشَّى، شريف النسب»، وفيه نظر.

هٰذه هي الفصاحة في الكلمة.

ثانياً: أما فصاحة الكلام، فشروطها كما يذكرها القزويني:

خلوصه من ضعف التأليف، كقوله: «ضرب غلامه زيداً».

وخلوصه من تنافر الكلمات؛ كقوله: «وليس قرب قبر حرب قبر». وقوله:

كَريمٌ متى أمْدَحْهُ أمْدَحْهُ والوَرَى ... معي وإذا ما لُمْتُهُ لُمْتُه وحْدي[2]

وخلوصه من التعقيد، والتعقيد أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد؛

---

(١) «التلخيص في علوم البلاغة»، شرح الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي، (ص ٢٤).

(٢) «ديوان أبي تمام» (١/ ١٠٨).

لخلل إما في النظم؛ كقول الفرزدق[1] في خال هشام:

وما مِثْلُهُ في النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً ... أبو أمِّهِ حيٌّ أبوهُ يُقارِبُهْ[2]

أي: ليس مثله في الناس حي يقاربه، إلا مملَّكاً أبو أمِّه أبوه.

وإما في الانتقال؛ كقول العباس بن الأحنف[3]:

سأطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكُم لِتَقْرُبوا ... وتَسْكُبُ عينايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدا[4]

فإن انتقاله من جمود العين إلى بُخْلها بالدموع، لا إلى ما قصده من السرور.

قيل: ومن كثرة التكرار، وتتابع الإضافات؛ كقوله: «سبوحٌ لها منها عليها شواهد». وقوله: «حمامة جرعى حومةِ الجندلِ اسجَعي». وفيه نظر.

ثالثاً: وأما فصاحة المتكلم؛ فيقول القزويني: «ملكة يُقتدَرُ بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح»[5].

■ توضيح ما قاله القزويني:

ونحن إذا ما أردنا أن نتناول أي كتاب من كتب البلاغة بعد القزويني، حتى لكثير من المؤلفين في هذا العصر، فسوف نجدهم لا يخرجون عن الأمثلة التي ذكرها، بل

---

(١) همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال، المعروف بالفرزدق، أبو فراس، شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة والأخبار، كان شريفاً في قومه، عزيز الجانب، وكان لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً، توفي بالبصرة سنة (١١٠ هـ).

(٢) «ديوان الفرزدق»، تحقيق الصاوي (١ / ١٠٨)، «خزانة الأدب» (٥ / ١٤٦)، «الشعر والشعراء» (٤٧١، ٤٨٢).

(٣) العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي أبو الفضل، شاعر، غزل، رقيق؛ قال فيه البحتري: أغزل الناس. أصله من اليمامة، وكان أهله في البصرة، وبها مات أبوه، توفي سنة (١٩٢ هـ).

(٤) «ديوانه»، تحقيق. عاتكة الخزرجي، القاهرة، مطبعة دار الكتاب المصرية، (ص ١٠٦).

(٥) «التلخيص»، شرح البرقوقي، (ص ٢٨).

نتمنى أن نجد مثالاً واحداً، سواء كان من الأمثلة التي ذكرها المتقدمون، أو مما رمت به أوزار العصر الذي نعيشه من كلمات وتعبيرات، لا تقرها اللغة.

وأظن أن كلام صاحب «التلخيص» بحاجة إلى إبانة وتفصيل.

أولاً: فالكلمة الفصيحة عنده لا بد أن تكون خالية من تنافر الحروف، وهي الحروفُ المتقاربة المخارج، ومثَّل لذلك بكلمة (مستشزرات) في قول امرىء القيس[1]:

غَدائِرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلى تَضِلُّ المَدارَى في مُثَنًّى ومُرْسَلِ[2]

يقول: إن غدائر الشعر - جمع غديرة، وهي ما تسمى بالعقاص، جمع عقصة، ويقال لها: خَصْلة - مرتفعةٌ، حركته الريح، فبقي بعضه كما هو مرسلاً، وتثَنَّى بعضه الآخر، فكلمة (مستشزرات) غير فصيحة؛ لثقلها على اللسان، وهٰذا الثقل إنما جاء من تقارب مخارج حروف هٰذه الكلمة[3].

---

(١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي من بني آكل المرار، شاعر يماني الأصل، ولد بنجد أو بمخلاف السكاسك باليمن، اشتهر بلقبه، كان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر، وعنه أخذ الشعر. [معجم المؤلفين: ٢ / ٣٢٠].

(٢) «الديوان» (ص ١٧).

الغدائر: ذوائب الشعر. مستشزرات إلى العلا. مفتولات إلى فوق. والشزر من الفتل: ما أدبرت به عن صدرك.

(٣) وربما زاد في ذٰلك كثرة حروفها، فهي ثمانية أحرف، وقد ذهب بعض الكاتبين المحدثين - وهو صاحب «البلاغة العربية في ثوبها الجديد» - إلى أن النقاد والبلاغيين جاروا على امرىء القيس حينما عدُّوا هٰذه الكلمة غير فصيحة، بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذٰلك، وهو أن امرأ القيس قد وفّق كل التوفيق في اختيار هذه الكلمة! ذٰلك - كما يقول - لأن:

«هٰذه الصورة الخاصة المتميزة تتفق كل الاتفاق، وكلمة (مستشررات) بما فيها من حركة لسان مضطربة؛ لأن في شعر الفتاة ومحاولة تنظيمه اضطراباً، وتنظيمه لا يكون إلا في حركات صغيرة خفيفة سريعة» (ص ٣٣).

وهٰذا اتجاه لا نوافق الكاتب عليه؛ لأن اختيار الكلمة الملائمة للحركة والمعنى لا ينبغي أن =

أمـا الشرط الثاني: فهو خلو الكلمة من الغرابة، ومثَّل له صاحب «التلخيص» ـ كما رأينا ـ بكلمة (مسرَّج)، ويعني به قول العجَّاج[1]:

أزْمـانَ أبْـدَتْ واضِـحـاً مُفَـلَّجـاً ... أغَـرَّ بَرَّاقـاً وطَـرْفـاً أبْـرَجـا
ومُـقْـلَةً وحـاجِـبـاً مُزَجَّـجـا ... وفـاحِـمـاً ومَـرْسِـنـاً مُسَـرَّجـا[2]

وجاءت غرابة الكلمة من خفاء معناها الذي يقصده الشاعر، فالواضح المفلج، والطرف الأبلج، والحاجب المزجج؛ كل ذٰلك واضح المعنى، قريب المنال، سهل المعرفة، أما المَرْسِن المُسَرَّج؛ والمَرْسِنُ هو الأنف، فما معنى أن يكون الأنف مسرَّجاً؟!

قال بعضهم: إنـه من السراج الذي يعطي الإضاءة والنور، فكأنه يصف أنفها بالضوء واللمعان، وقال بعضهم: إنه منسوب إلى السيف السُّريجي، فهو وصف للأنف بالدقة.

وهذا المثال تناقله المؤلفون واحداً بعد واحد، مع أن هناك أمثلة كثيرة قد تكون أكثر خفاء من هٰذا، فهي أولى منه بالنقل.

يتحمل وزره المستمع، فيمكن أن تُختار كلمة سهلة ميسرة النطق.

ويقارن بين هٰذه الكلمة وبين كلمة (اثَّاقَلْتُمْ) في الآية الكريمة، مع أن كلمة (اثَّاقلتم) بقدر ما فيهـا من دقـة التعبير وحسن التصوير فيها من الخفة كذٰلك. أما كلمة امرىء القيس، فعلى التسليم بأن فيها تصويراً جيداً، فإن هٰذا لا يذهب ثقلها على اللسان.

ومعنى (مستشزرات): مرتفعات. والمداري: جمع مدراة، والمراد بها المشط.

(١) رؤبة بن العجاج البصري التميمي، أبو محمد؛ شاعر، راجز، توفي سنة ١٤٥هـ، وقد أسن. [معجم المؤلفين: ٤ / ١٧٣].

(٢) «ديوانه» (ص ٣٦٠).

واضـح: أي ثغـر أبيض واضـح. والمفلج: الثغر الذي ليس بعض أسنانه قريباً من بعض. والأغر: الأبيض. والبرج في العين: كثرة بياضها وسعتها، وإنما يكون ذٰلك إذا كانت العين واسعـة. والمـزجَّج: الطويل السابغ. ونعامة زجَّاء: طويْلة. والمرسن: الأنف كله، وموضع الرسن من الأنف. والمسرج: المحسن.

وأما مخالفة القياس، ويعني به القياس الصرفي؛ أي: مخالفة علم الصرف، ومثّل له ببيت أبي النجم فضل بن قدامة[1]:

الحَمْدُ للهِ العَلِيِّ الأَجْلَلِ   الواحِدِ الفَرْدِ القديمِ الأَزَلي[2]

لأن النطق الصحيح للكلمة: الأجلّ، وهٰكذا يقال في كل كلمة مضعفة كالأغر والأجلّ والأمرّ، فلا يقال: الأغرر، والأجلل، والأمرر.

هٰذه الشروط الثلاثة التي اشترطها صاحب «التلخيص» لفصاحة الكلمة المفردة.

وهناك شرطٌ رابعٌ: وهو ثقل الكلمة على السمع، ومثّل له بـ (الجرشّى) في قول المتنبي[3]: «كريم الجرشّى»[4]، والجرِشّى هي النفس، وكأنه لم يعجبه هذا الشرط، ولهٰذا قال: فيه نظر.

ثانياً: أما فصاحة الكلام؛ فقد اشترط له بعد فصاحة مفرداته أن يَخْلُصَ الكلام من ضعف التأليف، وهو مخالفة قواعد النحو، ومثّل له بقوله: «ضرب غلامه زيداً»، وإنما خالف هٰذا المثال القاعدة النحوية؛ لأن (ضرب) فعل ماض، وغلام فاعل، وغلام مضاف، والهاء مضاف إليه، وهو يعود على زيد، (وزيداً) مفعول به، ورتبة المفعول

---

(١) الفضل بن قدامة العجلي أبو النجم من بني بكر بن وائل، من أكابر الرجّاز، ومن أحسن الناس إنشاداً، نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبدالملك بن مروان وولده هشام، توفي سنة (١٣٠ هـ). [الأعلام: ٥ / ١٥١].

(٢) «معاهد التنصيص» (١ / ١٩).

(٣) أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي المعروف بالمتنبي؛ أبو الطيب، شاعر، حكيم، وُلد بالكوفة، ونشأ بالشام، وأكثر المقام بالبادية، وطلب الأدب وعلم العربية، فاق أهله عصره في الشعر، واتصل بسيف الدولة الحمداني، وقُتل بالقرب من العمانية في رمضان [معجم المؤلفين: ١ / ٢٠١].

(٤) في قوله:

مُبارَكُ الاسمِ أَغَرُّ اللَّقَبِ   كَريمُ الجِرِشَّى شَريفُ النَّسَبِ

والجرشى: النفس. وسيأتي

متأخرة عن رتبة الفاعل؛ لأن الترتيب الطبيعي أن يأتي الفاعل أولاً، ثم المفعول ثانياً، والضمير هنا تقدم على صاحبه.

والنحويون مجمعون على أن الضمير لا يجوز أن يتقدم؛ لأن رجوع الضمير إلى المفعول المتأخر في اللفظ منعه الجمهور؛ لأنه يلزم منه أن يرجع إلى ما هو متأخر لفظاً ورتبة، والمسألة مبسوطة في علم النحو، وليس محلها هنا.

وأما تنافر الكلمات فقد مُثل له بقول القائل:

وقبرُ حَرْبٍ بمَكانٍ قَفْر ... ولَيْسَ قُرْبَ قبرِ حَرْبٍ قبر

والتنافر في الشطر الثاني من البيت، فلو أخذنا كلماته كلًّا على حِدة، وهي: (قبر)، و(حرب)، و(قرب)؛ لوجدناها جميعاً كلمات فصيحة خفيفة النطق، لا يجد السامع فيها عيباً؛ لكن ضم بعضها إلى بعض هو الذي أكسبها الثقل، وذلك لتقارب حروف كلماتها.

وأذكر أن الناس يتندرون في جمع مثل هذه الكلمات المتقاربة الأحرف، فلا زلنا نسمع كلمات يتندر بها الناس، مثل قولهم: «ليرة ورى ليرة»، وفي كل بيئة جمل اصطلح الناس عليها؛ جمل مشابهة لهذه الجملة، يتفكَّهُ بها الناس.

كما مثل له ببيت أبي تمام[1]:

كريمٌ مَتى أمْدَحْهُ أمْدَحْهُ والوَرى ... مَعي وإذا ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وحْدي[2]

والثقل - كما ترى - في الشطر الأول من هذا البيت أخف من سابقه، وهو إنما جاء من الحاء والهاء في (أمدحه)؛ لأن مخرجهما واحد، وهو الحلق.

(١) حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي، أبو تمام، وُلد سنة (١٩٠ هـ)؛ شاعر، أديب، ولد بجاسم من قرى حوران سورية، ونشأ بمصر، كان في حداثته يسقي الماء في المسجد، ثم جالس الأدباء، فأخذ عنهم، وتعلم منهم، توفي بالموصل سنة (٢٣١ هـ) [معجم المؤلفين: ٣ / ١٨٣].

(٢) «الديوان» (١ / ١٠٨).

أما الشرط الثالث لفصاحة الكلام، فهو خلوه من التعقيد، والتعقيد أن يسلك بك المتكلم مسلكاً وعِراً، فيَعْسُر عليك أن تصل إلى غايتك ومرادك، وقسَّمَه قسمين كما رأينا؛ إما من حيث اللفظ، وإما من حيث المعنى.

فالوعورة من حيث اللفظ مثَّل لها بقول الفرزدق:

ومَـا مِثْـلُهُ في النَّـاسِ إلا مُمَـلَّكـاً أبـو أُمِّـهِ حَيٌّ أبـوهُ يُقـارِبُـهْ

والفرزدق كثيراً ما يسلك هٰذه المسالك الوعرة. والبيت مدح لإبراهيم بن هشام المخزومي؛ وهو خال الخليفة هشام بن عبدالملك.

ويريد الفرزدق أن يقول: وما مثل إبراهيم المخزومي حيٌّ يقاربه في الناس إلا مملَّكاً ـ وهو الخليفة هشام ـ أبو أم هٰذا المملك ـ يعني: أبو أم الخليفة ـ أبو إبراهيم، فجدُّ الخليفة إذن أبو إبراهيم، إبراهيم إذن خال الخليفة.

فانظر أي مسلك وعر سلكه الفرزدق؛ فأولاً فصل بين المبتدإ ـ وهو (مثل) ـ وخبره ـ وهو (حيٌّ) ـ، وفصل بين الموصوف ـ وهو (حي) ـ وبين الصفة ـ وهي (يقاربه) ـ وهٰذا لا يجوز. ثم فصل بين المبتدإ الثاني ـ وهو (أبو أمه) ـ وبين خبره ـ وهو (أبوه) ـ بكلمة (حي)؛ لأن التقدير: أبو أمه أبوه، أي: أبو أم الخليفة أبو الممدوح، ثم قدم المستثنى ـ وهو (مملكاً) ـ على المستثنى منه ـ وهو (حي يقاربه) ـ. قل لي بربك: كيف يمكن أن تصل إلى معنى هذا البيت؟!

أما القسم الثاني من التعقيد، فهو ما كانت الوعورة فيه راجعة إلى الانتقال، أي إلى المعنى، ومثل له ببيت عباس بن الأحنف:

سأَطْلُبُ بُعْـدَ الـدَّارِ عنكُمْ لِتَقْـرُبـوا وتَسْكُبُ عَيْنـايَ الـدُّمـوعَ لِتَجْمُـدا

فالشـاعر يطلب البعد، وذٰلك لما فيه من ألم ومرارة؛ فربَّما دفعت مرارة البعد صاحبهـا، وهو يكابد فيها ويتحمل ما لا طاقة له به، ربما دفعته إلى القرب؛ لأنه لا يستطيع أن يكتوي بنار هٰذا البعد، وأن يتجرع كأسه المملوءة بالصبر، وهذا لا غبار عليه.

أما قوله: «وتسكب عيناي الدموع لتجمدا»، فهٰذا الذي عيب عليه. لماذا؟ لأن الشاعر يريد أن يقول: سأظل أبكي، تذرف عيناي الدموع، وتسكب العبرات، حتى نلتقي، فتتوقفان عن البكاء؛ فعبَّر عن فرحة اللقاء، والتوقف عن البكاء؛ عبَّر عنه بجمود العينين، وهنا موطن الخطإ والعيب؛ لأن الجمود ليس عدم البكاء عند لقاء الحبيب، إنما الجمود داء يصيب العينين فلا تستطيعان البكاء مع شدة الحاجة إليه.

فلقد أراد الشاعر أن يعبِّر عن معنى، فاستعمل كلمة في شعره لا تدل على هٰذا المعنى، بل تتناقض معه كل التناقض، وهٰذا البيت هو الذي نجده لكل الذين كتبوا في البلاغة بعد صاحب «التلخيص». هذا ما ذكره المتأخرون عن الفصاحة.

■ الفصاحة عند ابن سنان:

ونودُّ الآن أن نطلعك علىٰ ما قاله المتقدمون على صاحب «التلخيص»، كي ندرك الفرق الشاسع والبون البعيد بين اللاحق والسابق، فقد عقد ابن سنان الحفاجي في كتابه «سر الفصاحة» فصولاً إضافية تحدث فيها عن صفات الحروف، ومخارجها، وفصاحة اللفظة المفردة، والألفاظ المؤلفة

والفصاحة عنده: «الظهور والبيان»[1]، والفرق بينها وبين البلاغة أن «الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها: بليغة، وإن قيل فيها؛ فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً»[2].

ولكي تكون اللفظة الواحدة فصيحة، ينبغي أن تتوفر فيها بعض الشروط؛ قال:

«إن الفصاحة على ما قدمنا نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط، فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها

---

(١) «سر الفصاحة» (ص ٥٩)

(٢) «سر الفصاحة» (ص ٦٠).

تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم، وتلك الشروط تنقسم إلى قسمين:

فالأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ، وتؤلف معه.

والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض»(1).

فأما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فثمانية أشياء:

الأول: أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج، وعلّة هٰذا واضحة؛ وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جُمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهٰذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة؛ لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود.

وإذا كان هٰذا موجوداً على هذه الصفة، لا يحسن النزاع فيه؛ كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة، وقد قال الشاعر في هٰذا المعنى:

فالوجهُ مِثْلُ الصبحِ مبيَضٌّ ... والفَرْعُ مِثْلُ الليلِ مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لمَّا آسْتَجْمَعا حَسُنا ... والضِدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ(2)

وهٰذه العلة يقع للمتأمل وغير المتأمّل فهمها، ولا يمكن منازع يجحدها، ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير، جلُّ كلامِ العربِ عليه، فلا يُحتاجُ إلى ذكره.

---

(1) «سر الفصاحة» (ص ٦٥).

(2) في نسبة القصيدة التي منها البيتان اختلاف كبير، وهما مما يُعرف بالدعدية التي نسبت لدوقلة المنبجي، ومنها:

لهفي على دعدٍ وما خُلِقتْ ... إلّا لِطولِ تَلَهُّفي دَعْدُ

«أشعار أبي الشيص»، تحقيق: عبدالله الجبوري، (ص ٤٥).

فأما تأليف الحروف المتقاربة، فقد قدَّمنا في الفصل الرابع مثالاً حكي منه، وهو الهعخع.

ولحروف الحلق مزيَّةٌ في القبح إذا كان التأليف منها فقط، وأنت تدرك هٰذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الأمزجة من الألوان، وبعض النَّغَم من الأصوات».

الثاني: أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حُسناً ومزيَّةً على غيرها، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة، كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حسناً يُتصور في النفس، ويُدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه؛ كل ذٰلك لوجه يقع التأليف عليه.

ومثاله في الحروف (ع ذ ب)، فإن السامع يجد لقولهم: العُذيب اسم موضع، وعذيبة اسم امرأة، وعَذْبٌ، وعذَبَ، وعَذاباتٌ؛ ما لا يجده فيما يقارب هٰذه الألفاظ في التأليف، وليس سبب ذٰلك بُعد الحروف في المخارج فقط، ولكنه تأليف مخصوص مع البعد، ولو قدمت الذَّال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير.

وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصناً أو فنناً أحسن من تسميته عسلوجاً، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشَّوْحَط في السمع.

ويُقال لمن عساه ينازعنا في ذٰلك: لو حضرك مغنيان، وثوبان منقوشان مختلفان في المزاج؛ هل كان يجوز عليك الطرب على صوت أحد المغنيين دون صاحبه، وتفضيل أحد الثوبين في حسن المزاج على الآخر؟! فإن قال: لا يصح أن يقع لي ذٰلك؛ خرج عن جملة العقلاء، وأخبر عن نفسه بخلاف ما يجد، وإن اعترف بما ذكرناه؛ قيل له: فخبِّرنا ما السبب الذي أوجب عليك ذٰلك؟ فإنه لا يجد أمراً يشير إليه إلا ما قلناه في تفضيل إحدى اللفظتين على الأخرى.

وقد يكون في هٰذا التأليف المختار في اللفظة على جهة الاشتقاق، فيحسُن أيضاً كل ذٰلك؛ لما قدمته من وقوعه على صفة لم يسبق العلم بقبحها أو حسنها، من غير

المعرفة بعلتها أو بسببها، ومثال ذٰلك مما يختار قول أبي القاسم الحسين بن علي المغربي[1] في بعض رسائله: «ورعوا هشيماً تأنفت روضه»، فإن تأنفت كلمة لا خفاء بحسنها؛ لوقوعها الموقع الذي ذكرته، كذٰلك قول أبي الطيب المتنبي:

إذا سارَتِ الأحْـداجُ فَوْقَ نَبـاتِـهِ تَفَـاوَحَ مِسْـكُ الغَـانِياتِ ورَنْـدُهُ[2]

فإن (تفاوح) كلمة في غاية الحسن.

وقد قيل: إن أبا الطيب أول من نطق بها على هٰذا المثال، وإن وزير كافور الإخشيدي سمع شاعراً نظمها بعد أبي الطيب، فقال: أخذتموها!

ومثال ما يُكره قول أبي الطيب أيضاً:

مُبـارَكُ الإسْـمِ أغَـرُّ الـلَّقَـبْ كَرِيمُ الجِـرِشَّى شَريفُ النَّـسَبْ[3]

فإنك تجد في (الجِرِشَّى) تأليفاً يكرهه السمع، وينبو عنه.

ومثل ذٰلك قول زهير بن أبي سُلمى[4]:

---

(١) الحسين بن علي بن الحسين المعروف بالوزير، أبو القاسم؛ أديب، ناثر، شاعر، مشارك في أنواع من العلوم، وفي الوزارة، ولد سنة (٣٧٠ هـ)، وتوفي بميافارقين سنة (٤١٨ هـ)، وحُمل تابوته إلى الكوفة، فدُفن بقرب المشهد. [معجم المؤلفين: ٤ / ٣٠].

(٢) «الديوان» (١ / ١٢٠).
الأحداج: مراكب النساء فوق الإبل كالهوادج، جمع حدج، وهو جمع قلة، وجمع الكثرة: حدوج. الرند: نبات من شجر البادية، يشبه الآس. إذا سارت مراكبهن فوق نبات هٰذا الوادي ـ وهو الرند ـ تضمخت بالمسك.

(٣) يمدح سيف الدولة بأنه مبارك الاسم؛ لأن اسمه علي ـ وهو مشتق من العلو ـ وأغر اللقب؛ لأنه سيف الدولة، وقد اشتهر هٰذا اللقب، فهو أغر، أي: متعال مشهور. كريم الجِرِشَّى: أي النفس. وشريف النسب: لأنه من ربيعة، وهم كرام شرفاء، وكلمة (الجرشى) من قبيح ألفاظه. «الديوان» (١ / ٢٢٧).

(٤) زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رباح المزني من مضر، حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، =

تَقِـيٌّ نَقِـيٌّ لم يُكَـثِّـرْ غَنـيمَـةً بِنَـكْـهَـةِ ذي قُربـى ولا بحَـقَـلَّدِ[1]

و (الحقلَّدُ)؛ كلمة توفي على قبح (الجِرِشَّى) وتزيد عليها.

الثـالث: أن تكون الكلمة ـ كما قال أبو عثمان الجاحظ ـ غير متوعرة وحشية، كقول أبي تمام:

لَقَـدْ طَلَعَتْ في وَجْـهِ مِصْـرَ بوجْهِـهِ بلا طائِـرٍ سعـدٍ ولا طائِـرٍ كَهْـلِ[2]

فإن (كهـلًا) ها هنـا من غريب اللغـة، وقد روي أن الأصمعي لم يعرف هٰذه الكلمة، وليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين، وهو قول أبي خِراش الهُذلي[3]:

فَلَوْ كانَ سلْمَـى جارَهُ أو أجـارَهُ رِبـاحُ بنُ سعـدٍ ردَّهُ طائِـرٌ كَهْـلُ[4]

وقـد قيل: إن الكهـل الضخم، و (كهـل) كلمة ليست بقبيحة التأليف؛ لكنها وحشية غريبة، لا يعرفها مثل الأصمعي.

ومن ذلك أيضاً ما يُروى عن أبي علقمة النحوي من قوله: «ما لكم تتكَأْكؤونَ عليَّ تَكَأْكُؤكُم على ذي جِنَّةٍ افرنقعوا عني»؛ فإن (تتكأكؤون) و (افرنقعوا) وحشيٌّ، وقد جمع لعمري العلتين، مع قبح التأليف الذي يمجُّه السمع والتوعر.

الـرابع: أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية؛ كما قال أبو عثمان أيضاً، ومثال

وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. وُلد في بلاد مزينة بنواحي المدينة، وتوفي (١٣ ق. هـ). [الأعلام: ٣ / ٥٢].

(١) «الديوان» (ص ٢٤)، دار صادر، بيروت.

الحقلد: البخيل، السيىء الخلق. أراد: وليس بحقلد.

(٢) «ديوان أبي تمام بشرح التبريزي» (٤ / ٥٢٣).

(٣) خُويلد بن مرة من بني هذيل من مضر، شاعر مخضرم، وفارس فاتك مشهور، أدرك الجاهلية والإسلام، واشتهر بالعدو، فكان يسبق الخيل، أسلم وهو شيخ كبير، وعاش إلى زمن عمر، توفي سنة (١٥ هـ).

(٤) «ديوان الهذليين» (٣ / ١٢٣٨).

الكلمة العامية قول أبي تمام:

جليت والمَـوْتُ مُبْـدٍ حُرَّ صَفْحَتِـهِ وقَـدْ تَفَـرْعَنَ في أفْعـالِـهِ الأجَـلُ[1]

فإن (تفرعن) مشتق من اسم فرعون، وهو من ألفاظ العامة، وعادتهم أن يقولوا: تفرعن عن فلان؛ إذا وصفوه بالجبريَّة.

ومن قول أبي نصر عبدالعزيز بن نباتة[2]:

أقَـامَ قُوامُ الـدِّينِ زَيْغَ قَنـاتِـهِ وأنْـضَـجَ كَيُّ القَـرْحِ وهُـو فَطيرُ[3]

فتأمل لفظة (فطير)؛ تجدها عامية مبتذلة، وإن كانت - لعمري - قد وقعت هنا موقعاً لو كانت فصيحة هجنها وأذهب طلاوتها، كيف وهي ما تراه؟!

الخامس: أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح، غير شاذة، ويدخل في هٰذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة، وقد يكون ذٰلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية، كما أنكروا على أبي الشيص[4] قوله:

وجَنـاحُ مَقصـوصٍ تَحَيَّفَ ريشَـهُ رَيْبُ الـزَّمـانِ تَحَيُّفَ المِقْـراضِ[5]

وقالوا: ليس المقراض من كلام العرب.

---

(1) «ديوان أبي تمام» (ص ٢٢٨)، محيي الدين الخياط.
الحر: ما ظهر من الوجه.

(2) عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباته، أبو نصر؛ شاعر ولد سنة (٣٢٧ هـ)، طاف البلاد، ومدح الملوك والوزراء والرؤساء، وله في سيف الدولة الحمداني القصائد والمدائح، توفي في بغداد في شوال سنة (٤٠٥ هـ). [معجم المؤلفين: ٥ / ٢٥٥].

(3) «الديوان» (٢ / ٤٢٥)، تحقيق: عبدالأمير مهدي حبيب الطائي.

(4) محمد بن علي بن عبدالله بن رزين بن سليمان المعروف بأبي الشيص، أبو جعفر؛ شاعر، من آثاره «ديوان شعره» عمله أبو بكر الصولي. [معجم المؤلفين: ١١ / ٢٣].

(5) «أشعار أبي الشيص الخزاعي»، جمع عبدالله الجبوري، (ص ٧٤).

وتبعه أبو عبادة، فقال[1]:

وأَبَـتْ تَرْكِـيَ الـغَـدَياتِ والآصـا ... صالَ حتى خَضَبْتُ بالمِقْـراضِ[2]

فعابوه[3] عليهما معاً.

وقد تكون الكلمة عربية، إلا أنها قد عُبِّرَ بها عن غير ما وُضعت له في عرف اللغة، كما قال أبو تمام:

حَلْتْ مَحَـلَّ البِكْـرِ مِن مُعْطىً وقدْ ... زُفَّتْ مِن الـمُعْـطى زَفـافَ الأيِّمِ[4]

وقال أبو عبادة:

يَشُـقُّ عليهِ الـريحُ كُلَّ عشـيَّةٍ ... جُيوبَ الـغَـمـامِ بينَ بكـرٍ وأيِّمِ[5]

فوضع الأيِّمَ مكان الثَّيِّب، وليس الأمر كذلك، ليس الأيِّمُ الثيِّبَ في كلام العرب، إنما الأيِّمُ التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيِّباً.

قال الله عز وجل: ﴿وأَنْكِحُوا الأيامَى مِنْكُم والصَّالِحينَ مِن عِبادِكُم وإمائِكُم﴾ [النور: ٣٢]، وليس مراده تعالى نكاحَ الثيِّبات من النساء دون الأبكارِ، وإنما يريد النساء اللواتي لا أزواجَ لهن.

وقال الشمَّاخ بن ضرار[6]:

---

(١) الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملان بن جابر بن مسلمة البحتري؛ أبو عبادة، ولد سنة (٢٠٦ هـ)، أديب، شاعر، فصيح بليغ، ولد بمنبج من أعمال حلب، وبها نشأ، توفي سنة ٢٨٤هـ. [معجم المؤلفين: ١٣ / ١٧٠].

(٢) «ديوان البحتري»، تحقيق الصيرفي، (٢ / ١٢٠٨).

(٣) لعل الصحيح: فعابوها، أي: كلمة (المقراض).

(٤) «ديوان أبي تمام»، ضبط الأديب شاهين عطية، دار الكتب العلمية، (ص ٢٩٥)

(٥) «ديوان البحتري»، تحقيق الصيرفي، (٣ / ١٩٤٥).

(٦) الشمَّاخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وشهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان. [معجم المؤلفين: ٤ / ٣٠٦].

يُقِـرُّ بعَـيْنِـي أنْ أُنَـبَّـأَ أنَّـهـا	وإنْ لمْ أَنَـلْهـا أَيِّمٌ لم تَزَوَّجِ[1]

وليس يسرُّه أن تكون ثيباً[2].

السادس: أن لا تكون الكلمة قد عُبِّر بها عن أمر آخر يُكره ذكره، فإذا أُوردت وهي غير مقصود بها ذٰلك المعنى قبُحَتْ، وإن كملت فيها الصفات التي بيَّنَّاها، ومثال هٰذا قول عروة بن الورد العبسي[3]:

قلتُ لقـوم في الـكَـنيفِ تَرَوَّحـوا	عشِيَّةَ بِتْـنـا عنْـدَ ماوانَ رُزَّحِ[4]

والكنيف أصله الساتر، ومنه قيل للترس: كنيف. غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهرتها[5]، فأنا أكرهه في شعر عروة، وإن كان ورد مورداً صحيحاً؛ لموافقة هٰذا العرف الطارىء.

على أن لعروة عذراً، وهو جواز أن يكون هٰذا الاستعمال حـدث بعده، بل لا شك

---

(١) «ديوان الشماخ بن ضرار»، تحقيق: صلاح الدين الهادي، (ص ٧٦)، «البيان والتبيين» (١ / ٢٨١)، «الأغاني» (٨ / ٩٧).

(٢) فعيب البيتين السابقين أن جعل الأيمَ مقابل البكرِ، مع أن مقابل البكرِ الثيبُ؛ قال تعالى: ﴿ثَيِّباتٍ وأَبْكاراً﴾ [التحريم: ٥] فالعيب ليس في الكلمة، بل في المعنى الذي استعملت له، وهٰذا شبيه بالتعقيد المعنوي الذي مثَّل له صاحب «التلخيص» بقوله: وتسكب عيناي الدموع لتجمدا.

(٣) عروة بن الورد العبسي من غطفان، من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجوادها، كان يلقب بعروة الصعاليك؛ لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم.
وقال عبدالملك بن مروان: من قال إن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد. [الأعلام ٤ / ٢٢٧].

(٤) «الديوان» (ص ٢١).
تروحوا: ساروا بالرواح عشية. ماوان: واد فيه ماء فيما بين النقرة والربذة. رزَّح: قد سقطن من الإعياء، وهو نعت قوم.

(٥) لعل هنا ساقط، أي: لا تخفى. أي: استعمال الكنيف لما تقضى به الحاجة أمر مشتهر في العرف.

أنه كذلك؛ لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار، فهو ـ وإن كان معذوراً غير ملوم ـ فبيته مما يصح التمثيل به[1].

السابع: أن تكون الكلمة معتدلة، غير كثيرة الحروف؛ فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت، وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة، ومن ذلك قول أبي نصر بن نباته:

فإيَّاكُمُ أنْ تَكْشِفُوا عن رُؤوسِكُم ... ألا إنَّ مَغْناطِيسَهُنَّ الذَّوائِبُ[2]

فـ (مغناطيسهن) كلمة غير مرضية؛ لما ذكرته، وإن كان فيها أيضاً عيوب أُخر مما قدَّمناه.

الثامن: أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عُبِّر بها فيه عن شيء لطيف، أو خفي، أو قليل، أو ما يجري مجرى ذلك، فإني أراها تحسُنُ به، ومثال ذلك قول الشريف الرضي[3] رحمه الله:

يُولِعُ الطَّلُّ بُرْدَيْنا وقد نَسَمَتْ ... رُوَيْحَةُ الفَجْرِ بينَ الضالِ والسَّلَمِ

فلما كانت الريح المقصودة هنا نسيماً مريضاً، حَسُنَت العبارة عنه بالتصغير، وكانت للكلمة طلاوة وعذوبة.

---

(١) ويبدو لنا أن في بيت عروة بن الورد العبسي عيب آخر غير ما ذكره ابن سنان الخفاجي، وهذا العيب هو الفصل بين الموصوف والصفة بكلام طويل يصعب على كثير من الناس إدراكه، فقد فصل عروة بن الورد بين كلمة (قوم) ـ وهي الموصوف، وقد وردت في أول الشطر الأول تقريباً ـ وبين صفتها ـ وهي كلمة (رزَّح)، وقد وردت في آخر الشطر الثاني ـ.

(٢) «ديوانه»، تحقيق: عبدالأمير الطائي، (ص ٣)
أراد ما يجذب، والمغناطيس: حجر يجذب الحديد.

(٣) الشريف الرضي؛ محمد بن الحسين بن موسى أبو الحسن، ولد سنة (٣٥٩ هـ) ببغداد، عالم، أديب، شاعر، تولى نقابة الطالبيين ببغداد، وتوفي فيها في ١٦ محرم سنة (٤٠٦ هـ)، ودفن في داره بمسجد الأنباريين. [معجم المؤلفين: ٩ / ٢٦١].

ومن ذٰلك قول المخزومي(1):

وغـابَ قُمَـيْرٌ كُنْتُ أَهْـوى غُيوبَـهُ ... وروَّحَ رُعْـيانٌ ونَـوَّمَ سُمَّـرُ(2)

فإنما جعله قُميراً؛ لأنه كان هلالاً غير كامل، ويمكن الدلالة على ذٰلك بقوله: إنه غاب في أول الليل وقت نوم السمّر، والقمر إذا كان هلالاً غاب في ذٰلك الوقت بلا شك، وهٰذا تصغير مختار في موضعه.

ولا أختار التصغير في قول أبي الطيب:

إذا عَذَلـوا فيهـا أَجَبْـتُ بأَنَّـةٍ ... حُبَـيِّبَـتـا قَلْبـاً فؤاداً هَيا جُمْـلُ(3)

لأنه عار من الوجه الذي ذكرته(4).

ويتكلم ابن سنان عن القسم الثاني، وهو المركب، فيشترط له شروطاً:

أولها: أن لا يكون في الكلمات حروف متقاربة، وهو ما اشترطه في القسم الأول، ويمثل به بهٰذين البيتين:

لو كُنْتَ كُنتَ كَتَمْتَ الحُبَّ كنتَ كَمـا ... كُنَّا وكـنـتَ ولـكـن ذاك لـم يَكُنْ

وأنشد أبو تمام أحمدَ بن أبي داود:

---

(1) عمر بن عبدالله بن عمرو بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن المخزوم القرشي؛ أبو حفص بن أبي ربيعة، ولد سنة (23 هـ) في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب، فسمي باسمه، شاعر مشهور، غزا في البحر، فاحترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقاً وقد قارب السبعين أو جاوزها وذلك سنة (93 هـ). [معجم المؤلفين: 7 / 294].

(2) «ديوانه»، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (ص 96).

(3) «الديوان» (3 / 298).

عذلوا: لاموا. أنَّة: فعلة من الأنين. يريد: إني لا ألتفت، ولا أزيد على الأنين ودعاء المحبوب ليغيثني مما أنا فيه.

(4) (ص 65 - 83). وخلاصة هٰذا أن ابن سنان يجعل التصغير له شأنه في فصاحة الكلمة إذا كان له سر وسبب، أما إذا لم يكن كذٰلك؛ كبيت المتنبي، فليس بمقبول؛ ومن ذٰلك قول لبيد:

وكـل أنـاس سوف تدخـل بيتـهم ... دويهـيـة تصفـر منهـا الأنـامـل

فالـمَـجْـدُ لا يَرْضـى بأنْ تَرْضى بأنْ يرضى المؤمِّـلُ منـكَ إلا بالـرِّضى[1]

ويشترط شرطاً آخر، وهو أن لا يكون في الكلام تقديم وتأخير، ويمثل له بقول الفرزدق المتقدم:

ومـا مِثْلُهُ في النَّـاسِ إلَّا مُمَلَّكـاً أبـو أُمِّهِ حيٌّ أبـوهُ يُقـاربُه[2]

وأن لا يكون الكلام مقلوباً؛ فيُفسد المعنى، ويصرفه عن وجهه، ويمثل له بقول عروة بن الورد العبسي:

فَلَوْ أنِّـي شَهِـدْتُ أبـا سُعـادٍ غَداةَ غَدٍ لِمُـهْـجَـتِـهِ يَفُـوقُ
فَدَيْتُ بنَـفْـسِـهِ نفـسـي ومـالـي ومـا آلـوكَ إلا ما أُطـيقُ[3]

ويُريد أن يقول: فديتُ نفسي بنفسه.

ومن وضع الألفاظ في موضعها حسن الاستعارة.

ومن وضع الألفاظ في موضعها أن لا تقع الكلمة حشواً، وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن، أو تناسب القوافي وحروف الروي، وقصد السجع، وتأليف الفصول من غير معنى تفيده، وهٰذه لا تخلو من قسمين:

إما أن تكون أثرت في الكلام تأثيراً لولاها لم يكن يؤثر، أو لم تؤثر، بل دخولها فيه كخروجها منه، وإذا كانت مؤثرة فهي على ضربين:

أحدهما: أن تفيد فائدة مختارة، يزداد بها الكلام حسناً وطلاوة.

والآخر: أن تؤثر في الكلام نقصاً، وفي المعنى فساداً.

والقسمان مذمومان، والآخر هو المحمود، وهو أن تفيد فائدة، فمثال الكلمة التي

---

(١) «ديوان أبي تمام بشرح التبريزي» (٢ / ٣٠٧).

(٢) وهٰذا الذي سموه التعقيد اللفظي.

(٣) البيتان ليسا في «ديوانه بشرح ابن السكيت»، تحقيق: عبدالمعين الملوحي، ولا في طبعة صادر، ولكنهما في «ذيل شرح الديوان»، تحقيق: محمد أبو شنب، (ص ٢٠٥).

تقع حشواً وتفيد معنى؛ قول أبي الطيب:

وتَحْتَقِرُ الدُّنْيا احْتِقارَ مُجَرِّبٍ ... يَرَى كُلَّ ما فيها وحاشاكَ فانيا[1]

لأن حاشاك ها هنا لفظة لم تدخل إلا لكمال الوزن[2]؛ لأنك إذا قلت: «احتقار مجرب يرى كل ما فيها فانياً»؛ كان كلاماً صحيحاً مستقيماً، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاء حسناً للممدوح في موضعه.

وأما مثال الكلمة التي تقع حشواً وتؤثر في المعنى نقصاً، وفي الغرض فساداً، فكقول أبي الطيب يمدح كافوراً[3]:

تَرَعْرَعَ المَلِكُ الأسْتاذُ مُكْتَهِلاً ... قَبْلَ اكْتِهالٍ أديباً قبْلَ تأْديبِ[4]

لأن قوله: «الأستاذ» بعد «الملك»؛ نقص له كبير، وبين تسميته له بالملك والأستاذ فرق واضح، فالأستاذ قد وقع ها هنا حشواً، ونقص به المعنى؛ إذ كان الغرض في المدح تفخيم أحوال الممدوح وتعظيم شأنه، لا تحقيره وتصغير أمره.

وأما الكلمة التي تقع حشواً غير مؤثرة، فكقول أبي تمام:

جَذْبَتُ نَداهُ غَدْوَةَ السَّبْتِ جَذْبَةً ... فَخَرَّ صَريعاً بينَ أيْدي القَصائِدِ[5]

---

(1) «ديوانه» (٤ / ٤٢٧).

يقول: أنت تحتقر الدنيا احتقار من جربها، وعرفها، وعلم أن جميع ما فيها يفنى ولا يبقى، ولذلك تهبها ولا تدخرها.

(2) سيأتي هذا في أقسام الإطناب.

(3) كافور بن عبدالله الإخشيدي؛ أبو المسك، الأمير المشهور، صاحب المتنبي، كان عبداً حبشيًّا، اشتراه الإخشيدي ملك مصر، فنُسب إليه، وأعتقه، فترقى عنده حتى ملك مصر، كان فطِناً، ذكيًّا، حسن السياسة، توفي في القاهرة، ودُفن في القدس سنة (٣٥٧ هـ).

(4) «الديوان» (١ / ٢٩٣).

يقول: إن كافوراً نشأ على الاكتهال ـ أي: حكم الكهول ـ قبل أن يكتهل سنًّا، وعلى الأدب قبل أن يؤدب.

(5) «الديوان» (ص ٩٤).

وقد عابوا على أبي تمام في هذا البيت شيئاً آخر، وهو قوله: «فخر صريعاً». راجع «الموازنة».

لأن قوله: «غدوة السبت»؛ حشوٌ لا يحتاج إليه، ولا تقع فائدة بذكره، ومَن ذا الذي يُؤثر أن يعلم اليوم الذي أعطى الممدوح فيه أبا تمام ما أعطاه، وأي فرق بين أن يقع عطاؤه يوم السبت أو الأحد أو غيرهما من الأيام، وما بقي عليه شيء إلا أن يخبر بتاريخ ذٰلك، وموقع ذٰلك اليوم في الشهر.

ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا يعبِّرَ عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذمّ، ولا في الذمّ بالألفاظ المعروفة للمدح، بل يَستعمل في جميع الأغراض الألفاظَ الملائمة لذٰلك الغرض؛ في موضع الجد ألفاظه، وفي موضع الهزل ألفاظه.

ومثال ما استعمل من هٰذه الألفاظ في غيرِ موضعه قول أبي تمام:

ما زَالَ يَهْـذي بالـمَـكَـارِمِ دائِبـاً ... حتَّـى ظَنَـنَّـا أنَّـهُ مَحْـمـوم[1]

لأن (يهذي) و(المحموم) من الألفاظ التي تستعمل في الذم، وليست من ألفاظ المدح.

ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي يختص بها أهل المهن والعلوم؛ لأن الإنسان إذا خاض في علم، وتكلم في صناعة؛ وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذٰلك العلم، وكلام أصحاب تلك الصناعة، وبهٰذا شَرُفَ كلامُ أبي عثمان الجاحظ، وذٰلك أنه إذا كاتب لم يعدل على ألفاظ الكتّاب، وإذا صنّف في الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين، فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه، ولا يحسن غيره.

ومما يذكر من هٰذا النوع في استعمال ألفاظ المتكلمين قول أبي تمام:

مودَّةٌ ذَهَـبٌ أثْـمـارُهـا شَبَـهٌ ... وَهِـمَّـةٌ جَوْهَـرٌ مَعْـروفُهـا عَرَضٌ[2]

---

(1) «الديوان» (ص ٢٨٣).

(2) «الديوان» (ص ٣٩٢).

لأن الجوهر والعَرَض[1] من ألفاظ أهل الكلام الخاصة بهم[2].

■ الفصاحة عند ابن الأثير:

أما ابن الأثير، فقد شرح المسألة بوضوح، فقال:

إن المقصود بـ: «الكلام الفصيح هو الظاهر البيِّن» أن تكون ألفاظه مفهومة في كلامهم، وإنما كانت مألوفة الاستعمال، دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ؛ لمكان حسنها، وذلك لأن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسَبروا، وقسموا؛ فاختاروا الحسن من الألفاظ، ونَفَوا القبيح منها، فلم يستعملوه، فحُسْنُ الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح من الألفاظ هو الحسن.

فإن قيل: من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسنَ من الألفاظ حتى استعملوه، وعلموا القبيح منها حتى نَفَوْه ولم يستعملوه؟

قيل لهم: إن هذا من الأمور المحسوسة التي شاهِدُها في نفسها؛ لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها، ويميل إليه؛ هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح.

الا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير، وصوت الشحرور، ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب، وينفر عنه، وكذلك يكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس.

والألفاظ جارية هذا المجرى، فإنه لا خلاف أن لفظة: (المزنة)، و(الديمة)

---

(١) الجوهر والعرض مصطلحان فلسفيان، انتقلا إلى بيئة المتكلمين، فالجوهر ما قام بنفسه؛ كالإنسان، والحجر. والعرض ما قام بغيره؛ كالبياض، والسواد، والزمان، والمكان. فالجوهر ما له وجود مستقل بذاته، والعرض ما ليس كذلك.

(٢) «سر الفصاحة» لابن سنان، توفي سنة (٤٦٦ هـ)، تحقيق: علي فودة، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م، (ص ٩٢ - ١٥٩).

حسنة يستلذها السمع، وأن لفظة (البعاق) قبيحة يكرهها السمع، وهٰذه اللفظات الثلاث من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد، ومع هٰذا فإنك ترى لفظتي (المزنة) و(الديمة) وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال، وترى لفظ (البعاق) وما جرى مجراه متروكاً لا يُستعمل، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل لحقيقة الفصاحة، أو مَن ذوقُه غير سليم.

لقد ثبت أن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيِّن، وإنما كان ظاهراً بيِّناً؛ لأنه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مدرك بالسمع، والـذي يدرك بالسمع؛ إنما هو اللفظ؛ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن، وما كرهه فهو القبيح.

والحسن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بفصاحة؛ لأنه ضدها، لمكان قبحه.

ولو كانت الفصاحة لأمر يرجع إلى المعنى؛ لكانت هٰذه الألفاظ في الدلالة عليه سواء، ليس فيها حسن ومنها قبيح، ولما لم يكن كذٰلك، عُلِمَ أنها تخصُّ اللفظ دون المعنى.

ويقول ابن الأثير ـ رحمه الله ـ:

«وقد رأيت جماعة من الجهال؛ إذا قيل لأحدهم: إن هٰذه اللفظة حسنة، وهٰذه قبيحة، أنكر ذٰلك، وقال: كل الألفاظ حسن، والواضع لم يضع إلا حسناً.

ومَن يبلغ جهله أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسفنط[1]، وبين لفظة السيف ولفظة الخنشيل، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوكَس؛ فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب، ولا يجاوب بجواب، بل يترك وشأنه؛ كما قيل: اتركوا الجاهل بجهله، ولو ألقى الجعر في رحله.

(١) الإسفنط: الشراب.

وما مثاله في هٰذا المقام إلا كمن يسوِّي بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، شوهاء الخلق، ذات عيون محمرة، وشفة غليظة كأنها كلوة، وشعر قطط[1] كأنه زبيبة، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة، ذات خدٍّ أسيل، وطرف كحيل، ومبسم كأنما نظم من أقاح، وطرة كأنها ليل على صباح، فإذا كان من سقم النظر أن يسوِّي بين هٰذه الصورة وهٰذه، فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوي بين هٰذه الألفاظ وهٰذه، ولا فرق بين النظر والسمع في هٰذا المقام، فإن هٰذا حاسة وهٰذا حاسة، وقياس حاسة على حاسة مناسب»[2].

ثم قال:

«ومن أوصـاف الكلمـة ألا تكون مشتركة بين معنيين أحدهما يُكره ذكره، وإذا وردت وهي غير مقصود بها ذٰلك المعنى قبُحَتْ، وذٰلك إذا كانت مهملة بغير قرينة تميز معنـاها عن القبح، فأما إذا جاءت ومعها قرينة، فإنها لا تكون معيبة، كقوله تعالى: ﴿فـالذينَ آمَنوا بهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَروهُ واتَّبَعوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ معهُ أولٰئكَ هُم المُفْلِحونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة تطلق على التعظيم والإكرام، وعلى الضرب الذي هو دون الحدّ، وذٰلك نوع من الهوان؟ وهما معنيان ضدان، فحيث وردت في هٰذه الآية جاء معها قرائن من قبلها ومن بعدها، فخَصَّتْ معناها بالحسن، وميزته عن القبيح.

ولـو وردت مهملة بغير قرينـة، وأُريد بها المعنى الحسن؛ لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح، مثال ذٰلك: لو قال قائل: لقيتُ فلاناً فعزَّرْتُهُ؛ لسبق إلى الفهم أنه ضربـه وأهانه، ولو قال: لقيتُ فلاناً فأكرمته وعزرته؛ لزال ذٰلك اللبس»[3].

«... وممـا يدخل في هٰذا الباب أن تجتنب الألفاظ المؤلفة من حروف يثقل

---

(١) شعر قطط: شعر قصير جعد.

(٢) «المثل السائر» (ص ١٤٩).

(٣) «المثل السائر» (ص ١٨٩).

النطق بها، سواء كانت طويلة أم قصيرة».

ومثَّل له بقول امرىء القيس المتقدم:

غَدائِـرُهُ مُسْتَـشْـزِراتٌ إلـى الـعُـلى   تَضِـلُّ المُـدارَى في مُثَنّىً ومُـرْسَلِ[1]

«. . . ومن أوصاف الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة؛ ليخف النطق بها، وهٰذا الوصف يترتب على ما قبله من تأليف الكلمة، ولهٰذا إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستثقل، وبخلاف ذٰلك الحركات الثقيلة، فإنه إذا توالى منها حركتان في كلمة واحدة استُثْقِلَتْ، ومِن أجل ذٰلك استثقِلَت الضمة على الواو، والكسرة على الياء؛ لأن الضمـة من جنس الْواو، والكسرة من جنس الياء، فتكون عند ذٰلك كأنها حركتان ثقيلتان.

ولنمثل لك مثالاً لتهتدي به في هٰذا الموضع، وهو أنا نقول: إذا أتينا بلفظة مؤلفة من ثلاثـة أحـرف، وهي: (ج ز ع)، فإذا جَعَلْنـا الجيم مفتوحة فقلنا: (الجَزع)، أو مكسورة، فقلنا: (الجِزع)؛ كان ذلك أحسن من أن لو جعلنا الجيم مضمومة، فقلنا: (الجُزع)، وكذٰلك إذا والَيْنا حركة الفتح، فقلنا: (الجَزَع)؛ كان ذٰلك أحسن من موالاة حركة الضم عند قولنا: (الجُزُع).

ومن المعلوم أن هٰذه اللفظة لم يكن اختلاف حركتها مغيراً لمخارج حروفها، حتى ينسب ذٰلك إلى اختلاف تأليف المخارج، بل وجدناها تارة تكتسي حُسناً، وتارة يُسلب ذٰلك الحسن عنها، فعلمنا أن ذٰلك حادث عن اختلاف تأليف حركاتها»[2].

■ استنتاج وتعليق:

بعـد كل ما سبق ندرك القيمة الموضوعية والمنهجية، كما نلمح الروعة الأدبية والفنية فيما فصله ابن سنان، وفيما ذكره ابن الأثير.

---

(١) «المثل السائر» (١٨٩).

(٢) «المثل السائر» (ص ١٩١).

ومع تقديرنا لصاحب «التلخيص»، وعذرنا له فيما أوجز، فلقد كان أملنا في بعض الكـاتبين المُحْـدَثين أن لا يقفـوا عنـد الاختصار والابتسار، والتراث مليء بكثير من الشـواهد، فعلى سبيل المثال: مخالفة الكلمة للقياس الصرفي التي مثلوا لها بكلمة (أجلل)؛ نجد شاهداً لها في قول المتنبي:

إذا كانَ بعْضُ النَّـاسِ سَيْفـاً لِدَوْلَـةٍ   فَفي النَّـاسِ بوقـاتٌ لهـا وطُبـولُ[1]

فهٰذه مخالفة أكثر شناعة من البيت الذي مثلوا به، وهو بيت أبي النجم الآنف الذكر، فإن (بوقاً) تجمع على (أبواق)، ولا يجوز أن يُقال: (بوقات).

وأما الغرابة؛ فقد مرت شواهدها فيما ذكره ابن سنان، كقول أبي تمام:

لَقَـدْ طَلَعَتْ في وجْـهِ مِصْـرَ بوجْهِـهِ   بلا طائِـرٍ سعْـدٍ ولا طائِـرٍ كَهْـلِ[2]

ولعله أكثر غرابة من المرسن المسرج الذي التزموا ذكره.

وأما ضعف التأليف؛ ونعني به مخالفة القواعد النحوية ـ كما مر من قبل ـ ومنه قول سيدنا حسان رضي الله عنه[3]:

فَلَو كانَ مجـدٌ مُخَـلِدُ الـيومَ واحـداً   مِن النَّاسِ أبْقَى مَجْدُهُ اليَوْمَ مُطْعِما[4]

يقول: لو أن ما يفعله الإنسان من فعال الخير، وما يقدمه من برٍّ، لو أن هٰذا المجد من شأنه أن يخلِّد أصحابه مدى الدهر، لخلَّدَ مطعمَ بن عدي مجدُه وبرُّه.

---

(١) «الديوان» (٣ / ٢٢٩).
البوقات: جمع بوقة، وهو ذاك الذي ينفخ فيه ويزمر. يقول: إذا كنت سيف الدولة؛ فإن غيرك من الملوك بالإضافة للدولة بمنزلة البوق والطبل، أي: لا يُغنون غَناءَك، ولا يقومون مقامك.

(٢) «الديوان» (٤ / ٥٢٣).

(٣) حسـان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري الصحابي، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان يقطن المدينة، مدح الغسانيين وملوك الحيرة قبل الإسلام، ثم كان شاعر النبي ﷺ، توفي في المدينة سنة (٥٤ هـ). [معجم المؤلفين: ٣ / ١٩١].

(٤) «الديوان» (ص ٢٣٩).

ولكن البيت غير فصيح ؛ لمخـالفته القواعد النحوية، فلقد تقدم الضمير على صاحبه، فالضمير في مجده يعود على مطعم ؛ لأن التقدير: لأبقى مجدُ مطعم مطعماً، فيعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ؛ لأن مطعماً مفعول به .

أما التعقيد اللفظي، فيمثل له بشواهد كثيرة، فمنها قول القائل :

وأصْـبَـحَـتْ بعْـدَ خَطٍّ بهْـجَـتِـهـا كأنَّ قَفْـراً رُسُـومُـهـا قَلمـا[1]

يريد أن يقول : فأصبحت بعد بهجتها قفراً، كأن قلماً خطَّ رسومها . فانظر ما أسوأ هٰذا التعقيد وأشنعه وأشد فحشه ! !

ومن هٰذا التعقيد قول المتنبي :

أنَّـى يَكُـونُ أبـا الـبَـرِيَّةِ آدَمُ وأبـوكَ والـثَّـقَـلانِ أنْـتَ مَحَـمَّـدُ[2]

يقول : كيف يكون آدم أبا البرية، وأبوك محمد، وأنت الثقلان . فأنت ترى في البيت فضلاً عن التعقيد اللفظي، وهٰذه الركاكة، قصوراً في المعنى .

ومنه قول الفرزدق :

إلـى مَلِكٍ ما أُمُّـهُ مِن محـارِبٍ أبـوهـا، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصاهِـرُهْ[3]

يريد أن يقول : إلى ملك ليست أم أبيه من محارب، ولكنه قدَّم وأخَّر كما رأيت . وقد مرَّ معنا قول الفرزدق في مدح إبراهيم بن إسماعيل المخزومي .

ومن هٰذا التعقيد ـ ولكنه أخف من غيره ـ قول الفرزدق أيضاً :

تَعَشَّ فإنْ واثَـقْـتَـني لا تَخـونَـني نَكُنْ مِثْـلَ مَن يا ذِئْبُ يَصْـطَحِبـانِ[4]

هٰذا كله في التعقيد اللفظي .

---

(١) «خزانة الأدب» (٤ / ٤١٨) .

(٢) «الديوان» (٢ / ٦٢) .

(٣) «الديوان» (١ / ٢٢٢) .

(٤) «الديوان» (٢ / ٦٢٨)، شرح الأستاذ علي فاعور.

أما التعقيد المعنوي، فلقد التزموا بالتمثيل له قول عباس بن الأحنف المتقدم: «وتسكب عيناي الدموع لتجمدا»، وقد مرَّ معنا من قبل، ويمكن أن يُمَثَّلَ له بقول امرىء القيس:

وأَرْكَبُ في الرَّوْعِ خَيْفانَةً كَسا وَجْهَها سَعَفٌ مُنْتَشِرْ[1]

الخيفانة في الأصل: الجرادة، ويريد بها هنا الفرس الخفيفة، وهٰذا لا بأس به، وإن كان تشبيه الفرس بالجرادة لا يخلو من ضعف، أما وصف هٰذه الفرس بأن شعر ناصيتها طويل كسعف النخل، يغطي وجهها، فغير مقبول؛ لأن المعروف عند العرب أن شعر الناصية إذا غطى العينين لم تكن الفرس كريمة، ولم تكن خفيفة.

وقول أبي تمَّام:

جَذَبْتُ نَداهُ غَدْوَةَ السَّبْتِ جَذْبَةً فَخَرَّ صَريعاً بينَ أَيْدي القَصائِدِ

فإنه ما سكت حتى جعل كرم ممدوحه يخر صريعاً، وهٰذا من أقبح الكلام[2].

فهٰذه الأمثلة ذكر الكثير منها الأستاذ علي الجارِم ـ رحمه الله ـ في «البلاغة الواضحة»، ولن نعدم مثلها وأضعافها كذٰلك، فلماذا نلزم أنفسنا بمثال واحد؟! ولئن كان ذٰلك يصلح لقوم، فإنَّه لن يصلح لكل قوم.

■ كلمات غير فصيحة في عصرنا:

ثم إن هٰذه الأمثلة حريٌّ بها أن تُنتزع من واقع أهل العصر الذين يكتب لهم، والعصر الذي يكتب فيه، ويمكننا على ضوء الحقائق اللغوية أن ندرك أن هناك كلمات

---

(١) «الديوان» (ص ١٦٣).
الروع: الفزع. والخيفانة ـ هنا ـ: الفرس السريعة الخفيفة. والخيفانة ـ في الأصل ـ: الجرادة. كسا وجهها سعف منتشر: أراد الناصية؛ شبهها بسعف النخلة. والمنتشر: المتفوق.

(٢) وقريب من ذٰلك كلمة (أيم) في البيتين المتقدمين اللذين ذكرهما ابن سنان، حيث جعل الأيم مقابلاً للبكر.

وعبارات، يستعملها الكتّاب والشعراء، واللغة منها براء، ومن واجب المؤلفين في البلاغة أن ينبِّهوا لها، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ من الكلمات التي خُولف فيها القياس الصرفي ما نجده شائعاً بين المثقفين، مثل كلمة (أخصَّائي)، فما أكثر أن تسمع قولهم: نحن بحاجة إلى أخصائيين في كذا، وأخصائيين في كذا، وهي جمع (اختصاصي)، والصحيح أن يقال: اختصاصيون.

ومن ذٰلك جمعهم لـ (مشكلة) على (مشاكل)، و(مدير) على (مدراء)، وقولهم في تثنية (عصاة): عصاتين، والصحيح أن يقال: مشكلات، ومديرون، وعصوان.

٢ ـ وقد يستعملون الكلمة في معنى غير معناها الذي وضع لها، وهو ما يشبه التعقيد المعنوي الذي تحدثنا عنه من قبل، ومن هٰذا النوع استعمالهم كلمة (تواجد)، فيقولون مثلاً: على الطلاب التواجد في فناء المدرسة. وكلمة التواجد لا تعطي هٰذا المعنى، فالصحيح أن يقولوا: الحضور والتجمع؛ لأن التواجد من الوَجْد.

ومن هٰذا القبيل كذٰلك استعمالهم كلمة (فشل)، فتراهم يقولون: فشلت في حياتها الزوجية، وفشل في دراسته. والفشل هو الضعف، قال تعالى: ﴿ولا تَنازَعوا فتَفْشَلوا وتَذْهَبَ ريحُكُم﴾ [الأنفال: ٤٦]، والكلمة التي ينبغي أن تستعمل هي الإخفاق، فيُقال: أخفق في كذا.

ومن الكلمات التي تستعمل كثيراً في هٰذا المضمار مادة (رضخ)، فيقولون: لن نرضخ للمستعمر؛ يريدون: لن نخضع، ولن نستكين. والرَّضخ هو الكسر، أو العطاء القليل، وفي حديث الرسول ﷺ: «أن ترضَخَ مما أعطاك الله».

ومنه قولهم: «تنفس الصعداء»؛ يريدون بها: ذهب عنه الضيق والكرب، مع أن هٰذا التركيب يعطي معنى مناقضاً تمامَ التناقض لما يقصدون؛ فإن معنى هٰذه الكلمة أنه في كرب يصعب عليه التنفس، وفي التنزيل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ الله أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ ومَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السماءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٣ ـ هناك كلمات تستعمل ولا أصل لها في لغتنا، ككلمة (الطقوس)؛ بدل الشعائر.

ومنه كلمة (كرَّس)؛ فيقولون: كرَّس له حياته. فهم يريدون أن يقولوا: قصر حياته على كذا.

ومن هٰذه الكلمات: (برَّر موقفه)، وهو غير صحيح، والصحيح أن يُقال: سوَّغَ واحتَجَّ.

٤ ـ وهناك كلمات استعملت استعمالاً مرجوحاً في اللغة، فمن ذٰلك كلمة (أوقف) و(أرجع)؛ فيقولون: أوقفني وأرجعني. وهٰذا غير صحيح، أو مرجوح، والصحيح الراجح: وَقَفَني، ورَجَعني؛ قال تعالى: ﴿وقِفوهُمْ إنَّهم مسؤولونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، وقال تعالى: ﴿فإنْ رَجَعَكَ الله إلى طائِفَةٍ منهُم فاسْتَأْذَنوكَ للخُروجِ﴾ [التوبة: ٨٣]، وهما من الفعل الثلاثي، ولو كانت من الرباعي؛ لقال: أوقفوهم، وأرجعك، وأرجع البصر؛ بهمزة القطع.

وهناك كلمات كثيرة من هٰذا القبيل.

٥ ـ كما أن هناك كلمات كثيرة تُرجمت ترجمة حرفية عن اللغات الأجنبية.

كل هٰذا حريٌّ به أن لا يدخل في دائرة الفصيح، وحريٌّ بمن يكتبون في البلاغة أن يُحَذِّروا من استعماله.

■ الرَّمزيَّة شر أنواع التعقيد المعنوي:

على أن قضية الخطإ اللغوي؛ سواء كان مخالفة لقواعد الإعراب وقوانين الصرف، أم كان ضعفاً في التركيب، أم كان اختيار وجود كلمات ثقيلة على اللسان، أو ممجوجة على الآذان، أو من شأنها أن تجهد الفكرة، وتكدَّ الذهن؛ كل ذٰلك من السهل

تلافيه، ومن اليسير إصلاحه، فهو وإن كان علة، لكنها لا تعيي الأطباء، ولا نعدم أن نجد لها الدواء.

إنما الأمر الذي فاقت خطورته، واستشرى داؤه، وخلت من الزهر أرضه، ومن النور سماؤه، هو هٰذا النوع من التعقيد المعنوي؛ الذي أصبح له دعاته وأنصاره، وأرادوا أن يجعلوا له سوقاً يقوم عليها، وبراعم تزهر، وسنابل تثمر، وهو ـ لعمر الحق ـ أبعد في الإغراب والتعقيد من قول القائل: «وتسكب عيناي الدموع لتجمدا».

إن خفاء المعنى والإيحاء الذي يتطلب الذكاء، وإعمال الذهن؛ لا تنكره البلاغة العربية، ولا ينكره البلغاء، ولكن الإغراق في الرمزية هو الذي تأباه العربية بنت الشمس وضحاها، ذٰلك أن هٰذه الرمزية من شأنها أن تقضي على كل وضوح من جهة، وأن تجعل لكل كاتب وشاعر قواعدَه الخاصة، وركائزه التي ينطلق منها وحده من جهة أخرى.

إن المجاز والكناية في العربية من أروع سماتها، وأجمل بسماتها، لكن على أن تكون الكناية واضحة اللزوم، وأن يكون المجاز ذا علاقة قريبة.

قد أجد إنساناً بعيداً عن العطاء، لا يحسن إلا أن يأخذ، ترى أَيَحْسُنُ أن أصف هذا الإنسان بأنه حفرة؛ لأن الحفرة تأخذ ولا تعطي؟! وإذا وجدت إنساناً كثير القراءة، يعيش بين الكتب، أيستحسن أن أصفه بالفأرة؛ بحجة أن الفأرة تنخر الكتب؟!

هٰكذا يريد الرمزيُّون! فهم كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ:

«يدفعون بالنظرية إلى حدها الأقصى، فيقعون في ظلمة الغسق، وهم يطلبون أضواء الشفق، وإن كان قد راقهم من الرمزية ذٰلك التآلف بين اللفظ والمعنى، وذٰلك التزاوج بين الحواس المختلفة، وبخاصة بين البصر والسمع، فيعجبهم أن يقولوا: صوت الرائحة، ولون الكلام، وعطر الفكر، وخضرة الأمل، فإن البيان العربي لا يأبى هٰذا النوع من المجاز؛ ما دامت علاقته قريبة، ومناسبته ظاهرة.

فإذا أدَّى إلى التعقيد المعنوي ببعد اللزوم في الكناية، أو غرابة العلاقة في المجاز، كالكناية بنصوع الجبين عن خلو الملامح من الدلالة على الذكاء، أو استعارة

الأسد للرجل الأبخر لا للرجل الشجاع، على اعتبار أن البخر والشجاعة من لوازم الأسد، كان ذٰلك هو العي الذي يناقض البيان، واللبس الذي يناهض البلاغة»[1].

وإذا كان من أسباب هٰذه الرمزية الصوفية التي يجدها بعض الناس في أنفسهم، فيحاولون الترفع من حيث الأسلوبُ، فإن لنا صفحة مشرقة من الأدب الصوفي، لا شك أنها من عيون الأدب العربي، حتى الرمزية الصوفية ليست بعيدة عن البلاغة العربية، وعن الأدب العربي.

وسأذكر مثالين؛ أحدهما: من الأدب الصوفي. والثاني: من هٰذا الذي يسمونه أدباً رمزيًّا؛ لندرك أن العربية في جميع عصورها بعيدة عن هٰذه الرمزية المعمَّاة، فمن الشعر الصوفي نقرأ هذه الأبيات:

ومِن عَجَبٍ أنِّي أحِنُّ إليهِمُ ... وأسأل شوقاً عنهُمُ وهُمُ مَعي
وتَبْكيهِمُ عَيْنِي وهُم في سَوادِها ... وتَشْتاقُهُم نَفْسي وهُم بينَ أضْلُعي

ويقول آخر:

أَحِبَّائي هَلْ مِنْكُم لعيْنِيَ نظْرَةٌ ... لِتُطْفى بها نارٌ وتَبْرأ علَّةٌ
وبِي أرْبَعٌ لم تَسْتَطِعْهُنَّ مُهْجَةٌ ... غَرامٌ ووَجْدٌ واشْتِياقٌ ووَحْشَةٌ

أما المثال الثاني فهو قصيدة عنوانها: «إلى زائرة» للدكتور بشر فارس، نقلها الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ مع قطعة نثرية، معلقاً بقوله:

«وسأدع لك الوقت لتمتحن صبرك على كشف هٰذه الرموز، وحل هٰذه الأحاجي، ولن أسألك عما فهمت؛ فإنك إن أجبت فإن جوابك لن يزيد على جوابي، وإن أخطأت فإن خطأك لن يختلف عن صوابي».

أما القصيدة فهي:

لو كُنتِ ناصعةَ الجبينْ ... هيهاتَ تنفضني الزيارهْ

---

(١) «دفاع عن البلاغة» (ص ١٥٨).

ما رَوعــةُ الــلفظ الــمــبــينْ؟ الــسِّــحْــرُ من وحيِ الــعِـبــارهْ
ظِلٌّ على وَهْــجِ الــحــنــينْ رَسَــمَــتْــهُ معــجِــزَةُ الإشــارهْ
خَطٌّ تســاقَطَ كالــحَــزينْ أرْخــى على الــعَــزْمِ انْكســارَهْ
ماذا بوَجْــدِ الــمُــحــصِــنينْ؟ صَوتٌ شَجٍ خلْفَ الــســتــارهْ
غيِّبْــتِ في الــعجــبِ الــدفينْ معــنــى براعــتُــهُ الــبــكــارهْ
درًا يفــوتُ الــنــاظِــمــين ونــهــضْــتِ تُهــديني بِحــارَهْ
خُطُواتُ وَســواسٍ رَزينْ وهــبُ تعــمِّــيه الــطهــارهْ

ويعجبني هنا ما قاله الشاعر المهجري إلياس فرحات في مواجهة الشعر الرمزي المغلق:

لُغَــةٌ مشَــوَّهَــةٌ ومَــعْــنــىً حائِــرُ خَلْفَ الــمــجــازِ ومنــطِقٌ مُتَــعَــثِّــرُ
وزَعــيمُــــهُــم في زَعْــمِــهِــم مُتَــفَــنِّــنٌ عَجَبــاً! أكــانَ الفنُّ فيمــا يُضْمَــرُ؟
لا الأرضُ تَفْــهَــمُ ما يُصَــوِّرُهُ لهــا هٰذا الــزَّعــيمُ ولا الــسَّــمــاءُ تُفَسِّــرُ!

هٰذه الرمزية إذن هي الرمز الأول للتعقيد المعنوي الذي ينبغي أن يعرضَ له وأن يُعنى به الحريصون على البلاغة في العصر الحديث، وهم وإن بعدوا عن دعاة العامية، أو من يسمون بدعاة الأدب المكشوف، ونعني به ذٰلك القول الرخيص. أقول: إن بعد أولٰئك عن هٰؤلاء وهٰؤلاء، إلا أنهم يمكن أن يلتقوا عند نقطة واحدة، وهي الجناية على البلاغة، واقتحام أسوار البيان، من أجل أن تتداعى لبناتها، وتتصدع أركانها.

■ استنتاج:

يمكننا بعد هٰذه الجولة ونحن نتحدث عن الفصاحة أن نستنتج ما يلي:

١ ـ الكلمة الفصيحة والكلام الفصيح ما كان سهلاً لا يتلعثم به اللسان، ولا ينفر منه السمع، مألوفاً، واضح المعنى، لا يجد المخاطب عسراً في إدراك معناه، منسجماً مع قواعد اللغة، لا يخالف المقاييس التي وضعها علماء الصرف، ولا القوانين التي وضعها علماء النحو، ولا المعاني التي ذكرها له علماء اللغة، ليس بالوحشيّ، وليس

بالسوقي المبتذل كذلك.

٢ ـ إن مجال الفصاحة ودائرتها إنما هي الألفاظ فحسب.

٣ ـ إن هٰذه الفصاحة لا تختص بالكلام المركَّب، وإنَّما تكون في الكلمة المفردة كذلك.

وإذا كانت هٰذه هي الفصاحة؛ فما البلاغة إذن؟ وما هي دوائرها المختصة بها؟

هذا ما سأحدثك عنه إن شاء الله في الفصل القادم.

□ □ □

الفصل الثالث

البلاغة عند علماء اللغة

■ أقوال في البلاغة:

قلنا: إن البلاغة لغة هي الوصول والانتهاء. وقبل أن تستقر البلاغة علماً له موضوعاته ومسائله، كانت تتحاذبها جهات متعددة، وهذه الجهات؛ رغم اختلافها وتعددها، إلا أنها يجمعها شيءٌ واحد، وهو أنَّها تدل على الجودة والروعة والتأثير، فهي كلام يجيش في الصدور، فيُقذف على الألسنة، وصفتها المميزة لها الإيجاز؛ كما قال صحارٌ الشاعر حينما سأله معاوية[1].

وهي ما سابق لفظه معناه، فلم يكن لفظه أسرع إلى أذنك من معناه إلى قلبك، فاللفظ والمعنى يتسابقان؛ كل يريد أن يسبق صاحبه، فاللفظ يريد أن يصل إلى الأذن أولاً، ولكن المعنى يزاحمه ليصل إلى القلب كذلك.

---

(١) فقد خطب صحار العبدي بين يدي معاوية، فراعه بخطابته، فسأله معاوية: ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. فقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطىء، وتقول فلا تخطىء.

ومعاوية بن أبي سفيان من أجلّة الصحابة رضي الله عنهم، وأحد كتاب النبي ﷺ، يُضرب المثل بحلمه وكياسته، وهو أول ملوك الدولة الأموية، استقام له الملك عشرين سنة، توفي سنة (٦٠ هـ).

ولكن ابن المقفَّع[1] يوسِّع دائرتها ليجعلها تنتظم وجوهاً كثيرة، فيقول:

«البلاغة اسم يجري في وجوه كثيرة: منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً، وربَّما كانت رسائل، فعامَّةُ ما يكون من هٰذه الأبواب، فالوحي فيها، والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة»[2].

أما عمرو بن عبيد[3]؛ فمع أنه توسَّع في مفهوم البلاغة كذلك، فإن وجهته تختلف عن ابن المقفع، فهو يعد البلاغة:

«ما بلغ بك الجنة، وحال بينك وبين النار».

■ الراغب[4] الأصفهاني والبلاغة:

كل هٰذه التعـريفات؛ مع ما لها من فوائد، ومع ما فيها من صحة قصد؛ فإنها ليست هي الهدف الذي نودُّ أن نصل إليه، وإنَّما نريد أن نصل إلى البلاغة بعد أن استقرَّ بها المقام، وأصبحت لها جنسيَّتها الخاصة بها، وموطنها الذي لا تُزاحَم فيه.

ونحسب أن الراغب الأصفهاني رحمه الله كان موفقاً كل التوفيق ـ شأنه في كل ما عرض له وتحدَّث عنه ـ فلقد أدرك ـ ببصيرته النفَّاذة، وذهنه وفهمه الذكي ـ حقيقتها، وعرف ميادينها، فهو يقول:

---

(١) عبدالله بن المقفع، وُلد سنة (١٠٩ هـ)، كاتب شاعر، أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربية، فارسي الأصل، نشأ بالبصرة، وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي، وترجم له بعض الكتب، اتُّهم بالزندقة، فقتله بالبصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي سنة (١٤٥ هـ) [معجم المؤلفين: ٦ / ١٥٦].

(٢) «البيان والتبيين» (١ / ١١٥).

(٣) عمرو بن عبيد بن باب البصري المعتزلي أبو عثمان، ولد سنة (٨٠ هـ)، متكلم، مفسر، زاهد، له أخبار مع المنصور، وتوفي بحرَّان بقرب مكة سنة (١٤٤ هـ). [معجم المؤلفين: ٨ / ٩].

(٤) الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني؛ أبو القاسم، أديب، لغوي، حكيم، مفسر، له «المفردات»، توفي سنة (٥٠٢ هـ). [معجم المؤلفين: ٤ / ٥٩].

«البلاغة تُقال على وجهين:

أحدهما: أن يكون بذاته بليغاً، وذٰلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف؛ صواباً في موضوع لغته، وطبقاً للمعنى المقصود، وصدقاً في نفسه، ومتى اخترم وصفٌ من ذٰلك؛ كان ناقصاً في البلاغة.

والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له، هو أن يقصد القائلُ أمراً، فيورده على وجه حقيق أن يقبله المقول له، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]؛ يصح حمله على المعنيين[1].

ونستخلص مما ذكره الراغب أن البلاغة تكون في الكلام، وفي المتكلم، فكما يُقال: كلام فصيح، ومتكلم فصيح. يُقال: كلام بليغ، ومتكلم بليغ. وأن بلاغة الكلام لا بد أن تستجمع أموراً ثلاثة:

أولها: صحة اللغة وصوابها، ويعني ذٰلك سلامة الألفاظ من العيوب، وهو ما بسطنا فيه القول عند حديثنا عن الفصاحة.

ثانيها: أن يكون المعنى المقصود للمتكلم مطابقاً ومنسجماً مع الألفاظ التي استعملها المتكلم.

ثالثها: أن يكون صادقاً في نفسه.

ونظن أن عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ ومن جاء بعده لا يخرجون عما ذكره الراغب، فلقد أدرك الراغب أكثر من ملحظ في تعريف البلاغة؛ فصاحة اللفظ أولاً، وموافقة المعنى المقصود ثانياً، والتأثير النفسي؛ لأن الذي يستطيع أن يؤثر في النفوس هو الذي يكون صادقاً مع نفسه، وليست البلاغة شيئاً غير هٰذا.

■ البلاغة في الاصطلاح:

يقول صاحب «التلخيص» في تعريفها:

---

(١) «المفردات»، للراغب، (ص ٦٠).

«البلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته . . . فالبلاغة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب»[1].

البلاغة إذن تقوم على دعائم :

أولاها : اختيار اللفظة .

وثانيها : حسن التركيب وصحته .

وثالثها : اختيار الأسلوب الذي يصلح للمخاطبين، مع حسن ابتداء، وحسن انتهاء .

وبقدر ما يتهيأ من هٰذه الدعائم ؛ يكون الكلام مؤثراً في النفوس، والتأثير هو الدعامة الرابعة من دعائم البلاغة .

البلاغة إذن لا بدَّ فيها من ذوق وذكاء، بحيث يدرك المتكلم متى يتكلم، ومتى ينتهي، وما هي القوالب التي تصبُّ فيها المعاني التي رتبها في نفسه، فربَّ كلام يكون جميلاً في نفسه، لكنه لم تُراعَ فيه هٰذه الظروف، فتكون نتائجه عكسية غير متوقعة .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما :

«خمس لهن أحب إليَّ من الدُّهم الموقفة ـ أي : الخيل العربية الأصيلة ـ لا تتكلم فيما لا يعنيك ؛ فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً، فربَّ متكلم تكلم فيما يعنيه، فوضعه في غير موضعه، فعِيبَ» .

وكتب الأدب ذكرت كثيراً من الشواهد التي تهيأت لها فصاحة الكلمات، وجودة السبك، وجمال العبارة ؛ دون مراعاة المقام الذي قيلت فيه ؛ إما لأنهم لم يحسنوا الابتداء، وإمَّا لأنهم أهملوا ما لا يجوز إهماله من العناية بالمناسبة .

دخل أبو النجم على هشام بن عبدالملك[2] فأنشده :

---

(١) «التلخيص»، للقزويني، شرح عبدالرحمن البرقوقي، (ص ٣٣) .

(٢) هشام بن عبدالملك بن مروان، وُلد سنة (٧١ هـ)، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في =

صَفْــراءُ قد كادَتْ ولــمَّــا تَفْــعَــلِ كأنَّــهــا في الأفْــقِ عينُ الأحْــوَلِ

وكان هشام أحول، فأمر بحبسه.

ومدح جرير[1] عبدالملك بن مروان[2] بقصيدة مطلعها:

أَتَــصْــحُــو أم فؤادُكَ غَيْرُ صاحِ

فاستنكر عبدالملك هٰذا الابتداء، وقال له: بل فؤادك أنت.

ونعى علماء الأدب على البحتري أن يبدأ قصيدة ينشدها أمام ممدوحه بقوله:

لكَ الــوَيْلُ مِن لَيْلٍ تَقــاصَــرَ آخِــرُهْ

وعابوا على المتنبي قوله في رثاء أم سيف الدولة[3]:

صَلاةُ اللهِ خالِــقِــنــا حَنُــوطٌ على الــوَجْــهِ المُكَفَّنِ بالجَمــالِ[4]

قال ابن وكيع:

= دمشق، وبويع فيها بعد وفاة أخيه يزيد (١٠٥ هـ)، وخرج عليه زيد بن علي بن الحسين، توفي في البصرة، وكان حسن السياسة، يقظاً في أمره، يباشر الأعمال بنفسه، مات سنة (١٢٥ هـ). [الأعلام: ٨ / ٨٦].

(١) جرير هو ابن عطية التميمي، أحد الشعراء الثلاثة المقدمين في دولة بني أمية، وهم الأخطل، وجرير، والفرزدق، وقد فاق صاحبيه في بعض فنون الشعر، توفي سنة (١١٠ هـ).

(٢) عبدالملك بن مروان، ولد سنة (٢٦ هـ)، من أعاظم الخلفاء، نشأ في المدينة، فقيه، واسع العلم، شهد مع أبيه يوم الدار، اجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبدالله بن الزبير، توفي سنة (٨٦ هـ).

(٣) سيف الدولة هو أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان، كان ملكاً على حلب، وكان أديباً شاعراً مجيداً محبًا لجيد الشعر، انقطع المتنبي إليه، وخصه بمدائحه، ولد سنة (٣٠٣ هـ)، وتوفي سنة (٣٥٦ هـ).

(٤) «الديوان» (٣ / ١٤٤).

الحنوط: طيب يخلط لغسل الميت. يقول: رحمة الله ورضوانه حَنوط هٰذه المرأة التي غيبها الجمال، كما غيبها الكفن، وسترها كما سترها القبر، فكانت مستورة من أعين الناس.

«إن وصفه أمّ الملك بجمال الوجه غير مختار»[1].

والمُحْدَثونَ الذين كتبوا في البلاغة يقررون هٰذه القواعد المؤيدة لما ذكره الأقدمون، وقد يزيدون القضية إيضاحاً، فهٰذا الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ بعد أن ينقل كثيراً مما قيل في البلاغة، لا عند العرب فحسب، وإنما عند الأوروبيين كذٰلك، بعد أن ينقل ذٰلك كله يقول:

«والناظر المستقصي في أقوال هٰؤلاء وأولٰئك يستطيع أن يستخلص من جملتها أن البلاغة هي بمعناها الشامل الكامل ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم، من طريق الكتابة، أو الكلام، فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلِّمة المفسِّرة، والتأثير في القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة، ومن هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الإقناع على أكمل صورة وتحليل؛ ذٰلك أن بلاغة الكلام هي تأثير نفس في نفس، وفكر في فكر، والأثر الحاصل من ذٰلك التأثير هو التغلب على مقاومة في هوى المخاطب، أو في رأيه.

وهٰذه المقاومة تكون فاعلة كسبق الإصرار، أو الميل، أو العزم، وقد تكون منفعلة كالجهل، أو الشك، أو التردد، أو خلو الذهن. فإذا كانت منفعلة كانت ضعيفة، لا يُحتاج في قهرها إلى الوسائل البلاغية القوية.

فالمرء يجهل، أو يشك، أو يتردد؛ ريثما يتهيأ له أن يعلم، أو يستيقن، أو يجزم، وهو في مثل هٰذه الأحوال تكفيه الحقيقة البسيطة المستفادة من التعليم. وقد يكون مع الجهل زيف العلم، واعتساف الحكم، وخطل الرأي الثابت باستمرار العادة، وفساد الوهم القائم على قوة القرينة، وحينئذ لا بد أن تتناصر قوى العقل جمعاء على كسر هٰذه المقاومة من طريق البرهان، وذٰلك علم الجدل، والجدل عصب البلاغة. . .

فالبلاغة إذن توجَّه إلى العقل، أو إلى القلب، أو إليهما معاً؛ تبعاً لما تقتضيه حالات المخاطبين من مقاومة الجهل والرأي والهوى منفردة أو مجتمعة، فإذا كان غرض

(١) «البلاغة الواضحة» (ص ١١٠).

البليغ نفي جهالة، أو توضيح فكرة، أو تقرير رأي؛ جزاه في إصابة غرضه الصحة والوضوح والمناسبة، فإذا أراد التعليم أو الإقناع، وكان قوام الموضوع طائفة من الفكر أو الأدلة؛ وجب عليه أن ينسقها، ويسلسلها على مقتضى الأصول المقررة في المنهج العلمي الحديث، أما إذا قصد إلى التأثير والإمتاع، لا إلى التعليم والإقناع؛ كان سبيله أن يتأنق في اختيار لفظه، ويتفنن في تحرير أسلوبه، ويستعين على اجتذاب الأذهان واختلاب الآذان بإبداع الملكة، وإلهام الروح، وتشويق المخيلة، وتزويق الفن»[1].

وهٰذا هو شرح ما قاله الأقدمون من أن البلاغة هي مطابقة مقتضى الحال، فلكي نؤثر في نفوس المخاطبين لا يصح أن نخاطبهم بما لا تستطيع أن تدركه عقولهم، أو بما يجرحهم في مشاعرهم وعواطفهم، أو بما لا يتفق وينسجم مع اهتماماتهم وحاجاتهم.

ولكن؛ ما هي آلة البلاغة ووسائلها؟

لا بد للبليغ حتى يستحق هٰذا الوصف من أمرين اثنين: أحدهما خَلْقي موهوب، وثانيهما خُلُقي مكتسب، ولا يغني أحدهما عن الآخر:

أما الأول: فلا بد له من ملكات أربع، وهي: ذهن ثاقب، وعاطفة جياشة قوية، وخيال خصب ثري، وأذن تحسُّ بجمال الجرس، وتلذ بجمال الإيقاع.

وأما الأمر المكتسب: فهو القراءة، وبخاصة علوم اللغة، مع معرفة بأحوال النفوس البشرية، وطبائعها، وإلمام ومعرفة بما يحيط به من البيئة الطبيعية والاجتماعية.

إنَّ البليغ لا بدَّ له من ذٰلك كله، ولهٰذا نجد العالم الكبير حسين المرصفي ـ رحمه الله ـ وهو الذي تتلمذ له كثير من أولٰئك الذين اشتُهِروا بالأدب في مصر، نجده قد وضع كتابه «الوسيلة الأدبية»؛ ليكون عوناً لأولئك، حتى تصبح البلاغة ملكةً فيهم.

ولا يظنَّن ظانٌّ أن حفظ القواعد البلاغية وحدها يمكن أن يجعل صاحبها بليغاً. أذكر أنني التقيت في باكستان بجماعة يحفظون «التلخيص» للقزويني، وقد قرؤوا

---

(١) «دفاع عن البلاغة» (ص ٢٠ ـ ٢٤).

شروحه، ومع ذٰلك يعسُر على أحدهم أن يكوِّن جملتين وينطق بهما على حال يرضي المتكلم، بل لماذا نبعد كثيراً، فنحن نعرف أن بعض شيوخ أساتذتنا كان يدرِّس شروح «التلخيص» وما كُتب عليه من حواشي وتعليقات، ومع ذٰلك؛ حينما يريد كتابة كلمة لإلقائها في محفل ما، كان يكتبها له بعض تلاميذه. وخبر العالم اللغوي أبي عباس المبرِّد وهو يحدث عن نفسه حينما أراد أن يكتب كلمة يشكر فيها بعض الناس الذين ذكروه بخير؛ خبره مشتهر معروف عند الأدباء.

تلك هي أسباب البلاغة وآلاتها إذن: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب؛ كما يقول الأستاذ الزيات ـ رحمه الله ـ وهٰذا ما أشار إليه وبيَّنه الزمخشري[1] ـ رحمه الله تعالى ـ في مقدِّمة «كشافه»، وهو يحدثنا عن أن كثيراً من العلوم يسهل على المرء أن يحذقها، إلا علم التفسير المبني على علمي المعاني والبيان، وما يحتاجه مَن تعاطى هٰذه الصنعة، حيث يقول:

«لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق؛ إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعاني، وعلم البيان، وتمهَّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين؛ تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رَجَعَ زماناً ورُجِع إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدَّماً في حملة الكتاب، وكان مع ذٰلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقَّادها، يقظان النفس، درَّاكاً للَّمحة وإن لَطُفَ شأنها، منبهاً على الرمزة وإن

---

(١) محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري؛ أبو القاسم جار الله، ولد سنة (٤٦٧ هـ)، مفسر، محدث، متكلم، نحوي، لغوي، بياني، أديب، ناظم، ناثر، مشارك في عدة علوم، ولد بزمخشر من قرى خوارزم في رجب، وقدم بغداد، وسمع الحديث وتفقه، ورحل إلى مكة، فجاور بها، وسمي جار الله، وتوفي بجرجانية خوارزم ليلة عرفة بعد رجوعه من مكة [معجم المؤلفين: ١٢ / ١٨٦].

خفي مكانُها، لا كزًّا جاسياً، ولا غليظاً جافياً، متصرفاً ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضاً غير ريض بتلقيح بنات الفكر، وقد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه»[1].

لا بد لمتعاطي البلاغة إذن لكي ينمي خياله، ويلقح ذهنه، ويذكي عاطفته؛ لا بدَّ له من معدة علمية تهضم كل ما تقرأ، فبقدر ما يقرأ ويهضم يكون أكثر إمتاعاً، يجتذب القلوب والأذهان، ويختلب الأسماع والآذان.

وأخيراً؛ لا بد بعد هٰذا الحديث عن الفصاحة والبلاغة، أن نتحدث بإيجاز عن الأسلوب.

□□□

(١) «الكشاف» للزمخشري، المقدمة.

الفصل الرابع

الأسلوب

حينما نرجع إلى معاجمنا اللغوية والبلاغية، فلا نجدها تعطينا إلا بعض اللمحات عن هٰذه الكلمة التي هي عمود البلاغة بحق، والتي تكاد تكون الشغل الشاغل لطلاب البلاغة وللبلغاء على السواء، فإذا رجعت إلى «أساس البلاغة» للزمخشري، و«لسان العرب»، و«تاج العروس شرح القاموس»؛ وجدتها تمدُّك بشيء واحد، وهو المعنى اللغوي لكلمة أسلوب.

قال في «تاج العروس»:

«الأسلوب: السطر من النخيل، والطريق تأخذ فيه، وكل طريق ممتد فهو أسلوب. والأسلوب: الوجه والمذهب؛ يقال: هم في أسلوب سوء، ويُجمع على أساليب. وقد سلك أسلوبه: طريقته. وكلامه على أساليب حسنة. والأسلوب بالضم: الفن؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي: أفانين منه»[1].

ولكن هٰذا التعريف يلقي لنا ضوءاً على ما نريد أن نتحدث عنه، فالأسلوب هو الطريق، والبلغاء ـ وخاصة المحدثين منهم ـ لا يعنون به إلا هٰذا، فالأسلوب إذن الطريقة التي يسلكها صاحب الصناعة في صنعته، إلا أن الذي يعنينا هنا صنعة البيان.

لقد خلق الله تبارك وتعالى الناس مختلفين في الطبائع والأذهان، وفي الألسنة

---

(١) «تاج العروس» (٣ / ٧١).

والألوان، وفي الأذواق والآفاق، وفي غير هٰذا من الصفات المتعددة، فلا بدَّ إذن أن يكون لكلٍّ طريقته التي يرصف بها عباراته، ويجري بها قلمه، ويصور بها ألمه وأمله.

يأخذ بعض المُحْدَثين[1] على بلاغتنا أنها وقفت عند الجملة، وما يعرض لها من نظم، وهو ما يختص به علم المعاني، وعند الصور المتعددة لهٰذه الجملة في علم البيان، والأسلوب ـ بالطبع ـ لا يقف عند الجملة، وإنما مجاله الموضوع المتكامل؛ قصة كان، أم مسرحية، أم مثالاً، أم بحثاً.

يقول ابن خلدون[2]:

«إن الأسلوب لا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التركيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان... وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب... وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، ويصيرها في الخيال كالقالب والمنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان، فيرصها فيه رصًّا، كما يفعل البناء في القالب، والنساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه؛ فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة».

وكلما كان للغة إشراقها، وبقدر ما يكون للناس عناية بلغتهم؛ تكون نظرتهم التي تميز بين الأساليب.

ما زلت أذكر هٰذا الجدل المحتدم، وهذه الجلسات الصاخبة، وذٰلك حينما كنَّا طلاباً في المدارس الثانوية، فكان كل واحد منا ينتصر لكاتب أو أديب، بعضنا للزيات،

---

(١) وهو مأخذ فيه غلو وتطرف.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ولد سنة (٧٣٢ هـ)، أصله من إشبيلية، ورحل إلى فاس، وغرناطة، وتلمسان، والأندلس، وتولى أعمالاً كثيرة، توفي سنة (٨٠٨ هـ).

وآخر للعقاد[1]، وثالث للرافعي[2]، ولم نكتف بهٰذا، بل كنت تجدنا نفاضل بين الكتَّاب في ما يكتبون، فهٰذا أديب يحسن كتابة المقال، وآخر يحسن كتابة القصة، ونحن اليوم نتمنى أن نجد مثل هٰذا ـ بل أقل منه ـ عند طلابنا الجامعيين.

رحم الله الأستاذ الزيات، فلقد طغت السرعة والتطفل والصحافة ـ كما قال ـ على الأدب والبلاغة، ورابعة لم يشهدها، أو لعله شهد بدايتها قبل أن ينتقل للآخرة، تلك هي آفة التبعية التي تسلب الأمة شخصيتها، وتغيِّب الفكر، وتلقي بالفكر في غيابة الأهواءِ؛ لا بد لذوي الغيرة على هٰذه اللغة ـ لغة الوحي الإلٰهي ـ أن يتدبَّروا أمرهم قبل أن يتَّسع الخرق على الراقع.

■ أقسام الأسلوب:

وقد قسموا الأسلوب إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ **الأسلوب الخطابي**: ويعتمد على العبارات الجزلة القويَّة، والجمل الرصينة، والنبرة المؤثرة، ويجمُل فيه التكرار والتنوع في حركة الإلقاء.

٢ ـ **الأسلوب العلمي**: ويقوم على قوة الحجَّة، والبراعة في الإقناع، وترتيب الأدلة، والقوة في دفع الشبهات.

٣ ـ **الأسلوب الأدبي**: ولا بد له من العبارة السلسة، وجمال التصوير، ورقة

---

(١) عباس بن محمود العقاد، إمام في الأدب، مصري، من المكثرين كتابة وتصنيفاً، ولد سنة (١٨٨٩ م)، عمل مدرساً في بعض المدارس الابتدائية، انقطع للكتابة في الصحف، أصله من دمياط، ولد في أسوان، وتوفي بالقاهرة، ودُفن بأسوان سنة (١٩٦٤ م). [الأعلام: ٣ / ٢٦٦].

(٢) مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن محمد الرافعي، ولد سنة (١٨٨٠ م)، أديب، كاتب، شاعر، أصله من طرابلس، ولد في هيتم من قرى القليوبية، درس في مدرسة دمنهور، عُين كاتباً في محكمة طنطا، أصيب بصمم، فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به، انتخب عضواً للمجمع العلمي بدمشق، وتوفي بطنطا سنة (١٩٣٧ م). [المعجم: ١٢ / ٢٥٦].

التعبير؛ لأن الهدف منه إمتاع العواطف، وإيقاظ المشاعر، وإرهاف الإحساس.

ولكن هٰذه الأقسام جميعها لا بد لها من أمور مشتركة، فالأسلوب أيًا كان لا بد له من أمرين اثنين: الصورة أولاً، والمعنى ثانياً.

ونعني بالصورة: هٰذا القالب اللفظي الذي توضع فيه المعاني.

لا بد للأسلوب إذن من أن تكون ألفاظه وجمله حسنة الترتيب، جيدة السبك، خالية من التكرار الممل، يختار الكاتب أو المتكلم اللفظة المعبِّرة المستكملة لشروط الفصاحة - كما تكلَّمنا من قبل - والتراكيب الخالية من التعقيد، فإذا توفَّر له ذٰلك كله، فخليق به أن تكون عباراته منسجماً بعضها مع بعض، حتى يكون لها الجرس المطرب، والإيقاع المميز، على أن يكون بعيداً في ذٰلك كله عن التكلف والصنعة.

والأستاذ أحمد حسن الزيات[1] له فصول ممتعة بحق في كتابه «دفاع عن البلاغة»، تحدث فيها عن صفات الأسلوب، وخصَّ بالتفصيل منها ثلاث صفات، وهي: الجدَّة، والوجازة، والتلاؤم.

فعماد الجدَّة: اختيار اللفظة، وطرافة العبارة، فالكاتب لا بدَّ أن تكون له شخصيته حتى يكون كلامه منبثقاً من ذهنه لا من ذاكرته، ومن نفسه لا من الناس.

أما الإيجاز، فهو من أبرز الصفات المميزة للأسلوب الجيِّد، وذٰلكم لأن لكل كلام غاية تنتهي إليها.

وأما التلاؤم، فهو ما بين الجمل من موسقة وتنسيق وروعة إيقاع، وإذا كانت الصورة شكلا في الأسلوب، فليس ذٰلك دليلاً على إهمال المعنى، وعدم الاكتراث به.

إن الصورة والمعنى أمران رئيسان في الأسلوب، والذين يتحدثون عن اللفظ

(١) أحمد حسن الزيات، ولد (١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م)، أديب من كبار الكتاب، مصري، ولد بقرية كفر دميرة القديم، دخل الأزهر قبل الثالثة عشرة، وفصل قبل إتمام دراسته، وعمل في التدريس الأهلي، توفي في القاهرة سنة (١٩٦٨م). «الأعلام: ١/ ١١٤».

والمعنى نلقاهم في كثير من الأحيان يلقون عباراتهم دون تدقيق وتمحيص، على سبيل المثال نذكر صاحب «البلاغة في ثوبها الجديد» وهو يتحدث عن اللفظ والمعنى، حيث يعد من أنصار اللفظ في العصر الحديث الأستاذ أحمد حسن الزيات، وهذه عبارته:

«وكان أحمد حسن الزيات من المعاصرين رافع هٰذا اللواء، ومن أقواله: والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة، ووثاقة السرد، ونصاعة الإيجاز، وبراعة الصنعة، فإذا كان مع كل ذٰلك المعنى البكر، والشعور الصادق؛ كان الإعجاز، وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ، وبراعة التركيب، من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه، قد يتّسم بالجمال، ويظفر بالخلود؛ إن جاء سبكه، وحسن عرضه.

وفي عالم الأدب الغربي مَن يتجه مثل هٰذا الاتجاه، فقد روي عن لا برويير أن هوميروس وأفلاطون وهوراس لم يبن شأوهم إلا بعباراتهم وصورهم، كما روي عن شاتوبريان قوله: لا تحيا الكتاب بغير الأسلوب.

ويخيل إلينا أن الإيمان بهٰذا الاتجاه أدى بفريق من الأدباء العرب في القرن الخامس الهجري، وفي ما تلاه من قرون، إلى أن ينزعوا إلى جانب تفضيل الألفاظ، والتأنق بالأساليب على حساب المعاني والجوهر، فغدا أدب هٰذه العصور ألفاظاً مرصوفة، وقوالب جامدة، وأجساماً بدون روح، فانهار الأدب، وطغت عليه عوامل الانحطاط وأسَفَّ غاية الإسفاف»[1].

على أن عبارته الأخيرة التي نقلها عن الأستاذ الزيات دون أن يشير إلى مصدرها تردُّ هٰذا القول.

وهناك عبارات ذكرها المرحوم الزيات، تؤكد على أصالة المعنى في الأسلوب، انظر مثلاً إلى قوله:

---

(١) «البلاغة العربية في ثوبها الجديد»، الدكتور بكري شيخ أمين، (ص ١٧ ـ ١٨).

«وكما تؤثّر صفات الأمة في طبيعة اللغة؛ تؤثّر طبيعة اللغة في أسلوب الكاتب، فاللغات التي اكتسبت من مدنية أهلها رقة اللفظ وأناقة العبارة، ومن شاعريتهم جمال صورة وروعـة الأخيلة؛ تغني الكـاتب بموسيقاها وحلاها عن كدِّ القريحة في ابتكار المعاني، واستنباط الفكر، أما اللغات التي لم تؤتها الطبيعة حظًّا موفوراً من سحر اللفظ وفتـون الصياغة؛ فكتّابها مضطرُّون إلى أن يعوضوا أساليبهم من ذلك وجازة التعبير، ووزانة التفكير، ومد القارىء بفيض من المعاني يشغله عن الفكر فيما فاته من جمال الأسلوب.

واللغـة العربية من النوع الأول، طبّعها أهلها منذ القدم على موسقة الألفاظ، وتنويع المعاني بصور البيان، وتفويف الجمل بألوان البديع، لا فرق في ذٰلك بين بداوتها وحضارتها، ولا بين فصحاها وعاميتها، حتى اطمأن كثير من رجال القلم إلى أن يعفوا طباعهم من جهد التفكير، ويحاولوا امتلاك القلوب بروعة الأسلوب، فكانت المقالة أو القصيدة أشبه بالقطعة الموسيقية؛ تخلب الأذن، ولا يبلغ النفس والذهن منها غير رجع ضعيف»[1].

والأسلوب ـ إذن ـ لا بد له من المعنى المبتكر، والصورة الجيدة، ولسنا بحاجة أن ننقل لك بعض الأمثلة لكل نوع من أنواع الأساليب، فذٰلك كثير في كتب الأدب والتاريخ.

□□□

(١) «دفاع عن البلاغة»، الأستاذ أحمد حسن الزيات، (ص ٧٢ ـ ٧٣).

الفصل الخامس

لمحة في تاريخ الدراسات البلاغية

وبعد؛ فهٰذه كلمة موجزة عن تاريخ البلاغة:

■ تاريخ البلاغة:

قبل نزول القرآن الكريم، وفي العصر الإسلامي الأول؛ كانت الملحوظات البلاغية كلها خاضعة للذوق، مع اهتداء لبعض القواعد التي من شأنها أن يعلل بها جودة القول، أو ركاكته.

ولما اتَّسعت الفتوحات الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم، وضعُفَ الاعتماد على الذوق وحده؛ كان لا بدَّ من أن تقعَّد القواعد، فوضع أبو عبيدة[1] «مجاز القرآن»، وهو وإن كانت عنايته لغوية، فلقد كانت له بعض الملحوظات البيانية.

ثم جاء الجاحظ، فكان له فضل، حيث اتسعت بفضله دائرة هٰذه الملحوظات البيانية، وذلك بما مَنَّ الله عليه من قريحة وذهن وذكاء، وبما كان له من سَعة في الثقافة والاطلاع، فلقد كان بحق غزير الثقافة، واسع المعرفة.

ثم جاء ابن قتيبة[2]، وهو إن لم يبلغ مرتبة الجاحظ من حيث تسجيل

---

(١) معمر بن المثنى، ولد سنة (١١٠ هـ)، من علماء البصرة، تعلم النحو والشعر والعريب على يد أبي عمرو بن العلاء، وضعت في عهده أسس العلوم الإسلامية، توفي بين (٢٠٩ - ٢١٣ هـ).

(٢) أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المرْوري، العالم الكبير، اللغوي الناقد، الكاتب =

الملحوظات، والغوص على التقاط المعاني، فإنه فاقه من حيث النسق في الترتيب، وحسن التبويب، مع سعة في العلم، فلقد كان بحق دائرة المعارف، يدلنا على ذٰلك هٰذا التراث المترامي الأطراف، الذي خطه بيراعه، والذي يدل على كثرة اطلاعه، وطول باعه.

ثم جاء ابن المعتز[1]، فوضع كتاب «البديع»، وذكر فيه أنواعاً مما بُنيت عليه البلاغة فيما بعد.

ثم جاء قدامة[2]، فزاد على ما ذكره ابن المعتز من أنواع البديع.

ومن بعد قدامة، أخذت الدراسات البيانية في اتجاهين متقابلين، كان الاتجاه الأول خاصًا ببحوث إعجاز القرآن، ومن أبرز الذين نهجوا هٰذا النهج، وحفظت لنا الأيام جهدهم المشكور؛ الرماني[3] في رسالته: «النكت في إعجاز القرآن»، وقد تحدث فيه عن البلاغة، وقسمها إلى عشرة أقسام[4]:

١ ـ الإيجاز.

٢ ـ التشبيه.

= الأديب، الحافظ المؤرخ، المفسر المحدث، المحيط بمشكل وغريب كتاب الله عز وجل، أصله فارسي من مدينة مرو، ولد سنة (٢١٣ هـ)، وتوفي سنة (٢٧٦ هـ).

(١) عبدالله بن المعتز بالله؛ أبو العباس، أديب، شاعر، ولد في شعبان، وكان يقصد فصحاء العرب ويأخذ عنهم، ولقي العلماء من النحويين والإخباريين؛ كالمبرد، توفي سنة (٢٩٦ هـ) مخنوقاً. [المعجم: ٦ / ١٥٤].

(٢) قدامة بن جعفر ـ أو جعفر بن قدامة ـ بن زياد؛ أبو القاسم، أديب من كبار الكتاب من أهل بغداد، له شعر ومصنفات في صنعة الكتابة، توفي سنة (٣١٩ هـ). [الأعلام: ٣ / ١٢٣].

(٣) علي بن عيسى بن علي أبو الحسن الرماني، باحث معتزلي مفسر، من كبار النحاة، أصله من سامراء، ولد في بغداد سنة (٢٩٦ هـ)، وتوفي بها سنة (٣٨٤ هـ).

(٤) «النكت في إعجاز القرآن» لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني»، حققها محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول، دار المعارف بمصر، (ص ٧٦).

٣ ـ الاستعارة.

٤ ـ التلاؤم.

٥ ـ الفواصل.

٦ ـ التجانس.

٧ ـ التصريف.

٨ ـ التضمين.

٩ ـ المبالغة.

١٠ ـ حسن البيان.

والخطابي في رسالته «البيان في إعجاز القرآن»، وقد حدثنا عن أقسام البلاغة، كما حدثنا عن اختيار الألفاظ، وعن النظم والمعارضات الشعرية، ورسالتا الرمّاني والخطّابي كانتا مادة غزيرة لمن جاء بعدهما.

ثم جاء أبو بكر الباقلاني[1]، فوضع كتابه ذائع الصيت، وهو «إعجاز القرآن».

أما الاتجاه الثاني؛ فكان عن البيان بعامة، ولم يقصروه على البحث في الإعجاز، ومن أبرز كتب هٰذا الاتجاه كتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري[2]، ويعني بهما صناعة الشعر وصناعة النثر، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» للجرجاني، و«الموازنة بين الطائيين، أبي تمام والبحتري» للآمدي، وكتاب «الشعر» لابن طباطبا[3]، و«سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي، و«المثل السائر» لابن الأثير في

---

(١) أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني أو ابن الباقلاني، ولد سنة (٣٣٨ هـ)، قاض من كبار علماء الكلام، أشعري، ولد في البصرة، وسكن بغداد، وتوفي فيها، توفي سنة (٤٠٣ هـ). [الأعلام: ٦ / ١٧٦].

(٢) الحسين بن عبدالله بن سهل العسكري أبو هلال؛ لغوي، أديب، شاعر، مفسر، له كتاب «الصناعتين»، توفي (٣٩٥ هـ).

(٣) يحيى بن محمد العلوي الحسيني الشيعي؛ أبو المعمر، ابن طباطبا، أديب، نسابة، متكلم، من أهل بغداد، توفي سنة (٤٧٤ هـ). [معجم المؤلفين: ١٣ / ٢٦].

القرن الخامس الهجري.

وإلى هنا لم تكن للبلاغة هٰذه الأدوار والأقسام التي نعرفها الآن، وإنما كانت البلاغة، والبديع، والبيان، والبراعة، والفصاحة؛ كلها تعني شيئاً واحداً.

وجاء عبدالقاهر - رحمه الله - فوضع كتابيه «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة»، فكان فتحاً جديداً، فلقد استطاع الشيخ - رحمه الله - أن يضع نظرية متكاملة البنيان للبلاغة العربية، فتحدث في «الدلائل» عن النظم، وهو الذي كان أساساً فيما بعد لعلم المعاني، وتحدث في «الأسرار» عن بعض الموضوعات؛ كالتشبيه، والاستعارة، والمجاز، وهو ما عُرف فيما بعد بعلم البيان، ولكن عبدالقاهر - رحمه الله - لم يجعل لكل علم من العلمين دائرة خاصة به.

وجاء الزمخشري بعد عبدالقاهر يطبِّق نظريته تطبيقاً علميًّا في «تفسير الكشاف»، مع بعض الزيادات التي تدل على علوِّ همته، وجودة قريحته، ولعله أول من أشار إلى التفرقة بين علم المعاني والبيان، وإن كان لم يضع لكل منهما حدًّا فاصلاً، مع ما لكل منهما من موضوعات خاصة به، وإلى هنا كانت البلاغة صافية النبع، عربية الترتيب والوضع.

وجاء السكَّاكي[1] فوضع كتابه «مفتاح العلوم»، وهو أول من فصَّل موضوعات كل من علم المعاني والبيان على حدة، وجعل كثيراً من أنواع البديع التي عُرفت فيما بعد تابعة لعلم المعاني، ولم يُجْعل علم البديع علماً خاصًّا قسيماً لعلمي المعاني والبيان إلى أن جاء بدر الدين بن مالك[2]، واختصر «مفتاح» السكاكي، وهو ابن صاحب الألفية

---

(١) يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي، سراج الدين، أبو يعقوب، ولد سنة (٥٥٥ هـ)، عالم في النحو، والتصريف، والمعاني، والبيان، والعروض، والشعر، توفي بخوارزم سنة (٦٢٦ هـ). [المعجم: ١٣ / ٢٨٢].

(٢) محمد بن محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك، بدر الدين بن الإمام جمال الطائي، كان إماماً، فهماً، ذكيًّا، عالماً في النحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، والمنطق، مات سنة (٦٨٠ هـ).

المعروفة بـ «ألفية ابن مالك»[1] ـ رحمهما الله ـ وقد اختصر «مفتاح» السكاكي، وهو أول من قسم البلاغة إلى أقسامها المعروفة الآن: البيان، والمعاني، والبديع.

وجاء القزويني فلخص «مفتاح» السكاكي، وأصبحت البلاغة مختصرات، وصار كتاب «التلخيص» فيما بعد المحور الذي يدور حوله الكاتبون، وانبرى العلماء لكتاب «التلخيص»؛ يلخصونه أو يشرحونه، فشرحه ابن السُّبكي[2] شرحاً مزج فيه بين البلاغة، وعلم الكلام، وأصول الفقه، والنحو، والمنطق، والفلسفة.

ومن أشهر شراحه سعد الدين التفتازاني[3]؛ فلقد شرحه شرحين سمَّى أحدهما «المختصر»، والآخر «المطول».

كما شرحه ابن يعقوب المغربي[4].

ولا ننسى أن نذكر هنا أن القزويني نفسه صاحب «التلخيص» قد وضع كتاباً كالشرح لـ «تلخيصه»، سمَّاه «الإيضاح»

ثم شرحه عصام الإسفراييني[5] شرحاً سمَّاه «الأطول»؛ قابَلَ به شرح التفتازاني

(١) محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الأندلسي، جمال الدين أبو عبدالله؛ نحوي، لغوي، مقرىء، ولد بجيان بالأندلس، ورحل إلى المشرق، وتوفي بدمشق، ولد سنة (٦٠٠ هـ)، وتوفي سنة (٦٧٢ هـ). [المعجم: ١٠ / ٢٣٤].

(٢) عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي بن تمام الأنصاري الشافعي السبكي؛ أبو نصر تاج الدين، ولد سنة (٧٢٧ هـ)، فقيه، أصولي، مؤرخ، أديب، ناظم، ناثر، ولد بالقاهرة، قدم دمشق مع والده، ولزم الذهبي، وتخرج عليه، توفي سنة (٧٧١ هـ). [المعجم: ٦ / ٢٢٦]

(٣) مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني؛ سعد الدين، ولد سنة (٧١٢ هـ)، مشارك في النحو، والتصريف، والمعاني، والبيان، والفقه، والمنطق، ولد بتفتازان، وأخذ عن القطب والعضد، توفي بسمرقند سنة (٧٦١ هـ).

(٤) محمد بن يعقوب بن يحيى المغربي المالكي جمال الدين؛ فقيه، منطقي، ناظم، ارتحل إلى بلاد العجم، وناب في قضاء المدينة، توفي سنة (٨٣٠ هـ). [المعجم: ١٢ / ١١٩].

(٥) إبراهيم بن محمد بن عربشاه الإسفراييني، عصام الدين، من علماء خراسان، توفي في حدود (٩٥١ هـ)، [المعجم: ١ / ١٠١].

الذي سمّاه «المطول».

وقد جُمع شرح السعد المختصر، وعليه حاشية للدسوقي، مع شرح ابن السُّبكي المسمى «عروس الأفراح»، وشرح ابن يعقوب المغربي المسمى «مواهب المفتاح»، مع إيضاح القزويني الذي وضع كالشرح لـ «تلخيصه»؛ جُمعت هذه كلها، فطُبعت في كتاب واحد، وسمي «شروح التلخيص».

وكان «التلخيص» المعوَّل عليه من الدراسة في الأزهر في المراحل العالية، ثم نظمت البلاغة أرجوزات، وأذكر أن أول كتاب درسناه في البلاغة كان أرجوزة اسمها «الجوهر المكنون في الثلاثة فنون: المعاني، والبيان، والبديع».

ورغم أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[1] ـ رحمه الله ـ ثار على هٰذه الطريقة؛ طريقة تدريس البلاغة على هٰذا الشكل، وهو الذي يرجع إليه الفضل في إحياء كتابي عبدالقاهر «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة» من جديد، فإن هٰذه الأرجوزات وتلك الشروح بقيت تدرس إلى وقت قريب.

ومن الحق أن نقرر أن الأستاذ الإمام كان له الفضل في تجديد دراسة البلاغة العربية، وكان من نتيجة هٰذا أن وضع الأديب المرحوم عبدالرحمن البرقوقي[2] تعليقات على متن «التلخيص»، كما وضعت كتب لتحل محل الكتب القديمة، من ذلك ما وضعه المرحوم حفني ناصف[3] في البلاغة ضمن كتابه «قواعد اللغة العربية»، والأستاذ

---

(١) محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني، فقيه، مفسر، متكلم، ولد سنة (١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م)، ولد بمصر، ونشأ في محلة نصر بالبحيرة، توفي بالإسكندرية سنة (١٩٠٥ م). [المعجم: ١٠ / ٢٧٢].

(٢) عبدالرحمن بن عبدالرحمن بن سيد بن أحمد البرقوقي، أديب، مؤرخ، صحفي، ولد في منية جناح مركز وسوق بالغربية من مصر، قرأ في الأزهر على الشيخ المرصفي، وأنشأ «مجلة البيان». [المعجم: ٥ / ١٤٣].

(٣) حفني بن إسماعيل بن خليل بن ناصف؛ أديب، شاعر، من رجال القضاء والتربية والتعليم، ولد سنة (١٨٥٦ م)، وتوفي سنة (١٩١٩ م). [المعجم: ٤ / ٦٩].

أحمد الهاشمي[1] ـ رحمه الله ـ كتابه «جواهر البلاغة»، ثم وضع الأستاذ أحمد مصطفى المراغي[2] ـ رحمه الله ـ كتابه «علوم البلاغة»، كما كتب الأستاذ علي الجارم[3] ـ رحمه الله ـ على منوال كتابه «النحو الواضح» «البلاغة الواضحة» لطلاب المدارس الثانوية أكثر فيها من الأمثلة.

وكان الشيخ أمين الخولي[4] وهو صاحب «مناهج تجديد في التفسير والبلاغة» كان له كتاب «فن القول» لطلاب كلية الآداب.

وهكذا بدأت الدراسات البلاغية تتعدد وتتنوع، فهناك من يؤرخ للبلاغة، وهناك من يقارن بينها وبين بلاغة الأمم الأخرى، وهناك من يدافع عنها وينتصر لها أمام الهجمة الشرسة من المتطفلين عليها والداعين لنبذها، وهناك من يحاول أن ييسر موضوعاتها.

وكلها جهود مشكورة، ونرجو أن تكون مأجورة ـ إن شاء الله ـ والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ونسأل الله أن نكون منهم.

ولنشرع الآن بالحديث عما قصدنا إليه، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

□□□

(١) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي الأزهري المصري، تتلمذ للشيخ محمد عبده، وصار مديراً لمدارس الجمعية الإسلامية، ولد سنة (١٨٧٨ م)، وتوفي سنة (١٩٤٣ م). [المعجم: ١ / ١٤٣].

(٢) أحمد مصطفى المراغي؛ مفسر مصري من العلماء، تخرج في دار العلوم سنة (١٩٠٩م)، توفي في القاهرة سنة (١٣٧١هـ / ١٩٥٢م) [الأعلام: ١ / ٢٥٨].

(٣) علي بن صالح بن عبدالفتاح الجارم، ولد سنة (١٨٨١ م)، أديب، شاعر، كاتب لغوي، نحوي، بياني، تعلم في القاهرة، انتُخب عضواً بالمجمع اللغوي في القاهرة وبالمجمع العلمي في دمشق، توفي سنة (١٩٤٩ م).

(٤) أمين الخولي، من أعضاء المجمع اللغوي بمصر، ولد سنة (١٨٩٥ م)، وتوفي سنة (١٩٦٦ م). [الأعلام: ٢ / ١٦].

تدريبات

* بيِّنْ الكلمات التي أخلَّت بفصاحة ما يأتي، واذكر سبب ذلك.

١ ـ قال الفرزدق:

وإذا الـرِّجـالُ رأوا يَزيدَ رَأَيْتَهُـم   خُضُـعَ الـرِّقابِ نَواكِسَ الأبصارِ[1]

٢ ـ وقال آخر:

إنَّ بَنِـيَّ لَلِّئـامِ زَهَـدَهْ   ما ليَ في صُدورِهِـم مِن مَوْدَدَهْ[2]

٣ ـ قال زهير:

تَقِـيٌّ نَقِـيٌّ لَمْ يُكَـثِّـرْ غَنيمَـةً   بِنَـهْـكَـةِ ذِي قُرْبـى ولا بِحَقَلَّدِ[3]

٤ ـ قال أبو تمام:

قد قلتُ لمَّا اطْلَخَمَّ الأمرُ وانْبَعَثَتْ   عَشْـواءُ تاليةً غُبْسـاً دَهـاريسا[4]

٥ ـ وقال المتنبي:

---

(١) «خزانة الأدب» (١ / ٢٠٨).
جَمَـع (نواكس) على فواعل ـ ومفرده (ناكس) ـ وهذا لا يجوز إلا في وصف لمؤنث عاقل؛ كـ (حائض)، أو لمذكر لما لا يعقل؛ كـ (صاهل)، وهنا لمن يعقل؛ ففيها مخالفة القياس، والصحيح أن تجمع جمع مذكر سالم، أي: ناكسو. قال تعالى: ﴿ولَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمونَ ناكِسو رُؤوسِهِم عندَ ربِّهِم﴾ [السجدة: ١٢].

(٢) هنا فكُّ الإدغام في (مودده)، والأصل أن يقال: مودَّة؛ فخالف القياس.

(٣) النهكة: الغلب. والحقلد: الإثم. قالوا: وليس في لفظ زهير أنكر منه.

(٤) «ديوانه»، شرح محيي الدين الخياط، (ص ١٧١).
اطلخم: اشتـد وعـظم، وهي منكـرة لجمعهـا بين الغـرابة والغلظ في السمع، وكذا لفظه: دهاريسا، وهي الدواهي. والعشواء: الناقة الضعيفة البصر، والمراد هنا أنها لا تميز بين أحد. والغبس: جمع أغبس وغبساء، وهي الشديدة الظلمة.

جَفَخَتْ وهُمْ لا يَجْفَخُونَ بِهابِهِم		شِيَمٌ على الحَسَبِ الأغَرِّ دَلائِلُ[1]

٦ - وقال أيضاً:

فلا يُبْرَمُ الأمْرُ الذي هُو حالِلٌ		ولا يُحْلَلُ الأمْرُ الذي هُو مُبْرَمُ[2]

٧ - وقال أبو تمام:

نِعْمَ متاعُ الدُّنيا حَباكَ بِهِ		أرْوَعُ لا جَيْدَرٌ ولا جِبْسُ[3]

*** اذكر ما أخلَّ بفصاحةِ كل من التراكيب التالية:**

١ - قال الفرزدق:

وليسَتْ خُراسَانُ التي كانَ خالِدٌ		بِها أسَدٌ إذْ كانَ سيفاً أميرُها[4]

٢ - وقال أبو العميثل[5]:

---

(١) «الديوان» (٣ / ٣٧٥).
جفخت: فخرت. وفيها غرابة لاحتياجها إلى بحث وتنقيب.

(٢) «الديوان» (٤ / ٢٠٦).
وفيه مخالفة القياس، إذ الأصل أن لا يفك الإدغام، فيقال: حالٌ، ويحلُّ.

(٣) «الديوان» (ص ١٦٧).
حباك: أعطاك. والأروع: الذي يعجب الإنسان. والجيدر: القصير، وهي وحشية منكرة. والجبس: الجامد الثقيل الروح.

(٤) «ديوانه»، طبعة دار صادر، (ص ٢٧٨).
يمدح الشاعر هنا أسد بن عبدالله القسري، والبيت غير فصيح؛ لأن فيه تعقيداً جاء من تقدم بعض الكلمات التي لا يجوز تقديمها؛ إذ معنى البيت: ليست خراسان التي كان خالد بها سيفاً فيما مضى هي خراسان التي كان أسد أميرها. أي: إن خالداً كان سيفاً في خراسان قبل أن يتولى إمارتها أسد، فلما تولّى إمارتها أسد؛ لم يعد خالد سيفاً لها. فانظر كيف قدم كلمة أسد، وكان ينبغي أن تحل محلها كلمة سيف، ولا يُدرك هذا المعنى بسهولة.

(٥) عبدالله بن خليد؛ أبو العميثل، لغوي، شاعر، نشأ بالبادية، واتصل بالأمير طاهر بن الحسين، فعهد إليه بتأديب ولده، توفي سنة (٢٤٠ هـ).

آصْدُقْ وعِفَّ وجُدْ وأنْصِفْ وآحْتَمِلْ وآصْفَحْ وَدارِ وكافِ وآحْلَمْ وآشْجَعِ (١)

٣ ـ وقال أحد أصحاب مصعب بن الزبير في شأنه:

لَمَّـا رأى طَالِبُـوهُ مُصْعَبـاً ذُعِروا وكـادَ لو ساعَـدَ المَقْـدورُ يَنْتَصِـرُ(٢)

٤ ـ وقال الحريري(٣):

وأزْوَرُّ مَن كانَ له زائِـراً وعَـافَ عافي العَـرْفِ عِرفانَـهُ(٤)

٥ ـ وقال آخر:

كَسَـا حِلْمُهُ ذا الحِلْمِ أثْوابَ سؤدُدِ ورَقَّى نَداهُ ذا النَّدى في ذُرا المَجْدِ(٥)

٦ ـ وقالَ آخر:

والشَّمْسُ طالِعَـةٌ ليستْ بكـاسِفَـةٍ تبْكي عليكَ نُجـومَ الليلِ والقَمَـرا(٦)

٧ ـ وقال زهير بن أبي سلمى:

---

(١) «العمدة» (٢ / ٣٠).
نشأ التنافر هنا بين الكلمات لإيراد أفعال كثيرة، يتبع بعضها بعضاً بدون عطف.

(٢) «شرح ابن عقيل» (١ / ٤٩٤).
أعاد الضمير في (طالبوه) على متأخر لفظاً ورتبة، وهو (مصعباً)، وهٰذا لا يجوز في علم النحو؛ لذلك نشأ فيها ضعف تأليف.

(٣) عبدالله بن القاسم اللخمي الإشبيلي الحريري أبو محمد؛ محدث، حافظ، نسابة، مؤرخ، أديب، شاعر، ولد سنة (٥٩٠ هـ)، وتوفي سنة (٦٤٦ هـ).

(٤) «معاهد التنصيص» (١ / ٣٧).
العيب في تنافر الكلمات، والمعنى انحرف عنه من كان يزوره، وكره طالب الإحسان معرفته.

(٥) أي: من كان ديدنه الحلم والكرم، وحاز السيادة والرفعة. والبيت فيه ضعف تأليف؛ لأن كلًّا من الضميرين ـ وهما الضمير في (حلمه) وفي (نداه) ـ يعود على متأخر لفظاً ورتبة.

(٦) أي: والشمس ليست بكاسفة نجوم الليل، وهي تبكي عليك، والقمر يبكي عليك أيضاً، ففيه تعقيد نشأ من الفصل بين اللفظة ـ التي هي (كاسفة) ـ ومفعولها ـ الذي هو (نجوم) ـ بجملة «تبكي عليه».

وَمَن لَمْ يَذُدْ عن حَوْضِـهِ بِسِـلاحِـهِ يُهَدَّمْ ومَن لمْ يظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ[1]

٨ ـ وقال أبو جندب:

ألا ليتَ شِعْـري هلْ يَلومَنَّ قومُـهُ زُهَـيراً على ما جَرَّ مِن كلِّ جانبِ[2]

٩ ـ وقال آخر:

أرضٌ لهـا شَرَفٌ سِواهـا مِثْلُهـا لو كانَ مِثْلُكَ في سِواهـا يوجَـدُ[3]

١٠ ـ وقال سليط بن سعد:

جزى بنـوهُ أبـا الغَيْلانِ عن كِبَـرٍ وحُسْنِ فِعـلٍ كما جُوزِي سِنِمَّارُ[4]

١١ ـ وقال أبو الطيب المتنبي:

ليسَ إلّاكَ يا عَلِيُّ هُمـامٌ سَيفُـهُ دُونَ عِرْضِـهِ مَسْـلولُ[5]

١٢ ـ وقال ذو الرمة[6]:

---

(١) «ديوانه» (ص ٨٨).
والبيت فيه تعقيد معنوي، حيث كنى بالظلم عن المحافظة على الحقوق، وهو بعيد.

(٢) «خزانة الأدب» (١ / ٢٨٠).
والبيت فيه ضعف تأليف، حيث أعاد الضمير في (قومه) على متأخر لفظاً ورتبة.

(٣) البيت فيه تنافر بين الكلمات، نشأ من تكرار الألفاظ.

(٤) «خزانة الأدب» (١ / ٢٨٠).
والبيت فيه ضعف تأليف، حيث أعاد الضمير في (بنوه) على متأخر لفظاً ورتبة؛ (أبا).

(٥) البيت فيه ضعف تأليف، حيث وضع الضمير المتصل بعد (إلا)، وحقه وضع المنفصل (إياك)؛ كما تقرر في علم النحو.

(٦) غيلان بن عقبة بن فهيس بن مسعود العدوي من مصر، أبو الحارث، ذو الرمة، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال ابن العلاء: فُتح الشعر بامرىء القيس، وخُتم بذي الرمة. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، توفي في أصبهان سنة (١١٧ هـ).
والبيت في «خزانة الأدب» (٤ / ١٠٨).

كـــــانَّ أصْواتَ مِن إيغـــــالِهِنَّ بنا أواخِـرِ المَيْسِ إنْقاضُ الفَراريجِ [1]

□□□

(1) الإيغـال: مصـدر أوغل في السير؛ إذا أبعد وأسرع، والضمير للإبل. والأواخر: جمع آخرة الرحل، وهي العود الذي يستند إليه الراكب. الميس: شجر صلب تتخذ منه الرحال. والإنقاض ـ بكسر الهمزة ـ: مصدر أنقضت الدجاجة. والفراريج: جمع فروج، وهو صغير الدجاج. والبيت فيه ضعف تأليف؛ ذلك لأنه فصل بين المضاف ـ وهو (أصوات) ـ والمضاف إليه ـ وهو (أواخر الميس) ـ بالجار والمجرور؛ (من إيغالهن)، والتقدير: كأن أصوات أواخر الميس من إيغالهن. وهذا قبيح غير جائز في علم النحو، اللهم إلا في حالات نادرة نص عليها النحويون، ومن ذلك قراءة ابن عامر في قوله: ﴿وكذلك زيَّنَ لكثير من المشركين﴾ [الأنعام: ١٣٧].

علم المعاني

وهو يضم عشرة فصول :

الفصل الأول : مقدمة في علم المعاني .

الفصل الثاني : الخبر .

الفصل الثالث : الإنشاء .

الفصل الرابع : التقديم والتأخير .

الفصل الخامس : الحذف والذكر .

الفصل السادس : التعريف والتنكير .

الفصل السابع : تقييد الجملة .

الفصل الثامن : التقييد بغير الشرط .

الفصل التاسع : الفصل والوصل .

الفصل العاشر : الإيجاز والإطناب والمساواة .

الفصل الأول

مقدمة في علم المعاني

■ تعريف علم المعاني:

قلنا من قبل: إن أصل علم المعاني نظرية النظم التي وضعها عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ، فلا بد إذن من أن نقف وقفة موجزة مع هٰذه النظرية؛ حتى نستطيع أن نتذوق معنى هٰذا العلم.

يعني عبدالقاهر بالنَّظْم تعليق الكلام بعضه على بعض. ويقول: إنه توخّي معاني النحو. وهٰذا الكلام لا بد له من شرح وتفصيل.

نقرأ في علم النحو مثلاً أنَّ الفعل لا بد له من فاعل، وقد نرى الخبر يتقدم على المبتدإ، والمفعول يتقدم على الفعل، وحينما نبحث عن سر هٰذا التقديم، فإنا نجدُ أن الأمر ليس جزافاً، ولا بد من غرض وسبب من أجله كان هٰذا التقديم للخبر على مبتدئه، وللمفعول على فعله؛ لذٰلك يرى عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ أننا حينما ننطق بأي جملة، ونركبها من كلماتها، فإن هٰذا التركيب ناشىء ـ أولاً وقبل كل شيء ـ عن المعنى الذي هيأناه في نفوسنا، وأردنا أن نعبر عنه بهٰذه الألفاظ.

النظم إذن لا بد له من أمرين اثنين: المعنى الذي نريد التحدث عنه، ثم اللفظ الذي نعبِّر به عن هٰذا المعنى، فإذا اختلف المعنى الذي نريد التعبير عنه، فلا بد أن يختلف اللفظ، حتى إن كانت مادته واحدة.

هنـاك إذن: الصـورة، والمعنى الـذي نعبـر عنـه بهٰذه الصورة، خذ مثلاً هٰذه الجمل: إنَّما المتنبِّي شاعر. أتقرأ كتاب «الأيام»؟ لا ضجة في الحجرة المجاورة.

هٰذه أمثلة ثلاثة، ولكننا سنجد أنه حينما يختلف المعنى تختلف الصورة لهٰذه الأمثلة، مع أن مادتها اللغوية واحدة.

قد نتجاذب الحديث معاً، فيرى بعضنا أن المتنبي كان حكيماً، وليس حريًّا أن يوصف بأنه شاعر. وقد أرى طالباً قرب موعد امتحانه ينصرف عن دراسة مواد الامتحان، وينهمكُ في قراءة كتاب «الأيام»! وقد أعجب من طلاب الحجرة المجاورة لنا لهدوئهم، فاريد أن أعبر عن هٰذه المعاني الكائنة في نفسي، فأعبر بهٰذه العبارات: إنما المتنبي شاعر. أتقرأ كتاب الأيام؟! لا ضجة في الحجرة المجاورة!

ولكن قد يتغير المعنى، فقد نتجاذب الحديث هٰذه المرة، فبعضنا يرى أن أبا تمام أشعر من المتنبي، وبعضنا الآخر يرى أن ابن الرومي أشعر منهما، ولكني أرى عكس ذٰلك، فقد ثبت في نفسي أن المتنبي أشعر منهما، فأعبر عن هٰذا المعنى، فأقول: إنما الشاعر المتنبي.

وقد يرى راءٍ أن كتاب «الأيام» ليس حريًّا بأن يُقرأ، فيعبر عن هٰذا المعنى ـ وهو ينكر على قارئه ـ بقوله: أكتاب «الأيام» تقرأ؟

وقـد تزلمني هٰذه الضجة التي أجدها في الحجرة التي أجلس فيها، والحجرة المجاورة خالية من الضجيج، هٰذا المعنى في نفسي أريد أن أعبر عنه بعبارة مناسبة له، فأقول: لا في الحجرة المجاورة ضجة.

هٰذه جمل ثلاث؛ مادة الكلام فيها واحدة لم تتغير، إنما الذي تغير هو الصورة؛ صورة هٰذا الكلام، فالجملة الأولى: إنما المتنبي شاعر؛ صارت هٰكذا: إنما الشاعر المتنبي، والجملة الثانية: أتقرأ كتاب الأيام؟ صارت هٰكذا: أكتاب الأيام تقرأ؟ والجملة الثالثة: لا ضجة في الحجرة المجاورة؛ أصبحت: لا في الحجرة المجاورة ضجة.

ولكن لِمَ اختلفت هٰذه الصور، هٰذه المادة الكلامية من صورة إلى صورة؟!

الحق أننا لم نفعل ذٰلك رغبة في التغيير، ولا حذلقة في القول، وإنما حملنا على ذٰلك التغيير المعنى، لقد تغير المعنى، فتغيرت الصورة.

ترتيب الألفاظ في النطق إذن إنما هو ناشىء عن ترتيب المعاني في النفس.

ذٰلك هو النظم الذي يعنيه عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ.

النَّظْمُ إذن أن يكون ترتيب الكلام وأنت تنطق به قد صُمِّم تصميماً تامًّا؛ ليوافق المعاني التي تريد أن تعبر عنها.

من هنا ندرك السر في قوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . الۤمۤ . ذٰلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]، وفي قوله تعالى يصف خمر الجنة: ﴿لا فيها غَوْلٌ ولا هُمْ عنها يُنْزَفونَ﴾ [الصافات: ٤٧]؛ ندرك السر الذي من أجله قُدمت كلمة (ريب) على الجار والمجرور (فيه)، وأُخِّرت كلمة (غول) عن الجار والمجرور (فيها)؛ ذٰلك لأن قوله تعالى: ﴿لا رَيْبَ فيه﴾؛ إنما هو نفيٌ للريب عن القرآن دون التعرض لغيره من الكتب، وأما قوله: ﴿لا فيها غَوْلٌ﴾؛ ففيه قصد لوصف خمر الدنيا وما فيها من الشرور والآثام. أما سبب ذٰلك، فذٰلك ما ستعرفه بعدُ إنْ شاء الله.

هٰذه هي نظرية النظم، وعلم المعاني في الحقيقة إنما هو تطبيق عملي لهٰذه النظرية.

وإليك مثالاً آخر: أقول لمن أحدِّثه: أزمتُنا الأساسية التي نعاني منها أخلاقية قبل أن تكون اقتصادية أو عسكرية. فإذا وجدته متردداً فيما أقول، فأنا مضطرٌّ أن أقول له: إنَّ أزمتنا لأخلاقية. فإذا وجدته منكراً لذٰلك، غير مقتنع به، فمن الحكمة البيانية أن أقول له: واللهِ إن أزمتنا لأخلاقية.

وهٰكذا نتعلم من علم المعاني كيف نرتب كلامنا؛ كي يكون متفقاً مع المعاني

التي نريد أن نتحَدَّث عنها، ومع أحوال الذين نخاطبهم ونتحدث إليهم.

أظنك بعد هٰذا يسهل عليك أن تستنتج تعريف هٰذا العلم؛ دون أن أذكره لك، وأظنك ترى أن علم المعاني هو العلم الذي نؤدي به الكلام حتى يكون مطابقاً لمقتضى الحال من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير، وقصر، وإيجاز، وإطناب.

ومهما تعددت التعريفات، وكثرت الأقوال، فلن تخرج عن هٰذا التعريف، وهو العلم الذي يدلك على أن لكل مقام مقالاً.

■ الجملة الاسمية والفعلية:

وهٰذا العلم ـ كما رأيت ـ أساسه الذي يبحث فيه الجملة، لذٰلك كان من القضايا الأولية فيه تقسيم الجملة إلى: اسمية، وفعلية. **الاسمية**: وهي التي تتكون من مبتدإ وخبر. **والفعلية**: وهي التي تتكون من فعل، وفاعل أو نائب فاعل.

ولكل من هاتين الجملتين ركنان أساسيان:

المسند إليه: وهو المبتدأ الذي له خبر، أو الفاعل، أو نائبه.

المسند: وهو المبتدأ الذي له فاعل أو نائب فاعل يسد مسد الخبر، أو الخبر في الجملة الاسمية، أو الفعل في الجملة الفعلية.

بيان ذٰلك أن علماء النحو قسموا المبتدأ إلى قسمين:

١ ـ قسم يحتاج إلى خبر؛ كقولنا: السماء صافية.

٢ ـ وقسم يحتاج إلى فاعل أو نائب فاعل، وهما يسدَّان مسدَّ الخبر، وإنما يكون هٰذا إذا كان المبتدأ اسم فاعل أو اسم مفعول.

فإذا قلت: أمسافرٌ أخوك؟ فمسافر هنا مبتدأ، وهو اسم فاعل كذٰلك، فكونه مبتدأ يحتاج إلى خبر، وكونه اسم فاعل يحتاج إلى فاعل؛ لأن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل.

هو محتاج إذن إلى أمرين؛ لأن له صفتين، وليس عندنا إلا كلمة واحدة، وهي كلمة (أخوك)، فهٰذه الكلمة لا بد أن تقوم مقام الاثنين معاً؛ أعني مقام الفاعل والخبر، ولما كان الفاعل ألصق بفعله؛ جعلوها فاعلاً سدَّ مسدَّ الخبر، فيقولون: أخوك: فاعل سدَّ مسدَّ الخبر.

ومثله: أقائم زيد؟ قائم: مبتدأ. وزيد: فاعل سدَّ مسدَّ الخبر.

كذلك إذا كان المبتدأ اسم مفعول، فكونه مبتدأ يحتاج إلى خبر، وكونه اسم مفعول يحتاج إلى نائب فاعل، وليس عندنا إلا كلمة واحدة، فيبقى أن تقوم مقام الأمرين معاً؛ نقول: أمهمَلَةٌ الدروسُ؟ أمنسيَّةٌ فلسطين؟ أمحزون الأقصى؟ فالكلمة الأولى في هٰذه الجمل مبتدأ، والثانية نائب فاعل سدَّ مسدَّ الخبر.

إذا عرفت هٰذا، فالمبتدأ الذي له خبر مسند إليه؛ مثل: السماء صافية، فالسماء: مسند إليه، وصافية: مسند. أما الثاني ـ أعني المبتدأ الذي له فاعل أو نائب فاعل سدَّ مسدَّ الخبر ـ فهو مسند، فمسافر في قولنا: أمسافر أخوك؟ مسند، وأخوك: مسند إليه. وأمَنْسِيَّة فلسطين؟ منسية: مسند، وفلسطين: مسند إليه. فافهم هٰذا، واحرص عليه.

فقولنا: الشعر ديوان العرب. عمر بن عبدالعزيز أعدل بني أمية. ابن الفارض سلطان العاشقين. ابن تيمية غزير العلم. الغزالي حجة الإسلام. البحتري شاعر الطبيعة. هٰذه كلها جمل اسمية؛ لأنها تكونت من مبتدإ وخبر عند النحويين، لكن علماء البلاغة يسمون الجزء الأول: المسند إليه. والجزء الثاني: المسند.

فأنت ترى أننا قد أسندنا في الجمل السابقة ديوان العرب وسجلهم للشعر، كما أسندنا العدل لعمر، وسلطنة العاشقين لابن الفارض، وغزارة العلم لابن تيمية، وحجية الإسلام للغزالي، وشاعرية الطبيعة للبحتري. فعمر: مسند إليه، وأعدل بني أمية: مسند. والشعر: مسند إليه، وديوان العرب: مسند. وابن الفارض: مسند إليه، وسلطان العاشقين: مسند. وابن تيمية: مسند إليه، وغزير العلم: مسند. والغزالي: مسند إليه، وحجة الإسلام: مسند. والبحتري: مسند إليه، وشاعر الطبيعة: مسند.

أما حينما نقول: جمع أبو بكر القرآن. حرر صلاح الدين فلسطين من الصليبيين. اكتشف علماء المسلمين الدورة الدموية. وضع عبدالقاهر نظرية النظم في البلاغة. اغتُصبت فلسطين في القرن العشرين مع كثرة العرب الذين يحيطون بها. فإن هٰذه جمل فعلية، إلا أن الجزء الأول فيها هو المسند، والجزء الثاني هو المسند إليه.

فنحن قد أسندنا التحرير إلى صلاح الدين، فحرر: مسند، وصلاح الدين: مسند إليه. وكذلك: اكتشف: مسند، وعلماء المسلمين: مسند إليه. وهٰكذا يقال في الأمثلة الباقية.

تدرك مما سبق أن تعبير البلاغيين بالمسند إليه والمسند أعم مما يقصده علماء الإعراب، فالمسند إليه قد يكون مبتدأ؛ كما رأيت في الجمل الاسمية، وقد يكون فاعلاً أو نائب فاعل؛ كما رأيت في الجمل الفعلية، أما المسند، فقد يكون خبراً؛ كما في الجمل الاسمية، وقد يكون فعلاً؛ كما في الجمل الفعلية، وقد يكون مبتدأ إذا كان له فاعل أو نائب فاعل يسد مسد الخبر.

والمسند والمسند إليه هما ركنا الجملة، وقد يكون في الجملة غير هٰذين الركنين، وهو ما يسميه علماء البلاغة قيوداً، فإذا قلنا: حرر صلاح الدين فلسطين من الصليبيين عام كذا في ذكرى الإسراء. فركنا الجملة المسند والمسند إليه فقط، أي: حرر صلاح الدين. وما بقي فهو من القيود، ففلسطين: قيد، ومن الصليبيين: قيد آخر، . . . وهٰكذا.

تدرك مما سبق أن ما زاد على المستد إليه والمسد في الجملة فهو قيد، اللهم إلا شيئين اثنين:

١ ـ صلة الموصول.

٢ ـ المضاف إليه.

فإذا قلت: الذي أكرمني أحبه. فالذي: مسند إليه، وأحبه: مسند، وأكرمني: صلة الموصول، وهي ليست قيداً هنا.

وإذا قلت: صاحب الحاجة أرعن. فصاحب: مسند إليه. وأرعن: مسند. والمضاف إليه ـ وهو الحاجة ـ ليس قيداً هنا.

والسبب في أنهم لم يجعلوا صلة الموصول والمضاف قيدين؛ لأنه لا يتم الكلام إلا بهما، فالموصول لا يمكن أن يفهم بدون صلته، والمضاف لا يتم معناه إلا بالمضاف إليه.

القيود[1] إذن: كل ما زاد ع[illegible]د والمسند إليه؛ غير صلة الموصول والمضاف إليه، فالمفاعيل الخمسه ـ [illegible]ي المفعول به، والمفعول فيه، والمفعول المطلق، والمفعول لأجله، والمفعول معه ـ، والتوابع ـ وهي: النعت، والتوكيد، وعطف البيان، وعطف النسق، والبدل ـ، والحال، والتمييز، والنفي، وأدوات الشرط، والأفعال الناسخة؛ كلها قيود؛ لأنها زيادة على ركني الجملة.

فإذا قلت: كان أبو مسلم بن بحر إماماً في التفسير. فركنا هٰذه الجملة: (أبو مسلم)؛ المسند إليه، و(إماماً)؛ المسند، وما بقي فهي قيود؛ فـ (كان) قيد، و(ابن بحر) قيد، و (في التفسير) قيد، أما كلمة (مسلم)، وهي المضاف إليه؛ فليست قيداً.

وليُقَسْ على هٰذا المثال غيره.

وعلماء البلاغة حينما يقسمون هٰذا التقسيم؛ لا يقفون عند هٰذه الناحية اللفظية، فيكتفون بالقول بأن هٰذه جملة اسمية أو فعلية، وإنما يذكرون هٰذا توطئة لما بعده مما يقصده البلاغيون، فلكل من الجملة الاسمية والفعلية أغراضها البيانية، ومميزاتها البلاغية.

فإذا أرادوا التعبير عن معنى الثبوت، فإنهم يأتون بالجملة الاسمية، كقولنا: الله خالق كل شيء. وحاتم جواد.

---

(١) علماء النحو يسمون هٰذه فضلات، فالحال فضلة، والتمييز فضلة، وهٰكذا. قال ابن مالك:
الحالُ وصفٌ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبُ

وإذا أرادوا أن يعبِّروا عن معنى التجدد والحدوث، فإنهم يأتون بالجملة الفعلية؛ كقولنا: ينزل المطر. يرزق الله الخلق. وهٰذا ما سأبينه لك.

إن الجملة الاسمية تدل على ثبوت شيء لشيء؛ كالأمثلة السابقة، وربما تفيد الدوام والاستمرار بقرينة، مثل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، ومثل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤]، فإن هٰذه الجمل تفيد مع الثبوت شيئاً آخر، وهو الدوام، وإنما عرفنا هٰذا من القرائن.

وإذا لاحظت الأمثلة السابقة؛ وجدت أن الخبر في هٰذه الجمل ليس فعلاً، أما إذا كانَ الخبر في الجملة الاسمية فعلاً، فالجملة تفيد التجدد، مثل: الحركة تقوي العضلات. المؤمن يراقب ربه. فمن هاتين الجملتين نفهم تجدد تقوية العضلات؛ كلما كانت الحركة، وكذٰلك المراقبة ما دام الإيمان.

فالجملة الاسمية إذا كان الخبر فيها اسماً مفرداً؛ مثل: الضوء ساطع. أو جملة اسمية؛ مثل: الله فضله عظيم. فهي تفيد الثبوت، وربما تفيد الدوام بالقرائن.

وإذا كان الخبر فيها جملة فعلية، فإنها تفيد التجدد.

أما الجملة الفعلية فإنها تفيد الحدوث: يجيء الشتاء، يفوز المجتهد، يكافأ المتفوقون. وقد تفيد الاستمرار بالقرائن: يهنأ الموظف ما ظل بعيداً عن الرشوة. ومنه قول المتنبي:

على قَدْرِ أهْـلِ العَـزْمِ تأتي العَـزائِمُ وتَـأْتـي على قَدْرِ الكِـرامِ المَكـارِمُ
وتَعْـظُمُ في عَيْنِ الصَّغيرِ صِغـارُهـا وتَصْغُـرُ في عَيْنِ العَـظيمِ العَـظائِمُ[1]

وإذا أردت أن تتـذوق هٰذه الفروق تذوقاً صحيحاً، فاستمع إلى قوله سبحانه: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]، وقوله عز وجل: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ

---

(١) «الديوان» (٣ / ٩٤).

اللهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: ٣]، وقوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها﴾ [الزمر: ٤٢].

فالجملة الأولى اسمية الخبر فيها مفرد، والأخريان الخبر في كل منهما جملة فعلية. سائل نفسك عن الفروق؛ ستجد أن الجملة الأولى تدل على الثبوت والدوام، ولا كذلك الأخريان، فهما تدلان على تجدد الرزق، وتجدد الوفاة.

واقرأ قوله سبحانه: ﴿ويُنَزِّلُ مِن السَّماءِ مِن جِبالٍ فيها مِن بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَن يَشاءُ ويَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ﴾ [النور: ٤٣]، وانظر ما تفيده الجملة الفعلية.

ومما يمتع قلبك وروحك، ويَلَذُّ به ذوقُك، ويزكو به ذهنك؛ تدبرك لهٰذه الآيات من كتاب الله تبارك وتعالى:

قال سبحانه في شأن المنافقين: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويَمُدُّهُم في طُغْيانِهِم يَعْمَهونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ المُنافِقينَ يُخادِعونَ اللهَ وهُو خادِعُهُم﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سبحانه يحدثنا عن نعمه على داود عليه الصلاة والسلام: ﴿إنَّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشْراقِ. والطَّيْرَ مَحْشورَةً كُلٌّ لهُ أوَّابٌ﴾ [صٓ ١٨ - ١٩].

تأمل هٰذه الآية الكريمة؛ تجد فيها جملاً اسمية وفعلية أولاً، وتجد أن الجمل الاسمية منها ما كان خبره فعلاً، ومنها ما كان خبره اسماً ثانياً، وارجع إلى الآيات مرة أخرى؛ لتدرك روعة التعبير، ودقة النظم، وجمال المعنى.

الآية الأولى جملة اسمية، خبرها فعل: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم﴾، وما ذٰلك إلا ليدلك على أن هٰذا الاستهزاء يتجدد حيناً بعد حين؛ كلما دعت إليه الحاجة.

أما الآية الثانية، ففيها جملتان: الجملة الأولى خبرها فعل: ﴿إنَّ المُنافِقينَ يُخادِعونَ اللهَ﴾، وإنما جاءت كذٰلك؛ لأن خداع المنافقين ليس دائماً؛ بيان ذٰلك أن المنافقين لهم حالتان اثنتان: فإذا كانوا مع أمثالهم ظهروا على سجيتهم وطبيعتهم، وأما

إذا كانوا مع الرسول ﷺ أو مع المؤمنين؛ فإنهم يضمرون الخداع، من أجل ذلك عُبِّرَ بالجملة الفعلية.

أما الجملة الثانية في الآية الكريمة: ﴿وهُو خادِعُهُم﴾، فخبرها ليس فعلاً كما ترى، لذلك فهي تدل على الثبوت والدوام.

ولعلك تتساءل عن الفرق بين الجملتين الكريمتين: ﴿الله يستَهْزِىءُ بهِم﴾، و ﴿وهُو خادِعُهم﴾؛ لم جاء خبر الأولى فعلاً، والثانية اسماً؟!

والجواب عن هٰذا التساؤل يكمن في الفروق بين الاستهزاء والخداع، فالخداع إخفاء الحقيقة، وظهور الشيء على غير صورته، وهٰذا يمكن أن يكون دائماً، فقد يُخْدَع الإنسان مدة طويلة، وليس كذٰلك الاستهزاء، إنما هو حالة تظهر في بعض الأحيان، والله أعلم بأسرار كتابه.

أما الآية الثانية، ففيها جملتان: فعلية، وهي في قوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، واسمية، وهي قوله سبحانه: ﴿والطَّيرَ مَحْشورَةً﴾، والسر البياني في هٰذا أن تسبيح الجبال أمر متجدِّد لداود عليه الصلاة والسلام، وليس كذٰلك حشر الطير، فإن الطير لا تُحشر شيئاً فشيئاً، بل تُحشر جملة واحدة، وهٰذا أدلُّ على القدرة الإلٰهية.

ولقد كان الزمخشري ـ رحمه الله ـ غوّاصاً حقًّا حينما فطن لهٰذا السر، بل أصاب كبد الحقيقة وهو يحلِّق في سماء البيان، ومن المفيد أن تستمع إليه؛ قال رحمه الله:

«فإن قلت: هل من فرق بين ﴿يسبِّحْن﴾ و ﴿مُسبِّحات﴾؟ قلتُ: نعم. وما اختير ﴿يسبِّحن﴾ على ﴿مسبِّحات﴾ إلا لذٰلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال، يسمعها تسبح، ومثله قول الأعشى:

إلـى ضَوْءِ نارٍ في يَفـاعٍ تَحْـرِقُ

ولو قال: محرقة. لم يكن شيئاً.

وقوله: ﴿محشورة﴾ في مقابلة ﴿يُسبِّحْن﴾، إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء، جيء به اسماً لا فعلاً، وذٰلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير يحشرن ـ على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء، والحاشر هو الله عز وجل ـ لكان خلفاً؛ لأن حشرها جملة واحدة أدلُّ على القدرة»[1].

حاول أن تبحث عن ذٰلك في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وفي كل كلام بليغ؛ حتى لا تكون أسير المثال الواحد.

■ مناهج العلماء في عرض مسائل هٰذا العلم:

ولعلماء البلاغة منهجان في عرض مسائل هٰذا العلم، وهما وإن كانا شكليين لا يتجاوزان الشكل إلى المضمون والموضوع، فإنه يحسُنُ أن ننبهك لهما، حتى تكون على بينة إذا أردت مراجعة موضوع من موضوعات هٰذا العلم.

البلاغيون متفقون على تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، ويتحدثون عن كل منهما على حدة، فيجعلون لكلٍّ باباً خاصاً به، فهٰذه أبواب أربعة، أولها للإسناد الخبري، وثانيها المسند إليه، وثالثها المسند، وباب خاص بمباحث الإنشاء. وهناك باب خامس لمتعلقات الفعل، ونعني بها القيود التي تكون في الجملة الفعلية غير المسند والمسند إليه. أما الباب السادس عندهم، فهو خاص بالقصر؛ كقولك: وإنما الأمم الأخلاق، وما العمر إلا ليلة. وأما الباب السابع، فجعلوه لعصب البلاغة، ونعني به الفصل والوصل. وأما الباب الثامن فهو للإيجاز والإطناب.

هٰذا هو المنهج الذي نهجه العلماء بعد عبدالقاهر، واستمر إلى العصر الحديث.

أما المنهج الآخر، فلم يلتزم أصحابه هٰذا الترتيب التلقيني، وإنما كان يُعنيهم الموضوع أكثر من التقسيم الشكلي

---

(١) «الكشاف» (٤ / ٧٨).

أصحاب المنهج الأول تحدثوا في المسند إليه عن الموضوعات التالية:

١ ـ حذفه وذكره: أي: متى يُحذف المسند إليه ومتى يُذكر؟

٢ ـ تقديمه وتأخيره: أي: ما الأغراض البيانية التي تدعو لتقديمه تارة، وتأخيره أخرى.

٣ ـ تعريفه وتنكيره.

إلى غير ذلك من الموضوعات الخاصة بالمسند إليه.

ثم حينما عقدوا باباً للمسند؛ ذكروا فيه هٰذه الموضوعات التي ذكروها في المسند إليه، فتحدثوا عن حذفه وذكره، وتقديمه وتأخيره، ومتى يكون فعلاً ماضياً أو مضارعاً؟ ومتى يكون اسماً؟ ومتى يعرَّف؟ ومتى ينكر؟.

ثم حينما تحدَّثوا عن متعلقات الفعل؛ تحدثوا عن تقديم المفعول، أو توسُّطه، أو تأخيره، وعن تقديم الظرف، أو تأخيره، ومتى يُحذف المفعول؟ ومتى يُحذف الظرف؟

فأنت ترى أن هٰذه الأغراض البلاغية ـ التي هي الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير ـ قد وُزِّعَت على أماكن متعددة، وذُكرت في أبواب مختلفة، ويمكنك لتطلع على هٰذا المنهج اطِّلاعاً علميًا أن تأخذ أي كتاب من الكتب البلاغية بعد عبدالقاهر، كـ «مفتاح» السكاكي، و«التلخيص» للقزويني، و«شروحه»، و«جواهر البلاغة» للهاشمي، وهناك بعض المحدثين نهجوا هٰذا المنهج[1].

أما أصحاب المنهج الآخر، فلقد نهجوا نهج عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ فبدلاً من أن يذكر الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، وغيرهما في أبواب ثلاثة: المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل، فإنهم ذكروا كلًّا من هٰذه الأغراض في موضع واحد، فعقدوا باباً للحذف والذكر، وتحدثوا فيه عن حذف المسند، وحذف المسند إليه،

(١) انظر «البلاغة العربية في ثوبها الجديد».

وحذف المفعول، وحذف الظرف، فقد جمعوا هٰذه الأغراض التي فرقت على الأبواب الثلاثة؛ جمعوها في موضع واحد.

وكذٰلك حينما تحدَّثوا عن التقديم والتأخير؛ جمعوا كل ما يتعلق بهما في الأبواب الثلاثة، وجعلوه في موضع واحد، فتحدثوا عن تقديم المسند إليه، وتقديم المسند، وتقديم المفعول، وتقديم الظرف.

وكذٰلك حينما تحدثوا عن التعريف والتنكير، فلم يوزعوها على عدة أبواب كما رأينا.

ولعلك بعد معرفة هٰذين المنهجين تدرك أن المنهج الأول ـ وإن كان أدق من حيث التقسيم العقلي ـ إلا أنه أشق على الدارسين؛ لأنه يوزع الأغراض البلاغية في أماكن متفرقة؛ لذا كان المنهج الثاني أقرب إلى الدراسة البيانية، وأكثر تنشيطاً للقارىء، وأدعى إلى تذوق النصوص، والجمع بين هٰذه الأغراض، والإفادة، والاستنتاج.

وهٰذا هو المنهج الذي سنسلكه إن شاء الله، مع أننا لن نهمل المنهج الأول، وإنما سنشير إليه حينما ننتهي من هٰذه الأبحاث، ولكلٍّ وجهة هو موليها، والله ولي التوفيق.

□□□

الفصل الثاني

الخبـــــر

■ مقدمة في معنى الخبر والإنشاء :

أيُّ كلام مفيد ننطق به ، فإما أن نقرر أمراً من الأمور ونخبر عن قضية من القضايا ، وإما أن نتحدَّث عن أمر لم يحصل بعد ؛ نطلب تحقيقه ، أو ننهى عنه ، أو نتمنّاه ، أو نستخبر ونستفهم عنه ، أو نناديه .

والقسم الأول هو الخبر ، فحينما أقول : حُرقت مكتبة الإسكندرية قبل عهد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه . فأنا أُقرِّر خبراً ؛ لأردَّ على أولٰئك الذين يزعمون أن عمر رضي الله عنه هو الذي أمر بحرق مكتبة الإسكندرية .

وحينما أقول : لم يعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد . فأنا أُقرِّر خبراً ؛ لأصحح الفرية التي شاعت بين الناس من أن عمر عزل خالد بن الوليد حينما تولَّى الخلافة .

وحينما أقول : البلاغة العربية عربية في أصولها . فأنا أردُّ على أولٰئك الذين يزعمون أنها مِزق من بلاغة اليونان والفرس والهنود وغيرهم .

وكذلك حينما أقول : حسُّ الأمة إسلامي . المشكلات الاقتصادية في بلادنا ليست ناشئة عن كثرة السكان . فأنا أقرِّر خبراً أيضاً .

وهٰذه الأخبار كلها يمكن أن ينازع فيها بعض الناس بنفيها كلًّا أو بعضاً .

لكنني حينما أردِّد قول القائل:

قم للمـعـلم وفِّـه التـبـجـيلا

وقول الآخر:

لا تنـه عن خلق وتـأتـي مثـله

وأقر قول الله تعالى: ﴿يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمونَ﴾ [يس: ٢٦]، و﴿يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أَقْلِعي﴾ [هود: ٤٤]، ﴿يا يَحْيَى خُذِ الكِتابَ بقوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، ﴿يا مُوسى لا تَخَفْ﴾ [النحل: ١٠]، وأردِّد قول القائل:

ألإسـرائـيل تعـلو راية[1]

فإن هٰذه الجمل جميعها ليس فيها خبر عن شيء ما قد وقع بالفعل، وإنما ـ كما رأيت ـ هي أنواع من القول؛ أمر تارة، ونهي تارة، واستفهام تارة، وتمنٍّ تارة، ونداء أُخرى. وهٰذا ما نسمية بالإنشاء.

نستنتج مما سبق أن الخبر ما احتمل الصدق والكذب، وأن الإنشاء ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً.

وهناك تعريف آخر، وهو أن الخبر لا يتوقف تحققه ووجوده على قول المتكلم، أما الإنشاء؛ فهو ما يتوقف تحقُّقه على تلفظ المتكلم به.

عندما أقول: عمر خليفة عادل. فإن وجود هٰذه القضية ليس متوقفاً على تلفُّظي بهـا، لكن إذا قلت للطالب: اقرأ موضوع التشبيه. فإن تحقق هٰذا الشيء ـ القراءة ـ متوقف على تلفُّظي به.

فأنا لا أستطيع أن أقول لمَن أمر بشيء، أو نهى عن شيء، أو تمنى شيئاً، أو استفهم عن شيء، أو نادى أحداً؛ لا أستطيع أن أقول له: هٰذا صدق أو كذب؛ لأن الصـدق والكذب إنما يوصف بهما الشيء الذي ادَّعينا وقوعه، والحكم الذي أثبتناه لشيء ما.

---

(١) تكملته: في حمى المهد وظل الحرم.

ولكن ربما يقول قائل: عرِّفت الخبر بأنه ما يحتمل الصدق والكذب، ونحن نعرف أن هناك نوعاً من الكلام لا يمكن أن يحتمل الكذب أبداً، فكلام الله تبارك وتعالى صدق، وكذلك ما صحَّ عن النبي ﷺ، كذلك كل كلام نجزم بصدق قائله؛ لا يحتمل كذباً. وهناك كلام لا يحتمل الصدق أبداً، فقول كل من مسيلمة الكذاب وزوجه سجاح: أنا نبي. وادِّعاء اليهود بأن فلسطين لهم. وادِّعاء بعضهم بأن اللغة العربية لا تساير التطور. هذا كلام كاذب قطعاً؛ لا يحتمل صدقاً، وكذلك كل كلام نحن على يقين من كذب قائله، فكيف يصح هذا التعريف للخبر بأنه ما احتمل الصدق والكذب؟!

وأقول: من أجل هذا فإنهم وضعوا قيداً آخر في تعريف الخبر، فقالوا: ما احتمل الصدق والكذب لذاته ـ أي لذات الخبر نفسه ـ وهذا بالطبع يُخْرِجُ ما كانَ صادِقاً قطعاً، وما كان كاذباً قطعاً؛ لأن آيات القرآن والأحاديث الصحيحة وإن احتملت هذا لذاتها، لكننا إذا نظرنا لمن قالها، فهي صادقة قطعاً، وكذلك أقوال مسيلمة وسجاح ومن أشبههما، وإن احتملت الصدق والكذب لذاتها، إلا أننا إذا نظرنا لقائلها، فهي يقيناً كاذبة، فقولنا في تعريف الخبر: «لذاته». نُخرج به ما كان صدقاً بالنظر إلى قائله، وما كان كذباً كذلك.

■ معنى الصدق والكذب:

الخبر إذن ما احتمل الصدق والكذب لذاته. ولكن متى نعد الخبر صادقاً أو غير صادق؟

هذا بحث أقحمه المتكلمون في مباحث البلاغة، ومع أننا لا نجني منه فوائد بيانية؛ لأنه مبحث عقلي صرف، فإننا نذكره مجاراة للقوم؛ لتكون على بيِّنة منه إذا قرأته في كتاب من كتب البلاغة.

رأي الجمهور:

ذهب الأكثرون إلى أن الخبر يكون صادقاً إذا طابق الواقع، ويكون كاذباً إذا لم

يكن كذلك، فإذا قال قائل: جاء أخوك من السفر. وكان هذا الخبر يؤيده الواقع، بمعنى أن أخاك قد جاء بالفعل من سفره، فذلك هو الصدق، ويسمى الخبر صادقاً، أما إذا لم يكن كذلك، فلم يقدم أخوك من سفره، فهنا يكون الخبر كاذباً. هذا هو مذهب الجمهور من العلماء.

وهناك مذهبان آخران لإمامين من أئمة الاعتزال وشيوخ البيان؛ أحدهما: النظام[1] شيخ الجاحظ، والآخر الجاحظ نفسه.

رأي النظام:

أما النظام فقد خالف الجمهور، وذهب إلى أن الصدق ما وافق الاعتقاد؛ اعتقاد المتكلم، والكذب ما خالف الاعتقاد، وإن تنافيا مع الواقع، فالمعوَّل في الصدق والكذب ليس على الواقع ـ كما ذهب الجمهور ـ وإنما على اعتقاد المتكلم. هكذا يقول النظَّام.

ففي المثال السابق؛ جاء أخوك من السفر. إذا قاله لك قائل، وهو يعتقده؛ لأنه رأى شخصاً يشبه أخاك، أو سمع صوتاً يشبه صوته، أو رأى سيارته وهو يعرف أنه لا يسافر إلا فيها، إذا قاله هذا القائل، وهو يعتقده، فهو صدق، حتى إن كان أخوك لم يأت من سفره بعدُ، فالمعوَّل في الصدق على اعتقاد المتكلم.

وكذلك؛ إذا استعار أحد الناس مني كتاباً، وطلبته منه بعد مدة، فأكَّد لي أنه أحضره؛ لأنه يعتقد ذلك، ولكنه في الواقع لم يحضره، وبعد بحث وتنقيب وجده في إحدى زوايا مكتبته، فهو صادق؛ كما يقول النظام؛ لأنه قال ما يتفق مع اعتقاده.

أمَّا ما استدلَّ به النظام على مذهبه فأمران اثنان:

أولهما: قوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . إذا جَاءَكَ المُنافِقونَ

(1) إبراهيم بن سيَّار بن هانىء النظَّام، كان أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة، وهو دقيق المعاني على طريقة المتكلمين، والجاحظ كثير الحكايات عنه، مات سنة (٢٣١ هـ / ٨٤٥ م). [المعجم: ١ / ٣٧].

قالـوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرسولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرسولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنافِقينَ لَكاذِبونَ﴾ [المنافقون: ١].

أما كيف استدل النظام بهٰذه الآية الكريمة على مذهبه، فأبيِّنه لك فيما يلي:

جاء المنـافقون، والمنافقون ـ كما نعلم ـ هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ جاؤوا رسول الله ﷺ، فقالوا: نشهد إنك لرسول الله. هٰذه الشهادة مطابقة للواقع؛ لأنه رسول الله حقًّا عليه الصلاة والسلام، فالقول الذي قاله المنافقون مطابق للواقع، ولكنه مخالف لاعتقادهم؛ لأنهم ـ كما قلنا ـ يُبْطِنون الكفر، فقولهم الذي قالوه ـ مع مطابقته للواقع ـ مخالف لاعتقادهم، فردَّ عليهم بقوله: ﴿واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنافِقينَ لَكاذِبونَ﴾، فسمَّاهُم كاذبين، مع أنَّ القول الذي قالوه مطابق للواقع، لكنه مخالف لاعتقادهم.

قال النظَّام: فالكاذب إذن مَن قال قولاً مخالفاً لاعتقاده ـ وإن كان مطابقاً للواقع ـ كقول المنافقين، والصدق ما طابق الاعتقاد، وإن خالف الواقع.

وأما الأمر الثاني الذي استدل به، فهو ما رُوي عن السيدة عائشة رضي الله عنها بأنها قالت عمن أخطأ في قوله فقال قولاً مخالفاً للواقع: إنه وهم. ولم تقل عنه: إنه كَذَب. فقد ذُكر عند السيدة عائشة أن ابن عمر يرفع إلى النبي ﷺ: «إن الميت يعذب ببكـاء أهله عليه»، فقالت: وَهِلَ، إنما قال رسول الله ﷺ: «إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه، وإن أهله ليبكون عليه».

وذاك مثل قوله: إن رسول الله ﷺ قام على القليب يوم بدر، وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم في ما قال: «إنهم ليسمعون ما أقول»، وقد وَهِلَ، إنما قال: «إنهم لَيعلمون ما كنت أقول لهم الحق»، ثم قرأ: ﴿إنَّك لا تُسْمِعُ المَوْتى﴾ [النمل: ٨٠]، و﴿وما أنتَ بِمُسْمِعٍ مَن في القُبورِ﴾ [فاطر: ٢٢][١].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، (٩ / ٢٧)، (٢ / ٦٤٣).

ووجه الاستدلال أن ابن عمر كان قوله موافقاً لاعتقاده، مخالفاً للواقع، ومخالفة الواقع عند الجمهور كذب، لكن السيدة عائشة لم تقل: كذب ابن عمر. وإنما قالت: وهل. وإذا لم يكن كاذباً؛ كان صادقاً. وهٰذا ما يقوله النظام.

وردُّ الجمهور على النظّام.

أما ردهم على الدليل الأول؛ فقالوا: إن الله تعالى كذَّب المنافقين؛ لا لقولهم: إنك رسول الله. ولكن لأنهم قالوا: نشهد. ونحن نعلم أن الشهادة لا تسمى شهادة إلا إذا وافق اللسان فيها القلب، ومن هنا اختيرت هٰذه الكلمة في الشهادتين، وهما أول ركن من أركان الإسلام، فالله تبارك وتعالى كذَّبهم؛ لأنهم قالوا: نشهد. فلو أنهم قالوا مثلاً: أنت رسول الله. دون كلمة: نشهد؛ ما كانوا ليُكَذَّبوا في هٰذا القول.

أما ردُّهم على الدليل الثاني؛ فيقولون: إن الذي قال قولاً مخالفاً للواقع، وإن كان مطابقاً لاعتقاده؛ كالذي اعتقد أن أخاك قد قدم من السفر، ولم يكن كذٰلك، أو كالذي اعتقد أنه أحضر الكتاب، وكان الواقع غير هٰذا. يقول الجمهور عن مثل هٰذين: إن ذٰلك كذب، لكنْ هناك فرق بين من كذب عن غير قصد، وبين من تعمَّد الكذب، فالمؤاخذة والذم يلحقان من تعمد الكذب، لا من كذب عن غير قصد.

رأي الجاحظ:

بقي المـذهب الثـالث، وهو مذهب الجاحظ، وهو يخالف أستاذه النظّام كما يخالف الجمهور.

فالخبر عند الجمهور وعند النظّام واحد من اثنين: إما صدق أو كذب؛ إلا أنه إن طابق الواقع، فهو صدق، وإن خالفه فهو كذب؛ كما يقول الجمهور، وإن طابق الاعتقاد فهو صدق، وإن خالفه فهو كذب؛ كما يقول النظّام.

أما الجاحظ؛ فقسم الخبر إلى أقسام ثلاثة: فهناك خبر صادق، وهناك خبر كاذب، وثالث لا يوصف بالصدق ولا الكذب.

فالصادق: ما طابق الواقع والاعتقاد معاً.

والكاذب: ما خالف الواقع والاعتقاد معاً.

أمّا ما طابق الواقع وخالف الاعتقاد، أو طابق الاعتقاد وخالف الواقع؛ يقول الجاحظ: هٰذا لا نسميه صدقاً ولا كذباً.

على هٰذا؛ من أخبرك أن أخاك قد قدم من السفر، وكان الأمر كذٰلك، وكان يعتقد هٰذا الخبر؛ فهو صدق عند الجميع.

أما إن أخبرك أن أخاك قد جاء من السفر، وكان يعتقد ذٰلك، ولم يكن الواقع كذٰلك؛ فهٰذا كذب عند الجمهور؛ لأنه خالف الواقع، صدق عند النظّام؛ لأنه طابق الاعتقاد، لكنه لا يوصف بالصدق ولا الكذب عند الجاحظ[1].

ونحن نرى أن ما ذهب إليه الجمهور أولى بالقبول؛ لأنه لا تترتب عليه محاذير، ولا تنبني عليه قضايا غير صحيحة.

أما الآن وقد عرفت الخبر وما قيل في تعريفه؛ فحريٌّ بك أن تعرف ما يتصل به من مباحث، وأهمها مبحثان اثنان:

المبحث الأول: أغراض الخبر.

المبحث الثاني: أضرب الخبر.

---

(١) استدل الجاحظ بقول الله تعالى يحكي لنا قول منكري البعث: ﴿وقالَ الذينَ كَفَروا هَلْ نَدُلُّكم على رجل ينبِّئكُم إذا مُزِّقتُم كل ممزَّق إنَّكم لَفي خَلق جديد. أفترى على اللهِ كَذِباً أم بهِ جِنَّةٌ بل الذينَ لا يؤمِنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾ [سبأ: ٧ - ٨].
أما كيف استدل الجاحظ بهٰذه الآية على أن الخبر منه صدق، وكذب، وما ليس صدقاً ولا كذباً؟ فإليك بيانه:
حصر المشركون قول النبي ﷺ وإخباره عن البعث في حالتين اثنتين: الكذب أولاً، وهو قولهم: ﴿أفترى على الله كذباً﴾، وحالة الجنون ثانياً، وهو قوله تعالى: ﴿أم بهِ جِنَّةٌ﴾. حالة الجنون إذن مقابلة للكذب، ومقابل الشيء غيره بالطبع، فأنا حينما أقول: هذا أبيض أم أسود؟ فلا ريب أن الأسود غير الأبيض، إذن إخباره في حال الجنون ليس كذباً؛ لأنه جاء في مقابلته، وهو بالطبع ليس صدقاً؛ لأنهم لا يعتقدون صدق النبي ﷺ في ما أخبر.

□ **المبحث الأول:**

أغراض الخبر

ونعني بهٰذا العنوان: ما هو الغرض الذي نقصده حينما نلقي أي خبر من الأخبار؟ وما هي الفائدة التي نبغيها حينما نخاطب بهٰذا الخبر مَن نخاطب؟

لعلك لا تختلف معي بأن أهم غرض من الأغراض التي يقصدها المتكلم إنما هي الفـائدة؛ فائدة المخاطب، كقولي مثلاً: تمتاز اللغة العربية عن غيرها، وكذٰلك الحرف له خصائصه. العربية لغة الإيجاز. المسافة بيننا وبين الشمس أضعاف ما بيننا وبين القمر. كان أبو العلاء وابن جِنّي معجبَيْن بالمتنبِّي. ففي هٰذه الأخبار جميعاً؛ إنما أبتغي إفادة المخاطب، وأنا أعرّفه بهٰذه الأمور، ويسمى هٰذا فائدة الخبر.

وقد لا يكون الغرض من إلقاء الخبر فائدة المخاطب؛ لأن المخاطب عالم به، وإنما الغرض أن أُشعر المخاطب بأنني عالم بهٰذا الخبر، لست أجهله؛ كما إذا عرفت أن فلاناً كان مسافراً وقدم من سفره، فأقول له: أنت قدمت من سفرك أمس. وقد أقول للطالب: أنهيتَ الامتحان قبل يومين. فالمسافر والطالب لا يجهلان هٰذا الخبر، لكنني أردت أن أخبرهما بأنني على علم بخبريهما وإن كتماهما عني. ويسمى هٰذا لازم الفائدة.

وهٰذا الغرض متوقف على الذي قبله؛ لأنني حينما أخبر المخاطب بشيء يعلمه، فمعنى هٰذا أنه قد حصلت له فائدة الخبر.

= يقول الجاحظ: الإخبار في حالة الجنون ليس كذباً؛ لأنه جاء في مقابلة قوله: ﴿أفْترى على الله كذِباً﴾، وليس صدقاً؛ لأنهم لا يعتقدون صدقه، فهو ليس صدقاً ولا كذباً إذن.

وردوا على الجاحظ بأن قوله تعالى: ﴿أمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ معناه: أم لم يفتر، فكأنه قيل: أفترى على الله كذباً أم لم يفتر؟ كأنهم يقولون: أتعمد الكذب أم كذب دون تعمد؟ فقولهم لا يخرج عن أنه تعمد الكذب، أو كذب دون قصد.

هٰذان غرضـان رئيسـان للخبر عند إلقائه إلى المخاطب: فائدة الخبر إذا كان يخاطب جاهلاً يودُّ إخباره بشيء لم يعرفه، ولازم الفائدة؛ إذا كان المتكلم يريد أن يخبر المخاطب بأنه عارف بهٰذا الخبر، ليس خافياً عليه.

لكن هناك أغراضاً يمكن أن نستنتجها؛ يدلنا عليها سياق الحديث، وأهم هٰذه الأغراض:

١ ـ **التنشيط**: كأن تقول: الشباب عِدةُ المستقبل، بسواعدهم يُبنى الوطن.

٢ ـ **التحسُّر والتأسُّف**: ضاعت فلسطين. ومنه قول شوقي[١]:

يا أُخْـتَ أنْـدَلُسٍ علَيْكِ سَلامُ ... هَوَتِ الخِـلافَـةُ عنـكِ والإسـلامُ[٢]

ومنه ـ والله أعلم ـ قول أم مريم: ﴿رَبِّ إنِّي وضَعْتُها أُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦][٣].

ومنه قول لبيد[٤]:

ذَهَـبَ الـذينَ يُعـاشُ في أكْنـافِهِم ... وبـقيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأجْـرَبِ[٥]

---

(١) أحمد شوقي بن علي بن أحمد، ولد سنة (١٨٦٨ م)، أشهر شعراء العصر الأخير، ويلقب بأمير الشعـراء، ولـد وتـوفي بالقـاهـرة، درس الحقوق بمصر وفرنسا، وتمكَّن من الترحمة والأدب الفرنسي، عُيِّن رئيساً للقلم الفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي، وكان من أعضاء مجلس الشيوخ، توفي سنة (١٩٣٢ م). [المعجم: ٢ / ٢٤٦].

(٢) «الشوقيات» (١ / ٢٣٠).

(٣) ونعني بالخبر ما بعد جملة النداء؛ لأن النداء من أقسام الإنشاء.

(٤) لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ، من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم، ترك الشعر، ولم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، وهو:

ما عاتَبَ المَـرْءَ الكَـريمَ كَنَفْسِـهِ ... والمَـرْءُ يُصْلِحُـهُ الجَليسُ الصـالِحُ

سكن الكـوفـة، وعـاش عمـراً طويلاً، وهو أحد أصحاب المعلقات، توفي سنة (٤١ هـ). [الأعلام: ٥ / ٢٤٠].

(٥) «خزانة الأدب» (٢ / ٢٤٩).

ومثل هٰذا قول القائل:

كانَتْ سُلَيْمى تُنادي يا أُخَيَّ وقَدْ ... صارَتْ سُلَيْمى تُنادِي اليومَ يا أَبَتا

وهٰكذا كل كلام يقصد به المتكلم إظهار أسفه وأساه وتحسُّره ولوعته.

٣ - إظهار الضعف: ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه - ﴿رَبِّ إنِّي لِما أَنْزَلْتَ إليَّ مِن خَيْرٍ فقيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وقوله على لسان زكريا - عليه السلام - ﴿رَبِّ إنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، ومنه قول يحيى البرمكي[(١)] يخاطب هارون الرشيد[(٢)]:

إنَّ البرامِكَةَ الذيـ ... ـنَ رُمُوا لَدَيْكَ بِداهِيَهْ

صُفْرُ الوُجوهِ عليْهِمُ ... خِلَعُ المَذَلَّةِ بادِيَهْ

ومنه قول أبي المنهال عوف بن محلم الخزاعي[(٣)]:

إنَّ الثَّمانينَ وبُلِّغْتَها ... قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعي إلى تَرْجُمانِ[(٤)]

ومن هٰذا القبيل ما نسمعه يتردَّد كثيراً على الألسنة: لا طاقة لنا بإسرائيل. إننا لن نستطيع الحرب. نحن لا نملك الغطاء الجوي.

ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا لا طاقَةَ لنا اليَوْمَ بجالوتَ وجُنودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

---

(١) أحمد بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك جحظة البرمكي؛ أبو الحسن، ولد سنة (٢٢٤ هـ)، أديب، شاعر، إخباري، ذو فنون ونوادر، توفي بواسط سنة (٣٢٦ هـ). [المعجم ١ / ١٨٣].

(٢) هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي أبو جعفر، خامس خلفاء الدولة العباسية، ولد بالري؛ لما كان أبوه أميراً على خراسان، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه عبدالهادي، وازدهرت الدولة في أيامه، كان عالماً بالأدب، وأخبار العرب، والحديث، والفقه، توفي سنة (١٩٣ هـ).

(٣) عوف بن محلم الخزاعي أبو المنهال، أحد العلماء والأدباء والرواة الندماء الشعراء، أصله من حران، صحب طاهر بن الحسين في العراق، ثم حن إلى أهله، فعاد، ومات في طريقه إلى حران سنة (٢٢٠ هـ).

(٤) «معاهد التنصيص» (١ / ٣٧٥)، «شذور الذهب» (ص ٤٥).

وهٰكذا كل كلام يلوِّح صاحبه بالضعف، وتشم منه رائحة الخَوَر.

٤ ـ **التوبيخ**: كما تقول لكثير الأخطاء والعثَرات: الشمس طالعة.

ومنه قول الرصافي:

فَشَـرُّ الـنَّـاسِ قَوْمٌ ذُو خُمـولٍ إذا فاخَـرْتَـهُـم ذَكَـروا الـجُـدودا

ومنـه قول الخـطيب لجمهوره: هٰذا العدو يمرح في أرضنا، ونحن بين عازف وخائف. ومنه: ما فاز إلا النوّمُ. ومنه قولنا للمعتدي: مَن حَفَرَ حفرة لأخيه المؤمن وقع فيها. ومنه المثل: يداك أوكتا وفوك نفخ. وهو يُضرب لمن أصابه كرب نتيجة تقصيره.

٥ ـ **الاسترحام والاستعطاف**: ﴿رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي فاغْفِرْ لي﴾ [القصص: ١٦].

٦ ـ **إظهار الفرح**: كما يقول من نجح في امتحانه: نجحتُ بتفوق. وكما نقول: هٰذه اليقظة الإسلامية نرجو أن تؤتي ثمارها.

٧ ـ **الشماتة**: وذٰلك كما يقول المستضعفون في الأرض: ها هم الظالمون يلقون مصارعهم، وها هم الخونة يتساقطون واحداً أثر واحد.

٨ ـ **التـذكير ما بين المراتب**: وذٰلك كقوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوي القاعِدونَ مِن المُؤمِنينَ غيرُ أُولي الضَّررِ والمُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ بأموالِهِم وأنْفُسِهِمْ﴾[النساء:٩٥].

ومنه قول الزهاوي:

والـنَّـاسُ إمَّـا سادَةٌ لهُـمُ الإرادَةُ أوْ عَبـيدُ

٩ ـ **الوعظ**: ومنه قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نفسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ومنه قول أبي العتاهية(١):

---

(١) إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، العيني، المعروف بأبي العتاهية، أبو إسحاق؛ ولد سنة (١٣٠ هـ)، شاعر، نشأ بالكوفة، ثم سكن بغداد وتوفي بها في جمادى الآخرة:

إنَّ الـشَّـبـابَ والـفَـراغَ والـجِـدَهْ مَفْـسَـدَةٌ للمَـرْءِ أيُّ مَفْـسَـدَهْ[1]

واعلم أن الأغراض لا تنحصر فيما ذكرناه، فهناك أغراض كثيرة يمكن أن ندركها من سياق المتكلم، ويمكن للمتكلم أن يقصدها؛ كالعتاب، والتعريض، والسخرية، والإلهاب، وهٰذا كله يعتمد على بلاغة المتكلم، وذكاء المخاطب.

□□□

= سنة (٢١١ هـ)، كان يقول في الغزل، والمديح، والهجاء، ثم تنسّك وعدل عن ذٰلك إلى الشعر في الزهد، وأكثر شعره حكم وأمثال. [المعجم: ٢ / ٢٨٥]

(١) «معاهد التنصيص» (٢ / ٢٨٣).

تدريب

* حاول أن تبين أغراض الخبر فيما يلي:

١ - ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]

٢ - فلسطين هي قلب العالم الإسلامي، وذلك لموقعها الجغرافي، وهي أمانة يعلم الله بها الصادق من الكاذب.

٣ - إن شرَّ ما أصيبت به أمتنا ميوعة الغرب وإلحاد الشرق.

٤ - قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكل امرىء ما نوى»(١).

٥ - قال المتنبي:

صَحِبَ النَّـاسُ قَبْلَنـا ذا الـزَّمـانـا ... وعنـاهُـم مِن شَأْنِـهِ ما عَنـانـا(٢)

٦ - لا يستوي العالم والجاهل.

٧ - وقال ﷺ: «إنَّ الله لا يقدِّسُ أمةً لا يأخذ الضعيف فيها حقَّه»(٣).

٨ - وقال ﷺ: «الماهر في القرآن مع السفرة»(٤).

٩ - الجرأة بلا حكمة تهور لا شجاعة.

---

(١) رواه البخاري، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل ما نوى، رقم (٣٩)، حديث (٥٤)، وكتاب العتق، باب: الخطأ والنسيان في العتاق والطلاق ونحوه، ولا عتاق إلا لوجه الله، رقم الباب (٦)، حديث رقم (٢٣٩٢). ورواه مسلم، «صحيح مسلم بشرح النووي»، كتاب الإمارة، (ص ١٥٥).

(٢) «ديوانه» (ص ٢٧٨)، دار صادر.

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب الصدقات، باب: لصاحب الحق سلطان، حديث رقم (٢٤٢٥)، إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

(٤) رواه البخاري، قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»، باب رقم (٥٢). ورواه مسلم في كتاب المسافرين.

١٠ ـ لقد كنت صادقاً في كلمتك أمس.

١١ ـ وإذا سُئِلْتَ عَنِ العُروبَةِ قُلْ لهُم		هِيَ أُمَّـةٌ تَلْهـو وشَـعْـبٌ يَلْعَبُ

١٢ ـ الحق أحق أن يتبع.

١٣ ـ أنت الذي قصَّرت في عملك.

١٤ ـ قال صفيُّ الدين الحلي:

بِيْضٌ صَنـائِـعُنـا سُودٌ وَقـائِعُنـا		خُضْـرٌ مَرابِعُنـا حُمْـرٌ مواضينـا[1]

١٥ ـ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

١٦ ـ ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى: ١٥].

١٧ ـ وقال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

□□□

(١) «جواهر الأدب» (ص ٥٢٤).

□ المبحث الثاني:

أضرب الخبر

■ الخبر المؤكد والخبر الخالي من التأكيد:

عرفت فيما مضى الأغراض التي يُلقى من أجلها الخبر، ونودُّ الآن لك أن تعرف كيف يجب أن تُلقي الخبر، فتراعي أحوال المخاطبين الذين تتحدث إليهم.

وقد عرفت ـ من قبل ـ أن علم المعاني من شأنه أن يدلُّنا كيف يكون كلامنا مطابقاً لمقتضى الحال، أي: كيف نراعي المقامات التي نتحدث فيها، فمقام المنكِر يختلف عن مقام الشاكِّ المتردِّد، وهٰذا يختلف عن خالي الذهن الذي لا شك ولا تردُّد عنده؛ لذٰلك وجب على المتكلم أن يراعي هٰذه الأحوال، فيُلقي كلامه بقدر من غير زيادة ولا نقص، فإذا كان النقص عيباً فإن الزيادة كذٰلك.

إذا كان الذي تخاطبه خالي الذهن، لا تعرف منه إنكاراً، ولا تجد في نفسه شكًّا أو تردُّداً فيما تلقيه إليه، فينبغي أن تلقي إليه الخبر خالياً من التأكيد، فتقول له مثلاً: الدين المعاملة. الحسد داء. بالعلم حياة الأمم.

أما إذا كنت تدرك من الذي تخاطبه شكًّا، فيَحْسُنُ أن تؤكد له الخبر؛ لتزيل ما في نفسه من شك، فتقول له مثلاً: إن نتائج الامتحان ظهرت.

أما إذا كنت تعرف أنه منكر، فيجب أن تؤكد له الكلام على قدر ما تعرف من إنكاره، ولا تنسى أن تفرق بين قولنا: يجب أن تؤكد الخبر للمنكر. وبين قولنا فيما مضى: يحسن أن تؤكد الخبر للشاك؛ فتأكيد الخبر للشاك أمر مستحسن، أما تأكيده للمنكر فواجب، فإذا كان ينكر أن خالداً مسافر، فيجب أن تقول له: إن خالداً لمسافر. أو: والله إن خالداً لمسافر.

وخير ما يرشدك في هٰذا المقام القرآن الكريم، وذٰلك حينما يحدثنا عن أصحاب القرية التي جاءها رسل عيسى عليه السلام، فيقول تعالى: ﴿واضْرِبْ لهُمْ مَثَلاً أصحابَ

القَرْيَةِ إذْ جاءَها المُرْسَلونَ . إذْ أرْسَلْنا إليهِمُ اثْنَيْنِ فكَذَّبوهُما فعَزَّزْنا بثالِثٍ فقالوا إنَّا إلَيْكُم مُرْسَلونَ . قالوا ما أنْتُم إلَّا بشَرٌ مِثْلُنا وما أنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِن شَيءٍ إنْ أنْتُ إلا تكذِبونَ . قالوا رَبُّنا يَعْلَمُ إنَّا إليكُم لَمُرْسَلونَ﴾ [يس: ١٣ - ١٦].

فانظر كيف أكَّدوا لهم الخبر أولاً بـ (إن) والجملة الاسمية؛ ﴿فقالوا إنَّا إليكُمْ مُرْسَلونَ﴾، ولكنهم لما أمعنوا بالتكذيب، وأصروا عليه، وكذبوا الرسل؛ زادوا في تأكيده، فقالوا: ﴿رَبُّنا يَعْلَمُ إنَّا إليكُم لَمُرْسَلونَ﴾، فجاؤوا بمؤكِّدين جديدين؛ الأول: القسم، وهو مفهوم من قوله: ﴿ربنا يعلم﴾، والثاني اللام: ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾.

وهٰذا أمر مهم، قد يخفى على الخاصة من الناس، فقد رووا أن الكندي - وهو الفيلسوف المعروف - ركب إلى أبي العباس[1]، وقال له: إنِّي لأجد في كلام العرب حشواً. فقال أبو العباس: في أي موضع وجدت ذٰلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبدالله قائم، ثم يقولون: إن عبدالله قائم، ثم يقولون: إنَّ عبدالله لقائم. فالألفاظ متكررة، والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة؛ لاختلاف الألفاظ، فالأول إخبار عن قيامه، والثاني: جواب عن سؤال سائل، والثالث جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ؛ لتكرر المعاني.

■ أدوات التأكيد:

وللتأكيد في العربية أدوات وطرق لا بدَّ لدارس البلاغة من معرفتها؛ ليستعملها عند الحاجة، وهٰذه الأدوات كما ذكرها النحويون والبلاغيون هي: (إنَّ)، ولام الابتداء، وضمير الفصل، والقسم، وإمَّا الشرطية، وحرفا التنبيه؛ (ألا) و(أما)، والحروف الزائدة؛ (إن)، و(أن)، و(ما)، و(من)، والباء، و(قد) التي هي للتحقيق، والسين وسوف الداخلتان على فعل دال على وعد أو وعيد، وتكرير النفي، و(إنما)، ونونا التوكيد.

---

(١) الراجح أنه أبو العباس ثعلب.

١ ـ (إنَّ)[١]:

وهي الأصل في التوكيد، ولها معاني تستفاد منها غير التوكيد، سنذكرها فيما بعد ـ إن شاء الله ـ وكثيراً ما استُعملت في كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرؤوفٌ رَحيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ تَدْعونَ مِن دونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُباباً ولوِ اجْتَمَعوا لهُ﴾ [الحج: ٧٣].

وكثيراً ما يذكـر معهـا لام الابتداء والقسم، مثل قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرؤوفٌ رَحيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله سبحانه: ﴿والعَصْرِ. إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢]، وقولك: واللهِ إنَّ الحياء من الإيمان.

٢ ـ لام الابتداء:

ومنه قول النبي عليه وآله الصلاة والسلام: «للهُ أكثَرُ فرحاً بتوبة عبده المؤمن»[٢]،

---

(١) يلحق بعض العلماء بـ (إن): (أن) مفتوحة الهمزة، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أنا بشرٌ مثلُكُم يُوحى إليَّ أنَّما إلٰهُكُم إلٰهٌ واحدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ومثل هٰذا قوله سبحانه: ﴿فإنْ لَمْ يَسْتَجيبوا لكُم فاعْلَموا أنَّما أُنْزِلَ بعِلْمِ اللهِ﴾ [هود: ١٤]، وكما تقول لأهليك وذويك: لقد أعلمتكم أن ما عزمت عليه لن أرجع عنه. وقولك لصاحبك: إن لم تسر معي لمساعدة هٰؤلاء فتأكد أنما سيؤنبك ضميرك.

وقد تدخل عليهاالكاف، وذلك كقوله: ﴿وأصبَحَ الذينَ تَمنَّوا مكانَهُ بالأمسِ يَقولونَ وَيْ كأنَّ الله يبسُطُ الرِّزقَ لمَنْ يَشاءُ من عباده ويَقْدِر﴾ [القصص: ٨٢].

والحقوا بها (لكنَّ)؛ مثل قوله تعالى: ﴿ولكنَّ الله سلَّم﴾ بعد قوله: ﴿إذ يُريكَهُم اللهُ في منامِكَ قليلاً ولو أراكَهُم كَثيراً لفَشِلْتُم ولَتنازَعْتُم في الأمرِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، ومثل قوله سبحانه: ﴿ولكنَّ الله يَهْدي مَن يشاءُ﴾ بعد قوله: ﴿إنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

ومعنى التأكيد في (أنَّ) مفتوحة الهمزة أنك حيسما تقول: علمت أن المستضعفين لا يستحقون الكرامة، فإن (أنَّ) وما بعدها تؤول بمصدر مفعول به. أي: علمت عدم استحقاق المستضعفين للكرامة. فالعبارة الأولى أبلغ من العبارة الثانية، وننطق بها حينما يكون هناك شك أو إنكار؛ قال تعالى: ﴿ولوْ أنَّهُم صَبَروا حتى تَخْرُجَ إليهِمْ لَكانَ خيراً لهُم﴾ [الحجرات: ٥]، وهو أبلغ من أن يقال: ولو تم صبرهم أو ثبت.

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٤)، حديث رقم (٥٩٥٠).

وقوله تعالى: ﴿لأنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صُدورِهِم مِن اللهِ﴾ [الحشر: ١٣]، وقوله سبحانه: ﴿ولأَمَـةٌ مُؤمِنـةٌ خيرٌ مِن مُشْـرِكَـةٍ ولـو أعجَبَتْكُم﴾ [البقـرة: ٢٢١]، ومثله قولك لمن تخاطب: لأنت حريٌّ بالتقدير.

٣ ـ القسم:

وقد يكون بالواو؛ كما في قوله تعالى: ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يؤمِنونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بينَهُم﴾ [النساء: ٦٥]، وقد يكون القسم بالباء والتاء كذٰلك.

ولا يختص القسم بالجملة الاسمية، فقد يدخل على الجملة الفعلية كذٰلك، ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسُفَ حَتَّى تَكونَ حَرَضاً أو تَكونَ مِن الهالِكينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿وتَاللهِ لأكيدَنَّ أَصْنامَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

٤ ـ ضمير الفصل:

كقـوله تعالى: ﴿أولٰئكَ على هُدىً مِن ربِّهِم وأولٰئكَ هُم المُفْلِحونَ﴾ [البقرة: ٥] وقوله سبحانه: ﴿أمِ اتَّخَذوا مِن دونِهِ أولِياءَ فاللهُ هُوَ الوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]، ومنه: حجة الأقوى هي الفضلى.

ونحب أن ننبهك إلى أن ضمير الفصل هٰذا إنما سُمِّي ضميراً تجوزاً؛ لأنه جاء على صورة الضمير.

فالضمائر ـ كما عرفت في علم النحو ـ هي أسماء، وهي من أنواع المعارف، لكن ضمير الفصل ليس اسماً، وإنما هو حرف في المشهور عند النحويين، وسُمِّي ضمير الفصل؛ لأنه ـ كما رأيت ـ جاء يفصل بين المبتدإ وخبره، ولهٰذا تقول في إعرابه: هو ضمير فصل لا محل له من الإعراب.

وهٰذا الضمير يفيد التأكيد، ومن فوائده غير التأكيد أنه يأتي للاختصاص، وأن ما بعده يكون خبراً لا صفة، فلو أنك قلت: وأولٰئك المفلحون. والله الولي. وحجة الأقوى الفضلى؛ جاز أن تكون هٰذه الكلمات؛ (المفلحون)، و(الولي)، و(الفضلى) صفاتٍ لا أخبـاراً، لكن بمجيء ضمير الفصل لا يجوز إعرابها صفات، بل يتعين أن تكون

أخباراً، ولا شك أن الخبر أقوى في الدلالة وفي تثبيت الحكم من الصفة؛ لأن الخبر عمدة في الكلام.

٥ ـ (أمّا) الشرطية:

تقول لصاحبك: أنا عازم على الجهاد. فإذا أحسست منه شكّاً وتردُّداً في ما قلت، فإنك تؤكد له هٰذا الخبر بقولك: أما أنا فعازم على الجهاد. أما خالد فقد قام بواجبه. قال تعالى: ﴿إنَّ الله لا يَسْتَحْيي أنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعوضَةً فما فوقَها فأمَّا الذينَ آمَنوا فَيَعْلَمونَ أنَّهُ الحَقُّ مِن ربِّهِم وأمَّا الذينَ كَفَروا فيَقولونَ ماذا أرادَ الله بهٰذا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

وينبغي أن تتنبه إلى الفرق بين (أمّا) بالفتح، و(إما) بالكسر؛ مثل قوله تعالى: ﴿فإمَّا مَنًّا بعْدُ وإمَّا فِداءً﴾ [محمد: ٤]، وهٰذه ليست من أدوات التأكيد.

٦ ـ حرفا التنبيه:

وهما (ألا) و(أما)، وقد كَثُر الأول في كتاب الله تعالى: ﴿ألا إنَّهُم هُم السُّفَهاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، ﴿ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عليهِم ولا هُم يَحْزَنونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فأنت ترى أن (ألا) تفيد تحقق ما بعدها، فالمنافقون الذين اتّهموا المؤمنين بالسفه؛ تؤكد لنا الآية الكريمة أنهم الأحقون بهٰذا الوصف، والآية الثانية تؤكد أن الذين اتّخذوا الله وليًّا أو والاهم الله سبحانه وتعالى بعيدون عن أن ينالهم خوف أو حزن.

و(أما) مثل (ألا)؛ إلا أنه يكثر بعدها القسم، كقول أبي صخر[1]:

أمـا والـذي أبْكَى وأضْحَـكَ والـذي ... أمـاتَ وأحْـيا والـذي أمْـرُهُ الأمْـرُ
لقَـدْ تَرَكَـتْني أغْبِطُ الـوَحْشَ أنْ أرى ... أليفَيْنِ مِنهـا لا يَروعُهُمـا الـزَّجْـرُ[2]

---

(١) عبدالله بن سلمة السهمي، من بني هذيل بن مدركة، شاعر، من الفصحاء، كان في العصر الأموي موالياً لبني مروان، متعصباً لهم، وله في عبدالملك وأخيه عبدالعزيز مدائح، مات سنة (٨٠ هـ). [الأعلام: ٤ / ٩٠].

(٢) «ديوان الهذليين» (٢ / ٩٥٧).

٧ ـ الحروف التي سمَّوها زوائد، وهي (من) الاستغراقية، والباء الواقعة في خبر ليس، و (إنْ) ـ بكسر الهمزة ـ الواقعة بعد النفي، و (أنْ) ـ بفتح الهمزة ـ الواقعة بعد لمَّا الظرفية، و (ما).

أما (من) الاستغراقية، فمثل قولك: ما جاءني من أحد، وما فعلت من ذنب، وما في اللهو من فائدة.

وأما الباء، فكقولك: لستُ بالطامع، ولستُ بالحاسد. وكقول عمرو بن معديكرب[1]:

لَيسَ الجَمالُ بِمِئْزَرٍ ... فاعْلَمْ وإِنْ رُدِّيتَ بُرْدا[2]

ومثل (ليس): (ما) المشبهة بها؛ كقولك لصاحبك وقد جار في حكمه: ما أنت بالعادل في حكمك.

أما (إن)؛ فتأتي بعد (ما) النافية، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

ما إنْ جَزِعْتُ ولا هَلِعْتُ ... ولا يَرُدُّ بُكايَ زَنْدا[3]

ومثله قولك: ما إن ظلمت أحداً. ما إنْ قصرت بواجب.

أما (أن)، فمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿فلمَّا أنْ جاءَهُ البشيرُ﴾ [يوسف: ٩٦]، وقولك: لما أن ظهر لي الحق اتبعته. فلما أن عرفتك صادقاً آثرت صداقتك.

أما (ما) التي هي للتأكيد، فكقوله سبحانه: ﴿فإمَّا تَثْقَفَنَّهُم في الحَرْبِ فشَرِّدْ بهِمْ

---

(١) عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبدالله الزبيدي، فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة، وفد على المدينة سنة (٩ هـ) في عشرة من بني زبيد، فأسلم وأسلموا، ولما توفي النبي ﷺ ارتدَّ عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، وشهد اليرموك والقادسية، وقتل عطشاً يوم القادسية سنة (٢١ هـ). [الأعلام: ٥ / ٨٦].

(٢) «شرح ديوان الحماسة» (١ / ١١٠ ـ ١٧٤).

(٣) «خزانة الأدب» (١١ / ٢١٨ ، ٢١٩)، «شرح ديوان الحماسة» (١ / ١٧٩).
والهلع: أفحش الجزع؛ لأنه جزع مع قلة صبر.

مَن خَلْفَهُم﴾ [الأنفال: ٥٧]، وكقولك: إمَّا تدعُوَنَّ إلى حق فاعمل به. إمَّا ترَيَنَّ فقيراً فساعده. إمَّا تسمعنَّ موعظة فاعمل بها. وإمَّا ترَيَنَّ حادثة فاعتبر.

وقد تأتي بعد النكرة، مثل قوله تعالى: ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ [الحاقة: ٤١]، وقولك: قليلاً ما أعتبر بالحوادث.

٨ ـ (قد): واعلم أن (قد) من الحروف التي لا تدخل إلا على الفعل، والنحويون يقسمونها أربعة أقسام:

فهي إن دخلت على الماضي تكون للتحقيق، أو التقريب، فمثال التحقيق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤمِنونَ﴾ [المؤمنون: ١]، ومثال التقريب: قد قامت الصلاة.

وإن دخلت على المضارع تكون للتقليل أو التكثير، فمثال التكثير: قد يجود الكريم، ومثال التقليل: قد يجود البخيل. وما ذكروه فيه نظر.

والذي يهمُّنا ما ذكره البلاغيون، وهو أنَّ (قد) تكون للتأكيد إذا قُصِدَ منها تحقيق الفعل الذي دخلت عليه، وذٰلك كقول ابن زُريق البغدادي:

لا تَعْذِلِيهِ فإنَّ العَذْلَ يُولِعُهُ قدْ قلتِ حقًّا ولٰكِنْ ليس يَسْمَعُهُ

وقد رأيت لبعض الكاتبين أنها إنما تكون للتأكيد إذا دخلت على الماضي فقط، والحق أنها تكون للتأكيد حينما تدل على التحقيق؛ لا فرق في ذٰلك بين الماضي والمضارع؛ قال تعالى: ﴿وإِذْ قالَ موسى لقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تؤذونَني وقَدْ تَعْلمونَ أَنِّي رَسولُ اللهِ إليكُمْ﴾ [الصف: ٥][1].

٩ ـ السين و (سوف):

وهما حرفان يدخلان على المضارع، فيمحِّضانه للاستقبال، أي يصير الفعل

(١) وفي التنزيل كثير من هٰذا؛ كما في قوله تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم...﴾ [الأحزاب: ١٨]، وقوله سبحانه: ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً...﴾ [النور: ٦٣].

مستقبلاً، إلا أن السين ـ كما يقول بعض النحويين ـ تدل على الزمن القريب، ويسمونه التنفيس، و(سوف) على الزمن البعيد، ويسمونه التسويف، وتكونان للتأكيد إن دخلتا على مضارع فيه الوعد أو الوعيد، أي: إن دلَّ الفعل على محبوب أو مكروه، كقولك: سأمنح المجتهد جائزة. سأعاقب المقصر في واجبه. ومنه قوله سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ الله بعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٧].

١٠ ـ (لن): وهي لتأكيد النفي، ورأى بعضهم أنها تفيد التأبيد كذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنالوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

١١ ـ **نونا التوكيد**: ونعني بهما نون التوكيد الثقيلة المشددة المفتوحة، ونون التوكيد الخفيفة الساكنة غير المشددة، وقد اجتمعتا في قوله تعالى ﴿ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكونَنْ مِنَ الصَّاغِرينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، ووردت النون الخفيفة في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]، ومثال الثقيلة قول الشاعر:

لأستَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ اَوْ أُدْرِكَ المُنى فمـا انْقـادَتِ الآمـالُ إلاَّ لِصـابِـرِ

ونونا التوكيد تدخلان على المضارع وجوباً أو جوازاً، وقد يمتنع دخولهما، وذلك مبين في علم النحو.

أما دخولهما على فعل الأمر، فلا يهمنا الآن؛ لأننا نتحدث عن الخبر، وفعل الأمر ليس من باب الخبر، وإنما هو من باب الإنشاء.

ولكن أحب أن أنبِّهَكَ هنا إلى فائدة، وهي أن نون التوكيد الثقيلة تثبت في حالة الوقف وحالة الفصل، أما نون التوكيد الخفيفة فتثبت في حال الوصل فقط، أما في حال الوقف، فإننا لا نقف عليها كما نقف على نون التوكيد الثقيلة، وإنما نقلبها ألفاً، فإذا أردتُ أن أقف على قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعَنْ﴾، فإني أقول: ﴿لَنَسْفَعا﴾، وإذا أردت أن تقف على قولك: (لأفعلنْ) ـ بتسكين النون ـ تقول: (لأفعلا)، وكذلك قولك لصاحبك: (لتشربنْ)؛ تقول: (لتشربا).

١٢ ـ **تكرير النفي**: كما تقول: لا، لا أرضى بالذل. ومنه قول الشاعر:

لا لا أبــوحُ بحُــبِّ بَثْـنَــةَ إنَّــهــا أخَــذَتْ عليَّ مَواثِــقــاً وعُــهــودا

ومنه قولك: لا، لا أجيء لدار أنت تسكنها.

١٣ ـ (إنَّما): كقولك: إنما الجشع الحرص. إنما السعادة الرضا. إنما الجهاد العمل.

وهٰذه أداة قصر، نقصر الحديث عنها هنا، لنتحدث عنها في موضعها إن شاء الله.

■ طرق التوكيد:

أذكرك هنا بما قلته عندما حدثتك عن التوكيد بأنَّ له أدوات وطرقاً، والذي عرفته في ما مضى هو الأدوات، وقد يكون التوكيد بغير هٰذه الأدوات، قد يكون له طرق أخرى، أوجزها لك في مايلي:

١ ـ **الجملة الاسمية**؛ كقولنا: الشهداء أحياء. الإيمان حياة القلوب. فلسطين مسؤولية الأمة.

٢ ـ **تقديم الفاعل من حيث المعنى**: وإنما قلنا من حيث المعنى؛ لأن الفاعل ـ كما علمت في النحو ـ لا يتقدم على فعله، فإذا تقدم أعربوه مبتدأ؛ كما تقول: الشمس طلعت.

والبلاغيون لا يختلفون مع النحويين في هٰذا الإعراب، فـ (الشمس) مبتدأ عند الجميع، إلا أن البلاغيين يذهبون إلى ما هو أبعد من هٰذا، فيعدُّون الشمسَ فاعلاً من حيث المعنى، فهم يفرِّقون بين: طلعت الشمس، والشمس طلعت، ويجعلون الجملة الثانية مفيدة للتأكيد؛ لما فيها من تكرير الإسناد، ألا ترى أن كلمة (الشمس) هنا ذُكرت مرتين، ذكرت أولاً اسماً ظاهراً، وذكرت ثانياً ضميراً مستتراً.

ومن هٰذا القبيل ـ أي: تقديم الفاعل في المعنى ـ قولك لصاحبك: أنا مضيت في حاجتك. كأنك تؤكد له بأنك أنت وحدك؛ إن كان يعتقد أن معك شريكاً. أو أنت

لا غيرك ؛ إذا كان يعتقد أن غيرك هو الذي سعى فيها . ولنا عودة إلى هٰذا في باب القصر إن شاء الله .

تدرك مما سبق الأمور التالية :

أولاً : إن للتوكيد طريقين اثنين ؛ فتارة يكون بأداة دالة على التأكيد ، وتارة يكون بغير الأداة ، وإنما يعرف من تركيب الجملة .

ثانياً : إن أدوات التوكيد منها ما يختص بالجملة الاسمية ، مثل : (إن) ، و (أن) ، و (لكنَّ) ، وضمير الفصل ، ومنها ما يختص بالجملة الفعلية ، كـ (قد) ، والسين ، و (سوف) ، و (لن) ، ومنها ما يدخل عليهما معاً كالقسم ، وبعض الزوائد .

ثالثاً : قد تؤكد الجملة بعدة مؤكدات ، مثل : القسم ، و (إنَّ) ، واللام ، والجملة الاسمية ، وذٰلك يرجع إلى ما يقتضيه المقام .

رابعاً : إن هٰذا التأكيد ليس لجزء من الجملة ، ليس للمسند إليه ، وليس للمسند ؛ لأنني حينما أقول : واللهِ إن الجهاد فرض . فأنا لا أؤكد كلمة الجهاد ـ وهو المسند إليه ـ ؛ لأنني لو أردت تأكيده لقلت : الجهاد الجهاد نفسه . ولا أؤكد المسند ـ وهو (فرض) ـ لأني لو أردت تأكيده ؛ لأكدته بالتكرار ، فقلت : فرض ، فرض . وإنما أؤكد الحكم والنسبة ، فأنا أؤكد نسبة الفرضية للجهاد .

■ دراسة تطبيقية لأسلوب التأكيد :

يجمل بك بعد أن عرفت أدوات التوكيد وطرقه ، أن تلمَّ بشيء من أساليب التوكيد في الكلام البليغ ؛ لتدرك أن هٰذا التوكيد لم يأت عبثاً ، وإنما كانت تقتضيه وتحتمه مقامات كما عرفت من قبل :

* كان النبي ﷺ يتعبَّد في غار حراء ، وجاءه الوحي بهٰذه الآيات : ﴿اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ . اقرأْ وربُّكَ الأكْرَمُ . الذي علَّمَ بالقَلَمِ . عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

يقول جبريل للنبي ﷺ: اقرأ. والنبي ﷺ يقول: «ما أنا بقارىء». ويرجع النبي ﷺ إلى بيته؛ يقص الخبر على زوجه الكريمة السيدة خديجة رضي الله عنها، فتقول: لا، لن يخزيك الله، والله إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1].

النبي عليه وآله الصلاة والسلام أكَّدَ خبره بقوله: «ما أنا بقارىء»؛ ذلك لأنه أدرك أن الـذي يطلب منه القراءة، كأنما هو شاكٌّ أو متردِّد في هٰذا الأمر، فكان من حسن التصرف في القول أن يؤكد له الخبر، فأكد بهٰذه الباء: «بقارىء».

ولكن السيدة خديجة رضي الله عنها ـ وقد رأت آثار الفزع على النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، وهو يرتجف ويرتعد ـ كيف يمكن أن تلقي إليه القول؟! لقد أدركت أنه بحاجة إلى الطمأنينة، فلا بدَّ أن يكون أسلوب القول متسقاً مع حال المخاطب، إن هٰذا المقام؛ مقام الفزع والخوف والاضطراب، بحاجة إلى مقال يناسبه، لذٰلك نجد السيدة خديجة تأتي بما يبدِّد الوهم، ويطرد الفزع؛ هذه المؤكدات الكثيرة: لا، لن يخزيك الله، والله إنك لتصل الرحم.

فأنت ترى أن هٰذه المؤكدات الكثيرة إنما جاءت بها السيدة خديجة البليغة في القول، جاءت بها؛ لأن هناك حاجة ماسة لها.

* نقرأ قول الله سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ الله المُعَوِّقينَ منكُم﴾ [الأحزاب: ١٨]، فإذا عرفنا أن هٰذه الآية الكريمة جاءت في سياق غزوة الأحزاب، وكان حديثاً عن المنافقين، وكانت أعمالهم وأقوالهم تنبىء عن شك في أنفسهم، أدركنا سبب التأكيد في الآية بـ (قد).

ومثل هٰذا قوله سبحانه: ﴿لا تَجْعَلوا دُعاءَ الرَّسولِ بينَكُم كَدُعاءِ بعْضِكُم بعْضاً قدْ يَعْلَمُ الله الـذينَ يَتَسَلَّلونَ منكُم لِواذاً﴾ [النور: ٦٣]، فهو تأكيد لأولٰئك المنافقين

(١) «صحيح البخاري»، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ باب رقم (١)، حديث رقم (٣).

الذين كانوا يتسللون من مجلسه عليه وآله الصلاة والسلام.

* نقرأ قوله تعالى يحدِّثنا عن الذين يظاهرون من نسائهم، وقد كان ذٰلك من الأمور التي لا يرون بها بأساً، ولا يعدون فيها عيباً، فقال الله في ذٰلك: ﴿وإنَّهم لَيقولونَ مُنْكَراً مِن القَوْلِ وزوراً وإنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

كانت هٰذه المؤكدات: (إن)، والجملة الاسمية، واللام؛ من أجل أن يتجنبوا الظهار، كان المقام إذن يقتضي هٰذه المؤكدات جميعاً، ثم أُكِّدت الجملة الثانية: ﴿وإنَّ الله لَعفُوٌّ غفورٌ﴾؛ بياناً لعظم الذنب، وهو الظهار، فهو يحتاج إلى كبير عفو، وكثير مغفرة، فجاءت الجملة الثانية مؤكدة بهٰذه المؤكدات، وهي: (إن)، والجملة الاسمية، واللام؛ ﴿وإنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفورٌ﴾.

* كان المنافقون الذي يظهرون الإيمان، واليهود؛ يتظاهرون بالإصلاح والصدق، فنجد ردَّ القرآن عليهم في آيات كريمة كثيرة يتَّخِذُ هٰذا الطابع؛ طابع التأكيد بمؤكدات كثيرة، فنقرأ مثلاً: ﴿ألا إنَّهم هُم السُّفهاءُ ولٰكِنْ لا يَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ١٣]، ﴿ألا إنَّهم هُم المُفْسِدونَ ولٰكنْ لا يَشْعُرونَ﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿ألا إنَّهم هُم الكاذِبونَ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ كل هٰذا لأن المقام يقتضيه.

* وهٰذا هو فرعون بعد أن جمع السحرة، وكلهم أمل أن يحققوا مكاسب كثيرة، وهم يعرفون صلف فرعون؛ أحبوا أن يستوثقوا لأنفسهم، فألقوا كلامهم مؤكَّداً بمؤكدات عدة: ﴿إنَّ لَنا لأجْراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الغالِبينَ﴾ [الأعراف: ١١٣]، ويرى فرعون - وقد أدرك أن لا ثقة متبادلة بينهم وبينه - أن يؤكد لهم، فقال: ﴿نعم وإنَّكُمْ لَمِنَ المُقَرَّبينَ﴾ [الأعراف: ١١٤].

ولمَّا قضى الله أمره، وأُلقي السحرة سجَّداً، وأصبح فرعون يغلي حقداً ويتقطع غيظاً؛ يصوِّر القرآن الكريم لنا نفسية فرعون حينما أرسل في المدائن حاشرين؛ ليجمعوا أهلها، حتى يخرجوا موسى ومن معه، وهو تصوير يدلنا على ما كان في نفوس أهل مصر من كراهية في الخروج، وعدم رغبة فيه، وبخاصة بعد أن عرفوا ما كان من

أمـر السحرة، فنقرأ هٰذه الآيات المشتملة على أنواع من التأكيد بأدواته وطرقه: ﴿إنَّ هٰؤلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَليلونَ . وإنَّهُم لَنا لَغائِظونَ . وإنا لَجَميعٌ حاذِرونَ﴾ [الشعراء: ٥٤ - ٥٦].

* كان المؤمنون يألَمون حينما تُصيبُهم مصيبة، أو حينما يسمعون من غيرهم ما يؤذيهم، فمقتضى هٰذا الحال أن يؤتى لهم بكلام مؤكد؛ لتتوطن نفوسهم عليه، وليعرفوا أنَّ هٰذه سنة الله، فقال الله لهم: ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أَمْوالِكُم وأَنْفُسِكُم ولَتَسْمَعُنَّ مِن الذينَ أُوتوا الكِتابَ مِن قبلِكُم ومِن الذينَ أَشْرَكوا أَذىً كثيراً وإنْ تَصْبِروا وتَتَّقوا فإنَّ ذٰلك مِن عزمِ الأمورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. أكَّد لهم بالقسم الذي دلَّت عليه اللام، وبنون التوكيد الثقيلة، وهٰذا كثير في كتاب الله تعالى..

* أما النبي ﷺ؛ فنجد هٰذه المؤكدات في كلامه عندما تدعو إليه الحاجة، نقرأ هٰذه الخطبة الموجزة، يدعو قومه فيها للإيمان:

«إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله لَتموتُنَّ كما تَنامون، ولَتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتجْزَوُنَّ بالسوء سوءاً، وبالإحسانِ إحساناً، وإنها لَجنة أبداً، أو لنار أبداً»(١).

فانظر كيف جاءت هٰذه التأكيدات في مقامها المناسب الذي لا بد منه.

* وكذٰلك تذكيره لأصحابه، وقد رأوا سخلاً صغيراً ميتاً، فيقول:

«والله؛ لَلدُّنيا أهون على الله من هٰذا على أصحابه»(٢).

* وانظر إلى هٰذا التأكيد في هٰذا الأسلوب البليغ، فقد روى أبو واقد الليثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد، والناس معه؛ إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان

---

(١) ذكر قريباً منه ابن الأثير في «الكامل» (٢ / ٦١).

(٢) «صحيح مسلم»، كتاب الزهد، حديث رقم (٢)، ورواه الترمذي في كتاب الزهد، وكذٰلك ابن ماجه.

إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد. قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما؛ فرأى فرجة، فجلس فيها، وأما الآخر؛ فجلس خلفهم، وأما الثالث؛ فأدبر ذاهباً، فلما فرَغَ رسول الله ﷺ قال:

«الا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم؛ فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر؛ فاستحيى، فاستحيى الله منه، وأما الآخر؛ فأعرض، فأعرض الله عنه»(١).

* في غزوة بدر يتحدث النبي ﷺ إلى أصحابه، فيجيب الكثيرون بكلمات حاسمة مؤثرة، ولكنَّ النبي ﷺ يعود لما قال: «أشيروا عليَّ أيها الناس». فيدرك الأنصار أنهم المقصودون، فيقوم سعد بن معاذ، فيقول: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل». قالَ:

فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذٰلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامْضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هٰذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً؛ إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينُك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذٰلك، ثم قال: «سيروا، وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»(٢).

والسنة مليئة بهٰذه الأساليب البليغة التي تدعو إليها الحاجة، وإنك واجد هٰذا الأسلوب في أقوال العرب شعراً ونثراً.

* استمع إلى قول العباس بن الأحنف:

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: من قعد حيث ينتهي به المجلس، ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها. باب رقم (٨)، حديث رقم (٦٦).

(٢) «صحيح مسلم»، كتاب، الجنة؛ صفتها ونعيمها، باب: عرض مقعد الميت عليه، وإثبات عذاب القبر والنفوذ منه، حديث رقم (٧٦).

فأُقْسِمُ ما تَرْكي عِتابَكَ عَنْ قِلىً ... ولٰكِنْ لِعِلْمي أنَّهُ غيرُ نافِعِ[1]

إن الشاعر هنا يريد أن يؤكد لمن يخاطب بأنه ترك معاتبته لا من أجل بغض وكراهية، ولكن لأنه يعلم علماً لا شك فيه بأن هٰذا العتاب سوف لا يجدي، ولا ينفع شيئاً.

حال المخاطب إذن هو الذي استدعى هٰذا الأسلوب، إن المخاطب غير معترف بهٰذا، ويحسب أن ترك المعاتبة ناشىء عن بغض وكراهية.

* واستمع إلى قول محمد بن بشير[2]:

إنِّي وإنْ قَصُرَتْ عَنْ هِمَّتي جِدَتي ... وكانَ مالِيَ لا يَقْوى على خُلُقي

لَتارِكٌ كُلَّ أمرٍ كانَ يَلْزَمُني ... عاراً ويشرعني في المَنْهَلِ الرَّنِقِ

ألا تراه كأنما يعتذر عن قلة ماله، وقلة جدته، فلئن كانت جدته قاصرة، فإنَّ همته لأعظم بكثير، وإنَّ ماله لأقل بكثير من عظيم خلقه، فقد أُعطي همة وخلقاً بلغ فيه مبلغاً عظيماً، وإن كان لم يعط مثلهما من المال والجدة، فهو يؤكد هٰذا المعنى، فهو يقول بأنه وإن كان كذٰلك قصير الجدة، ضعيف المال، لكنَّه يترك كل ما فيه عار وحرج، وهو يؤكد هٰذا المعنى بـ (إن) واللام؛ ليزيل من نفس من يخاطبه كل ما فيها من شك وإنكار.

* وهٰذا شاعر يحدثك عن المعروف لتتشوق إليه نفسك، ولتعزم على مزاولته، وتصمم على تعاطيه، فيقول:

ولَمْ أرَ كَالمَعْروفِ أمَّا مَذاقُهُ ... فَحُلْوٌ وأمَّا وَجْهُهُ فَجميلُ

* وهٰذا الشريف الرضي، يودُّ أن يزيل من النفس هٰذه الآلام التي تنشأ عن اختلال الموازين، وخطأ المقاييس، فالجبان إذا كان ثريًّا ربما يصل إلى ما يصل إليه

(١) «ديوانه» (ص ١٧٤)، تحقيق: عاتكة الخزرجي.

(٢) محمد بن بشير الخزرجي، شاعر حجازي فصيح، مطبوع، من شعراء الدولة الأموية، كان منقطعاً إلى أبي عبيدة القرشي، وله فيه مدائح مختارة هي من عيون شعره.

الشجاع، فربما يجادل بعض الناس في هٰذا؛ فكان لا بد أن يلقى هٰذا الكلام مؤكداً، فأكد هٰذا المعنى بقوله:

قدْ يَبْلُغُ الرَّجُلُ الجَبانُ بمالِهِ ... ما لَيْسَ يَبْلُغُهُ الشُّجاعُ المُعْدَمُ[1]

* وهٰذا هو المعرِّي[2] إيواسي أهل المصاب بما يخفف عنهم حزنهم وألم الفراق، فيأتي بهٰذا المعنى مؤكَّداً:

إنَّ الذي الوَحْشَةُ في دارِهِ ... تُؤنِسُهُ الرَّحْمَةُ في لَحْدِهِ

* ومن أجمل ما تجده للتوكيد من موقع قول القائل[3]:

لَئِنْ كُنْتُ مُحْتاجاً إلى الحِلْمِ إنَّني ... إلى الجَهْلِ في بعْضِ الأحايين أحْوَجُ
وما كُنْتُ أرْضى الجَهْلَ خِدْناً وصاحِباً ... ولٰكِنَّني أرْضى بِهِ حينَ أُحْرَجُ
ولي فَرَسٌ للحِلْمِ بالحِلْمِ مُلْجَمٌ ... ولي فَرَسٌ للجَهْلِ بالجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ شاءَ تَقْويمي فإنِّي مقَوَّمٌ ... ومَن شاءَ تَعْويجي فإنِّي مُعَوَّجُ

فأنت ترى أن الشاعر أكَّد ما أخبر عنه، فلا تجد بيتاً من أبياته إلا وفيه تأكيد، ففي البيت الأول: القسم و(إنَّ) والجملة الاسمية، و(لكنَّ) في الثاني، والجملة الاسمية في البيت الثالث، و(أنَّ) في البيت الرابع.

ذٰلك هو أسلوب التأكيد في العربية، ونرجو أن نفيد من هٰذا الأسلوب، فنأتي به عند الحاجة إليه.

---

(١) «الديوان» (٢ / ٣٢٥).

(٢) أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري أبو العلاء، شاعر، حكيم، أديب، لغوي، نحوي، ولد سنة (٣٦٣ هـ) بمعرة النعمان، من أعمال الشام، وتوفي سنة (٤٤٩ هـ). [المعجم ١ / ٢٩١].

(٣) نسبت الأبيات في «عيون الأخبار» (١ / ٢٨٩) مع أبيات أخرى لمحمد بن وهيب، وفي «معجم الشعراء» (٤٢٩)؛ نسبت إلى محمد بن حازم الباهلي، وإلى صالح بن جناح وغيره في «بهجة المجالس» (٦١٨)، وانظر «الزهرة» لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني، تعليق: د. إبراهيم السامرائي (٢ / ٥٨١).

■ خروج الكلام عن مقتضى الظاهر:

إذا أنعمنا النظر؛ وجدنا أن من الأقوال البليغة ما جاء على غير هٰذه القاعدة، فقد نُلقي الكلام للمنكِر غيرّ مؤكد، وقد علمنا أن المنكر يجب له التأكيد، وكذٰلك المتردد والسائل الذي يستحسن له التأكيد، قد لا نؤكد له، أما خالي الذهن الذي لا ينبغي أن يؤكد له الكلام، فقد ننزله منزلة السائل أو المنكر، فنؤكد له.

هٰذه حالات ثلاث:

أولاها: أن ننزل غير السائل منزلة السائل، فيستحسن تأكيد الكلام له.

ثانيها: أن ننزل غير المنكر منزلة المنكر، فنؤكد له الكلام بأكثر من تأكيد.

ثالثها: أن ننزل المنكر منزلة غير المنكر، فلا نؤكد له.

ويسمى هٰذا التصرف خروجاً على مقتضى الظاهر، وهٰذا كلام يحتاج إلى بيان وتفسير:

عرفت أن الفائدة من علم المعاني أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال، فحال المنكر يوجب التأكيد، والسائل يستحسن له التأكيد، وخالي الذهن الذي ليس سائلاً ولا منكراً لا ينبغي أن نؤكد له الكلام؛ لأنه فضول وزيادة، وهٰذا هو الظاهر كذٰلك.

الظاهر - إذن - أن يؤكد الكلام وجوباً للمنكرين، واستحساناً للسائلين، والشاكين، والمترددين، وأن لا يؤكد لغيرهم.

هٰذا مقتضى الحال ومقتضى الظاهر معاً.

أما أنه مقتضى الحال؛ فلأن حال كل من هٰؤلاء الثلاثة، أعني: المنكر، والمتردد، وخالي الذهن، ينبغي أن يختلف عن صاحبه عند مخاطبته.

وأما أنه مقتضى الظاهر؛ فلأنه يدركه كل واحد لأول وهلة، لكننا لاعتبارات عدّة قد نخالف هٰذه القاعدة - كما قلت من قبل - فلا نؤكد لمن يستحسن له التأكيد أو يجب، وقد نؤكد لمن ليس كذٰلك.

ولكن حذارِ أن تظن أننا نفعل ذلك دون مراعاة اعتبارات، أو نهمل مقتضيات الأحوال، إننا لا نفعل ذلك رغبة في الخروج عن قواعد البلاغة، ولا نفعل ذلك رغبة في تغيير حديثنا من أسلوب إلى أسلوب، وإنَّما نفعله؛ لأن هناك أحوالاً تقتضي هذا الفعل، صحيح نحن بذلك نخرج عن مقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر وجوب التأكيد للمنكر، واستحسانه للشاكِّ، وتركه لخالي الذهن، ولكننا لا نخرُج عن مقتضى الحال؛ لأن الخروج عن مقتضى الحال خروج عن البلاغة، وإليك بيان ذلك عمليًا بعد أن شرحته لك، وأرجو أن تكون قد فهمته نظريًا:

أولاً: اقرأ قول الله تعالى يحدثنا عن الأطوار التي يمر بها الإنسان: ﴿ولَقَدْ خَلَقْنا الإنسان مِن سُلالَةٍ مِن طينٍ ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ . ثم خَلَقْنا النطفَةَ علَقَةً فخَلَقنا العَلَقَة مضْغَةً فَخلَقْنا المُضْغَةَ عظاماً فكَسَوْنا العِظامَ لحْماً ثمَّ أنْشأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ الله أحْسَنُ الخالِقينَ . ثمَّ إنَّكُم بعدَ ذلك لمَيِّتونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٥].

تدبَّر هذه الآية الكريمة؛ تجد أنها تخبر عن الموت، والموت لا ينكره أحد، فهو سنة الله في الخلق، ولكن نجد أن الله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية مؤكَّدة بأكثر من مؤكد؛ بـ (إن)، واللام، والجملة الاسمية، وقد علمنا من قبل أن هذه المؤكدات تكون للمنكرين، لكن **لماذا خرجت هذه الآية عن مقتضى الظاهر، فأكدت لغير المنكر؟! أكدت الحديث عن الموت!** لا بدَّ من اعتبارات اقتضت هذا.

أنعم النظر في الآية الكريمة وأحوال الناس؛ تدركْ أن سبب التأكيد فيها هو غفلة النَّاس، وعدم ذكرهم للموت، واعتداء بعضهم على بعض، هم لا ينكرون الموت، لكنَّ أعمالهم وأحوالهم تدل على غفلتهم، وعدم اعترافهم بأنهم سيموتون.

أحوالهم إذن اقتضت هذا التأكيد في الآية الكريمة، هذا التأكيد مطابق لمقتضى الحال؛ حال الغافلين عن الموت، وإن كان مخالفاً لمقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر أن لا يؤكَّد الكلام لغير المنكر، أما إذا أُكِّدَ الكلام لغير المنكر، ولم يكن هناك داع للتأكيد، فإن الكلام لا يكون من البلاغة في شيء.

وهٰكذا تدرك أن الكلام البليغ قد يخرج عن مقتضى الظاهر؛ لأنه لا يمكن أن يخرج عن مقتضى الحال.

يمثل البلاغيون لتنزيل غير المنكر منزلة المنكر بقول حجل بن نضلة القيسي[1]:

جاءَ شَقيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ   إنَّ بني عمِّكَ فيهِمْ رِماحْ[2]

الشاعر هنا رأى شقيقاً يضع رمحه على عاتقه وقد ذهب إلى مضارب أبناء عمومته ومنازلهم، وحاله وهو عارض رمحه يدل على عدم اكتراث بغيره، وشقيق هٰذا لا ينكر أنَّ في بني عمه رماحاً؛ فهو أعرف الناس بذٰلك، ولكنَّ حاله التي جاء عليها في اختياله وتعريضه برمحه اقتضت أن ينزل منزلة المنكر، فخرج بالكلام عن مقتضى الظاهر، وأكد له القول: «إن بني عمك فيهم رماح».

أسلوب التأكيد هنا إذن مطابق لمقتضى الحال.

ومن هٰذا القبيل قول لبيد بن ربيعة:

صادَفْنَ منها غِرَّةً فأصَبْنَها   إنَّ المَنايا لا تَطيشُ سِهامُها[3]

إن إتيان المنية أمر بدهي لا يحتاج إلى تأكيد، ولكن حب الإنسان للحياة، وحرصه عليها، وكراهية الموت؛ كل ذٰلك يجعله بمسيس الحاجة إلى أن يؤكد له هٰذا الأمر البدهي.

وهٰذا كثير في أقوال البلغاء، ويمكنك أن تسير على هٰذا المنهج، فتقول للطالب المهمل: ورَبِّك إنَّ الامتحان لقريب. وهو لا ينكر ذٰلك، ولكن لما رأيت من إهماله وكسله؛ ناسب أن تنزله منزلة المنكر.

---

(١) حجل بن نضلة الباهلي، شاعر جاهلي، قالوا في خبره: أسر النوار بنت عمرو بن كلثوم يوم طلح، وفر بها في الفلاة خوفاً من أن يلحق. [الأعلام: ٢ / ١٧٠].

(٢) «دلائل الإعجاز» (٢١٤)، «معاهد التنصيص» (١ / ٧٣).

(٣) «الديوان» (ص ٣٠٨)، تحقيق: إحسان عباس، والبيت مروي عند سيبويه: ولقد علمت لتأتين منيتي.

وكذلك تقول للأمة اللاهية المنهمكة في شهواتها، وعدوها يتربّص بها الدوائر، وهم لا ينكرون ذٰلك، تقول لهم: واللهِ إن عدوَّكم لماكر، والله إنّه ليتربص بكم الدوائر.

وكذلك تقول لمن يعُقّ والديه، ولمن يفرِّط في الأمانة، ولمن لا يعمل بعلمه؛ وهم لا يجحدون نتائج هٰذه الأعمال: لتعرفنَّ إنّهما لوالداك. لتُدركَنَّ أنها الأمانة. إنك لمسؤول عما علمك الله.

ثانياً: وكما نزلنا غير المنكر منزلة المنكر، فإننا ننزل غير السائل منزلة السائل، وهٰذا عندما نخاطبه بكلام، فندرك أن هٰذا الكلام أثار تساؤلات في نفسه، فيستحسن أن نؤكد له الكلام ببعض المؤكدات؛ لنزيل آثار هٰذه التساؤلات من نفسه.

هو في الحقيقة ليس بسائل، لكن لما كان الخطاب الذي خوطِبَ به جعله يقلب الأمور، ويتساءل عن الغاية والنتيجة؛ نزلناه منزلة السائل، وإليك الأمثلة:

أكثر كتب البلاغة تذكر قوله تعالى خطاباً لنوح ـ عليه وعلى أنبياء الله صلاة الله وسلامه ـ: ﴿واصْنَعِ الفُلْكَ بأعيُنِنا ووَحْيِنا ولا تُخاطِبْني في الذينَ ظَلَموا إنَّهم مُغْرَقونَ﴾ [هود: ٣٧].

لقد أُكِّدت الجملة الأخيرة ـ وهي الإخبار بإغراق القوم ـ ولكن لم هٰذا التأكيد؟! هل تساءل نوح ـ عليه السلام ـ عما سيحدث لقومه؟ لم تحدثنا آيات الذكر الحكيم عن شيء من هٰذا التساؤل، لكن قوله تعالى: ﴿واصْنَعِ الفُلْكَ﴾؛ يجعل نوحاً يتساءل في نفسه: ماذا سيحدث لأولئك المعاندين؟ ولم الفلك وليس هناك ماء؟ هل يريد الله أن يبعث ماء من السماء والأرض عقاباً لأولٰئك؟ هٰذه التساؤلات بين نوح ونفسه اقتضت أن يُلقى الكلام مؤكَّداً، فقال سبحانه: ﴿ولا تُخاطبني في الذينَ ظَلَموا إنَّهم مُغْرَقونَ﴾.

وقال تعالى للنبي ﷺ مبيناً حكم أولٰئك الذين اعترفوا بذنوبهم؛ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً: ﴿خُذْ مِن أمْوالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِم بها وصَلِّ عليهِم﴾ [التوبة: ١٠٣]. وهٰذا الحديث من شأنه أن يثير في النفس تساؤلات: ماذا سيفيدون من هٰذه الصلاة؟ هل تزيل عنهم أرَقاً؟ وهل تخفف عنهم اضطراباً وقلقاً؟ فجاء قوله

سبحانه مزيلاً هٰذه التساؤلات، مؤكّداً ببعض المؤكدات: ﴿إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لهُم﴾.

ونقـراً قوله سبحانه: ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ الساعَةِ شيءٌ عظيمٌ﴾ [الحج: ١]. لقد أُمِروا بالتقوى، ومن حقهم أن يتساءلوا: ما الباعث لهٰذا الأمر؟ وما الغاية منه؟ فقيل لهم: ﴿إنَّ زَلْزَلَةَ الساعَةِ شَيْءٌ عظيمٌ﴾.

ومن هٰذا قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿وما أُبَرِّىءُ نفسي إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

ومن هٰذا القبيل قول النبي ﷺ وقد سمع الصحابة يجهدون أنفسهم، ويرفعون أصواتهم بالدعاء، فقال: «يا أيها الناس أرْبِعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ»(١).

ومما وقع فيه التأكيد موقعاً آية في الحسن، وغاية في البلاغة: عِش ما شئت فإنك ميت، وأحبب مَن شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجازى. ألا ترى أن النفس حينما يلقى لها كل أمر من تلك الأوامر: عش ما شئت، أحبب مَن شئت، اعمل ما شئت؛ فإنها تثير فيها كوامن وشجون، فيأتي الخبر، فتسكن النفوس إليه.

ومنه قول الشاعر:

فَغَنِّهـا وهيَ لـكَ الفـداء إنَّ غِنـاءَ الإبلِ الحُداءُ

ومنه قول الشاعر:

قِفْ دُونَ حَقِّـكَ في الحَياةِ مُجاهِـداً إنَّ الـحَـياةَ عَقـيدَةٌ وجِـهـادُ

بعد هٰذا يمكنك أن تدرك جمال التأكيد في كل مقام يشبه هٰذا الذي حدثتك عنه، ومن هٰذا قولك للفئات المتنازعة في الأمة: أجمعوا أمركم، وآجمعوا صفكم، إن عدوكم

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الجهاد، باب: ما يكره من رفع الصوت في التكبير، باب رقم (١٢٩)، حديث رقم (٢٨٣٠)، وكتاب المغازي، باب غزوة خيبر، باب رقم (٣٦)، حديث رقم (٣٩٦٨).

يبيِّت لكم أمراً عظيماً بليل. وتقول للطالب: أفِدْ من وقتك؛ لا تضيعْهُ، إن الامتحان قريب. وتقول للمبذرين: لا تبذروا ثروات الأمة، إنها أمانة بين أيديكم.

ثالثاً: وقد يؤكد الكلام من أجل المتكلم لا من أجل المخاطب، وذلك حينما يستبعد المتكلم حكماً ما، أو أمراً من الأمور؛ فيأتي بالكلام مؤكداً حتى يزيل ما علق في نفسه، وما استقر فيها من رواسب، وما هيمن عليها مما كان يستبعد وقوعه.

اقرأ مثلاً قوله تعالى يحدثنا عن أمر مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿فلمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]. وأظنك تتساءل: لم هٰذا التأكيد: ﴿إنِّي وضعتُها أُنثى﴾، وهي تخاطب ربها، والله أعلم بما وضعت؟!

يقيناً؛ لا يُعقل أن يكون هٰذا التأكيد للمخاطب، إذن هل تؤكد لنفسها هي؟! ولِمَ؟! نعم، إنها تؤكد لنفسها، لقد استقرَّ في هٰذه النفس بأن جنينها الذي تحمله ذكرٌ، ولهٰذا نذرته للعبادة: ﴿رَبِّ إنِّي نَذَرْتُ لكَ ما في بَطْني مُحرَّراً فَتَقَبَّلْ مني﴾ [آل عمران: ٣٥]، فإنَّ مِن شأن الذي يقوم على خدمة المعابد أن يكون ذكراً لا أنثى، ولكنها فوجئت حينما تم الوضع بأنها أنثى، وهٰذا لم يكن يخطر لها على بال، من أجل ذٰلك كان هٰذا التأكيد، إنها تريد أن تمحو ما استقرَّ في نفسها، وأن تزيل آثار ذكريات الماضي، وأن تبدِّد ما أحدثه ذٰلك الأمل، فجاءت بقولها مؤكَّداً؛ ليتم لها كل ذٰلك: ﴿إنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى﴾.

ويشبه هٰذا قوله تعالى حديثاً عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿قالَ رَبِّ إنَّ قَوْمي كَذَّبونِ﴾ [الشعراء: ١١٧]، وهٰذا التأكيد ليس من أجل المخاطب، وإنما هو من أجل المتكلم نفسه، كأنما يستبعد هٰذا الحكم ـ وهو تكذيب قومه له بعد أن بذل كل ما يقدر عليه من جهد ووقت ـ.

ومثله قوله سبحانه: ﴿رَبِّ إنِّي دَعَوْتُ قَومي ليلاً ونَهاراً . فَلَمْ يَزِدْهُم دُعائي إلا فِراراً . وإنِّي كُلَّما دَعَوْتُهم لِتَغْفِرَ لهُم جَعَلوا أَصابِعَهُم في آذانِهِم واسْتَغْشَوا ثِيابَهُم وأَصَرُّوا واسْتَكْبروا اسْتِكباراً . ثُمَّ إنِّي دَعَوْتُهم جِهاراً . ثُمَّ إنِّي أَعْلَنْتُ لهُم وأَسْرَرْتُ لهُم إسْراراً﴾

[نوح: ٥ ـ ٩]. فانظر إلى هٰذه المؤكدات التي لا تكاد تخلو منها جملة.

ويمكنـك بعـد ذٰلك أن تفيد من هٰذا الأسلوب، فالطالب الذي كان متيقناً من نجاحه، أو كان يغلب على ظنه أنه كذٰلك، وجاءت النتيجة على خلاف ما يتوقع؛ فإنه يلقي كلامـه مؤكداً ليزيل من نفسه آثار هٰذا الأمل، كذٰلك من كان على عكس هٰذه الحال، وكذٰلك الأمة حينما تدخل معركة، ولا يساورها شك بأنها هي الغالبة، وتكون النتيجة غير ما توقعت؛ كما حدث في حرب حزيران سنة سبع وستين، فإنك تستعمل هٰذا الأسلوب كذٰلك.

رابعاً: أن ننزل المنكر منزلة غير المنكر: في ما مضى رأيت أننا أنزلنا غير المنكر منزلة المنكر، ونزلنا غير السائل منزلة السائل، ولكننا الآن سنعكس هٰذا، فنعامل المنكر كما نعامل غيره، فنخرج الكلام عن مقتضى الظاهر؛ لأن الظاهر أن يؤكد الكلام للمنكر، ولكن ما هو الحال الذي يقتضي الخروج عن الظاهر؟

حينما نخاطب المنكر في أمر ما، ونريد أن نشعره أن هٰذا الأمر الذي ينكره واضح الدلالة، بيِّن المعالم، يدركه كل ذي بصيرة، ويتوصل إليه كل ذي عقل، فنلقي إليه هٰذا الخبر غير مؤكد، كأنما نحثُّه على أن يُعمل فكره.

نقـرأ قول الله تعـالى: ﴿بسمِ اللهِ الـرحمٰنِ الـرحيمِ . قُل هُو الله أحـد﴾ [الإخـلاص: ١]، ونقـرأ قوله سبحانه: ﴿إلٰهُكُم إلٰهٌ واحدٌ﴾ [النحل: ٢٢]. وهاتان الآيتـان الكـريمتـان مكيتان، وأهل مكة ـ كما نعلم ـ كانوا ينكرون الوحدانية، فكان الظاهر أن يُلقى إليهم هٰذا الخبر مؤكَّداً، ولكن خرج عن مقتضى الظاهر، وأُلقي إليهم الخبر بدون تأكيد، وفي ذٰلك بيان أن القضية في حقيقتها ظاهرة، حريٌّ بها أن لا ينكرها أحد؛ لأن أدلة الوحدانية في كل مظهر من مظاهر هذا الكون.

وفـي كُلِّ شَيْءٍ لهُ آيةٌ   تَدُلُّ على أنَّـهُ الـواحِـدُ

ونبهك هنا إلى أن الخبر يختلف باختلاف المخاطبين، فقد يخرج الخبر عن مقتضى الظاهر في حال من الأحوال، ولفئة من الفئات ـ كما رأيت ـ ولكن هٰذا الخبر

نفسه قد يكون مطابقاً لمقتضى الظاهر في حال آخر، ولقوم آخرين.

الحديث عن الوحدانية في الآيات المكية كان منسجماً مع مقتضى الحال، خارجاً عن مقتضى الظاهر ـ كما رأينا ـ ولكننا حينما نقرأ: ﴿وإِلَٰهُكُم إِلَٰهٌ واحِدٌ لا إِلَٰهَ إِلا هُو الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] في سورة البقرة، وهي مدنية؛ ندرك أن الخطاب لم يخرج عن مقتضى الظاهر في هٰذه الآية؛ لأن الصحابة رضوان الله عليهم، والمجتمع المسلم في المدينة؛ لا ينكر التوحيد، فجاءت الآية الكريمة هنا مطابقة لمقتضى الظاهر؛ كما هي مطابقة لمقتضى الحال كذٰلك.

بعد هٰذا تستطيع أن تتبين الأحوال التي تنزِّل فيها المنكرَ منزلةَ غير المنكر، فتُلْقي له كلامك خالياً من التأكيد، فالشيوعي الذي ينكر أن الإسلام دين المساواة، ويزعم أن المساواة في الشيوعية، كذٰلك الذي ينكر أن اليهودية والصهيونية شيء واحد، ومن ينكر أن العرب ذوو الفضل في حضارة الغرب، ومن ينكر أن الحرب التي يجابهنا عدونا بها حرب صليبية، وكذٰلك الذي ينكر أن باستطاعتنا أن نجابه عدونا الذي يجثم فوق أرضنا ومقدساتنا؛ أولٰئك جميعاً يمكن أن تخاطبهم خطاباً خالياً من التأكيد، فتقول مثلاً: أبناء الطبقة العاملة في روسيا لا يصلون إلى ما يصل إليه أبناء الطبقة الحاكمة. الإسلام دين المساواة، والتاريخ خير شاهد. اليهودية والصهيونية شيء واحد. اليهود أعداء المسلمين قديماً وحديثاً. الحضارة الأوروبية مدينة لأمتنا في كل شيء، والمنصفون من الأوروبيين يعترفون بذٰلك. الحرب التي نعاني من آثارها ونتائجها صليبية، وإن تقنعت بأقنعة مختلفة. الخوف من الحرب هو أمضى سلاح نمكِّن به عدوَّنا. حرب بيروت قضت على كل أساطير العدوّ. هٰكذا نلقي هٰذه الأحكام جميعها خالية من التأكيد؛ لأنّها تحمل أدلة صدقها من التاريخ، والعقل، والواقع.

■ خصائص (إنَّ) وفوائدها:

وقبل أن ننهي الحديث عن الخبر؛ يجمل أن نحدثك عن هٰذا الحرف الذي هو من أبرز أدوات التوكيد، ونعني به (إنَّ)، وله مع التأكيد فوائد وخصائص هي من الدقة

بحاجة إلى شفافية في إدراكها، وإلى بصيرة وفطنة.

ولقد كان عبدالقاهر ـ رحمه الله تعالى ـ أول من نبَّه إلى هٰذه الدقائق التي تختص بها (إنَّ)، وإنْ كان قد نقل عن سيبويه بعض الخصائص التي تختص بالإعراب، والذين جاؤوا من بعده لم يزيدوا شيئاً على ما ذكره، مما يدلنا على أحوذية ذٰلك الرجل والمعتيه، ويردُّ بحزم على أولٰئك الذين جعلوا منه متفلسفاً، متطفلاً على ابن سينا، ناقلاً لكلام أرسطو[1].

ينبه عبدالقاهر في «دلائل الإعجاز» إلى أن هٰذا الحرف يدل في أصل وضعه على التأكيد؛ يقول:

«ثم إن الأصل الذي ينبغي أن يكون عليه البناء هو الذي دُوِّن في الكتب من أنها للتأكيد»[2].

ولها مع ذلك محاسن كثيرة:

١ ـ ومن أول هٰذه المحاسن أنها تربط الجملة بما قبلها، بحيث لو أُسقطت لذهب رونق النظم، وأصبح الكلام مفككاً؛ لا ميزة له، ولا روح فيه، وقد تخفى هٰذه على ذوي المعرفة اللغوية، وهٰذا في التنزيل كثير، فمنه قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْـزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقوله سبحانه: ﴿وصَلِّ عليهِمْ إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لهُم﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿ولا تُخاطِبْني في الَّذينَ ظَلَموا إنَّهُم مُغْرَقونَ﴾ [هود: ٣٧].

وقد تذكر أكثر من مرة في آية واحدة؛ كقوله تعالى: ﴿وما أُبَرِّىءُ نفسي إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِمَ رَبِّي إنَّ رَبِّي لَغفورٌ رَحيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

فلو أنك أسقطت (إنَّ)، فقيل مثلاً: يا أيها الناس اتَّقوا ربكم زلزلة الساعة شيء

---

(١) راجع كتابنا «البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية».

(٢) «دلائل الإعجاز» (ص ٢٥٠)

عظيم. فسيذهب حسن الكلام ورونقه، ويكون نابياً. وقد تظن أن الفاء تصلح للربط بين الجملتين، فتقول مثلًا: فزلزلة الساعة شيء عظيم. فصلاتك سكن لهم. ولكن الفاء لا تسدُّ مسدَّ (إنَّ)؛ لا من حيث جمالُ الإيقاع فحسب، وإنَّما لا تسد مسدها من حيث المعنى، وما يتطلبه من جمال النظم كذٰلك؛ لأن الفاء ليس لها مزيَّة إلا الربط بين الجملتين، أمَّا (إنَّ)، فمع أنها تسدُّ مسد الفاء، فتربط بين الجملتين، فإنها تدل على التوكيد كذٰلك، وهٰكذا جميع الآيات التي ذكرتها لك.

ومن هٰذا قول الشاعر:

فغَنِّها وهيَ لكَ الفِداءُ ... إنَّ غِناءَ الإبلِ الحُداءُ[1]

فلو أسقطت (إن)؛ رأيت نفسك مضطرًّا لأن تأتي بالفاء، والفاء لا تغني كما عرفت.

ومما حَسُنَت فيه موقعاً، ولَطُفت فيه موضعاً؛ قول بشار[2]:

بَكِّرا صاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجيرِ ... إنَّ ذاكَ النَّجاحَ في التَّبْكيرِ

رُوي عن الأصمعي[3] أنه قال: كنتُ أسير مع أبي عمرو بن العلاء[4] وخَلَفٍ

(١) «الأغاني» (٣ / ١٩٠)، «دلائل الإعجاز» (٢٧٣)، «البيان والتبيين» (٣ / ٣٤٠)، «شرح ديوان الحماسة» (١ / ٥٨٠).

(٢) بشار بن برد العقيلي بالولاء، أبو معاذ، ولد سنة (٩٥ هـ)، أشعر المولدين على الإطلاق، أصله من طخارستان، ونسبته إلى امرأة عقيلية؛ قيل: أعتقته من الرق. وكان ضريراً، نشأ في البصرة، وقدم بغداد، أدرك الدولتين الأموية والعباسية، واتُّهم بالزندقة، مات سنة (١٦٧ هـ). [الأعلام: ٢ / ٥٢].

(٣) عبدالملك بن قريب بن أصمع الباهلي المعروف بالأصمعي، أبو سعيد، ولد سنة (١٢٢ هـ)، أديب، لغوي، نحوي، أخباري، محدث، فقيه، أصولي، من أهل البصرة، قدم بغداد أيام هارون الرشيد، مات سنة (٢١٦ هـ). [المعجم: ٦ / ١٨٧].

(٤) أبو عمرو زبان بن عمار التميمي المازني البصري أبو عمرو بن العلاء، ولد سنة (٧٠ هـ)، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة سنة (١٥٤ هـ).

الأحمر[1]، وكانوا يأتون بشاراً، فيسلمون عليه بغاية الإعظام، ثم يقولون: يا أبا معاذ! ما أحدثت؟ فيخبرهم وينشدهم، ويسألونه، ويكتبون عنه؛ متواضعين له، حتى يأتي وقت الزوال، ثم ينصرفون.

وأتوه يوماً، فقالوا: ما هٰذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكم. فالوا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب. قال: نعم، بلغني أن سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليها ما لا يعرف. قالوا: فأنشدنا يا أبا معاذ! فأنشدهم:

بَكِّـرا صاحِـبَـيَّ قبـلَ الـهَـجيرِ إنَّ ذاكَ الـنَّـجـاحَ في الـتَّـبْـكـيرِ

حتى فرغ منها. فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان «إن ذاك النجاح في التبكير»: «بكِّـرا، فالنجـاح في التبكير»؛ كان أحسن. فقـال بشار: أنا بنيتها أعرابية وحشية، فقلت: «إن ذاك النجاح في التبكير»؛ كما تقول الأعراب البدويون، ولو قلت: «بكِّـرا فالنجـاح»؛ كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذاك، ولا يدخل في معنى القصيدة. قال: فقام خلف الأحمر، فقبَّل بين عينيه[2].

وإذا كان هٰذا قد خفي على خلف الأحمر، وهو من أُعطي في اللغة عظيم الحظ، فما بالك بغيره؟!

وقد تربط (إن) بين جملتين، ولا تصلح الفاء بدلاً عنها، وذٰلك كقوله تعالى: ﴿إنَّ الـذينَ آمَنوا والذينَ هادوا والصَّابِئينَ والنَّصارى والمَجوسَ والذينَ أشْرَكوا إنَّ الله يَفْصِلُ بينَهُم يَوْمَ القِيامَةِ﴾ [الحج: ١٧]، فإنه لا يصلح أن يقال: فالله يفصل بينهم يوم القيامة. وذٰلك لأن جملة: ﴿إنَّ الله يفصل﴾ خبر لقوله: ﴿إنَّ الذينَ آمَنوا﴾، ووضعُ الفاء موضعها ربما يوهم العطف.

---

(١) خلف بن حيان بن محرز البصري المعروف بالأحمر، أحد رواة الغريب واللغة والشعر ونقاده، تتلمذ عليه أبو نواس، توفي سنة ١٨٠هـ. [المعجم: ٤ / ١٤٠].

(٢) «الدلائل» (٢٧٣)، «الأغاني» (٣ / ١٤٠).

ومما لا تصلح فيه الفاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذا ما كُنْتُم بِهِ تَمْتَرونَ . إِنَّ المُتَّقينَ في مَقامٍ أمينٍ﴾ [الدخان: ٥٠ ـ ٥١]، فلا يصلح أن يقال: فالمتقون في مقام أمين؛ لأنه لا مسوغ للعطف، فالحديث في قوله: ﴿إِنَّ هٰذا ما كُنْتُم بِهِ تَمتَرونَ﴾ عن المجرمين.

مما سبق تدرك أنه ليس كل مكان ربطت فيه (إنَّ) بين جملتين؛ يصلح أن تحل محلها الفاء.

٢ ـ ومن محاسن (إنَّ) أنك تجد لضمير الشأن معها رونقاً وطلاوة يكسوان اللفظ، ودقة وقوة يزيدان في المعنى، ومن هنا كثُرَ ذلك في التنزيل، وفي كلام النبي ﷺ.

اقرأ قوله تعالى محدثاً عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإِنَّ الله لا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وفي آية أخرى في سياق الحديث عن السحرة: ﴿إِنَّهُ مَن يأتِ ربَّهُ مُجْرِماً فإِنَّ لهُ جهَنَّمَ لا يَموتُ فيها ولا يَحْيى﴾ [طه: ٧٤]، وفي سياق الحديث عن المنافقين: ﴿أَلَمْ يَعْلَموا أَنَّهُ مَن يُحادِدِ الله ورَسولَهُ فأَنَّ لهُ نارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٦٣]، وترغيباً في التوبة نقرأ قوله تعالى: ﴿وإِذا جاءَكَ الذينَ يؤمِنونَ بآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عليكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أنَّه مَن عَمِلَ مِنْكُم سوءاً بجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِن بعْدِهِ وأَصْلَحَ فأَنَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ومن أقوال الرسول ﷺ: «إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»(١).

وإذا نحن أسقطنا (إن)؛ فسيخلو الكلام من هٰذا الرونق، ومن تلك الدقة.

٣ ـ من خصائص (إن) أنها تهيئ النكرة، فتجعلها صالحة لكي يُتحدَّث عنها، ويُبْتَدَأ بها.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم، باب: ما جاء في السنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٨). ورواه أبو داوود في كتاب السنة، باب: لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

أنت تعرف أنه تقرر في علم النحو أن الابتداء لا يجوز بالنكرة، اللهم إلا إذا كانت مفيدة؛ قال ابن مالك في «الألفية»:

ولا يَجُوزُ الابْتِدا بالنَّكِرَهْ ... ما لَمْ تُفِدْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَهْ

فإذا أدخلت (إن) على النكرة؛ جعلتها صالحة لأن يُبتدأ بها، كما تقول: إن إيماناً، وجهاداً، وبذلاً للخير؛ دليل على صلاح الفرد والمجتمع. ومثل قول سلمي بن ربيعة[1]:

إنَّ شِواءً ونَشْوَةً ... وخَبَبَ البازِلِ الأَمُونِ
يُجْشِمُها المَرْءُ في الهَوَى ... مَسافَةَ الغائِطِ البَطِينِ
والبِيضَ يَرْفُلْنَ كالدُّمى ... في الرَّيْطِ والمُذْهَبِ المَصونِ
والكُثْرَ والخَفْضَ آمِناً ... وشِرَعَ المِزْهَرِ الحَنونِ
مِن لَذَّةِ العَيْشِ والغِنى ... للدَّهْرِ والدَّهْرُ ذو فُنونِ[2]

الشواء: يقصد به المأكل من اللحوم. النشوة: الخمرة والسكر. الخبب: ضرب من السَّير. البازل: التي قد استكمل لها تسع سنين، فتناهى قوتها. الأمون: الموثقة الخلق. وخبر (إن) قوله: «من لذة العيش».

يقول: إن لذات الدنيا من مأكول، ومشروب، وملبوس، ومركوب؛ قد استعمله صاحبه فيما يهواه، وكلفه قطع المسافات فيما تدعوه إليه نفسه، والنساء البيض بالصفة التي ذكرها، والغنى، والراحة في الأمن، والملاهي؛ جميع ذٰلك من لذة العيش[3].

٤ ـ من خصائصها أنها قد يُحذف معها الخبر؛ لأنها تغني عنه، وذٰلك كما إذا قيل لك: احذر فلاناً، فإنه يضمر لك سوءاً. فتقول: إن ربًّا. وتقصد: إنَّ لي ربًّا. ومن

---

(١) سلمى بن ربيعة بن زبان الضبي، شاعر جاهلي، اختار أبو تمام في الحماسة مقطوعتين من شعره.

(٢) «ديوان الحماسة» (٣ / ١١٣٧).

(٣) «شرح ديوان الحماسة»، للمرزوقي، (٣ / ١١٣٨)

ذلك قول الأعشى[1]:

إنَّ مَحَــلاًّ وإنَّ مُرْتَـحَــلاً ... وإنَّ في السَّفْرِ إذْ مَضَوا مَهَلا[2]

فالخبر محذوف، وتقديره: إن لنا في الدنيا محلاًّ، وإن لنا عنها إلى الآخرة مرتحلاً.

٥ ـ ما ذكرناه من قبلُ عن أبي العبَّاس حينما سأله الكِندي قائلاً: إنَّ في كلام العرب حشواً، فبيَّن له أبو العباس أنْ لا حشو، وذكر أن قول العرب: إن زيداً قائم؛ يأتي في جواب سؤال، ونحن إذا حققنـا الأمـر، وجدناها تَحْسُنُ في الجواب، ويزداد بها الكلام روعة.

نقرأ ذٰلك في قول الله تعالى: ﴿ويَسألونَك عَن ذي القَرْنَيْنِ قُلْ سأَتْلو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكراً . إنَّا مَكَّنَّا لهُ في الأرْضِ﴾ [الكهف:٨٣-٨٤]، وقوله سبحانه: ﴿فإنْ عَصَوْكَ فقُلْ إنِّي بريءٌ ممَّا تَعْمَلونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وقُلْ إنِّي أنا النَّذيرُ المبينُ﴾ [الحجر:٨٩].

ومثل ذٰلك قولك: تسألني عن واجبات الأمة، فسأبينها لك؛ إن واجبها أن تترك الهـزل، وتلتزم الجدّ في كل شيء. ومثل هٰذا قولك: تسألني عن العدو؛ إنه ذكي، ماكر، لا يدع وسيلة من وسائل العصر لينال بها منا إلا سلكها.

وهٰكذا تأتي (إن) محققة للجواب، مقررة له، ومؤكدة.

٦ ـ قال الشيخ عبدالقاهر:

«وإنما يحتاج إلى (إن) إذا كان له ظن في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما تثبت أو ما تنفي، ولذٰلك تراها تزداد حسناً إذا كان الخبر بأمر يبعُد مثلُه في الظن، وشيء قد

(١) ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف المعروف بأعشى قيس، ويقال له: أعشى بكر بن وائل، من شعراء الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، ولد في قرية منفوحة باليمامة، قرب مدينة الرياض، أدرك الإسلام ولم يسلم، توفي سنة (٧ هـ) [المعجم: ٣ / ٦٥].

(٢) «خزانة الأدب» (١٠ / ٤٥٢)، «الديوان» (ص ١٧٠)، دار صادر.

جرت عادة الناس بخلافه؛ كقول أبي نواس[1]:

عَلَيْكَ بالـيَأْسِ مِنَ الـنَّـاسِ   إن غنى نفسك في اليـاسِ[2]

فقد ترى حسن وقعها، وكيفية قبول النفس لها، وليس ذٰلك إلا لأن الغالب على الناس أنهم لا يحملون أنفسهم على اليأس، ولا يدعون الرجاء والطمع، ولا يعترف كل أحد ولا يسلم أن الغنى في اليأس، فلما كان كذٰلك؛ كان الموضع موضع فقر إلى التأكيد، فلذٰلك كان من حسنها ما ترى.

ومثله سواء قول محمد بن وهيب[3]:

أَجـارَتَـنـا إنَّ الـتَّـعَـفُّـفَ بالـياسِ   وصَبْـراً على اسْتَـدْراءِ دُنْيا بإِبْسـاسِ

حَرِيَّانِ أَنْ لا يَقْـذِفـا بِمَـذَلَّـةٍ   كَريمـاً وأَنْ لا يُحْـوِجـاهُ إلى النَّـاسِ

أَجـارَتَـنـا إنَّ الـقِـداحَ كَواذِبٌ   وأَكْثَـرُ أَسْبـابِ النَّجـاحِ مَعَ الياسِ[4]

وهـو كما لا يخفى كلام مع من لا يرى أن الأمر كما قال، بل ينكره، ويعتقد

---

(١) الحسن بن هانىء بن عبدالأول أبو نواس الشاعر، ولد سنة (١٤٦ هـ)، شاعر العراق في عصره، ولد في الأهواز من بلاد خوزستان، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد؛ فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، مات سنة (١٩٨ هـ). [الأعلام: ٢ / ٢٢٥].

(٢) «الديوان» (ص ٦٠١)، تحقيق: أحمد عبدالمجيد الغزالي.

(٣) محمد بن وهيب الحميري أبو جعفر، شاعر مطبوع مكثر، من شعراء الدولة العباسية، أصله من البصرة، عاش في بغداد، وكان يكسب بالمديح، مدح المأمون والمعتصم، توفي سنة (٢٢٥ هـ). [الأعلام: ٧ / ١٣٤].

(٤) «الأغاني» (١٩ / ٧٥)، «المعاهد» (١ / ٢٢١).

الإبساس: هو التصويت عند الحلب؛ ليستدر لبن الناقة. والقداح: جمع قدح بالكسر فيهما، وهي الأزلام التي كانوا يستقسمون بها في الجاهلية.

يقول: إن الصبر على مكاره الحياة، واليأس مما في أيدي الناس، هٰذان الأمران حريان أن يحولا بين الإنسان وبين المذلة، وأن لا يُحْوجاه إلى الناس، أما تلك القداح التي يعول الناس عليها؛ فهي كاذبة، لا ترتفع بالإنسان، ولا تهيىء له نجاحاً، إنما النجاح بالصبر مع اليأس من الناس؛ لأن هٰذا اليأس يدفع صاحبه لمضاعفة جهده.

خلافه، ومعلوم أنه لم يقله إلا والمرأة تحدوه، وتبعثه على التعرُّض للناس، وعلى الطلب»(1).

٧ ـ ويقول رحمه الله:

«ومن لطيف مواقع (إن) أن يدَّعى على المخاطب ظنٌّ لم يظنَّه، ولكن يُراد التهكم به، وأن يقال: إن حالك والذي صنعت يقتضي أن تكون قد ظننتَ ذلك، ومثال ذٰلك قول الأول:

جاءَ شَقيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ ... إنَّ بَني عَمِّكَ فيهِمْ رِماحْ

يقول: إن مجيئه هٰكذا مدلاًّ بنفسه وبشجاعته، قد وضع رمحه عرضاً؛ دليل على إعجاب شديد، وعلى اعتقاد منه أنه لا يقوم له أحد، حتى كأن ليس مع أحد منا رمح يدفعه به، كأنا كلنا عزل»(2).

٨ ـ ويقول.

«واعلم أنها قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنه لا يكون، وذٰلك قولك للشيء هو بمرأى من المخاطب ومسمع: إنه كان من الأمر ما ترى، وكان مني إلى فلان إحسان ومعروف، ثم إنه جعل جزائي ما رأيت، فتجعلك كأنك تردُّ على نفسك ظنَّك الذي ظننت، وتبيِّن الخطأ الذي توهمت، وعلى ذٰلك ـ والله أعلم ـ قوله تعالى حكاية عن أم مريم رضي الله عنها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى واللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وكذٰلك قوله عز وجل حكاية عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمي كَذَّبونِ﴾ [الشعراء: ١١٧].

وليس الذي يعرض بسبب هٰذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية بالشيء يدرَك بالهوينا، ونحن نقتصر الآن على ما ذكرناه»(3).

---

(1) «دلائل الإعجاز» (ص ٢٥٠ ـ ٢٥١).

(2) «دلائل الإعجاز» (ص ٢٥١).

(3) «دلائل الإعجاز» (ص ٢٥٢).

وقد ذكرنا لك بعض هٰذه الأمثلة من قبل عند حديثنا عن توكيد الخبر، والذي قصدناه هنا أن تعرف بعض المزايا التي تجتمع مع التأكيد.

بقي أن نوضح لك ما نقلناه عن الشيخ في المزية السادسة من مزايا (إن)[1]، والذي مثل له كما رأيت بقول أبي نواس:

عليكَ باليأسِ مِن النَّاسِ ... إنَّ غِنَى نَفْسِكَ في الياسِ

حيث حَسُنَ موقع (إن)؛ لأن الخبر مما يستبعده المخاطب، ونزيدك هنا ما جاءنا عن سيدنا رسول الله ﷺ: «إنَّ المكثرين هم المقلون يوم القيامة»[2].

ويمكنك أن تجري على هٰذا السنن، وتتتبع هٰذا الأسلوب، فتأتي بـ (إن) إذا كان الخبر مستبعداً؛ ترغِّب من تخاطب بالجهاد، فتقول: إن الموت في سبيل الله هو الحياة. وتجد صاحبك يشتري سلعة رديئة بثمن بخس، فتقول له: لا تغرَّنَّك قلة الثمن، إن الغالي هو الرخيص، أو إن الرخيص هو الغالي في الحقيقة. وتقول لمن أتعب نفسه في قضاء حوائج الناس: إن إتعابَ جسمك راحةُ نفسك.

ونكتفي بما ذكرناه عن الخبر، وما يتعلق به، ولننتقل الآن للحديث عن قسيمه، وهو الإنشاء.

□□□

(١) لأنه قد تقدم لك الحديث عن الميزتين السابعة والثامنة، فراجعهما إن شئت في باقي أدوات التوكيد، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر.

(٢) رواه البخاري، كتاب الاستقراض، باب. أداء الديون، رقم (٣)، حديث رقم (٢٢٥٨).

الفصل الثالث

الإنشاء

■ تقسيم الإنشاء إلى طلبي وغير طلبي:

تقدم لك أن الإنشاء ما لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، وهو قسمان: طلبي، وغير طلبي، وذٰلك لأنه إن استدعى الكلامُ الذي تقوله شيئاً غيرَ حاصل عند النطق؛ فهو الطلبي، ألا ترى أنك إذا قلت لغيرك: أكتبِ الدرس. فإن هٰذا القول يستدعي شيئاً غير حاصل عند تلفظك به؛ لأنَّ الذي تخاطبه لم يكن قد كتب الدرس، ولو كان قد كتبه؛ لكان كلامك تحصيل حاصل، لا فائدة منه. وهٰكذا إذا قلت: لا تفتح الباب. فإن الذي تخاطبه لم يفتح الباب بعد.

أمَّا إذا كان الإنشاء لا يستدعي أمراً حاصلاً عند الطلب، فهو إنشاء غير طلبي، وذٰلك كالتعجب، والمدح، والذم، والدعاء، وصيغ العقود، والقسم، وبعض أفعال المقاربة، وهي: (كاد) و (كرب)، وأفعال الرجاء: (عسى)، و (حرى)، و (اخلولق).

إذا قلت: ما أجمل السماء! وما أحسن المصطاف والمتربعا! لله دره فارساً! فإن هٰذا قـول لا يحتمل الصدق والكذب، فهو إنشاء، ولكنه لا يستدعي شيئاً غير حاصل؛ لأنك بقولك لا تطلب شيئاً، وكذٰلك إذا بعت أو اشتريت؛ تقول لصاحبك: بعتك هٰذا الكتاب. فإن هٰذا القول لا يحتمل صدقاً ولا كذباً، ولكن لا يستدعي شيئاً غير حاصل

عند النطق[1].

وهذا القسم لا يبحث فيه البلاغيون؛ لأنه لا تتعلق فيه مباحث بيانية، ولأن أكثر صيغه هي في أصلها أخبار، اللهم إلا أفعال الرجاء وصيغة القسم، وإنما يقصرون بحثهم على القسم الأول ـ وهو الإنشاء الطلبي ـ وينحصر في مباحث خمسة: الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء.

□□□

---

(١) وليس من هذا القبيل قولك لأحد الناس: بعت فلاناً كتاباً واشتريت منه قلماً. فإن هذا من باب الخبر؛ يحتمل الصدق والكذب، وحديثنا في صيغ العقود التي تنشىء بها بيعاً، أو شراء، أو هبة، أو إجارة، أو أي عقد من العقود.

□ **المبحث الأول:**

الأمـــــر

■ **تعريفه:**

وهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء؛ مثل قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ﴾ [البقرة: ١١٠]، وقوله: ﴿وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ وأقْرِضوا اللهَ قرضاً حسناً﴾ [المزمل: ٢٠].

■ **صيغه:**

وله صيغ أربع:

١ ـ **فعل الأمر**: كما مر في المثالين السابقين.

٢ ـ **المصدر النائب عن الفعل**: وذلك كقوله ﷺ: «صبراً آل ياسر؛ فموعدكم الجنة»[1]. وقول عبدالله بن رواحة؛ كما ورد في «سيرة ابن هشام»:

رَكْـضـاً إلـى اللهِ بغَـيْرِ زادِ   غَيْرِ الـتُّـقَـى وعَـمَـلِ الـمَـعـادِ

٣ ـ **المضارع المقترن بلام الأمر**: مثل قوله سبحانه: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]، وقولك: لتتقِ الله. ليقم كل بواجبه.

٤ ـ **اسم فعل الأمر**: مثل: **مه! لا تقولن إحداكن فعلت كذا وكذا. صه! لا تتكلم إلا بخير.**

واسم فعل الأمر؛ منه ما هو سماعي؛ مثل: (مَهْ)، و(صَهْ)، و(آمين)، ومنه ما هو قياسي، وهو ما كان على صيغة (فَعالِ) من الفعل الثلاثي؛ مثل: (دَراكِ) بمعنى (أدرك)، و(نَزالِ) بمعنى (انزل).

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، وأبو نُعيم في «الحلية» (١ / ١٤٠)؛ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وفي سنده انقطاع.

■ خروج صيغة الأمر عن دلالتها الأصلية:

والأصل في الأمر أن يدل على الوجوب، وإنما يدل على غيره بالقرائن، ومن هنا لا بد أن يكون على جهة العلو، أي: من الأعلى لمن هو أدنى منه.

فإن كان من الأدنى إلى الأعلى؛ فهو الدعاء؛ مثل: اللهم اغفِر لنا وارحمنا.

وإن كان إلى من يساويك؛ فهو التماس؛ كقولك لصاحبك: أعطني الكتاب.

وقد يخرج عن معنى الأمر إلى معان أخرى، أهمها:

١ ـ الإرشاد: وذلك كقوله سبحانه: ﴿إذا تَدايَنْتُمْ بدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهِلينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقول النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[1].

٢ ـ الاعتبار: كقوله تعالى: ﴿قُلْ سيروا في الأرضِ فانْظُروا كَيْفَ بَدَأ الخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله سبحانه: ﴿انْظُروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثْمَرَ ويَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقولك: انظر في نفسك وفيما حولك. وازِنْ بين حال الأمم الجادة والهازلة.

٣ ـ التخيير: كقولك: اقرأ في النحو كتب ابن هشام أو ابن مالك، واقرأ في التفسير من كتب الأقدمين «جامع البيان» لابن جرير الطبري، أو كتاب «الكشاف» للزمخشري. اكتب عن مساوىء الشيوعية أو الرأسمالية.

ومنه قول الشاعر:

عِشْ عَزيزاً أوْ مُتْ وأنْتَ كَريمٌ ... بينَ طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البُنودِ

٤ ـ الإباحة: كقوله سبحانه: ﴿وكُلُوا واشْرَبوا حتى يَتَبَيَّنَ لكُمُ الخَيْطُ الأبيَضُ مِن الخَيْطِ الأسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

(١) رواه الترمذي، ابواب البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، رقم (١٩٨٨).

٥ ـ **الدوام**: مثل قول المؤمنين: ﴿اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٤]، أي: أدِم هدايتنا، وثبِّتنا عليها[١].

٦ ـ **التأديب**: ومنه قوله ﷺ: «يا غُلامُ! سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»[٢]، وهو قريب من الإرشاد.

٧ ـ **التعجب**: مثل قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبوا لَكَ الأمْثالَ﴾ [الإسراء: ٤٨].

٨ ـ **التهديد**: ومنه قوله سبحانه: ﴿اعْمَلوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ومنه قوله ﷺ: «إن مما أدرَكَ الناسُ من كلامِ النبوة الأولى: إذا لم تسْتَحْيِ فاصنع ما شئت»[٣].

٩ ـ **التمني**: ومنه قول امرىء القيس:

ألا أيُّها الليلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِ ... بِصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنْكَ بأمْثَلِ[٤]

ومنه قولك: تنفس أيها الصبح! وأشرقي يا شمس؛ لنسر إلى فلسطين.

١٠ ـ **الإهانة والتحقير**: مثل قول جرير[٥]:

زَعَمَ الفرزدَقُ أنْ سيَقْتُلُ مَرْبعاً ... أبْشِرْ بطولِ سَلامَةٍ يا مَرْبَعُ

ومنه قول المعري:

---

(١) ويمكن أن يكون هذا من الدعاء.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأطعمة، باب: الأكل مما يليه، حديث رقم (٥٠٦٣)، باب رقم (٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب. ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٩٦)، وفي الأدب: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»، رقم (٥٧٦٩)

(٤) «الديوان» (ص ١٨).
انجلِ: انكشف. وما الإصباح. أي. أنا أبداً مهموم، في الليل وفي الصبح.

(٥) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم، كان أشعر أهل عصره، ولد ومات في اليمامة، وكان هجاءً مرًّا، فلم يثبت أمامه غير الأخطل والفرزدق، وكان عفيفاً، من أغزل الناس وكان يكنى بأبي حرزة، توفي سنة (١١٠ هـ).

أرى الـعَـنْـقـاءَ تَكْـبُـرُ أنْ تُصـادا   فعـانِـدْ مَن تُطيقُ لهُ عِنـادا[1]

وقريب من هٰذا التوبيخ، ويمثَّل له بما قيل لآخر ملوك العرب في الأندلس:

ابـكِ مِثْـلَ النِّسـاءِ مُلْكـاً مُضاعاً   لَمْ تُحـافِظْ عليهِ مِثْـلَ الـرِّجـالِ

١١ ـ التعجيز: كقوله تعالى: ﴿ وإن كنتم في ريبٍ مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثلِهِ ﴾ [البقرة ٢٣]، ومنه قول الفرزدق:

أولٰئـكَ آبـائـي فجِئْـني بِمِـثْـلِهِـم   إذا جَمَـعَتْنـا يا جَريرُ المَجـامِـعُ[2]

ومنه قول المهلهل[3]:

يا لَبَـكْـرٍ أنْـشِـروا لي كُلَيْبـاً   يا لَبَـكْـرٍ أيْنَ ابنَ الـفِـرارُ[4]

١٢ ـ التسوية: مثل قوله تعالى: ﴿اصْلَوْها فاصْبِروا أوْ لا تَصْبِروا سَواءٌ عليكُم﴾ [الطور: ١٦].

١٣ ـ الامتنان: كقوله تعالى: ﴿فَكُلوا مِمَّا رَزَقَكُم الله حَلالاً طَيِّباً﴾ [النحل: ١١٤].

وننبهك هنا إلى أمرين:

أولاً: أن هٰذه الصيغ قد يتداخل بعضها في بعضها الآخر.

ثانياً: هٰذه الصيغ ليست على سبيل الحصر، فهناك صيغ كثيرة يمكن أن تُستفاد من السياق؛ كالندب، والتلهيف، والتحسر، والخبر، والإكرام، والتكوين، والتفويض، والتكذيب، والمشورة، والتسخير، والتسليم.

---

(١) «خزانة الأدب» (٧/ ١٣٧).

(٢) «الديوان» (ص ١٣٨).

(٣) عدي بن ربيعة بن هبيرة المهلهل، شاعر من أبطال العرب في الجاهلية، وهو خال امرىء القيس كان فصيح اللسان، توفي نحو (١٠٠ ق.هـ).

(٤) «خزانة الأدب» (٢/ ١٦٢).

وكتب أصول الفقه اشتملت على كثير من هٰذه الأغراض، وإن كان الكثير منها يتداخل كما قلت لك.

وأنقل هنا ما ذكره الآمدي ـ رحمه الله ـ في كتاب «الإحكام»؛ يقول:

«وقد اتَّفق الأصوليون على إطلاقها بإزاء خمسة عشر اعتباراً: الوجوب؛ كقوله: ﴿أَقِمِ الصلاةَ﴾، والندب؛ كقوله: ﴿فكاتِبوهم﴾، والإرشاد؛ كقوله تعالى: ﴿فاسْتَشْهِدوا﴾، وهو قريب من الندب؛ لاشتراكهما في طلب تحصيل المصلحة، غير أنَّ الندب لمصلحة أخروية، والإرشاد لمصلحة دنيوة، والإباحة؛ كقوله تعالى: ﴿وإذا حَلَلْتُم فاصْطادوا﴾، والتأديب: وهو داخل في الندب؛ كقوله: «كل مما يليك»، والامتنان؛ كقوله: ﴿كُلوا مِمَّا رَزَقَكُم الله﴾، والإكرام؛ كقوله: ﴿ادْخُلوها بِسلامٍ آمِنينَ﴾، والتهديد؛ كقوله: ﴿اعْمَلوا ما شِئْتُم﴾، والإنذار؛ كقوله: ﴿تَمَتَّعوا﴾، وهو في معنى التهديد، والتسخير؛ كقوله: ﴿كونوا قِرَدَةً خاسِئينَ﴾، والتعجيز؛ كقوله: ﴿كونوا حِجارَةً﴾، والإهانة؛ كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إنَّكَ أنتَ العَزيزُ الكَريمُ﴾، والتسوية؛ كقوله: ﴿اصْبِروا أوْ لا تَصْبِروا﴾، والدعاء؛ كقوله: ﴿اغْفِر لي﴾، والتمني؛ كقول الشاعر:

ألا أيُّها الليلُ الطَّويلُ ألا انْجَلِ

وكمال القدرة؛ كقوله: ﴿كُنْ فَيكونُ﴾.

وقد اتَّفقوا على أنها مجاز فيما سوى الطلب والتهديد والإباحة»[1].

□□□

(١) «الإحكام في أصول الأحكام»، للآمدي، (٢ / ٢٠٧، ٢٠٨).

□ المبحث الثاني:

النهي

■ تعريفه وصيغته:

وهو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء، وله صيغة واحدة، وهي: المضارع مع (لا) الناهية؛ مثل قوله تعالى: ﴿ولا تَقْرَبوا الزِّنى إنَّه كانَ فاحِشَةً وساءَ سَبيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فإن لم يكن على جهة الاستعلاء؛ كان دعاء - إن كان من الأدنى إلى الأعلى - كقوله تعالى: ﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسينا أوْ أخْطَأنا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، أو التماساً - إن كان من متماثلين - كقولك لصديقك: لا تسبقني. وكقول امرىء القيس:

نقُلْتُ لهُ لا تَبْكِ عيْنُكَ إنَّما ... نُحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فَنُعْذَرا(١)

وأجمعوا على أن النهي يقتضي الفور، أما الأمر؛ فقد اختلفوا فيه؛ هل هو للفور أو للتراخي؟ وهذه مباحث أصولية لا نقحمها ولا نقحم البلاغة فيها.

■ خروج صيغة النهي عن دلالتها الأصلية:

وقد تخرج صيغة النهي عن مدلولها الرئيس - وهو طلب الكف - إلى معاني تُعرف بالقرائن، وتُستفاد من السياق، ومنها:

١ - **الإرشاد**: كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَسْألوا عَن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكُمْ تَسُؤكُم﴾ [المائدة: ١٠١]، وكقول القائل:

إذا نَطَقَ السَّفيهُ فلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِن إجابَتِهِ السُّكوتُ

٢ - **التهديد**: كما تقول للمهمل في دراسته: لا تدرس.

٣ - **التيئيس**: كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ كَفَروا لا تَعْتَذِروا اليومَ إنَّما تُجْزَوْنَ ما

---

(١) «الديوان» (ص ٦٦)، شرح محمد أبو الفضل إبراهيم.

كُنْتُم تَعْمَلونَ﴾ [التحريم: ٧]، ومنه قول الشاعر:

فلا يَخْدَعَنْكَ لُموعُ السَّرابِ ... ولا تَأْتِ أمْراً إذا ما اشْتَبَهْ

ومنه قولك لمن فرَّط في واجبه، فضاعت فرصته: لا تأمل، ولا ترجُ.

٤ - التوبيخ: قال أبو الأسود الدؤلي(١):

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتأْتِيَ مِثْلَهُ ... عارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عَظيمُ(٢)

٥ - التسلية والتصبر: نحو قول النمر بن تولب(٣):

لا تَجْزَعي إنْ مُنْفِساً أهْلَكْتُهُ ... فإذا هَلَكْتُ فعِنْدَ ذلكَ فاجْزَعي(٤)

ومنه:

لا تَلُمْ كَفِّي إذا السَّيْفُ نَبا ... صَحَّ مِنِّي العَزْمُ والدَّهْرُ أبى

٦ - التحقير: كقوله تعالى: ﴿لا تَمُدَّنَّ عينَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أزْواجاً مِنْهُم﴾ [الحجر: ٨٨].

٧ - التمني: نحو قول الخنساء(٥):

أعَيْنَيَّ جُودا ولا تَجْمُدا ... ألا تَبْكِيانِ لِصَخْرِ النَّدى

ويمكن أن يكون هناك معاني أخرى تستطيع إدراكها بذوقك.

---

(١) ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي أبو الأسود، ولد (٦٦ ق. هـ)، واضع علم النحو، فقيه، شاعر، سكن البصرة في خلافة عمر، وولي الإمارة في أيام علي بن أبي طالب، توفي بالبصرة سنة (٦٩ هـ). [المعجم: ٥ / ٤٧].

(٢) «خزانة الأدب» (٨/ ٥٦٤).

(٣) النمر بن تولب بن زهير العكلي، شاعر مخضرم، عاش عمراً طويلاً في الجاهلية، وكان فيها شاعر الرباب، ولم يمدح أحداً ولا هجا، أدرك الإسلام وهو كبير السن، وأسلم، توفي نحو (١٤ هـ). [الأعلام: ٨ / ٤٨].

(٤) «خزانة الأدب» (٨ / ٥٦٤).

(٥) تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياحية السلمية، أشهر شواعر العرب، وأشعرهن =

☐ المبحث الثالث:

التمني

■ تعريفه، والفرق بينه وبين الترجي:

وهو طلب حصول الشيء المحبوب دون أن يكون لك طمع وترقب في حصوله، ذلك لأن الشيء الذي تحبُّه إن كان قريب الحصول مترقَّب الوقوع كان ترجياً، ولا يسمى تمنياً، والترجي ليس من أقسام الإنشاء الطلبي، وقد تقدم لك عند الحديث عن الإنشاء بأن أفعال الرجاء من الإنشاء الذي ليس طلبياً، وإنما لم يعدوا الترجي من الإنشاء الطلبي، مع أنهم جعلوا التمني منه؛ لأن التمني طلب الشيء، ولكن الترجي ترقُّب حصول الشيء.

ولهٰذا تدرك أن ما استقر عند بعض الناس من أن التمنِّي طلب المستحيل، والترجِّي طلب الممكن؛ خالٍ من الدقة؛ لأن التمني قد يكون لغير المستحيل كما ستعرف، هٰذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن الترجِّي ليس طلباً، وإنما هو ترقُّب حصول الشيء، لذلك لم يعدُّوه من الإنشاء الطلبي.

التمني ـ إذن ـ طلب الشيء المحبوب، وقد يكون ممكناً، وقد يكون مستحيلاً، فالنفس كثيراً ما تطلب المستحيل، فإذا كان الشيء المُتَمَنَّى ممكناً، فيجب أن لا يكون مما تتوقعه نفسك؛ لأنك إذا توقعته كان ترجياً، فإذا قلت: ليت لي داراً. فينبغي أن لا تكون متوقعاً لما تتمناه؛ لقلة ذات اليد، ولكثرة التكاليف، وغيرهما من الأسباب، وهٰذا أمر ممكن غير مستحيل، لكن صعوبة تحققه تجعلك غير متوقع له.

أما إذا كانت الأسباب مهيأة لك، وكنت تتوقع الحصول على تكاليف هٰذه الدار،

= على الإطلاق، من أهل نجد، عاشت عمرها في العهد الجاهلي، أدركت الإسلام فأسلمت، رثت أخاها صخراً، كان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية واستشهدوا جميعاً، توفيت سنة (٢٤ هـ) [الأعلام: ٢ / ٨٦].

فإنك تستعمل (لعل)، فتقول: لعل لي داراً.

ولعلك قد أدركت الآن دقة الفرق بين التمني والترجي.

■ أدوات التمنّي:

والأداة الأم التي وُضعت للتمني (ليت)، ولذلك كثر مجيئها في كتاب الله تعالى، ففي التنـزيل: ﴿قالَ يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمونَ بِما غَفَرَ لي رَبِّي وجَعَلَني مِن المُكْرَمينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧]، كما نقرأ قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ على قومِه في زينتِه قالَ الذينَ يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا يا ليتَ لنا مثلَ ما أُوتيَ قارونُ إنه لَذو حَظٍّ عظيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]، ومن مشاهد يوم القيامة: ﴿يَقولُ يا ليتني قَدَّمتُ لحياتي﴾ [الفجر: ٢٤]، وفي الحديث يقول ورقة بن نوفل: «يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك»[1]، وذلك كثير في أقوال البلغاء:

يقول مالك بن الريب[2]:

ألا لَيْتَ شِعْـري هَل أبيتَـنَّ ليلَةً ... بجَنْبِ الغَضَى أُزْجي القِلاصَ النَّواجيا

لقَـدْ كانَ في أهـلِ الغضى لو دَنـا ... مَزارٌ ولٰـكِـنَّ الـغَـضَـى ليسَ دانِـيا[3]

ويقول المتنبي:

فَلَيْتَ طالِـعَـةَ الـشَّـمْـسَيْنِ غائِبَـةٌ ... ولَـيْتَ غائِبَـةَ الـشَّـمْـسَيْنِ لَمْ تَغِبِ[4]

ويقول المتنبي في مدح كافور:

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، باب رقم (١).

(٢) مالك بن الريب، شاعر من الظرفاء الأدباء الفتاك، اشتهر في أوائل العصر الأموي، ولاه معاوية على البصرة، سنة (٥٦ هـ)، مرض في مرو، وأحس بالموت، فقال قصيدته المشهورة. «ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة»، توفي نحو (٦٠ هـ) [الأعلام: ٥/ ٢٦١].

(٣) «خزانة الأدب» (٢/ ٢٠٣)، «جمهرة أشعار العرب» (٢٦٩)، «الأمالي» (٣/ ١٣٥).

(٤) «الديوان» (١ / ٢٢٠)

جعل المرثية وشمس النهار شمسين، ثم قال: ليت طالعتها ـ وهي شمس النهار ـ غائبة وليت غائبتها ـ وهي المرثية ـ لم تغب، يقول: إن في حياتها منافع جمة، فليتها بقيت وفقدنا الشمس.

لَحَى اللهُ ذي الدُّنيا مُناخاً لراكِبٍ   فكُلُّ بعيدِ الهَمِّ فيها مُعَذَّبُ
ألا لَيْتَ شِعْري هَلْ أقولُ قصيدَةً   فلا أشْتَكي فيها ولا أتَعَتَّبُ[1]

وإذا تأمَّلت الأمثلة السابقة؛ وجدت أن بعضها كان تمنياً لأمور مستحيلة، وكان بعضها الآخر لأمور ممكنة، ولكنها صعبة التحقق.

وهناك أدوات أخرى للتمني خرجوا بها عن أصل وضعها، وهٰذه الأدوات هي: (لعل)، و(هل)، و(لو)، ومن الأخيرتين رُكِّبت هٰذه الكلمات: (هَلَّا)، و(لولا)، و (لوما).

أما (هل)؛ فهي في أصلها أداة استفهام.

وأما (لو)؛ فهي حرف امتناع لامتناع.

وأما (لعلَّ)؛ فهي للترجي.

وهم يستعملون هٰذه الأحرف مكان (ليت)، وهٰذا الاستعمال لا بدَّ له من غرض بلاغي، ونكتة بيانية.

فـ (هل) تستعمل للتمني إذا أردنا أن نبرز المتَمَنَّى في صورة الممكن الذي لانجزم بانتفائه، وذٰلك لكمال العناية به، قال تعالى: ﴿فَهَلْ لنا مِن شُفَعاءَ فَيَشْفَعوا لنا﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿يقولونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِن سبيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال ذو الرمة:

أَمَنْزِلَتَيْ مَيٍّ سَلامٌ عَلَيْكُما   هَلِ الأَزْمُنُ اللائي مَضَيْنَ رَواجِعُ[2]

وإنما كان المتمنَّى بـ (هل) بصورة الممكن؛ لأن (هل) أداة استفهام، والمستفهم عنه أمر ممكن الوقوع.

---

(١) «الديوان» (١/ ٣٠٤).

(٢) «الديوان» (ق٤٢)، (٢ / ١٢٧٣)، «الكامل»، للمبرد (١/ ٨٤، ٢/ ١٧٨).
أمَنزِلتيْ: حيث كانت تنزل، يعني في الشتاء والصيف.

ومن أدوات التمنّي (لو)، ونأتي بها حينما يكون المتمنّى عزيزاً، صعب الوقوع، بعيد المنال؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْ أنَّ لنا كَرَّةً فَنَكونَ مِن المُؤمِنينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢][1]، وقال سبحانه على لسان لوط عليه السلام: ﴿لو أنَّ لي بِكُمْ قوةً﴾ [هود: ٨٠]، ومنه قوله تعالى يحدثنا عن المستضعفين الذين أعطوا الذلة من أنفسهم في الدنيا، وقد تبرأ منهم سادتهم: ﴿إذْ تَبَرَّأَ الذينَ اتُّبِعوا مِن الذينَ اتَّبَعوا ورأَوُا العَذابَ وتَقَطَّعَتْ بهِمُ الأسبابُ . وقالَ الذينَ اتَّبَعوا لو أنَّ لنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ منهُم كما تبرءوا منا﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال جرير:

ولّى الشبابُ حَميدةً أيّامُه ... لو كانَ ذلكَ يُشْتَرى أوْ يَرْجِعُ[2]

وقال صريع الغواني[3]:

واهاً لأيام الصِّبا وزَمانِهِ ... لو كانَ أسْعَفَ بالمَقامِ قليلاً[4]

وإنما كان المتمنّى بـ (لو) ـ كما قلنا ـ عزيزاً، بعيد المنال، على عكس المتمنّى

(١) وتدبرك للقرآن الكريم يرشدك إلى الفرق بين (هل) و (لو)، تأمل قوله سبحانه: ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله سبحانه. ﴿فلو أنه لنا كرة﴾ [الشعراء: ١٠٢]؛ ألا ترى أن وجود الشفعاء أمر ممكن الحصول، وهو أيسر كثيراً من رجوعهم إلى الدنيا، الذي استعملت فيه كلمة (لو)؛ ﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي. رجعة إلى الدنيا.
وهكذا تدرك الفرق بين هاتين الأداتين، مع أن كلًّا منهما للتمني، لكن حذار أن تستعمل إحداهما مكان الآخر.

(٢) «ديوان جرير»

(٣) مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني؛ أبو الوليد، شاعر من أهل الكوفة، نزل بغداد، ومدح هارون الرشيد والبرامكة، وداود بن يزيد بن حاتم، ومحمد بن منصور، صاحب ديوان الخراج، واتصل بالفضل بن سهل فولاه بريد جرجان، فاستمر إلى أن توفي بها سنة (٢٠٨ هـ). [المعجم: ١٢/ ٢٣٣].

(٤) «الديوان» (ص ٥٤)
واهاً لأيام الصبا: أي: ما كان أطيبها لو كان الصبا أسعف لنا بالمقام قليلاً، ولو ساعد وأطاعنا في أن يقيم علينا حتى نشتفي منه.

بـ (هل)؛ لأن (لو) وضعت في حقيقتها لتدل على امتناع الشيء، ومن هنا كانت حر امتناع لامتناع.

والدليل على أنَّ (لو) للتمنّي، وأنها خرجت عن أصل الوضع؛ أن الفع المضارع يُنصب بعدها، ففي الآية الكريمة: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكونَ مِن المؤمنينَ [الشعراء: ١٠٢]؛ جاء الفعل المضارع (نكون) منصوباً، ولو أنها بقيت على أصلها حرف امتناع لامتناع، لم ينصب المضارع بعدها؛ تقول: لو زرتني أكرمُك. برفع الفع المضارع؛ لأنك لم تقصد التمني.

ونذكرك أنه قد تقرر في علم النحو أن الفعل المضارع يُنصب بأن مضمرة بع الأمر، والنهي، والتمني، والعرض، والتحضيض، والاستفهام، والنفي.

وألحقوا بـ (هل) و(لو): (لا) و(ما)، فقالوا: (هلاَّ)، و(لولا)، و(لوما) يقصدون بها التمني كذلك؛ قال عنترة بن شداد[1]:

هَلاَّ سَأَلْتِ الخَيْلَ يا ابنَةَ مالِكٍ ... إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِما لَمْ تَعْلَمي[2]

وقال تعالى: ﴿فَلَولا كانَتْ قَرْيَةٌ آمِنَةٌ فَنَفَعَها إيمانُها﴾ [يونس: ٩٨]، وقال سبحانه: ﴿فَلَوْلا كانَ مِن القُرونِ مِن قبلِكُم أُولو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عنِ الفَسادِ في الأرْضِ إ قَليلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا منهُم﴾ [هود: ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿لَولا جاؤوا عليهِ بأرْبَعَ شُهَداءَ﴾ [النور: ١٣]، وتقول: هلاَّ أكرمت صاحبك. هلاَّ عملت بنصيحتي.

فهٰذه الأحرف ـ كما رأيت ـ دخلت على الفعل الماضي، والغرض منها عند ذٰلك التنديم، كأنما تريد أن تجعله يندم على ما فرط منه، فإذا دخلت على المضارع، فإ الغرض يكون التحضيض، أي: الحث على طلب الشيء، قال تعالى: ﴿لوما تأتين بالمَلائِكَةِ إنْ كُنْتَ مِن الصّادِقينَ﴾ [الحجر: ٧]، وتقول لصاحبك: هلا تجتهد فتنجح

(١) أشهر فرسان العرب في الجاهلية، من شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد، أمه حبشية اسمه زبيبة، كان مغرماً بابنة عمه عبلة، توفي نحو (٢٢ ق.هـ). [الأعلام: ٥/ ٩١].

(٢) «شرح القصائد السبع الطوال والجاهليات»، (ص ٣٤٢).

لولا تقوم بواجبك فتشعر بالسعادة.

ومن أدوات التمنّي التي خرجت عن الأصل (لعلّ)، فإن أصل وضعها للترجي، والغرض من استعمالها للتمني الدلالة على استحالة الأمر المتمنّى بها، قال تعالى: ﴿وقالَ فِرْعَوْنُ يا أيُّها الملأُ ما علمتُ لكُمْ مِن إلٰهٍ غَيْري فأوْقِدْ لي يا هامانُ على الطِّينِ فاجْعَلْ لي صَرْحاً لعلّي أطَّلِعُ إلى إلٰهِ موسى﴾ [القصص: ٣٨]، وفي آية أخرى: ﴿لعَلّي أبْلُغُ الأسْبابَ. أسبابَ السَّماواتِ فأطَّلِعَ إلى إلٰهِ موسى﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، وقال العباس بن الأحنف:

أسِرْبَ القَطا هَلْ مَنْ يُعيرُ جَناحَهُ لعَلّي إلى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أطيرُ[1]

وكما استعملت (لعل) مكان (ليت)، فقد تُستعمل (ليت) ـ على قلة ـ مكان (لعل)، فيقصد بها الترجي، ومن ذٰلك قول قريط بن أنيف[2]:

فلَيْتَ لي بِهِمُ قوماً إذا رَكِبوا شَنُّوا الإغارَةَ فُرْساناً ورُكْبانا

وهٰذا يُفْهَم من السياق.

وإنما كان التمني بـ (لعل) أمراً مستحيلاً؛ لأن (لعل) وضعت في أصل الوضع للترجي، وهو ترقب حصول الأمر، فلو كان المتمنّى بها أمراً ممكناً؛ لالتبس الأمر، وفُهِم منها الترجي؛ لذا لا يُتمنّى بها إلا الأمر المستحيل، وهٰذه نكتة بيانية دقيقة، تدل على دقة الوضع في العربية، وسلامة الطبع لأهلها.

■ **فائدة:**

قد تُسبق (ليت) بحرف النداء (يا)، مثل: ﴿يا لَيْتَ قَوْمي يَعْلَمونَ﴾ [يس: ٢٦]. يا ليتني فيها جذعاً. فذهب بعض العلماء إلى أن (يا) هنا حرف نداء، وأن المنادى محذوف، ولكن ابن مالك رحمه الله اختار قولاً آخر، وهو أنها للتنبيه لا للنداء.

---

(١) «شرح ابن عقيل» (١/ ١٤٨).

(٢) قريط بن أنيف العنبري، شاعر جاهلي في حياته غموض، افتتح أبو تمام كتابه «ديوان الحماسة» بمختارات منها. والبيت في «ديوان الحماسة» (١ / ٢٤).

☐ المبحث الرابع :

النداء

■ تعريفه :

وهو طلب إقبال المخاطب، وإن شئت فقل: دعوة مخاطب بحرف نائب مناب فعل، كـ (أدعو) أو (أنادي).

وحروفه ثمانية: (يا)، والهمزة، و(أي)، و(آي)، و(أيا)، و(هيا)، و(وا)، و (آ).

وقبل أن نحدثك عن أدوات النداء؛ يجمل أن تعرف أن الجملة في النداء تتكون من الفعل الذي ناب عنه حرف النداء وفاعله، فإذا قلت: يا صلاح الدين! وأردت استخراج المسند إليه والمسند من هٰذه الجملة، فإن المسند هو الفعل (أدعو) الذي ناب عنه حرف النداء (يا)، والمسند إليه الفاعل، وهو (أنا)، وقد عرفت من قبل أن كل جملة في الخبر أو الإنشاء لا بد أن تتكون من ركنين أساسيين، وهما المسند إليه والمسند، وما سواهما فهو قيد، اللهم إلا المضاف إليه وصلة الموصول، وعلى هٰذا يمكنك أن تميِّز الجملة في النداء على ضوء ما بيَّنَّاه لك.

وإنما آثرت أن أنبهك لهٰذا في النداء خاصة؛ لأن استخراج المسند إليه والمسند فيما سواه ظاهر، ولكن استخراج الجملة في النداء يشتبه على كثير من الناس.

وفي النداء مطلبان اثنان: أدوات النداء أولاً، والأغراض التي تخرج إليها صيغة النداء ثانياً.

☐☐☐

* **المطلب الأول:**

أدوات النداء

أمـا أدوات النداء، فإنها تنقسم إلى قسمين اثنين؛ قسم لنداء القريب، وقسم لنداء البعيد.

■ **أدوات نداء القريب:**

وهما حرفان: الهمزة، و(أي)، فتقول لمن يسمعك، ولمن هو قريب منك: أي بنيّ. أبنيَّ.

وقـد يُنَزَّل البعيد منزلة القريب، فينادى بالهمزة أو (أي)؛ تنبيهاً على أنه ـ مع بعده ـ لا يغيب عن القلب، بل هو مالك للفؤاد واللب؛ كما يقول المتلهف على وحدة الأمة: أي صلاح الدين. أنورَ الدين أين أنت. ومنه قول الضبي[1] في رثاء ابنه:

أبـنـيَّ لا تَبْـعُـدْ وليسَ بخـالِـدٍ ... حَيٌّ ومَـنْ تُصِـبُ الـمَـنـونَ بَعيدُ

ومنه قول الشاعر:

أسـكّـانَ نُعْـمـانِ الأراكِ تَيَقَّـنـوا ... بأنَّـكُـمُ في رَبْـعِ قَلبِـيَ سُكّـانُ

■ **أدوات نداء البعيد:**

وهٰذه الأدوات هي:

١ - (يا): وهي أكثر أدوات النداء استعمالاً، ولهٰذا قيل: إنها مشتركة بين النداء البعيد والقريب، ولكن كثيراً من العلماء ذهب إلى أنها وُضِعت لنداء البعيد؛ قال الزمخشري:

«هي لنداء البعيد، أو مَن هو بمنزلته من نائم أو ساهٍ، وإذا نودي بها مَن عداهم

(١) المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر بن سالم الضبي، أبو العباس، أديب نحوي، لغوي عالم بالشعر وأيام العرب، من أهل الكوفة، توفي سنة (١٦٨ هـ).

فلِحِرْص المنادى عليه، ومفاطنته لما يدعوه. . . وقول الداعي: يا رب! ويا الله! استقصار منه لنفسه، وهضم لها، واستبعاد عن مظانّ القبول والاستماع، وإظهار للرغبة في الاستجابة بالجوار»[1].

ومنه قول الفارعة بنت طريف[2] ترثي أخاها الوليد[3]:

فَيا شَجَرَ الخابُورِ ما لَكَ مورقاً ... كأنَّكَ لَمْ تَحْزَنْ على ابنِ طَريفِ[4]

وكثيراً ما تُحذف؛ قال تعالى: ﴿قالَ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي﴾ [القصص: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿يُوسُفُ أيُّها الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

٢ ـ (أيا): ومنه قول الشاعر:

أيا جَبَلَيْ نُعْمَانَ باللهِ خَلِّيا ... نَسيمَ الصَّبا يُخْلِصْ إليَّ نَسيمَها

ومنه قوله:

أيا جامِعَ الدُّنيا لغيرِ بلاغَةٍ ... لِمَنْ تَجْمَعُ الدُّنْيا وأنتَ تَموتُ

٣ ـ (وا): وهي أكثر ما تستعمل في الندبة، مثل: واحرَّ قلباه، وامعتصماه، وكقول أبي العلاء:

فوا عَجَباً كَمْ يدَّعي الفَضْلَ ناقِصٌ ... ووا أسفا كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فاضِلُ

٤ ـ بقية أحرف النداء، (هيا) و (آ) و (آي): وهي أقل استعمالاً من سابقاتها؛

---

(١) «شرح المفصل»، لابن يعيش (١ / ١١٩ ـ ١٢١).

(٢) الفارعة ـ أو فاطمة، وقيل: ليلى ـ بنت طريف بن الصلت التغلبية الشيبانية، شاعرة من الفوارس، كانت تركب الخيل وتقاتل وعليها الدرع والمغفر، وهي أخت الوليد بن طريف الخارجي، توفيت نحو (٢٠٠ هـ). [الأعلام: ٥/ ١٣٨].

(٣) الوليد بن طريف بن الصلت التغلبي الشيباني، ثائر من الأبطال، كان رأس الشراة في زمنه، أخرج من الجزيرة الفراتية سنة (١٧٧ هـ) في خلافة هارون الرشيد، ظهر عليه يزيد، فقتله بعد حرب شديدة، فرثته أخته الفارعة، توفي سنة (١٧٩ هـ). [الأعلام: ٨ / ١٢٠].

(٤) «الأغاني» (١٢/ ٨٦)، «شرح شواهد المغني» (١/ ٢٧٧).

تقول: هيا ذكريات الماضي. آفلسطين سلاماً واعتذاراً. آي بني قومي.

■ إنزال القريب منزلة البعيد في النداء:

وقد ينزل القريب منزلة البعيد؛ فينادى بإحدى أدواته، وذلك لأسباب أهمها[1]:

١ ـ **للدلالة على أن المنادى رفيع القدر، عظيم الشأن**: فيجعل بعد المنزلة كأنه بعد في المكان؛ كقول بكر بن النطاح[2] في مدح أبي دلف العجلي[3]:

أبا دُلَفٍ بورِكْتَ في كلِّ بلدةٍ ... كما بورِكَتْ في شهرِها ليلةُ القدْرِ

٢ ـ **للإشارة إلى أنه وضيع منحط الدرجة**: وعليه قول الفرزدق يهجو جريراً:

أولٰئكَ آبائي فجِئْني بمِثْلِهِم ... إذا جَمَعَتْنا يا جَريرُ المَجامِعُ[4]

ومنه قولك لمن تخاطبه وهو قريب منك: يا مفرِّطاً في وطنك خبت وخسرت.

٣ ـ **للإشعار بأن السامع غافل لاهٍ**: فتعده كأنه غير حاضر في مجلسك، ومنه قولك: يا أيها الغارقون في لذاتكم، المفتونون بعدوكم، سيطلع الفجر. وعليه قول البارودي[5]:

يا أيُّها السَّادِرُ المزورُ مِن صَلَفٍ ... مهلاً فإنك بالأيامِ منخدعُ

---

(١) «علوم البلاغة»، للمراغي، (ص ٨٥).

(٢) بكر بن النطاح الحنفي، أبو وائل، شاعر غزل، من فرسان بني حنيفة من أهل اليمامة، انتقل إلى بغداد في زمن الرشيد، واتصل بأبي دلف العجلي، فجعل له رزقاً سلطانيًا؛ عاش به إلى أن توفي سنة (١٨٢ هـ). [الأعلام: ٢/ ٧١].

(٣) القاسم بن عيسى بن إدريس بن مغفل بن عمير العجلي أبو دلف، أحد قواد المأمون، ثم المعتصم، له صنعته في الغناء، أخذ عنه الفضلاء والأدباء، توفي ببغداد سنة (٢٢٦ هـ). [المعجم: ٨/ ١٠٩].

(٤) «ديوانه» (ص ١٣٨).

(٥) محمود سامي البارودي الجركسي الأصل المصري، أديب، شاعر من القواد العسكريين، ولد بالقاهرة وتعلم في المدرسة الحربية، توفي سنة (١٩٠٤ م). [المعجم: ٢/ ١٦٥].

* **المطلب الثاني:**

أهم الأغراض التي تخرج إليها صيغ النداء

١ ـ التحسر والتوجع: ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْ تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ وإنْ كنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] ومنه قول حافظ[١] في الرثاء:

يا دُرَّةً نُزِعَتْ مِن تاجِ والِدِها ... فأصْبَحَتْ حِلْيَةً في تاجِ رَضْوانِ

وقول من رثى معن بن زائدة[٢]:

فيا قَبْرَ مَعْنٍ كيفَ وارَيْتَ جودَهُ ... وقد كانَ منهُ البرُّ والبحرُ مُتْرَعا[٣]

٢ ـ التعجب: كقول طرفة[٤]:

يا لَكِ مِن قُبَّرَةٍ بمَعْمَرِ ... خَلا لكِ الجَوُّ فَبيضي واصْفِري[٥]

ومنه قولك: يا لله! أفي يوم وليلة تحطم الأصنام؟! يا لسمو الرجال!

٣ ـ الاختصاص: ويكون بحذف النداء؛ مثل: أيها الرجل ـ أي من دون الرجال[٦]، وهذا هو أحد الفروق بين النداء والاختصاص، إذ في المنادى قد يذكر حرف

---

(١) محمد حافظ إبراهيم فهمي المهندس الشهير بحافظ إبراهيم، يلقب بشاعر النيل، ولد في ذهبية بالنيل، اشتغل مع بعض المحامين في طنطا، التحق بالمدرسة العسكرية، وألف مع بعض الضباط جمعية سرية، توفي سنة (١٩٣٢ م).

(٢) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيباني أبو الوليد، من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، أدرك العصر الأموي والعباسي، قتل غيلة في سجستان سنة (١٥١ هـ). [الأعلام: ٧/ ٢٧٣].

(٣) البيت ليحيى بن أبي حفصة، «العمدة» لابن رشيق (٢/ ١٤٨).

(٤) طرفة بن العبد بن سفيان البكري الوائلي، أبو عمرو شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، ولد في بادية البحرين، قتله المكعبر شابًا سنة (٦٠ ق.هـ). [الأعلام: ٤/ ٢٢٥].

(٥) «الديوان» (ص ٤٦).

(٦) وقد يكون الاختصاص بدون نداء؛ كقولك: نحن المسلمين أكثر الأمم عدلاً. نحن العرب أسخى من بذل. فإن كلمتي: (المسلمين)، و(العرب)؛ منصوبتان على الاختصاص.

النداء.

وهناك فرق آخر، وهو أن الاختصاص خبر، والنداء إنشاء؛ كما عرفت، فإذا قلت: عليَّ اعتمد أيها الفتى. فالمعنى: أخص الفتى.

وأنبهك هنا إلى أن المقصود بالفتى هنا أنت، وليس مَن تخاطب، وهٰذا معناه الفخر، فكأنك تفخر بنفسك، وقد يكون غرضه التواضع، وذٰلك كقولك: أنا من أضعف الناس أيها الإنسان. فأنت لا تُنادي غيرك هنا، بل تتحدث عن نفسك، فـ (أيها الإنسان)؛ مقصود بها أنت لا غيرك.

وقد يكون الاسم المنصوب مضافاً، ومنه قول بشامة النهشلي[1]:

إنا بَني نَهْشَلٍ لا نَدَّعي لأبٍ عنهُ ولا هُو بالأبناءِ يَشْرِينا[2]

والتقدير: إنا يا بني.

٤ ـ الندبة: كما مر، ومنه قول المتنبي:

واحرَّ قَلْباهُ مِمَّنْ قلبُهُ شَبِمُ ومَنْ بِجِسْمي وحالي عندَهُ سَقَمُ[3]

٥ ـ الإغراء والتحذير: مثل قولك: يا شجاع تقدم. ومن التحذير قوله تعالى: ﴿فَقالَ لَهُمْ رَسولُ اللهِ ناقَةَ اللهِ وسُقياها﴾ [الشمس: ١٣].

٦ ـ الزجر والملامة: كقوله:

أفُؤادي مَتى المَتابُ ألَمَّا تَصِحُ والشيبُ فوقَ رأسي ألَمَّا

٧ ـ الاستغاثة: كما تقول: يا للشباب. يا لذوي الغيرة. يا لحماة الوطن. يا للذابين عن الدين. وهناك أغراض تفهم من السياق.

---

(١) بشامة بن الغدير العذري من شعراء المفضليات، وهو جاهلي نهشلي، كان كثير المال حتى فقأ عين بعير، ومن عاداتهم إذا ملك الرجل ألف بعير فقأ عين فحلها. [الأعلام: ٢/ ٥٤].

(٢) «ديوان الحماسة» (١/ ١٠٢).

(٣) «ديوان المتنبي» دار إحياء التراث العربي، (ص ٢٤٨). شبم: بارد.

□ المبحث الخامس:

الاستفهام

الاستفهام طلب الفهم، وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به، وبعضهم يفرق بين الاستفهام والاستخبار، وليس في ذٰلك جدُّ عناء في علم البلاغة.

وأدواته إحدى عشرة أداة: حرفان؛ هما: الهمزة، و(هل)، وتسعة أسماء؛ وهي: (من)، و(ما)، و(متى)، و(أين)، و(أيانَ)، و(أنَّى)، و(كيف)، و(كم)، و(أي).

وفي هٰذا الفصل قضايا دقيقة، حري بك أن تتنبَّه إليها، وأن تشحذ لها همتك، وتوليها عنايتك، ونرجو الله أن يعينك ويعيننا.

وفي الحديث عن الاستفهام مطلبان:

المطلب الأول: الفرق بين أدوات الاستفهام، وما يستفهم عنه بكل أداة.

المطلب الثاني: الأغراض والمعاني التي تخرج إليها أدوات الاستفهام.

* المطلب الأول:

الفرق بين أدوات الاستفهام وما يستفهم عنه بها

اعلم أن هٰذه الأدوات تنقسم من حيث المستفهَم عنه إلى أقسام ثلاثة:

١ ـ منها ما يُستفهم به عن الحكم ـ وهو إثبات شيء لشيء، أو نفيه عنه ـ فتقول: هل تحب العلم؟ هل يسافر أخوك؟ هل تستيقظ الأمة؟

فأنت في هٰذه الأمثلة لم تستفهم عن مفرد، فلم تستفهم عن المحبة أو العلم، ولم تستفهم عن السفر أو عن أخيك، ولم تستفهم عن الاستيقاظ أو عن الأمة، وإنما كان استفهامك عن الحكم الذي هو إثبات حبك للعلم، وسفر أخيك، واستيقاظ الأمة.

وهٰذا الذي يعبِّرون عنه بالتصديق، وهو إدراك النسبة بين أمرين.

٢ ـ ما يُستفهم به عن مفرد؛ تقول مثلاً: ما البُرُّ؟ فيقال لك: القمح. وما القَسْوَرَةُ؟ فيقال لك: الأسد.

فأنت ترى هنا أنْ لا حكم، فلم نثبت شيئاً لشيء، وهذا ما يسمونه التصور.

٣ ـ ما يُستفهم به عن هٰذين معاً، أعني: عنِ القضية التي فيها إثبات حكم أو نفيه، وهو التصديق، وعن المفرد الذي هو التصور.

وهٰذا القسم الذي يستفهم به عن التصور والتصديق هو الهمزة، أما الذي يستفهم به عن التصديق وحده؛ فهو (هل)، وأما الذي يستفهم به عن التصور وحده فهو باقي أدوات.

ولنبدأ الآن باستعراض هٰذه الأدوات واحدة تلو الأخرى:

ـ الهمزة ـ

الهمزة ـ كما عرفت ـ يستفهم بها عن التصور والتصديق، أي عن المفرد وعن الحكم؛ تقول: أطلعت الشمس؟ أجاء الأستاذ؟ أفهمت الدرس؟ فأنت هنا إنما تسأل عن الحكم، وهو إثبات طلوع الشمس، ومجيء الأستاذ، وفهم الدرس، وهٰذا هو التصديق؛ لأن التصديق إنما هو إدراك النسبة بين شيئين، وإن شئت قل: إثبات حكم لشيء، أو نفيه عنه.

وقد يُستفهم بالهمزة عن التصور، فتقول: ألبلاغة صعبة أم الرياضيات؟ أنت هنا لا تستفهم عن الحكم؛ لأنك تعرف أن أحدهما صعب، ولكنك تريد تعيين هٰذا الصعب، فيقال لك مثلاً: البلاغة. وربما يقول لك قائل: الرياضيات.

وتقول: أسعيد فاز بالجائزة أم خالد؟ أنت هنا لا تسأل عن الحكم؛ لأنك تعرف أن أحدهما قد فاز بالجائزة، لكنك تريد تعيين هٰذا الفائز مَن هو؟ فيقال لك: سعيد. أو: خالد.

وتقـول: أفي الشتـاء تتحسن صحتـك أم في الصيف؟ أنت هنـا لا تسأل عن الحكم؛ لأنك تعرف أن من تخاطبه تتحسن صحته في أحد هٰذين الفصلين، ولكنك لا تعرف على التعيين أيهما؟!

في هٰذه الأمثلة جميعاً ترى أن الهمزة للتصور وليست للتصديق؛ لأنه لم يستفهم بها عن حكم، أي إثبات شيء لشيء، أو نفيه عنه، وإنما استُفْهِم بها عن تعيين شيء ما.

■ أحكام الهمزة:

وللهمزة أحكام لا بد أن تعرفها حتى لا تخطىء في قولك، ولا تتعثر في حديثك:

* الحكم الأول:

سبق أن عرفت الحكم الأول للهمزة، وهو أنها للتصور والتصديق، وعرفت معنى كل من التصور والتصديق.

* الحكم الثاني:

وهو أنها يليها المسؤول عنه دائماً، وإليك بيان ذٰلك:

إذا أردت أن تسأل: مَن المسافر؛ سعيد أم خالد؟ فإنك تقول: أسعيد مسافر أم خالد؟ لكن إذا أردت أن تسأل عن سعيد أمسافر أم مقيم؛ فيجب أن تقول: أمسافر سعيد أم مقيم؟ وإذا أردت أن تسـأل عن الكتـاب وأنت لا تعـرف أنـه في المكتبة أو على المكتب؛ فيجب أن تقول: أعلى المكتب الكتاب أم في المكتبة؟ وإذا كنت تجهل أن في الإبريق شاياً أو قهوة؛ فيجب أن تقول: أشاي في الإبريق أم قهوة؟ أما إذا كنت تجهل أن القهوة في الإبريق أم في الكأس؛ فيجب أن تقول: أفي الكأس القهوة أم في الإبريق؟

الهمزة إذن لا بد أن يليها المسؤول عنه للتصور.

ارجع ثانية إلى الأمثلة السابقة، ففي المثال الأول: لو قلت: أمسافر سعيد أم

خالد؟ لكان هٰذا خلفاً من القول، وخطأ معيباً في صنعة البلاغة؛ لأن المسؤول عنه ليس هو السفر، وإنما: أي الاثنين مسافر؟ والهمزة يليها المسؤول عنه.

كذٰلك المثال الثاني؛ لا يصح أن تقول: أسعيد مسافر أم مقيم؟ لأنك تسأل عن السفر أو الإقامة؛ فلا بد أن يأتي بعد الهمزة واحد منهما.

أما المثال الثالث؛ فلو قلت: آلكتاب على المكتبة.أم في المكتب؟ تكون قد خرجت عن الصواب. نعم، لو أردت أن تسأل عن الذي على المكتب؛ أكتاب أم دفتر؟ فإنك يجب أن تقول: أكتاب على المكتبة أم دفتر؟ ولا يجوز أن تقول: أعلى المكتب دفتر أم كتاب؟

وكذٰلك المثال الرابع؛ تخطىء إن قلت: أفي الإبريق شاي أم قهوة؟

نعم، يمكنك أن تقول ـ كما في المثال الخامس ـ: أفي الإبريق القهوة أم في الكأس؟

وهٰكـذا يمكنـك أن تطبق القاعدة على كل كلام تتكلمه، فإذا كنت تعرف أن محمداً جاء من السفر، ولكن لا تدري أجاء بالطائرة أم بالسيارة، فطبقاً لما عرفته من قبل لا يجوز أن تقول: أجاء محمد بالطائرة أم بالسيارة؟ بل: أبالطائرة جاء محمد أم بالسيارة؟

وإذا عرفت أن أخاك قد جاء من الجامعة، ولكنك لم تدرِ كيف جاء؛ راكباً أم ماشياً؛ أظنك تدرك الآن ما يجب أن تقول، ولا أخالك تخطىء، بل ستقول: أراكباً جاء أم ماشياً؟

فإذا كنت تجهل مجيء محمد؛ لا تدري جاء أم لم يجىء، فكيف ستوجه سؤالك يا ترى؟ أتقول: أمحمد جاء؟ أم تقول: أجاء محمد؟

فإذا كنت على ذكـر من أن الهمـزة يليهـا المسؤول عنـه دائمـاً، فأنت تجهل المجيء، فيجب أن تقول: أجاء محمد؟ أما إذا كنت تعرف المجيء، ولكنك تجهل

من الذي جاء؛ أمحمد أم غيره؟ فإنك تقول: أمحمد جاء أم خالد؟

وإذا كنت تجهل هل صلّى صاحبك الظهر؟ وهل استوعب الموضوع؟ فيجب أن تقول له: أصليت الظهر؟ أستوعبت الموضوع؟

ولكنك إذا رأيته يصلّي، ولكنك لم تعرف ماذا صلّى؛ أفرضاً أم نفلاً؟ الظهر أم غيره؟ فإنك تقول له: آلفرض صليت؟ فتبدأ بما تجهل، ولا يجوز أن تبدأ بالفعل، فتقول: أصليت؟ لأن صلاته غير مجهولة عندك.

وسيأتي لهٰذا ـ إن شاء الله ـ زيادة بيان في فصل التقديم والتأخير.

وهٰذا الحكم للهمزة ـ أعني أنه يليها المسؤول عنه ـ، وأمثلته التي مرت معك؛ كانت للقسمين، فقولنا: أجاء أخوك من السفر؟ هٰذا من باب التصديق، وقولنا: أراكباً جاء أم ماشياً؟ من باب التصور.

* **الحكم الثالث:**

أما الحكم الثالث من أحكام الهمزة؛ فهو إن كانت للتصور؛ فيجب أن يذكر بعدها المعادل، ومعادل الشيء ما يساويه؛ لأن العدل هو المساواة، ومن هٰذا القبيل: فلان عديل فلان، فإذا كان المسؤول عنه زيد؛ فمعادله عمرو أو خالد، وإذا كان المسؤول عنه السفر؛ فالمعادل له الإقامة . . . وهٰكذا، وستدرك ذٰلك من الأمثلة الآتية:

ولا بد أن يأتي المعادل بعد (أم) التي هي من حروف العطف، فإذا قلت: أزيد مسافر؟ وأردت التصور، فيجب أن تذكر المعادل، فتقول: أزيد مسافر أم عمرو؟ ولا تقول: أم مقيم؟ لأن المعادل لزيد والمقابل له: عمرو، وتقول: أمسافر خالد أم مقيم؟ لأن المعادل لكلمة مسافر والمقابل لها كلمة مقيم. وتقول: أفي فلسطين تقول شعرك أم في الأندلس؟ لأن الذي يعادل فلسطين ويقابلها الأندلس.

وقد يُترك المعادل إذا فُهم من السياق؛ كما إذا عرف السائل الذي تقول له: أفي الدار أبوك؟ عرف أنك تسأله: أفي الدار أم في العمل؟ فيمكن أن تحذف المعادل اعتماداً على فهم المخاطب.

حذارِ إذن أن تأتي بعد الهمزة بغير المسؤول عنه، فتقول: أسعيد مسافر أم مقيم؟ والصحيح: أمسافر أم مقيم؟ أو أن تذكر بعده غير المعادل له؛ فتقول: أسعيد مسافر أم مقيم؟ والصحيح: أسعيد مسافر أم خالد؟

* الحكم الرابع:

إن الهمزة إذا كانت للتصور؛ يكون الجواب عنها بتعيين المسؤول عنه من فعل أو فاعل أو غيره، ولا يصح أن يكون الجواب بـ (نعم) أو (لا)، وإذا كانت للتصديق يكون الجواب عنها بـ (نعم) أو (لا).

ونـظن هٰذا يسهِّل عليك معرفة التصور والتصديق، والتفرقة بينهما، فإذا كانت للتصـور؛ لا يكون الجواب بـ (نعم) أو بـ (لا)، بل بتعيين المسؤول عنه: أأبوك في البيت أم أخـوك؟ فأنت تعيِّن أحـدهمـا، فتقول مثلاً: أبي. أفي البيت أخوك أم في الجامعة؟ تعين أحدهما، فتقول مثلاً: في الجامعة. أراكباً جئت أم ماشياً؟ أيوم الجمعة جئت أم يوم الخميس؟ . . .

الجواب كما ترى لا يصلح فيه (نعم) أو (لا). إذن: الهمزة هنا للتصور.

أما إذا قلت: أحال أمتنا يرضيك؟ أتنتظر من أمريكا خيراً؟ أتركن لليهود؟ أيجوز الصلح بيننا وبينهم؟ فإن هٰذه الأمثلة ـ كما ترى ـ يكون الجواب فيها: (لا)، وتقول: أتحب الشهادة في سبيل الله؟ أتأخذ من التاريخ درساً؟ أتستجيب لداعي الحق؟ أتبذل من أجل مقدساتك وأرضك؟ ويكون الجواب: (نعم).

* الحكم الخامس:

وخامس أحكام الهمزة أنها إذا كانت للتصديق؛ فلا يجوز ذكر المعادل بعدها، فإذا أردت أن تسـأل عن كتاب «دلائل الإعجاز»؛ هل هو لعبدالقاهر؟ تقول: أكتاب «دلائـل الإعجـاز» لعبـدالقاهر؟ وإذا كنت تعرف عبدالقاهر وتجهل أنه مؤلف «دلائل الإعجاز»؛ فإنك تسأل: أعبدالقاهر مؤلف «دلائل الإعجاز»؟

أنت في هاتين الجملتين تسأل عن الحكم.

وإذا أردت أن تسأل عن سفر خالد؛ فقلت: أسافر خالد؟ أو أردت أن تسأل عن خالد أسافر؟ فتقول: أخالد مسافر؟ فإنك في هٰذه القضايا جميعها لا تأتي بـ (أم) ولا بالمعادل، ولهٰذا ترى أن الجواب فيها بـ (نعم) أو (لا).

وقد عرفت أنه إذا كان الجواب بـ (نعم) أو (لا)؛ كانت الهمزة للتصديق، فإذا سألت عن سبب ذٰلك؛ لماذا ذُكر المعادل في حالة التصور وامتنع في حالة التصديق؟ فإليك الجواب، وانتبه لما فيه من دقة نرجو لك أن تمنحها من يقظتك:

الهمزة حينما تكون للتصديق؛ فأنت تسأل فيها عن الحكم، وأنت لا تسأل عنه إلا لأنك تجهله، فإذا قلت: أخالد جاء من السفر؟ أفنون البلاغة صعبة؟ فأنت تجهل الحكم، فإذا ذكرت المعادل؛ فقلت: أخالد جاء من السفر أم سعيد؟ أفنون البلاغة صعبة أم علم النحو؟ فأنت هنا لا تجهل الحكم، كل ما تريده تعيين واحد من هٰذه الأشياء ثبت له هٰذا الحكم، ألا ترى أن هنا تناقضاً في الجملة الواحدة لو ذكر المعادل؛ لأن المفترض أنك تجهل الحكم، وليس للتصديق معنى غير هٰذا، ومجيئك بـ (أم) والمعادل معناه أنك لا تجهل الحكم.

بقيت مسألة ربما تُشْكل عليك، وهي أنه في المثال الواحد يمكن أن تصلح الهمزة فيه للتصور والتصديق؛ تقول: أمحمد جاء من السفر؟ فنجعل ذٰلك للتصديق سؤالاً عن الحكم، فتكون الإجابة بـ (نعم) أو (لا)، ولا يجوز أن نذكر المعادل، ولكننا يمكن أن نجعل هٰذين المثالين للتصور، فتقول: أمحمد جاء من السفر أم خالد؟ أفنون البلاغة صعبة أم علم النحو؟ فكيف نجعلها للتصديق تارة ولا يذكر بعدها المعادل، وللتصور تارة ويجوز ذكر المعادل بعدها؟ فنقول لك: هٰذا صحيح، فقضية التصور والتصديق إنما ترجع إلى اعتبار المتكلم، وقصده، وغرضه من الكلام، وفهم المتكلم له، فقد يسأل عن الحكم، وقد يسأل عن المفرد، وقد يقصد هٰذا أو ذاك.

إليك هٰذا المثال:

إذا عرفتُ أن في بيتكم من يشتغل بالتدريس، لكني لا أدري من هو؛ أبوك أم

أخوك؟ أقول: أأبوك المدرس أم أخوك؟

وإذا عرفت أن جائزة الآداب فاز بها أحد أخويك، لكني لا أدري من هو، فأقول: أأخوك فاز بالجائزة أم أختك؟

وإذا عرفت أن في بيتكم من تخيط الثياب؛ لكن لا أدري مَن هي، فأقول: أأمك تعمل بالخياطة أم أختك؟

أما إذا كنت أجهل الحكم، فإن الهمزة حينذاك تكون للتصديق، فتقول: أأبوك مدرس؟ أأخوك الذي فاز بجائزة الآداب؟ أأمك تحسن الخياطة؟

* **الحكم السادس:**

الهمزة هي أعرق أدوات الاستفهام، ولهٰذا لا يتقدم عليها حرف العطف كما يتقدم على غيرها، فإذا اجتمعت مع حرف العطف تقدمت عليه؛ قال تعالى: ﴿أفَمَنْ كانَ على بيِّنَةٍ مِن ربِّهِ ويَتْلوهُ شاهدٌ منهُ﴾ [هود: ١٧]، ﴿أفَمَنْ يَمْشي مُكِبًّا على وَجْهِهِ اهْدَى امَّنْ يَمْشي سَوِيًّا على صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أفلا تَذَكَّرونَ﴾ [يونس: ٣]، فأنت ترى هنا أنها تقدمت على الفاء.

وكذٰلك حينما تجتمع الواو و(ثم)؛ فمثالها مع الواو: ﴿أوَمَن كانَ مَيْتاً فأحْيَيْناهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، ﴿أوَمَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وهُو في الخِصامِ غَيْرُ مُبينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

ومثالها مع (ثم) قوله سبحانه: ﴿قُلْ أرَأيْتُم إنْ أتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أو نَهاراً ماذا يَسْتَعْجِلُ مِنهُ المُجْرِمونَ . أثُمَّ إذا ما وَقَعَ آمَنْتُم بهِ آلآنَ وقدْ كُنْتُم بهِ تَسْتَعْجِلونَ﴾ [يونس: ٥٠ - ٥١].

أما بقية أدوات الاستفهام؛ فإنها تتأخر عن حروف العطف، قال تعالى: ﴿فهَلْ أنْتُم مُسْلِمونَ﴾ [هود: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فكَيفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وجِئْنا بكَ على هٰؤلاءِ شَهيداً﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فأنَّى لهُمْ إذا جاءَتْهُم ذِكْراهُم﴾ [محمد: ١٧]، وفي التنزيل: ﴿فَمَنْ يُجيرُ الكافِرينَ مِن عذابٍ أليمٍ﴾ [الملك: ٢٨]، ﴿فما يُكَذِّبُكَ بعْدُ بالدِّينِ﴾ [التين: ٧].

* **الحكم السابع:**

وهو قريب من السابق، فهي لا تقع بعد (أم)؛ فلا يُقال: أم أأنت مسافر. أما غيرها من أدوات الاستفهام فإنها تقع بعد (أم)؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوي الأعْمَى والبَصيرُ أمْ هَلْ تَسْتَوي الظُّلُماتُ والنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿أمَّنْ هٰذا الذي هُو جُنْـدٌ لكُمْ يَنْصُـرُكُم مِن دونِ الرَّحْمٰنِ إنِ الكافِرونَ إلا في غُرورٍ. أمَّنْ هٰذا الذي يَرْزُقُكُم إنْ أمسَـكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا في عُتُوٍّ ونُفورٍ﴾ [الملك: ٢٠ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوا قالَ أكَذَّبْتُم بآياتي ولم تُحيطُوا بها عِلماً أمْ ماذا كُنْتُمْ تَعْمَلونَ﴾ [النمل: ٨٤].

فأنت رأيت أن (أم) وقعت قبل (هل)، و(من)، و(ما)، وتأتي قبل (كيف)، ومنه قول قتيلة[1]:

هَلْ يَسْـمَـعَـنَّ الـنَّـضْـرُ إنْ نادَيْتُـهُ ... أمْ كيفَ يَسْـمَـعُ مَيِّتٌ لا يَنْـطِقُ[2]

ومنه قول التغلبي[3]:

أنَّـى جَزَوْا عامِـراً سُوأى بِفِـعْـلِهِمُ ... أم كَيْفَ يَجْزونَني السُّوأى مِن الحُسْنِ
أم كَيْفَ ينفَـعُ ما تُعْـطي العَلوقُ بِهِ ... رِئْـمـانَ أنْـفٍ إذا ما ضُنَّ باللَّبَـنِ[4]

والعلوق - بفتح العين المهملة - هي الناقة تحن على غير ولدها ولا ترأمه، وإنما تشمه بأنفها، وتمنعه لبنها، فهو لا يستفيد من هٰذا العطف، والبيت يُضرب لمن يدَّعي

---

(١) قتيلة بنت النضر بن علقمة من بني عبد الدار، شاعرة من الطبقة الأولى في النساء، أدركت الجاهلية والإسلام، وأسر أبوها النضر في بدر، فأمر به النبي ﷺ، فقتل، وأسلمت بعد مقتله، توفيت نحو (٢٠ هـ). [الأعلام: ٥/ ١٩٠].

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٢)، «البيان والتبيين» (٤/ ٤٤)، «شرح شواهد المغني» (٥/ ٥٤).

(٣) أفنون يلقب به، واسمه صريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك بن حبيب بن تغلب، شاعر جاهلي.

(٤) «المفضليات» (٢/ ٩٣٨)، «البيان والتبيين» (١/ ٩)، «شرح شواهد المغني» (١/ ٢٤٠).

الجميل ولا يفعله[1].

■ دراسة تطبيقية:

بعد أن عرفت هٰذه الأحكام، يجمل بنا أن نقوم بدراسة ندرك من خلالها الغرض البياني الذي يمكن أن تؤديه الهمزة في علم المعاني.

عرفت أن من أحكام الهمزة أن يليها المسؤول عنه، وأنها تكون للتصور وللتصديق، وأنها إن كانت للتصور؛ فينبغي أن يُذكر بعدها (أم) والمعادل، وعرفت أن المعادل هو المقابل للمسؤول عنه، لا الذي يلي الهمزة، وقد حاولنا أن نقرب كل هٰذا لك بما اخترناه من أمثلة منتزعة من الواقع، وسنبقى الآن مع بليغ القول:

* جاء في التنزيل: ﴿ثَمانيةَ أزواجٍ مِن الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ومِن المَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أمِ الأنْثَيَيْنِ أمَّا اشْتَمَلَتْ عليهِ أرْحامُ الأنْثَيَيْنِ نبئوني بِعِلْمٍ إنْ كُنْتُم صادِقِينَ . ومِن الأبلِ اثنَيْنِ ومِن البقَرِ اثنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أمِ الأنْثَيَيْنِ أمَّا اشْتَمَلَتْ عليهِ أرْحامُ الأنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣ ـ ١٤٤].

في النص الكريم تجد أن الذي جاء بعد الهمزة هو المسؤول عنه، وهو الذكرين، وذُكر بعدها (أم) والمعادل، والذي يعادل الذكرين الأنثيان، ولو أنه قيل في غير التنزيل: أحرَّم الذكرين؟ فلا يصح أن يقول: أم الأنثيين، وذٰلك لأن المسؤول عنه هنا التحريم، فإن قلت في غيْر القرآن: أحرَّمَ الذكرين؟ وأردت أن تذكر المعادل، فإن المعادل للتحريم الإباحة، فتقول: أحرَّمهما أم أحلَّهما؟

أما لماذا قدَّم الأنثيين هنا ـ وهو المفعول ـ؟ فهٰذا ما ستعرفه في فصل التقديم والتأخير إن شاء الله.

* قال تعالى: ﴿أأنْتُم أشَدُّ خَلْقاً أمِ السَّماءُ بَناها رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٢٨]، الذي ولي الهمزة هنا: ﴿أنتم﴾، والمعادل الذي ذكر بعد (أم)

---

(١) وهٰذا شبيه بالمثل الشعبي: «مثل الوز حنيَّة بلا بر».

السماء؛ لأن السؤال: أيهما أكبر خلقاً؟ أأنتم أم السماء؟

* قال تعالى: ﴿أفَرَأيْتُم ما تَحْرُثُونَ . أأنْتُم تَزْرَعونَهُ أمْ نَحْنُ الزّارِعونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤]، فأنت ترى أن الذي جاء بعد الهمزة الضمير ﴿أنتم﴾، والمعادل له ﴿نحن﴾.

* قال تعالى: ﴿قال أراغِبٌ أنتَ عن آلِهَتي يا إبراهيمُ﴾ [مريم: ٤٦]، والهمزة هنا يمكن أن تكون للتصور، فيكون المعادل محذوفاً اعتماداً على ذكاء المخاطب، فيكون المعنى ـ والله أعلم ـ: أراغب أنت عن آلهتي أم راغب فيها؟ ولو أنه قيل في غير التنزيل: أأنت راغب عن هٰذا الأمر؟ فلا يجوز أن يُقال: أم راغب فيه. وإنما يقال: أأنت راغب عنه أم غيرك؟

وفي هٰذه النصوص جميعاً الهمزة للتصور، والنص الأخير فقط هو الذي يمكن أن تكون فيه الهمزة للتصديق كذٰلك، ومجيء الهمزة للتصديق في كتاب الله تعالى كثير، ولكن ينبغي أن يليها المسؤول عنه دائماً.

* قال تعالى: ﴿أتَقولونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿أتُريدونَ أنْ تَهْدُوا مَن أضَلَّ اللهُ﴾ [النساء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزَرَ أتَتَّخِذُ أصْناماً آلِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤].

* ومن السنة المطهرة قول النبي ﷺ: «أومخرجيَّ هم؟»[1]، ولم يقل: أهم مخرجي؟ لأن المسؤول عنه الإخراج، ولو قال: أهم مخرجي؟ لكان السؤال: أهم الذين يخرجونني أم غيرهم؟

* وفي «صحيح» مسلم في حديث الرجل الذي جاء من البادية: ... وزعم رسولك أن علينا خمس صوات... ؛ قال: آلله أمرك بهٰذا؟ ولم يقل: أأمرك الله؟.

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب بدء الوحي، باب: كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، باب رقم (١)، حديث رقم (٣).

* ومن الأقوال البليغة قول الزباء[1]:

ما لِلْجِمالِ مَشْيِها[2] وَئِيدا　　أَجَنْدَلاً يَحْمِلْنَ أمْ حَديدا[3]

فالمسؤول عنه هو ما تحمله الجمال، ولهٰذا جاء المعادل الحديد.

* وفي المثل: أحشفاً وسوء كِيْلة؟

وإنما أطلت الحديث لكثرة ما يقع من أخطاء المتكلمين والمتأدبين في هٰذه الأحكام، ويمكنك أن تملأ الفراغ في الجمل التالية للتدريب:

١ ـ أسعيد نجح أم . . . . ؟

٢ ـ أنجح سعيد أم . . . . ؟

٣ ـ أفي الدار أبوك أم . . . . ؟

٤ ـ أأبوك في الدار أم . . . . ؟

٥ ـ أأكرمت أحمد أم . . . . ؟

٦ ـ أأحمد أكرمت أم . . . . ؟

٧ ـ ألرياضيات أحبّ إليك أم . . . . ؟

٨ ـ أتحب الرياضيات أم . . . . ؟

٩ ـ أصعبة هٰذه المسألة أم . . . . ؟

١٠ ـ أهٰذه المسألة صعبة أم . . . . ؟

---

(١) الزباء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع، الملكة المشهورة في العصر الجاهلي، صاحبة تدمر أو ملكة الشام والجزيرة، كانت غزيرة المعرفة، بديعة الجمال، قامت بقتل جذيمة الوضاح، فاحتال ابن أخت له حتى دخل قصرها، وهمَّ بقتلها، فامتصت سمًّا وقالت: بيدي لا بيد عمرو. توفيت سنة (٣٥٨ ق. هـ). [الأعلام: ٣/ ٤١].

(٢) مشيِها ـ بكسر الياء ـ، ويروى غير ذٰلك.

(٣) «معاهد التنصيص» (١/ ٣١٤)، «الكامل» (٢/ ٦٠٩).

- (هل) -

من أدوات الاستفهام (هل)، وهي للتصديق فحسب، فلا يُسأل فيها عن التصور، ولهٰذا يمتنع أن تأتي بعدها (أم) والمعادل؛ تقول: هل يستعد العرب لإنقاذ فلسطين؟ هل تعوض ما فاتك في هٰذا العام؟ هل يقاطع العرب أمريكا؟

أما أن المعادل لا يذكر بعدها؛ فلأن ذٰلك يؤدي إلى التناقض كما مر معك من قبل، فإن سؤالك بـ (هل) يقتضي جهلك بالحكم، وذكرك المعادل بعد (أم) يدل على معرفتك بالحكم، فيجتمع في الجملة الواحدة علمك بالحكم وجهلك به، وقد وضحت ذٰلك لك عند الحديث عن الهمزة.

أما مجيء (أم) بعدها في بعض ما سُمع عن العرب من كلام بليغ، كقول قتيلة بنت النضر:

هلْ يَسْمَعَنَّ النَّضْرُ إنْ نادَيْتُهُ   أمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيِّتٌ لا يَنْطِقُ

وكقول الشاعر مالك بن الريب[1]:

ألا ليتَ شِعْري هل تَغَيَّرَتِ الرَّحى   رَحى الحَرْبِ أمْ أضْحَتْ بفَلْجٍ كَما هِيا

فإن (أم) هنا هي المنقطعة.

وبيان ذٰلك ما قُرر في علم النحو أنَّ (أم) قد تكون متصلة، وهي حرف عطف - وسميت متصلة لاتصال ما بعدها بما قبلها - مثل: أراكباً جئت أم ماشياً؟ وقد تكون منقطعة - وسميت بذٰلك لانقطاع ما بعدها عما قبلها - فتكون بمعنى بل التي هي للإضراب والهمزة.

والإضراب: الانتقال من شيء إلى شيء هو أشد منه، وذٰلك كثير في التنزيل مع غير (هل)؛ قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أمْ عَلى قُلوبٍ أقْفالُها﴾ [محمد: ٢٤]، فليس المقصود هنا المعادلة بين عدم التدبر وبين الأقفال التي على القلوب، ولكنه

(١) «جمهرة أشعار العرب» (ص ٢٦٩).

انتقال من حالة إلى أشد منها وأدعى للتقريع، فبعد أن بيَّن عدم تدبرهم للقرآن، أضرب إلى حالة هي أكثر فظاعة وأشد سوءاً، وهي أن على قلوبهم أقفالاً محكمة تحول بينها وبين الخير، وهٰذه أشد لا شك من عدم التدبر؛ لأن عدم التدبر ربما يكون عن غفلة سرعان ما تذهب وتزول، فمعنى الآية الكريمة: أفلا يتدبَّرون القرآن، بل هناك ما هو أشد من ذٰلك.

إذا عرفت هٰذا، فإذا وردت (أم) في كلام بليغ بعد (هل)؛ فاعلم أنها المنقطعة، فقد أضربت قتيلة في البيت الأول بعدما تساءلت عن سماع النضر عند ندائها له، أضربت عن هٰذا إلى شيء أشد منه، وهو قولها: بل كيف يسمع ميت لا ينطق؟ ولو أنها أرادت (أم) المتصلة؛ لقالت: هل يسمعن أم لا يسمع؟

وكذٰلك الشاعر في البيت الثاني أضرب عن استفهامه عن تغير رحى الحرب إلى ما هو أشد، وهو أنها أضحت بكل ما لها من آثار سيئة وحمي وطيسها.

ومثال هٰذا: هل تستعد للمعركة الحاسمة أم تغرق في اللهو؟ ففي هٰذا المثال نجد أن (أم) التي ذُكرت بعد (هل) ليست هي المتصلة؛ لأن المعادل للاستعداد أو للمعركة هو عدم الاستعداد، ولكني أضرب عن عدم الاستعداد إلى ما هو شر منه، وهو الغرق في اللهو.

■ أحكام هل:

* الحكم الأول:

عرفت أن أول حكم من أحكام هل هو أنها لا تكون إلا للتصديق، ولهٰذا لا تذكر بعدها (أم) ولا المعادل؛ لأن ذٰلك يُفضي إلى التناقض، فإن ذكرت (أم) بعدها؛ فهي المنقطعة.

* الحكم الثاني: -

أما الحكم الثاني من أحكام (هل)؛ فهو أنها إذا دخلت على المضارع؛ فإنها

تخلصه للاستقبال، فهي كالسين و(سوف)، ألا ترى أنهما حينما تدخل
المضارع فإنما يكون للاستقبال ولا يكون للحال، وقد مرَّ معنا هٰذا من قبلُ عند
عن أدوات التأكيد.

فإذا دخلت (هل) على الفعل المضارع؛ فيجب أن يكون هٰذا الفعل للا
فإذا لم يكن الفعل للاستقبال، بل كان للحال، أو كان معناه ماضياً؛ فلا يجوز أن
عليه (هل)، فلا يجوز أن تقول لمن عرفته يعق والديه ويؤذي زملاءه ويغش في ام
لا يجوز أن تقول: هل تعق والديك؟ وهل تؤذي زملاءك؟ وهل تغش في امتحانك
هٰذه الأفعال ليست للمستقبل، وإنما وقعت في الماضي.

كما لا يجوز أن تقول لمن ينكر عليك حبك لوطنك، وشدتك على عدول
تنكر علي ذٰلك؟ كما لا يجوز أن تقول: هل تسيء إلى فلان وقد أحسن إليك
تتجاهل ما فعله الأعداء؟ هل تحرم ما أحل الله؟ لأن هٰذه الأفعال جميعاً
للمستقبل، وإنما تدل على الماضي والحال؛ لذٰلك يجب أن تُدخل الهمزة على
دون (هل): أتعق والديك؟ أتؤذي زملاءك؟ أتغش في امتحانك؟ وهٰكذا في
الأمثلة.

ولا تدخل (هل) على الفعل المضارع إلا إذا كان يدل على الاستقبال
تستعد للمعركة الفاصلة؟ هل تكمل دراستك؟ هل تفكر في دخول انتخابات ال
هل تنشىء أبناءك تنشئة تحول بينهم وبين الميوعة والإلحاد؟ وقال تعالى: ﴿هل أ
عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِن عَذابٍ أليمٍ﴾ [الصف: ١٠]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْ
والذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخْسَرينَ أعْمالاً﴾ [الكه
١٠٣]، فإن هٰذه الأفعال جميعاً تدل على المستقبل.

أما إذا دخلت على الفعل الماضي، أو على الجملة الاسمية؛ فلا تغير
شيئاً، أي: لا تجعلهما للاستقبال؛ كما تقول: هل سافر أخوك؟ هل أخوك مسافر

فالمضارع وحده هو الذي يكون للاستقبال إذا دخلت عليه (هل).

* **الحكم الثالث:**

الحكم الثالث من أحكام (هل) أنها لا تدخل على الشرط، فلا تقول: هل إن جئتك تكرمني؟ كما أنها لا تدخل على (إنَّ)، فلا تقول: هل إنك ناجح؟ ولا على المضارع المنفي، فلا تقول: هل لم يستيقظ النائمون؟ ولا حرف العطف؛ كما تقدم لك من قبل.

لكن يمكنك أن تدخل الهمزة على هٰذه جميعها، فتقول: أإن جئتك تكرمني؟ أإنك ناجح؟ ألم يستيقظ النائمون؟ قال تعالى: ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١].

* **الحكم الرابع:**

الحكم الرابع من أحكام (هل) أنها يقبح دخولها على جملة يشعر نظمها بمعرفة الحكم؛ فلا يحسن أن تقول مثلاً: هل فنون البلاغة أحببت؟ وهل خالداً أكرمت؛ لأن (هل) يستفهم بها عن معرفة الحكم، فإذا كان نظم الجملة يدل على أن الحكم غير مجهول؛ يقبح أن تأتي بـ(هل)؛ كما في الجملتين السابقتين؛ لأن قولك: فنون البلاغة أحببت. وخالداً أكرمت. لا يدل على حبك لفنون البلاغة وإكرامك خالداً فحسب، وإنما يدل على شيء آخر، وهو اختصاصك لهٰذه الفنون بالحب دون غيرها، واختصاصك خالداً بالإكرام، فإذا قلت: هل فنون البلاغة أحببت؟ فتركيب الجملة يوحي بأنك لا تجهل حبه لفنون البلاغة، و(هل) يستفهم بها مَن جهل هٰذا الحكم، فيحسن أن تقول إذن: هل أحببت علوم البلاغة؟ وهل أكرمت خالداً؟ أما إذا أردت إبقاء التركيب على ما هو عليه؛ فإنك تجيء بالهمزة: أفنون البلاغة أحببت؟

واعلم أنَّ (هل) يكثر أن يأتي بعدها الفعل؛ لذلك ذهب بعض النحويين إلى أن (هل) في أصلها بمعنى (قد)، وخرجوا عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِيْنٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكوراً﴾ [الإنسان: ١]؛ قالوا: معناه: قد أتى على الإنسان.

وتدل على الاستفهام إذا اقترنت بالهمزة، ومنه قول زيد الخير[1]:

سائِلْ فَوَارِسَ يَرْبوعٍ بشِدَّتِنا … أَهَلْ رَأَوْنا بسَفْحِ القاعِ ذي الأكَمِ[2]

ولكن الهمزة تُنوسيت فيما بعد.

والراجح عند النحويين أن الاسم الذي بعدها يُعرب فاعلاً إن جاء بعده فعل، مثل: هل أنتم تقاومون الاستعمار؟ هل أطفال الحجارة يلقنون اليهود درساً قاسياً؟ فالأرجح أن يعرب هٰذان الاسمان؛ (أنتم)، (أطفال) فاعلين لا مبتدئين، وهٰذا دليل على أن هل أكثر ما يليها الفعل، وذٰلك كثير في التنزيل؛ قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا هَلْ أدُلُّكُم على تِجارَةٍ تُنْجيكُم مِن عَذابٍ أليمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوي الأعْمَى والبَصيرُ أمْ هَلْ تَسْتَوي الظُّلُماتُ والنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخْسَرينَ أعْمالاً . الذينَ ضَلَّ سَعْيُهُم في الحَياةِ الدُّنيا وهُم يَحْسَبونَ أنَّهُم يُحْسِنونَ صُنْعاً﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وقد يكون الفعل الذي تدخل عليه ماضياً، قال سبحانه: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُم ما وَعَدَكُم رَبُّكُم حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وهَلْ أتاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إذ تَسَوَّروا المِحْرابَ﴾ [صٓ: ٢١]؛ إلا أنها تخلص المضارع للاستقبال، أما الماضي فتبقيه على ما هو عليه؛ كما عرفت من قبل.

وقد تدخل على الجملة الاسمية لغرض بلاغي ونكتة بيانية؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ أنْتُم مسْلِمونَ﴾ [هود: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبوسٍ لكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِن بأسِكُم فهَلْ أنْتُم شاكِرونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال في آيات تحريم الخمر: ﴿إنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أنْ يُوقِعَ بيْنَكُمُ العَداوَةَ والبَغْضاءَ في الخَمْرِ والمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكرِ اللهِ وعَنِ

---

(١) زيد بن مهلهل بن منهب بن عبد رضا، كنيته أبو مكنف، من أبطال الجاهلية، لُقّب زيد الخيل؛ لكثرة خيله، كان شاعراً محسناً، وخطيباً لسناً، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ سنة (٩ هـ)، فأسلم، وسمّاه الرسول ﷺ: زيد الخير. [الأعلام: ٣/ ١١].

(٢) «الخزانة» (١١/ ٢٦١)، «شرح شواهد المغني» (٦/ ٦٧).

الصّلاةِ فهَلْ أنْتُم مُنْتَهونَ﴾ [المائدة: ٩١].

فلماذا يا تُرى دخلت (هل) على الجملة الاسمية مع أنها تكاد تكون مختصة بالأفعال؟!

لا بد من هدف بياني، فلِمَ جاء في التنزيل: ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهونَ﴾، ولم يقل: هل أنتم تنتهون؟ أو هل تنتهون؟

ولبيان ذٰلك نقول لك مذكرين بما مر معك من قبل: عرفت فيما مضى أن الجملة الاسمية تدل على الثبات والدوام، غير مقيدة بزمن، والفعلية ليست كذٰلك، وعرفت أيضاً أن (هل) إذا دخلت على الفعل المضارع محّضته للاستقبال، أي: صار للاستقبال فحسب.

إذا عرفت هاتين القضيتين؛ سهُــل عليك الآن أن تدرك سبب مجيء الجملة الاسمية دون الفعلية، فلم يجيء في التنزيل: فهل تشكرون؟ أو: فهل أنتم تشكرون؟ إذ مجيء النظم يدل على أن طلب الشكر إنما هو في زمن الاستقبال؛ لما عرفت من أن (هل) إذا دخلت على المضارع جعلته للاستقبال فحسب.

أما دخولها على الجملة الاسمية؛ فإنه يدل على طلب الشكر والثبات عليه دون التعرض لزمن.

ولا ريب أن طلب الشكر غير مقيد بزمن أبلغ وأحسن وأقوى من طلبه في المستقبل وحده، ذٰلكم هو سر النظم القرآني.

بقي سؤال آخر: لم جاءت (هل) دون الهمزة، فلم يقل: أفأنتم مسلمون؟ أفأنتم شاكِرون؟ والسر في هٰذا ما عرفته من قبل، وهو أن (هل) تكاد تختص بالأفعال، ولا تدخل على الجملة الاسمية إلا لنكتة، أما الهمزة فدخولها على الفعلية والاسمية سواء، وبدهي أن ما يثير التساؤل في النفس أبلغ مما هو عادي، فدخول الهمزة على الجملة الاسمية ليس فيه أي نكتة بيانية، فهو لا يثير في النفس تساؤلاً؛ لأن شأن الهمزة أن تتساوى فيها الجملة الاسمية والفعلية.

أما مجيء (هل) فهو الذي يثير التساؤل؛ لأنه قد عدل بها عن الأصل، والأصل فيها الدخول على الجملة الفعلية.

ومن أجل أن تتذوق أسرار الإعجاز وبلاغة التنزيل؛ أذكرك بهٰذه الآيات الكريمة:

١ - الآيات التي معنا: ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهونَ﴾ [المائدة: ٩١]، ﴿فَهَلْ أَنْتُم شاكِرونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمونَ﴾ [هود: ١٤].

٢ - قوله سبحانه: ﴿أفأنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ [الزخرف: ٤٠].

٣ - قوله سبحانه: ﴿أفأنْتُم لهُ مُنْكِرونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

فانظر - أرشدك الله - إلى هاتين الآيتين؛ كيف استعملت فيهما الهمزة دون (هل)، وسائل نفسك عن السبب وأنت تتدبر الآيات، وستجد الفرق الشاسع.

فالآيات التي استُعملت فيها (هل) دلَّت على طلب الشكر في الحال والاستقبال؛ دلَّت عليه غير مقيد بزمن، أما ما جاءت فيه الهمزة؛ فإنما هو إنكار لما كان في الماضي.

فالآية الأولى بيان للرسول عليه وآله الصلاة والسلام، وقد كان حريصاً على هداية القوم، يشق على نفسه، فبيَّن الله له بأن ذٰلك ليس من شأنك، ولا اختصاصك، وأن هؤلاء القوم أظلمت نفوسهم، فأنت لا تسمع الصم، ولا تهدي العُمْي.

وفي الآية الثانية يوبِّخ أولٰئك الذين كرَّمهم الله بهٰذا القرآن، وفيه ذكرهم؛ يوبَّخون على إنكارهم له.

أرأيت إلى كتاب الله كيف يجيء كل حرف فيه مستوياً مستقرًّا؟!

■ تنبيه:

بقي من مباحث (هل) أنهم قسموها إلى بسيطة ومركبة، وقالوا: إن البسيطة ما يستفهم بها عن وجود الشيء؛ كقولك: هل الخِلُّ الوفيُّ موجود؟ والمركبة ما يُستفهم بها عن ثبوت شيء لشيء؛ كقولك: هل المعدن يتمدد بالحرارة؟

وهٰذا البحث ليس فيه جدوى بلاغية؛ لذٰلك رأينا ألا نتوسع في شرحه.

ـ بقية أدوات الاستفهام ـ

■ (ما):

وأكثر ما يُستفهم بها عن غير العقلاء، وقد تكون لتعريف الشيء، وبيان معناه من حيثُ اللغةُ؛ كما يقال لك: ما الغَضَنْفَر؟ فتقول: الأسد. وما البرّ؟ فتقول: القمح.

وقد يسأل بها عن حقيقة الشيء؛ كما يقال لك: ما البلاغة؟ فتقول: وصول المعنى إلى القلب بأحسن صورة من اللفظ.

وقد كثر استعمال ما الاستفهامية في كتاب الله تعالى، وبخاصة في التهويل والتعظيم؛ قال تعالى: ﴿الحاقَّةُ . ما الحاقَّةُ . وما أدراكَ ما الحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]، وقال سبحانه: ﴿القارِعَةُ . ما القارِعَةُ . وما أدْراكَ ما القارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿وما أدْراكَ ما يَوْمُ الدينِ . ثمَّ ما أدراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٨]، فقد تُذكر (ما) في الآية الواحدة مرتين كما رأيت، وكما هو الحال في قوله تعالى: ﴿وما أدراكَ ما هِيَهْ . نارٌ حامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠ ـ ١١].

أما مجيء (ما) في قوله تعالى: ﴿قالَ فِرْعَوْنُ وما رَبُّ العالَمينَ . قالَ رَبُّ السَّماواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُم مُوقنينَ . قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ألا تَسْتَمِعونَ . قالَ رَبُّكُمْ ورَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلينَ . قالَ إنَّ رَسولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إليكُمْ لَمَجْنونٌ . قالَ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُم تَعْقِلونَ . قالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إلٰهاً غيري لأجْعَلَنَّكَ مِن المَسْجونينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٩]؛ فقد قال الزمخشري:

«وهٰذا السؤال لا يخلو؛ إما أن يريد به: أي شيء هو من الأشياء التي شوهِدت وعُرفت أجناسها؟ فأجاب بما يُستَدَلُّ به عليه من أفعال الخاصة؛ ليعرِّفه أنه ليس بشيء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنه شيء مخالف لجميع الأشياء: ﴿ليسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وإما أن يُريد به: أي شيء هو على الإطلاق؛ تفتيشاً عن حقيقته الخاصة ما هي؟ فأجابه بأن الذي إليه سبيل، وهو الكافي في معرفته؛ معرفة ثباته بصفاته؛ استدلالاً بأفعاله الخاصة على ذٰلك، وأما التفتيش عن الحقيقة الخاصة

التي هي فوق فطر العقول؛ فتفتيش عمَّا لا سبيل إليه، والسائل عنه متعنِّت غير طالب للحق، والذي يليق بحال فرعون، ويدل عليه الكلام، أن يكون سؤاله هٰذا إنكاراً لأن يكون للعالمين رب سواه؛ لادِّعائه الإلٰهية، فلما أجاب بما أجاب؛ عجب قومه من جوابه، حيث نسب الربوبية إلى غيره، فلما أثنى بتقرير قوله؛ جننه قومه، وطنزوا به ـ أي سخروا منه ـ فلما ثلث بتقرير آخر؛ احتدَّ واحتدم، وقال: ﴿لئن اتَّخذت إلٰهاً غيري﴾، وهٰذا يدل على صحة الوجه الأخير»[1].

■ (من):

وأكثر ما تُستعمل للعقلاء؛ تقول: من في البيت؟ فيقول لك: فلان. من حرر فلسطين من الصليبيين؟ فتقول: صلاح الدين. من كان دليل أبرهة إلى مكة؟ فتقول: أبو رغال.

وذهب السكاكي إلى أنه يسأل بها عن الجنس كذٰلك، وأنكر عليه صاحب «التلخيص» هٰذا، واستدل السكاكي بقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾ [طه: ٤٩] أي: ملك أم بشر؟ فقال عليه السلام: ﴿رَبُّنا الذي أعْطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، أي: هو الذي خَلَقَ الأجناس كلها.

ويستأنس لقول السكاكي بما جاء في الشعر:

أَتَـوْا نارِي فَقُـلْتُ مَنُـون أنـتُـم ... فَقَـالُـوا الجِنُّ قلت عمـوا ظلاماً[2]

فقد سئلوا بـ(من)، وأجابوا بالجنس.

■ (أي):

ويسأل بها عما يميز أحد المتشاركين في أمر من الأمور، قال تعالى: ﴿فأيُّ القَريقينِ أحَقُّ بالأمْنِ إنْ كُنْتُم تَعْلَمونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

---

(١) «تفسير الكشاف»، للزمخشري، (٣ / ٣٠٧).

(٢) حاشية «الكشاف» (١ / ٢). قيل: لسمير بن الحارث الضبي. وقيل: لتابط شرًا. وقيل: لشمّر الغساني.

وقد كثر في السنة أسئلة الصحابة رضوان الله عليهم: أي الإيمان أفضل؟ أي الناس أحق بصحبتي؟ أي الأعمال خير؟ وفي قول أبي فراس: أيهم فهم الكثر؟

فأنت ترى أن ما دخلت عليه (أي) إنما هو مشترك مع غيره، فكان الهدف من السؤال تمييزه.

■ (كم):

ويستفهم بها عن العدد. قال في «المفتاح»[1]:

«فإذا قلت: كم درهماً لك؟ وكم رجلاً رأيت؟ فكأنك قلت: أعشرون، أم ثلاثون، أم كذا، أم كذا؟ وتقول: كم دراهمك؟ وكم مالك؟ أي: كم دانقاً، وكم ديناراً؟ وكم ثوبك؟ أي: كم شبراً، وكم ذراعاً؟ وكم زيد ماكث؟ أي: كم يوماً، أو كم شهراً؟ وكم رأيتك؟ أي: كم مرة؟ وكم سرت؟ أي: كم فرسخاً، أو كم يوماً؟ قال الفرزدق:

كَمْ عَمَّــةٌ لكَ يا جَريرُ وخَــالَــةٌ ... فَدْعــاءُ قدْ حَلَبَـتْ عليَّ عِشــاري[2]

فيمن روى بنصب المميز».

■ (كيف):

ويستفهم بها عن الحال، كقولك: كيف زيد؟ فالجواب: صحيح أو سقيم.

■ (أين):

ويستفهم بها عن المكان؛ كقولك: أين زيد؟ فالجواب: في الدار أو في السوق.

■ (متى):

ويستفهم بها عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً؛ كقولك: متى جئت؟ والجواب:

---

(١) «المفتاح»، للسكاكي، (ص ١٣٥).

(٢) «الديوان»، (ص ٨٠). الفدعاء: التي اعوجت مفاصلها.

سَحَراً. وتقول: متى تأتي؟ والجواب: بعد شهر.

■ **(أيّان):**

ويستفهم بهـا عن المستقبل؛ كقولك: أيان يثمر هٰذا الغرس؟ والجواب: بعد سنة، وتستعمل في مواضع التفخيم؛ كقوله تعالى: ﴿يسأَلُ أيَّانَ يَوْمُ القِيامَةِ﴾ [القيامة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يسألونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَّانَ مُرْساها﴾ [النازعات: ٤٢].

■ **(أنّى):**

وتكون:

١ ـ بمعنى (كيف)؛ كقوله تعالى: ﴿فأْتوا حَرْثَكُم أنَّى شِئْتُم﴾ [البقرة: ٢٢٣]، أي: كيف شئتم.

٢ ـ بمعنى (من أين)؛ كقوله تعالى: ﴿أنَّى لَكِ هٰذا﴾ [آل عمران: ٣٧].

٣ ـ بمعنى (متى)؛ كقولك: أنّى يحضر الغائبون؟

*** المطلب الثاني**

الأغراض التي تخرج إليها أدوات الاستفهام

الأدوات السابقة وضعت للاستفهام ـ كما رأيت ـ ولكنها قد تخرج عن هٰذا الوضع إلى أغراض يمكن أن تُفهم من السياق؛ كما مر في الأمثلة السابقة، وأهم هٰذه الأغراض:

■ **أولاً: التقرير:**

*** مفهومه:**

ومعنـاه أن تقرر المخاطب بشيء ثبت عنده، لكنك تُخرج هٰذا التقرير بصورة الاستفهام، ذٰلك لأنه أوقع في النفس، وأدل على الإلزام... انظر إلى قوله سبحانه:

﴿أَلَمْ يأْتِكُمْ نَذيرٌ﴾ [الملك: ٨]، فإن الغرض منه إقرارهم بمجيء النذير؛ لكنه أخرجه بصورة الاستفهام، وذلك لما فيه من حجة دامغة.

* أقسامه:

١ ـ بمعنى التحقيق والتثبيت:

ومنه قولك لصاحبك: ألم أفتح لك كثيراً من أبواب الخير؟ أي: قد فعلت ذلك.

ومنه قولك لابنك وقد نهيته عن فعل ما، ولكنه فعله: أفعلت هذا؟

أنت لا تستفهم أفعل أم لم يفعل؟ لذلك أنت لا تريد جواباً، بل تريد أن تخبره بأنه فعل، وأن تنتزع اعترافه بذلك.

وهذا كثير في التنزيل؛ يقول العبد الصالح لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبراً﴾ [الكهف: ٧٥]؛ فهو تحقيق وتثبيت لما قاله لموسى من قبل، وقد حدثنا القرآن الكريم أن موسى لما طلب من العبد الصالح أن يتبعه، بيّن له أنه لا يستطيع: ﴿فَوَجَدا عبداً مِن عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِن عِنْدِنا وعَلَّمْناهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً . قالَ لهُ موسى هَلْ أتَّبِعُكَ على أنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً . قالَ إنَّكَ لنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبراً . وكَيْفَ تَصْبِرُ على ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٦٨]. قول العبد الصالح إذن: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لكَ إنَّكَ لنْ تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبراً﴾ [الكهف: ٧٥]؛ معناه: إنني قد قلت ذلك، فهو تثبيت للقول، وتحقيق له.

ومنه قوله سبحانه في شأن أخوة يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا استيأَسوا مِنْهُ خَلَصوا نَجِيًّا . قالَ كَبيرُهُم أَلَمْ تَعْلَموا أنَّ أباكُمْ قد أخَذَ عليكُمْ مَوْثِقاً مِن اللهِ﴾ [يوسف: ٨٠]، وهم لا ينكرون ذلك، فهو يريد تثبيت أخذ الميثاق، وتحقيقه، والمعنى: قد علمتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله.

ومن ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فينا وَليداً ولَبِثْتَ فينا مِن عُمُرِكَ سنينَ﴾ [الشعراء: ١٨]، فإن موسى لا ينكر ذلك، وإنما يريد فرعون تثبيت هذا

الأمر، أي: قد ربَّيناك فينا وليداً.

وهٰذا القسم من الاستفهام التقريري هو إنشاء من حيث اللفظ، خبر من حيث المعنى؛ إنشاء من حيث اللفظ؛ لأن صيغة الاستفهام من أقسام الإنشاء ـ كما عرفت ـ، خبر من حيث المعنى؛ لأن معناه ـ كما رأيت ـ تثبيت الخبر وتحقيقه، فمعنى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾؛ قد ربيناك، ومعنى: ﴿أَلَمْ تَعْلَموا﴾ [يوسف: ٨٠]؛ قد علمتم، ومعنى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لك صدرَكَ﴾ [الانشراح: ١]؛ قد شرحناه.

وهٰذه الجمل: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾، ﴿أَلَمْ تَعْلَموا﴾، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لكَ صَدْرَكَ﴾؛ لفظها إنشاء، ومعانيها أخبار؛ وهٰذا القسم كذٰلك لا يطلب المتكلم له جواباً؛ لأنه إنما يريد تحقيق الخبر فقط، فهو لا يحتاج إلى جواب من المخاطب.

٢ ـ طلب إقرار المخاطب بما يريد المتكلم:

وهٰذا كثير في التنزيل كذٰلك؛ قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بربِّكُم﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عبدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ بقادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يٓس: ٨١]، ومنه قولك لأحد طلابك: ألست بأستاذك؟

ويختلف هٰذا القسم عن سابقه بما يلي:

أ ـ هو إنشاء لفظاً ومعنى: فقولك: ألست بأستاذك؟ هٰذه إنشاء من حيث اللفظ؛ لأنها على صورة الاستفهام، والاستفهام من أقسام الإنشاء، وهي إنشاء كذٰلك من حيث المعنى؛ فإن المقصود من العبارة حمل تلميذك على أن يقرَّ بذٰلك، وهٰكذا الآيات الكريمة.

ب ـ إن هٰذا القسم يحتاج إلى جواب: ألا ترى أنه قد جاء في كثير من الآيات الكريمة جواب على هٰذا الاستفهام، مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْس الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ بِقادِرٍ على أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وهُو الخَلّاقُ العَليمُ﴾ [٨١]، ويُندب لمن قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقادِرٍ

على أنْ يُحْيِيَ المَوْتى﴾ [القيامة: ٤٠]، أو ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكِمينَ﴾ [التين: ٨] ـ وهما آخر آيات السورتين ـ أن يقول: بلى، وأنا على ذٰلك من الشاهدين[1].

وهٰكذا حين تقول لتلميذك: ألست بأستاذك؟ فإنك تنتظر منه جواباً.

ولا تظن أن الاستفهام التقريري لا يكون إلا بالهمزة وحدها؛ مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الانشراح: ١]، أو بها وبـ (ليس)؛ مثل: ﴿أَلَيْسَ اللهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، فقد يكون بالهمزة مع (لم) ـ كما عرفت من قبل ـ وقد يكون بالهمزة من غير نفي؛ كقوله تعالى: ﴿أأَنْتَ فعَلْتَ هٰذا بآلِهَتِنا يا إبراهيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فإن قوم إبراهيم عليه السلام ليس غرضهم الإستفهام الحقيقي، وهو ما يجهله المتكلم؛ فإنهم لم يكونوا لِيجهلوا ذٰلك، بل كانوا يعلمون أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام فعل ذٰلك، بدليل قوله سبحانه في ما تقدم من آيات: ﴿وتاللهِ لأكيدَنَّ أصْنامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وقوله: ﴿سَمِعْنا فَتىً يَذْكُرُهُم يُقالُ لهُ إبْراهيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]؛ كل الذي أرادوه أن يقرِّروا إبراهيم بما كان منه؛ ليكون ذٰلك أدعى لتقريعه وإقامة الحجة عليه.

وقد يكون الاستفهام التقريري بغير الهمزة كذٰلك، وذٰلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتى على الإنسانِ حينٌ مِن الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شيئاً مَذْكوراً﴾ [الإنسان: ١]، فهٰذا استفهام تقريري، معناه التحقيق؛ لذٰلك ذهب كثير من العلماء إلى أن معنى (هل) في الآية الكريمة (قد)، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر.

ومنه قول عمر أبي ريشة:

أُمَّتي هَلْ لَكِ بينَ الأمَمِ مِنْبَرٌ للسَّيْفِ أوْ لِلْقَلَمِ

والغرض البياني من الاستفهام التقريري إلزام المخاطب بالحجة، وانتزاع الاعتراف منه بما يريده المتكلم، وفي ذٰلك غرض نفسي، وذٰلك لأن البيان والبلاغة لهما صلة وثيقة بقضايا النفس، وبعلم النفس كذٰلك.

---

(١) جواب هذا الاستفهام ـ كما رأيت ـ حرف (بلى)، ولا يجوز أن يكون (نعم).

■ ثانياً: الإنكار:

*** مفهومه:**

من أهم الأغراض التي تخرج إليها أدوات الاستفهام عن وضعها الحقيقي، ومن أكثرها شيوعاً: الإنكار، ويسمى استفهاماً إنكاريًّا.

والفرق بينه وبين الاستفهام التقريري أنك في الاستفهام التقريري تريد تثبيت الأمر وتحقيقه؛ كما في النوع الأول، أو تنتزع إقرار المخاطب واعترافه؛ كما في القسم الثاني، أما في الاستفهام الإنكاري؛ فأنت لا تقرر المخاطب في شيء، وإنما تنكر عليه، وتستهجن منه ما حدث في الماضي، أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل.

*** أقسامه:**

والاستفهام الإنكاري قسمان كذٰلك: تكذيبي وتوبيخي؛ لأنك حينما تنكر من شخص أمراً ما؛ فإما أن يكون هٰذا الأمر قد ادَّعاه لنفسه، وليس ذٰلك صحيحاً، فأنت تكذِّبه فيما ادَّعى، وإما أن تنكر عليه قولاً قاله، أو عملاً عمله، ولم يكن ينبغي له ذٰلك، فأنت توبخُه على ما صدر منه، وكل من التكذيبي والتوبيخي؛ إما أن يكون على أمر قد مضى، أو على أمر في الحال، فالأقسام أربعة: تكذيب لأمر مضى، وتكذيب لأمر في الحال أو في الاستقبال، وكذٰلك التوبيخي.

١ ـ الاستفهام التكذيبي:

فمثال التكذيب في الماضي أن يدَّعي عليك أحد أنك غبت عن عملك، أو هادنت عدوًّا من أعداء الأمة، أو أخذت رشوة على واجب قمت به، فتقول له: أرأيتني ارتشيت؟ أقلت: إنني هادنت أعدائي؟ أزعمت بأنني غبت عن عملي؟ فأنت هنا لست مستفهماً عن شيء لم تعمله، وإنما جئت بأداة الاستفهام، فأخرجتها عن وضعها الحقيقي، فأنت تنكر على صاحبك وتكذبه فيما صدر منه في الماضي.

ومن هٰذا القبيل قوله سبحانه: ﴿أفأصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بالبَنينَ واتَّخَذَ مِن المَلائِكَةِ إناثاً

إنَّكُم لَتقـولـونَ قَولاً عَظيمـاً﴾ [الإسـراء: ٤٠]، فإنـه ينكـر عليهم هٰذه الافتـراءات والادعاءات، وهي أن الله أصفاهم بالبنين، واتَّخذ من الملائكة بناتٍ له، فهو يكذبهم بهٰذا القول الذي صدر منهم، ومثله قوله سبحانه: ﴿أصْطَفى البَناتِ على البَنينَ . ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمونَ . أفَلا تَذَكَّرونَ﴾ [الصافات: ١٥٣ ـ ١٥٥]، فهو إنكار عليهم، وتكذيب لهم فيما ادَّعوه.

ومثال التكذيب في غير الماضي قولك لمن تعرف أنه غارق في اللهو، ممعنٌ في مودة أعداء الله: أتزعم أنك ستحرر الأقصى؟ فأنت تنكر عليه، وترد عليه ادِّعاءه. وقولك لمن تعـرف جشعـه: أهو يبني مدرسة للأيتام؟ وقولك لمن تعرف كسله وإهماله في الدراسة: أتدَّعي أنك ستفوز بالجائزة؟ فأنت تكذبه في دعواه، وتنكر أن يكون له ذٰلك.

التكـذيب في المـاضي إذن معنـاه أن هٰذا الشيء لم يحصـل، ولم يحدث، والتكذيب في غير الماضي معناه أن هٰذا الشيء لن يحصل، ولن يحدث، ولن يكون.

ومنه قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿قالَ يا قَوْمِ أرَأيْتُم إنْ كُنْتُ على بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وآتاني رحمَةً مِن عندِهِ فعُمِّيتْ عليكُم أنُلْزِمُكُموها وأنْتُم لها كارِهونَ﴾ [هود: ٢٨]، أي: ليس صحيحاً ما تدَّعون من أننا سنلزمكم ونرغمكم على الإيمان بالرسالة مع كراهيتكم لها، فهو إنكار أن يحدث هٰذا الإلزام ويقع.

وعلى هٰذا القسم يُحمل قول امرىء القيس:

أيَقْتُلُني والمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي ... ومَسْنونَةٌ زُرْقٌ كأنْيابِ أغْوالِ[1]

يقول امرؤ القيس ـ وهو المعروف بمجونه ولهوه ـ عن زوج معشوقته: أيزعم أنه سيقتلني، إنه لن يستطيع ذٰلك، وكيف يقتلني وهٰذا السيف المشرفي إلى جانبي، وهٰذه الحربة التي تشبه أسنانها أنياب الأغوال، فهو ينكر على صاحبه كذبه.

---

(١) «ديوان امرىء القيس» طبعة الدار (ص ٣٢)، «الحزانة» (١/ ٢٦).

وكذلك قول عمارة[1] في خالد بن يزيد الشيباني[2] ـ وهو أحد الولاة في العصر العباسي المشتهرين بالبطولة والكرم ـ:

أأتْــرُكُ أنْ قَلَّتْ دَرَاهِــمُ خالِــدٍ زِيــارَتَــهُ إنِّــي إذاً لَلَئِــيمُ[3]

فهو ينكر أن يترك زيارة خالد؛ لأن دراهمه قد قلَّت، ويقول: إنه لن يكون منه ذٰلك أبداً، ومَن ادَّعى عليه ذٰلك فهو كاذب.

ومن هٰذا قول ابن أبي عيينة ـ وهو من الشعراء المطبوعين؛ كما يقول الجاحظ ـ:

فَدَعِ الــوَعيدَ فَمــا وَعيدُكَ ضائِــري أَطَنــينُ أَجْنِحَــةِ الــذُّبــابِ يَضيرُ[4]

فهو ينكر على الذي توعَّده، ويكذبه فيما ادَّعاه، ويمثل لدعواه في ذٰلك الوعيد بمن ادَّعى أن طنين أجنحة الذباب يضير، فكما أن هٰذه الدعوى كاذبة، كذٰلك دعوى الذي توعده.

فأنت ترى أن الاستفهام الإنكاري التكذيبي إنما يكون على شيء لم يحدث في الماضي، ولن يحدث في المستقبل كذٰلك.

٢ ـ الاستفهام التوبيخي:

أما التوبيخي ـ وهو القسم الثاني من الاستفهام الإنكاري ـ؛ فمثاله في الماضي أن تقول لمن عرفته جادًّا مجتهداً، ولكنه رسب في امتحانه الأخير: أرسبت في امتحانك؟! فأنت توبخه، وكأنك تقول له: ما كان ينبغي منك هٰذا. وكذٰلك قولك لمن

---

(١) عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير التميمي، ولد سنة (١٨٢ هـ)، شاعر، مقدم، فصيح، من أهل اليمامة، كان يسكن بادية البصرة، ويزور الخلفاء من بني العباس، وهو من أحفاد جرير الشاعر، توفي (٢٣٩ هـ). [الأعلام: ٥/ ٣٧].

(٢) خالد بن يزيد بن زائدة الشيباني، أحد الأمراء الولاة في العصر العباسي، وهو ممدوح أبي تمام، ولاه المأمون مصر سنة (٢٠٦ هـ)، توفي سنة (٢٣٠ هـ).

(٣) «الكامل»، للمبرد، (١/ ٤٠٦).

(٤) «الكامل»، للمبرد، (١/ ٥٤٩)، «الدلائل» (ص ١٢١).

نُشْيء على الفضيلة، ولكنه عمل عملاً غير لائق: أأنت يصدر منك هٰذا الفعل؟ فأنت توبخه، وتقول له: ما كان ينبغي أن يكون منك هٰذا، غيرك يمكن أن يصدر منه.

ومثال التوبيخ في المستقبل أن تقول لمن سمعت أنه سيذهب ليفاوض الأعداء: أتذهب لمفاوضة يهود؟ وكذٰلك قولك لمن عرفت أنه سيترك الدراسة: أتترك دراستك؟ ولمن سمعت أنه سيرحل عن وطنه: أتترك وطنك؟ فأنت توبخه على هٰذا، وتقول له: لا ينبغي أن يكون ذٰلك منك.

الاستفهام التوبيخي في الماضي إذن معناه أنه ما كان ينبغي لك هٰذا، وما كان يليق أن يصدر منك، والتوبيخي في غير الماضي معناه لا يصح أن يكون ذٰلك منك ويحدث.

ومن هنا تدرك أن الاستفهام التوبيخي قد يكون على شيء حدث بالفعل، أو يمكن أن يحدث، وهٰذا هو الفرق بينه وبين التكذيبي، فقد عرفت أن التكذيبي هو ما لم يحدث في الماضي، ولن يحدث في المستقبل.

ومثال الاستفهام التوبيخي في كتاب الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرونَ باللهِ وكُنْتُم أمواتاً فأحياكُم﴾ [البقرة: ٢٨]، فهو يوبخهم على أن يقع منهم ذٰلك؛ كأنه يقول: لا ينبغي أن يكون منكم الكفر، وهٰذه نعم الله عليكم كما تعرفون

وقوله سبحانه: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إنْ تُطيعوا فريقاً مِن الذينَ أُوتُوا الكِتابَ يَرُدُّونَكُم بعدَ إيمانِكُم كافِرينَ . وكَيْفَ تَكْفُرونَ وأنْتُم تُتْلى عليكُمْ آياتُ اللهِ وفيكُم رَسولُهُ ومَن يَعْتَصِمْ باللهِ فقَدْ هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١]، والآيات الكريمة نزلت حينما رأى بعض اليهود الأنصار مجتمعين، وقد أكرمهم الله بالإيمان والإسلام؛ فغاظه اجتماعهم، وأزعجته ألفتهم، فبعث إليهم من يذكرهم بما كان بينهم في الجاهلية، فاختلف القوم ـ وكانوا قريبي عهد بجاهلية ـ وحملوا السلاح، ووقف بعضهم بوجه بعض، فجاءهم النبي ﷺ، وقال: أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم، فرموا السلاح، وأجهشوا في البكاء، وعرفوا كيد عدوهم، فنزلت الآيات، فقوله تعالى:

﴿وكيف تَكْفُرونَ وأَنْتم تُتْلى عليكُم آياتُ اللهِ. . .﴾؛ توبيخ على ما كان منهم؛ يقول لهم: ما كان ينبغي أن يكون منكم ذٰلك.

ومن هنا تدرك الفرق بين هٰذه الآية وبين الآية السابقة، فالإنكار في الآية السابقة إنكار للوقوع، وفي هٰذه الآية إنكار للواقع؛ لأنه قد وقع منهم ما يؤدي بهم إلى الكفر، وهو قتل بعضهم بعضاً.

*** الغرض البياني من الاستفهام الإنكاري؛ الفرق بينه وبين النفي الصريح:**

بعد أن عرفت الاستفهام الإنكاري بأقسامه الأربعة، وأدركت أن معناه إنكار وقوع الشيء ماضياً أو مستقبلاً على سبيل التوبيخ أو التكذيب، فهو إنشاء لفظاً، خبر معنىً، بعد ذٰلك كله لعلك تتساءل: هل هناك غرض بياني يؤديه الاستفهام الإنكاري؟ فإذا كان معناه النفي، أفلا تكفي صيغة النفي دون أن نضعها بقالب الاستفهام، فنقول فيما مضى من أمثلة: أنا لا أرتشي. ولم أرغب عن عملي. ولا أهادن عدوي. ونقول في الآيات الكريمة: الله لا يصطفي البنات على البنين ولا يتخذ من الملائكة إناثاً. ويقول امرؤ القيس: لا يستطيع قتلي. ويقول آخر: لا أترك زيارة خالد إن قلت دراهمه؟

فلماذا عُدِل عن هٰذه الصيغ إلى صيغة الاستفهام الإنكاري؟

وبعبارة أخرى: كان يمكننا أن ننكر كل هٰذه القضايا دون أن نلبسها ثوب الاستفهام، فما هو الغرض الذي نتوخاه من أن نجعل ذٰلك كله في صورة الاستفهام؟

لبيان ذٰلك:

إذا قلت لصاحبك: أأنت كتبت هٰذه المقالة؟ أتزعم أنك ستبني مسجداً؟ فأنت هنا أنكرت بطريق الاستفهام، وإذا قلت له: أنت لم تكتب هٰذه المقالة. وأنت لا تبني مسجداً. فإنك أوردت كلامك هنا بطريقة النفي الصريح: هل ترى أن المعنى واحد في الموضوعين؟

الحق أن بين المعنيين بوناً شاسعاً، وفرقاً بعيداً، فحينما ألقيت كلامك بصيغة

الاستفهام، فكأنك تنتظر من صاحبك جواباً، فهو سيفكر، ويراجع نفسه، وسيجد نفسه بعد هٰذه المراجعة، وبعد هٰذا التفكير في ضيق وحرج، لايحير معهما جواباً، فإذا ركب متن الغواية، وسوَّلت له نفسه أن يجادل في الباطل، وأن يقول: نعم، أنا كتبت، وسأبني. فأنت حينذاك تقول له: اكتب مقالة مثلها. وابدأ ببناء المسجد. فإنك ستزيده إحراجاً على إحراج. هٰذه واحدة.

وفائدة أخرى للاستفهام الإنكاري، وميزة على النفي الصريح، هي أن المتكلم عندما يلقي كلامه بصيغة الاستفهام، فإن ذٰلك يدل على الثقة التي تملأ نفسه؛ لأنه يلقي كلامه وهو يدرك أنه لو كان في كلامه أدنى ريب؛ لرده عليه قائله جواباً على استفهامه.

ندرك مما سبق أن أسلوب الاستفهام الإنكاري يختلف اختلافاً كبيراً عن أسلوب النفي الصريح؛ لذٰلك وجدناه يكثر في كتاب الله تعالى.

وخلاصة القول أن في أسلوب الاستفهام الإنكاري أغراضاً بيانية للمتكلم والمخاطب معاً، فبقدر ما يدل على ثقة من المتكلم بنفسه فيما قاله، يدل على إحراج المخاطب؛ لأنك بأسلوب الاستفهام تترقب منه جواباً، وليس كذٰلك أسلوب النفي الصريح، إذ باستطاعته أن يفر من الجواب ويصمت، لذٰلك كثر في كتاب الله تعالى.

بقيت قضية تتعلق بالاستفهام الإنكاري، وهي قريبة مما قررناه لك من قبل عند الحديث عن الاستفهام، وهو أن الهمزة ينبغي أن يليها المسؤول عنه، وكذٰلك الاستفهام الإنكاري؛ ينبغي أن يلي الهمزة الأمر الذي يراد إنكاره، فإذا أردت إنكار الفاعل قدمته: أهو يتهددني؟ أأنت قلت هٰذا الشعر؟

وإنما يُنكر على الفاعل:

١ ـ لعجزه عن الفعل؛ كما مر في المثالين السابقين.

٢ ـ لكونه أعلى همة، وأسمى خلقاً: أهو يرتشي؟ أأنت تجالس السفهاء؟

وإذا أردنا إنكار المفعول قدم؛ مثل قوله سبحانه: ﴿أَبَشَراً مِنَّا واحداً نَتَّبِعُهُ﴾

[القمر: ٢٤]، وكقولك: أإياي تتوعَّد؟

وسيأتي لهذا مزيد بحث إن شاء الله عند موضوع التقديم والتأخير.

■ ثالثاً: الأغراض الأخرى:

ومن الأغراض التي يمكن أن تخرج لها أدوات الاستفهام غير التقرير والإنكـ

١ ـ **التعجب**: أرفعت هذه الصخرة؟ أفتح مسلمة ذلك الحصن؟ ومنه قو ثواب[1]:

أنشا يُخَرِّقُ أثوابي يُؤَدِّبُني ... أبَعْدَ شَيْبي عندي يَبْتَغي الأدَ

وقول الشاعر:

ألإسرائيلَ تَعْلو رايةٌ ... في حِمَى المَهْدِ وظِلِّ الحَرَمِ

٢ ـ **الوعيد والتخويف**: ومنه قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين﴾ [المرسلا ١١]، ومنه قولك لولدك: ألم تر ما فعلته أمس بأخيك؟ ولتلاميذك: ألم تسمعوا ب امتحان الفصل الأول؟

٣- **الأمر**: ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَلْ من مُدَّكِر﴾ [القمر ٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿ أنْتُم مُنْتَهونَ﴾ [المائدة: ٩١]، وقولك لزميلك: هل أنت متَّعظ؟

٤ ـ **النهي**: ومنه قوله تعالى: ﴿أتَخْشَوْنَهُم فالله أحَقُّ أن تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة: ١٣

٥ ـ **التَّهَكُّم**: ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا يا شُعَيْبُ اصَلاتُكَ تامُرُكَ انْ نَتْرُكَ ما آباؤنا أوْ أنْ نَفْعَلَ في أموالِنا ما نَشاءُ إنَّك لأنتَ الحَليمُ الرَّشيدُ﴾ [هود: ٨٧].

٦ ـ **الاستبعاد**: ومنه قوله تعالى: ﴿أنَّى يَكونُ لهُ ولَدٌ ولَمْ تَكُنْ لهُ صاحِ

---

(١) أم ثواب الهزانية من عنزة بن أسد بن ربيع بن نزار تعني ابنها.

(٢) هكذا هو في «الحماسة» (٢/ ٧٥٦)، وفي «الكامل» للمبرد (١/ ٣١٣):

أنشا يخرق أثوابي.ويضربني ... أبعد ستين عندي تبتغي الا

[الأنعام: ١٠١]، وقوله سبحانه: ﴿أنّى لهُمُ الذِّكرى وقد جاءَهُم رَسولٌ مُبينٌ﴾ [الدخان: ١٣]، ومنه قولك: كيف نحرر الأقصى وأمتنا مزقٌ متفرقة؟

٧ ـ **التهويل**: وهو كثير في كتاب الله: ﴿القارِعَةُ . ما القارِعَةُ﴾ [١ ـ ٢]، ﴿الحاقَّةُ . ما الحاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٢]، ومنه قولك: فلسطين وما فلسطين؟

٨ ـ **التحقير**: ومنه قوله تعالى: ﴿أهٰذا الذي بَعَثَ اللهُ رَسولاً﴾ [الفرقان: ٤١]، وهو قريب من التهكم: أهٰذا الذي زعم أنه سيرجع المغتصب والسليب من الأرض؟

٩ ـ **التنبيه على ضلال المخاطب**: كقوله تعالى: ﴿فأيْنَ تَذْهَبونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، ومنه قولك للسادرين في الغي: أين أنتم؟

١٠ ـ **التمني**: كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنا مِن شُفَعاءَ فَيَشْفَعوا لنا﴾ [الأعراف: ٥٣]

١١ ـ **الاستبطاء**: ومنه قوله تعالى: ﴿أمْ حَسِبْتُم أنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ ولَمّا يأتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ البأساءُ والضَّرّاءُ وزُلْزِلوا حتّى يَقولَ الرَّسولُ والذينَ آمَنوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ألا إنَّ نصْرَ اللهِ قريبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ومنه قول الضجر: متى يطلع الصبح؟ ويقول المتعب المنهك: متى تنتهي السنة الدراسية؟

١٢ ـ **التعظيم**: كقول أبي نواس:

إذا لَمْ تَزُرْ أرْضَ الخَصيبِ رِكابُنا ... فأيُّ فَتىً بعدَ الخَصيبِ تَزورُ[1]

ومنه قولك: أيُّ رسول هٰذا الذي منَّ الله علينا به؟ وأيُّ دين هٰذا الذي أكرمنا الله به؟ وأيُّ تراث ذٰلك الذي أضعناه؟

١٣ ـ **النفي**: كقول الشاعر:

هلِ الدَّهْرُ إلا ساعةٌ ثم تَنْقَضي ... بمـا كانَ فيها مِن بلاءٍ ومِن خَفْضِ

ومنه قولك للمتكبر: هل أنت إلا نطفة مذرة، وجيفة قذرة؟

---

(١) «الديوان» (ص ٤٨١)، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي.

١٤ ـ التشويق: ومنه قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا هَلْ أدُلُّكم على تِجارَةٍ تُنجيكُم مِن عذابٍ أليمٍ﴾ [الصف: ١٠]، ومنه قولك لصاحبك وله عندك ما يسره: هل أبشرك بما يفرح به قلبك؟

١٥ ـ التكثير: كقول أبي العلاء المعري:

صاحِ هٰذي قُبورُنا تَمْلأ الرُّحْـ ـبَ فأيْنَ القُبورُ مِن عهْدِ عادِ[1]

١٦ ـ التسوية: كقوله تعالى: ﴿سَواءٌ علينا أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِن الواعِظينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

وأنبهك أخيراً إلى أمرين اثنين:

أ ـ إن هناك أغراضاً غير هٰذه يمكن أن تُفهم من السياق.

ب ـ قد يكون هناك تداخل بين هٰذه الأغراض، فقد يكون التقرير مع التوبيخ، وقد يكون التقرير مع التعجب، وهٰذا كثير في كتاب الله تعالى، مثل: ﴿ألَمْ تَرَ إلى الذينَ خَرَجوا مِن ديارِهِم وهمْ ألوفٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

هٰذه خلاصة لمبحث الاستفهام، وهو مبحث مهم، ولذٰلك كثر في آيات الذكر الحكيم، فاحرص عليه، وحاول أن تفيد منه في حديثك وكتابتك، والله يتولَّانا جميعاً بالرعاية والتوفيق.

□□□

(١) «معاهد التنصيص» (١/ ١٣٥).

خلاصة في مباحث الإنشاء

هٰذه مباحث الإنشاء، وهي ذات أثر ملحوظ في البلاغة العربية، فهي - إن استفيد منها - تُثري أسلوب الكاتب والمتكلم بكل ما يثير النفوس، ويرهف الإحساس، ويوقظ المشاعر، ويؤثر في القلوب.

وقد يوضع كل من الخبر والإنشاء مكان صاحبه، فلقد عرفت في مباحث الاستفهام أنَّ منه ما يكون إنشاء في اللفظ خبراً في المعنى؛ مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١]؛ أي: شرحناه، وإنما ألبسناه ثوب الإنشاء لأغراض بيانية من شأنها أن تجعل الكلام أكثر تأثيراً في النفوس، وقد يكون الأمر على العكس من ذٰلك، فنلبس الإنشاء ثوب الخبر، أي: كما استعملنا الإنشاء في موضع الخبر، نستعمل الخبر في موضع الإنشاء، وذٰلك لأغراض بيانية؛ منها:

١ - **التفاؤل**: مثل: أعاذك الله من الشبهة. وعصمك من الحيرة. وأذاقك حلاوة التقوى.

فهٰذه جمل خبرية، لكن المقصود بها الدعاء، وهو إنشاء لا ريب.

٢ - **لإظهار الحرص في وقوعه**: لأن الطالب إذا عظمت رغبته في شيء؛ كثر تصوره إياه، فربما يخيل إليه حاضراً، فيورده بلفظ الماضي، وذٰلك كقولك لمن يرجو بلوغ أمنية: بلَّغك الله ما تريد. قضى الله دينك، وجعل لك من ضيقك مخرجاً.

٣ - **للاحتراز عن صورة الأمر**: وذٰلك من باب التأدب في الحديث، واللطف في القول؛ كقولك لمن تريد منه أمراً: ينظر الأستاذ في قضيتي. فهو أكثر لطفاً من أن يقول له: انظر في قضيتي.

٤ - **لحمل مخاطبك على مطلوب منه**: فبدلاً من أن تقول له: ائتني غداً. واقرأ موضوع كذا. تقول: تقرأ موضوع كذا. وتأتيني غداً.

والإنشاء يشترك مع الخبر في كثير من مباحثه؛ كالتقديم والتأخير، والتأكيد

وعدمه، إلا أن تأكيد الخبر ـ كما عرفت من قبل ـ يكون لإزالة الشك، أو الإنكار، ولكن تأكيد الإنشاء لا يمكن أن يكون لهٰذا السبب، فالإنشاء ـ كما عرفت ـ لا يوصف قائله بالصدق والكذب، ومن أجل ذٰلك ظن بعض الكاتبين المحدثين أن الإنشاء ليس فيه تأكيد، والحق أن الإنشاء يؤكد كما يؤكد الخبر، لكن تأكيد الإنشاء إنما يكون لاستبعاد المطلوب، وعدم تأكيده؛ لكونه غير مستبعد.

فإذا كنت لا تستبعد إقبال من تخاطب؛ قلت له: أقبل. أما إذا كنت تستبعد ذٰلك، فإنك تؤكد له هٰذا الطلب؛ إما بتكرار الفعل، فتقول: أقبل أقبل. أو بنون التوكيد، فتقول: أقبلنّ. ومنه قول الشاعر:

هَلَّا تَمُنِّنْ بوعْدٍ غيْرَ مُخْلِفَةٍ ... كَما عَهِدْتُكِ في أيَّامِ ذِي سَلَمِ

فإنه أكّد لما استبعد من مخاطبته وفاءها بالوعد.

ونقرأ في التنزيل قوله تعالى في سورة البقرة في سياق الحديث عن تحويل القبلة ـ وقد أثار الحاقدون من الوثنيين واليهود شبهات على هٰذا التحول ـ: ﴿الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فلا تَكونَنَّ مِن المُمْتَرينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]. ولكننا نقرأ في سياق الحديث عن عيسى عليه السلام: ﴿الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فلا تَكُنْ مِن المُمْتَرينَ﴾ [آل عمران: ٦٠]، فإننا نرى أنه أكّد في الآية الأولى؛ لأن هناك أسباباً تستدعي هٰذا التأكيد، فلا بدَّ من إزالتها، حتى لا يبقى منها في النفوس شيء، ولم يؤكد في الثانية؛ لعدم الحاجة إلى هٰذا التأكيد، إذ ليست هناك أسباب داعية له، ومثل هٰذه الاعتبارات تقدمت في مباحث الخبر.

والحق أن مباحث الإنشاء حريَّةٌ بكل اهتمام وعناية كذٰلك، لكثرة ما فيها من أغراض جديرة بأن يلاحظها البليغ، فلقد رأيت كيف تخرج أقسام الإنشاء؛ من أمر، ونهي، وتمنٍّ، واستفهام، ونداء، إلى معاني كثيرة، واعتبارات متعددة، وهٰذه المعاني والأغراض الإضافية أو المجازية متّسقة متناسبة مع الأصل الذي خرجت عنه، وتفرعت منه؛ فالأغراض التي خرج عنها الاستفهام مثلاً من إنكار، وتقرير، ونفي، وغير ذٰلك مما مر معك؛ إن تأملتها فستجدها منسجمة مع الأصل الذي وُضِعت له أدوات الاستفهام؛

لأن المستفهم عن شيء؛ إما أن يقرره، أو يوبِّخ عليه، أو ينفيه، أو يأمر به، أو يستبعده.

وهٰكذا إن نظرت في كل قسم من أقسام الإنشاء، وفي المعاني الإضافية التي خرج إليها؛ فإنك واجد هٰذا التناسق، وتلك الوشائج والصلات بين الأصل والفرع، وفي ذٰلك خير دليل على سمو هٰذه اللغة من جهة، وثروتها من جهة ثانية، وألمعية ذويها وأهلها من جهة ثالثة، وفقنا الله لخدمتها، وتذوق حلاوتها، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

□□□

الفصل الرابع

التقديم والتأخير

بعد أن حدثناك عن الجملة الخبرية والإنشائية، يحسن بنا أن نحدثك كما يحسن بك أن تسمع، أقول: يحسن بنا أن نحدثك عن مباحث جليلة تتعلق بالنظم، وأكثر هٰذه المباحث تتعلق بالجملة الواحدة، وقد يتعلق بعضها بجملتين اثنتين؛ كالفصل والوصل، وأول ما نبدؤك به الحديث التقديم والتأخير.

حدثناك من قبل عن النظم، وقلنا: إنه ترتيب الألفاظ في النطق تبعاً لترتيب المعاني في النفس، ومن هنا فقد يكون الكلام واحداً في مادته وحروفه، ولكن قد تختلف صيغته وترتيب كلماته من متكلم لآخر، بل عند المتكلم الواحد، إذا اختلف المعنى في نفسه.

قد تريد أن تنفي عن نفسك الغش في الامتحان، ولكن دون أن تثبته لأحد، وفي حالة أخرى تريد أن تثبته لغيرك، وتنفيه عن نفسك. هاتان حالتان من حالات النفس، تشتركان في نفي الغش عن نفسك، وتنفرد إحداهما في إثباته لغيرك، والتعبير عن الحالتين لا يجوز أن يكون على نمط واحد:

ففي الحالة الأولى تقول: أنا ما غششت في الامتحان. إذا وجدت أمراً للتأكيد، وما غششت في الامتحان. إذا لم يكن للتأكيد داع، فأنت هنا تنفي الغش عن نفسك دون أن تعرض لأحد آخر.

أما في الحالة الثانية، فإنك تقول: ما أنا غششت في الامتحان. والفرق بين

العبارتين ـ مع اتحاد حروفهما وكلماتهما ـ أنك قدمت فيهما بعض الكلمات على بعض.

وعلى هٰذا المنوال تدرك مطمئناً أن قولنا: بالقلم الجاف اكتب. يختلف عن قولنا: اكتب بالقلم الجاف. وأن قولنا: أتصادق خالداً؟ يختلف عن قولنا: أخالداً تصادق؟ وأن قولنا: الحمد لله. يأتي في سياق لا يصلح أن تقول فيه: لله الحمد.

ولهٰذا جاء في التنزيل: ﴿الحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمينَ﴾ [الفاتحة: ١]، كما جاء فيه كذٰلك: ﴿فللهِ الحَمْدُ﴾ [الجاثية: ٣٦]، وجاء في التنزيل: ﴿والأمْرُ يومَئِذٍ للهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، وجاء فيه كذٰلك: ﴿للهِ الأمرُ﴾ [الروم: ٤].

وإذا أردت أن تعرف خطر التقديم والتأخير؛ فاستمع إلى قوله سبحانه: ﴿إذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّيَ الذي يُحيي ويُميتُ قالَ أنا أحيي وأميتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ولم يقل: يحيي ويميت ربي. والفرق كبير، فقوله: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾؛ يفيد أنه لا محيي ولا مميت إلا الله، ولو قيل: يحيي ويميت ربي. لكان المعنى: إن الله قادر على الإحياء والإماتة، ولا مانع أن يقدر عليهما غيره. ولهٰذا قال ذٰلكم المجادل: ﴿أنا أحيي وأميت﴾. أي: أنا لا غيري؛ لأن النزاع ليس على قدرة الله على الإحياء والإماتة، بل في تفرد الله تبارك وتعالى بهما.

واستمع إلى هاتين الآيتين: ﴿أأنزِلَ عليهِ الذِّكْرُ مِن بينِنا بلْ هُم في شكٍّ مِن ذكري بلْ لمَّا يَذوقوا عَذابِ﴾ [صٓ: ٨]، وقوله سبحانه: ﴿أأُلْقِيَ الذكرُ عليه من بيننا بل هُوَ كذَّابٌ أشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، فانظر كيف قدم الذكر في الآية الثانية، وأخر في الأولى، وكيف جاء الإضراب في كل منهما، وفي الآية أكثر من وجه من وجوه الإعجاز، تجد تفصيله إن شاء الله في كتابنا: «إعجاز القرآن المجيد؛ عرض ونقد وتجديد».

وقد يقتضي المعنى أن تقول: أعدى أعداء المسلمين أمريكا، وأكثر الناس تهريجاً الشيوعيون[1]. وفي سياق آخر: أمريكا أعدى أعداء المسلمين، والشيوعيون

(١) وذلك إذا كنت تتحدث عن الأعداء، وتوازن بينهم، وعن المهرجين كذٰلك.

أكثر الناس تهريجاً[1].

ولعلك تتساءل لماذا؟ وهٰذا ما سأحدثك عنه.

وإنما جئت لك بهٰذه النماذج؛ لتدرك خطر التقديم والتأخير، وعظم شأن النظم الذي هو عمود إعجاز القرآن، ولتدرك ما للعرب من تفنن في نطقهم، ولتتذوق إعجاز القرآن الذي تراه يقدم الكلمة تارة، ويؤخرها أخرى.

ولأهمية التقديم والتأخير؛ يقول شيخ البلاغة عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ[2]:

«هو باب كثير الفوائد، جمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، ولا يزال يَفْتَرُّ[3] لك عن بديعة، ويفضي[4] بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان».

وتقديم الشيء يكون على قسمين: تقديم على نية التأخير، وتقديم ليس كذلك:

أما الأول: فكتقديم المفعول على الفعل، والخبر على المبتدإ؛ فإذا قلت: في الكتاب فوائد. فإن قولك: في الكتاب؛ خبر مقدم، وإذا قلت: درهماً أنفقت. فإن (درهماً)؛ مفعول به، فهما ـ وإن تقدما في الكلام ـ لكن رتبتهما التأخير.

أما القسم الثاني: وهو تقديم ما ليس على نية التأخير، فكقولك: أحمد أخوك. فـ (أحمد) مبتدأ، و (أخوك) خبر، ويجوز أن تقول: أخوك أحمد. فيكون (أخوك) مبتدأ، و (أحمد) خبر.

---

(١) وذلك إذا كان الحديث عن أمريكا وعن الشيوعيين، ففي العبارتين الأوليين؛ كان الحديث عن أي الناس أكثر عداوة وأكثرهم تهريجاً، وفي العبارتين الأخريين؛ كان الحديث عن أمريكا والشيوعيين، وما يتصف به كل منهما.

(٢) «دلائل الإعجاز» عبد القاهر الجرجاني (ص ٨٣).

(٣) يفتر: يكشف.

(٤) يفضي بك: يوصلك.

وتقول: زيد المنطلق، والمنطلق زيد؛ فتجعل كلًّا منهما مبتدأ تارة، وخبراً أخرى.

وتقـول: النحوَ فهمت. البلاغةَ أحببت؛ فتجعل كلًّا من النحو والبلاغة مفعولاً متقدماً؛ كما تقول: النحوُ فهمته. والبلاغةُ فهمتها؛ فتجعل كلًّا منهما مبتدأ مرفوعاً.

ولكل من هٰذه الاعتبارات معنى يختلف عن الآخر، فقولك: زيد أخوك. أو: زيد المنطلق. يختلف عن قولك: أخوك زيد. أو: المنطلق زيد. فأنت أولاً عرفت زيداً، ولكنك لم تكن تعرف بأنه المنطلق، أو تعرف أنه أخو فلان، فقلت: زيد أخوك. أو زيد المنطلق. ولكنك ثانياً كنت تعرف أن لصاحبك أخاً، وكنت تعرف أن هناك منطلقاً، ولكنك لم تكن تعرف أنه زيد، فقلت: المنطلق زيد. وأخوك زيد.

ومبـاحث البـلاغيين تشمـل كلًّا من النـوعين، أعني: التقـديم الذي على نية التأخير، وما ليس كذٰلك.

ولا بد أن أقـرر أمراً مهمًّا، وهو أن أمر التقديم والتأخير إنما قرر قواعده وبيَّنها أفضـل بيان الإمام عبدالقاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ وكان الناس من قبل عبدالقاهر يتحدثون عن التقديم والتأخير حديثاً عامًّا، فيقولون: إنما يقدَّم الشيء للاهتمام به، فإذا كانت هناك مسألة أعيا الطلاب حلُّها، أو لصّ أعيا الناس معرفتُه؛ فإنهم يقولون: حلّ المسألةَ خالدٌ. وأمسكَ اللصَّ سعيدٌ. أما إذا كان الذي حل المسألة، أو أمسك اللص؛ لا ينتظر منه ذٰلك، فإنهم يغيرون النظم، فيقولون: حلَّت فاطمةُ المسألةَ. وأمسكَ سعيدٌ اللصَّ.

قال سيبويه ـ وهو يذكر الفاعل والمفعول ـ:

«وكأنهم إنما يقدِّمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم».

وبعض الناس هوَّنوا أمر التقديم، وصغروا شأنه، ورأوا النظر فيه والاشتغال به ضرباً من التكلف، وذٰلك لظنهم أنه يكفي أن يقال في كل شيء قُدِّم: إنه مقدم للعناية

به، ولأن ذكره أهم؛ من غير أن يبيِّنوا من أين جاءت تلك العناية، ولمَ كان ذكره أهم، ويقولون في كل شيء أُخّر: إنما هو للتشويق.

وغنيٌّ عن القـول أن هٰذا الرأي ليس رشيداً ولا سديداً، بل هو مجانب للحق والصواب كذٰلك، فنحن حينما نقدِّم بعض أجزاء الجملة تارة، ونؤخرها تارة، فإنَّا لا نفعل ذٰلك رغبة في التغيير أو تفنناً في القول فحسب، إنما ذٰلك ناشىء عن اختلاف المعنى الذي يريده المتكلم، فالكلام البليغ لا يجوز أن يكون التقديم فيه لغرض لفظي فقط، بل يكون مع هٰذا الغرض اللفظي هدف يتعلق بالمعنى، فلسنا مع ابن الأثير ومَن نهج نهجه من أن بعض الكلمات قدِّمت مراعاة للفاصلة؛ كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿فأمَّا اليَتِيمَ فلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣١]، فإن تقدم المفعول في الآيات الكريمة لا من أجل رعاية الفواصل فحسب، بل إن هناك غايات تتصل بالمعنى.

وقد مرَّ معك في باب الاستفهام طرف من هٰذا، فارجع إليه إن شئت، ولنشرع معتمدين على الله بذكر مسائل هٰذا الباب، مقتصرين على أخطرها شأناً، وأكثرها فائدة.

ولن نتكلف كما فعل كثير من المتأخرين، فكثير من أغراض التقديم والتأخير لا تحتاج إلى بيان؛ لأنها تدرك بالذوق لأول وهلة، وذٰلك كتعجيل المسرة، أو تعجيل المسـاءة، والتلذذ، والتبرك، فمثل هٰذه الأغراض ترتكز في الطبع، حتى عند أولٰئك الـذين لم يدرسوا قواعد البلاغة، ولم يعرفوا عنها شيئاً، تقول مثلاً: محمد نجح في الامتحان. سعاد نالت الجائزة. الجاسوس حُكم عليه بالإعدام. ليلى أقبلت. سعدت بغرة وجهك الأيام. نجح أخي...

أما ما نفصله لك من مسائل التقديم والتأخير؛ فهو ما يحتاج إلى عناية ودراسة، وسنحصر الحديث في مباحث ثلاثة:

الأول: تقديم المسند إليه. الثاني: تقديم المسند.

الثالث: تقديم متعلقات الفعل.

□ المبحث الأول:

تقديم المسند إليه

يقدم المسند إليه لاعتبارات وأغراض أهمها:

■ أولاً: التشويق:

وذٰلك بأن يكون في المسند إليه غرابة من شأنها أن تشوق المخاطب إلى معرفة المسند، ذٰلك لأن المسند والمسند إليه متلازمان، والمثال الذي يمثّلون به قول أبي العلاء:

والـذي حارتِ الـبـرِيَّةُ فيهِ   حيوانٌ مُسْـتَـحْـدَثُ مِن جَمـادِ[1]

فالمسند إليه الاسم الموصول، وهو (الذي)، والجملة التي بعده: «حارت البرية فيه»؛ صلة له، والموصول وصلته متلازمان؛ كأنهما شيء واحد، والمخاطب هنا تتشوّف نفسه، ويتشوّق فؤاده؛ لمعرفة الخبر ـ أعني المسند ـ ذٰلك لأن في المسند إليه غرابة، ما الذي حارت البريّة فيه يا ترى؟ فيجيء الخبر متأخراً: «حيوانٌ مستحدث من جماد».

والذي يعنيه أبو العلاء البعث الجسماني؛ يوم يخرج الناس من أجداثهم، فالناس قد تحيَّروا في البعث الذي هو إعادة الناس بعد أن كانوا تراباً، ودليل هٰذا ما جاء في البيت الذي قبل هٰذا البيت:

بانَ أمْـرُ الإلٰـهِ واخْـتَـلَفَ الـنّـا   سُ فَداعٍ إلـى ضَلالٍ وهَـادي[2]

فلا تلتفت إلى ما قاله بعض الكاتبين المحدثين من أن أبا العلاء يعني ببيته هٰذا الإنسان، إذ كيف يحار الإنسان في أمر الإنسان.

هٰذا هو المثال الذي كادت الكتب قديمها وحديثها تقتصر عليه، ويمكنك أن

---

(١) «المعاهد» (١/ ١٣٥).

(٢) «المعاهد» (١/ ١٣٦).

تقيس عليه كل ما يشبهه، فإذا قلت: الداء العضال الذي أعيا كل نطاسي. فهٰذا كلام فيه غرابة، والنفوس مستشرفة لتعرف ما هو؟ أهو الصداع؟ أم السرطان؟ فإذا قلت: التفرق. فأنت قدمت المسند إليه لتشوق السامع إلى ما بعده.

وكذٰلك إذا قلت: أعدى أعدائك. فإنك تجعل السامع توّاقاً لمعرفته، فإذا قلت: نفسك التي بين جنبيك. فإنك تذهب صداه، وتبل ظمأه.

وكذٰلك إذا قرأت قول الله تعالى: ﴿إن أكرَمَكُمْ عندَ اللهِ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فالمخاطبون يستعجلون معرفة الخبر، ولا سيما أنهم كانوا يحسبون أن الكرم هو البذل، ولكنه هنا شيء آخر، إنه التقوى.

وهٰكذا يمكنك بعد هٰذه الأمثلة أن تعيَ هٰذه القاعدة، وهي أنك تقدم المسند إليه إذا كان فيه غرابة تجعل المخاطب تستشرف نفسه معرفة المسند الذي لا تتم الفائدة إلا به.

■ ثانياً: إفادة التخصيص:

وإنما يكون ذٰلك إذا توفر في المسند إليه شرطان:

أ ـ أن يكون الخبر ـ أعني المسند ـ فعلاً.

ب ـ أن يقع المسند إليه بعد النفي.

وهنا صور ثلاث:

* **الأولى**: هٰذه، وهي أن يكون المسند إليه بعد النفي، وأن يكون المسند فعلاً: ما أنا فتحت الباب.

* **الثانية**: أن يتأخر النفي عن المسند إليه، وأن يكون المسند فعلاً: أنا ما فتحت الباب.

* **الثالثة**: أن لا يكون المسند إليه منفياً، ويكون الخبر فعلاً: أنا فتحت الباب.

* **الصورة الأولى:**

لتوضيح هٰذه الصورة إليك هٰذه الأمثلة:

ما أنا غششت في الامتحان. ما أنا فرطت في وطني. ما المسلم يضيع وقته.

أنت ترى هٰذه الأمثلة اجتمع لها هٰذان الشرطان؛ فالمسند إليه وقع بعد النفي، وجاء الخبر فعلاً.

ومعنى إفادة التخصيص أن المسند إليه ليس هو الذي وقع منه هٰذا الفعل، ولكن هٰذا الفعل وقع من غيره، فقولك: ما أنا غششت في الامتحان. أردت منه أمرين اثنين:

أولاً: نفي الغش عن نفسك.

ثانياً: إثباته لغيرك.

وكذٰلك قولك: ما أنا فرطت في وطني. لا تقوله إلا إذا أردت نفي التفريط عنك، وإثباته لغيرك.

وقولك: ما المسلم يضيع وقته. لا يقال إلا إذا أردت أن تثبت أن هناك من الناس من يضيع وقته.

وهٰكذا ندرك أننا لا نستعمل هٰذا الأسلوب، ولا نركب الجملة هٰذا التركيب؛ إلا إذا أردنا هٰذين الأمرين معاً، أعني نفي الفعل عن أنفسنا، وإثباته لغيرنا، فلا يجوز أن تقول: ما أنا غششت في الامتحان. وأنت لا تريد إلا نفي الغش عن نفسك دون أن تثبته لأحد.

ألا ترى إلى قول المتنبي:

ومــا أنــا أسْــقَــمْــتُ جِسْــمـي بِهِ   ولا أنــا أضْــرَمْــتُ في الـقَلْبِ نارا[1]

(١) «الديوان» (٢/ ١٩٧).

يعتذر مما ألم به من الهم الذي أسقم جسمه، وأوقد في قلبه ناراً بلهيبه، وكان سبب انقطاعه عن الشعر.

إنه لا يريد أن يُثبت سقماً في جسمه، وإضرام نار في قلبه، ولكنه يريد أن ينفي عن نفسه أن يكون سبباً في هٰذا كله، والبيت من قصيدة أرسلها إلى سيف الدولة يعتذر إليه عن تأخره عنه، وقد استبطأ سيف الدولة مدحه له؛ يقول في مطلع القصيدة:

أرى ذٰلك القُرْبَ صار ازْوِرارا ... وصارَ طَويلُ السَّلامِ اخْتِصارا

تركْتَني اليومَ في خَجْلَةٍ ... أموتُ مِراراً وأحْيا مِرارا[1]

ومما سبق تدرك أنه لا يجوز أن تقول: ما أنا غششت في الامتحان ولا غيري. لأن في هٰذا الكلام تناقضاً ظاهراً، إذ قولك: ما أنا غششت في الامتحان. فيه إثبات الغش لغيرك، وقولك: ولا غيري. فيه نفي للغش عنه، فتكون قد أثبت شيئاً ونفيته في جملة واحدة. وكذٰلك لا تقول: ما أنا فتحت الباب ولا غيري؛ لأن قولك ما أنا فتحت الباب دالٌّ على أن غيرك فتحه، فكيف تقول: ولا غيري؟

فإذا أردت نفي الشيء عن نفسك فقط، ولا تريد أن تثبته لأحد غيرك، فيجب أن تغير هٰذه الصورة من النظم، فتقول: أنا ما غششت في الامتحان. ـ وهٰذه الصورة الثانية التي سنتحدث عنها بعد قليل ـ فإن هٰذا التركيب يمكن[2] أن يكون معناه نفي الغش عن نفسك؛ دون إثباته لأحد آخر.

والخلاصة: أنه إذا كان المسند إليه منفيًّا، وكان المسند فعلاً، فإن تقديم المسند إليه يفيد التخصيص قطعاً.

وهنا دقيقة بيانية لا بد أن أنبهك لها، فلقد عرفت أن تقديم المسند إليه يفيد التخصيص في شرطين اثنين:

---

(١) «الديوان» (١/ ١٩٦).

يقول: أنا في خجلة من الناس لإعراضك عني، كلما ساورتني ذكراها صرت كالميت، وإذا زالت حييت، فأموت في اليوم مرات كثيرة، وأحيا مرات كثيرة.

(٢) وإنما قلنا يمكن؛ لأنه قد يفيد التخصيص؛ إذا كانت هناك قرائن، وكان السياق يساعد على ذلك.

١ ـ أن يقع بعد نفي.

٢ ـ أن يكون المسند فعلاً.

والشرط الأول مجمع عليه، أما الثاني ـ وهو أن يكون الخبر فعلاً ـ فهٰذا ما ذهب إليه الشيخ عبدالقاهر رحمه الله، لكن الزمخشري ـ رحمه الله ـ وتبعه كثير من العلماء، يتوسعون في هٰذا الشرط، فهم يعطون هٰذا الحكم للفعل وما في معناه؛ كاسم الفاعل، واسم المفعول، فإذا كان المسند إليه مسبوقاً بنفي، وكان الخبر فعلاً أو ما في معناه؛ أفاد التخصيص، ويطبق الزمخشري هٰذه القاعدة على آي من الكتاب العزيز، فعند قول الله تبارك وتعالى: ﴿قالوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كثيراً ممَّا تَقولُ وإنَّا لَنراكَ فينا ضَعيفاً ولولا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وما أنتَ علينا بعَزيزٍ﴾ [هود: ٩١]؛ يبين أن المسند إليه هنا يفيد التخصيص، إذ ليس غرض قومه أن ينفوا العزة عنه فحسب، بل إن لهم غرضاً آخر، وهو أن يثبتوها لرهطه وقومه، ولو قالوا: ما عززت علينا. لذهبت هٰذه الفائدة.

ويستدل الزمخشري على ما ذهب إليه بما جاء في الآية التي تلي هٰذه الآية: ﴿قالَ يا قَوْمِي أرَهْطِي أعَزُّ عليكُمْ مِن اللهِ﴾ [هود: ٩٢]، ولو أن المسند إليه لا يفيد التخصيص ما صحت العبارة، فيُفْهم من قولهم إذن: إنك لست العزيز، إنما هم قومك.

وعلى هٰذا يمكنك أن تطبق هٰذه القاعدة إذا كان الخبر شبيهاً بالفعل في قوله سبحانه عن الكافرين: ﴿يُريدونَ أنْ يَخْرُجوا مِن النَّارِ وما هُمْ بِخارِجينَ منها﴾ [المائدة: ٣٧]، فليس الغرض منه نفي خروجهم فحسب، بل إثبات قضية أخرى، وهي أن غيرهم يخرجون من النار.

كذٰلك قوله سبحانه: ﴿وما أنْتَ عليهِمْ بِوَكيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿لَسْتَ عليهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وما أنا عليكُمْ بِحَفيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]؛ حكاية عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ كلها تفيد التخصيص كذٰلك، فليس الغرض من هٰذه الآيات النفي وحده، بل نفي وإثبات، فقوله: ﴿وما أنْتَ عليهِمْ بِوَكيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقوله: ﴿لستَ عليهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]؛ يفهم منه نفي هٰذا عن

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وإثباته لله تبارك وتعالى، وكذٰلك: ﴿وما أنا عليكُمْ بِحَفيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقُل هٰذا في مثل قوله سبحانه: ﴿وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿وما أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبورِ﴾ [فاطر: ٢٢][1].

* الصورة الثانية:

أن يكون النفي متأخراً عن المسند إليه، وإذا كان كذٰلك؛ كان الغرض منه تقوية الحكم، وقد يفيد التخصيص بقرائن.

ونعني بتقوية الحكم تأكيده والتنبيه على صدقه وأحقيته؛ تقول إذا أردت التأكيد: أنا لا أضيع وقتي. أنا لا أضعف عن الحق. المسلم لا يساوم على دينه. المستغرق في شهوته لا يعوَّل عليه في خدمة وطنه.

ففي هٰذه الأمثلة جميعها وما يشابهها أنت لا تقصد تخصيصاً، وربما لا تقصد إثبات هٰذا الحكم لغيرك، ولكنك تقصد تقوية هٰذا الحكم وتأكيده؛ فقولك: أنا لا أضيع وقتي. أبلغ وأكثر تأكيداً من قولك: لا أضيع وقتي. وكذٰلك قولك: أنا لا أضعف عن الحق. أبلغ وأقوى في تأكيد الحكم من قولك: لا أضعف عن الحق. لأنك ذكرتَ الاسم مرتين؛ مرة ظاهراً في أول الجملة، وهو قولك: أنا. ومرة ضميراً مستتراً تقديره أنا؛ لأن الفعل في الجملة يحتاج إلى فاعل، وهٰذا الفاعل يعود على المسند إليه.

وقد جاء هٰذا كثيراً في التنزيل؛ قال تعالى: ﴿والذينَ هُمْ بِرَبِّهِم لا يُشْرِكونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩]، فهو أبلغ من قوله: والذين لا يشركون بربهم. وقال تعالى: ﴿وهُمْ لا يَشْعُرونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وهٰذا النوع قد يفيد التخصيص إذا دلت القرائن على ذٰلك، وإذا فُهم ذٰلك من

---

(١) راجع «الكشاف» الجزء الثالث، و«حاشية الدسوقي على شروح التلخيص»، و«حاشية الشيخ زادة على البيضاوي».

السياق، فإذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿إنَّ الله لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ﴾ [آل عمران: ٥]؛ أدركنا أن المقصود هنا ليس تقوية الحكم فحسب - مع أنها مستفادة من النظم - بل تفيد الآية الكريمة كذلك التخصيص؛ لأن غير الله يخفى عليه ما في السماوات والأرض، والله وحده هو الذي لا يخفى عليه شيء.

* **الصورة الثالثة:**

وهي أن يكون المسند إليه مثبتاً لا منفياً، وذلك كقوله تعالى: ﴿ويقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فالمسند إليه (هم)؛ جاء مثبتاً لا منفياً، وهذا لا يفيد التخصيص عند السكاكي، ويرى السعد أنه يفيد التخصيص، فإن معنى التخصيص هنا أن نثبت أن اليهود وحدهم يقولون الكذب ويعلمون أنه كذب، أما تقوية الحكم؛ فأن نثبت هذا الحكم لليهود، وقد يكون لغيرهم من الناس كذلك.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿أفأنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أو تَهْدي العُمْيَ ومَن كانَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، يرى السكاكي أنه لتقوية الحكم، ويقول السعد: إنه يفيد التخصيص، ورجح بعض الأجلّة رأي السكاكي[1].

وكذلك قولك لصاحبك: أنت تحترم رأي غيرك. فأنت لا تقصد هنا أن تنفي هذا الحكم عن غيره، وهذا معنى تقوية الحكم، فإذا قصدت إثباته له، ونفيه عن غيره، فهو التخصيص.

وكذلك قولك: هو يعطي الكثير. وهو يكثر من الصدقة. فأنت لا تقصد تخصيصه بهذا الحكم، كل الذي تقصده أن تثبته له، ولكنك قدمت المسند إليه من أجل تقوية الحكم، وزيادة تأكيده، أما إذا قصدت إثباته له، ونفيه عن غيره، فهذا هو التخصيص.

والذي يبدو لي أن هذا القسم كثيراً ما يفيد التخصيص، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿واللهُ خَلَقَكُم وما تَعْمَلونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله: ﴿واللهُ خَلَقَكُم ثُمَّ يَتَوَفَّاكُم﴾ [النحل: ٧٠]، وقوله: ﴿واللهُ جعَلَ لكُمْ مِن بُيوتِكُم سَكَناً﴾ [النحل: ٨٠]، وقوله:

---

(١) انظر «تفسير الآلوسي»، الجزء الحادي عشر

﴿والله جَعَلَ لكم مما خَلَقَ ظلالاً﴾ [النحل: ٨١]، وقوله ﴿اللهُ نزّلَ أحسَنَ الحديث كتاباً مُتشابهاً﴾ [الزمر: ٢٣]؛ فالمسند إليه في هذه الآيات جميعها أفاد التخصيص، فالله وحده القادر على هٰذه الأفعال لا غيره، وقد يفيد تقوية الحكم أحياناً؛ مثل قوله سبحانه: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]؛ فليس المراد أن غير الله لا يستهزىء بهم كذٰلك، لكن الغرض تقوية الحكم وتأكيده، وهو أن استهزاء الله بهم يفوق كل استهزاء، وهٰذا هو الذي يفهم من كلام الزمخشري في «كشافه».

وقد ذكر الشيخ عبدالقاهر سبعة مواضع يحتاج الأمر فيها إلى تأكيد:

الموضع الأول: أن يسبق إنكار المخاطب؛ كأن يقول لك: أنا لا أعلم شيئاً عن هٰذا الذي تقول. فتقول له: لا؛ بل أنت تعلم كل شيء. فأنت جئت بالمسند إليه ـ وهو (أنت) ـ وجعلت المسند فعلاً؛ لتؤكد له ما أراد إنكاره، فهو أبلغ من قولك: بل تعلم كل شيء.

ومنه قوله سبحانه: ﴿ويَقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فإن الآية الكريمة جاءت في معرض الرد عليهم فيما ادَّعوه، ذٰلك أنهم قالوا: ﴿ليسَ عَلَينا في الأُميينَ سَبيلٌ ويَقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وهُم يَعْلَمونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وفي موضع آخر: ﴿وإنَّ منهُم لَفريقاً يُلوونَ ألْسِنَتَهُم بالكِتابِ لِتَحْسَبوهُ مِن الكِتابِ وما هُو مِن الكِتابِ ويَقولونَ هو مِن عندِ اللهِ وما هُو مِن عندِ اللهِ ويَقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، فهو أبلغ من قولنا: (يعلمون)؛ دون (هم).

الموضع الثاني: من المواضع التي يحسن فيها التأكيد مجيئه في ما يعرض فيه شك في النفس؛ كأن يقال لك: كأنك لا تعلم ماذا حدث أمس. فتقول له مزيلاً هٰذا الشك: بلى، أنا أعلم، ولكني أخفيت هٰذا عنك. فأنت تقدم هنا المسند إليه، وهو (أنا)؛ لتأكيد الحكم وتقويته، فهو أبلغ من قولك: بل أعلم.

الموضع الثالث: مجيئه في تكذيب مدَّع، ومنه ما جاء في التنزيل: ﴿وإذا جاؤوكُمْ قالوا آمَنَّا وقدْ دَخلوا بالكُفْرِ وهُم قَدْ خَرَجوا بهِ﴾ [المائدة: ٦١]، فالمسند إليه

قوله تعالى (هم) قُدِّم تكذيباً لهم ؛ ليؤكد تكذيبهم بادعائهم الإيمان ، فهو أبلغ من قولنا : قد خرجوا به .

ومنه قولك لمن ادَّعى أنه يستعد للحرب : يقولون إنهم سيحاربون العدو، وهم يهـدمون أخلاق الأمة! وقولك لمن يدَّعي الجدة في الدراسة : يقول إنه منكب على كتابه ، وهو يقضي وقته بين الهزل والعبث!

الموضع الرابع : من الأمور التي يُحتاج فيها إلى تأكيد أمر يُراد نفيه ؛ لأن مثله لا يجوز في العقل، ولا في العرف ، ومنه قوله سبحانه : ﴿واتَّخذوا مِن دونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقونَ شَيْئاً وهُم يُخْلَقونَ﴾ [الفرقان : ٣]، وفي آية أخرى : ﴿والذينَ يَدْعونَ مِن دونِ اللهِ لا يَخْلُقونَ شَيْئاً وهُمْ يُخْلَقونَ أمواتٌ غيرُ أحياءٍ﴾[النحل : ٢٠-٢١] ؛ فجاء بالمسند إليه - وهو الضمير (هم) ـ تقـوية للحكم ، إذ كيف يجـوز في العقـل أن يتَّخذ أولٰئك آلهة وهم يُخلَقون ؛ تصنعهم الأيدي ، وهم أموات غير أحياء .

ومن هٰذا القبيل أن تقـول لأحـد النـاس : صديقك يثق بفلان وهو يأكل أموال الناس! فلان يتتلمذ لفلان وهو لا يفرق بين نون النسوة ونوني التأكيد!

الموضع الخامس : يحتاج إلى تأكيد في كل أمر مستغرب ، وفي ما هو على خلاف العادة ؛ كقولهم : البقرة تكلمت . والبغاث يستنسر . واليهود يهاجموننا ليلا . فهو أبلغ من قولنا : تكلمت البقرة . ويستنسر البغاث . ويهاجمنا اليهود ليلاً[1] .

الموضع السادس : يكثر هٰذا في الوعد ؛ كقولك : لا تجزع ، أنا أهيىء لك ما تحتاج إليه . أنا أكفيك مؤونتك . أنتم تردون الفاقة . أنتن توفين بالوعد . الله يكفيك ما أهمك وما لا تهتم به .

وإنمـا يحتـاج هٰذا الأمر إلى التأكيد ؛ لأن النفس تشك عادة في أمر الموعود ، فقولنا : أنا أهيىء لك . أبلغ من قولنا : أهيىء لك . بدون المسند إليه .

---

(١) لأن الفاعل ذكر مرتين ؛ الأولى : الاسم الظاهر، وهو مبتدأ ، والثانية : الضمير العائد عليه ، وهو الفاعل المستتر.

الموضع السابع: يكثر هٰذا في المدح والفخر؛ كقولك: هو يقري الضيف. وهو يعطي الجزيل. وهي تجود بحليها. أنت تفوق الأقران. أنت تبذل جهدك ومالك. أنتم تقرون الضيف. وكقول طرفة بن العبد:

نَحْنُ في المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلى لا تَرى الأدبَ فينا يَنْتَقِرْ[1]

وقول زهير بن أبي سلمى:

ولأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لا يَفْري[2]

الخلق هنا: التقدير والقياس. والفري: الصنع في الأديم، وهو الجلد؛ يقول: أنت إذا قدرت أديماً لتصنعه؛ صنعته وأتممته، وبعض الناس يقيس ويقدر، ولكنه لا يصنعه ولا يتمه.

والكلام مَثَلٌ، يُشَبِّه من يَعِدُ العدة فينجزها، أو يعزم العزم فيمضيه، بمن قدر الجلد، فيصنعه، ويتمه، ويشبه من يَعِد فيخلف، ويعزم فلا يمضي، بمن يقدر الجلد ولا يصنعه.

وإنما يحتاج المدح إلى التوكيد؛ لأن من شأن المادح أن يمنع الناس من شك فيما مدح به، وكذٰلك المفتخر.

واستدل الشيخ أيضاً على أن هٰذا الضرب يقتضي التوكيد، بأنه لا يجيء إذا كان الفعل لا يُشك فيه، ولا يُنكر، بل يؤتى بالفعل مقدماً، غير مبني على الاسم، فإذا أخبرت عمَّن عادته الخروج؛ قلت: قد خرج. ولا تقول: هو خرج. لأنه ليس بحاجة إلى توكيد، وكذٰلك إذا أخبرت عمَّن عزم على الركوب، ولم يكن شك في ركوبه؛

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص ١٣٥).
والمشتاة: زمن الشتاء والجدب، والجفلى: الدعوة العامة، والنقرى: الدعوة الخاصة، أي: يختار من يدعوهم وينتقرهم.

(٢) «ديوانه»، «الدلائل» (ص ١٣٤).

تقول: ركب. ولا تقول: هو ركب[1].

وهٰذا الذي ذكرناه قد يفيد التخصيص إذا كان في السياق ما يدل على ذٰلـ
وذٰلك كقوله تعالى: ﴿الله يَصْطَفي مِن المَلائِكَةِ رُسُلاً ومِن النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥
وكقوله: ﴿الله أعْلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فإن السياق هنا يدل ع
التخصيص كذٰلك.

ومما تقدم رأينا أن هناك صوراً ثلاثاً:

* **إحداها**: مجيء المسند إليه منفياً، والمسند فعلاً، وهٰذه الصورة ت
التخصيص قولاً واحداً.

* **الصورة الثانية**: أن يدخل النفي على المسند.

* **الصورة الثالثة**: أن يكون الكلام مثبتاً لا منفيًّا.

وهاتان الصورتان تفيدان تقوية الحكم، وقد تفيدان التخصيص إذا دلَّ الس
على ذٰلك، وكانت هناك قرائن يُفهم منها هٰذا التخصيص.

وقد كثر في التنزيل تقديم المسند إليه، تدبر قوله سبحانه: ﴿وجاهِدوا في الله
جِهادِهِ هُو اجْتَباكُم وما جَعَلَ عليكُم في الدينِ مِن حَرَجٍ مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ هُو سَمّ
المُسْلِمينَ مِن قبلُ﴾ [الحج: ٧٨]، فتأمل قوله سبحانه: ﴿هُو اجْتَباكُم﴾، وقوله: ﴿
سَمَّاكُم﴾، ولم يقل: اجتباكم. و: سماكم. وفي هٰذا من تقوية الحكم ما لا يخفـ
وهو يفيد التخصيص كذٰلك؛ لأن الله هو الذي اجتبى هٰذه الأمة. ولأن أبانا ﷺ هو الـ
سمانا مسلمين.

هٰذا كله إذا كان المسند إليه معرفة.

أمـا إذا كان نكـرة، وأُخبـر عنـه بجملة فعلية؛ فإن المعوَّل فيه على القرائـ

---

(١) «دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه، والتمثيل، والتقديم والتأخير»، الهادي العدل، (ص ٢٧٣).

وبخاصة حال المخاطب الذي تخاطب، فقد يفيد التخصيص، وقد يفيد تقوية الحكم، وإليك بيان ذٰلك:

إذا قلت: طالب نال الجائزة. فقد تقصد من هٰذا القول إثبات الجنس، وذٰلك إذا كان المخاطب يظن أن من نالت الجائزة طالبة، فيكون قولك لتخصيص الجنس، وقد يكون الغرض نفي الكثرة وإثبات الوحدة، وذلك إذا كان المخاطب يظن أن مَن نال الجائزة طالبان أو أكثر.

وكذٰلك إذا قلت: رجل جاءني. فقد يكون القصد إلى تعيين الجنس، فيكون المعنى أن الجائي رجل لا امرأة إذا كان مخاطبك يظن أن الجائية امرأة، وقد يكون القصد إلى الإفراد، أي: رجل لا رجلان؛ إذا كان من تخاطب يظن ذٰلك، ذٰلك لأن النكرة تصلح لأن يقصد بها الجنس، أو يُقصد بها فرد من الأفراد، وقد رأيت مما تقدم أن النكرة أفادت التخصيص؛ سواء قصدت إثبات الجنس، أم الوحدة.

وقد يكون الغرض تقوية الحكم؛ كما إذا كان المخاطب يدرك أن الذي جاءك رجل، إلا أنه بحاجة إلى مزيد من التأكيد؛ لتزيل ما في نفسه من شك.

ولعلك الآن تدرك الفرق البعيد بين قولنا: رجل جاءني. وقولنا: جاءني رجل. فالقول الأول أفاد التخصيص، أو تقوية الحكم، أما قولك: جاءني رجل. فليس كذٰلك، فلا يفيد شيئاً منهما، فقد يكون مع الرجل رجل آخر، أو امرأة؛ لذا تقول: رجل جاءني وامرأة[1]. إن أردت الجنس، ولا تقول رجل جاءني ورجل آخر. إن أردت الوحدة، ولكنك تقول: جاءني رجل وامرأة، أو ورجل آخر.

■ ثالثاً: إفادة التعميم:

الغرض الثالث من أغراض تقديم المسند إليه إفادة التعميم، وإنما يكون ذٰلك إذا اجتمع في الجملة أداة تدل على العموم وأداة تدل على النفي، وتقدمت أداة العموم على

---

(١) ذلك لأن الاسم ذكر مرتين ظاهراً أولاً، وضميراً مستتراً ثانياً.

أداة النفي، فأدوات العموم: (كل)، و(جميع)، و(عامة)، و(كافة)[1]، وما يشبهها؛ مثل (مَن)، وأدوات النفي؛ (لا)، و(لم)، وما أشبههما.

فإذا أردت التعميم؛ قدمت المسند إليه، فقلت: كل الناجحين لم يأخذوا جوائزهم. كل المسلمين لم يقوموا بواجبهم. كل أصحاب الأموال لم يبذلوا ما فيه الكفاية. من يظلم الناس لا يفلح.

فأنت هنا تثبت هٰذا الحكم لجميع الأفراد؛ دون أن تستثني فرداً واحداً، ويسمى هٰذا عموم السلب.

وأنبهك هنا إلى أمر مهم، وهو أننا نتحدث عن المسند إليه، فكلمة (كل) وما يشبهها ينبغي أن تكون هي المسند إليه، أما إذا كانت معمولة لما بعدها، فليست مما نتحدث عنه.

مثال ذٰلك: إذا قلت: كل الدراهم لم آخذ. كل الطلاب لم أمتحن. فـ(كل) هنا ليست مسنداً إليه، وإنما هي مفعول به، فليس هٰذا من عموم السلب، إذ الأصل: لم آخذ كل الدراهم. ولم أمتحن كل الطلاب. بل هو من سلب العموم، ومعناه أنني أخذت بعض الدراهم، وامتحنت بعض الطلاب.

وسلب العموم سلب الحكم عن بعض الأفراد، وهو أن يتقدم النفي على أداة العموم.

فإذا قلت: لم يأخذ كل الناجحين جوائزهم. لم يقم كل المسلمين بواجبهم. لم يبذل كل أصحاب الأموال ما فيه الكفاية. فإنك هنا سلبت الحكم عن بعض الأفراد.

عموم السلب ـ إذن ـ أن تتقدم أداة العموم على أداة النفي.

وسلب العموم أن تتقدم أداة النفي على أداة العموم.

وقولنا: كل الدراهم لم آخذ. وإن تقدمت فيه أداة العموم؛ إلا أن محلها التأخير؛

---

(١) (كافة)؛ لا تجيء مضافة، فلا يقال: كافة الناس!

لأنها مفعول به، والمفعول به حقه التأخير عن فعله.

مثال سلب العموم قول المتنبي:

ما كُلُّ ما يَتَمَنَّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ   تَجْري الرِّياحُ بِما لا تَشْتَهي السُّفُنُ[1]

ومثال عموم السلب؛ قول رسول الله ﷺ: «كل أمر ذي بال لم يُبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر».

ومنه قول أبي النجم:

قد أصْبَحَتْ أمُّ الخِيارِ تَدَّعي   عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ[2] لم أصنعِ[3]

واعلم أن هٰذه القاعدة ـ أعني قاعدة عموم السلب ـ قاعدة مطَّردة لا تتخلف، فإذا سبقت أداة العموم أداة النفي؛ كان سلباً لجميع الأفراد، أما قاعدة سلب العموم، وهي أن تسبق أداة النفي أداة العموم، فهي خاضعة للسياق، فهي وإن كانت أغلبية، إلا أنها غير مطردة.

ففي التنزيل: ﴿والله لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أثيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]، فعلى ضوء ما عرفناه من قبل؛ ينبغي أن يكون هٰذا من سلب العموم، بمعنى أنه لا يشمل جميع الأفراد، فهو مثل قولك: لم آخذ كل الدراهم. لكن المراد من الآيتين الكريمتين غير هٰذا، فالله تبارك وتعالى لا يحب أي واحد اتَّصف بهٰذه الصفات.

وللإمام الشيخ محمد عبده كلام يجمل أن ننقله هنا؛ يقول رحمه الله:

---

(١) «الديوان» (٤/ ٣٦٦)

(٢) فـ (كله) مبتدأ، وليست مفعولاً، فهو يريد أن ينفي عن نفسه أي ذنب؛ لا أن يثبت بعض الذنوب، وشتان بين المعنيين. ومن هنا تعرف أن نصب (كل) في البيت لا يجوز؛ لأنه يصير مفعولاً به، ويصير المعنى أنه لم يصنع كل ذنب ادعته عليه، بل صنع هٰذه الذنوب، وغرضه أن يبرىء نفسه من كل خطأ.

(٣) «المعاهد» (١/ ١٤٧)، «الأسرار» (٣٦٠)، و«الخزانة» شاهد (٥٦).

«قد يُعدل عما يدل على عموم السلب إلى ما يفيد سلب العموم، والسلب عام على الحقيقة؛ للتعريض بالمخاطب، والإيماء إلى أنه شر صنفه، مثلاً: إذا قلت لسفيه تعرِّض بأنه شر السفهاء: أنا لا أحب كل سفيه، فالمعنى أنه لو فُرض أن محبتي تتعلق بسفيه؛ لكنت غير موضع لها، وكذلك الذي جاء في الآية الكريمة؛ أُريد به ـ والله أعلم ـ التعريض بمن نزلت فيهم من أعداء الله، وأنهم شر أصنافهم، فقوله تعالى: ﴿والله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]؛ معناه أن محبة الله لا تعم المختالين الفخورين، حتى تشمل هؤلاء، فكأنه سبحانه يقول: لو أن محبتنا تعلقت بمختال فخور؛ لما تعلقت بأولئك؛ لأن مختالهم وفخورهم شر مختال وفخور، وهكذا يقال في سائر الآيات، وما يكون ظاهره أنه من سلب العموم، وحقيقته أنه من عموم السلب[1].

رابعاً: إذا كان كلمة (مثل) أو (غير):

ومما اطُّرد فيه تقديم المسند إليه إذا كان كلمة (مثل)، أو (غير)، ولكنهما خرجتا عن المعنى الظاهر الذي وضعت له كل منهما، بيان ذلك:

إنني إذا قلت: مثلي يسهر الليل. وغيري يستحق الويل. فالمعنى الظاهر أنني لست أنا الذي يسهر الليل، وإنما يسهره واحد مثلي. وأنني لا أستحق الويل، ولكن يستحقه واحد غيري، وعلى هذا المعنى:

فَمِثْلُكِ حُبْلى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٌ فألْهَيْتُها عن ذي تَمائِمَ مُحْوِلِ[2]

أي: امرأة غير التي يخاطبها.

ومثل هذا قول كثير من أبناء العرب: مثلنا يفصح عما في نفسه. مثلنا يأخذ حقه

---

(١) «التلخيص في علوم البلاغة»، الخطيب القزويني، شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، (ص ٨٨).

(٢) طرق البعير الناقة: أتاها. والتمائم: جمع تميمة، وهي التعويذة التي تعلق على الطفل لئلا يحسد، والمُحْوِل: من أكمل الحول. انظر «شرح القصائد السبع» (ص ٣٩).

دون منازع. مثلنا من أبناء الأمم لا يجبن عن قول الحق.

أما كلمة (غير)، فكقول القائل: نحن نزرع وغيرنا يحصد. نحن نصاب بلسع النحل، وغيرنا يأخذ عسله. ومنه قول النابغة[1]:

لَكَلَّفْتِني ذَنْبَ امرىءٍ وتَرَكْتَهُ ... كَذي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وهُو راتِعُ[2]

وكقول ابن شرف القيرواني[3]:

غَيْري جَنَى وأنا المُعاقَبُ فيكُمُ ... فكأنَّني سَبَّابَةُ المُتَنَدِّمِ[4]

ولكن العرب خرجوا بهاتين الكلمتين عن هٰذا المعنى الظاهر المتبادر؛ فإذا قلنا: مثلك لا يكذب. وغيرك يعطي الدنيَّة. فليس مرادنا أن ننفي الكذب عن مثلك، أو نثبت إعطاء الدنية لغيرك، إنما الذي نقصده أن ننفي عنك الكذب، وأن ننفي عنك إعطاء الدنيَّة؛ دون أن نعرض لغيرك من الناس.

فقولنا: مثلك لا يكذب. أبلغ وأقوى في الحكم من قولنا: أنت لا تكذب. فكأننا نقول: إن من اجتمعت فيه هٰذه الصفات، وإن من كان يتحلَّى بهٰذه الأخلاق التي اجتمعت لك، والتي تتحلَّى بها؛ إن مثل هٰذا لا يمكن أن يصدر منه الكذب، فقولنا: أنت لا تكذب. هٰذه مجرد دعوى. أما قولنا: مثلك لا يكذب. فهي دعوى ودليلها معها.

---

(١) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، يعرف بالنابغة الذبياني، شاعر جاهلي من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ منعَقَد الشعراء، وتُعرض عليه أشعارها، توفي نحو (١٨ ق. هـ). [المعجم: ٤/ ١٨٨].

(٢) العُرّ ـ بضم العين وفتحها ـ؛ بالفتح: الجرب، وبالضم: قروح في الأعناق، أو داء ينسل منه الوبر. والراتع: الذي يأكل ويشرب ـ في خصب وسعة ـ ما شاء. والجمع: رتاع؛ كنيام. والبيت في «ديوانه» (ص ٤٨)، و«شرح شواهد العيني» (١/ ٩٩)

(٣) محمد بن سعيد بن شرف القيرواني، أبو عبد الله، أديب، ناظم، ناثر، ولد بالقيروان، توفي بإشبيلية سنة (٤٦٠ هـ). [المعجم: ١٠ / ٢٥].

(٤) «الخزانة» (٢/ ٤٦٣)، «تحرير التحبير» (ص ٥٠٩).

كذلك قولنا: غيرك يعطي الدنية. ليس هدفنا أن نجرح الآخرين أو ننال منهم، إنما الذي نعنيه بأنك أنت لا يمكن أن تعطي الدنية من نفسك، هٰذا ما جرت عليه العرب في سننها خطاباً للآخرين، أو حديثاً عن النفس. قال المتنبي:

ولم أقُلْ مِثْلُكَ أعْني بِهِ ... سِواكَ يا فَرْداً بلا مُشْبِهِ
مِثْلُكَ يَثْني المُزْنَ عن صَوْبِهِ ... ويَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عن غَرْبِهِ[1]

وقال أبو تمام:

وغَيْري يأكُلُ المَعْروفَ سُحْتاً ... وتَشْحَبُ عندَهُ بيضُ الأيادي[2]

وقال المتنبي:

غيري بأكثر هٰذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جَبُنوا أو حدَّثوا شَجَعوا[3]

فإذا جاءتا على هٰذا المعنى، وهو الخروج بهما عن معناهما الظاهر؛ وجب تقديمهما[4]. أما على معناهما الظاهر؛ فيمكن أن يقدم أو يؤخر، فتقول: أنا أزرع وغيري يجني. أو أنا أزرع ويجني غيري. وكذٰلك في بيت امرىء القيس يمكن أن يقال: طرقت مثلك.

أما إذا أردت المعنى الثاني، فقلت: غيري يعطي الدنية. ومثلي يرعى القضية. وأنت لا تريد أحداً غيرك؛ فلا بد من التقديم، ولا يجوز أن تقول: يعطي غيري الدنية. ويرعى مثلي القضية.

---

(١) «الديوان» (١/ ٣٤٠).

(٢) «ديوانه» (ص ٨٠)؛ تفسير محيي الدين الخياط.

(٣) «الديوان» (٢٠/ ٣٣٠).

(٤) فالمتنبي في البيت الأول يريد أن يثبت الكرم لممدوحه، لا أن يثبته لمن هو مماثل له، وفي البيت الأخير يريد أن ينفي الانخداع عن نفسه، لا أن يثبته لغيره.
كما أن أبا تمام في البيت الثاني لا يريد أن يثبت أكل السحت لغيره من الناس، بل هدفه أن ينفيه عن نفسه؛ كأنه يقول: أنا لا آكل المعروف سحتاً.

□ المبحث الثاني:

تقديم المسند

يقدم المسند على المسند إليه، والمسند ـ كما نعلم ـ حقه التأخير، ولكننا نقدمه إذا اقتضى الحال تقديمه، فمن مقتضيات تقديم المسند:

■ أولاً: تخصيصه بالمسند إليه:

قال تعالى: ﴿للهِ الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ﴾ [الروم: ٤]، ﴿فللهِ الحمدُ ربِّ السَّماواتِ وربِّ الأرضِ ربِّ العالَمينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]، وتقول: على الله اعتمادي. وفي الحديث: «لك العتبى حتى ترضى»[1].

فنحن نرى في هٰذه الأمثلة أن تقديم المسند قُصد منه التخصيص، فإذا قلت: لله الأمر. فمعنى هٰذا أنه لله وحده، لا لأحد غيره، وكذٰلك: لله الحمد.

ولقد جاء في التنزيل: ﴿الحمد لله﴾ [الفاتحة: ١]. ﴿والأمر يومئذٍ لله﴾ [الانفطار: ١٩]؛ فقدم المسند إليه، إلا أن السياق في هاتين الآيتين يختلف عن السياق في الآيتين السابقتين.

ومثل هٰذا ما جاء في هاتين الآيتين اللتين ننبهك لهما؛ قال تعالى يصف خمر الجنة: ﴿لا فيها غَوْلٌ ولا هُمْ عنْها يُنْزَفونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، وقال تعالى في وصف الكتاب الكريم: ﴿ذٰلك الكتاب لا ريبَ فيهِ﴾ [البقرة: ٢]، ففي الآية الأولى قُدم المسند، وهو (فيها)، وأُخِّر المسند إليه، وهو (غول)، وفي الآية الثانية قُدم المسند إليه، وهو (ريب)، وأُخِّر المسند، وهو (فيه).

أما الآية الأولى، فإن تقديم المسند فيها للتخصيص، فمعنى: ﴿لا فيها غَوْلٌ﴾

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (١ / ٢٦٠ ـ ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً، ورواه ابن جرير (٢ / ٨٠).

نفي للغول عن خمرة الآخرة، وإثباته في خمر الدنيا. ولو أن الآية الثانية جاءت كذٰلك، فقال: لا فيه ريب؛ لكان المعنى نفي الريب عن القرآن، وإثباته لغيره من الكتب السماوية، وهٰذا غير مقصود بالطبع، ولهٰذا جاء النظم كما هو عليه، جاء على أحسن صورة وأبلغها، إنه نفي للريب عن القرآن الكريم، دون تعريض بغيره من الكتب، وهٰذا لا تخصيص فيه، إنما التخصيص في الآية الثانية، حيث خص خمر الآخرة بنفي الغول عنه، وأثبته في خمر الدنيا.

ويمكنك أن تدرك الآن أنك إذا أردت التخصيص؛ فلا بد أن تقدم المسند، فإذا قلت: في الحجرة المجاورة هدوء. فليس غرضك التحدث عن الحجرة المجاورة فحسب، وإنما تُريد أن تثبت الضجة في حجرتك التي أنت فيها، فهو إثبات للهدوء في الحجرة المجاورة، ونفي عن الحجرة الأخرى، وهذا هو التخصيص.

وإذا قلت: في المناهج القديمة علم. فأنت هنا قدمت المسند، وليس غرضك إثبات العلم في المناهج القديمة فحسب، وإنما لك غرض آخر، وهو أن تثبت أن المناهج الحديثة ليس فيها هٰذا العلم.

وإذا قلت: في الجماعة قوة. فليس غرضك إثبات القوة في الجماعة فحسب، وإنما تريد أن تبين أن في التفرق ضعفاً.

وهٰكذا إذا أردت تخصيص المسند بالمسند إليه، ونفيه عن غيره؛ فلا بد أن تقدم المسند.

ونرجو أن يكون في الأمثلة السابقة ما يمكنك من التصرف في غيرها، وما يقفك على أسرار النظم الكريم، وهو يقدم تارة، ويؤخر أخرى[1].

---

(١) ومن لطيف النظم في غير المسند إليه والمسند قوله: ﴿وكذلك جعلْناكُم أُمَّةً وسطاً لِتَكونوا شُهَداءَ على النَّاس ويكونَ الرَّسولُ عَليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]، حيث قُدمت الشهادة أولاً، لأن الشهادة على الناس لا تعني المسلمين وحدهم، فأنبياؤهم وغيرهم شهود عليهم، وأُخِّرت ثانياً لاختصاص الأمة بشهادة الرسول ﷺ.

■ ثانياً: التنبيه على الخبرية:

من مقتضيات تقديم المسند التنبيه على أنه خبر، حتى لا يلتبس بالصفة، وبيان ذٰلك أن الخبر والصفة متقاربان، وإنما يفرّق بينهما باعتبارات معنوية، فالذي يصلح أن يكون صفة قد يصلح ليكون خبراً، فإذا قلنا: مستقرٌّ في الأرض لنا. فإن كلمة (لنا) تحتمل أن تكون صفة أو خبراً، وكذٰلك: مصلًّى لنا في القدس. تحتمل كلمة لنا أن تكون خبراً أو صفة.

واعلم أن الخبر أقوى من الصفة في دلالته؛ لأن الخبر ركن في الجملة، وليس كذٰلك الصفة، فإذا جعلنا الشيء خبراً، فهو أدل على شأنه وخطره، أكثر من كونه صفة من الصفات.

إذا عرفت هٰذا، فإنهم قد يقدمون المسند؛ لتدرك لأول وهلة بأنه خبر لا صفة، فالصفة لا تتقدم على الموصوف، ولكن الخبر قد يتقدم على المبتدإ، وإذا كان خبراً؛ كان أقوى في الدلالة على ما يريدون، من ذٰلك قول أبي بكر بن النطاح لأبي دلف القاسم بن عيسى:

له هِمَمٌ لا مُنْتَهى لِكِبارِها ... وهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أجَلُّ مِن الدَّهْرِ
لهُ راحَةٌ لو أنَّ مِعْشَارَ جُودِها ... على البَرِّ كانَ البَرُّ أنْدَى مِن البَحْرِ[1]

ومنه قوله سبحانه: ﴿ولَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، ﴿ولَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ونقول: لنا في فلسطين مقدسات. ولنا في صلاح الدين أسوة.

■ ثالثاً: التشويق:

وقد نقدم المسند تشويقاً لذكر المسند إليه، ولقد مر معنا من قبل أننا قدمنا المسند إليه تشويقاً لمعرفة المسند، وهنا على العكس من ذٰلك، ومنه قول محمد بن وهيب

(١) «الكامل» للمبرد (٢/ ١٠٣٢)، «الأغاني» (١٩/ ١٠٩).

يمدح المعتصم[1]:

ثلاثـةٌ تُشْـرِقُ الـدُّنْيا بِبَـهْـجَـتِـهـا ... شَمْسُ الضُّحَى وأبو إسْحاقَ والقَمَرُ[2]

إذ الأصل: الشمس والقمر وأبو إسحاق ثلاثة تشرق الدنيا. . .

وكذٰلك قولنا: اثنان يعطِّر ذكرهما كل مجلس: نور الدين، وصلاح الدين. من حملة مشعل الحق في العصر الحديث عز الدين القسام. هٰذا كله في باب المدح والثناء.

وقد يكون التشويق في غير هٰذا الباب؛ كالعبر، والمواعظ، والتاريخ؛ كقول أبي العلاء:

وكـالـنَّـارِ الـحَـيـاةُ فمِـنْ رَمَـادٍ ... أواخِـرُهَـا وأوَّلُـهـا دُخَـانُ

ومثل ذٰلك أيضاً قولنا: كشجر السرو كثير من الناس. كالظلمات الباطل. كالنور الإيمان.

■ رابعاً: للتفاؤل:

وقد يقدم المسند للتفاؤل؛ كما مرَّ معنا من قبل.

■ ■ ■

هٰذه هي أخطر الأغراض التي يقدّم من أجلها المسند إليه تارة، والمسند تارة أخرى.

ونذكرك هنا بما حدثناك عنه في باب الاستفهام؛ سواء كان استفهاماً حقيقيًّا، أم تقريريًّا، أم غير ذٰلك، من أنهم يقدمون ما هو مشكوك فيه غير معلوم لهم، فإن كان

---

(١) أبو إسحاق محمد المعتصم سنة (١٧٨ هـ)، وأمه أم ولد وتسمى مارية، أبوه الرشيد، كان يلي بلاد الشام ومصر في عهد أخيه المأمون، وقد بويع بالخلافة يوم وفاة المأمون سنة (٢١٨ هـ)، توفي سنة (٢٢٨ هـ).

(٢) «العمدة»، لابن رشيق، (٢/ ١٣٩).

الشك في الفاعل قدموه: أأنت قلت هٰذا الشعر؟ أأنت رسمت هٰذه اللوحة؟ ﴿أأنْتَ فَعَلْتَ هٰذا بآلِهَتِنا يا إبراهيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فإن القول قد قيل، وإن الأصنام قد حُطِّمت، فلا يجوز أن يُقال: أقلت للناس؟ أفعلت هٰذا؟ كما لا يجوز أن أقول لمن سمعت منه شعراً: أقلت هٰذا الشعر؟ ولمن أجلس في داره: أبنيت هٰذه الدار؟ فذٰلك لغوٌ؛ لأن هٰذه الأمور قد حصلت جميعاً، فكيف أسأل عنها؟

أما إذا كان شكهم في الفعل؛ فإنهم يقدمونه، فيقولون: أكتبت الموضوع الذي تُريد كتابته؟ أبنيت البيت الذي أزمعت على بنائه؟ ولا يجوز أن يقدموا الفاعل هنا، فيقولون: أأنت؟ لأنهم لم يتأكدوا من وجود الفعل.

□□□

◻ المبحث الثالث:

تقديم متعلقات الفعل

نقصد بمتعلقات الفعل: الزمان والمكان الذي يقع فيهما الفعل، والجار والمجرور، والحال، والمفعول.

فإذا قلت: أقرأ باسم الله متكئاً في أثناء الليل كتب أحاديث الرسول ﷺ. فهٰذه كلها من متعلقات الفعل.

وقد قدمنا لك في باب الاستفهام أن تقديم المفعول أو تأخيره، وكذٰلك الحال، والزمان، والمكان؛ لها أسبابها التي يوجبها المعنى الذي تريد، فقولنا: أسعاد تزورين؟ يختلف عن قولنا: أتزورين سعاد؟ لأننا إذا أوقعنا الهمزة على الفعل فإننا ننكر وقوع الفعل فحسب دون النظر إلى المفعول، ففي قولنا: أتزورين سعاد؟ ننكر الفعل، وهو الزيارة؛ لأن هناك أموراً أولى منه؛ كالدراسة، أو الصلاة، أو عمل البيت. أما قولنا: أسعاد تزورين؟ فإن الإنكار واقع على المفعول، فكأن سعاد ليست أهلاً للزيارة.

وكذٰلك قولنا: أتقرأ كتاب «الأيام»؟ فإن الإنكار هنا وقع على الفعل، فربما يكون هناك أعمال وأفعال حريٌّ أن تقدَّم على القراءة، أما قولنا: أكتاب «الأيام» تقرأ؟ فإن إنكارنا هنا واقع على كتاب «الأيام» نفسه.

وهٰذه القواعد نجد تطبيقها في التنزيل الحكيم: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُم صادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠]، فقدم المفعول هنا ليبيِّن أن غير الله ليس جديراً بالدعاء، ومثله قوله سبحانه: ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمُرونِّي أعبدُ أيها الجاهِلون﴾ [الزمر: ٦٤]، ﴿قُلْ أغيرَ اللهِ أتَّخِذُ وليًّا﴾ [الأنعام: ١٤].

وعلى هٰذا المنهج يمكننا أن نعرف كيف نرتب كلامنا؛ ليكون متسقاً مع المعنى الذي نريد، فإذا عرفتُ أن أخاك قد جاء من سفره، ولكني لم أعرف أجاء يوم الجمعة أم يوم الخميس؟ أجاء في الطائرة أم في السيارة؟ كل الذي علمته أنه جاء، فما هو

القالب الذي أضع به سؤالي يا ترى؟ أأقول لك: أجاء أخوك يوم الجمعة؟ أجاء أخوك في الطائرة؟ إن هٰذا القول معيب عند البلغاء، والكلام البليغ أن أقول: أيوم الخميس جاء أخوك أم يوم الجمعة؟ أفي الطائرة جاء أخوك أم في السيارة؟ أماشياً جئت هنا أم راكباً؟

أما إذا لم أعرف مجيء أخيك من سفره، فيمكن أن أضع السؤال بهٰذا القالب: أجاء أخوك؟ ولا يجوز أن أقول: أيوم الخميس جاء أخوك؟

وكل هٰذا قررته لك في باب الاستفهام، فعرفت أن الهمزة ينبغي أن يليها المسؤول عنه، وبقي أن أحدثك عن متعلقات الفعل الخالية من الاستفهام، فأقول وبالله التوفيق:

تقديم المفعول وما يشبهه من المتعلقات يكون غالباً للتخصيص، ولذا قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: المعنى نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة. وهٰكذا قوله سبحانه: ﴿بل الله فَاعْبُدْ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقوله: ﴿وربَّك فكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

فإذا قلت: زيداً ضربت. وأحمد كافأت. وألفية ابْن مالك حفظت. فمعنى قولك أنك تقصر الضرب على زيد، والمكافأة على أحمد، والحفظ على ألفية ابن مالك، فهناك أمور ثلاثة تُفهم من قولك.

أولاً: وجود ضرب منك.

ثانياً: كون هٰذا الضرب وقع على زيد.

ثالثاً: أنه لم يقع على غير زيد.

وكذٰلك المثال الثاني والثالث، ولهٰذا لا يجوز أن تقول: زيداً ضربت وعمراً. وأحمد كافأت وخالداً. وألفية ابن مالك حفظت وألفية السيوطي. لأن قولك: زيداً ضربت. تخصيص له بالضرب، فإذا قلت: وعمراً. ناقضت نفسك.

والنفي مثل الإثبات؛ فإذا قلت: ما زيداً ضربت. وما ألفية ابن مالك حفظت. فإن هنا أموراً ثلاثة كذٰلك:

أولاً: وجود الضرب والحفظ منك.

ثانياً: أن هٰذا الضرب لم يقع على زيد، والحفظ لم يقع على ألفية ابن مالك.

ثالثاً: أن الضرب وقع على غير زيد، والحفظ على غير ألفية ابن مالك.

وكما لا يجوز أن تقول: ما زيداً ضربت وعمراً. لا يجوز أن تقول: ما زيداً ضربت ولكن أكرمت. ما ألفية ابن مالك حفظت ولكن فهمت. لأن حديثك عن تخصيص المفعول، فإذا قلت: ولكن أكرمت، أو: ولكن فهمت. كان حديثك عن الفعل، والفعل ليس محل نزاع.

ففي الأمثلة يدل تقديم المفعول على التخصيص ـ كما رأيت ـ وهٰذا هو الغالب، وإنما قلنا هٰذا هو الغالب؛ لأن التقديم قد يكون للعناية به، والاهتمام بشأنه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩ ـ ١٠]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢]، وقال: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

ولا تلتفت إلى ما يُقال من أن هٰذا التقديم لرعاية الفاصلة، فمع تقديرنا لجمال الإيقاع، وحلاوة الجرس، لكنه في كتاب الله تعالى لن يستقل بتقديم أو تأخير، أو حذف أو ذكر، وإنما ـ إن كان ذٰلك ـ فلا بد أن يكون تابعاً لمعنى أراده القرآن الكريم.

ويلوح لي في الآيات الكريمة كذٰلك أنها لا مانع من أن تحمل على التخصيص، كأنه قيل: إذا كان لا بدَّ من قهر ونهر، فحذارِ أن يكون لليتيم والسائل، وهٰكذا يقال في المواضع الأخرى، وهو رأي أرتئيه، فاعرضه على نفسك، فإن حاز القبول فبها ونعمت، وإلا فلتسلك مسلك الجمهور، ولكن أحذرك ثانية من عدِّ رعاية الفاصلة من المقتضيات البلاغية التي يكون من أجلها التقديم والتأخير وغيرها.

وما قيل عن المفعول يقال عن غيره من متعلقات الفعل؛ كالجار والمجرور، والظرف، والحال، فإن تقديمها على الفعل للقصر غالباً، ونفي الفعل عما سواه، وإن الفعل ثابت لا خلاف فيه، والخلاف في المتعلق.

ففي الإثبات مثل: بهٰذا أمرتك. يوم الجمعة قدمت. في المسجد صليت. راكباً جئت. ماشياً حججت. يفيد التقديم ثلاثة أمور:

أولاً: حصول الفعل بلا شك.

ثانياً: تعلقه بالجار والمجرور، أو الظرف، أو الحال المقدم.

ثالثاً: عدم تعلقه بغيره.

وفي النفي؛ نحو: ما بهٰذا أمرتك... إلخ. يفيد ثلاثة أمور أيضاً.

أولاً: حصول فعل من المخاطب.

ثانياً: نفي تعلقه بالجار والمجرور.

ثالثاً: ثبوت تعلقه بغيره[1].

بيان ذٰلك:

تطلب من ولدك أن يرتب المكتبة، لكنه بدلاً من هٰذا رتب غرفة الجلوس، فتقول له: ما بهٰذا أمرتك. فلقد حصل منه فعل، وهو ترتيب غرفة الجلوس، وحصل منك أمر، ولكنه لم يتعلق بالفعل الذي فعله، بل هو متعلق بغيره، وهو ترتيب المكتبة.

وتستطيع إذن أن تعلم أنه لا يصح أن تقول: بهٰذا أمرتك وبغيره. لأن قولك: بهٰذا أمرتك. فيه تخصيص يدل على أنك لم تأمره بغيره، فإذا قلت: وبغيره. كان ذٰلك تناقضاً.

كما لا يجوز أن تقول: ما بهٰذا أمرتك ولا بغيره. لأن قولك: ما بهٰذا أمرتك. دالٌّ

(١) «دراسة تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير» (ص ٢٧٣).

على أنك أمرت بغيره، فقولك: ولا بغيره. تناقض.

وكذلك لا يجوز أن تقول: يوم الخميس صمت ويوم الجمعة. وفي المسجد صليت وفي البيت. وفي الجامعة حاضرت وفي النادي. لأن تقديم المتعلق هنا يفيد قصر الفعل عليه، فإذا لم ترد القصر قدّمت الفعل، فقلت: ضربت زيداً. وكافأت أحمد. وحفظت ألفية ابن مالك. وصمت يوم الخميس. وحاضرتُ في الجامعة. وصليت في المسجد.

فكل ما تفيده هٰذه الأمثلة وقوع فعل منك، فيمكنك أن تقول: ضربت زيداً وغيره. وكافأت أحمد وخالداً. وحفظت ألفية ابن مالك وألفية السيوطي. وصمت يوم الخميس ويوم الجمعة. وحاضرت في الجامعة وفي النادي. وصليت في المسجد وفي البيت.

ومن لطائف ما جاء في التنزيل: ﴿بسمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرحيم﴾، فـ (بسم) جار ومجرور، ولا بدَّ له من فعل يتعلق به، وهٰذا الفعل تقديره: (أتلو)، وإنما قُدِّر متأخراً؛ ليفيد التخصيص، فهو ردٌّ على الذين يبدؤون أعمالهم بغير اسم الله تبارك وتعالى، فالمعنى: باسم الله أبداً لا باسم أحد غيره.

ولكننا نقرأ قوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فنجد الجار والمجرور جاء متأخراً عن القراءة، وسر ذٰلك أنها أول آية نزلت، فكانت القراءة هي المقصود الأول.

■ ■ ■

هٰذه خلاصة لما ذكره علماء البيان في التقديم والتأخير.

وقد عرض لهٰذا الموضوع أصحاب الدراسات القرآنية، وبخاصة الذين كتبوا في علوم القرآن من الأئمة؛ كالزركشي وغيره، وكانت دراستهم للتقديم والتأخير مقتصرة على آي القرآن الحكيم، فهي تختلف عن الدراسات البيانية؛ لكونها دراسات متخصصة من جهة، ومن جهة ثانية كثير منها لا ينضبط تحت قاعدة معينة، ومن جهة

ثالثة نراها تخضع لاختلافات المفسرين في المعنى المراد من الآية، ولكنها ـ والحق يقال ـ ذات فوائد جمة، وسأذكر لك طرفاً منها:

ذكر الزركشي[1] في «البرهان» فصولاً في التقديم والتأخير، فعقد فصلاً لأسباب التقديم والتأخير، وفصلاً لأنواعه، وسنقتصر لك على بعضه، فعند حديثه عن أسباب التقديم والتأخير ذكر منها:

١ ـ أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى:

كقوله تعالى: ﴿وقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِن آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ﴾ [غافر: ٢٨]، فإنه لو أخر قوله: ﴿من آل فرعون﴾؛ فلا يُفهم أنه منهم[٢].

٢ ـ لعظمه والاهتمام به:

قال تعالى: ﴿وأقيموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]؛ فبدأ بالصلاة؛ لأنها أهم، وقال تعالى: ﴿وأَطِيعوا الله وأَطِيعوا الرَّسولَ﴾ [التغابن: ١٢]، وقال: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فقدم العبادة للاهتمام بها.

٣ ـ أن يكون الخاطر ملتفتاً إليه، والهمة معقودة به:

وذلك كقوله تعالى: ﴿وجَعَلوا للهِ شُرَكاءَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] بتقديم الجار على المفعول الأول؛ لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله، لا إلى مطلق الجعل.

٤ ـ أن يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجيب من حال المذكور:

كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى: ﴿وجَعَلوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ﴾

---

(١) بدر الدين بن محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، أحد العلماء الأثبات، ولد سنة (٧٤٥ هـ)، وتوفي في مصر سنة (٧٩٤ هـ).

(٢) لأنه لو أخر: ﴿من آل فرعون﴾؛ لتغير المعنى، وصار هكذا: وقال رجل يكتم إيمانه من آل فرعون. أي: يكتم إيمانه خوفاً من آل فرعون. فلا تدل على أنه منهم، ولكن المراد من الآية أن هذا الرجل المؤمن هو من آل فرعون، ولذلك قدم الجار والمجرور.

[الأنعام: ١٠٠]، والأصل: الجن شركاء. وقدم لأن المقصود التوبيخ، وتقديم الشركاء أبلغ في حصوله[1].

٥ ـ الاختصاص:

وذلك بتقديم المفعول، والخبر، والظرف، والجار والمجرور، ونحوهما؛ على الفعل؛ كقوله تعالى: ﴿إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدونَ﴾ [النحل: ١١٤]، أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة، والخبر؛ كقوله: ﴿قالَ أراغِبٌ أنْتَ عن آلِهَتي﴾ [مريم: ٤٦]، وتقديم الظروف؛ كقوله تعالى: ﴿إنَّ إلينا إيابَهُم . ثُمَّ إنَّ علينا حِسابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦].

وعند حديثه عن أنواع التقديم والتأخير ذكر نيفاً وعشرين، منها:

١ ـ ما يكون التقديم فيه للسبق:

فمنها السبق للزمان والإيجاد؛ كقوله تعالى: ﴿إنَّ أوْلى النَّاسِ بإبْراهيمَ للَّذينَ اتَّبَعوهُ وهٰذا النَّبيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨]. قال ابن عطية: المراد بالذين اتّبعوه في زمن الفترة.

ومن التقديم بالإيجاد تقديم السِّنة على النوم في قوله: ﴿لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ لأن العادة في البشر أن تأخذ العبد السِّنة قبل النوم، فجاءت العبارة على حسب العادة.

٢ ـ بالذات:

كقوله تعالى: ﴿مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ﴾ [النساء: ٣]، وكقوله: ﴿ما يَكونُ مِن نَجْوى

---

(١) ويمكن أن يكون تقديم المفعول الثاني ـ وهو (شركاء) ـ على المفعول الأول ـ وهو (الجن) ـ؛ لأن القصد الأول والأهم نفي الشرك، ولو قال: وجعلوا لله الجن شركاء. لفهم أن المستنكَر جَعْلُهم الجن شركاء، ولو جعلوا غيرهم ما كان الأمر مستنكراً.
وذهب الشيخ عبد القاهر إلى تقدير في الآية الكريمة؛ كأنه قيل: وجعلوا لله شركاء. فقيل: من هم؟ فقيل: الجن.

ثلاثةٍ إلا هُو رابِعُهُم ولا خَمْسَةٍ إلا هُو سادِسُهُم﴾ [المجادلة: ٧][1].

٣ ـ بالعلة والسببية:

كتقديم العزيز على الحكيم؛ لأنه عزَّ فحكم، وكتقديم العليم على الحكيم؛ لأن الإتقان ناشىء عن العلم، وكذا أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة؛ كقوله تعالى: ﴿قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لنا إلا ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العَليمُ الحَكيمُ﴾ [البقرة: ٣٢][2].

٤ ـ بالمرتبة:

كتقديم سميع على عليم، فإنه يقتضي التخويف والتهديد، فبدأ بالسميع؛ لتعلقه بالأصوات، وكقوله تعالى: ﴿غَفورٌ رَحيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، فإن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

٥ ـ بالداعية:

كتقديم الأمر بغض الأبصار على حفظ الفروج في قوله تعالى: ﴿قُلْ للمُؤْمنينَ يَغُضُّوا مِن أبصارِهِم ويَحْفَظوا فُروجَهُم﴾ [النور: ٣٠]؛ لأن البصر داعية إلى الفرج.

٦ ـ التعظيم:

كقوله تعالى: ﴿ومَنْ يُطِعِ الله والرَّسولَ﴾ [النساء: ٦٩]، وقوله: ﴿إنَّ الله وملائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) إذ الثلاثة مقدمة على الأربعة.

(٢) وقد تُقدَّم الحكمةُ على العلم في مثل قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿إنَّ ربَّكَ عَليمٌ حكيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وقوله سبحانه: ﴿قالُوا كَذلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَليمُ﴾ [الذاريات. ٣٠]؛ لأن سياق الآية الكريمة يقتضي ذلك؛ لأن الأمور التي تحدثت عنها الآية تظهر فيها الحكمة جلية واضحة، وذلك في شأن إبراهيم وزوجه عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاته وسلامه.

٧ ـ الشرف:

وهو أنواع؛ منها: شرف الرسالة؛ كقوله تعالى: ﴿وما أرْسلنا مِن قبلِكَ مِن رسولٍ ولا نبيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، فإن الرسول أفضل من النبي.

ومنها شرف الحرية؛ كقوله تعالى: ﴿الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ومنها شرف الإيمان: ﴿وإنْ كانَ طائِفَةٌ منكُمْ آمَنوا بالذي أُرسِلْتُ بِهِ وطائِفَةٌ لَمْ يُؤمِنوا﴾ [الأعراف: ٨٧].

٨ ـ الغلبة والكثرة:

كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم ظالِمٌ لنَفْسِهِ ومنْهُم مُقْتَصِدٌ ومنهُمْ سابِقٌ بالخَيْراتِ بإذْنِ اللهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ قدم الظالم، ثم المقتصد، ثم السابق.

٩ ـ سبق ما يقتضي تقديمه:

وهو دلالة السياق؛ كقوله تعالى: ﴿ولَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وحينَ تَسْرَحونَ﴾ [النحل: ٦]، لمَّا كان إسراحها وهي خماص، وإراحتها وهي بطان؛ قدم الإراحة، لأن الجمال بها حينئذ أفخر.

١٠ ـ مراعاة اشتقاق اللفظ:

كقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شاءَ منكُمْ أن يَتَقَدَّمَ أو يتأخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وأخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

١١ ـ للحث عليه؛ خيفة من التهاون به:

كتقدم تنفيذ الوصية على وفاء الدَّين في قوله: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصي بها أو دَيْنٍ﴾ [النساء: ١١]، فإن وفاء الدين سابق على الوصية، لكن قدم الوصية لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها بخلاف الدين.

ونكتفي بهذا، ومن أراد مزيداً فليرجع إلى كتاب «البرهان في علوم القرآن»[1].

---

(١) «القول في التقديم والتأخير» (٣ / ٢٣٣) وما بعدها.

خاتمة

اعلم أن طريقة العرب تختلف تقديماً وتأخيراً باختلاف الموضوع الذي يريدون التحدث عنه، ففي الإيجاب يبدؤون بالأعم، ثم الأخص منه، وفي المدح كذلك، فيقولون: عاقل، عالم، نحرير. وعليه قول البحتري يصف نحول الركاب:

يَتَرَقْرَقْنَ كالسَّرابِ وقدْ خُضْـ — ـنَ غِماراً مِن السَّرابِ الجاري

كالقِسِيِّ المُعْطَفاتِ بلِ الأسْـ — ـهُمِ مَبْرِيَّةً بل الأوتارِ(١)

فترقى في تشبيه نحولها، فشبهها بالقسي، ثم بالأسهم المبرية، ثم بالأوتار، وهي أشد الثلاثة نحولاً.

ويقولون: هو كريم جواد، يبذل كل ماله، بل يتحمل الدين في سبيل المكارم.

ويقولون: هو ذو دين يقوم الليل، يتورع عن المحارم، يبذل ماله ونفسه في سبيل الله.

أما في السلب؛ فيعكسون القضية، فيقولون: هو لا يبذل نفسه ولا ولده ولا ماله. لا يفكر في إنقاذ وطنه، ولا يقاطع عدوه، بل لا يتورع عن مودته، بل يفشي له أسراراً خطيرة.

وذلك هو سنن العرب في خطابها.

تلك مباحث التقديم والتأخير، أرجو أن تكون قد جلّيت لك، وأن تطبقها على أساليب القول مستمعاً ومتكلماً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

□□□

(١) «ديوان البحتري» (٢/ ٩٨٧).

تدريب

بين أغراض التقديم والتأخير ونوع المقدم أو المؤخَّر في ما يلي:

١ - قال تعالى: ﴿تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلوها عليكَ بالحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

٢ - وقال تعالى: ﴿وما اللهُ يُريدُ ظُلْماً للعِبادِ﴾ [غافر: ٣١].

٣ - وقال تعالى: ﴿ولَئِنْ مُتُّمْ أو قُتِلْتُم لَإِلى اللهِ تُحْشَرونَ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

٤ - وقال تعالى: ﴿لَنا أعْمالُنا ولَكُمْ أعمالُكُم﴾ [القصص: ٥٥].

٥ - وقال تعالى: ﴿اللهُ يَجْمَعُ بينَنا وإليهِ المَصيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

٦ - قال أبو فراس الحمداني[1]:

أمِثْلِيَ تُقْبَلُ الأقوالُ فيهِ ... ومِثْلُكَ يَسْتَمِرُّ عليهِ كِذْبُ[2]

٧ - وقال:

ما كُلُّ ما فَوْقَ البَسيطةِ كافِيا ... فإذا قَنِعْتَ فكُلُّ شيءٍ كافِ[3]

٨ - وقال عمارة اليمني[4]:

ما كُلُّ قولِيَ مَشْروحاً لكُمْ فَخُذوا ... ما تَعْرِفونَ وما لَمْ تَعْرِفوا فَدَعوا

---

(١) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، أبو فراس، أديب، شاعر، فارس، جواد، ولد بمنبج، وأسرته الروم جريحاً، فبقي بالقسطنطينية أعواماً، ثم فداه سيف الدولة منهم بأموال، ثم تملك حمص، ثم قتل بتدمر. [المعجم: ٣/ ١٧٥].

(٢) «الديوان» (ص ٧٧)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) «الديوان» (ص ١٨٠).

(٤) عمارة بن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني الشافعي أبو محمد، ولد سنة (٥١٥ هـ)، مؤرخ، شاعر، من أهل مدينة مرطان بوادي السباع باليمن، قتل بالقاهرة شنقاً سنة (٥٦٩ هـ). [المعجم: ٧/ ٢٦٨].

٩ - وقال تعالى: ﴿إنَّ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

١٠ - قال السموأل[١]:

وإنْ هُو لم يَحْمِـلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّنـاءِ سَبيلُ[٢]

١١ - وقال:

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَن نُجيرُهُ مُنيفٌ يَرُدُّ الطرفَ وهو كَليلُ[٣]

١٢ - لِسانُكَ لا تَذْكُرْ بهِ عوْرَةَ امرئٍ فكُلُّكَ عَوْراتٌ ولِلنّاسِ ألْسُنُ

١٣ - وقال الشيخ:

وما أنا أفْرَحْتُ قَلْبَ العَدُوّ ولا أنا بِعْتُ تُرابَ الوَطَنْ
وما أنا أفْسَدْتُ عَقْلَ الشَّبابِ وما أنا أضْرَمْتُ نارَ الإحَنْ

١٤ - وقال المتنبي:

وفيكَ إذا جنى الجُناةُ أناةٌ تُظَنُّ كَرامَةً وهِيَ احْتِقارُ[٤]

١٥ - ﴿إنَّ وليِّيَ اللهُ الذي نَزَّلَ الكِتابَ وهُو يَتَوَلَّى الصَّالِحينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

١٦ - وقال تعالى: ﴿ولم يَكُنْ لهُ كفواً أحدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

١٧ - وقال تعالى: ﴿واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فإذا هِيَ شاخِصَةٌ أبصارُ الذينَ كَفَروا﴾

---

(١) السموأل بن عريض بن عادياء الأودي، شاعر جاهلي حكيم، من سكان خيبر، وهو الذي تنسب إليه قصة الوفاء مع امرىء القيس، توفي سنة (٩٥ ق. هـ).

(٢) «ديوانه»، دار صادر، (ص ٩٠).

(٣) «شرح شواهد المغني» (٤/ ٢٠٢)، «ديوان الحماسة بشرح التبريزي» (١/ ١٠٨).

(٤) «ديوانه» (٢/ ٢٠٣).

يقول: فيك رفق وحلم عن الجاني، لا تسرع في عقوبته؛ فيظن أن ذاك لكرامة له عليك. وهو احتقار له

[الأنبياء: ٩٧].

١٨ - قال ابن الوردي في لاميته:

أنـا لا أخْـتـارُ تَقـبِـيلَ يَدٍ   قطعُهـا أجمـلُ مِن تلكَ القُبَلِ[1]

١٩ - قال طرفة بن العبد:

فيا لَكَ مِن ذي حاجَـةٍ حِيلَ دُونَها   ومـا كُلُّ ما يَهْوى امرؤ هُو نائِلُهْ[2]

٢٠ - وفي النَّفْسِ حاجـاتٌ وفيكِ فَطانَةٌ   سُكـوتي بيانٌ عنـدَهـا وجَـوابُ

٢١ - قَدْ يَجْـمَـعُ الـمـالَ غيرُ آكِلِهِ   ويأكُـلُ الـمـالَ غيرُ من جَمَعَـهُ

٢٢ - قال تعـالى: ﴿لِتَكـونـوا شُهـداءَ على النَّـاسِ ويكونَ الرَّسولُ عليكُم شَهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣].

متى يَحْسُن أن نقول: هو جاء. أو: جاء. فقط؟

ما الفرق بين قولنا في ما يلي:

مجد ضاع. وضاع مجد؟

ما أنا ظلمت. وأنا ما ظلمت. وما ظلمت؟

مثلك لا يكذب. وأنت لا تكذب. ولا تكذب؟

القهوة اشرب. واشرب القهوة.

ما الحقَّ أضيِّعُ. ولا أضيِّعُ الحق.

□□□

(١) «الجواهر المختارة من تراث العرب» جمعها محمد صالح البنداق (ص٥٣).

(٢) «معاهد التنصيص» (١/ ١٤٦).

الفصل الخامس

الحذف والذكر

من مباحث الجملة التي عُني بها علماء البلاغة الحذف، فمن الخصائص الأولى للعربية الإيجاز، وما دام الأمر كذلك؛ فإن كل كلمة أو جملة يمكن أن يُفهم المعنى بدونها؛ لوجود قرائن تدل على الحذف حريٌّ بها أن تحذف، فإن الحذف ـ إذن ـ أمر لا مناص منه، فما بالك إذا كان الحذف مزية أخرى يزدان بها الكلام حسناً، ويجمل رونقاً، ويكون أكثر رواء؟! فذلك مما يؤكد الحذف؛ إن لم نقل يوجبه.

هاتان ميزتان للحذف إذن:

١ ـ كمال المعنى مع المحذوف من جهة

٢ ـ حكم بيانية وأغراض بلاغية تُفهم من هذا الحذف من جهة أخرى.

وإذا أردت أن تدرك القيمة البيانية للحذف؛ فتصور أحد الناس وهو يكلمك كلاماً ممجوجاً، يكرر فيه المعنى، ويعيد فيه اللفظ، فإنك نفسك تمجُّه، وقلبك يشمئزُّ منه، وعقلك ينكره، وبالجملة؛ فإنك تملُّه، وتنفر منه، وما ذلك إلا لما فيه من زيادة، ولكنها زيادة تدخله في باب النقص.

وهذا ما أشار إليه عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ عندما قال:

«هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما

تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ، وهٰذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر»[1].

والحذف هو الذي اقتصر عليه المتقدمون، فذكروا أغراضه، ومسوغاته، وميزاته، ومحسناته.

أما الذكر؛ فلم يعرض له إلا المتأخرون من علماء البلاغة؛ ذٰلك لأن الذكر هو الأصل.

ومع هٰذا، وتتميماً للفائدة، فسنلم لك بشيء مما ذكروه في مقتضيات الذكر، بعيدين عن كل ما فيه تكلُّف وتعمُّل، ثم نعرِّج على الحذف؛ لنغوص في دقائقه؛ مستمدين من الله العون.

□□□

(1) «دلائل الإعجاز» (ص ١٧٨).

□ المبحث الأول:

الذكـــــر

وسوف نقسم الحديث عن الذكر - لتكتمل الفائدة به - إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ذكر المسند إليه.

المطلب الثاني: ذكر المسند.

المطلب الثالث: ذكر متعلقات الفعل.

* المطلب الأول:

ذكر المسند إليه

قال صاحب «التلخيص»:

«وأما ذكره - أي المسند إليه - فلكونه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه، أو للاحتياط؛ لضعف التعويل على القرينة، أو للتنبيه على غباوة السامع، أو زيادة الإيضاح والتقرير، أو إظهار تعظيمه، أو إهانته، أو التبرُّك بذكره، أو استلذاذه، أو بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب؛ نحو: ﴿هِيَ عَصايَ﴾ [طه: ١٨]»[1].

هٰذه هي الأغراض التي ذكرها صاحب «التلخيص» لذكر المسند إليه، وسوف نبينها لك في ما يلي بالتفصيل:

■ أغراض ذكر المسند إليه:

١ - يُذكر لأنه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه:

وأنت خبير بأن المبتدأ مقدم على الخبر، والمسند إليه في كثير من حالاته يكون.

(١) «التلخيص في علوم البلاغة»، للخطيب القزويني، شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، (ص ٥٦).

مبتدأ، وذٰلك مثل قوله تعالى: ﴿اللهُ نورُ السَّماواتِ والأرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وقوله عز وجل: ﴿اللهُ وليُّ الذينَ آمَنوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقولك: الحق أحق أن يُتَّبع.

وهٰذا يمكنك أن تبحث عنه في كثير من الجمل.

٢ ـ الحيطة في الأمر:

ومن الأغراض التي يُذكر من أجلها المسند إليه الحيطة في الأمر، حتى تُسَدَّ كل ثغرة على كل متأول؛ كما يقول القاضي: هل أقرَّ المتَّهم ما وُجِّهَ إليه؟ فيُقال: المتهم أقرَّ بكل ما وُجِّه إليه. هل اعترف خالد بحقك؟ فتقول: خالد اعترف بحقي.

٣ ـ للتنبيه على غباوة السامع:

وقد يُذكر تنبيهاً على غباوة السامع، وذٰلك يكثُر عند إرادة التقرير، كأن يقول بعض اللاهين: هل صرح العدو بأنه يريد تحويل مواردنا المائية ليفيد منها؟ فتقول: العدو صرح بذلك. وكأن يقول بعض الكسالى: هل قال الأستاذ: إن الامتحان بعد يومين؟ فتقول له: الأستاذ قال ذٰلك.

٤ ـ لزيادة الإيضاح والتقرير:

وقد يُذكر لزيادة الإيضاح والتقرير، وتأكيد اختصاصه بالمسند، وذٰلك مثل قوله تعالى: ﴿أولٰئكَ على هُدىً مِن ربِّهم وأولٰئكَ هُم المُفْلِحونَ﴾ [البقرة: ٥]، فإن اسم الإشارة ـ وهو المسند إليه ـ ذُكر أولاً في قوله تعالى: ﴿أولٰئكَ على هُدىً مِن ربِّهم﴾، وذُكر ثانياً في قوله تعالى: ﴿وأولٰئكَ هُم المفْلِحونَ﴾، وهٰذا الذكر لزيادة الإيضاح، والتقرير، وليؤكد اختصاصه بالمسند، فهٰؤلاء الذين ثبتت لهم الهداية هم الذين ثبت لهم الفلاح، واختصوا به دون غيرهم.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرحيمِ . قُلْ هُو اللهُ أحدٌ . اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢]، فقد ذُكر اسم الجلالة مرتين؛ ذكر أولاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ هو اللهُ أحدٌ﴾، وثانياً في قوله تعالى: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾، وما ذٰلك إلا ليبيِّن أنه هو

المعبود المقصود وحده لقضاء حوائج الناس.

وإذا أردت أن تدرك جمال موقعه، وحسن موضعه؛ فقل: قل هو الله أحد. الصمد. وانظر كيف ينزل الكلام عن تلك المرتبة الرفيعة؟ وكيف يذهب هٰذا الرونق، ويذوي هٰذا الجمال الذي يزين لفظه ومعناه؟

واستمع إلى قول النبي عليه وآله الصلاة والسلام: «ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[1]، وقل لي بربك؛ هل تجد في كلام الناس ما يؤثر في نفسك مثل هٰذا القول؟

وهٰكذا؛ كل كلام تريد أن تزيد في تقريره؛ تقول مثلاً: الإسلام قول وعمل، الإسلام عبادة وقيادة، الإسلام دين ودولة، الإسلام مصحف وسيف، الإسلام توحيد ووحدة

وتقول: فلسطين قلب العالم الإسلامي، فلسطين مسؤولية الأمة جميعها، فلسطين أمانة الله ومسرى رسوله ﷺ، فلسطين لا ترجع بالشعارات والهتافات، فلسطين بحاجة إلى تضحية وإخلاص.

٥ ـ للتعظيم:

وقد يذكر للتعظيم؛ كقولنا: محمد رسول الله ﷺ، محمد سيد الخلق، محمد نبيُّ الهدى.

٦ ـ للإهانة والتحقير:

وقد يذكر لإهانته وتحقيره؛ كما تقول: أبو رغال هو الذي سار مع أبرهة الحبشي دليلاً إلى مكة، أبو رغال أول خائن في هٰذه الأمة، أبو رغال ومن على شاكلته حريٌّ أن يُرجم كل يوم.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب القيامة، أبواب صفة القيامة، باب رقم (١٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

٧ ـ للتبرك:

وقد يُذكر للتبرك؛ كما تقول: الله حسبي. الله وليي. الله سندي.

٨ ـ للتلذُّذ:

قد يذكر للتلذُّذ، وذلك كثير في شعر الشعراء:

بالله يا ظَبَياتِ القاعِ قُلْنَ لَنا　　لَيْلايَ منكُنَّ أمْ لَيْلى مِن البَشَرِ[١]

٩ ـ في مقام البسط:

وقد يذكر في مقام البسط، حيث تجمل إطالة القول، ألا ترى إلى موسى عليه الصلاة والسلام وقد قال الله له: ﴿وما تِلْكَ بِيَمينِكَ يا مُوسى﴾ [طه: ١٧]، فأدرك موسى عليه الصلاة والسلام أن هذا مقام يطيب فيه الحديث، ويحلو فيه التفصيل، ولا يجمل فيه الإجمال، فقال: ﴿هِيَ عَصايَ﴾ [طه: ١٨]، وكان يمكن أن يقول: عصا. ولكنه قال: ﴿هِيَ عَصايَ﴾، ولم يكتف بذلك، بل قال: ﴿هِيَ عَصايَ أتَوَكَّأُ عليها وأهُشُّ بِها على غَنَمي ولِيَ فيها مآرِبُ أُخْرى﴾ [طه: ١٨].

وكذلك حينما يسألك أستاذ تحبه، وتحب أن تتحدث معه، وقد رأى معك كتاباً: ما هذا؟ فتقول له: هذا كتاب «حصوننا مهددة من داخلها»، ذكر فيه المؤلف كذا وكذا، وحذَّر فيه الأمة من أولئك الذين يريدون أن يسلبوها شخصيتها، وهم أشد عليها خطراً من الأعداء.

وهكذا تحْسُنُ إطالة الكلام مع ذوي الفضل، وأولي النهى، وأصحاب العلم والصلاح.

□□□

---

(١) «خزانة الأدب» (١/ ٩٧)، روي البيت للمجنون، وقيل. لذي الرمة، وقيل: للحسين بن عبد الله.

*** المطلب الثاني :**

ذكر المسند

والأغراض التي عُدِّت في ذكر المسند إليه يمكن أن تعدَّ هنا في ذكر المسند كذٰلك :

١ ـ لأنه الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه :

فيذكر أيضاً لأنه الأصل، وذٰلك كقولك : الأقصى ثالث الحرمين.

٢ ـ للتعويل على ضعف القرينة :

ويمكن أن يُذكر للتعويل على ضعف القرينة، فإذا سُئلت: أي الأعداء أكثر مكراً؟ وأيهم أكثر قسوة؟ تقول: الإنجليز أكثر مكراً، واليهود أكثر قسوة. ولو أنك قلت: الإنجليز أكثر مكراً، واليهود. فربما يظن بعض الناس أن اليهود أكثر مكراً كذٰلك، ولهٰذا تذكر المسند ـ وهو: أكثر قسوة ـ لضعف التعويل على القرينة.

٣ ـ للتعريض بغباوة السامع أو خطئه :

وقد يذكر المسند تعريضاً بغباوة السامع، أو خطئه؛ كما تقول لمن يحسن الظن بأمريكا ـ وقد سألك: أي الدول أكثر خطراً على قضايانا؟ ـ: أكثر الدول خطراً أمريكا. على أن قولك: (أكثر)؛ هو المبتدأ.

وقد جاء في التنزيل حكاية عن إبراهيم عليه السلام ـ وقد سأله قومه: ﴿أأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذا بآلِهَتِنا يا إبْراهيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] ـ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُم هٰذا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فذكر المسند ـ وهو (فَعَلَهُ) ـ ولم يقل: بل كبيرهم هٰذا.

ومثل هٰذا قولك لمن سألك عن مذابح صبرا وشاتيلا؛ فتقول: اشترك فيها الصليبيون واليهود.

٤ ـ لإفادة تخصيصه بالمسند إليه:

وقد يذكر المسند لإفادة تخصيصه بالمسند إليه، وذٰلك كقوله تعالى: ﴿لَهُم في الدُّنْيا خِزْيٌ ولَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عظيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، فأنت ترى أنه قد ذكر المسند ـ وهو قوله تعالى: ﴿لهم﴾ ـ مرتين، ولم يقل: لهم في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب عظيم. لأن الهدف أن يبين أنهم كما استحقوا الخزي، فهم كذٰلك يستحقون العذاب العظيم في الآخرة.

ومثله قولنا: لأطفال الحجارة تقديرنا وإكبارنا، ولهم تضرعاتنا ودعاؤنا، ولهم ما تملك أيدينا، ولهم خفقات قلوبنا.

٥ ـ لإيضاح إفادته التجدد أو الثبوت:

ومن الأغراض التي يُذكر فيها المسند كذٰلك أن نتبين هل هو فعل، فيفيد التجدد، أو اسم، فيفيد الثبوت؛ كما تقدم لك عند حديثنا عن الجملة؟

يقول الله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ يُدافِعُ عنِ الذينَ آمَنوا﴾ [الحج: ٣٨]، فقد ذكر المسند هنا، وهو فعل (يدافع)؛ ليفيد التجدد كلما أصاب المؤمنين ضائقةٌ وكرب، وفي هٰذا تسلية وثبات للمؤمنين؛ ليثبتوا على إيمانهم، وليكونوا الشمعة المضيئة في الظلمة الحالكة.

ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ اشْتَرى مِن المُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُم وأموالَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا ورُسُلي إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، فقد ذُكر المسند هنا ـ وهو اسم ـ وهو قوله تعالى: ﴿قويٌّ﴾؛ ليفيد الثبوت.

٦ ـ تشويقاً للسامع:

وأخيراً، فقد يُذكر المسند إليه والمسند معاً تشويقاً للسامع من جهة، وتحقيقاً لوقوع المسند من جهة، وذٰلك إذا كان في ذكر المسند إليه طمأنينة للسامع، وفي ذكر المسند ترغيب له.

اقـرأ قول الله تبـارك وتعـالى: ﴿فَضَّلَ اللهُ المُجاهِدينَ بأموالِهِمْ وأنْفُسِهِم على القـاعِـدينَ درَجَـةً وكُلاًّ وعَدَ اللهُ الحُسْنى وفَضَّلَ اللهُ المُجاهِدينَ على القاعِدينَ أجْراً عَظيماً. دَرجات مِنهُ ومغفرةً ورَحْمةً وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [النساء: ٩٥-٩٦]. فأنت ترى أن المسند إليه ـ وهو لفظ الجلالة ـ قد ذكر أكثر من مرة، وذكره لا شك يفيد تحقيق المسند؛ ذٰلك لأن النفوس تطمئن إلى وعده، ﴿ومَنْ أصْدَقُ مِن اللهِ حَديثاً﴾ [النساء: ٨٧]. وقد ذكر المسند ـ وهو (فضَّل) ـ أكثر من مرة، وفيه من الترغيب للسامع ما لا يخفى.

ومن هٰذا القبيل قولك: قال رسول الله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف»[1]، وقال رسول الله ﷺ: «لغدوةٌ في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»[2]، وقال رسول الله ﷺ: «لـولا أن أشُقَّ على أمَّتي؛ما قعدت خلاف سرية»[3]. فأنت ترى هنا أنه قد ذكر المسند إليه والمسند؛ لما عرفت من التشويق، والترغيب، وغيرهما من الأغراض.

* المطلب الثالث:

ذكر متعلقات الفعل

عرفت في بحث التقديم والتأخير معنى متعلقات الفعل.

وبادي بدء نتلو عليك قول الله تعالى: ﴿وبالحَقِّ أنْزَلْناهُ وبالحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿ومِن النَّاسِ مَن يَقولُ آمَنَّا باللهِ فإذا أُوذِيَ في اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَـذابِ اللهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقـال سبـحانـه: ﴿رَبَّنا عليكَ توكَّلْنا وإليكَ أنَبْنا

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: الجنة تحت بارقة السيوف، باب رقم (٢٣)، حديث رقم (٢٦٦٣)، ورواه مسلم في كتاب الجهاد.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب: الغدوة والروحة في سبيل الله، باب رقم (٥)، حديث رقم (٢٦٣٩). ورواه مسلم في كتاب الإمارة.

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: الجهاد من الإيمان، باب رقم (٢٦)، حديث رقم (٣٦).

وإليك المصيرُ﴾ [الممتحنة: ٤][1].

إذا تأمّلت هٰذه النصوص الكريمة؛ وجدتها جميعاً تتحدث عن قضايا ذات شأن، يُراد تقريرها، وتثبيتها في النفوس، وقد تجيء في مقام التضرع، والرغبة في بسط الكلام وإطالته.

فالآية الأولى كانت حديثاً عن القرآن الكريم، بأنه من عند الله، لا مرية في ذٰلك، وهٰذا معنى قوله تعالى: ﴿وبالحَقِّ أنْزَلْناهُ﴾؛ هٰذا أولاً.

وأما ثانياً؛ فإن كل ما جاء في هذا الكتاب الكريم حق لا مرية فيه؛ قصصه، وتشريعاته، وعلومه، وعقائده؛ كلها حق، وهٰذا معنى قوله سبحانه: ﴿وبالحَقِّ نَزَلَ﴾.

فأنت ترى أن ذكر المتعلّق (بالحق)؛ إنما جاء لزيادة التقرير والفائدة.

وكذٰلك الآية الثانية؛ ذكر فيها اسم الجلالة ثلاث مرات؛ لأن المقام مقام تحذير المؤمنين أن يكونوا من أولٰئك الذين يسوون بين فتنة الناس، وبين عذاب الله، ففي ذكر اسم الجلالة تربية للمؤمنين، وإمداد لهم بالتثبيت والصبر.

وفي الآية الثالثة مقام بسط، حيث تجمل الإطالة، وفيه من التضرع والدعاء ما يَتلذَّذ ويَخشع به الداعي.

وهٰكذا تدرك أنك تذكر ما تذكر من متعلقات الفعل، حينما يقتضي المقام ذٰلك؛ كزيادة التقرير، وتثبيت الشيء في النفوس، والتنصيص على علة الشيء وسببه.

فإذا أردت أن تثبت في نفس المستمع أسباب هٰذه الهزائم المتلاحقة، وأسباب هٰذا الذلّ الذي تعاني منه أمتنا، وتبين له طريق الخلاص، فإنك تراك مضطرًا أن تردد مثل هٰذه الكلمات: بالإيمان تتخطى الأمم كل صعوبة، بالإيمان نجتاز كل عقبة، بالإيمان استطاعت القلة المؤمنة أن تنشر أعلام الحق في هٰذه الدنيا في أقل من ثلث

---

(١) فالمتعلق في الآية الأولى: (بالحق)، وفي الثانية: (بالله)، (في الله)، (كعذاب الله)، وفي الثالثة: (عليك)، (إليك).

قرن، وبالإيمان استطاعوا أن يفوِّتوا على الأعداء المتربصين بهم من كل جانب كل فرصة.

وهٰكذا حينما تريد أن تقرر أمراً؛ سواء كان هٰذا الأمر زماناً، أم مكاناً، أم حالاً.

فإذا أردت أن تتحدث عن آثار مولد النبي ﷺ، فإنك تردِّد هٰذه العبارة: عام الفيل ولد فيه النبي الكريم ﷺ، عام الفيل نعده نقطة تحول في تاريخ البشرية.

وهٰكذا عام الحديبية، أو الهجرة، أو سنة سبع وستين[1].

وكذٰلك إذا أردت أن تتحدث عن أثر المسجد في تاريخ المسلمين، أو عن آثار موقعة حطين، أو عن حال من أحوال عمر رضي الله عنه، أو عن صلاح الدين رحمه الله ورضي عنه.

خلاصة القول أننا نذكر هٰذه حينما نرى المقام يستدعي ذٰلك تذكرة، أو تحسراً، أو إلهاباً، أو غير ذٰلك من المقامات المتعددة.

□□□

---

(١) ذكرنا العام في الذكريات المشرقة، وذكرنا السنة فيما هو مؤلم.

□ المبحث الثاني :

الحـــــذف

■ مقدمة :

من الحق أن نقرر أن من أدق موضوعات البلاغة مسلكاً، وأدعاها لإعمال الفكر، هٰذا الموضوع الذي نحن بصدده ـ وهو الحذف ـ ولعل هٰذا السبب الذي جعل الشيخ عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ حينما تحدث عنه ؛ يكثر من الأمثلة والشواهد من الكلام البليغ ؛ دون ذكر قواعد معينة يرجع إليها الدارس ؛ كما رأينا ذٰلك مثلاً في التقديم والتأخير، فقد عرفنا هناك أنه إذا تقدم النفي على المسند إليه ، وكان الخبر فعلاً ؛ فُهم منه التخصيص ، وإن لم يكن هناك نفي ، أو تأخر النفي ؛ كان لتقوية الحكم .

وهٰكذا رأينا أن هناك قواعد منضبطة يمكننا أن نراعيها حينما نريد غرضاً من الأغراض البلاغية، ولكننا لن نستطيع أن نضع هٰذه القواعد، ونحن نتحدث عن الحذف .

وما ذكره المتأخرون ؛ فإنه في ظني يبعد القارىء عن الأهداف النفسية ، والأغراض البيانية ، التي تحسّن الحذف وتؤكده .

استمع مثلاً إلى ما ذكره الخطيب القزويني في «تلخيصه» لـ «مفتاح» السكاكي ، قال :

«أما حذفه ـ أي : المسند إليه ـ فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ؛ كقوله : قال لي : كيف أنت؟ قلت : عليل. أو اختبار تنبه السامع عند القرينة ، أو مقدار تنبهه ، أو إيهام صونه عن لسانك ، أو عكسه ، أو تأتّي الإنكار لدى الحاجة ، أو تعيُّنه ، أو ادعاء التعين ، أو نحو ذلك» .

ثم قال :

«وأما ترك المسند ؛ فلما مرَّ» .

فالأغـراض التي يحذف المسند إليه من أجلها؛ هي التي يحذف المسند من أجلها كذلك.

وهٰذا قول يشق على القارىء فهمه، هٰذا من جهة، ومن جهة أخرى، فيه خروج عن طبيعة البلاغة التي تتفق مع فطرة النفس؛ خروج بها إلى قضايا عقلية حري بنا أن نبعد البلاغة عنها.

ولكن صاحب «التلخيص» سلك مسلكاً في حذف المفعول؛ كان أيسر وأقرب إلى روح البيان وصنعة البلاغة(١)؛ حيث قال:

«الفعل مع المفعول؛ كالفعل مع الفاعل، في أن الغرض من ذكره معه إفادة تلبسه به، لا إفادة وقوعه مطلقاً، فإذا لم يذكر معه؛ فالغرض إن كان إثباته لفاعله، أو نفيه عنه مطلقاً؛ نُزِّل منزلة اللازم، ولم يقـدَّر له مفعول؛ لأن المقدر كالمذكور، وهو ضربان؛ لأنه إما أن يجعل الفعل مطلقاً؛ كناية عنه، متعلقاً بمفعول مخصوص، دلت عليه قرينة أو لا، الثاني كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوي الذينَ يَعْلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [الزمر: ٩].

السكاكي: ثم إذا كان المقام خطابيًّا لا استدلاليًّا؛ أفاد ذٰلك مع التعميم؛ دفعاً للتحكم، والأول كقول البحتري في المعتز بالله:

شَجْـوُ حُسَّـادِهِ وغَـيْظُ عِداهُ أنْ يَرَى مُبْـصِـرٌ ويَسْـمَـعَ واعِ(٢)

أي: أن يكون ذا رؤية وذا سمع، فيدرك محاسنه، وأخباره الظاهرة الدالة على استحقاقه الإمامة دون غيره، فلا يجد إلى منازعته سبيلاً، وإلا وجب التقدير بحسب القرائن.

ثم الحذف؛ إما للبيان بعد الإبهام؛ كما في فعل المشيئة؛ ما لم يكن تعلقه به

---

(١) ما نظن ذلك إلا لأن الشيخ عبد القاهر فصل في حذف المفعول، فأخذ عنه القوم، ولم يفصِّل في حذف المسند والمسند إليه. راجع «دلائل الإعجاز».

(٢) «الديوان» (٢/ ١٢٤٤).

غريباً، نحو: ﴿فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]؛ بخلاف نحو: ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته.

وأما قول أبي الحسن[1]:

فَلَوْ شِئْتُ أنْ أبْكي بكَيْتُ تفكُّراً ... فَلَمْ يُبْقِ مِنّي الشَّوْقُ غيرَ تَفَكُّري[2]

فليس منه؛ لأن المراد بالأول البكاء الحقيقي.

وإما لدفع توهم إرادة غير المراد ابتداء؛ كقوله البحتري:

وكَمْ ذُدْتَ عَني مِن تَحامُلِ حادِثٍ ... وسَوْرَةِ أيَّامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ[3]

إذ لو ذكر اللحم؛ لربما توهم قبل ذكر ما بعده أن الحزّ لم ينته إلى العظم.

وإما لأنه أُريد ذكره ثانياً على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه؛ إظهاراً لكمال العناية بوقوعه عليه؛ كقول البحتري:

قَدْ طَلَبْنا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ في السُّؤْ ... دُدِ والمَجْدِ والمَكارِمِ مِثْلا[4]

ويجوز أن يكون السبب ترك مواجهة الممدوح بطلب مثل له.

وإما للتعميم مع الاختصار؛ كقولك: قد كان منك ما يؤلم. أي: كل أحد. وعليه: ﴿واللهُ يَدْعو إلى دارِ السَّلامِ﴾ [يونس: ٢٥].

وإما لمجرد الاختصار عند قيام قرينة؛ نحو: أصغيت إليه. أي: أذني. وعليه: أرني أنظر إليك. أي: ذاتك.

وإما للرعاية على الفاصلة؛ نحو: ﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلى﴾ [الضحى: ٣].

---

(١) أبو الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني؛ قال الثعالبي: نجم جرجان. ورد نيسابور سنة (٣٣٧ هـ)، وكان شاعراً.

(٢) «يتيمة الدهر» (٣/ ٢٥٩، ٢٧٤)، «معاهد التنصيص» (١/ ٢٥٤)، «الدلائل» (١٦٧).

(٣) «ديوانه» (٣/ ٢٠١٤).

(٤) «ديوانه» (٣/ ١٦٥٣).

وإما لاستهجان ذكره؛ كقول عائشة رضي الله عنها: ما رأيت منه، ولا رأى مني. أي: العورة.

وإما لنكتة أخرى»[1].

وإذا نحن قارنّا هٰذا مع ما ذكره الشيخ رحمه الله؛ فسنجد البون الشاسع؛ إذ ما قرره الشيخ تسترسل معه طبيعة النفس، ذٰلك لأن فيه تفصيلاً يشدُّك إلى صفة البيان، ويظهر لك هٰذا وأنت تتصفح كتاب «دلائل الإعجاز».

وسنحاول أن نسلك بك مسلكاً تستطيع أن تتذوق به ـ إن شاء الله ـ حلاوة هٰذا الموضوع، وتقف على ما فيه من سرٍّ بياني، وروعة بلاغية.

ونُقرر لك أولاً أنه يجمل الحذف كلما وجدنا أنفسنا بغنى عن الكلمات المحذوفة، وكلما كنا أكثر استغناء عن الكلمة؛ كان الحذف أكثر جمالاً، ونذكرك أننا لا ينبغي أن ننسى أوضاع المخاطبين الذين نوجِّه حديثنا إليهم، فنجعله ألواناً مختلفة، ونذكِّرك كذٰلك أننا كما لا ينبغي أن ننسى أوضاع المخاطبين؛ فلا ينبغي أن ننسى أنفسنا كذٰلك ونحن نتحدث.

يسأل سائل: أين المحاضرة؟ وأنت تعرف نباهته، وحسن تلقِّيه للإجابة، فتقول: في النادي. وقد يسألك فتتلكَّأ في الإجابة، فيجيئكما صديق ثالث، فتجد أن من الحكمة البيانية أن تقول: المحاضرة في النادي. فقد تأخرت في الإجابة من جهة، وجاء ثالث لم يشهد السؤال من جهة أخرى.

وقد يسألك سائل: ألا تجلس معنا؟ فتودُّ أن تعبِّر له عما أنت فيه، فتقول: مشغول. أو يسألك: كيف أنت؟ فتقول: عليل. فكأن ضيق المقام أوجب عليك هٰذا الاختصار أو الحذف.

---

(١) «التلخيص في علوم البلاغة»، للخطيب القزويني، شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، (ص ٥٤، ١٢٩).

ورائدنا في ذٰلك كتاب الله تعالى الذي نراه يذكر حيث يجمل الذكر، ويحذف حيث يحسن الحذف، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ لَيقـولُنَّ الله﴾ [لقمان: ٢٥]، وقوله في آية أخرى: ﴿ولَئِنْ سأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ لَيَقولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزيزُ العَليمُ﴾ [الزخرف: ٩].

فانظر كيف حذف أولاً، وذكر ثانياً، وما ذٰلك إلا لاختلاف المقامين.

واستمع إلى قوله سبحانه: ﴿وضَرَبَ لَنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَن يُحْيِي العِظامَ وهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيها الذي أنْشَأها أوَّلَ مَرَّةٍ وهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عليمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]، ثم اتـلُ قولـه سبحانه في آية أخرى: ﴿وقالوا أإذا كُنَّا عِظاماً ورُفاتاً أإنَّا لَمَبْعوثونَ خَلْقاً جَديداً . قُلْ كُونوا حِجارَةً أوْ حَديداً . أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدورِكُم فَسَيَقولونَ مَنْ يُعيدُنا قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١].

انظر كيف ذكر المسند في الآية الأولى: ﴿قُلْ يُحْيِيها الذي أنْشَأها﴾، وحذفه في هٰذه الآية: ﴿قُلِ الذي فَطَرَكُم﴾؛ فلم يقل: يعيدكم أو يحييكم. وانعم ثم أنعم على هٰذا النظم، وشمِّر عن ساعد الجدّ؛ لتذوق مواطن الإعجاز، وحارب اليأس والكسل: ﴿ويَقولونَ مَتى هُو قُلْ عَسَى أنْ يَكونَ قريباً﴾ [الإسراء: ٥١].

نحن نحـذف ما نحـذف إذن حينمـا نجـد المحذوف لا يزيدنا شيئاً من حيث المعنى، بل نجد فيه خفة واختصاراً من حيث اللفظ، وفائدة ذات أثر بياني من حيث المعنى.

هٰذه أهم علل الحذف، وكثير مما ذكروه من العلل يتفرع عنها. وقد تكون علل أخرى للحذف، ولكن مع ملاحظة أن هٰذه العلة الأولى علة رئيسة، لا ينبغي أن نتناساها في أي محذوف، مهما تعددت علله، وهٰذا ما نحاول تفصيله لك إن شاء الله.

وكما حدثناك في موضوع الذكر عن المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل؛ فسنحدثك هنا كذٰلك عن حذف المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل.

*** المطلب الأول:**

حذف المسند إليه

المسند إليه ركن في الجملة، بل هو أهم ركنيها؛ لذٰلك كان وجوده محتماً في الجملة، وإنما يُحذف إذا دلت قرينة على حذفه، ولولا القرينة لكان الحذف نقصاً وعيباً، ولا بد مع القرينة من محسنات ترجِّح الحذف على الذكر، وأهم هٰذه المحسنات والدواعي:

١ ـ أن يكون المقام مقام مدح أو ترحم أو ذم:

فمثال الترحُّم ما نُسب لعمر بن أبي ربيعة:

اعْتَادَ قَلْبَكَ مِن لَيْلى عَوائِدُهُ ... وهَاجَ أهْواءَكَ المَكْنونَةَ الطَّلَلُ
رَبْعٌ قَواءٌ أذاعَ المُعْصِراتُ بهِ ... وكُلُّ حَيرانَ سارٍ ماؤهُ خَضِلُ[1]

ومثال المدح قول إبراهيم بن العباس الصولي[2]:

سأشْكُرُ عَمْراً إنْ تَراخَتْ مَنِيَّتي ... أيادِيَ لَمْ تَمْنُنْ وإنْ هِيَ جَلَّتِ
فَتىً غَيْرُ مَحْجوبِ الغِنى عن صَديقِهِ ... ولا مُظْهِرُ الشَّكْوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ[3]

---

(١) «كتاب سيبويه» (١/ ١٤٢)، «الدلائل» (١٤٦)، «شرح شواهد المغني».
القواء: المكان القفر. والمعصرات: هي الرياح العاصفات ذوات الغبار. وأذاع به: ذهبت به وطمست معالمه. وحيران: صفة لمحذوف هو السحاب المتردد. وسار: يسير بالليل. وماؤه خصل: يحمل ماء غزيراً.

(٢) إبراهيم بن العباس بن محمد الصولي، أبو إسحاق، أحد البلغاء والشعراء الفصحاء والكتاب، مات بسامرا، كان له ديوان الرسائل في مدة جماعة من الخلفاء، وكان ظريفاً نبيلاً، مات سنة (١٧٦ هـ). [المعجم: ١/ ٤٢].

(٣) «شرح ديوان الحماسة» (٤/ ٦٩)، وينسب البيت كذلك لمحمد بن سعد الكاتب التميمي البغدادي، ولأبي الأسود الدؤلي، ولعبد الله بن الزبير الأسدي. وانظر «معاهد التنصيص» (٣/ ٣٠٣)، و«الكامل» (١/ ٢٧٩).

ومثال الذم قول الأقيشر الأسدي[1]:

سَريعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلْطِمُ وجْهَهُ ... ولَيْسَ إلى داعِي النَّدى بِسَريعِ
حَريصٌ على الدُّنيا مُضِيعٌ لِدينِهِ ... ولَيْسَ لِما في بيتِهِ بِمُضيعِ[2]

فالمسند إليه في هٰذه الأمثلة جميعها حذف، ففي المثال الأول: هو ربع. وفي المثال الثاني: هو فتى. وفي المثال الثالث: هو سريع. هو حريص.

وهٰكذا يمكنك أن تحذف المسند إليه لهٰذه المقتضيات، فإذا كنت تتحدث عن الزمن المشرق لهٰذه الأمة؛ تقول بعدما تتحدث: أيام غراء، وليال مشرقة. فتحذف المسند إليه، وهو (تلك) مثلاً، وهٰكذا في حالة المدح وحالة الذم، فإذا تحدثت عن فلان؛ تقول بعد حديثك عنه: كريم، مخلص لأصدقائه.

ومن هٰذا القبيل قوله تعالى: ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ﴾ [هود: ١]، وقوله سبحانه: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميدِ﴾ [إبراهيم: ١]، فما وُصف به الكتاب في الآيتين الكريمتين من أوصاف الخير يُغني عن ذكر المسند إليه.

وقد يتفننون في القول، فيقطعون الصفة عن الموصوف، وأنت تعلم أن الصفة تتبع الموصوف في الإعراب، فإذا كان الموصوف منصوباً أو مجروراً ينبغي أن تأتي الصفة كذٰلك، لكننا نجدهم يرفعونها تلويناً للكلام من جهة، وجلباً للسامع من جهة ثانية، وإمعاناً في المدح أو الذم أو الترحم من جهة ثالثاً.

مثال ذٰلك: رضي الله عن عمر أمير المؤمنين، الخليفةُ العادل. فيرفعون خليفة،

---

(١) المغيرة بن عبد الله بن معرض الأسدي، شاعر هجاء عالي الطبقة من أهل بادية الكوفة، كان يتردد إلى الحيرة، ولد في الجاهلية، ونشأ في أول الإسلام، وعاش عمراً طويلاً، وكان عثمانياً من رجال عثمان بن عفان. [الأعلام: ٧/ ٢٧٧].

(٢) «خزانة الأدب» (٤/ ٤٨٨).

مع أنها ينبغي أن تجر، فيقطعونها عما قبلها، ويقدرون لها مبتدأ محذوفاً، أي: هو الخليفة.

وتقول: رحم الله صلاح الدين الذي توفي ولم يترك ثمناً لكفنه، القائدُ ـ بالرفع ـ. أي: هو القائد.

وتقول: قاتل الله ذٰلك الذي اجترأ دون حكمة أو حياء على التنازل عن المقدسات، المُفَرِّطُ في دينه. برفع كلمة مفرط؛ لكونها خبراً لمبتدإ محذوف تقديره (هو) ـ المسند إليه ـ مع أن حقها النصب؛ لكونها صفة، ولكنهم قطعوها عن الوصفية.

٢ ـ عدم الفائدة من ذكر المسند إليه:

من محسِّنات الحذف، ومرجحاته؛ عدم الفائدة من ذكر المسند إليه، حتى كأن ذكره يصير عبثاً، ويكثر هٰذا في الأحوال التالية:

أ ـ إذا وقع المسند إليه في جواب الاستفهام؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ في الحُطَمَةِ . وما أدْراكَ ما الحُطَمَةُ . نارُ اللهِ المُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٦]، أي: الحطمة نار الله. وكقوله تعالى: ﴿وأصحابُ اليَمينِ ما أصْحابُ اليَمينِ . في سِدْرٍ مَخْضودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٢٨]، أي: هُم في سدر مخضود.

ب ـ إذا وقع بعد الفاء المقترنة بجواب الشرط؛ كقوله تعالى: ﴿مَن عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ ومَن أساءَ فَعَلَيْها﴾ [فصلت: ٤٦]، أي: فعمله لنفسه، وإساءته عليها، ومثله قوله تعالى: ﴿فإنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، أي: فهو طلٌّ، ومن ذٰلك قوله تعالى: ﴿لا يسأمُ الإنسانُ مِن دُعاءِ الخَيْرِ وإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤوسٌ قَنوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]، أي: فهو يؤوس.

ج ـ إذا وقع بعد القول وما اشتُقَّ منه؛ نحو قوله تعالى: ﴿وقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَها فهِيَ تُمْلَى عليهِ بُكْرَةً وأصيلاً﴾ [الفرقان: ٥]، أي: قالوا: القرآن أساطير الأولين. وقوله تعالى: ﴿فأقْبَلَتِ امرأتُهُ في صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وجْهَها وقالَتْ عَجوزٌ عَقيمٌ﴾

[الذاريات: ٢٩]، أي: أنا عجوز عقيم. وقال تعالى: ﴿قالَ فِرْعَوْنُ وما رَبُّ العالَمينَ . قالَ رَبُّ السَّماواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُم مُوقنينَ﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٤]، أي: هو رب السماوات.

٣ - المبادرة:

من محسنات حذف المسند إليه ومرجحاته المبادرة؛ حتى لا تضيع الفرصة، فإذا رأى أحد الذين يترقَّبون الصيدَ غزالاً، أو أرنباً؛ فإنه لا يقول: هٰذا غزال. وانظروا هٰذا الأرنب. وإنما يقول: غزال. أرنب.

وكذٰلك مَن رأى حريقاً، فإنه يبادر، ويقول: حريق. كذٰلك الذين يترقبون رؤية الهلال للصوم، أو الفطر؛ يقول الذي يراه: الهلال. أي: هٰذا الهلال.

وهٰكذا في كل شيء لا مجال فيه للسعة في الوقت أو الحديث.

٤ - اتِّباع الاستعمال:

ومعنى هٰذا القول أن المَثَل عند العرب لا ينبغي تغييره، بل يُنطق به كما ورد عنهم.

ومن الأمثال التي سُمعت عن العرب: رمية من غير رام. يُضرب لمن يصل إلى الغرض بدون قصد منه، إذ ليس من عادته ذٰلك، فالمسند إليه محذوف، أي: هٰذه رمية.

قضية ولا أبا حسن لها. يقال في الأمر الصعب الذي لا يجد من يحله.

ردة ولا أبا بكر لها.

٥ - سهولة الإنكار إذا دعت الحاجة:

ومن محسنات الحذف سهولة الإنكار إذا دعت الحاجة؛ كما إذا تحدث قوم عن شخص ما؛ يقول أحدهم: بخيل. دون أن يذكر اسمه، كأنه لا يريد أن يقع في مأزق هو في غنى عنه.

وقد تكون هناك أغراض أخرى؛ **كتعجيل المسرة، أو الإخفاء عن بعض السامعين، أو العناية بالمسند.**

استمع إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبثوا إلَّا ساعَةً مِن نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إلا القَوْمُ الفاسِقونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: هٰذا بلاغ. فما أجمل هٰذا الحذف[١]!

والحق أن هناك محسنات لا يمكن حصرها، ترجع إلى نفس المتكلم، أو حال السامع، هٰذا كله إذا كان المسند إليه مبتدأ.

وقد عرفت عند الحديث عن الجملة أن المسند إليه قد يكون مبتدأ، أو فاعلاً، وقد حدثتك عن محسنات الحذف إذا كان المسند إليه مبتدأ.

أما إذا كان المسند إليه فاعلاً؛ فهناك محسنات كثيرة لحذفه، إلا أن منها ما يتصل باللفظ، ومنها ما يتصل بالمعنى.

فأما يتصل باللفظ؛ فهو:

المحافظة على السجع؛ كقولهم: مَن طابت سريرته حُمدت سيرته. فلو قيل: حمد الناس سيرته. لتغير السجع. وكذٰلك قولك: مَن طَهُرَ قلبُه فُرِّج كربُه.

وأما ما يتصل بالمعنى؛ فهو كثير:

١ ـ الإيجاز والاختصار:

وذٰلك كقوله تعالى: ﴿وإنْ عاقَبْتُم فعاقِبوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، فقد حذف الفاعل هنا، ولم يقل: بما عاقبكم الناس به.

٢ ـ أن يكون معلوماً للسامع:

وذٰلك مثل قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسانُ مِن عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فإن الخالق تبارك وتعالى لا يُماري فيه عاقل.

---

(١) وللحذف في الآية أغراض بيانية غير هذا.

٣ ـ وقد يحذف للخوف منه:

وذلك كقول المستضعفين: بيعت البلاد، وكُممت الأفواه، ومرِّغت الجباه.

٤ ـ وقد يحذف للخوف عليه

كقولنا: رُوِّعَ العَدوُّ، ونيلَ منه، ودُكَّ أحد حصونه، واقتُحمت إحدى قلاعه. بالبناء للمجهول.

٥ ـ وقد يحذف لأنه لا يتحقق غرض من الأغراض بذكره:

وذلك كقوله تعالى: ﴿إنَّما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عليهِمْ آياتُهُ زادَتْهُم إيماناً وعلى ربِّهِم يَتَوَكَّلونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ فليس هناك غرض يتحقق من ذكر الفاعل، فأي ذاكر أو تالٍ يتأثر المؤمنون به؟

٦ ـ ومما يكاد يطَّرد في حذف المسند إليه توجيه المخاطب لنفس الحدث

ونجد هٰذا في مشاهد يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ واحدَةٌ . وحُمِلَتِ الأرْضُ والجِبالُ فدُكَّتا دَكَّةً واحدةً﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غيرَ الأرْضِ والسَّماواتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وسِيقَ الذينَ كَفَروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ [الزمر: ٧١]، وقال سبحانه: ﴿وجِيءَ يَوْمَئِذٍ بجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وسِيقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُم إلى الجَنَّةِ زُمَراً﴾ [الزمر: ٧٣].

فنحن نرى أن المسند إليه قد حُذِفَ في جميع هٰذه الآيات، ذٰلك لأن الذي يريده القرآن أن يوجه الناس إلى هٰذه الأحداث الجسام العظام، دون أن يُشغلوا بمن فعل هٰذه الأفعال، فأيًّا كان النافخ في الصور، وأيًّا كان الذي يدكُّ الأرض، ويبدلها، وكيف تجيء جهنم؟ وكم من ملك يجيء بها؟ كل هٰذا نجده لا يُذكر في الآيات الكريمة، إذ ليس هناك كبير هدف يتحقق من ذكره.

وربما نجد هٰذا في بعض الأحداث العظيمة، وذٰلك مثل قوله سبحانه: ﴿وقيلَ يا أرْضُ ابْلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أقْلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمْرُ واسْتَوَتْ على الجُودِيِّ

وقيلَ بُعْداً للقوْمِ الظالِمينَ﴾ [هود: ٤٤].

هٰذه أكثر الأغراض التي يُحذف من أجلها المسند إليه؛ مبتدأ كان أو فاعلاً، ولْيُقَسْ ما لم يُقَل على ما قيل.

*** المطلب الثاني:**

حذف المسند

والمسند ـ كما عرفت من قبل ـ قد يكون اسماً، وقد يكون فعلاً، وما قلناه في حذف المسند إليه يمكن أن نقوله هنا، مع أن المسند إليه أكثر أصالة في الجملة من المسند.

١ ـ أن لا يكون في ذكر المسند فائدة:

فالغرض الأول من أغراض الحذف أن لا يكون في ذكر المسند فائدة، بل يمكن الاستغناء عنه، كأن يكون جواباً عن سؤال؛ مثال ذٰلك: يسألك سائل: مَن كاتب العربية في العصر الحديث؟ فتقول: مصطفى صادق الرافعي. وتكتفي بهٰذا، فلا داعي أن تذكر المسند، فتقول: مصطفى صادق الرافعي كاتب العربية في العصر الحديث. وتسأل: مَن شاعر العقيدة في هٰذا العصر؟ فتقول: إقبال. ومن الشهيد الذي رقصت الصهيونية لموته؟ فتقول: أحمد أبللو.

هٰذا إذا كان المسند اسماً.

وقد يكون المسند فعلاً: من الذي حرر فلسطين من الصليبيين؟ من الذين انتصر على المغول في عين جالوت؟ من الذي تدرَّب في ألمانيا واستُشهد على أرض فلسطين؟ من الذي دوَّخ كفار قريش؟ من الذي استشهد في معركة القسطل؟ فتقول على الترتيب: صلاح الدين. قطز. الشيخ حسن سلامة. أبو بصير. عبدالقادر الحسيني. رحمهم الله جميعاً.

٢ ـ أن يكون جواباً عن سؤال مقدر:

ومن محسنات حذف المسند أن يكون جواباً عن سؤال مقدر، ومنه قوله سبحانه: ﴿في بُيوتٍ أَذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبَّحُ لهُ فيها بالغُدُوِّ والآصالِ﴾ [النور: ٣٦]؛ ببناء الفعل (يُسَبَّح) للمجهول، وهٰذه إحدى قراءتين في الآية الكريمة ـ بضم الياء وفتح الباء ـ، والقراءة الأخرى: (يُسَبِّح) ببناء الفعل للفاعل، وهي بضم الياء وكسر الباء. ثم قال تعالى: ﴿رجالٌ لا تُلْهيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخافونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلوبُ والأَبْصارُ﴾ [النور: ٣٧].

فعلى القراءة الثانية؛ (يُسبِّح) فعل مضارع، و(رجال) فاعل، ولا حذف هنا، وعلى القراءة الأولى: ﴿يُسَبَّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ. رِجالٌ...﴾ على بناء الفعل للمفعول لا يجوز أن تكون رجال فاعلاً؛ لأن الفعل مبني للمجهول، بل هي فاعل لفعل محذوف يدل عليه المذكور، كأنه قيل: من المسبح؟ فقيل: يسبِّح رجال لا تلهيهم...

ومن هٰذا القبيل قول الشاعر ضرار بن نهشل:

لِيُبْكَ يَزيدُ ضارِعٌ لِخُصومَةٍ ... ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تطيحُ الطَّوائِحُ[1]

فـ(يُبْكَ): فعل مضارع مبني للمجهول، و(يزيد): نائب فاعل. فكأن سائلاً سأل: من الذي بكى يزيد؟ فيقال: يبكيه ضارع.

ومثل هٰذا قولنا: لتُزرع الأرض مواطنون صالحون. كأنه قيل: من يزرعها؟ فقيل: مواطنون صالحون.

---

(١) «خزانة الأدب» (١/ ٣٠٣، ٨/ ١٣٩).
ضارع لخصومه: مستغيث من خصومه، والضارع: الضعيف من الرجال أيضاً. والمختبط: طالب الرفد، والذي يسألك ويطلب معروفك من غير سابق معرفة ولا قرابة. ومما تطيح الطوائح: أي مما تلحق به الخطوب، والطائح: المشرف على الهلاك.
ولو قيل: ليبك يزيداً ضارع لخصومه. لم يكن هناك حذف؛ لأن يزيد مفعول به، وضارع نائب فاعل. لكن الرواية ببناء الفعل للمجهول، ورفع يزيد.

٣ ـ إذا تقدم في الجملة ما يدل عليه:

يحذف المسند إذا تقدم في الجملة ما يدل عليه؛ قال تعالى في وصف الجنة: ﴿أُكُلُها دائِمٌ وظِلُّها﴾ [الرعد: ٣٥]، والمسند محذوف، أي: وظلها دائم.

ومنه قوله سبحانه: ﴿واللائي يَئِسْنَ مِن المَحيضِ مِن نِسائِكُم إنِ ارْتَبْتُم فعِدَّتُهُنَّ ثلاثَةُ أشْهُرٍ واللائي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤]؛ فالمسند محذوف من الجملة الثانية، أي: واللائي لم يحضن كذٰلك. أي: عدتهن ثلاثة أشهر.

ومنه قوله سبحانه: ﴿إنَّ الذينَ آمَنوا والذينَ هادوا والصَّابِئونَ والنَّصارى﴾ [المائدة: ٦٩]، وكان الظاهر أن يُقال: والصابئين؛ عطفاً على اسم (إن)، ولكنه عدل عن هٰذا لغرض بياني، فـ (الصابئون) مبتدأ، والمسند محذوف، تقديره كذٰلك، والجملة معطوفة على ما قبلها[١]. ومن هٰذا قول قيس بن الخطيم[٢]:

نَحْنُ بِما عِنْدَنا وأنْتَ بِما عِنْدَكَ راضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ[٣]

فالمسند محذوف من الجملة الأولى؛ لدلالة ما في الجملة الثانية عليه، أي: نحن بما عندنا راضون. ومثله قول ابن الحارث البرجمي:

فَمَنْ يَكُ أمْسَى في المَدينَةِ رَحْلُهُ فإنِّي وقَيَّار بِها لَغَريبُ[٤]

فالمسند محذوف من الجملة الأولى، أي: فإني لغريب.

ومثل هٰذا قولك: عليٌّ الجارم شاعر مبدع، وعلي محمود طه. أي: وعلي محمود

---

(١) وإنما عدل إلى هذا الأسلوب؛ ليبين أن الصابئين ـ وهم أكثر ضلالاً ـ إن آمنوا وعملوا صالحاً؛ فإن الله يقبل توبتهم.

(٢) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد، شاعر الأوس، وأحد صناديدها في الجاهلية، أول ما اشتهر في تتبُّعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، أدرك الإسلام، وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه، شعره جيده، توفي نحو (٢ ق. هـ). [الأعلام: ٥/ ٢٠٥].

(٣) «الخزانة» (١٠/ ٣٩٥).

(٤) «خزانة الأدب» (١٠/ ٣٢٦).

طه شاعـر مبدع. وقولك: نور الدين من عظماء المسلمين، وصلاح الدين. انجلترا عقدت لواء لحرب المسلمين، وأمريكا.

٤ ـ بعد (إذا) الفجائية:

يحذف المسند بعد إذا الفجائية عند مَن عدَّها حرفاً[1]؛ كقولك: خرجت فإذا القمر. فالمسند محذوف، أي: ساطع.

٥ ـ إذا كان خبراً لـ (إنَّ):

ومن المواضع التي يُحذف فيها المسند إذا كان خبراً لـ (إنَّ)؛ كقوله: إن حلًّا وإن مرتحلاً. إن ربًّا وإن نصيراً.

وقد قدمنا لك في باب الخبر عند الحديث عن (إنَّ) ما يكفيك، فارجع إليه.

٦ ـ الاختصاص وتقوية الحكم:

مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ لو أَنْتُم تَمْلِكونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إذَنْ لأمسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاقِ وكانَ الإنسانُ قَتوراً﴾ [الإسراء: ١٠٠]. وأظنك تتساءل هنا: وأين المسند المحذوف في الآية؛ فـ (أنتم) مسند إليه، و (تملكون) مسند؟! وليس الأمر كما ظننت، وهٰذا ما سأشرحه لك، فأصغِ إليه:

يقرر علماء النحو أن هناك أدوات لا تدخل إلا على الجمل الفعلية، وهي: أدوات الشرط؛ مثل: (إن)، و (إذا)، و (لو)، فإذا جاء بعد هٰذه الأدوات اسم، فيجب أن يكون هٰذا الاسم فاعلاً لفعل محذوف، وذٰلك لاختصاص هٰذه الأدوات بالدخول على الفعل؛ لذٰلك قال النحويون في إعراب قوله سبحانه: ﴿إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]: (السماء): فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده. أي: إذا انشقت السماء. وكذٰلك في قوله سبحانه: ﴿إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ . وإذا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٢]، وهٰكذا تقول فيما يشبه هٰذه الآيات، فقول الشاعر:

---

(١) أما إن عُدَّت اسماً فلا حذف.

إذا الفتى ذمَّ عيشاً في شَبيبَتِهِ ... فماذا يَقولُ إذا عَهْدُ الزَّمانِ مَضى

فـ (الفتى) فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده. ونقول في قولٍ آخر:

خَبيرٌ بَنو لِهْبٍ فلا تَكُ مُلْغِياً ... مَقالَةَ لِهْبِيٍ إذا الطَّيْرُ مَرَّتِ

فالطير فاعل لفعل محذوف، أي: إذا مرت الطير مرت.

وتقول في إعراب قوله تعالى: ﴿وإنْ أحَدٌ مِن المُشْرِكينَ اسْتَجارَكَ فأجِرْهُ...﴾ [التوبة: ٦]، وقوله سبحانه: ﴿وإنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِن بَعْلِها نُشوزاً أوْ إعْراضاً...﴾ [النساء: ١٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿إنِ امْرُؤٌ هَلَكَ ليسَ لهُ ولدٌ﴾ [النساء: ١٧٦]؛ (أحد) فاعل لفعل محذوف دل عليه ما بعده. أي: استجاب أحدٌ. وكذلك (امرأة) و(امرؤ)؛ كلاهما فاعل لفعل دل عليه ما بعده.

فأنت ترى في هذه الأمثلة جميعاً أن هناك جملتين فعليتين حُذف من كل منهما جزء، فالجملة الأولى حُذف فعلها، والجملة الثانية حُذف فاعلها، فالسماء في قوله تعالى: ﴿إذا السَّماء انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]؛ فاعل لفعل محذوف دلَّ عليه ما بعده، و(انشقَّتْ): فعل فاعله محذوف دلَّ عليه ما قبله. فإننا قلنا: إذا انشقت السماء انشقت السماء. وهذا فيه من تقوية الحكم وتأكيده ما لا يخفى عليك.

وما نقوله في (إذا) و(إنْ) نقوله في (لو)، فإذا قلت: لو خالد جاءني أكرمته. فخالد فاعل لفعل محذوف دلَّ عليه ما بعده.

وإخالك الآن بدأت تستنتج بفكرك معنى ما قلناه لك من قبل، فالآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أنْتُم تَملِكونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ قد ذُكر فيها الضمير بعد (لو)، و(لو) لا تدخل إلا على جملة فعلية، فالتقدير إذن: لو تملكون تملكون. وهو الفعل المضارع، ولما كان الضمير المتصل ـ وهو الواو ـ لا يمكن النطق به وحده؛ جيء بدله بالضمير المنفصل ـ وهو أنتم ـ، وهذا فيه ما فيه من بيان اختصاصهم بالشح والبخل، والحرص على متاع الدنيا، فحذف المسند هنا إذن إنما يكون لغرض من الأغراض البيانية.

ويمكنك أن تقيس على هٰذا قول الشاعر:

إذا أنْـتَ أكْـرَمْـتَ الـكَـريمَ مَلَكْتَـهُ   وإنْ أنْـتَ أكْـرَمْـتَ الـلَّئيمَ تَمَـرَّدا

فأنت ترى هنا أن المسند حذف في موضعين: بعد (إذا)، وبعد (إن)؛ لأن كلتا الأداتين لا تدخل إلا على جملة فعلية، والتقدير: إذا أكرمت أكرمت. وهٰكذا تقول في الشطر الآخر.

يمكنك بعد هٰذا أن تميِّز وتفرِّق بين هاتين العبارتين: لو تعلمون ما يضمر لكم عدوكم. وقولنا: لو أنتم تعلمون ما يضمر لكم عدوكم. وستجد أن العبارة الثانية أدل على المراد، وبخاصة إذا أردت أن تنبه قومك إلى شدة مكر العدو.

ومثلهما قولك: إذا قمت بواجبك أدركت معنى السعادة. وقولك: إذا أنت قمت بواجبك أدركت معنى السعادة. وستجد أن العبارة الثانية التي حُذف فيها المسند أكثر بلاغة، وبخاصة إذا كان المقام يقتضي ذٰلك.

تلك أهم الأغراض التي يُحذف من أجلها المسند، وحريٌّ بك أن تبحث في الكلام البليغ مبتدئاً بكتاب الله تعالى، وحديث نبيه ﷺ، والبليغ من النظم والنثر.

* المطلب الثالث:

حذف المفعول به

■ تمهيد:

حفظت فاطمة القرآن. جمع أبو بكر القرآن. جمع عثمان الناس على مصحف واحد. ألف عبدالقاهر «دلائل الإعجاز».

هٰذه الأفعال جميعها أفعال متعدية، على معنى أنها لا تكتفي بفاعلها، بل تحتاج إلى شيء آخر، وهو المفعول به.

وإذا نظرت إلى هٰذه الأفعال؛ تجد أن لكل منها تعلُّقاً بما بعدها؛ سواء كان فاعلاً أم مفعولاً، إلا أن جهة هٰذا التعلق ليست سواء، فتعلق الفعل ـ وهو الحدث ـ بالفاعل تعلق الحدث بمن كان منه، وتعلقه بالمفعول تعلق الحدث بما وقع عليه.

إذن: للفعل تعلق بكل من الفاعل، والمفعول، إلا أن الفاعل هو من وقع منه الفعل، والمفعول هو الذي وقع عليه، فالفعل هو العامل، وكل من الفاعل والمفعول معمول لهٰذا العامل.

ولقد اختلفت جهة العمل في كل من المعمولين، فعمله في الفاعل الرفع، وعمله في المفعول النصب.

وقد يكون غرض المتكلم بيان وقوع الحدث فحسب، أي: وقوع الفعل دون النظر إلى الفاعل، أو المفعول.

وقد يكون غرضه فقط بيان الفاعل دون النظر إلى المفعول.

وقد يكون الهدف بيان المفعول الذي وقع عليه الفعل.

هٰذه أغراض ثلاثة للمتكلم؛ تارة يقصد الحدث وحده بقطع النظر عن فاعله، وتارة يقصد الفاعل ولا يعنيه المفعول، وثالثة يقصد المفعول نفسه.

بيان ذٰلك:

* قد تتحدث عن الحرب العالمية الأولى وما أحدثته، فتقول: كان هناك قتل، وتخريب، وتألُّب على العرب والمسلمين. فنحن هنا تحدثنا عن الحدث نفسه ـ وهو القتل والتخريب والتألب ـ دون أن نتحدث عن الفاعل أو عن المفعول به.

وقد تذكر حرب حزيران؛ فتقول: كان هناك إهمال، وتقصير، وتهريج، وادِّعاء. دون أن تتحدث عن الفاعل.

وقد نذكر مذابح بيروت، فنقول: كان هناك ذبح، وحقد، وبقر للبطون، وانتهاك للأعراض. وفي كل هٰذا حديثنا عن الحدث.

* قد يكون هدفنا الفاعل فحسب، دون النظر إلى المفعول، وكأننا ننزل الفعل منزلة اللازم، واللازم هو الذي يكتفي بفاعله، فنتناسى مفعوله، وخير مثال لهٰذا النمط قوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ فالمراد من الآية هنا ـ والله أعلم بمراده ـ أنه لا يستوي أهل العلم وغيرهم من الجهال، فلا تعني الآية هنا المفعول، أي: الذين يعلمون الفقه، أو التفسير، أو الحديث. كل الذي تعنيه أن العالمين لا يستوون مع الجاهلين.

* قد لا نكتفي بالحدث، أو بالفاعل ـ كما مر ـ، وإنما يكون هدفنا مَن وقع عليه الفعل؛ كما تقول: أصغيت إلى فلان. ولا شك أن المفعول هو المقصود هنا، أي: أصغيت إليه أذني. وأغضيت عليه. والمـراد جفني. وأقـرضت فلانـاً. ولا شك أن المفعول هنا لا بد من تقديره: أي مالاً. ولكن المفعول هنا حذف؛ لأنه معلوم جليّ، ليس فيه خفاء.

إذا عرفت هٰذا، فلتهيِّئ نفسك لنحدثك عن حذف المفعول، وما هي المواطن التي يُحذف فيها؟ وما هي أسباب الحذف؟ وما هي الأغراض التي تتوخّى، فتعد من البلاغة التي هي غاية الحسن؟

■ مواطن حذف المفعول به:

واعلم أن اللطائف في حذف المفعـول كثيرة؛ يقول الشيخ عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن حذف المفعول:

«فإن الحاجة إليه أمس، وهو بما نحن بصدده أخص، واللطائف كأنها فيه أكثر، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أنجب وأظهر»[1].

عرفت من قبل أن غرض المتكلم قد يكون إثبات الفعل لفاعله فحسب؛ دون النظر لمفعوله، وخير ما يُمثَّل به قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذينَ يَعْلَمونَ والذينَ لا

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص ١١٨).

يَعْلَمونَ﴾ [الزمر: ٩]، أي: لا يستوي ذوو العلم وغيرهم، فحذف المفعول هنا؛ لكونه غير مقصود للمتكلم، ولكننا قد نقصد المفعول، ومع ذلك يحسن حذفه، وهذا يختلف باختلاف الأغراض التي يقصدها المتكلم، وسنحاول أن نذكر لك أخطرها شأناً، وأكثرها دوراناً في الكلام البليغ.

١ ـ الإيجاز:

قد يحذف بقصد الإيجاز، ولسبق ما يدل عليه، ونمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿أولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ومَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لهُ نَصيراً﴾ [النساء: ٥٢]، ففي قوله: ﴿ومَن يَلْعَنِ اللهُ﴾؛ حذف المفعول، والتقدير: ومن يلعنه الله. ومثل هذا: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فهُو المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لهُ وليًّا مُرْشِداً﴾ [الكهف: ١٧]، أي: من يهده ومن يضلله.

٢ ـ إذا كان ذكره يوهم غير المقصود:

إذا كان ذكر المفعول يوهم غير المقصود؛ فإننا نجد أنفسنا مضطرين لحذفه، حتى نبدد هذا الوهم.

تقول مثلاً: سهرنا الليل إلى الفجر. وهنا يمكن أن يظن السامع أنك سهرت أكثر الليل، وأنه لم يبق بينك وبين آخره إلا القليل، ولكنك إذا أردت أن تزيل هذا المعنى من نفس السامع؛ تجد نفسك مضطرًّا لتحذف كلمة (الليل)، فتقول: سهرنا إلى الفجر. وهنا لا يمكن أن يدور بخلد السامع، ولا أن يظن بأنك سهرت أكثر الليل، وإنما يدرك أنك سهرت الليل كله إلى الفجر.

وتقول: قطعت المسافة إلى القمة. ويمكن أن يُفسَّر كلامك على أنك قطعت أكثر هذه المسافة، فإذا حذفت المفعول؛ زال هذا الوهم.

ويمكنك الآن أن تفهم قول البحتري يمدح أبا الصقر الشيباني:

وكم ذُدْتَ عنِّي مِن تَحامُلِ حادِثٍ ... وسَوْرَةِ أيَّامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ

يريد أن يقول: لقد ذُدْت عني كثيراً، ودفعت عني شدة أيام قاسية بلغت الشدة فيها مبلغاً. والشاهد في قوله: «حززن إلى العظم»، أي: حززن اللحم، وهٰذا كناية عما لاقاه من كرب، ولكنه حذف المفعول، وقال: حززن إلى العظم. ولو أنه ذكر المفعول؛ لتوهم أن الذي حزَّ بعض اللحم، وبقي لبعضه أثر، ولكنه أراد أن ينفي هٰذا التوهم، ويبيِّن أن الشدة بلغت منه مبلغاً ليس بعده مبلغ.

٣ ـ إذا كان معلوماً بدلالة الحال:

وقد يكون المفعول مقصوداً، ولكننا لا نذكره لكونه معلوماً بدلالة الحال، أو يكون قد جرى له ذكر، ومثال ذٰلك أن نتحدث عن إنسان، ثم يقول لك قائل: أأهنت؟ أضربت؟ فيحذف المفعول؛ لأنه جرى له ذكر من قبل، وكأنه ينكر أن يقع منك ضرب وإهانة.

وقد يُعرف المحذوف بدلالة الحال، ومنه قول البحتري يمدح المعتز معرضاً بالمستعين:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وغَيْظُ عِداهُ　　　أنْ يَرى مُبْصِرٌ ويَسْمَعَ واعٍ

والمفعول محذوف، أي: أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واعٍ أخباره وأوصافه

يقول الشيخ عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ تعليقاً على هٰذا البيت:

«ولكنك تعلم على ذٰلك أنه كان يسرق علم ذٰلك من نفسه، ويدفع صورته عن وهمه؛ ليحصل له معنى شريف، وغرض خاص، وقال: إنه يمدح خليفة ـ وهو المعتز ـ ويعرض بخليفة ـ وهو المستعين ـ فأراد أن يقول: إن محاسن المعتز وفضائله المحاسن والفضائل، يكفي فيها أن يعلق عليها بصر، ويعيها سمع، حتى يعلم أنه المستحق للخلافة، والفرد الوحيد الذي ليس لأحد أن ينازعه مرتبتها، فأنت ترى حساده، وليس شيء أشجى وأغيظ من علمهم بأن ها هنا مبصراً يرى، وسامعاً يعي، حتى ليتمنَّوْن أن لا يكون في الدنيا من له عين يبصر بها، وأذن يعي بها، كي يخفى مكان استحقاقه

لشرف الإمامة، فيجدوا بذلك سبيلاً إلى منازعته إياها»[1].

٤ ـ توجيه النفوس لإثبات الفعل للفاعل، وعدم الانشغال بالمفعول:

قد يكون المفعول معلوماً لا يُتصور غيره، ولكنا نحذفه لغرض مهم، وقصد بارع، وهو أن تتوجه النفوس لإثبات الفعل للفاعل، كأنما لا نرى داعياً أن نشغلها بالمفعول؛ لكونه معلوماً من جهة، ولكونه لا يتعلق به كبير فائدة من جهة أخرى.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ولَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عليهِ أُمَّةً مِن النَّاسِ يَسْقونَ ووَجَدَ مِن دونِهِمُ امرأتَيْنِ تَذودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأبونا شَيْخٌ كَبيرٌ . فَسَقَى لهُما ثُمَّ تَوَلَّى إلى الظِّلِّ فقالَ رَبِّ إنِّي لِما أنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقيرٌ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٤]، فقد حذف المفعول هنا في أربعة مواضع:

أ ـ أمة من الناس يسقونَ.

ب ـ تذودان.

ج ـ لا نسقي.

د ـ فسقى لهما.

وإنما حُذف المفعول هنا؛ لأن الغرض الأول إثبات الفعل للفاعل، ولكون المفعول معلوماً. هٰذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فقد يُخِلُّ ذكرُهُ بالمقصود، ويوهم غير المراد، ألا ترى أنه لو قال: يسقون غنماً. تذودان عن إبلهما. قالتا لا نسقي إبلنا. فسقى لهما إبلهما. لفسد المعنى المراد؛ لأنه يمكن أن يقال: إنه فعل ذٰلك لأن الذي كان معهما إبل لا غنم.

وقد أشار إلى هٰذه اللطيفة عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ في «دلائل الإعجاز»؛ يقول:

«ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم، ومواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى

(١) «دلائل الإعجاز» (ص ١٢٠).

لهما غنمهما.

ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذٰلك كله إلا أن يُترك ذكرُه، ويُؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن الغرض في أن يُعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذَوْدٌ، وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يُصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذٰلك سقي.

فأما ما كان المسقيُّ؟ اغنماً أم إبلاً أم غير ذٰلك؟ فخارج عن الغرض، وموهم خلافه، وذاك أنه لو قيل: وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما؛ جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود؛ كما أنك إذا قلت: ما لك تمنع أخاك؟ كنت منكراً المنع لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخيك، فاعرفه؛ تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هٰذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن في حذفه، وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه»[1].

وقد أفاد الزمخشري من عبدالقاهر ـ رحمهما الله ـ فذكر هٰذا في «كشافه»[2].

ومثل هٰذا ما استشهد به أبو بكر رضي الله عنه على فضل الأنصار ومنزلتهم، وما لهم من طيب الخلال، وجميل الخصال؛ بقوله: والله ما وجدت مثلاً لنا ولكم إلا ما قال طفيل الغنوي[3] لبني جعفر بن كلاب:

جَزَى اللهُ عنَّا جَعْفَراً حينَ أَزْلَقَتْ ... بِنا نَعْلُنا في الواطِئينَ فَزَلَّتِ
أَبَوْا أن يَمَلُّونا ولو أنَّ أُمَّنا ... تُلاقي الذي لاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ خَلَطونا بالنُّفوسِ وأَلْجَؤوا ... إلى حُجُراتٍ أدْفَأَتْ وأظَلَّتِ[4]

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص ١٢٥).

(٢) «الكشاف» (٣ / ٤٠١).

(٣) طفيل بن عوف بن كعب الغنوي، من قيس بن غيلان، شاعر جاهلي، شجاع، عاصر النابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى، توفي نحو (١٣ ق. هـ) [المعجم: ٥/ ٤١].

(٤) «الأغاني» (١٥/ ٣٦٨)، وفي زيادة «ديوان طفيل الغنوي» (٥٧)، «الدلائل» (١٥٨).

فقد حذف المفعول في أربعة مواضع: قوله: (لَمَلَّتِ): أي: لملَّتنا أمنا. والثاني: (ألجَؤوا): أي: ألجؤونا. والثالث: (أدفأت): أي: أدفأتنا. والرابع: (أظلَّتِ): أي: أظلتنا.

فأنت ترى أن الهدف هنا إثبات الفعل للفاعل، إثبات الملل للأم، وإثبات الإلجاء إلى بني جعفر، وإثبات الدفء والإظلال للحجرات، أما المفعول؛ فهو معلوم، أي: أدفأتهم، وألجأتهم.

ومن هٰذا القبيل قول عمرو بن معد يكرب:

وَلَوْ أنَّ قَوْمي أَنْطَقَتْني رِماحُهُم ... نطقْتُ ولٰكِنَّ الرِّماحَ أجَرَّتِ[1]

وأصل الإجرار: شق لسان الفصيل ـ وهو ابن الناقة ـ ووضع عود صغير بين الشقين؛ حتى لا يستطيع أن يرضع أمه.

والمقصود به هنا عدم القدرة على الكلام. يقول: وَلو أن قومي أَبْلَوا في الحرب بلاءً حسناً، وطعنوا برماحهم؛ لنطقت، ومدحت، ولكنهم كانوا غير ذٰلك، فلم يُرَ منهم بأس، ولم يكونوا بحيث يُسرُّ منهم صديق، ويُساء عدو ـ وكأن الشاعر يتحدث عن وضع أمتنا اليوم ـ ذٰلك لأن رماحهم التي لم تُستعمل في الطِّعان أجرَّت ـ أي: شقت ـ لساني، فمنعتني من الكلام، وكيف ينطق من خذله قومه؟!

فأنت ترى هنا أنه حذف المفعول، والتقدير: أجرَّتني. أي: منعتني من النطق. والمفعول معلوم هنا، فلا يمكن أن يكون قصد الشاعر أجرَّت غيري، أو منعت غيري عن الكلام؛ لأنه يقول في أول الكلام: أنطقتني.

إذن؛ هو يتحدث عن نفسه، ولكن حذف المفعول هنا ـ مع كونه معلوماً ـ لما مرَّ من قبل في الآيات الكريمة، وهو أن الهدف إثبات الفعل للفاعل، أي أن نثبت الإجرار

---

(١) «ديوان الحماسة» (١/ ١٦٢).
يقول: لو أن قومي أبلوا في الحرب، لافتخرت بهم، ولكن رماحهم أجرّت لساني؛ كما يُجرُّ لسان الفصيل.

للرماح، أما ما الذي أجرته الرماح، فذٰلك لم يُتعرض له.

ومنه قول جرير:

أَمَنَّيْتِ المُنَى وخَلَبْتِ حَتَّى ... تَرَكْتِ ضَميرَ قَلبي مُسْتَهاما[1]

فمفعول (خلبت)؛ محذوف، وما ذٰلك إلا لأنه يريد أن يُثبت لها خلابة.

وهناك فائدة أخرى لحذف المفعول في هٰذا النوع؛ غير التي حدثتك عنها، أعني: إثبات الفعل للفاعل، هٰذه الفائدة الثانية هي التعميم.

عد إلى الأمثلة السابقة، وقدِّر لأي فعل من الأفعال المذكورة فيها مفعولاً، فإنك ستدرك أن هٰذا المفعول الذي قدرته ضاع بسببه غرض بياني، وغابت نكتة بلاغية هي ذات شأن وخطر.

خذ مثلاً الأبيات التي استشهد بها أبو بكر - رضي الله عنه - والتي يقول فيها:

إلى حُجُراتٍ أدْفَأَتْ وأَظَلَّتِ

فلو أنك قدرت المفعول؛ فقلت: أدفأتنا وأظلتنا. فربما يتوهم أن من شأن هٰذه الحجرات أن تدفئهم وتظلهم هم، وليس من شأنها أن تدفىء غيرهم وتظله، وهٰذا غير مقصود قطعاً، وإنما المقصود أنها تدفىء وتظل كل من يأوي إليها، ولو ذكر المفعول لذهب هٰذا المعنى.

ولعلي بك تتساءل: ما الفرق بين هٰذا النوع وبين الذي قبله، وهو الذي مثلنا له ببيت البحتري:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وغَيْظُ عِداهُ ... أنْ يَرَى مُبْصِرٌ ويَسْمَعَ واعٍ؟

والحق أن الفرق دقيق، فأعمل فيه فكرك؛ ففي كلا الغرضين تناسينا المفعول، إلا أننا في الغرض السابق، وهو قوله:

---

(١) «الديوان» (ص ٤٠٧)، دار صادر.

أنْ يَرَى مُبْـصِـرٌ ويَسْمَـعَ واعِ

تناسيناه لظهوره ـ كما مر ـ وكما نقلنا لك من عبارة الشيخ ـ رحمه الله ـ.

أما هنا؛ فكان غرضنا منصبًّا على إثبات الفعل للفاعل، فالغرض إثبات الإجرار للرماح، وإثبات الإظلال والدفء للحجرات، وإثبات الذود والسقي لابنتي الشيخ الكبير وموسى عليهما السلام، فقد عرفت حكمة أخرى لهٰذا النوع، وهي التعميم، وأرجو أن تكون قد أدركت الفرق بين النوعين.

٥ ـ التعميم:

الغرض الخامس لحذف المفعول هو التعميم، ومنه قوله سبحانه: ﴿والله يَدْعو إلى دارِ السَّلام﴾ [يونس: ٢٥]، أي. يدعو كل أحد.

ومثل هٰذا قولك: واقع أمَّتنا لا يسر، في كل يوم نرى ما يؤلم. أي: لا يسر كل أحد، ويؤلم كل أحد.

٦ ـ تعظيماً لشأن المفعول:

وقد لا يوقع الفعل على المفعول صراحةً تعظيماً لشأنه؛ كقول البحتري:

قَدْ طَلَبْنـا فَلَمْ نَجِـدْ لكَ في السُّؤْ دُدِ والـمَـجْـدِ والـمَـكـارِمِ مِثْـلا

يريد أن يقول: قد طلبنا لك مثلاً، فلم نجد لك مثلاً في هٰذه المكارم، فحذف كلمة (مثل) الأولى، وهي مفعول (طلبنا)؛ كأنه ينكر أن يُطلب له مثل؛ لرفعة شأنه، وعلو منزلته.

ولو أنه ذكر المفعول؛ فقال: قد طلبنا لك مِثْلاً، لما حَسُنَ أنْ تُذْكَر الكلمة مرة ثانية، بل يُذكر ضميرها، فيُقال: طلبنا لك مثلاً في كذا وكذا، ولم نجده. والشاعر لا يريد هٰذا؛ فإن ذكر المثل في عدم الوجود أوقع في النفس من ذكر الضمير، كما أن حذفه في الإثبات ـ (طلبنا) ـ أوقع في النفس كذٰلك.

هٰذا ما يمثلون به لهٰذا النوع. ويا ليتهم مثلوا بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ

الرَّحيمِ . والضُّحى . والليْلِ إذا سَجَى . ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ ومَا قَلَى﴾ [الضحى : ١ ـ ٣]، فهو أصرح وأحسن دلالة من البيت، وأولى أن يمثل به.

بيان ذٰلك :

إن معنا فعلين : (ودَّع)، و (قَلى)، أما (ودع)؛ فقد ذكر مفعوله : ﴿ودَّعكَ﴾، وأما (قلى)؛ فلم يُذكر له مفعول.

قال كثير من البيانيين ـ عفا الله عنهم ـ :

«إنما حُذف المفعول لرعاية الفاصلة».

وقد حذرتك أن تقبل مثل هٰذا القول.

وذهب الزمخشري ـ رحمه الله ـ إلى أن حذف المفعول للاختصار.

ومع تفضيلنا لقول الزمخشري، إلا أننا نرى أن المفعول حُذف هنا لنكتة أخرى غير الاختصار، وهي كراهة أن يقع القَلْيُ والبُغْضُ صراحة على ضمير النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

فإن قلت : فلم ذُكر مفعول التوديع ﴿ودَّعَكَ﴾؛ أليس في ذٰلك كراهة؟

قلت : لا، فإن التوديع أمر معروف، مشتهر بين الناس، وبخاصة بين الأحبة، فليس بمستهجن أن يودِّع الحبيب حبيبه.

حُذف المفعول ـ إذن ـ من قوله تعالى : ﴿ومَا قَلَى﴾؛ لتلك الحكمة البيانية التي شرحتها لك، وهٰذا غرض يقصده البلغاء في الإثبات والنفي.

أما في الإثبات؛ فكما عرفت من الآية والبيت.

وأما في النفي؛ فكقول ذي الرمة :

وَلَمْ أَمْدَحْ لأُرْضِيَهُ بِشِعْري ... لَئِيماً أَنْ يَكُونَ أَصابَ مالا[1]

(١) «ديوان ذي الرمة»، و «الدلائل» (١٧٠).

وهنا فعلان؛ كل منهما بحاجة إلى مفعول: الأول قوله: (أمدح)، والثاني: (أرضي)، وقد ذكر بعد ذلك اسمين يصلح كل منهما أن يكون مفعولاً؛ أحدهما: (لئيماً)، والثاني الضمير العائد عليه ـ على اللئيم ـ ولكن الشاعر أوقع الفعل الأول على كلمة (لئيم)، وجعل للفعل الثاني الضمير العائد عليه؛ فكأنه يقول: لم أمدح لئيماً لأرضيه.

وإنما سلك هٰذا النهج؛ لأنه لا يريد أن يوقع فعل الإرضاء على اللئيم؛ كأنه يستهجن ذٰلك، وذٰلك كما تقول: لم أمدح الفاسق لأرضيه. فهو أولى من قولك: لم أمدح لأرضي الفاسق.

ألا ترى أن نفي الفعل عمَّن لا يستحقُّه ورد كثيراً في التنزيل؛ مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٧ ـ التأدب في القول:

ومنه ما يُروى عن السيدة عائشة:

«ما رأيتُ منه ـ أي رسول الله ﷺ ـ ولا رأى مني».

ومن هٰذا القبيل كل ما يدعو إليه الذوق، ويكون من الأدب في الحديث.

٨ ـ البيان بعد الإبهام:

ويعنون بهٰذا مفعول المشيئة والإرادة، وقد ورد ذٰلك في آيات كثيرة؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وإذا تُتْلى عليْهِمْ آياتُنا قالوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هٰذا﴾ [الأنفال: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿ولَوْ شاءَ ربُّكَ ما فَعَلوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، والآيات كثيرة في ذٰلك.

وقال البحتري:

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَماحَةَ حاتِمٍ ... كَرَماً ولَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خالِدِ[1]

(١) «الديوان» (١/ ٥٠٨).

فأنت ترى أن مفعول المشيئة في هٰذه الأفعال جميعاً محذوف، ففي الآية الأولى: ﴿لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ﴾؛ أي: لو شاء هدايتكم لهداكم. وهٰكذا يمكنك أن تقدر المفعول في الأمثلة الباقية، وإنما حُذف لدلالة ما بعده عليه.

ولكننا نجد أمثلة أخرى ذُكر فيها مفعول المشيئة؛ قال تعالى: ﴿لو أرادَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُو اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وقال سبحانه: ﴿لو أرَدْنا أنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِن لَدُنَّا إنْ كُنَّا فاعِلينَ . بل نَقْذِفُ بالحَقِّ على الباطِلِ فيَدْمَغُهُ فإذا هُو زاهِقٌ ولَكُمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفونَ﴾ [الأنبياء: ١٧ ـ ١٨].

وقال الشاعر إسحاق الخزيمي[(١)] يرثي حفيداً له:

فَلَوْ شِئْتُ أنْ أبْكِي دَماً لَبَكَيْتُه ... عليهِ ولٰكِنْ ساحَةُ الصَّبْرِ أوْسَعُ[(٢)]

فأنت ترى أن المفعول قد ذكر في هٰذه الأمثلة جميعها، فالمفعول في الآية الأولى المصدر المؤول من (أن) والفعل، وكذٰلك في الآية الثانية، أي: لو أراد الله اتِّخاذَ ولد، ولو أردنا اتِّخاذَ لهوٍ، وكذٰلك البيت: أي: لو شئت بكاءَ دم.

وإذا بحثت عن السبب الذي من أجله ذُكر المفعول هنا، ولم يذكر في الأمثلة السابقة، وأعملت الفكر، وأنعمتَ النظر؛ فإنك واجده وملاقيه، فأنت ترى أن مفعول الإرادة والمشيئة في القسم الثاني أمر مستغرب، وليس كذٰلك في الأمثلة الأولى، وأي أمر أكثر غرابة من أن يتخذ الله ولداً أو لهواً ـ سبحانه ـ؟! ثم أليس بكاء الدم من الأمور المستغربة التي لم يتعوَّدْها الناس؟!

كما يُمكنك أن تتعوّد ذٰلك في كلامك، فتحذفه تارة، وتذكره تارة أخرى، إذا كان

---

(١) إسحاق بن حسان بن قوهي، أبو يعقوب الخريمي، شاعر مطبوع، وصفه أبو حاتم بأشعر المولدين، خراساني الأصل، من أبناء السُّغد، ولد في الجزيرة الفراتية، وسكن بغداد، أدركه الجاحظ، وسمع منه، وعمي قبل وفاته، وهو صاحب الرائية في وصف الفتنة بين الأمين والمأمون، توفي سنة (٢١٢ هـ). [الأعلام: ١/ ٢٩٤].

(٢) «الكامل للمبرد» (١/ ٢٥١)، «الدلائل» (١٦٤).

الأمر ليس فيه شيء من الغرابة، وتذكره إذا كان الأمر على العكس من ذٰلك، تقول مثلاً لمَن تحدث: لو شئت لأعطيتك الكتاب. ولو شئت لكلمت فلاناً. ولو شئت لقرأت الفاتحة. ولكنك تقول من جهة أخرى: لو شئت أن أحفظ «صحيح البخاري» ـ رحمه الله ـ لحفظته. ولو شئت أن أقفز فوق هٰذا السور المرتفع لقفزت. ولو شئت أن أقطع هٰذه المسافة الشاسعة على قدمي في حرارة الشمس لقطعتها. . . وهٰكذا تضع المفعول أو تتركه حينما ترى داعياً للحذف أو الترك.

تلك أخطر الدواعي التي يُحذف من أجلها المفعول[1]، وما عليك بعد هٰذا إلا أن تأخذ نفسك بالمصابرة والمثابرة على تفحُّص الكلام البليغ، ولتبدأ بأبلغه ـ وهو كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ـ لترى روعة الإعجاز في كتاب الله، وأسرار الإيجاز في كلام النبي الكريم ﷺ، ولتدرك موضع الجمال في كلام البلغاء، فتدرك لذة الفهم من جهة، وتنعم بالقدرة على التعبير من جهة أخرى.

واعلم أن البيانيين تكلَّموا عن الحذف في موضعين:

الأول: حذف الكلمة؛ سواء كانت مسنداً إليه، أم مسنداً، أم مفعولاً.

الثاني: حذف الجملة، وقد تحدثوا عنه في باب الإيجاز.

واعلم أن بعض الكاتبين في علوم القرآن تحدثوا عن الحذف حديثاً مستفيضاً، فتحدثوا عن حذف المبتدأ، والخبر، والمضاف إليه، والمفعول، وغير ذٰلك مما تجده في مثل كتاب «البرهان» للإمام الزركشي، فارجع إليه إن شئت[2].

والآن ـ وقد بيَّنّا لك أغراض الحذف ودواعيه ـ يجمل بنا أن نقف وقفة قصيرة لدراسة أسلوب الحذف دراسة تطبيقية؛ لما له من شأن وخطر.

□ □ □

(١) ما قررناه في حذف المفعول خالفنا فيه بعض الكاتبين في شيء مما ذكروه، ولكل وجهة.

(٢) (٣ / ١٣٥) وما بعدها.

* المطلب الرابع :

دراسة تطبيقية لأسلوب الحذف[1]

ونبدؤك القول بأن الكتاب العزيز قد يذكر الكلمة حيناً، ويتركها حيناً، وهو يذكر ما يذكر، ويحذف ما يحذف؛ لغرض بياني، وهدف بلاغي.

* اقرأ قوله سبحانه: ﴿فإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ منهُ نَفْساً فَكُلوهُ هَنيئاً مَريئاً﴾ [النساء: ٤]، واقرأ قوله سبحانه في خطاب أهل الجنة: ﴿كُلُوا واشْرَبوا هَنيئاً﴾ [الطور: ١٩]؛ تجد أن كلمة مريئاً ذُكرت في الآية الأولى، ولم تُذكر في الآية الثانية!

وسر ذٰلك ـ والله أعلم ـ أن كثيراً ممَّا يستلذه الإنسان ويهنأ به لا تحسُنُ عاقبته، بل تكون عواقبه وخيمة، ألا ترى أن كثيراً من الناس يأكلون أطعمة مفضلة لديهم، إلا أنهم يعانون بعد ذٰلك مما يكون لها من مضاعفات، ولذا ذُكرت كلمة (مريئاً)، كأنه يقول لهم: كلوا ما لذَّ لكم وطاب، وما حسنت عاقبته؛ كان ذٰلك خطاباً للمؤمنين في هٰذه الدنيا. ولما كان ذٰلك في الآخرة لا يُتصور، إذ لا يمكن أن يستلذَّ الإنسان شيئاً وتسوء عاقبته؛ وجدنا أن كلمة (مريئاً) لم تذكر في مثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا واشْرَبوا هَنيئاً بما كُنْتُم تَعْمَلونَ﴾ [الطور: ١٩].

* واقرأ قوله تعالى: ﴿لٰكِنِ الرَّسولُ والذينَ آمَنوا مَعَهُ جاهَدوا بأمْوالِهِم وأنْفُسِهِم وأولٰئـكَ لهُم الخَيراتُ وأولٰئـكَ هُم المُفْلِحـونَ﴾ [التـوبة: ٨٨]، وأكثر الآيات التي نقرؤها؛ نجدها بهٰذا النظم: ﴿وجَاهَدوا بأموالِهِم وأنْفُسِهِم في سَبيلِ اللهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ ولكنهـا تُركت هنا ـ أعني: ﴿في سبيلِ اللهِ﴾ ـ ولا تنس أن الآية تتحدث عن الرسول ﷺ، والذين شرفوا بمعيته، وأولٰئك لا يكون جهادهم إلا في سبيل الله؛ فلا داعي ولا غرض من ذكرها هنا.

---

(١) وهذه المباحث وغيرها من أسرار الإعجاز القرآني؛ لذلك فصلت لك القول فيها هناك.

إذا عرفتَ هٰذا؛ فتعالَ معنا نمتِّع النفوس ونشرفها، ونطرب الآذان ونشنفها بدرر القول.

* اقرأ قول الله تعالى: ﴿ولَقَدْ عَلِموا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ في الآخِرَةِ مِن خَلاقٍ ولَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُم لَو كانوا يَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وانظر كيف أثبت لليهود علماً أولاً في قوله: ﴿عَلِموا لَمَنِ اشْتَراهُ﴾، ونفى عنهم ثانياً في قوله: ﴿لَو كانوا يَعْلَمونَ﴾؛ فهم لم يستفيدوا من العلم شيئاً، فكان حريًّا أن يُنفى عنهم!

وانظر كيف حذف المفعول؛ فلم يقل: لو كانوا يعلمون الشرع، أو الحق، أو الأحكام. إذ ليس هٰذا مقصوداً، بل المقصود أن يقال: إنهم ليسوا من أهل العلم، فكأن الفعل نُزِّل منزلة اللازم، وقد يكون الهدف التعميم، أي: لا يعلمون أي شيء، والأول أقعد وأبلغ.

* وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿اذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغى . فَقولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لعلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى . قالا رَبَّنا إنَّنا نَخافُ أنْ يَفْرُطَ علينا أَوْ أَنْ يَطْغى . قالَ لا تَخافا إنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وأَرَى﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٦].

أعد قراءة هٰذه الآيات الكريمة، وابحث عما حُذف في قوله تعالى: ﴿لعلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿لا تَخافا﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وأَرَى﴾، وحاول أن تدرك أسرار هٰذا الحذف، وحذارِ أن تقتصر على رعاية الفاصلة ـ كما يفعل بعضهم ـ وستجد أن هٰذا الحذف يملأ بعض النفوس طمأنينة وثقة، كما يملأ بعضها الآخر رهبة ورعباً.

﴿لعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾، ولم يقل: يخشاني. مثلاً. لعله يكون من أهل التذكرة والخشية.

﴿لا تَخافا﴾، ولم يقل: لا تخافا فرعون. لا ينبغي أن يكون منكما خوف.

﴿أسمعُ وأرى﴾، لم يقل: أسمع ما يقوله لكم، وأرى ما يفعل. لأن الله تبارك

وتعالى لا يفوته شيء، ولا يَخفى عليه شيء، فهو من شأنه أن يسمع بكل شيء، ويرى كل شيء.

* واتْـلُ قولـه سبحانه: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا لَا تُقَدِّموا بينَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِهِ﴾ [الحجـرات: ١]، واستخرج السر من حذف مفعول (تقدِّموا) في ضوء ما عرفت من دراستك السابقة؛ هل نُزِّل الفعل منزلة اللازم، أم حُذف المفعول للتعميم؟

* واقرأ قوله سبحانه: ﴿وأنه هُو أضـحَكَ وأبكى، وأنه هو أمـاتَ وأحـيـا﴾ [النجم: ٤٣-٤٤]، وانظر ماذا يحدثه هذا الحذف في النفس؟ وماذا يكون الحال لو قال: أضحك قوماً وأبكى آخرين، وأمات جيلاً وأحيا آخرين؟

هٰذا كله في حذف المفعول.

* وابحث عن الخبـر في قولـه تعالى: ﴿إنَّ الذينَ كَفَروا بالذِّكْرِ لمَّا جاءَهُم﴾ [فصلت: ٤١]، واستنتجـه أنت، واستخـرجـه بنفسـك، ولن تجده إلا خبراً يناسب مبتدأه، قدِّره إن شئت: معذَّبون. وإن شئت: سيُخْزَوْن. وإن شئت: لا يُعجزوننا. ولن تخرج عن الصواب في ذٰلك كله.

* وابحث عن المبتدإ في مثل قوله سبحانه: ﴿سَيَقولونَ ثَلاثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢]، و﴿لا تَقولوا ثَلاثَةٌ انْتَهوا خَيراً لَكُمْ﴾ [النساء: ١٧١]، وفي قوله: ﴿ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ﴾ [الواقعة: ١٣].

* وابحث عن الفاعل في قوله سبحانه: ﴿حَتَّى تَوارَتْ بالحِجابِ﴾ [صٓ: ٣٢]، و﴿فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقـومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، و﴿كَلَّا إذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ. وقيلَ مَنْ راقٍ﴾ [القيامة: ٢٦-٢٧]، وفي قوله: ﴿لقَدْ تَقَطَّعَ بينَكُمْ وضَلَّ عنكُم ما كُنْتُم تَزْعُمونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وفي قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدا لهُم مِن بَعْدِ ما رأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]، واسأل نفسك لتستخرج الفاعل لهٰذه الأفعال جميعاً: (توارت)، (بلغت)، (تقطع)، (بدا)، وستدرك أن بعضها إنما حُذف لكونه معلوماً لا يجهله أحد؛ كما في الثلاث الأولى، وأنه دلَّ عليه ما يغني عنه؛ كما في المثالين الأخيرين.

حقًّا؛ لقد تقطع أمرهم بينهم؛ كما تقطع أمرهم بينهم في الدنيا، فاليوم هو أكثر تقطعاً.

وبدا لهم هٰذا الأمر الذي قرروه، وهم يدركون أنهم خاطئون؛ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حتَّى حينٍ﴾.

وأظنك بشوق إلى أن تسمع طرفاً من حديث النبي ﷺ، وسآتيك بطرف من ذٰلك، وأدعك تحاول الكشف عن أسرار الجمال فيه.

* حذر النبي عليه وآله الصلاة والسلام هٰذه الأمة من أن تتميَّع، وتفقد شخصيتها، وتتلاشى في غيرها، وتصبح عالة إمَّعة: «لَتَتَّبِعُنَّ سنن مَن قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه»[1]. ـ ويعلم الله أنها من معجزات النبوة ـ قالوا: يا رسول الله! اليهود والنَّصارى؟ فيقول ﷺ: «فمن؟».

هل تجد أكثر وقعاً على النفس، وأكثر تأثيراً على الفؤاد، وأبلغ في كلام الناس جميعاً، وأجمع للفائدة، وأحصر، وأوجز، وأدل على التقريع من هٰذه الكلمة: «فمن؟»؟

* ومن أقواله عليه وآله الصلاة والسلام: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب»[2].

وابحث عن الجزء المحذوف في قوله ﷺ: «لا كذب»[2].

أما في أقوال العرب نظماً ونثراً، فنختار لك بعضها الأقل؛ لتبحث عن الأكثر:

* من أمثال العرب: لو ذات سوار لطمتني. يُضرب للذي يهينه اللئيم. وانظر إلى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب: قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم»، باب رقم (١٤)، حديث (٦٨٨٩).

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب الجهاد، باب: من قاد دابة غيره في الحرب، باب (٥٢)، حديث رقم (٢٨٦٤).

جمال الحذف فيه، وماذا يفيد حذف المسند؟

* واستمع إلى هٰذه الأبيات، واستخرج حذف المسند إليه، والمسند، والمفعول؛ قال النابغة:

ملوكٌ وإخــوانٌ إذا ما أتَــيْتُــهُــم ... أُحَــكَّــمُ في أمْــوالِــهِــم وأُقَــرَّبُ[1]

أمــا والــذي أبْكَى وأضْحَكَ والــذي ... أمــاتَ وأحيا والــذي أمْــرُهُ الأمْــرُ[2]

وإنِّــي رأيْتُ الــبُــخْــلَ يُزري بأهْــلِهِ ... فأكْــرَمْــتُ نَفْسي أنْ يُقــالَ بَخيلُ[3]

بَرْدُ حَشــايَ إنِ اسْتَــطَعْــتَ بلَفْــظَةٍ ... فلَقَــدْ تَضُــرُّ إذا تَشــاءُ وتَــنْــفَــعُ[4]

وقال طرفة بن العبد:

وإنْ شِئْتُ لَمْ تُرْقِلْ وإنْ شِئْتُ أرْقَلَتْ ... مَخــافَــةَ مَلْويٍّ مِنَ القَــدِّ مُحْصِدِ[5]

أخــوكَ الــذي إنْ سَرَّكَ الأمْــرُ سَرَّهُ ... وإنْ ساءَ أمْــرٌ ظَلَّ وهُــو حَزينُ[6]

رَمــاني بأمْــرٍ كُنْتُ منــهُ ووالــدي ... بَريئــاً ومِن أجْــلِ الــطَّويِّ رَمــاني[7]

وإذا الــقَــرابَــةُ أقْــبَــلَتْ بمَــوَدَّةٍ ... فاشْــدُدْ لهــا كفَّ القَبــولِ بســاعِدِ[8]

---

(١) «الديوان» (٥٣)، «شرح شواهد المغني» (٢/ ١٢٥).
وقد حذف هنا المسند إليه؛ (هم).

(٢) حذف المفعول من: (أبكى) و(أحيا).

(٣) حذف المسند إليه؛ (هو) أي: هو بخيل.

(٤) حذف المفعول من: (تضر)، و(تنفع).

(٥) الإرقال: سرعة السير. والقد: السوط والمحصد والملوي: المفتول. وقد حذف هنا المفعول. «ديوان طرفة»، و«الدلائل» (١٦٦).

(٦) حذف هنا مفعول (ساء).

(٧) «المعاهد» (١/ ١٩٠) ولم يعزه لأحد.
والمقصود: كنت منه بريئاً، وكان والدي مه بريئاً.

(٨) حذف الفعل (أقبلت) بعد (إذا).

هذا أسلوب الحذف. أما أسلوب الذكر؛ فنذكر لك هٰذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة:

* قال تعالى: ﴿والذينَ يَجْتَنِبونَ كَبائِرَ الإِثْمِ والفَواحِشَ وإِذا ما غَضِبوا هُمْ يَغْفِرونَ﴾ [الشورى: ٣٧]؛ ما فائدة قوله تعالى: ﴿هُم﴾، ولِمَ لم يقل: وإذا ما غضبوا يغفرون؟ ونذكرك بما حدثناك عنه في التقديم والتأخير؛ لصلته بهٰذا الأسلوب.

* المؤمن لا ينجس حيًّا أو مَيتاً.

* الحق لا يبلى، والدين لا يُنسى، والديَّان لا يموت، فكن كما شئت.

* وقال تعالى: ﴿قالَ نوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني واتَّبَعوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ ووَلَدُهُ إِلا خَسارا﴾ [نوح: ٢١]. ثم قال عز وجل: ﴿وقالَ نوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِن الكافِرينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦].

* ومن أمثال العرب: أتعلمني بضبٍّ أنا حرشته(١). يُضرب لمن يحسن الأمر ويبرع فيه؛ إذا أراد غيره أن يعلمه إياه.

* وقال تعالى: ﴿وجاهِدوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُو اجْتَباكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّما يُؤمِنُ بآياتِنا الذينَ إِذا ذُكِّروا بها خَرُّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بحَمْدِ رَبِّهِمْ وهُم لا يَسْتَكْبِرونَ﴾ [السجدة: ١٥].

* وقال سبحانه: ﴿ويسألونَكَ عنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي وما أُوتيتُمْ مِن العِلْمِ إِلَّا قَليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

* وقال سبحانه: ﴿ورَدَّ اللهُ الذينَ كَفَروا بِغَيْظِهِم لَمْ يَنالوا خَيراً﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وكَفَى اللهُ المؤمِنينَ القِتالَ وكانَ اللهُ قويًّا عَزيزاً﴾ [الأحزاب: ٢٥].

---

(١) حرش الضب: صاده. فهو حارش، وهو أن يحرك يده على باب جحره؛ ليظنه حية، فيخرج ذنبه؛ ليضربها به، فيأخذه.

* وقال سبحانه: ﴿إذا زُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلْزالَها . وأخْرَجَتِ الأرْضُ أثقالَها﴾ [الزلزلة: ١ - ٢].

فانظر كيف ذكر المسند إليه في هٰذه الآيات الكريمة، فذكر (الروح)، ولم يقل: قل من أمر ربي. وذكر لفظ الجلالة في الآية التي بعدها، وذكر الأرض في التالية.

واسأل نفسك: لم ذُكر المسند إليه في هٰذه الأمثلة جميعاً، وحاول أن تغوص على أسرار الحذف والذكر، ومن جدَّ وجد، ومن سار على الدرب وصل.

والله ولي التوفيق.

□ □ □

الفصل السادس

التعريف والتنكير

■ مقدمة:

من الأساليب البلاغية التي تقتضيها أحوال المخاطبين، ويقصدها المتكلم؛ أسلوب التعريف والتنكير، فإذا كان لكل من التقديم والتأخير، والحذف والذكر؛ أغراضه البلاغية، وأهدافه التي تتعلق بالمعنى، فإن التعريف والتنكير كذلك.

ألا ترى إلى الكتاب العزيز، قد جاء فيه كلٌّ من الأسلوبين، فعلى حين نقرأ قوله سبحانه: ﴿وإذْ قالَ إبْراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذا بَلَداً آمِناً وارْزُقْ أهْلَهُ مِن الثَّمَراتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ نقرأ قوله سبحانه: ﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذا البَلَدَ آمِناً واجْنُبْني وبَنِيَّ أنْ نَعْبُدَ الأصْنامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وعلى حين نقرأ قوله سبحانه: ﴿آهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ نقرأ في آية أخرى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ . إنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً . لِيَغْفِرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكَ ويَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقيماً﴾ [الفتح: ١ - ٢].

وعلى حين نقرأ قوله سبحانه: ﴿وسَلامٌ عليهِ يومَ وُلِدَ ويَوْمَ يَموتُ ويَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]؛ نقرأ في آية أخرى: ﴿والسَّلامُ عليَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أموتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

أسلوب التعريف والتنكير - إذن - حريٌّ أن نبحث عن أسراره، وما يضفيه من

روعة، وما يحدثه من أثر في النفس.

ولقد تكلم علماء النحو عن المعرفة والنكرة، وذكروا أقسام المعارف، فتحدثوا عن العلَم، والضمير، واسم الإشارة، والاسم الموصول، والمعرف بـ (أل)، وغيرها، ولكن حديثهم بالطبع كان من الناحية الإعرابية المحضة.

أما البيانيون وعلماء البلاغة؛ فكان حديثهم من زاوية أخرى، وفي مجال آخر، تحدثوا عن الأغراض التي يكون من أجلها التعريف، سواء كان هٰذا التعريف بالضمير أم بغيره، كما تحدَّثوا عن الدواعي التي تقتضي التنكير، وهم إذ يذكرون بعض الأغراض والدواعي؛ فإنما يفتحون ذٰلك الباب لتغوص على الكلام البليغ، فتلتقط منه درراً، وتدرك بعض الدواعي والأغراض التي لم يذكروها لك؛ لتستخرجها بحسِّك، وتستنتجها بذهنك.

ولنحدثك أولاً عن مباحث التعريف، ولنبدأك بالضمير، فهو حريٌّ أن يُبْدأ به؛ لما فيه من لطائف الإيجاز، وأصالة المعرفة.

□□□

□ المبحث الأول:

التعريف

وسوف نتحدث عن التعريف في مطلبين رئيسين:

المطلب الأول: تعريف المسند إليه.

المطلب الثاني: تعريف المسند.

* المطلب الأول:

تعريف المسند إليه

■ أولاً: التعريف بالضمير:

والضمير ـ كما تعلم ـ إما للمتكلم، أو للمخاطب، أو الغائب.

١ ـ ضمير المتكلم:

يؤتى به حينما يكون المقام مقام تكلُّم، ومنه قوله سبحانه: ﴿أنا اللهُ لا إلهَ إلا أنا فاعْبُدْني﴾ [طه: ١٤]، وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عليكَ نَبَأَهُمْ بالحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]، ومنه قول النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب»، وكذلك ما استشهد به الحجاج(١) في خطبته لأهل العراق:

أنا ابنُ جَلَى وطَلاَّعُ الثَّنايا   مَتى أضَعُ العَمامَةَ تَعْرِفوني(٢)

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، ولد سنة (٤٠ هـ)، قائد، داهية، سفاك، خطيب، ولد ونشأ في الطائف، وانتقل إلى الشام، قلّده عبد الملك بن مروان أمر عسكره، وأمره بقتل عبد الله بن الزبير، فقتله، مات بواسط، سنة (٩٥ هـ).

(٢) «الخزانة» (٥/ ٦٤)، «المعاهد» (١/ ٣٣٩)، «شرح شواهد المغني» (٤/ ٦).

ومنه قول بشار:

أنـا المُـرَعَّثُ[1] لا أخْفَى على أحَـدٍ ... ذَرَّتْ بيَ الـشَّمْسُ للقـاصي وللدَّاني

ومنه قول الفرزدق:

أنـا الضَّـامِنُ الـراعي عليهِمْ وإنَّمـا ... يُدافِـعُ عَنْ أحْسـابِهِم أنـا أوْ مِثْلي[2]

وكذلك قول شاعر النيل يتحدث عن مصر:

أنـا تاجُ الـعُـلى في مَفْـرِقِ الـشَّـرْ ... قِ ودُرَّاتُـهُ فَرَائِـدُ عَقْـدي

٢ ـ ضمير المخاطب:

ويؤتى به حينما يكون المقام مقام خطاب، ومنه قول النبي ﷺ في دعائه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين وربي . . .»[3].

وفي حديث الشفاعة: «أنت آدم أبو الخلق»[4].

وكقول أمامة:

وأنْـتَ الـذي أخْـلَفْـتَني مَا وعَـدْتَني ... وأشْـمَـتَّ بي مَنْ كانَ فيكَ يلومُ[5]

وٱعلم أن ضمير الخطاب إما أن نخاطب به معيناً ـ كما مر ـ، وإما أن نوجهه لكل من يصلح له الخطاب، ولكن على سبيل البدلية والتناوب، لا على أنه يتناول المخاطبين

---

(١) كان بشار يلقب بالمرعَّث لرعثة كانت له في صغره، والرعثة: القرط الذي يعلق في شحمة الأذن، وذرت الشمس: طلعت.

(٢) «الديوان» (ص ١٩١).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، وأبو نعيم في «الحلية»؛ من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. ورجاله ثقات.

(٤) «صحيح مسلم» بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب: الشفاعة (٣ / ٥٥).

(٥) «ديوان الحماسة» (٣/ ١٣٨١).

جميعاً، وإليك بيان ذلك:

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ولَوْ تَرَى إذِ المُجْرِمونَ ناكِسو رُؤوسِهِم عِنْدَ رَبِّهِم﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله سبحانه: ﴿ألَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾ [نوح: ١٥]. وخذ قول المتنبي:

إذا أنْتَ أكرَمْتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ وإنْ أنْتَ أكْرَمْتَ اللئيمَ تَمَرَّدا

إن هٰذه الأقوال جميعاً؛ لم يخاطب بها واحد معين، إنَّما يخاطب بها كل من يصلح للخطاب ـ كما قلنا من قبل ـ لكن هٰذا الخطاب لا يتناول الجميع دفعة واحدة، فإنه لو كان كذٰلك؛ لقيل: ولو ترون. ألم تروا؟ إذا أنتم أكرمتم. وإن أنتم. وليس المقصود هٰذا، وإنما هٰذا يصلح لمن تخاطب الآن، ويصلح لمن خاطبت في الأمس، ويصلح لمن يخاطب غيرك غداً، وهٰذا معنى قولهم: إن هٰذا الخطاب على سبيل البدليَّة، لا على معنى أنه يتناول المخاطبين جميعاً دفعة واحدة.

الأصل في الخطاب ـ إذن ـ أن يكون لمعيَّن، وقد يكون لغير معيَّن؛ كما رأيت.

كما أن الأصل في الخطاب أن يكون لمشاهد كذٰلك؛ لأنك إنما تخاطب من تشاهده، وقد يكون لغير المشاهد إذا كان مستحضَراً في قلبك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَستعينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقول الوله الحائر:

وأنتِ فِلسْطينُ رَوْضُ النَّدى وأنْتِ الحَياةُ وأنْتِ الهُدى

وقريب من هٰذا قولة شوقي يرثي دار الخلافة:

يا أُخْتَ أنْدَلُسٍ عليكِ سَلامُ هَوَتِ الخِلافَةُ عنكِ والإسْلامُ

وكما تتحدث عن عمر رضي الله عنه؛ فتخاطبه بقولك: أنت فتحت بيت المقدس بالعدل. وتخاطب صلاح الدين بقولك: أنت حررته من المعتدين.

٣ ـ ضمير الغيبة:

وهو الذي تتحدَّث فيه عن الغائب؛ لذا فهو يختلف عما قبله؛ لأن الغائب الذي

نتحدث عنه لا بدَّ أن يسبق له ذكر، حتى يرتبط كلامنا بعضه ببعض؛ قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم. تَبارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ وهُو على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ. الذي خَلَقَ المَوْتَ والحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً وهُو العَزيزُ الغَفورُ﴾ [الملك: ١ ـ ٢]، فأنت ترى أن الضمير هنا (هو)؛ سبق ما يدل عليه، وقال تعالى: ﴿واتَّبِعْ ما يُوحَى إليكَ واصْبِرْ حتَّى يَحْكُمَ اللهُ وهُو خَيْرُ الحاكِمينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال أبو تمام:

بيُمْنِ أبي إسحاقَ طالَتْ يَدُ العُلا	وقامَتْ قَناةُ الدِّين واشْتَدَّ كاهِلُهْ
هُو اليمُّ من أي النواحي أتيتَهُ	فَلُجَّتُهُ المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ

ففي هٰذه الأمثلة جميعاً تقدم ما يدل صراحة على هٰذا الضمير، وقد لا يكون الأمر كذٰلك، وإنما يُفْهم من المعنى فحسب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وإنْ قيلَ لَكُمُ ارْجِعوا فارْجِعوا هُو أزْكَى لَكُم﴾ [النور: ٢٨]، فإنه لم يتقدم صراحة لفظ يدل على هٰذا الضمير ـ أعني (هو) ـ لكن تقدم ما يدل عليه في المعنى؛ كأنه قيل: وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا فالرجوع أزكى لكم.

وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿ولأبَوَيْه لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١]، والمعنى: ولأبوي المتوفَّى (الميت)، ولم يسبق له ذكر، ولكن لما كانت الآية تتحدث عن الإرث والتركة؛ فإن ذٰلك يُعلم من السياق.

وقد يكون الأمر من الوضوح بحيث يُفهم مرجع الضمير دون عسر أو عناء. اقرأ مثلاً قوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. ويَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإكرامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]، فإن الضمير هنا؛ وإن لم يتقدم له مرجع؛ لكن النفس لا تجد عسراً في معرفته، بل تجدها تتأثر بهٰذا الضمير أكثر مما لو وضع مكانه الاسم الظاهر.

* ضمير الشأن:

ومنه ضمير الشأن، وهو ما يدل على غرابة، وما تتشوق النفس لتعرف ما بعده، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُو اللهُ أحدٌ﴾ [الإخلاص: ١]؛ كيف تتشوق النفس

إلى أن تعرف ما بعد الضمير (هو)؟ وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿فإنَّها لا تَعْمى الأبصارُ ولْكنْ تَعْمى القُلوبُ التي في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿إنْ هِيَ إلا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

واستمع إلى قول القائل:

هِيَ الأمورُ كَما شَاهَـدْتَـها دُوَلٌ   مَن سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْـهُ أزْمانُ

وضمير الشأن؛ كما يكون ما بعده مذكراً، يكون مؤنثاً كذلك، فيقال: الشأن كذا، أو القصة كذا.

■ ثانياً: التعريف بالعلمية

العلم هو الذي يعين مسمَّاه مطلقاً، ويؤتى به ليميز مسمَّاه عن غيره؛ قال تعالى: ﴿وإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ القَواعِدَ مِن البَيْتِ وإسْماعيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسولُ اللهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿قالَ نوحٌ رَبِّ إنَّهم عَصَوْني﴾ [نوح: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿ولمَّا رَجَعَ موسى إلى قومِهِ غَضْبانَ أسِفاً﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وتقول: النيل حياة مصر. حمزة سيد الشهداء، وأسد الله، وأسد رسوله ﷺ. صلاح الدين ونور الدين قائدان عظيمان. الصديق والفاروق وذو النورين والإمام ذكرهم يعطر المجالس. أبو بصير دوَّخ المشركين وحده. أبو لهب وأبو جهل عليهما اللعنة. أبو حيَّان فسَّر القرآن الكريم، وسمَّى تفسيره «البحر المحيط». أم الفضل من فضليات النساء. زارنا أبو المكارم ومعه أخو الحرب.

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليومَ مَتبولُ(١)

آذَنَتنا بِبَينِها أسماءُ

---

(١) تتمته:

مُتَيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مَكْبولُ

لكعب بن زهير، «شرح قصيدة بانت سعاد»، للتبريزي، (ص ١١).

الأمثلة السابقة كلها كل جملة فيها عَلم، ولكنَّ العلم قد يكون اسماً، وقد يكون كنية، وهو ما صُدِّر بـ(أب) أو (أم)، فالاسم إذن غير الكنية واللقب.

وإذا رجعت إلى الأمثلة السابقة مرة أخرى؛ وجدتها تشتمل على هٰذه الأنواع الثلاثة:

١ ـ الاسم: مثل: إبراهيم ومحمد ونوح وموسى؛ عليهم الصلاة والسلام، وحمزة؛ رضي الله عنه، وسعاد، وأسماء، والنيل.

٢ ـ اللقب: مثل: صلاح الدين، ونور الدين، والصديق، والفاروق، وذو النورين، والإمام.

٣ ـ الكنية: مثل أم الفضل، وأبو بصير، وأبو حيان، وأبو لهب، وأبو جهل؛ فهٰذه كلها كُنى لأناس معروفين.

وأبو المكارم. وأخو الحرب؛ قصد بهما رجل اشتهر بالكرم والسخاء، وآخر اشتُهر بالشجاعة والبسالة.

وإذا نظرت إلى هٰذه الجمل مرة ثالثة؛ وجدت أن الغرض من ذكر هٰذه الأعلام؛ أسماء، أو كنى، أو ألقاباً: المدح، أو التبرك، أو التلذذ، أو الذم.

وهٰكذا تدرك أننا نأتي بالعلم عندما نريد أن نميزه عن غيره، أو نمدحه، أو نتلذذ بذكر اسمه، أو نضفي عليه بعض الصفات التي تشعر بالمدح أو الذم.

■ ثالثاً: التعريف باسم الإشارة:

الأصل في الإشارة أن تكون لمحسوس، وقد يُنزَّل غير المحسوس منزلة المحسوس.

والإشارة قد تكون للقريب؛ مثل: هٰذا، وهٰذه.

وقد تكون للمتوسط؛ مثل: ذاك.

وقد تكون للبعيد؛ مثل: ذٰلك، وتلك.

وللتعريف باسم الإشارة دواع وأهداف بيانية يمكن أن تُتلمس في الكلام الجيد، وأن تستنتج من السياق.

ومن الأغراض البيانية للتعريف باسم الإشارة:

١ ـ أن يقصد تمييزه أكمل تمييز:

وذٰلك لإحضاره في ذهن السامع، فيكون أكثر تصوراً له، بحيث لا يغيب عنه شيء من أوصافه؛ تقول مثلاً: هٰذا كاتب «في ظلال القرآن» قدَّم للفكر من قلمه وللقلب من دمه.

ومنه قول ابن الرومي[(١)]:

هٰذا أبو الصَّقْرِ فَرْداً في مَحاسِنِهِ ... مِن نَسْلِ شَيْبانَ بَيْنَ الضَّالِ والسَّلَمِ[(٢)]

وقال الحطيئة:

أولٰئكَ قومٌ إنْ بَنَوا أحْسَنوا البِنا ... وإنْ عاهَدوا أوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا[(٣)]

٢ ـ التعريض بالمخاطب:

وذلك كقول الفرزدق:

أولٰئكَ آبائي فَجِئْني بِمِثْلِهِم ... إذا جَمَعَتْنا يا جَريرُ المَجامِعُ

ويمكن أن يكون هٰذا للمدح، ومثل هٰذا قولك لمن يقلِّل من شأن أمتنا: أولٰئك أسلافنا؛ خلدوا المآثر، وشيدوا ذٰلك البناء، وخلفوا ذٰلك التراث.

---

(١) ابن الرومي: علي بن العباس بن جريج البغدادي المشهور بابن الرومي، أبو الحسن، شاعر رومي الأصل، ولد ببغداد لليلتين خلتا من رجب سنة (٢٢١ هـ)، ونشأ وتوفي بها لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة (٢٨٣ هـ). [المعجم: ٧/ ١١٤].

(٢) «معاهد التنصيص» (١/ ١٠٧).

(٣) «ديوانه» (٣/ ١٠ ـ ق ٣٨)، «الكامل» للمبرد (٢/ ٧١٧).

٣ ـ التعظيم:

وتارة يكون باستعمال اسم الإشارة القريب، وتارة يكون بالبعيد.

والواقع أن السياق هو الذي يقرر ذٰلك، فقوله سبحانه: ﴿إنَّ هٰذا القرآن يَهْدي للَّتي هِيَ أقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ استُعْمِلَ فيه اسم الإشارة القريب، وقوله سبحانه: ﴿ذٰلك الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ﴾ [البقرة: ٢]؛ استعمل فيه اسم الإشارة البعيد، والسياق هو الذي اقتضى ذٰلك، ألا ترى أن الآية الأولى ذكرت الهداية، وهٰذا يستدعي القرب؛ حتى يكون الهادي قريباً من المهديّ، أما الآية الثانية؛ فجاءت لنفي الريب، وهٰذا يستدعي البعد بالطبع؟

ثم انظر إلى قوله سبحانه حكاية عن امرأة العزيز؛ تتحدث عن يوسف عليه السلام: ﴿فَذٰلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]؛ مع أنه حاضر أمامها، ولكن أرادت أن تدلّل على رفعته، وعلو منزلته، وبعده عن أضرابه وأمثاله؛ فجاءت باسم الإشارة الدال على ذٰلك.

وهٰكذا؛ يمكنك أن تحكّم السياق فيما تقرأ، أو فيما تريد أن تتحدث به.

٤ ـ التحقير:

وقد يكون في القرب وفي البعد كذٰلك.

فمن الأول ما حكاه القرآن عن المشركين، وعما يعتمل في نفوسهم من حقد على الحق: ﴿أهٰذا الذي بَعَثَ اللهُ رَسولاً﴾ [الفرقان: ٤١]، ﴿أهٰذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُم﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ومنه قولك لصاحبك: أهٰذا الذي تخشاه؟ أهٰذا يخيفك؟ أهٰذا يمنعك حقك؟

أما في البعد؛ فيمثل له بقوله سبحانه: ﴿إنَّما ذٰلكم الشيطانُ يُخَوِّفُ أوْلياءَهُ فلا تَخافوهُمْ وخافُونِ إنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقريب منه في الذمِّ قوله سبحانه: ﴿أرأيْتَ الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ . فذٰلك الذي يَدُعُّ اليَتيمَ﴾ [الماعون: ١ ـ ٢].

٥ ـ **أن يسبق ذكر اسم الإشارة أوصاف، ويليه مآثر:**

فيؤتى هنا باسم الإشارة تنبيهاً على أنه جدير بالمزايا التي أُخبر بها عنه.

خذ مثلاً قوله سبحانه في وصف المتقين الذين كان القرآن هداية لهم: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ . الٓم . ذٰلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً للمُتَّقينَ . الذينَ يُؤْمنونَ بالغَيْبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُم يُنْفِقونَ . والذين يؤمنون بما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ من قبلِكَ وبالآخِرَةِ هُم يُوقِنونَ . أولٰئكَ على هُدىً مِن رَبِّهِم وأولٰئكَ هُم المُفْلِحونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

فأنت ترى أنه قد جيء باسم الإشارة (أولٰئك)، وقد ذُكرت قبله أوصاف كثيرة للمتقين، وذُكر بعده أنهم على هُدى من ربهم، وأنهم هم المفلحون؛ فجيء باسم الإشارة هنا تنبيهاً على أن المشار إليه الذي اجتمعت له هٰذه الأوصاف، حريٌّ بأن تُثبت له الهداية؛ هٰذه الهداية التي من شأنها أن تجعلهم لا يفرطون في كرامتهم، ولا يستمرئون الذل ، ولا يرضون الهوان، ولا تغرهم مفاتن الحياة الدنيا.

وانظر إلى قول حاتم يرثي رجلاً بأنه عالي الهمة، وإذا كان يوم حرب يذهب إلى صدور الرماح، وينزل فيما بينها، والحال أنه مختضب بالدم منها، فبعد أن قال: «لله صعلوك»، وعدد له صفات؛ جاء باسم الإشارة بقوله: «فذٰلك»، ثم عقبهُ بما هو أهل له، وهٰذه هي الأبيات:

وللهِ صُعْلوكٌ يُساوِرُ هَمَّهُ ... ويَمْضي على الأحداثِ والدَّهْرِ مُقْدِما
إذا ما رأى يوماً مَكارِمَ أُعْرِضَتْ ... تَيَمَّمَ كُبْراهُنَّ ثُمَّتَ صَمَّما
ويَغْشى إذا ما كَانَ يَوْمُ كَريهَةٍ ... صُدورَ العَوالي وهو مُخْتَضِبٌ دَما
إذا الحَرْبُ أبْدَتْ ناجِذَيْها وشَمَّرَتْ ... ووَلَّى هَدانُ القَوْمِ أقْبَلَ مُعْلِما
فذٰلكَ إنْ يَهْلِكْ فحُسْنى ثَناؤه ... وإنْ عاشَ لَمْ يَقْعُدْ ضَعيفاً مُذَمَّما

وقول حاتم في مدح هٰذا الصعلوك ينقلنا لقول شيخ الصعاليك عروة بن الورد يمدح صعلوكاً آخر، وهو ما نحن بصدده كذٰلك:

لَحا اللهُ صُعْلوكاً إذا جَنَّ لَيْلُهُ ... مُصافي المُشاشِ آلفاً كُلَّ مَجْزَرِ
يَنامُ ثَقيلاً ثُمَّ يُصْبِحُ قاعِداً ... يَحُتُّ الحَصَى عنْ جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ
يُعينُ نِساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّهُ ... فَيُضْحي طَليحاً كالبَعيرِ المُحَسَّرِ
ولٰكنَّ صُعْلوكاً صَفيحةُ وجْهِهِ ... كَضَوْءِ سِراجِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلّاً على أعدائِهِ يَزْجُرونَهُ ... بِساحَتِهِم زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ
وإنْ بَعُدوا لا يأمَنونَ اقْتِرابَهُ ... تَشَوُّفَ أهلِ الغائِبِ المُتَنَظَّرِ
فذٰلكَ إنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلْقَها ... حَميداً وإنْ يَسْتَغْنِ يوماً فأجْدَرِ[1]

ويمكنك أن تدرك بعد ذٰلك أن من هٰذا القبيل ما جاء في قوله سبحانه: ﴿وتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبراهيمَ على قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عليمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]؛ فقد جاء اسم الإشارة (تلك) بعد أن تقدم ما يدل عليه، ابتداء من قوله تعالى: ﴿وإذْ قالَ إبْراهيمُ لأبيهِ آزَرَ﴾ إلخ... الآيات [الأنعام: ٧٤ - ٨٢]، فلقد أقامَ الحُجَّةَ عليهم، وألقمَهُم حجراً، ثم قال عز وجل: ﴿ووَهَبْنا لهُ إسْحاقَ ويَعْقوبَ كُلًّا هَدَيْنا ونوحاً هَدَيْنا مِن قَبْلُ ومِن ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسُلَيْمانَ وأيُّوبَ ويوسُفَ وموسى وهارونَ وكذٰلك نَجْزي المُحْسِنينَ . وزَكَرِيّا ويَحْيى وعِيسى وإلْياسَ كُلٌّ مِن الصّالِحينَ . وإسْماعيلَ واليَسَعَ ويونُسَ ولوطاً كُلًّا فَضَّلْنا على العالَمينَ . ومِن آبائِهِمْ وذُرِّيّاتِهِم وإخوانِهِم واجْتَبَيْناهُم وهَدَيْناهُم إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٧]، وقال بعد ذٰلك سبحانه: ﴿أولٰئكَ الذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، ثم قال بعد ذٰلك: ﴿أولٰئكَ الذينَ هَدى اللهُ فَبِهداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

هٰذا كله في المدح.

أما في الذم؛ فنمثّل له بما جاء في سورة البقرة، فبعد ذكر المنافقين، وكذبهم في ادِّعاء الإيمان، وكونهم يخادعون الله والذين آمنوا، وكونهم في قلوبهم مرض، ثم ما ذكر بعد ذٰلك من أوصافهم؛ قال: ﴿أولٰئكَ الذينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدى فَما رَبِحَتْ

(١) «ديوان عروة» (ص ٣٧)، دار صادر.

تِجارَتُهُم وما كانوا مُهْتَدينَ﴾ [البقرة: ١٦].

تلك أهم الدواعي والأغراض التي يُذكر اسم الإشارة من أجلها، وما عليك إلا أن تنتقل في الرياض الغنَّاء؛ لتنعم بلذة الاستنتاج، ومن الله العون.

■ رابعاً: التعريف بالاسم الموصول:

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، ولذا فهو محتاج إلى الصلة دائماً، فالصلة هي التي تُزيل إبهامه، ألا ترى أنك إذا قلت: جاء الذي! فكأنك لم تقل شيئاً. فإذا قلت: علَّم ولدَك. فإن هٰذه الصلة بدَّدت هٰذا الإبهام.

والتعريف بالاسم الموصول دقيق المسلك، يحتاج منك إلى غوص، ويتطلَّب إعمال فكر، والأغراض التي يؤتى من أجلها بالاسم الموصول كثيرة، تُدرَك بالقريحة الجيدة، والحس المرهف:

١ ـ أن يكون الوسيلة الوحيدة للمعرفة:

ومن أول هٰذه الأغراض أن يكون الاسم الموصول الوسيلة الوحيدة للمعرفة، فإذا رأيت عند صديقك شخصاً ما، ولكنك لا تعرفه، وأراد صديقك أن يذكر لك شيئاً عنه؛ فإنه لا وسيلة لهٰذه المعرفة إلا بالاسم الموصول؛ فيقول لك: الذي رأيته عندي من المجاهدين الصادقين. الذي كان معنا في الأمس عالم فاضل.

٢ ـ قصد التعظيم والحث عليه:

وذٰلك حينما ترى الحاجة تدعو إلى ذٰلك؛ تقول لصاحبك: جاء الذي أنقذك من مأزقك الحرج. جاء الذي أحسن إليك. تقول ذٰلك لتحثَّ مَن تخاطب على أن لا يتجاهل ذٰلك المحسن، وقد بدا لك منه هٰذا التجاهل.

٣ ـ تفخيم الأمر أو تهويله:

وذٰلك مثل قوله سبحانه حديثاً عما لقيه آل فرعون: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِن اليَمِّ ما غَشِيَهُم﴾ [طه: ٧٨]، فالذي يفيده الموصول هنا لا يفيده شيء آخر، كأنه يقول:

غشيهم من اليم شيء لا يمكن وصفه؛ لشدته، أو عُنفه، أو كثرته. ومنه قوله سبحانه حكاية عما حلَّ بقوم لوط عليه السلام: ﴿فَغَشَّاها ما غَشَّى﴾ [النجم: ٥٤]، أي: شيئاً كثيراً صعباً. ومثله قوله سبحانه ـ ولكن في سياق آخر، وهو سياق التعظيم والفخامة ـ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى﴾ [النجم: ١٦]؛ فهو تعظيم لما يغشى السدرة مما لا يعلمه إلا الله.

ومنه قول القائل فيما تحدثُهُ الخمرة:

مَضَى بِهـا ما مَضَى مِنْ عَقْلِ شارِبِها ... وفي الـزُّجـاجَـةِ باقٍ يَطْلُبُ البـاقي

وعليه من غير المسند إليه قول دريد بن الصمة[1]:

صَبَـا مَا صَبَـا حَتَّى عَلا الشَّيْبُ رأْسَهُ ... فَلَمَّـا عَلا قالَ للبـاطِـلِ ابْـعِـدِ

٤ ـ التنبيه على خطأ المخاطب:

كقولك: إن الذين تنتظرون منهم إنصافكم من عدوكم يمدُّون عدوكم بكل فتاك ومدمر. الذين تظنونهم منصفين يضمرون لكم كل شر. الذين تحسبونهم مخلصين لكم إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء.

ومنه قول الشاعر عبدة بن الطيب يعظ بنيه:

إنَّ الـذينَ تَرَوْنَـهُـم إخْـوانَـكُـم ... يَشْفي غَليلَ صُدورِهِم أنْ تُصْـرَعـوا

٥ ـ زيادة تقرير الغرض الذي سيق الكلام من أجله:

وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وراوَدَتْهُ التي هُو في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ فالغرض الذي سيق الكلام من أجله هو عفة يوسف، ونزاهته عليه السلام، ولقد جاء الموصول يؤدي هذا الغرض على أحسن وجه وأتمه وأكمله؛ فكيف ذلك؟! إليك البيان:

---

(١) دريد بن الصمة الجشمي البكري من هوازن، شجاع من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم، غزا نحو مائة غزوة، أدرك الإسلام ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية يوم حنين سنة (٨ هـ). [الأعلام: ٢/ ٣٣٩].

لم يقل: راودته زليخا أو امرأة العزيز. وإنما قال: ﴿التي هو في بيتِها﴾. وفي هٰذا خير دلالة على نزاهته عليه السلام، إذ كونه في بيتها؛ ليس بينها وبينه حجاب أو ساتر، فهو يراها في كل حين، وهٰذا من شأنه أن يجعله أكثر استجابة لما طلبت منه، ولكنه ـ مع ذٰلك ـ قال: ﴿معاذَ الله﴾.

فالاسم الموصول ـ كما نرى ـ كان له أكبر الأثر في بيان عفته عليه السلام.

وقريب من هٰذا في بيان هٰذا الغرض قول أبي العلاء:

أعُبَّادَ المَسيحِ يَخافُ صَحْبي ... ونَحْنُ عَبيدُ مَنْ خَلَقَ المَسيحا

فإن في قوله: «من خلق المسيحا». تقرير للغرض الذي سيق الكلام من أجله، وهٰذا الغرض ـ بالطبع ـ هو حث قومه على عدم الخوف، فالرسالة التي يؤديها الاسم الموصول هنا لا يمكن أن تؤديها كلمة أخرى.

ومثل هٰذا قولك: يحاربنا الذين نفتح لهم قلوبنا، ونمكنهم من استخراج خيراتنا.

٦ ـ استهجان ذكره، وعدم التصريح باسمه:

وذٰلك كقولك: جاءت التي أخرجتها أمس من مكتبي. أو جاء الذي تحدثت الصحف عنه أمس.

٧ ـ الإيماء والإشارة إلى معرفة الخبر:

وهو قريب مما يسمُّونه براعة الاستهلال، ومعنى هٰذا أن يذكر المتكلم شيئاً في أول حديثه؛ يستطيع أن يدرك الفَطِنُ ما سيجيء بعده.

انظر مثلاً إلى قوله سبحانه: ﴿وقالَ رَبُّكُمُ ادْعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إنَّ الذينَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ انظر إلى الصلة، وهي قوله سبحانه: ﴿يستكبرون﴾؛ ألا تدرك أنك ستفهم منها فحوى الخبر الذي لم يأت بعد ذٰلك؟ إن جزاء المستكبر الهوان والصغار، ولذا جاء الخبر دالًّا على هٰذا: ﴿سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾.

واستَمِعْ مَثَلاً إلى بيت الفرزدق:

إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ.....

فصلة الموصول هنا تدل على الرفع، ثم انظر كيف جاء الخبر منبثقاً عن هٰذه الصلة، وكأن السامع يدرك ما سيقول الشاعر، ولذا جاء البيت هٰكذا:

إنَّ الــذي سَمَــكَ السَّمــاءَ بَنى لنـا   بَيْتـاً دَعــائِـمُــهُ أعَـزُّ وأطْـوَلُ

تقول: إن الذين يظلمون الناس. إن الذي يثق بالأعداء. إن التي تتهاون بشرع الله. وستجد نفسك مستعدًّا لمعرفة أخبار هٰذه الجمل جميعاً، حتى قبل أن تُذكر لك، فتدرك أن الذي يظلم الناس لا بد أن يُظلم، وأن الذي يثق بالعدو هو أول من سيصيبه العدو بشره، وأن التي تتهاون بالشرع ستحصد ثمرة هٰذا التهاون شقاء وبلاء.

وتقول: إن الذي يكرم اليتيم. وإن الذي يقيل عثرات الناس. وإن الذي يفرج الكربات. وإن التي تصبر على التحديات. وستجد نفسك ـ كذٰلك ـ وكأنها تتلقَّى هٰذه الأخبار دونما حاجة لذكرها.

وهٰذا غرض مهم من أغراض التعريف بالموصول، ويأتي كما رأيت في المدح، أو الذم، أو الثواب، أو العقاب، وكأنما خلاصة هٰذا الجزاء من جنس العمل.

وقد يكون المدح، أو الذم، أو الثواب، أو العقاب؛ لغير الموصول، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿الذينَ كَذَّبوا شُعَيْباً كانوا هُمُ الخاسِرينَ﴾ [الأعراف: ٩٢]؛ فإن في هٰذا ذمًّا لهم، ومدْحاً لشعيب عليه السلام.

وانظر إلى قولك: الذي يخالف الشيطان يستحق الإكرام. فإن في ذٰلك مدحاً للموصول، وذمًّا للشيطان.

تلك أهم الأغراض التي يُؤتى بالاسم الموصول من أجلها، ومع ذٰلك فهو مسلك دقيق؛ كما قلت لك من قبل، فلتكن ذا فطنة، درَّاكاً للمحة، وإن خفيت ودقت.

■ خامساً: التعريف بـ (ال):

وبعضهم يقول: التعريف باللام. وهٰذا ناشىء عن أيهما أداة التعريف (ال) أم اللام وحدها؟

قال ابن مالك في «الألفية»:

(ال) حرف تعريف أوِ اللامُ فقط

وقد تكلم النحاة عن (ال)، وذكروا أنها قد تكون **لازمة للدخول على الاسم**؛ مثل: الآن، واللات، والذين، فإنها لا تنفصل عن هٰذه الكلمات.

وقد تدخل **اضطراراً** كما في الشعر، مثل قوله:

وطبت النفس

والأصل: وطبت نفساً.

وقد يكون **ذكرها وعدمها سواء**؛ كدخولها على الأعلام:

كالفَضْلِ والحارِثِ والنُّعمانِ ... فذِكْرُ ذا وحَذْفُهُ سِيَّانِ

وهٰذا بيت «الألفية»، والمقصود بـ (ذا): حرف التعريف.

تلك مقدمة لما يعنينا من هٰذا الحرف.

يقسم العلماء (ال) إلى قسمين، فهي إما للعهد، وإما للجنس، والفرق بينهما أن لام العهد هي الداخلة على أمر يُشعر بمعرفة السامع له؛ لتقدمه في الذكر صراحة، أو كناية.

إذا قلت: جاء رجل، فأكرمت الرجل. فإن (ال) إنما هي للعهد؛ لأن هٰذا الرجل قد مرَّ له ذكر من قبل.

وإذا قلت لزميلك: جاء الطالب. وفهم ما تعنيه؛ فلا بد أن يكون هناك ذكر له قد سبق من قبل، إن له قصة يعرفها كل منكما.

أما (ال) التي للجنس؛ فليس فيها ما يُشعر بذلك، إنها تدخل على ماهية الشيء مما لم يسبق للسامع عهد به.

إذا عرفت هٰذا، فاعلم أن كلًّا منهما تنقسم إلى أقسام:

* (ال) العهدية:

فـ (ال) العهدية يمكن أن يكون العهد فيها صراحة، أو كناية، أو علميًا، ويسمى حضوريًا كذٰلك:

١ ـ العهد الصريح:

أما العهد الصريح؛ فهو أن يتقدم ذكر المعرَّف صراحة، كالمثال المتقدم: جاء رجل، فأكرمت الرجل. ومنه قوله سبحانه: ﴿كَما أَرْسَلْنا إلى فِرْعَوْنَ رَسولاً . فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

٢ ـ العهد الكنائي:

أما العهد الكنائي؛ فهو أن لا يتقدم للمعرف بـ (ال) ذكر صريح، وإنما يتقدّم ما يدلُّ عليه كناية، استمع إلى قوله سبحانه: ﴿إِذْ قالَتِ امْرَأَةُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ العَليمُ . فلمَّا وَضَعَتْها قالَتْ ربِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى واللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ ولَيْسَ الذَّكَرُ كالأُنْثى﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٦]، وستجد أن كلمة أنثى ذُكرت مرتين: مرة منكرة في قوله: ﴿إِنِّي وضعْتُها أُنْثى﴾، ومرة معرفة في قوله: ﴿وليسَ الذَّكَرُ كالأُنْثى﴾، وهٰذا عهدٌ صريح؛ لأن الكلمة نفسها قد ذُكرت منكرة أولاً.

ولكن وردت كلمة الذَّكر مرة واحدة معرفة، مع أنه لم يسبق له ذكر صريح من قبل، ولكنك إذا نظرت في الآية مرة أخرى؛ تجد أنه ـ وإن لم يذكر الذكر صراحة ـ لكنه ذُكر بما يدلُّ عليه، فإن قوله سبحانه: ﴿نَذَرْتُ لكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً﴾؛ دلَّ على أنها تعني ذكراً؛ لأن القيام بخدمة المعابد، والتفرغ لها؛ كان خاصًّا عندهم بالذكور دون الإناث.

(ال) في قوله تعالى: ﴿ولَيْسَ الذَّكَرُ كالأنثى﴾ هي للعهد إذن، ولكنه ليس عهداً صريحاً، وإنما هو عهد كنائي.

٣ ـ العهد العلمي أو الحضوري:

قد لا يسبق للمعرف بـ (ال) ذكر ألبتة؛ لا صراحة ولا كناية، ولكنك تدرك المقصود من نطق المتكلم، فإذا قال لك: جاء الأستاذ. وأنت تعرف أنه ليس هناك غير هٰذا الأستاذ، فإن (ال) هنا للعهد، ولكنه ليس عهداً صريحاً، ولا كنائيًّا، ومع ذٰلك علمت المقصود به، وأحضرته في ذهنك إحضاراً تامًّا؛ ولذا يسمى هٰذا العهد عهداً حضوريًّا أو علميًّا.

يمكنك الآن أن تميِّز بين الأقسام الثلاثة، فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿ويَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَدَيْهِ يَقولُ يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسولِ سَبيلاً . يا وَيْلَتا لَيْتَني لَمْ أتَّخِذْ فُلاناً خَليلًا . لَقَدْ أضَلَّني عنِ الذِّكْرِ بعْدَ إذْ جاءَني وكانَ الشَّيْطانُ للإنسانِ خَذولاً . وقالَ الرَّسولُ يا رَبِّ إنَّ قومي اتَّخذوا هٰذا القُرْآنَ مَهْجوراً﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٣٠]، فكلمة الرسول وردت معرفة مرتين، وهي في الآية الأخيرة للعهد الصريح، لكنها في الآية السابقة للعهد العلمي أو الحضوري.

* (ال) الجنسية:

والجنس هو الذي يشتمل على أفراد كثيرين؛ كالرجل، والمرأة، والإنسان، والدرهم، والدينار، ألا ترى أن كل كلمة من هٰذه تصدق على أفراد كثيرين؟

إذا عرفت هٰذا؛ فتنبَّه لما يلي، وألق إليه فكرك، واجمع له بالك:

إذا دخلت (ال) على الجنس ـ وقد عرفت أن الجنس يندرج تحته أفراد كثيرون ـ فيمكن أن نجد ما يلي:

١ ـ قد يكون القصد الجنس دون النظر إلى الأفراد.

٢ ـ وقد يكون القصد فرداً غير معين.

٣ ـ وقد يكون جميع الأفراد؛ إما حقيقة، وإما عرفاً.

بيان ذلك:

١ ـ القصد الجنس دون النظر للأفراد:

تقول: الرجل خير من المرأة. فأنت لا تقصد هنا رجلاً معيناً، وإنما تقصد جنس الرجال، ولا تقصد امرأة معينة، وإنما تقصد جنس النساء، هٰذا من جهة. ومن جهة ثانية؛ فأنت لا تقصد أن كل رجل خير من كل امرأة، أنت لا تقصد الاستغراق وتعميم هٰذا الحكم، ودليل ذٰلك أنه ربما تكون هناك بعض النساء خيراً من كثير من الرجال.

ومثل هٰذا قولك: شغل الناس الدرهم والدينار. فأنت لا تقصد درهماً معيناً، ولا ديناراً معيناً، وإنما تقصد جنس الدراهم والدنانير.

وكما تقول: الذهب أثمن من الفضة. فأنت هنا تقصد الجنس كذٰلك، و(ال) هنا تدل على الحقيقة، أي: حقيقة الشيء وجنسه.

هٰذا هو القسم الأول.

٢ ـ القصد منها فرد غير معين من أفراد الجنس:

أما القسم الثاني من (ال) الجنسية؛ فإنه يُقصد بها فرد غير معين من أفراد الجنس، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وأخافُ أنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، فإنَّ (ال) في الذئب ليس مقصوداً بها الحقيقة، إذ لا يُعقل ذٰلك؛ لأن حقيقة الذئب لا تأكل، وهي كذٰلك لا تدلُّ على ذئب معين، بل المقصود أي ذئب من الذئاب، كأنه قيل: وأخاف أن يأكله ذئب من الذئاب.

ومن هٰذا القبيل قولك: تصدقْ على المسكين. فأنت لا تعني مسكيناً معيناً، وإنما تعني أي مسكين ثبت له هٰذا الوصف[1].

---

(١) ولو كنت تعني مسكيناً معيناً يعرفه المخاطب لكانت (ال) للعهد وليست للجنس، وهي التي حدثتك عنها من قبل.

ويمكن أن يكون من هٰذا قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ أسْفاراً﴾ [الجمعة: ٥]؛ فليس المقصود حماراً معيناً، بل أي حمار[1].

وانظر إلى قول الشاعر[2]:

ولَقَدْ أمُرُّ على اللَّئيمِ يَسُبُّني ... فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ[3] قُلْتُ لا يَعْنيني

فإن الشاعر لا يعني لئيماً معيناً، فهو يقول: قد يسبني لئيم ما، فأدعه ولا أبالي.

وهٰذا القسم ـ وإن كان معرفة من حيث اللفظ؛ لأن فيه (ال) ـ لكنه نكرة من حيث المعنى؛ لأنه لم يُقصد به واحد معين، وأنت خبير بأن المعرفة إنما تدل على فرد معين، والذي نتحدث عنه ليس كذٰلك، فهو معرفة لفظاً، نكرة معنى.

وتظهر فائدة هٰذا في علم النحو، فهم يجرون عليه الأحكام الإعرابية للمعرفة والنكرة، فيجوِّزون الابتداء به؛ باعتباره معرفة من حيث اللفظ، ألا ترى أن النكرة لا يجوز الابتداء بها، فيقولون: اللئيم يسبني فأتركه. ويجرون عليه أحكام النكرات كذٰلك، فتأتي الجملة بعده صفة له، لا حالاً؛ إذ الجمل إنما تأتي أحوالاً بعد المعارف، أما بعد النكرات فهي صفات.

فجملة (يسبني) في محل جر صفة لـ (اللئيم)، وليست في محلِّ نصبِ حالٍ؛ لأن اللئيم ـ وإن كان معرفاً لفظاً ـ لكنه منكر معنًى. وكذٰلك جملة ﴿يَحْمِلُ أسْفاراً﴾ في الآية الكريمة.

فإن قلت: لم لم تكن جملة (يسبني) حالاً؟ قلت لك: إن الحال والصفة؛ وإن كان بينهما تشابه، لكن بينهما فرقاً، وإليك بيانه:

---

(١) ولكن هٰذا ليس مسنداً إليه، وكذلك كلمة (لئيم) في البيت الآتي.

(٢) والبيت لرجل من بني سلول، «خزانة الأدب» (١/ ٣٥٧)، (٣/ ٣٠١).

(٣) ثمت: ثم حرف عطف، وألحقت به تاء التأنيث لضرورة الوزن وهو قليل جدًا.

إذا قلت: جاء أحمد راكباً. وقابلت الأستاذ ضاحكاً. فإن (راكباً) و(ضاحكاً) تعربان حالاً، ومعناهما أن أحمد ثبت له الركب وقت مجيئه، والأستاذ اتَّصف بالضحك وقت مقابلتك. فالركوب والضحك حالان في وقت مخصوص، وليس كذلك الصفة.

والشاعر لا يقصد أنه يمر على اللئيم حال كونه يسبه فقط، وإنما يقصد أنه يمر بلئيم يسبه في وقت مروره وفي غيره، وهو فرق دقيق بين الحال والصفة، فتنبَّه له.

٣ ـ القصد منها الاستغراق:

أما القسم الثالث من أقسام (ال) الجنسية؛ فهي الدالة على الاستغراق، وهٰذا الاستغراق قسمان:

أ ـ حقيقي: يشمل كل الأفراد، وذٰلك في مثل قوله تعالى: ﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً . وإذا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنوعاً﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]، ومثله قوله سبحانه: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرحيمِ . والعَصْرِ . إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢]، فـ (ال) في الإنسان للاستغراق، تشمل جميع الأفراد، بدليل الاستثناء، ففي الآية الأولى يقول سبحانه: ﴿إلا المُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، وفي الآية الثانية يقول: ﴿إلَّا الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ وتَواصَوْا بالحَقِّ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

وهٰذه (ال) التي يصلح أن يوضع مكانها كلمة (كل)[1].

ب ـ عُرفي: وهو ما يدل على جميع الأفراد، ولكن من حيث العرف؛ يقول لك الأستاذ: اجمع الطلاب؛ لا تدع منهم أحداً. فالمعنى هنا: اجمع كل الطلاب ولكن لا يتصور أحد أنه سيجمع جميع الطلاب في جميع المدارس والجامعات، وإنما طلاب فصلك، أو سنتك، أو مدرستك، أو كليتك.

---

(١) وإياك أن تفهم من هذا أن (ال) و(كل) سواء من حيث المعنى، فـ (ال) تشمل جميع الأفراد من حيث معرفة المخاطب، وكل تشمل جميع الأفراد من حيث الواقع، هذا ما قرره الشيخ محمد عبده رحمه الله، وانظر تعليقات الشيخ البرقوقي على «التلخيص»

إذا عرفت هٰذا؛ أدركت أن ما جاء في بعض الكتب من أن (ال) تنقسم إلى ثلاثة أقسام: العهد، والجنس، والاستغراق. ليس دقيقاً، والحق أن (ال)؛ إما للعهد، وإما للجنس، والتي للجنس؛ إما أن تدل على الحقيقة دون النظر للأفراد، وإما أن تدل على فرد أو أفراد غير معينين، وإما أن تدل على جميع الأفراد، وهي التي للاستغراق؛ حقيقة أو عرفاً، فـ (ال) الاستغراقية هي من أقسام (ال) الجنسية، ويتحصَّل من هٰذا أن (ال) من حيث التفصيل سبعة أقسام، ثلاثة للعهد، وأربعة للجنس.

بقيت قضية حرية بالتنبية، وهي أن هنـاك فرقاً بين استغراق المفرد، واستغراق الجمع، ولنبدأ بالمثال ليتضح الأمر:

أقول: لا رجال في الساحة. فهٰذه العبارة تنفي الجمع ـ كما ترى ـ ولكنها لا تنفي الواحد، ولا الاثنين، فيمكن أن يكون في الساحة رجل أو رجلان.

ولكن إذا قلنا: لا رجل في الساحة. فإن هٰذا القول ينفي جنس الرجال ألبتة.

من هٰذين المثالين تدرك أن استغراق المفرد أشمل وأعم من استغراق الجمع، وتلك هي عبارتهم.

وهٰذه العبارة وتلك القاعدة إن صحت في نفي النكرة ـ كما مر معنا من قبل من أن النكـرة في سياق النفي تدل على العموم ـ لكنها لا تطَّرد في المعرف باللام، وقد عرفت من قبل أن من أقسام (ال) الجنسية تلك التي تدل على الاستغراق.

فالمعرف بـ (ال) يفيد العموم والشمول في حالة الجمع وحالة الإفراد معاً، ألا ترى إلى قولـه تعـالى: ﴿تعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أعْلَمُ ما في نَفْسِـكَ إنَّك أنْتَ عَلَّامُ الغُيوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله: ﴿واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

فإن (ال) في الآيتين الكـريمتين داخلة على الجمع، ولا يمكن أن يُقال: إن استغراق الجمع لا يشمل استغراق المفرد؛ كما رأينا في القاعدة السابقة.

إذن؛ استغـراق المفـرد أعم في النكـرة المنفية، أمـا المعرف بـ (ال) فالإفراد

والجمع فيه سواء.

هٰذا ما ذهب إليه المحققون من الأئمة.

وإليك هٰذه الآية الكريمة؛ قال تعالى حكاية عن زكريا عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، والسؤال: لم أفرد العظم، ولم يقل العظام؟

ذهب السكاكي من المتأخرين إلى أنه جاء بالإفراد ولم يجىء بالجمع؛ لأن استغراق المفرد أعم، ولو قال: وهنت العظام. لتوهم أن الوهن لمجموعها، وليس لها جميعاً.

فالسكاكي ـ كما ترى ـ يفرِّق بين الإفراد والجمع في المعرف بـ (ال).

ولكن الإمام الزمخشري رحمه الله قال[1]:

«إنما ذكر العظم؛ لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن؛ تداعى وتساقطت قوته؛ لأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن؛ كان ما وراءه أوهن، ووحَّده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هٰذا الجنس الذي هو العمود والقوم وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه، ولكن كلها».

والمحققون من العلماء على هٰذا الرأي، وخطَّأوا السكاكي فيما ذهب إليه، لأنه لا فرق بين الإفراد والجمع في المعرف بـ (آل) من حيث العموم والشمول؛ كما عرفت من قبل.

■ سادساً: التعريف بالإضافة:

والإضافة إنما تأتي للاختصار، ألا ترى أن قولنا: ابن الخطاب. أخصر وأوجز من قولنا: ابن لهٰذا الرجل المسمى بالخطاب. وقولنا: أبو خالد. أوجز من قولنا: أبٌ لهٰذا

(١) «الكشاف» (٣ / ٤).

الذي اسمه خالد.

وقد ذكروا للتعريف بالإضافة أغراضاً ودواعي؛ أهمها:

١ ـ الاختصار والإيجاز:

وقد ذكرناه لك من قبل، ويمثلون له بقول جعفر بن علبة[1]:

هَوايَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمانِيْنَ مُصْعِدُ جَنيبٌ وجُثْماني بمكَّةَ مُوثَقُ[2]

فالشاعر يريد أن يقول: إن مَن أهواه سائر مع الركب اليماني، وأنا بمكة محبوس موثق. فمقصود الشاعر بكلمة (هواي) هو: الذي أهواه.

فأنت ترى أن الإضافة دلَّت على ما يريده الشاعر بأوجز عبارة، وهٰذا الاختصار يناسب وضعه الذي هو فيه، وحالته التي هو عليها من السجن والحبس.

ومثله قولك: شوقي أسيرٌ؛ لا أَمَكَّنُ مِن الصلاة فيه. فهٰذا أخصر من قولك: المسجد الأقصى الذي أشتاق إليه أسيرٌ؛ لا أمكَّن من الصلاة فيه.

٢ ـ الاختصار مع تعذُّر التفصيل:

وقد يكون مع الاختصار غرض آخر، وهو أن يتعذَّر التفصيل؛ كقولك: أصحاب النبي ﷺ شيَّدوا صرح العلم والحضارة. فإن الإضافة هنا ـ مع دلالتها على الإيجاز والاختصار ـ أغنتنا عن تفصيل متعذِّر، فإنه يتعذَّر علينا أن نعدَّهم، فنقول: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وخالد، وطلحة... إلخ.

---

(١) جعفر بن علبة بن ربيعة الحارثي أبو عارم، شاعر غزل رقيق، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان فارساً مذكوراً في قومه، وهو من شعراء الحماسة، توفي سنة (١٤٥ هـ). [الأعلام: ٢/ ١٢٥].

(٢) اليمانين: جمع يمان. ومصعد: من أصعد في الأرض، وسار فيها. والجنيب: الذي يتبعُه قومه، ويقدمونه. والجثمان: الشحص. والموثق: المقيد.
والبيت في «خزانة الأدب» (١٠/ ٣٠٧)، «ديوان الحماسة» (١/ ٥١).

وكقول حسان بن ثابت:

أَوْلادُ جَفْـنَـةَ حَوْلَ قَبْـرِ أَبـيهِـمُ ... قبـرُ ابنِ مارِيَةِ الكَـريمُ المُفْضِـلُ[1]

وقول مروان بن أبي حفصة[2]:

بَنـو مَطَرٍ يَوْمَ الـلِّقـاءِ كأنَّـهُـم ... أُسـودٌ لَهـا في غيلِ خَفَّـانَ أَشْبُـلُ[3]

٣ ـ التشريف:

ومن دواعي التعريف بالإضافة كذلك التشريف؛ كقولنا: رسول الله ضرب أروع الأمثلة في مكارم الأخلاق. وقد يكون التشريف للمضاف، أو المضاف إليه؛ تقول: حافظ القرآن يرقى يوم القيامة درجات كثيرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وهناك أغراض غير ما ذُكر؛ كالتخلص من مأزق مثلاً؛ كأن تقول: حضر قضاة المدينة. لا تريد أن تقدم أحدهم على الآخر حتى لا تقع في مأزق، وكالتحقير؛ كقولك: ابن الجاسوس دخل المدرسة. آكل الربا يتظاهر بالرحمة. إلى غير ما هنالك من أغراض تدل عليها القرائن.

□□□

(١) أولاد جفنة: من الغساسنة الذين مدحهم بالشام. مارية: ذات القرطين، وهي أم بني جفنة، والبيت في «ديوانه» (ص ١٧٩).

(٢) مروان بن أبي حفصة، ولد سنة (١٠٥هـ)، شاعر عالي الطبقة، نشأ في العصر الأموي باليمامة، أدرك زمناً من العصر العباسي، كان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية، توفي ببغداد سنة (١٨٢ هـ).

(٣) الغيل: الأكمة، وخفان: مأسدة مشهورة بقوة أسدها.

* **المطلب الثاني:**

تعريف المسند

■ تعريف المسند:

عرفت أن المسند قد يكون فعلاً في الجملة الفعلية؛ مثل: ﴿جاءَ الحَقُّ وزَهَقَ الباطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، فكل من (جاء) و (زهق) مسند.

أما في الجملة الاسمية؛ فتارة يكون اسماً، وتارة يكون فعلاً، فقولك: محمد رسول الله. المسند هنا اسم. وقولك: عمرو فتح مصر. المسند فعل؛ كما ترى.

وحديثنا الآن في الجملة الاسمية التي يكون فيها المسند والمسند إليه اسمين، أي: التي تتكون من مبتدإ وخبر - كما يقول النحاة - ويكون الخبر اسماً لا فعلاً.

إذا عرفت هٰذا؛ فاعلم أن المبتدأ لا يكون إلا معرفة، ولا يجوز أن يكون نكرة إلا إذا كانت نكرة مفيدة، كأن توصف بما يدلُّ على الخصوص، أو العموم.

يقول ابن مالك:

ولا يَجوزُ الابْتِدا بالنَّكِرَهْ ... ما لَمْ تُفِدْ كَ: عندَ زيْدٍ نَمِرَهْ
وهَلْ فَتى فيكُم فَما خِلٌّ لنا ... ورجُلٌ مِن الكِرامِ عِنْدَنا
ورغبةٌ في الخيرِ خيرٌ وعَمَلْ ... بِرٌّ يَزينُ ولْيُقَسْ ما لَمْ يُقَلْ[1]

فقد جاء المبتدأ في هٰذه الجمل - عند زيد نمرة. هل فتى فيكم؟ ما خِلٌّ لنا. رجل من الكرام عندنا. رغبة في الخير خير. عمل برٌّ يزين. - نكرة، وإنما جاز الابتداء بها؛ لأنها نكرة مفيدة.

الأصل في المبتدإ إذن أن يكون معرفة. وإنما كان كذٰلك لأن المبتدأ هو الذي

---

(١) (عمل)؛ مبتدأ، و (برٌّ)؛ مضاف إليه، و (يزين)؛ خبر. أي: إن عمل البر هو الذي له وزن: وقد ذكر في هذه الأبيات أهم الأسباب التي تصحح الابتداء بالنكرة.

تخبر عنه، والذي تخبر عنه ينبغي أن يكون معلوماً عند المخاطب، وإلا فكيف تبتدي بشيء يجهله المخاطب.

أما الخبر، والمسند؛ فهو ما تخبر به، ولذا فلا مانع أن يكون مجهولاً للمخاطب؛ تقول: الحطيئة شاعر هجّاء. والبحتري شاعر الطبيعة. فأنت ما بدأت بالحطيئة والبحتري إلا لأنهما معلومان عند المخاطب، ولكن الخبر هو المجهول؛ لذا قلنا: لا بد أن يكون المبتدأ معرفة، أما الخبر فقد يكون معرفة، وقد يكون نكرة.

وهنا لا بدَّ أن ننبهك إلى شيء لا ينبغي لك أن تنساه، وهو أن الخبر إذا كان معرفة؛ فلا بد أن يكون المبتدأ معرفة كذٰلك، فلا يجوز أن يكون الخبر معرفة والمبتدأ نكرة. هٰذه قضية ينبغي أن تستنتجها مما سبق أن قررناه لك.

والبليغ قد يورد الخبر معرفة، وقد يورده نكرة، وما ذٰلك إلا لأن هنالك دواعي بيانية، وأغراضاً بلاغية؛ تتطلب أن يكون الخبر كذٰلك.

وحديثنا الآن عن تعريف الخبر:

فالخبـرُ يكون معرفة ـ وقد عرفت أنواع المعارف من قبل ـ إذا كان هناك أمران يعرف المخاطب أحدهما ويجهل الآخر، أو كان يعرفهما ولكن السياق يوجب تقديم أحدهما؛ فإنك تجعل الوصف الذي يعرفه، أو الذي يقتضيه السياق مبتدأ، وما ليس كذٰلك خبراً.

وإليك أمثلة توضح هٰذا المقام:

إذا كان المخاطب يعرف خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولكنه يجهل أنه سيف الله؛ فأيهما تجعله مبتدأ يا ترى؟ ما إخالك نسيت ما قلته لك، وهو أن ما عرفه السامع هو المبتدأ، فالواجب إذن أن تقول: خالد سيف الله.

ولكن؛ إذا كان المخاطب يعرف أن أحد الصحابة رضوان الله عليهم يتصف بهٰذا اللقب، وهو سيف الله، ولكنه لا يدري من هو؟ فمن فن القول البليغ أن تقول له: سيف الله خالد.

وهٰكذا تقول: حمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ. إذا كان المخاطب يعرف حمزة، ولكنه يجهل هٰذا الوصف. وعلى العكس من ذٰلك؛ تقول: أسد الله وأسد رسوله ﷺ حمزة.

وإذا كان المخاطب يعرف زيداً، وكان زيد هٰذا أخاً لأحمد، ولكن المخاطب يجهل هٰذا الوصف، فإنك تقول له: زيد أخو أحمد. فتجعل (زيد) مبتدأ، و(أخو) خبراً. أما إذا كان المخاطب يعرف أخا أحمد، ولكنه يجهل أنه زيد، فإنك تقول له: أخو أحمد زيد. فتجعل الأول مبتدأ أو مسنداً إليه، والثاني خبراً أو مسنداً.

فاطمة صاحبة هٰذه اللوحة، وخديجة كاتبة هٰذا الشعر. نقول هٰذا لمن يعرف فاطمة وخديجة، ولكنه يجهل أن لهما هٰذا الوصف، وقد نقول: صاحبة هٰذه اللوحة فاطمة، وكاتبة هٰذا الشعر خديجة. إذا كان المخاطب قد رأى اللوحة، وسمع الشعر، ولكنه لا يعرفهما لمن.

وهٰكذا تقول: زيد المنطلق، وأحمد الكاتب، ولكننا قد نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نقول: المنطلق زيد، والكاتب أحمد.

وعلى ضوء هٰذه الأمثلة أرجو لك أن تتذوق وتدرك أغراض التقديم والتأخير في هٰذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الذي نَزَّلَ الكِتابَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقال سبحانه: ﴿اللهُ وليُّ الذينَ آمَنوا يُخْرِجُهُمْ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿اللهُ رَبُّنا وربُّكُم﴾ [الشورى: ١٥]، وقال: ﴿إنَّ ربَّكم الله الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُو اللهُ أحدٌ . اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢].

فانظر كيف جاء لفظ الجلالة في الآيتين الأوليين، ولفظ الرب في الآيتين

الأخيرتين، وأنعم على هٰذا النظم الموجز المعجز(١).

أما في سورة الإخلاص؛ فلقد جاء الخبر منكراً في الآية الأولى: ﴿أحدٌ﴾، معرفاً في الآية الثانية. ﴿الصَّمدُ﴾؛ لأنهم لم يفردوه بالوحدانية، ولم يعترفوا بها لغيره كذٰلك، أما الصمدية؛ فمع أنهم كانوا يعترفون بها لله، فإنهم كانوا يعترفون بها لغيره كذٰلك، فجاء النظم في الآية الكريمة، فعرَّف الجزئين؛ ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾، أي: الله وحده الذي ينبغي أن تكون له هٰذه الصفة، فالصمدية له وحده لا يشاركه فيها غيره. ذٰلكم هو سر النظم.

تلك قضية تعريف الخبر

بقي أمر آخر في هٰذا المبحث، وهو أمر مهم يحتاج إلى فطنة، وهو أن الخبر قد يكون معرفاً بـ (ال)، وهٰذا التعريف يكون لأغراض غير ما ذكرته لك، فإذا كان الخبر معرفاً بـ (ال)؛ فقد يفيد القصر الحقيقي، وذٰلك إذا كان الخبر خاصًّا بالمبتدأ؛ لا يتجاوزه إلى غيره، تقول: محمد الخاتم للأنبياء. فأنت ترى أن هٰذا الوصف لا يصدق على أحد غير سيدنا رسول الله ﷺ. وهٰكذا إذا قلت: فاطمة المجتهدة. ومصعب السخي. إذا لم يكن أحد مجتهداً إلا فاطمة، وإذا لم يكن أحد سخيًّا إلا مصعب.

هٰذا أولاً.

أما ثانياً: فإن الخبر يكون معرفاً بـ (ال) لا لإفادة القصر الحقيقي ـ كما عرفت من الغرض الأول ـ وإنما لبيان كمال هٰذا الوصف، فإذا قلت: زيد الأسد، وفاطمة الذكية. فأنت هنا تدَّعي أن زيداً هو الشجاع الكامل في الشجاعة، وأن فاطمة هي الذكيَّة وهي الحريَّة بهٰذا الوصف، وهٰذا كثير في أقوال البلغاء.

والأمثلة التي سبقت مطلقة؛ ليست مقيدة بقيد؛ سواء كانت في القصر الحقيقي أم في المبالغة.

---

(١) فصلت لك القول في هذه الآيات وغيرها في كتاب «الإعجاز».

وقد يكون هٰذا التخصيص مقيداً بقيد، كأن تقول مثلاً: فاطمة المجتهدة؛ حينما تسأم الفتيات الدرس، وسعيد الجواد؛ حينما يضنُّ الناس بأموالهم، وخالد الجريءُ؛ حينما يجبن زملاؤه عن قول الحق. فأنت ترى أن التخصيص هنا ليس مطلقاً، وإنما هو مقيد بالحالات التي سمعت.

ومنه قول الشاعر الأعشى:

هُو الـواهِـبُ المـائـةَ المُصْـطَفـا ... ةَ إمَّـا مِخـاضـاً وإمَّـا عِشـارا(١)

فإنه قصر عليه هبة المائة من الإبل حال كونها مخاضاً أو عشاراً؛ لا هبة المائة بأي حال كانت، ولا الهبة مطلقاً؛ سواء كانت هبةَ إبلٍ أم غيرها.

تعريف الخبر باللام ـ إذن ـ قد يفيد المبالغة على سبيل الادِّعاء، كأن تثبت أن زيداً الشجاع، أي: على معنى أنك ادَّعيت أن الشجاعة ثبتت له دون غيره، وقد يفيد التعريف بـ (ال) ثبوت الوصف للموصوف من غير أن ينكر اتِّصاف غيره به، ألا ترى إلى قول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

إذا قَبُـحَ الـبُـكـاءُ عَلى قَتـيلٍ ... رأيتُ بكـاءَكَ الـحَسَـنَ الـجَـميلا(٢)

فأصل الجملة مكونة من مسند إليه ومسند، وهي بكاؤك الحسن الجميل، فالحسن مسند، وهو معرف بـ (ال)، ولكن لما دخل عليه فعل ينصب مفعولين، وهو (رأيت)؛ صار مفعولاً ثانياً.

والخنساء لا تريد هنا أن تحصر الحُسْن بالبكاء، أي: لا تريد أن تقول: ليس شيئاً يستحق الوصف بالحسنِ إلا البكاء عليك. فهٰذا غير مراد قطعاً؛ لأن هناك أشياء حسنة كثيرة، ولكنها أرادت أن تقرَّه في جنسٍ ما حُسْنُهُ الحسنُ الظاهرُ الذي لا ينكره أحد؛ كأنها تقول إذا كانت هناك أشياء تتصف بالحسن؛ فإن البكاء على صخر من جنس هٰذه

---

(١) «الديوان» (ص ٨٤)، دار صادر.

(٢) «ديوانها» (ص ١١٩)، دار صادر.

الأشياء، وفي مقدمتها.

ومن هٰذا قول آخر:

أُســودٌ إذا ما أَبْــدَتِ الحَــرْبُ نابَهـا   وفي سائِـرِ الـدَّهْـرِ الغُيوثُ المواطِرُ[1]

فهـو يصف قومـه بأنهم أسود في حالة الحرب، ولكنهم في بقية الأيام الغيوث المواطر، فالغيث الممطر ينال الناس منه خيراً كثيراً.

ومنه قول حسان:

وإنَّ سَنــامَ الـمَـجْــدِ مِن آلِ هاشِمٍ   بَنــو بنتِ مَخْزومٍ ووالِـدُكَ العَبْـدُ[2]

فالشاعر أولاً أراد أن يثبت لقومه أنهم غيوث مواطر، وحسان رضي الله عنه أراد أن يثبت العبودية لوالده، فهو أمر ظاهر فيه، وهو معروف بهٰذه الصفة.

فأنت ترى في هٰذه الأمثلة جميعاً أنه لم يرد بها نفي ما عداها، وإنما أُريد إثباتها لمن اتّصف بها، فحسان لم يرد نفي العبودية عن غير مَن قيل فيه الشعر، وكذٰلك الآخر لم يرد نفي صفة الغيوث المواطر عن غير قومه، وكذٰلك الخنساء لم ترد أن تنفي صفة الحسن عن غير البكاء.

بقي أن لتعـريف الخبـر باللام فائدة بيانية دقيقة تحتاج إلى فكر ثابت، وحس مرهف؛ تلك التي ذكـرهـا شيخ البـلاغة العربية عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ في «دلائل الإعجاز»، حيث قال رحمه الله:

«للخبر المعرف باللام معنى ـ غير ما ذُكر ـ دقيقاً، وذٰلك مثل قولك: هو البطل المحامي. لا تريد أنه البطل المعهود، ولا قصر جنس البطل عليه مبالغة، ونحو ذٰلك، بل تريد أن تقول لصاحبك: هل سمعت بالبطل المحامي؟ وهل حصلت معنى هٰذه الصفة؟ وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذٰلك له وفيه؟ فإن كنت قلته

---

(1) «الدلائل» (ص ١٨٢).

(2) «الديوان» (ص ٨٩)، يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

علماً، وتصورته حق تصوره، فعليك صاحبك، واشدُد به يدك، فهو ضالتك، وعنده بغيتك، وطريق كطريق قولك: هل سمعت بالأسد؟ وهل تعرف ما هو؟ فإن كنت تعرفه؛ فزيد هو هو بعينه.

ويزداد هٰذا المعنى ظهوراً، بأن تكون الصفة التي تُريد الإخبار بها عن المبتدإ مجراة على موصوف، وإن أردت أن تسمع في ذٰلك ما تسكن النفس إليه سكون الصادي إلى برد الماء؛ فاسمع قول ابن الرومي:

هُوَ الرَّجُلُ المَشْروكُ في جُلِّ مالِهِ ... ولٰكِنَّهُ بالمَجْدِ والحَمْدِ مُفْرَدُ(١)

وليس شيء أغلب على هٰذا الضرب الموهوم من (الذي)، فإنه يجيء كثيراً على أنك تقدر شيئاً في وهمك، ثم تعبِّر عنه بـ (الذي).

ومثال ذٰلك قول حجية بن المضرب(٢):

أخوكَ الذي إنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ ... يُجِبْكَ وإنْ تَغْضَبْ إلى السَّيْفِ يَغْضَبِ(٣)

وقول بشار بن برد:

أخوكَ الذي إنْ رِبْتَهُ قالَ إنَّما ... أرَبْتَ وإنْ عاتَبْتَهُ لانَ جانِبُهْ(٤)

وهٰذا فنٌّ عجيب الشأن، وله مكان من الفخامة والنبل، وهو من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأدية حقه»(٥).

ولقد أفاد الزمخشري هٰذه اللطيفة البيانية من عبدالقاهر، حيث طبقها في «كشافه»

---

(١) «ديوانه» (ص ٥٨٩)، و«الدلائل» (ص ١٨٣).

(٢) حجية بن المضرب الكندي، أبو حوط، شاعر جاهلي، من نصارى كندة، أدرك الإسلام. [الأعلام: ٢/ ١٧٠].

(٣) «شرح الحماسة» للتبريزي (٣/ ٩٨)، «الدلائل» (١٨٤).

(٤) (إن ربته)؛ أي: أتيت بما يرتاب فيه. قال لك: (أربت)؛ أي: انتفت عنك الريبة. البيت في «ديوانه»، وفي «الدلائل» (ص ١٨٥).

(٥) «دلائل الإعجاز»، عبد القاهر الجرجاني، (ص ١٤٣).

تطبيقاً عمليًّا، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أولئكَ على هُدىً مِن ربِّهم وأولئكَ هُم المُفْلِحونَ﴾ [البقرة: ٥]؛ فهو يقول:

«ومعنى التعريف في ﴿المفلحون﴾: الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أن إنساناً قد تاب من أهل بلدك، فاستخبرت من هو؟ فقيل: زيد التائب. أي: هو الذي أُخبرت بتوبته، أو على أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين، وتحققوا ما هم، وتصوروا بصورتهم الحقيقية، فهم لا يعدون تلك الحقيقة؛ كما تقول لصاحبك: هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ إن زيداً هو هو»(١).

وهكذا تدرك أن الزمخشري ـ مع ألمعيته ـ قد هضم نظرية عبدالقاهر، فأفاد منها في تفسير كتاب الله تبارك وتعالى.

رحم الله الرجلين، وجزاهما عن كتابه خير الجزاء، وأكرمنا بتذوق حلاوة النظم الكريم.

□□□

---

(١) «الكشاف»، للزمخشري، (١ / ٤٩).

التعريف في قوله: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾؛ فيه ـ زيادةً على ما مر ـ التأكيد، وهذا معروف من ضمير الفصل (هم)، ويدل على الاختصاص كذلك، أي: هم الذين ثبتت لهم صفة الفلاح دون غيرهم.

□ المبحث الثاني:

التنكيـــــر

بعد أن عرفت أنواع التعريف وأغراضه، نحدثك عما يقابله، وهو التنكير، والنكرة ـ كما يقولون ـ ما شاع في جنسه دون أن يدلَّ على معيَّن، فإذا قلت: جاءني رجل. وهٰذا كتاب. فإنهما يصلحان لكل رجل وكتاب، ولا يدلان على رجل معين، أو كتاب معين. إذا عرفت هٰذا، فاعلم أن للتنكير أغراضاً كثيرة تستدعيها البلاغة، ويحتمها المقام، وهل البلاغة إلا مراعاة هٰذه المقامات التي يقتضيها الحال؟! نعم؛ إن البلاغة ليست شيئاً غير هٰذا، فهي منحصرة في قولنا: لكل مقام مقال.

ولكننا لا بدَّ أن ننبهك هنا إلى أن التنكير في نفسه يفيد ما قلناه لك من قبل عن النكرة، أما الأغراض التي تستفاد ـ والتي يقولون: إن التنكير يدل عليها ـ فإنما تستفاد من السياق، لا من التنكير وحده، السياق هو الذي يدلك على المراد من هٰذا التنكير، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ولَتَجِدَنَّهُم أحْرَصَ النَّاسِ على حَياةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وإلى قوله سبحانه: ﴿ولَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإن كلمة (حياة) جاءت منكرة في الآيتين، ولكنها تدل في كل آية على معنى، ففي الآية الأولى تدل على أي حياة مهما كانت، ولكنها في الآية الثانية تدل على حياة عظيمة، حريَّة بأن يحافظ عليها.

السياق ـ إذن ـ يرشـدك إلى الأغراض الكثيرة حينما تتأمله، وتحسن الاستفادة منه، ألا ترى أنك إذا قلت: إن له لإبلاً وغنماً. فإنك لا تتردد إذا سُئِلت عما يفيده هٰذا التنكير، فتجيب بأنه التكثير؟

ولأن السياق هو الذي يدل على المراد من التنكير؛ نجد العلماء يختلفون تبعاً لاختلافهم في فهم المعنى، فمثلاً قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ اللهُ على قُلوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ وعلى أبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ ولهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ﴾ [البقرة: ٧]؛ ذهب الزمخشري إلى أن هٰذا التنكير يفيد النوعية، أي: وعلى أبصارهم نوع خاص من الغشاوات، ولهم نوع من

العذاب خاص بهم[1]، لكن السكاكي ذهب غير هٰذا المذهب، وقال: إن المراد من هٰذا التنكير التعظيم؛ كأنه قال: غشاوة عظيمة تليق بحالهم، وعذاب كذٰلك.

ولقد كان الزمخشري أرهف حسًّا، وأكثر غوصاً.

وخذ قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ أُوتوا نَصيباً مِن الكِتابِ﴾ [آل عمران: ٢٣]؛ فذهب بعضهم إلى أن تنكير (نصيباً) يفيد التقليل، أي: أوتوا حظًّا قليلاً، فلماذا الغرور؟ بينما ذهب آخرون إلى أن التنكير هنا يفيد التكثير أو التعظيم، أي: أوتوا حظًّا وافراً يمكِّنهم من معرفة الحق، فلم هٰذا الجحود إذن؟

والفرق بين التعظيم والتكثير أن التكثير يكون في الكمية، أما التعظيم فيكون في الكيف، وقد يجتمعان معاً ـ أعني التكثير والتعظيم ـ كما جاء في قوله سبحانه: ﴿وإنْ يُكَذِّبوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قبلِكَ﴾ [فاطر: ٤]؛ فهم كثيرون من جهة، ورسل ذوو شأن يستحقون الإجلال والتعظيم من جهة أخرى.

التنكير ـ إذن ـ متعدد الأغراض، وما أجدرك أن تقف مع الآيات الكريمة من كتاب الله؛ لتنعم باللطائف التي يدل عليها السياق، وقد يكون التنكير للأفراد، وذٰلك كقوله سبحانه: ﴿وجاءَ رَجُلٌ مِن أقْصى المَدينَةِ يَسْعى﴾ [القصص: ٢٠]، أي: فرد واحد لا أكثر، وقد يكون للتعظيم ـ كما مرَّ ـ كقوله سبحانه: ﴿كِتابٌ أنْزَلْناهُ إليكَ﴾ [صٓ: ٢٩]، وقد يكون للتقليل، وذٰلك كقوله سبحانه: ﴿وقَليلٌ مِن عِباديَ الشَّكورُ﴾ [سبأ: ١٣]. ومنه قول المتنبي:

فَيَوْماً بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عنهُمُ ... ويَوْماً بِجودٍ يَطْرُدُ الفَقْرَ والجَدْبا[2]

وقد تقدم لك أنها تكون للنوعية؛ كقوله تعالى: ﴿أيْنَما تَكونوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ ولو كُنْتُم في بُروجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد يكون للتنكير؛ مثل: الدنيا متاع زائل. وقد يكون للتقليل، ومثلوا له بقوله

---

(١) «الكشاف» (١ / ٥٣). (٢) «الديوان» (١ / ١٨٨).

تعالى: ﴿ورِضْوانٌ مِن اللهِ أكبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي: أي شيء من ثواب الله، فإنه خير من المتع الماديّة. وقد يكون هٰذا للتعظيم كذٰلك.

وخلاصة القول إننا لا يمكن أن نحصر لك أغراض التنكير، فهٰذا كتاب الله أمامك، وكذٰلك سنة رسول الله ﷺ، وأقوال من يُحتج بهم في هٰذا المضمار؛ اقرأ مثلاً قول محمود غنيم:

لي فيكَ يا لَيْلُ آهاتٌ أُرَدِّدُها أوّاهُ لو أجْدَتِ المَحزونَ أوّاهُ

ألا تشعر أن آهات كثيرة يجدها الشاعر في نفسه؟

واقرأ قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسولٌ مِن أنْفُسِكُمْ عَزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّمْ حَريصٌ عليكُمْ بالمؤمنينَ رَؤوفٌ رحيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ ألا ترى أن هٰذا التنوين يفيد التعظيم؟!

واقرأ قوله سبحانه: ﴿إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أجْراً عظيماً﴾ [النساء: ٤٠]؛ فإنك تجد هٰذه الكلمات المنكرة في الآية الكريمة تفيد أغراضاً كثيرة يمكنك أن تستنتجها من السياق.

ولعلك تدرك بعد هٰذا كله أن التنكير ينافي الاختصاص الذي يفيده التعريف.

واقرأ قوله سبحانه يتوعد أكلة الربا: ﴿فإن لَم تَفْعلوا فأْذَنُوا بحَرْبٍ من الله ورسوله﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وقوله سبحانه: ﴿واللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ﴾ [النور: ٤٥]، وقوله سبحانه: ﴿ورُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عليكَ مِنْ قَبْلُ ورُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُم عليكَ﴾ [النساء: ١٦٤]؛ فالتنكير في كل آية من الآيات له أغراضه ودواعيه[1].

تلك هي أهم أغراض التنكير، ونكتفي الآن بما ذكرناه لك في التعريف والتنكير.

وإذا كان حديثنا فيما مضى عن ركني الجملة؛ المسند إليه والمسند، فقد آن لنا أن نحدثك عن قيود الجملة، فانفض عن نفسك غبار الكسل، واستعن بالله، ولا تعجز.

---

(١) وليس التنكير في هذه الآيات للمسند وحده.

تدريب

اقرأ واستمتع مبيناً أسلوب التعريف والتنكير:

١ - وَطَنٌ يُباعُ ويُشْتَرى وتَقولُ فَلْيَحْيا الوَطَنْ

٢ - والذي حارَتِ البريَّةُ فيهِ حَيوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِن جَمادِ

٣ - وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وعِبادُ الرَّحْمٰنِ الذينَ يَمْشونَ على الأرْضِ هَوْناً وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلونَ قالوا سَلاماً. والذينَ يَبيتونَ لِربِّهِم سُجَّداً وقِياماً. والذينَ يَقولونَ رَبَّنا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إنَّ عذابَها كانَ غَراماً. إنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقاماً. والذينَ إذا أنْفَقوا لَمْ يُسْرِفوا ولَمْ يَقْتُروا وكانَ بينَ ذٰلك قَواماً. والذينَ لا يَدْعونَ مَعَ اللهِ إلٰهاً آخَرَ ولا يَقْتُلونَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحَقِّ ولا يَزْنونَ ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلكَ يَلْقَ أثاماً. يُضاعَفْ لَهُ العَذابُ يَوْمَ القِيامَةِ ويَخْلُدْ فيهِ مُهاناً. إلا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالِحاً فأولٰئكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وكانَ اللهُ غفوراً رَحيماً. ومَن تَابَ وعَمِلَ صالِحاً فإنَّهُ يَتوبُ إلى اللهِ مَتاباً. والذينَ لا يَشْهَدونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً. والذينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ رِبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانا. والذينَ يَقولونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِن أزْواجِنا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ واجْعَلْنا للمُتَّقينَ إماماً. أولٰئكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِما صَبَروا ويُلَقَّوْنَ فيها تَحِيَّةً وسَلاماً﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٥].

٤ - كَمْ عاقِلٍ عاقِلٍ أعْيَتْ مَذاهِبُهُ وجاهِلٍ جاهِلٍ تَلْقاهُ مَرْزوقاً
هٰذا الذي تَرَكَ الأوْهامَ حائِرَةً وصَيَّرَ العالِمَ النِّحْريرَ زِنْديقا[1]

٥ - وقال تعالى: ﴿ما كانَ مُحَمَّدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجالِكُم ولٰكِنْ رَسولَ اللهِ وخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) البيتان لابن الراوندي «المعاهد» (١/ ١٤٧).

٦ - وقال تعالى: ﴿فإذا الذي اسْتَنْصَرَهُ بالأمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لهُ موسى إنَّك لَغَوِيٌّ مُبينٌ﴾ [القصص: ١٨].

٧ - قال ابن أبي السمط[1]:

لهُ حاجِبٌ عنْ كُلِّ أمـرٍ يُشينُـهُ ... وليْسَ لهُ عنْ طالِبِ العُرْفِ حاجِبُ[1]

٨ - إذا جاءَ موسى وألْـقى الـعَـصـا ... فَقَـدْ بَطَلَ السِّحْـرُ والسَّـاحِـرُ

٩ - أبـو مالِـكٍ قاصِـرٌ فَقْـرَهُ ... عَلى نَفْـسِـهِ ومُـشـيعٌ غِنـاهُ

١٠ - قال تعالى: ﴿فأوْحى إلى عبْدِهِ ما أوْحى﴾ [النجم: ١٠].

١١ - وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ﴾ [المسد: ١].

١٢ - إنَّ الـذي الـوَحْـشَـةُ في دارِهِ ... تُؤنِـسُـهُ الـرَّحْـمَـةُ في لَحْـدِهِ

١٣ - ﴿إنَّ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ لهُم مغفِرَةٌ وأجْرٌ كبيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

١٤ - قال الفرزدق:

هٰذا الـذي تَعْـرِفُ البَـطْحاءُ وطأتَهُ ... والبَيْتُ يَعْـرِفُـهُ والحِـلُّ والحَـرَمُ[2]

١٥ - قال السموأل:

لَنـا جَبَـلٌ يَحْـتَـلُّهُ مَن نُجـيرُهُ ... مَنـيعٌ يَرُدُّ الـطَّرْفَ وهْـو كَليلُ

١٦ - قالت الخنساء:

هَبَّـاطُ أوْدِيَةٍ شَهَّـادُ أنْـدِيَةٍ ... حَمَّـالُ ألْـوِيَةٍ للجَـيْشِ جَرَّارُ

□□□

(١) «معاهد التنصيص» (١/ ١٢٧).

(٢) «ديوان الفرزدق» (ص ٢٠٥).

الفصل السابع

تقييد الجملة

■ **مقدمة :**

عرفت في بحث الجملة أن لها ركنين اثنين : المسند إليه ، والمسند . وما بقي ـ ما عدا هٰذين الركنين ـ يسمى قيداً ؛ سواء كان شرطاً ، أم غير شرط ، وهو ما نفصّله لك في هٰذا المبحث إن شاء الله .

من المفيد أن نراجع هنا معاً بعض ما قلناه عند حديثنا عن الجملة ؛ لأن له ارتباطاً وصلة بما نحن بصدده .

قلنا : إن الجملة قد تكون اسمية أو فعلية ، والجملة الاسمية هي التي تتكون من مبتدإ وخبر:

وقد يكون الخ فيها اسماً ، وتفيد حينذاك الثبوت ، ومثّلنا له بقوله سبحانه : ﴿وتَحْسَبُهُمْ أيْقاظاً وهُم قودٌ﴾ [الكهف : ١٨] ، وقوله سبحانه : ﴿وكَلْبُهُم باسِطٌ ذِراعَيْهِ بالوَصيدِ﴾ [الكهف : ١٨] ، وبقول النضر بن جؤية :

لا يأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْروبُ صُرَّتَنا   لكِنْ يَمُرُّ عليها وهُو مُنْطَلِقُ[1]

وقد يكون الخبر فعلاً ؛ فيفيد التجدد ، ومثّلنا له بقوله تعالى : ﴿هَلْ مِن خالِقٍ غيرُ

---

(١) «معاهد التنصيص» (١ / ٢٠٧) ، «الدلائل» (١٧٤) .

اللهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: ٣]، ويقول الشاعر طريف بن تميم العنبري[1]:

أَوَكُلَّما وَرَدَتْ عُكاظَ قَبيلَةٌ بَعَثوا إِلَيَّ عَريفَهُمْ يَتَوَسَّمُ[2]

وعرفنا أن الجملة تتكون من ركنين: المسند إليه، والمسند. وما عدا هٰذين الركنين يسمى قيداً، وقلنا: إن هٰذا القيد قد يكون الشرط، أو التوابع، أو المفاعيل، أو النفي.

هٰذا ما حدثناك عنه هناك.

أما حديثنا الآن؛ فهو عن هٰذه القيود؛ عن أغراضها البيانية، وحكمها البلاغية، وما بين بعضها من فروق لا بد أن يراعيها البليغ.

وننبهك هنا إلى أن هٰذه المباحث تشترك بين البلاغة وعلم النحو، وحديثنا عنها سيكون من الناحية البلاغية فحسب.

ولنبدأ الحديث عن التقييد بالشرط:

□□□

(١) طريف بن تميم العنبري، أبو عمرو، شاعر مقل، من فرسان بني تميم في الجاهلية، قتله أحد بني شيبان.

(٢) «الأصمعيات» رقم (٣٩)، «الدلائل» (١٧٦).

◻ المبحث الأول:

التقييد بالشرط

ذكر علماء النحو أدوات الشرط، وبيَّنوا أن بعضها يجزم الفعل، وبعضها لا يجزم، وبيَّنوا معانيها كذلك، فبعضها يدل على الزمان؛ مثل: (متى)، وبعضها للمكان؛ مثل: (أين)، وبعضها للحال؛ مثل: (كيف)، ولن نحدثك عن شيء من هذا، فارجع إليه في علم النحو.

أما ما نحدثك عنه هنا فهو ما يختص بموضوع البلاغة[1].

ولتعلم أن الجملة الشرطية هي جملتان في الحقيقة:

إحداهما: فعل الشرط.

والأخرى: جوابه وجزاؤه.

فإذا قلت: إن تجتهد تنجح. فـ (إن تجتهد)؛ جملة، وإنما قلنا: إنها جملة؛ لأنها تتكون من فعل وفاعل. و (تنجح)؛ جملة أخرى.

وتظهر هاتان الجملتان في قولك: إن تطلع الشمس يذب الثلج.

وقد يكون الشرط من باب الخبر؛ كالجمل السابقة، وقد يكون من باب الإنشاء؛ كقولك: إن جاءك المجتهد فأكرمه.

والـذي يوصف بالخبـر أو الإنشاء هو الشرط والجواب معاً، أما الجملة الأولى وحدها ـ أعني فعل الشرط ـ فليس كذلك؛ لأنها لا تفيد فائدة تامة، ولا تحتمل صدقاً ولا كذباً.

ولقد رأيت من الأمثلة السابقة أن الجملة الثانية من جملتي الشرط مرتبطة بالجملة

---

(١) نحن نرى وحدة بين فروع العربية؛ من نحو، وصرف، وبلاغة، وغيرها، لكن آثرنا الاختصار هنا لأكثر من سبب، منها الإيجاز؛ حتى لا يتضخم الكتاب، ومنها عدم التشويش.

الأولى، وحصولها ـ أي الثانية ـ مرتب على حصول الأولى؛ فقولنا: إن تجتهد تنجح. حصول النجاح يستلزم حصول الاجتهاد.

إذن؛ إذا تحقق فعل الشرط تحقق الجواب.

والأدوات التي نحدثك عنها الآن ـ والتي يذكرها البلاغيون ـ هي: (إن)، و(إذا)، و(لو)، والحديث عنها ينحصر في مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: الفرق بين هٰذه الأدوات.

المطلب الثاني: استعمال بعضها مكان بعض حينما تدعو الحاجة لذٰلك.

المطلب الثالث: الجمل التي تدخل عليها هٰذه الأدوات.

* **المطلب الأول:**

الفرق بين هٰذه الأدوات

معرفة الفرق بين هٰذه الأدوات أمر لا بدَّ منه لدارس البلاغة، فإن استعمال بعضها مكان بعض معيب عند ذوي الفصاحة، ولذا عابوا على عبدالرحمن بن حسان قوله:

إذا هِيَ حَثَّتْهُ على الخَيْرِ مَرَّةً   عَصاها وإنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ أطاعَها

وكان مقتضى الحكمة البيانية أن يستعمل كلًّا منها مكان الأخرى؛ لأنه يريد ذم صاحبه. فاستعمل (إذا) لحث النفس على الخير، واستعمل (إن) لحثها على الشر، فكأنه يؤكد أن نفسه تأمره بالخير، ويشكك في أمرها له بالشر، والمراد غير هٰذا؛ لأن المقام مقام ذم، فكان ينبغي أن يشكك في أمر النفس بالخير، ويؤكد أمرها بالشر، أي: يستعمل (إذا) في موضع (إن)، و(إن) في موقع (إذا).

والخلاصة أن (إذا) تُستعمل فيما هو محقق الوقوع، و(إن) تستعمل فيما هو مشكوك.

تتفق هٰذه الأدوات في أنها جميعاً أدوات شرط، ولكنها تختلف فيما بعد، فـ (إن) و (إذا) للاستقبال، أما (لو) فهي للمضي، ألا ترى أنك إذا قلت: إن تجتهد تنجح. فإن هٰذا دال على الاستقبال، وكذلك (إذا)؛ قال تعالى: ﴿إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وقال سبحانه: ﴿إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وهو حديث عن المستقبل، وتقول في إعرابها: ظرف لما يستقبل من الزمان. ولكنك حينما تقول: لو زرتني أكرمتك. فمعنى هٰذا أنه لو كان منك زيارة في الماضي؛ لكان مني إكرام. فالشرط الذي تدخل عليه (لو) ينبغي أن يكون ماضياً.

إذن؛ (إن) و (إذا) تشتركان في الاستقبال، و (لو) تختص بالماضي.

ولكن مع اشتراك (إن) و (إذا) في أمر واحد ـ وهو الدلالة على الاستقبال ـ فإن بينهما فرقاً، ذٰلك أن فعل الشرط؛ إما أن يكون المتكلم جازماً بوقوعه، أو يغلب على ظنه أنه واقع، في هاتين الحالتين تستعمل (إذا)؛ تقول: آتيك إذا طلعت الشمس، ونلتقي إذا نضج الثمر. فأنت جازم بطلوع الشمس، ويغلب على ظنك أن الثمر سينضج.

وقد يكون فعل الشرط مشكوكاً فيه ـ والشك تردد النفس بين شيئين ـ وقد يترجّح عند المتكلم عدم الوقوع، وفي هاتين الحالتين ـ أعني حالة الشك؛ تساوي الوقوع وعدمه، أو ترجيح عدم الوقوع ـ تستعمل (إن)؛ تقول: إن تجتهد تنجح. إذا كنت شاكًّا في اجتهاد المخاطب، أو كان اجتهاده أمراً مرجوحاً عندك.

نستخلص من هٰذا أننا نستعمل (إن)؛ إذا كان المتكلم غير جازم بوقوع الشرط، ونستعمل (إذا)؛ إذا كان المتكلم جازماً بوقوع الشرط، أو يغلب على ظنه وقوعه.

وفي كتاب الله تعالى خير ما يجلّي لك هٰذه القضية، ويقفك على ما فيها من دقة وروعة؛ قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إذا جاءَكُمُ المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ فامْتَحِنوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءَكَ المُؤمِناتُ يُبايِعْنَكَ على ألا يُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يَزنينَ ولا يَقْتُلْنَ أوْلادَهُنَّ ولا يأْتينَ ببُهْتانٍ يَفْتَرينَهُ بينَ

أيدِيهنَّ وأرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصينَكَ في مَعْروفٍ فبايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿وإنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِن أزْواجِكُمْ إلى الكُفَّارِ فعاقَبْتُم فآتُوا الذينَ ذَهَبَتْ أزْواجُهُم مِثْلَ ما أنْفَقوا﴾ [الممتحنة: ١١].

هٰذه الآيات من سورة الممتحنة صُدِّرت فيها آيتان بـ (إذا)، والثالثة ذُكرت فيها (إن)، وابحث عن السر البلاغي تجده.

الآيتان المصدَّرتان بـ (إذا) تتحدث إحداهما عن مجيء المؤمنات مهاجرات، والأخرى عن مجيء المؤمنات مبايعات، وهما نتيجة حتمية لانتشار هٰذا الإسلام، واتساع رقعته، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

أما الآية المصدرة بـ (إن)؛ فتتحدث عن ارتداد بعض المسلمات، وترك أزواجهن المسلمين، وهٰذا أمر نادر، من الحريِّ أن لا يقع.

وتأمَّل هٰذه الآية الكريمة: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بنَبَإٍ فَتَبَيَّنوا﴾ [الحجرات: ٦]؛ تجد التعبير بـ (إن)؛ لأن ذٰلك من المشكوك فيه أن يحدث بين المسلمين، ولا ينبغي أن يحدث[1].

واقرأ قوله سبحانه: ﴿وإذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسامُهُم وإنْ يَقولوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِم﴾ [المنافقون: ٤]؛ هٰذه الآية استُعملت فيها (إذا) و(إن)؛ لكن (إذا) استعملت فيما يختص بالرؤية، و(إن) فيما يتعلق بالقول، وكل من يرى المنافقين تعجبه أجسامهم، لكن ليس كل ما يقولونه حريٌّ بأن يُستمع إليه.

وهٰكذا تجد أن (إذا) تُستعمل دائماً في كتاب الله لما هو محقَّق الوقوع؛ ولذا يكثر دخولها على الماضي، أما (إن)؛ فتستعمل غالباً فيما ليس بمحقَّق، أو نادر الوقوع، وإن استعملت في غيره؛ فعلى سبيل الحكاية أو التأويل؛ الحكاية عن الآخرين؛ كقوله

(١) والروايات التي ذكرتها كتب التفسير في سبب نزول هذه الآية يظهر أنها غير صحيحة؛ فلتتنبه لهذا.

تعالى: ﴿قالوا إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أخٌ لهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، فإن هٰذا حكاية عن إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام، وتأويل المتكلم؛ كقوله تعالى: ﴿وإنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقولوا هٰذه مِن عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وإذا أردت أن تنعم بجمال موقع كل من الأداتين، ويبهرك سر موضعهما؛ لكي لا تستعمل إحداهما مكان الأخرى؛ فاستمع إلى قوله سبحانه حديثاً عن آل فرعون: ﴿فإذا جاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قالوا لنا هٰذهِ وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّروا بموسى ومَن مَعهُ ألا إنَّما طائِرُهم عندَ اللهِ ولكِنَّ أكثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ . وقالوا مَهْما تأْتِنا بهِ مِن آيةٍ لِتَسْحَرَنا بها فما نَحْنُ لكَ بمُؤْمنينَ﴾ [الأعراف: ١٣١ ـ ١٣٢].

فانظر كيف دخلت إذا على الماضي؛ لأنه محقق الوقوع، وذُكرت بجانب الحسنة؛ وهي أمر حاصل لا محالة، ودخلت (إن) على المضارع، وذكرت بجانب السيئة النادرة الوقوع؟!

ولا تنس تعريف الحسنة وتنكير السيئة!

واستمع إلى الزمخشري يطلعك على دقائق آي الذكر الحكيم؛ يقول:

«فإن قلت: كيف قيل: ﴿فإذا جاءَتْهُمُ الحسنَةُ﴾ بـ (إذا) وتعريف الحسنة، و﴿إنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بـ (إن) وتنكير السيئة؟! قلت: لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب؛ لكثرته، واتساعه، وأما السيئة؛ فلا تقع إلا في الندرة، ولا يقع إلا شيء منها. ومنه قول بعضهم: قد عددتَ أيام البلاء، فهل عددتَ أيام الرخاء؟»[1].

وتأمل هٰذه النصوص الكريمة، وكيف جاءت كل من الأداتين في موضعها:

قال تعالى: ﴿فإذا أفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فاذْكُروا اللهَ عندَ المَشْعَرِ الحَرامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال سبحانه: ﴿فإذا عَزَمْتَ فتَوَكَّلْ على اللهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وإذا ضَرَبْتُمْ في الأرْضِ فَلَيْسَ عليكُمْ جُناحٌ أنْ تَقْصِروا مِنَ الصَّلاةِ إنْ خِفْتُمْ

(١) «الكشاف» (٢ / ١٤٤).

أنْ يَفْتِنَكُمُ الذينَ كَفَروا﴾ [النساء: ١٠١]، وقال سبحانه: ﴿فإذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فاذْكُروا اللهَ قِياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِكُمْ فإذا اطْمَأْنَنْتُم فأقيموا الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ على المُؤمنينَ كِتاباً مَوْقوتاً﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إذا لَقيتُمُ الذينَ كَفَروا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدبارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وإنْ تَصْبِروا وتَتَّقوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿بَلى إنْ تَصْبِروا وتَتَّقوا ويأتوكُمْ مِن فَوْرِهِمْ هٰذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بخَمْسَةِ آلافٍ مِن المَلائِكَةِ مُسَوِّمينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وإنْ جَنَحوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها وتَوَكَّلْ على اللهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، ﴿وإنْ تَتَوَلَّوْا يَستبدِلْ قوماً غيرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

تأمل هٰذه النصوص الكريمة؛ تجد أن (إذا) دخلت على شرط مجزوم بوقوعه؛ فعزم النبي ﷺ، وضرب المسلمين في الأرض، وقضاؤهم الصلاة، واطمئنانهم، وملاقاتهم للكافرين؛ كلها من الأمور التي لا يشك فيها أحد.

أما خوفهم، وصبرهم، وتوليهم، وكل ما دخلت عليه (إن) من الأفعال؛ فكلها أمور ليس في وقوعها جزم.

ألا ترى إلى ما أصاب المسلمين يوم أحد، ولو أنهم صبروا واتَّقوا لأُمِدُّوا بخمسة آلاف من الملائكة؟!

وهٰكذا يمكنك أن تقف مع كل نص اشتمل على إحدى هاتين الأداتين.

واستمع إلى قول المتنبي؛ لترى كيف جاء موقع كل من الأداتين في هٰذا البيت:

إذا أنْتَ أكْرَمْتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ ... وإنْ أنْتَ أكْرَمْتَ اللَّئيمَ تَمَرَّدا[1]

وانظر كيف جاءت (إذا) بجانب إكرام الكريم؛ وهي من الأمور المستحبة، وكيف جاءت (إن) بجانب إكرام اللئيم[2].

---

(١) «ديوان المتنبي» (٢/ ١١)

(٢) إكرام الكريم حري بأن لا يترك، وليس كذلك إكرام اللئيم.

* **المطلب الثاني:**

وقوع بعض الأدوات موقع الأخرى

اعلم أن كلاًّ من هاتين الأداتين قد تقع موقع الأخرى لغرض بياني ونكتة بلاغية، لكن (إذا) لا تقع موقع (إن) إلا قليلاً.

إذا أردت أن تصور الكلام المشكوك في حصوله، غير المتيقن منه، وكأنه محقق الوقوع؛ فإنك تجيء بـ (إذا) ـ مع أن المقام يتطلب وجود (إن) ـ؛ تقول لمن تشك في عفوه عنك: إذا عفوت عني فلك الشكر(١).

أما وقوع (إن) موقع (إذا)؛ فذٰلك كثير في كلامهم، وإليك بيان أهم الأغراض والدواعي لذٰلك:

١ ـ إنزال العالم بالشيء منزلة الجاهل؛ لأنه لم يعمل بمقتضى علمه:

نرى إنساناً يعُقُّ والديه؛ فنقول له: إن تعرف أنهما والداك؛ فلا تعقَّهما! وهل هناك من يجهل والديه؟! إن مقتضى الظاهر أن يقال: إذا عرفت أنهما والداك. . . ولكنا نزَّلناه منزلة الجاهل، فجعلناه كأنه يجهل هٰذه المعرفة.

نقـول لمن نراه مهملاً وهو يعرف أن امتحانه بعد غد: إن عرفت أن الامتحان قريب؛ فهيِّيء له نفسك. وكان مقتضى الظاهر أن يقال له: (إذا)؛ لأنه جازم ومتحقق من فعل الشرط.

ونقول لمن يتعامل مع العدو، وهو يعلم سوء قصده، وتربصه بالأمة: إن تأكدت من سوء نيته؛ فلا تتعامل معه.

في هٰذه الأمثلة جميعاً، وفي غيرها مما يشابهها؛ نأتي بـ (إن) مكان (إذا).

---

(١) وفي هذا ترغيب له في العفو عنك؛ لأنك خاطبته بأداة تدخل على متحقق الوقوع.

٢ ـ تجاهل المتكلم:

قد يعلم المتكلم أمراً، ولكنه حينما يُسأل عنه يتجاهل معرفته به، وشتان بين التجاهل والجهل.

يسألك بعض الناس: هل أبوك في البيت؟ ويُسأل أحد الموظفين: هل المدير في المكتب؟ وأنت متحقق من وجود أبيك في البيت، والموظف متحقق من وجود المدير في المكتب، ولكنكما ـ لسبب ما ـ تتجاهلان هٰذا الأمر؛ فيُقال حينذاك: إن وجدته؛ أخبرك. كان من حقك ـ حسب علمك ـ أن تستعمل (إذا)، ولكنك أتيت بـ (إن) بناء على تجاهلك.

يطلب منك أحد الناس قرضاً، أو كتاباً، وأنت متحقق من وجوده عندك، ولكنك تريد أن تتريث قبل أن تلبي طلبه، فتقول: إن أجده؛ أحضره لك. وكان من حقك أن تستعمل (إذا)؛ لأنك جازم من تحقق الفعل، ولكنك جئت بـ (إن)؛ بناء على هٰذا التجاهل.

٣ ـ إذا كان المخاطب لا يجزم بما يجزم به المتكلم:

إذا كنت تجزم بشيء ما، ولكنك تدرك أن المخاطب الذي تخاطب لا يجزم بهٰذا الشيء؛ تُرى أتستعمل (إذا) بناء على جزمك، أم تستعمل (إن) بناء على عدم جزم صاحبك؟!

يمكنك أن تراعي كلا الاعتبارين، ولكن ربما كان من الحكمة البيانية أن تراعي حال المخاطب، فتأتي بـ (إن) مكان (إذا)؛ تقول لمن يشك في قولك: إن لم تصدِّق؛ فهات ما عندك. وتقول للمريض الذي يشك في فائدة الدواء: إن لم تستعمله؛ فخذ أي دواء.

٤ ـ التوبيخ:

ونعني به التوبيخ على فعل الشرط؛ تقول لمن يبذر ماله، ويوالي عدوه، ويسخر

من الناس: إن تبذِّر مالك؛ تندم، وإن توالي العدو؛ فارتقب خزي الدنيا والآخرة، وإن تسخر من الناس؛ يسخروا منك.

كان ينبغي أن تستعمل (إذا)؛ لأن هٰذه الأفعال جميعها أفعال متحققة، وإنما استعملت (إن)؛ لأن المقام مقام توبيخ، كأن هٰذا الفعل المتحقق حريٌّ به أن لا يكون كذٰلك.

استعمال (إن) في مقام التوبيخ ـ إذن ـ إنكار لحدوث الفعل من فاعله، وقد مثَّلوا لهٰذا بقوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً إنْ كُنْتُمْ قوماً مُسْرِفينَ﴾ [الزخرف: ٥]؛ على قراءة من كسر الهمزة، فإن في الآية قراءتين: (أن)؛ بفتح الهمزة، و(إن)؛ بكسرها، وهي المرادة هنا، والمعنى: أإن كنتم مسرفين نترككم وشأنكم، فاستعملت (إن) مع تحقق إسرافهم.

٥ ـ أن نعامل غير المرتابين معاملة المرتابين:

بيان ذٰلك أن يكون المخاطبون الذين نخاطبهم قسمين؛ قسماً مرتاباً، وقسماً غير مرتاب؛ فنغلب غير المرتابين على المرتابين، ويمثلون له بقوله سبحانه: ﴿وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فأْتوا بسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، الآية مدنية من سورة البقرة، والذين خوطبوا بها منهم المرتاب في هٰذا القرآن، الشاك فيه، ومنهم المؤمن غير المرتاب؛ فغلَّبَ جانب غير المرتابين على المرتابين[١].

---

(١) التغليب باب واسع في العربية، وهو أن يغلب على الشيء ما لغيره؛ لتناسب بينهما، أو اختلاط، وهو أمر يجري في كل متناسبين ومختلطين بحسب المقامات، لكن غالب أمره دائر على الشرف والحظ، فهو يعطي أحد الشيئين وصف الآخر؛ كالقمرين للشمس والقمر، والعمرين لأبي بكر وعمر، والنيِّرين لليل والنهار، والأبوين للأب والأم، ومنه قوله سبحانه حديثاً عن مريم رضي الله عنها: ﴿وكانت من القانتين﴾ [التحريم: ١٢]؛ غلَّب جانب الذكور على جانب الإناث، ومنه قوله سبحانه: ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ [النمل: ٥٥]، والظاهر أن يقال: يجهلون. ولكن غلَّب جانب الخطاب على جانب الغيبة.

ويمكن أن يكون هٰذا للتوبيخ على ارتيابهم.

وقريبٌ من هٰذا قوله سبحانه: ﴿فإنْ لَمْ تَفْعَلوا ولَنْ تَفْعَلوا فاتَّقوا النَّارَ التي وَقودُها النَّاسُ والحِجارةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، فإن عدم فعلهم، أي: عدم إتيانهم بسورة مثل القرآن أمر متحقق، ولكنه عبَّر بـ (إن)؛ إما مجاراة لهم، حيث راعى حالهم، وأرخى لهم العنان ـ من السبب الثالث الذي تكلمنا عنه من قبل ـ وإما على سبيل التهكُّم.

قال الزمخشري رحمه الله:

«فإن قلت: انتفاء إتيانهم بالسورة واجب؛ فهلَّا جيء بـ (إذا) الذي للوجوب دون (إن) الذي للشك! قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يُساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم، وإن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم؛ لاتِّكالهم على فصاحتهم، واقتدارهم على الكلام.

والثاني: أن يتهكَّم بهم؛ كما يقول الموصوف بالقوة، الواثق من نفسه بالغلبة على مَن يقاويه: إن غلبتك لم أبق عليك. ـ وهو يعلم أنه غالبه ويتيقَّنه ـ تهكُّماً به»[1]

وخلاصة القول أننا نأتي بـ (إن) مكان (إذا) حينما يقتضي المقام ذٰلك، وقد يكون هناك غير ما ذكرناه من الأسباب مما يمكن أن تستنتجه بقريحتك وذهنك.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قولُهُمْ أإذا كُنَّا تُراباً أإنَّا لَفي خَلْقٍ جديدٍ﴾ [الرعد: ٥]؛ ألا ترى أن العجب أمر متحقق؟ ولكن لما كان هذا القول غريباً، بعيداً عن مواضع التأمل؛ جيء له بـ (إن) الدالة على الشك.

فاحرص على هٰذا، وضع كل أداة في المقام الذي يناسبها، ولا تغلط كما غلط عبدالرحمن بن حسان في قوله الذي ذكرناه لك من قبل.

---

(١) «الكشاف» (١/ ١٠١).

* المطلب الثالث:

الجمل التي تدخل عليها (إن) و (إذا) و (لو)

■ أولاً: (إن) و (إذا):

الجمل التي تدخل عليها هٰذه الأدوات جمل فعلية - كما عرفت من قبل - إلا أن (إن) و (إذا) لا بدَّ لجملتيهما - مع كونهما فعليتين - أن تكونا للاستقبال كذٰلك، فـ (إذا) ظرف لما يُستقبل من الزمان، و (إن) إنما تصلح للمستقبل كما علمت[1].

وقد تدخل (إن) على الماضي، ولكنه يكون ماضياً لفظاً مستقبلاً معنى، فإذا قلت: إن زرتني أكرمتك، وإن حدثتني استمعت إليك، وإن اجتهدت نجحت. فهٰذه الجمل؛ وإن كانت ماضية من حيث اللفظ؛ إلا أنها مستقبلة من حيث المعنى، فمعنى الجملة الأولى: إن تزرني أكرمك. ومعنى الثانية: إن تحدثني أستمع أليك. ومعنى الثالثة: إن تجتهد تنجح.

ولكن؛ لماذا نعدل عن المستقبل إلى الماضي؟! لم قلت: إن زرتني أكرمتك. ولم أقل: إن تزرني أكرمك؟!

لا بد من سبب لهٰذا العدول، وهٰذا ما سنحدثك عنه في هٰذا المبحث.

اعلم أنه لا يُعدل عن المستقبل للماضي إلا إذا كان هناك داعٍ وغرض، وقبل أن نحدثك عن هٰذه الأغراض نودُّ أن نتلو عليك هٰذه الآية الكريمة؛ لتتدبرها:

قال تعالى محذراً المؤمنين من أعدائهم: ﴿إِنْ يَثْقَفوكُمْ يَكونوا لَكُمْ أَعْداءً ويَبْسُطوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وأَلْسِنَتَهُمْ بالسُّوءِ ووَدُّوا لَو تَكْفُرونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

---

(١) قد تأتي (إن) غير شرطية، وإنما تأتي للتأكيد مع واو الحال؛ كقولنا: فلان وإن كثر ماله بخيل، وهو وإن ابتسم لك لئيم، وفلان وإن آلمك قوله طيب القلب. و (إن) هنا ليست شرطية، وليست مما يعنينا، إنما أحببنا أن ننبهك لها زيادة للفائدة.

تدبَّر هٰذه الآية الكريمة، وستجد أن فعل الشرط (يثقفوكم)؛ هو فعل مضارع، أما جواب الشرط؛ فستجده جملاً ثلاث:

الأولى: ﴿يكونوا لكم أعداء﴾.

الثانية: ﴿يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾.

الثالثة: ﴿ودُّوا لو تكفرون﴾.

أعـد النظر في هٰذه الجمل الثلاث؛ تجد أن الأولى والثانية عُبِّر عنهما بالفعل المضارع، أما الجملة الثالثة فقد عُدل بها عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي، فلم يقل: ويودُّوا لو تكفرون. وإنما قال: ﴿ودُّوا﴾!

ولعلك تتوق نفسك لمعرفة سرِّ ذٰلك، وتبيُّن نكتته، وهو حقيق بالمعرفة، جدير بالتنبيه:

إن الأعداء حريصون كل الحرص، محبون كل الحب؛ أن يرتد المسلمون عن دينهم؛ قال تعالى: ﴿ودَّ كثيرٌ مِن أهْلِ الكِتابِ لوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِن عندِ أنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وأظنك بدأت تدرك روعة التعبير القرآني، وبدأت تتذوق حلاوة سرِّ هٰذا النظم. قال الزمخشري:

«فـإن قلت: كيف أورد جواب الشـرط مضارعاً مثله، ثم قال: ﴿ووَدُّوا﴾ بلفظ الماضي؟! قلت: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب؛ فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودُّوا قَبل كل شيء كفركم وارتدادكم. يعني أنهم يريدون أن يُلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً؛ من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض، وردِّكم كفاراً. وردُّكم كفاراً أسبقُ المضار عندهم، وأولُها؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذَّالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه»[1].

---

(١) «الكشاف» (٤ / ٥١٣).

وبعد؛ **فإننا نعدل عن المضارع إلى الماضي؛ لإبراز غير الحاصل منزلة الحاصل، وتصوير ما ليس بواقع كأنه واقع.**

تلك قاعدة كلية عامة تنتظم جزئيات كثيرة، فلماذا نبرز غير الحاصل منزلة الحاصل يا ترى؟!

١ ـ لقوة الأسباب الداعية إلى الفعل:

كأن أقول للطالب ـ وقد شرحت الدرس شرحاً جيداً ـ: إن انتبهت للشرح؛ فهمت. فقد عدلت عن المضارع إلى الماضي؛ لقوة الأسباب الداعية إليه.

ومنه الآية الكريمة: ﴿وودُّوا لَوْ تَكْفُرونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، ومنه قوله سبحانه: ﴿ولا تُكْرِهوا فَتَياتِكُمْ على البِغاءِ إنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنا﴾ [النور: ٣٣]، ولم يقل: إن يردن. وذٰلك لقوة الأسباب الداعية إلى التحصن.

ومثله قولنا: أيها المسؤولون! لا تفاوضوا عدوكم إن أصرَّ على باطله، ولا تثقوا به إن خادع واستعلى. فالتعبير بالماضي له ما يسوغه، وهو علمنا بطبيعة العدو، فهو أمر متحقق.

٢ ـ للتفاؤل:

وقد يكون ذٰلك للتفاؤل؛ كما تقول لمن ترى فيه نباهة وذكاء: إن عشت؛ كان لك شأن، وإن اجتهدت؛ نجحت. فهو أولى من قولك: إن تعش؛ يكن لك شأن، وإن تجتهد؛ تنجح.

٣ ـ الرغبة في حصول الشيء:

كقولك: إن ظفرت بالجائزة؛ بلغت مرادي. فأنت توَّاق إلى هٰذا الأمر؛ ولذا صورته بصورة الواقع، فلم تقل: إن أظفر بالجائزة... وإنما جئت بالماضي؛ لتبرز ما ليس بحاصل منزلة الحاصل.

٤ ـ التعريض:

ومنه قوله سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله سبحانه: ﴿ولَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الذي جاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالمينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، فالخطاب؛ وإن كان له عليه وآله الصلاة والسلام؛ إلا أنه من باب التعريض.

قال الزمخشري:

«﴿ولئن اتبعت أهـواءهم﴾ بعد الإفصاح عن حقيقة حالهم المعلومة عنده في قوله: ﴿وما أنتَ بتابعٍ قِبْلَتَهُم﴾ كلامٌ وارد على سبيل الفرض والتقدير؛ بمعنى: ولئن اتبعتهم ـ مثلاً ـ بعد وضوح البرهان، والإحاطة بحقيقة الأمر؛ ﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾ المرتكبين الظلم الفاحش. وفي ذلك لطف للسامعين، وزيادة تحذير واستفظاع لحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى، وتهييج وإلهاب للثبات على الحق»[1].

ومثل هذا قولك مخاطباً أحد الناس في الظاهر، معرِّضاً بغيره في الواقع: لئن قصرت في واجبك؛ إنك لمن الملومين، ولئن فرطت في حقك؛ إنك إذن لمن المنبوذين. نعدل عن المضارع إلى الماضي إذن لغرض بياني.

ونختم لك هذا المبحث بهذه الآية الكريمة التي عُدل فيها عن المستقبل إلى الماضي؛ قال تعالى: ﴿وإنْ كانَ كَبُرَ عليكَ إعْراضُهُم فإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأرْضِ أو سُلَّماً في السَّماءِ فتأتِيَهُم بآيَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥]؛ عبر بالفعل الماضي ـ كما ترى ـ ولم يقل: فإن تستطع. وإذا بحثت عن سر ذلك وجدت روعة البيان، ودقة النظم، وسحر المعنى:

يريد الله سبحانه أن يبيِّن حرصَ نبيه ﷺ على إيمان قومه؛ مهما كلفه ذلك من مشقات، ومهما تحمل فيه من جهد؛ ولذا عدل إلى الماضي، فأبرز غير الحاصل كأنه أمر حاصل متحقق.

---

(١) الكشاف (١/ ٢٠٣).

■ ثانياً: (لو):

ونكتفي بما حدثناك عن هاتين الأداتين؛ (إن) و(إذا)، وقد آن لنا وآن لك كذلك أن تعرف شيئاً عن الأداة الثالثة: (لو).

(لو) حرف امتناع لامتناع، ولذا من شأنها أن تدخل على الماضي ـ كما عرفت من قبل ـ، وتفيد عدم تحقق جملتيها، فإذا قلت: لو اجتهدت؛ نجحت. فإنها تفيد عدم النجاح؛ لعدم الاجتهاد. ولو زرعت؛ حصدت. تفيد عدم الحصاد لعدم وجود الزرع.

هٰذا هو الأصل في (لو).

ولكنها قد تدخل على المضارع، ودخولها عليه لغرض بياني؛ قال تعالى: ﴿واعْلَموا أنَّ فيكُمْ رَسولَ اللهِ لَوْ يُطيعُكُمْ في كَثيرٍ مِن الأمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ولم يقل: لو أطاعكم. وإذا بحثت عن سر ذٰلك؛ أدركت أن الهدف هو استمرار الفعل وقتاً بعد وقت. ولو قال: لو أطاعكم. لفات ذٰلك الغرض، وذهب ذٰلك الهدف، ولكنه يريد أن يبين أن ذٰلك مستمر ما دام الرسول فيهم.

قال الزمخشري رحمه الله:

«فإن قلت: فلمَ قيل: ﴿يطيعُكُم﴾، دون (أطاعكم)؟ قلت: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه، وأنه كلما عنَّ لهم رأي في أمر؛ كان معمولاً عليه؛ بدليل قوله: ﴿في كثيرٍ من الأمْرِ﴾؛ كقولك: فلان يُقري الضيف، ويحمي الحريم. تريد: أنه مما اعتاده، ووجد منه مستمراً»(١).

وسأزيدك الأمر بياناً ووضوحاً:

يطلب منك بعض الناس شيئاً، فتقول: لو جئتني؛ أعطيتك. ويرجوك في تحقيق أمر أو قضاء، فتقول: لو أخبرتني؛ قضيت لك حاجتك. وكل ما يدل عليه هٰذا أنك كنت

---

(١) «الكشاف» (٤ / ٣٦١).

مستعداً لقضاء حاجته وإعطائه في ما مضى من الزمن، ولا يُفهم من كلامك أنك ما زلت على استعداد للقيام بهذا الأمر.

فإذا أردت أن تبين لصاحبك أنك على استعداد في كل وقت أن تعطيه ما طلب منك، وأن تقضي له حاجته؛ فينبغي أن تغير طريقة نظم كلامك، فتستعمل المضارع بدل الماضي، وتقول: لو تجيئني؛ أعطيك. ولو تخبرني؛ أقضي لك حاجتك.

فأنت تدخل (لو) على المضارع؛ لتدل على الاستمرار، ولتبين أن استعدادك لا ينحصر في زمن معين فحسب.

لقد تغيَّر المعنى في نفسك، فتغير ـ تبعاً له ـ الترتيب في لفظك ونطقك، وهٰذا هو النظم؛ كما حدَّثناك عنه من قبل.

أما دخولها على المضارع في مثل قوله سبحانه: ﴿ولَوْ تَرى إذْ وُقِفوا على النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقوله سبحانه: ﴿ولو تَرى إذْ وُقِفوا على رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿ولو تَرى إذِ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ المَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وهو كثير في كتاب الله تعالى؛ فإنما عُدل عن الماضي إلى المضارع؛ لتنزيله منزلة الماضي؛ لأنه كلام الله الذي لا تتخلف أخباره أبداً.

ويبدو لنا أمر آخر، وهو أنه قصد به استحضار هٰذه الصورة المروعة ـ وكثيراً ما يعبَّر بالمضارع لهٰذا القصد، وهو استحضار الصورة؛ كأنما هي مرئية رأي العين ـ وهٰذا أكثر تأثيراً في النفس، وهٰذا كثير في كتاب الله تعالى: ﴿واللهُ الذي أرْسَلَ الرِّياحَ فتُثيرُ سَحاباً فسُقْناهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩]، فلم يقل: فأثارت. وذٰلك لاستحضار صورة الريح وهي تثير في هٰذا السحاب الذي ينزل منه المطر.

وإنما أطلت الحديث عن أدوات الشرط؛ لأنها من المواطن البلاغية التي يضل فيها كثير، وتنزلق فيها أقدام.

□□□

□ المبحث الثاني:

التقييد بغير الشرط

وهناك قيود غير الشرط تقيد بها الجملة؛ كالتوابع، والمفاعيل، وهي مقحمة في علم البلاغة؛ لأن ما ذكروه لا يزيد عما ذكر في علم النحو:

فالتقييد بالنعت؛ للتخصيص أو التوضيح[1]، وهٰذا يرجع إلى طبيعة المنعوت؛ أهو معرفة أم نكرة؟ وقد يكون للتأكيد؛ كقولهم: أمس الدابر. وغلام ذكر.

والتقييد بالتوكيد؛ لدفع التجوز، فإذا قلت: جاء الأمير نفسه. فإنك تنفي التجوز هنا؛ حتى لا يُظن أن الذي جاء إنما هو نائبه، أو من يمثله.

والتقييد بالعطف؛ للاختصار؛ لأن قولك: جاء زيد وعمرو. أخصر من قولك: جاء زيد وجاء عمرو.

وذكروا في هٰذا المبحث معاني حروف العطف، وهي مقررة في علم النحو.

والتقييد بالبدل؛ لزيادة التقرير؛ لأن قولك: جاءت هند أختك. فيه زيادة تقرير؛ لأن الأخت هي هند.

وهٰكذا التقييد بالمفاعيل.

والخلاصة أنه كلما كثرت قيود الجملة؛ كانت أكثر إيضاحاً عند السامع.

بقي أن نبين لك شيئاً عن أدوات النفي، وأدوات النفي مثل: (ما)، و(لا)، و(لم)، و(لن)، و(لما).

(ما): لنفي الحال.

(لا): لنفي الاستقبال.

---

(١) وقد يكون للمدح.

(لم) : تقلب المضارع إلى الماضي ؛ فإذا قلت : لم أقل . فأنت تنفي القول عنك في الزمن الماضي .

(لما) : للنفي في الاستقبال، فإذا قلت: لما أفعل. فُهم من هٰذا أنك لم تفعل هٰذا الشيء إلى الوقت الذي نطقت به .

(لن) : لنفي الاستقبال .

ونكتفي بالحديث عن هٰذه القيود؛ لننتقل إلى الحديث عن باب آخر من الأبواب الرئيسة في فنون البلاغة، وهو باب القصر.

□□□

تدريب

*** استنتج الأسباب التي جاءت لأجلها الجمل التالية بصيغة الماضي مقترنة بـ (إن):**

١ - قال تعالى: ﴿فإنْ آمَنوا بمِثْلِ ما آمَنْتُم بهِ فقَدِ اهْتَدَوا﴾ [البقرة: ١٣٧].

٢ - وقال تعالى: ﴿وإنْ عاقَبْتُمْ فعاقِبوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

٣ - وقال تعالى: ﴿فإنْ جاؤوكَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أوْ أعْرِضْ عنهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢].

٤ - وقال تعالى: ﴿وإنْ جَنَحوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها﴾ [الأنفال: ٦١].

٥ - وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إنْ جاءَكُم فاسِقٌ بنبإٍ فتَبَيَّنوا﴾ [الحجرات: ٦].

٦ - وقال تعالى: ﴿فإنْ عَلِمْتُموهُنَّ مُؤمناتٍ فلا تَرْجِعوهُنَّ إلى الكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

٧ - اتق الله الذي إن دعوته سمعك، وإن أصابك كرب فرَّجه عنك.

*** استنتج الأسباب التي جاءت لأجلها الجمل التالية بصيغة المضارع مقترنة بـ (لو):**

١ - قال تعالى: ﴿ولو يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بِما كَسَبوا ما تَرَكَ على ظهرِها من دابة﴾ [فاطر: ٤٥].

٢ - وقال تعالى: ﴿ولو يُعَجِّلُ اللهُ للناسِ الشَّرَّ استِعْجالَهُمْ بالخَيْرِ لَقُضِيَ إليهِمْ أجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

٣ - وقال تعالى: ﴿وإذا تُتْلى عليهِمْ آياتُنا قالوا قَدْ سَمِعْنا لو نَشاءُ لَقُلْنا مثلَ هٰذا﴾ [الأنفال: ٣١].

٤ - وقال ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق التوكل؛ لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو

خماصاً، وتروح بطاناً»[1].

٥ ـ وقال عليه السلام: «لو تعلمون ما أعلم؛ لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً»[2].

٦ ـ لو نحسن الرد على عدونا!

٧ ـ لو نقيم للأخلاق وزناً!

□□□

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب: التوكل واليقين. حديث (٤١٦٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الكسوف، باب: الصدقة في الكسوف، باب (٢)، حديث (٩٩٧).

الفصل الثامن

القصـــــر

■ مقدمة:

القصـر أحـد الأسـاليب البـلاغية التي يقتضيهـا المقـام، ويدعـو إليهـا حال المخاطب، فهو من هٰذه الجهة لا يختلف عن الأساليب التي تحدثنا عنها من قبل؛ كالحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، فإذا كان لكل من هٰذه أسبابه الداعية إليه؛ فإن القصر كذٰلك إنما يُؤتى به عند الحاجة، وحينما تكون هناك ضرورة؛ كما ستعرفه إن شاء الله.

وسنتناول هٰذا الموضوع في أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف القصر وأركانه.

المبحث الثاني: أقسام القصر.

المبحث الثالث: طرق القصر والفروق بينها.

المبحث الرابع: دراسة تطبيقية لأهمية القصر ووظيفته البيانية.

□□□

□ المبحث الأول:

تعريف القصر وأركانه

■ تعريفه:

القصر في اللغة هو الحبس، والقرآن الكريم هو المرجع اليقيني الذي تطمئن إليه القلوب ثقة وصحة، فقد جاء في الكتاب الكريم: ﴿وعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، وفي السورة التي تليها: ﴿وعِنْدَهُم قاصِراتُ الطَّرْفِ أتْرابٌ﴾ [صٓ: ٥٢]، وفي سورة الرحمن: ﴿فيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبلَهُمْ ولا جانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

ففي هٰذه الآيات الثلاث وصف لنساء أهل الجنة بأنهن يقصرن الطرف على أزواجهن؛ فلا تتعدى نظراتهن غير أولٰئك الأزواج.

وفي سورة الرحمٰن آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصوراتٌ في الخِيامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]؛ أي: مقيمات فيهن.

وهٰذا المعنى اللغوي أصل وأساس المعنى الاصطلاحي الذي استقر عليه علماء البلاغة في ما بعد، فلقد رأينا أن القصر لغة هو الحبس، والنصوص القرآنية نستشفُّ منها معنى التخصيص، فنساء أهل الجنة قد خصَّصْن أزواجهن بنظراتهن وبطرفهن دون غيرهم من الرجال، وهن قد خصصت لهن هٰذه الخيام؛ ليقمن فيها، فهي مخصوصة لمكثهن ولبثهن.

وهٰذا المعنى يرشدنا إلى المعنى الاصطلاحي ـ كما قلت ـ، فقد عرّف علماء البلاغة القصر بأنه **تخصيص أمر بأمر بطريق مخصوص**[1].

فإذا أردنا ـ ونحن نتحدث عن الشعراء ـ أن نخصص البحتري بالشعر دون غيره؛

---

(١) وهذا هو التعريف المختار.

لأننا نجده أحق بهٰذا الوصف من معاصريه، أو ممَّن يكون الحديث عنهم؛ نقول: إنما الشاعر البحتري. فأنت ترى أننا أثبتنا الشعر للبحتري دون غيره، ولم نكتف بهٰذا الإثبات، بل قصرناه عليه، وأخرجنا غيره من حلبة الشعراء.

وإذا أردنا أن نتحدث عن الجاحظ بأنه كاتب فحسب، وليس شاعراً، ولا خطيباً؛ فإننا نقول: ما الجاحظ إلا كاتب.

فأنت ترى أننا لم نأت بأسلوب القصر جزافاً، وإنما اضطررنا له؛ لأن المقام يقتضيه

ففي المثال الأول؛ كان بعضنا يرى أن المتنبي هو الحريُّ بوصف الشعر، وبعضنا يرى أنه أبو تمام، فاضطررنا أن نقول: إنما الشاعر البحتري.

وفي المثال الثاني ـ وقد قرأ بعضنا أبياتاً للجاحظ فظنه شاعراً، وبعضنا سمعه يتحدث في كتاب «البيان والتبيين» عن الخطابة والخطباء فظنه خطيباً ـ أردنا أن نحسم هٰذا الأمر، وأن نبين أن الجاحظ لم يكن هٰذا ولا ذاك، وإنما كان كاتباً فحسب، فقلنا: ما الجاحظ إلا كاتب

ولولا هٰذا الاختلاف في وجهات النظر؛ لاكتفينا بالقول: البحتري شاعر، والجاحظ كاتب.

فلو أن جلساءنا كانوا يتفقون في هٰذا الأمر، لا يخالف منهم أحد؛ لما كان من البلاغة أن نأتي بأسلوب القصر.

■ أركان القصر:

وبعد أن عرفت معنى القصر، وتبيَّنت الحاجة التي تدعو إليه، ومتى يحسن؟ ومتى يقبح؟ لا بد من المرحلة الثانية، وهي معرفة أركان القصر.

وفي المثالين السابقين ما يرشدك إلى ذٰلك:

فالمثال الأول: إنما الشاعر البحتري. قصرنا فيه الشعر على البحتري وحده،

فالشعر مقصور، والبحتري مقصور عليه.

وفي المثال الثاني: ما الجاحظ إلا كاتب. قصرنا الجاحظ على الكتابة، فالجاحظ مقصور، والكتابة مقصور عليها.

هٰذان طرفا القصر: مقصور، ومقصور عليه. ولا بد من هٰذين الطرفين في كل قصر؛ لأننا نقصر شيئاً على شيء، ولأننا عرفناه تخصيص أمر بأمر.

□□□

◻ المبحث الثاني:

أقسام القصر

للقصـر أقسام متعددة؛ ذٰلك لأن له اعتبارات مختلفة، وحيثيات متنوعة، فمن حيث طرفاه ولفظه له تقسيم، ومن حيث الواقع له تقسيم، ومن حيث المخاطب الذي من أجله جئنا بأسلوب القصر له تقسيم ثالث.

■ أولاً: تقسيم القصر من حيث طرفاه:

يقسم القصـر من حيث طرفاه ـ وهما المقصور والمقصور عليه ـ إلى قسمين: قصر موصوف على صفة، وقصر صفة على موصوف.

تأمل المثالين السابقين؛ تجد فيهما ما يرشدك إلى ذٰلك: إنما الشاعر البحـتري. قصرنا فيه الشاعرية على البحتري. وغني عن القول أن الشاعرية صفة[1]، والبحتري موصوف، فهو إذاً قصر صفة على موصوف.

ويمكنك أن تقيس عليه: إنما أكرمكم أتقاكم. إنما الجواد حاتم. ما السعداء إلا العـاملون. إنمـا الأديب الـرافعي. ففي مثل هٰذه الأمثلة قصرنا الكرم على الأتقياء، والجود على حاتم، والسعادة على العاملين، والأدب على الرافعي.

أما المثال الثاني ـ وهو قولنا: ما الجاحظ إلا كاتب ـ فقد قصرنا الجاحظ على الكتابة، فهو قصر موصوف على صفة.

ويمكنـك أن تقيس عليه قولـه تعـالى: ﴿ومـا محمدٌ إلا رَسولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقولنا: ما الدُّنيا إلا مزرعة للآخرة. إنما صلاح الدين قائد مخلص.

ولكـل من هٰذين القسمين؛ قصـر الصفـة على المـوصوف، والموصوف على

---

(١) تدرك من هذا أننا لا نعني بالصفة النعت الذي يعنيه علماء النحو، وإنما نعني بها معنى أعم من هذا.

الصفة؛ مقامه الخاص به، فلا يجوز أن يأتي أحدهما مكان الآخر، أو يقوم أحدهما مقام الآخر.

فإذا كان حديثنا عن القادة المخلصين، وتناولنا أعلاماً من أعلام التاريخ، وكان حديثنا أن أولٰئك أحق بهٰذا الوصف؛ فإن المقام يقتضينا أن نقول: إنما القائد صلاح الدين.

أما إذا كان حديثنا عن صلاح الدين، وما هي أبرز أوصافه؟ أهو عالم، أم شاعر، أم قائد؟ فإننا نقول: إنما صلاح الدين قائد.

■ ثانياً: تقسيم القصر باعتبار الواقع:

حينما ننظر إلى أسلوب القصر؛ فإننا نجد أنه يكون تارة قصراً حقيقيًّا من حيث الواقع، وقد لا يكون كذٰلك، وإنما نقصد المبالغة؛ لأن هناك من يتّصف بهٰذا الوصف غير المقصور عليه، ولكننا قصرناه عليه بالإضافة إلى غيره؛ لأننا نجده الحري بهٰذا الوصف.

فإذا قلت: لا يروي أرض مصر من الأنهار إلا النيل. فنحن هنا قد قصرنا إرواء أرض مصر ـ وهي صفة ـ على النيل، وهو من حيث الواقع كذٰلك؛ فليس هناك أنهار غيره، فهو قصر حقيقي.

وإذا كان في القاعة التي ألقي فيها المحاضرة طالب روسي واحد، فقلت: لا روسي في القاعة إلا فلان. فهٰذا القصر حقيقيٌّ؛ لأن الواقع يشهد له.

وإذا قلت: إنما خاتم الأنبياء محمد ﷺ. فهو من حيث الواقع كذٰلك؛ لأنه لا خاتم للأنبياء غيره.

لكنني حينما أقول: إنما الشاعر المتنبي. فالواقع والتاريخ يثبتان شعراء كثيرين.

وإذا قلت: ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ فالواقع يشهد بأن له عليه الصلاة والسلام صفات كثيرة غير صفة الرسالة؛ فهو قائد، وعابد، وزوج،

وأب . . .

مما تقدم تدرك أن القصر قسمان : حقيقي وإضافي ، فالحقيقي ما كان الواقع فيه شاهداً على ذلك ، والإضافي بعكس ذلك[1].

يمكنك أن تدرك بعد هذا أن قولنا : لا خالقَ إلا الله . قصر حقيقي ؛ لأننا قصرنا فيه الخلق على الله وحده ، وليس هناك خالق سواه . وأن قولنا : إياك نعبد . قصر حقيقي ؛ لأننا قصرنا العبادة على الله . وكذلك قولنا : لم يسر على سطح القمر إلا ثلاثة أمريكيين . قصر حقيقي إذا لم يكن غيرهم قد مشى على سطح القمر.

وإذا نظرت إلى هذه الأمثلة الثلاثة ؛ وجدتها جميعاً من باب قصر الصفة على الموصوف ؛ لأننا قصرنا الخلق على الله في المثال الأول ، والعبادة عليه سبحانه في المثال الثاني ، وقصرنا السير على سطح القمر على الأمريكيين الثلاثة في المثال الثالث .

ويمكن أن يكون قصر الصفة على الموصوف إضافيًّا كذلك ؛ كقولك : إنما الشهيد جعفر. لأن هناك شهداء غيره .

قصر الصفة على الموصوف إذاً قد يكون حقيقيًّا ، وقد يكون إضافيًّا ، فهل قصر الموصوف على الصفة كذلك؟!

لا نتعجل الحكم ، ولنأخذ هذه الأمثلة : إنما الله رازق . إنما ابن رشد فيلسوف . إنما فلسطين مقدسة . هذه الأمثلة كلها من باب قصر الموصوف على الصفة ، ولكننا عندما ننظر فيها مرة أخرى ؛ فإننا سنجد أن المثال الأول الذي قصرنا فيه لفظ الجلالة على الرزق ، نجد أن هذا القصر ليس حقيقيًّا ؛ لأن لله سبحانه وتعالى صفات كثيرة غير الرزق ، فهو الخالق ، والعالم ، والقادر ، والمالك . . .

---

(١) والذي يركز عليه علماء البيان هو القصر الإضافي ، ولذا اقتصر عليه بعضهم ، ولم يذكر القصر الحقيقي ؛ لأنه هو الذي يثري الأساليب العربية .

وكذٰلك المثال الثاني الذي قصرنا فيه ابن رشد على الفلسفة، ومن البدهي أن لابن رشد صفات كثيرة غير هٰذه الصفة، فهو فقيه، ومتكلم... وذو صفات كثيرة متعددة.

وكذٰلك المثال الثالث الذي قصرنا فيه فلسطين على كونها مقدسة، فإن لها صفات كثيرة أخرى، فهي مباركة، خصبة الأرض، عذبة الماء، ذات النسيم العليل.

القصر إذاً إضافي في هٰذه الأمثلة جميعاً، وكأننا لم نظفر بمثال يكون فيه قصر الموصوف على الصفة حقيقيًّا، وهٰذا صحيح؛ لأننا لا يمكن أن نجد موصوفاً ليس له إلا صفة واحدة فقط، بل من البدهي أن تكون له صفات كثيرة.

أما قصر الصفة على الموصوف فيكون حقيقيًّا؛ لأن هناك صفات ليس لها إلا موصوف واحد، فخاتم الأنبياء لا يتصف به إلا رسول الله ﷺ، وإرواء أرض مصر إنما اختص به النيل، والعبادة والخلق إنما هما لله وحده، وتحرير فلسطين من الصليبيين إنما قام به صلاح الدين.

الخلاصة: إن قصر الصفة على الموصوف يكون حقيقيًّا وإضافيًّا، أما قصر الموصوف على الصفة؛ فلا يكون إلا إضافيًّا.

■ ثالثاً: تقسيم القصر من حيث المخاطبون:

أسلوب القصر الذي نخاطب به الناس إنما تدعو الحاجة إليه ـ كما عرفت من قبل ـ فنحن لا نخاطب به الذين يتفقون معنا فيما نقرره من أحكام، وفيما نلقيه من آراء. المخاطب الذي نخاطبه بأسلوب القصر؛ لا يخلو أن يكون واحداً من ثلاثة؛ إما أن يكون معتقداً عكس الرأي الذي نرتئيه، أو شاكًّا فيه، والحالة الثالثة أن يعتقد الشركة بين اثنين أو أكثر في هٰذا الحكم.

فحينما أقول: لم يفز بجائزة نوبل إلا أصدقاء الصهيونية[1]. لا مؤيد لإسرائيل

(١) إبان إعدادنا للطبعة الثانية لهٰذا الكتاب؛ حصل على جائزة نوبل الكاتب نجيب محفوظ، وهو =

ماديًا ومعنويًا إلا أمريكا. إنما شر أنواع الاستعمار التبعة الفكرية. إنما الهزيمة الحقيقية فقدان الثقة بالنفس.

في هٰذه الأمثلة قد نجد من يعتقد عكس رأينا، وقد نجد من يعتقد الشركة، فيعتقد أن أمريكا وفرنسا مؤيدتان لإسرائيل على حدٍّ سواء، وقد يفوز بجائزة نوبل أصدقاء الصهيونية وأعداؤها معاً، ومن يعتقد أن شر أنواع الاستعمار قد يكون فكريًا وغير فكري، وأن الهزيمة الحقيقية قد تكون بعدم الثقة، وقد تكون هزيمة عسكرية كذٰلك.

فإذا كان المخاطب يعتقد عكس ما نقول، فإن القصر يسمى قصر قلب؛ لأننا أردنا أن نقلب له معتقده رأساً على عقب.

أما إذا كان يعتقد الشركة؛ كالذي يرى أن أمريكا وإنجلترا سواء في تأييد إسرائيل، فإن القصر يسمى قصر إفراد؛ لأننا قصرنا فيه الحكم على فرد واحد دون غيره.

وإذا كان شاكًا؛ سمي القصر قصر تعيين؛ لأننا خلصنا فيه المخاطب من شبهة الشك، وعيَّنا له من ينبغي أن يقصر عليه هٰذا الحكم.

ويمكن أن تجتمع هٰذه الأقسام في مثال واحد إذا كان في المخاطبين هٰذه الأصناف الثلاثة.

بعد هٰذا يمكنك أن تدرك أن قوله سبحانه: ﴿ما المَسيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ إنما هو قصر قلب؛ لأن فيه قصر المسيح عليه السلام على الرسالة. وكذٰلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَواحِشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ لأنه جاء ردًّا على الذين يحرمون على أنفسهم الطيبات

= كاتب قديم، كان أول مقال له في أول الثلاثينات تحت عنوان: «موت عقائد وحياة عقائد»!! نشره له سلامة موسى!! وسلامة موسى من النفر الذين كانوا يدعون لإلغاء الفصحى، ولنجيب محفوظ بعض الروايات التي تدخل الأزهر لمنع نشرها، ولم تنشر في مصر، ولكنها نشرت في بعض البلاد.

من الرزق وما لم يحرمه الله. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وما مُحَمَّدٌ إلا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ لأنه جاء ردًّا على الذين أنكروا أن يموت النبي أو يقتل.

وإذا قلت: إنما الميوعة والإلحاد الداء العضال في الأمة. فإن هٰذا قصر قلب لمن لا يرى هٰذا الرأي، ويرى أن التدين والفضيلة هما الداء العضال، وهو قصر إفراد لمن يسوِّي بين هٰذين وبين غيرهما، وهو قصر تعيين لمن كان شاكًّا في أمراض الأمة أيها أكثر ضرراً.

□□□

*** المبحث الثالث:**

طرق القصر

ونعني بها الأساليب التي تدل على القصر.

وللقصر طرق كثيرة، نقتصر منها على أربع:

أولاً: القصر بـ (إنما).

ثانياً: بـ (ما) و (إلا).

ثالثاً: العطف: وحروف العطف التي يمكن أن يكون بها القصر هي: (لا)، و (بل)، و (لكن).

تقول: داؤنا التفرق لا الفقر. تنقصنا الإرادة لا الغطاء الجوي. ما أذلنا أعداؤنا بل قادتنا. ليس الفقر مشكلتنا لكن الأنانية.

رابعاً: تقديم ما حقُّه التأخير: لله الأمر. على الله توكلنا. في الجدِّية النجاح. بالثقة تنتصر الشعوب. بالتفرق تهزم الأمم.

■ الفرق بين هٰذه الطرق:

إذا تأملت هٰذه الطرق الأربع فستجد بينها بعض الفروق التي يمكن أن تستنتجها بنظرك وفكرك، وهناك فروق لا بد من أن ننبهك إليها؛ لأنها تحتاج إلى بيان.

ففي الطريقة الأولى ـ وهي القصر بـ (إنما) ـ تجد أنها يليها المقصور دائماً، فإذا قلت: إنما الشاعر المتنبي. فأنت تقصر الشعر على المتنبي، فالشاعر مقصور، والمتنبي مقصور عليه. فإذا قلت: إنما المتنبي الشاعر. فأنت قصرت المتنبي على الشعر، فالمتنبي مقصور، والشعر مقصور عليه.

وهٰكذا دائماً؛ لا يذكر بعد (إنما) إلا المقصور.

أما الطريقة الثانية - وهي: (ما) و(إلا) -؛ فإذا أنعمت النظر؛ وجدت أن المقصور عليه يذكر بعد (إلا)، فإذا قلت: ما المتنبي إلا شاعر. فإن المتنبي مقصور، والشاعر مقصور عليه. وإذا قلت: ما شاعر إلا المتنبي. فأنت قصرت الشعر على المتنبي، فالمتنبي مقصور عليه.

أما الطريقة الثالثة، فإذا كان العطف بـ (لا)؛ كان المقصور عليه ما قبلها، تقول: جاء محمد لا خالد. فلقد قصرت المجيء على محمد. أحب الرياضيات لا الفيزياء. فالرياضيات هي المقصور عليه. أكرم الفضلاء لا العابثين.

أما إذا كان العطف بـ (بل) أو (لكن)؛ فالأمر على العكس من ذٰلك، فالمقصور عليه يكون بعدهما دائماً؛ تقول: ما جاء محمد ولكن خالد. لا أتقن الرياضيات بل الفيزياء. لا أهاب العدوَّ البعيد ولكن ذوي القربى[1].

أما الطريقة الرابعة؛ فإذا تأملت أمثلتها: لله الأمر. على الله توكلنا. في الجدية النجاح. ترى أننا قصرنا النجاح على الجدية، وجعلنا الأمر لله وحده. المقدم هو المقصور عليه دائماً، والمؤخر هو المقصور.

الخلاصة:

إذا كان القصر بـ (إنما)؛ فإنه يليها المقصور.

وإذا كان بـ (ما) و(إلا)؛ يكون المقصور عليه بعد (إلا) غالباً.

وإذا كان العطف بـ (لا)؛ فالمقصور عليه يكون قبلها.

---

(١) الفرق بين (بل) و(لكن)، أن (بل) للإضراب، و(لكن) للاستدراك؛ هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن بل تأتي في النفي والإثبات؛ تقول: ما جاء زيد بل عمرو. وأكرمت زيداً بل عمراً. أما (لكن)؛ فيشترط أن يسبقها نفي أو نهي، فإذا جاءت في جملة مثبتة؛ لم تكن حرف عطف، ولذا لا يجوز أن تقول: جاء زيد لكن عمرو. وتعربها حرف عطف، بل تكون في هذا المثال ابتدائية، وعمرو مبتدأ، وخبره محذوف، أي: لم يجيء.

وإذا كان العطف بـ (بل)، و (لكن)؛ فإن المقصور عليه يكون بعدهما.

فاحرص على هٰذه القاعدة؛ لأنك محتاج إليها لتدرك المعاني والأغراض التي يؤتى بالقصر من أجلها.

* هٰذا هو **الفرق الأول** بين الطرق.

* **الفرق الثاني**، وهو ما يمكنك استنتاجه إذا رجعت النظر في هٰذه الطرق:

الطرق الثلاث الأولى لكل منها أداة دالة عليها.

أما الطريقة الرابعة، وهي التقديم؛ فليس لها أداة خاصة، فإذا قلت: لله الأمر. بالتقوى يتفاضل الناس. بالشجاعة تسود الشعوب. فأنت لا ترى هنا أداة خاصة بالقصر تدل عليه، وإنما نفهم هٰذا القصر وندركه بأذواقنا.

فإذا قلت: بالتقوى يتفاضل الناس. فإنك ترد على الذين يزعمون أن التفاضل يكون بالمال، أو بالمنصب، أو بالجمال، فكأنك تقول لهم: لا، لا يتفاضل الناس بشيء من هٰذه الأشياء، وإنما يتفاضلون بشيء واحد فقط، هو التقوى.

وحينما تقول: بالشجاعة تسود الشعوب. فأنت ترد على الذين يدَّعون أن السيادة تكون بالثراء، والتقدم العمراني، أو كثرة المدارس، فتقول: إن هٰذا كله لا يغني شيئاً إذا كان الجبن والحرص على الحياة والخوف مسيطراً على الناس. فتقصر السيادة على شيء واحد، وهو الشجاعة، وقول كلمة الحق.

وإذا قلت: بالعقيدة تربى الأمم. فأنت ترد على الذين يدَّعون أن التربية يمكن أن تكون بالمباراة الرياضية، أو السباحة المختلطة، أو الرحلات العابثة، وتقصر التربية على شيء واحد، وهو العقيدة.

في هٰذه الأمثلة كلها لا تجد أداة خاصة بالقصر، وإنما أدركت القصر بطبيعتك وذوقك.

بقيت فروق بين بعض هٰذه الطرق وبعضها الآخر:

فهناك فرق بين القصر بـ (إنما) والقصر بالعطف، فالقصر بـ (إنما) يأتي النفي فيه دفعة واحدة، فإذا قلت: إنما خالد كاتب. فأنت تفهم من هٰذا القول أنه ليس بالخطيب ولا الشاعر. أما طريقة العطف، فإن النفي فيها ليس كذٰلك، وإنما يُفهم شيئاً فشيئاً، فإذا قلت: خالد كاتب. فإن المخاطب لا يفهم من هٰذا نفي الصفات الأخرى كما فهمها من قولك: إنما خالد كاتب. وإنما يفهم ذٰلك بعد أن تأتي بالعطف، فتقول: لا شاعر ولا خطيب[1].

بقي من الفروق بين بعض هٰذه الطرق أدقها وأكثرها فائدة وأحوجها إلى التأمل، وهو ما بين (إنما)، و(ما) و (إلا).

وربما يُظن لأول وهلة أن معناهما واحد، وليس الأمر كذٰلك، فبينهما من لطائف الفروق ما يشهد للعربية بدقة الوضع، وللعرب برقة الطبع.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وما مِنْ إلٰهٍ إلا إلٰهٌ واحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] أنه لا يصلح أن تأتي بـ (إنما)، فلا تقول: إنما من إلٰه إلٰه واحد؟

فأنت ترى أن (إنما) لا تصلح حيث صلحت (ما) و(إلا)، وكذٰلك قولك: إنما هي الأعمال يتفاضل بها الناس لا الأقوال. فإنه لا يصلح: ما هي إلا الأعمال لا الأقوال.

وأهم الفروق بين هاتين الطريقتين:

١ ـ يمكن أن تذكر (لا) النافية بعد (إنما):

بعد (إنما) يمكن أن تُذكر (لا) النافية، فيمكنك أن تقول: إنما يسودُ الأقوياء لا المستضعفون. ولكنها لا تأتي بعد (ما) و(إلا)؛ فلا يقال: ما يسود إلا الأقوياء لا المستضعفون. تقول: إنما أخوك كاتب لا شاعر. ولا تقول: ما أخوك إلا كاتب لا شاعر. ذٰلك لأن (ما) أداة نفي، و (لا) أداة نفي، ولا ينبغي أن تجتمع الأداتان معاً.

---

(١) لأن قولك: خالد كاتب. لا ينفي أن تكون له صفة أخرى، كأن يكون شاعراً أو خطيباً.

وليس ذٰلك في (ما) وحدها، بل أي أداة تدل على النفي لا يجوز أن تجتمع معها أداة أخرى، فلا يجوز أن تقول: إن أنت إلا بشر لا ملك. كما لا يجوز أن تقول: لم يجيء إلا خالد لا أحمد.

ومثل (إلا): (غير)؛ فلا يقال: ما في القاعة غير طالب لا طالبان.

ولكن ذٰلك كله يجوز بعد إنَّما، فتقول: إنما أنت بشر لا ملك. إنما في القاعة طالب لا طالبان.

إذا عرفت هٰذا؛ فقد أدركت لماذا عيب على الزمخشري ما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فإذا عزمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]:

«أي: لأن الأصلح لك لا يعلمه إلا الله لا أنت»؟!

وعلى الحريري قوله:

لَعَمْرُكَ ما الإنسانُ إلا ابنُ يَوْمِهِ   على ما تَجَلَّى لا ابنُ امْسِهِ؟!

فقول الزمخشري: «لا أنت»، والحريري: «لا ابن أمسه»؛ لا ضرورة له في الكلام.

وينبغي أن ننبهك لشيء مهم نص عليه الشيخ عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ، وهو أن (لا) تحسن بعد (إنما) إذا لم يكن الأمر خاصًّا، فإذا كان خاصًّا؛ فإنها لا تحسن؛ مثال ذٰلك: تقول: إنما تقرأ سعاد لا فاطمة. إنما يقوم خالد لا صالح. فإن القراءة والقيام ليسا خاصين بأحد دون أحد. أما إذا قرأنا قوله تعالى: ﴿إنَّما يَسْتَجيبُ الذينَ يَسْمَعونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقوله عز وجل: ﴿إنَّما يَتَذَكَّرُ أولو الألبابِ﴾ [الرعد: ١٩]، فإن الاستجابة لا تكون من البكم كما التذكر لا يكون إلا من العقلاء، ولذا لا يحسن أن يقال: إنما يستجيب الذين يسمعون لا البكم. إنما يتذكر أولو الألباب لا الجهال. إنما يغار على شؤون الأمة أصحاب العقيدة لا المستغرقون في الشهوات. لأن الغيرة خاصة بأصحاب العقيدة.

٢ ـ تستعمل (إنما) للشيء الذي لا ينكره المخاطب ولا يجهله، أو حينما ننزِّل المخاطب هٰذه المنزلة، وتستعمل (ما) و(إلا) على العكس من ذٰلك:

على أن هناك فرقاً أدق من هٰذا بين الطريقتين، فالقصر بـ (إنما) يكون في الشيء الذي لا ينكره المخاطب، ولا يجهله، أو فيما ينزل هٰذه المنزلة، أما (ما) و(إلا) فإنما تقال في الشيء الذي ينكره المخاطب ويجهله، أو ما ينزل هٰذه المنزلة.

وأنت تعلم أننا ننزل الجاهل بالشيء منزلة العالم به، أو ننزل المنكر منزلة غير المنكر؛ إذا كان الشيء من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى بيان وتأكيد، وننزل العالم منزلة الجاهل، أو غير المنكر منزلة المنكر؛ إذا كان من الغفلة والشرود بحيث يحتاج إلى التنبيه والإيقاظ.

تستعمل (إنما) إذن في موضعين اثنين:

أ ـ في الشيء الذي لا يجهله المخاطب ولا ينكره: وهٰذا كثير، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّما المُؤمِنونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿إِنَّما أموالُكُمْ وأولادُكُم فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، ﴿إنما الحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ ولَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، ﴿إِنَّما المُؤمِنونَ الذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابوا﴾ [الحجرات: ١٥]، فالمخاطبون لا ينكرون هٰذه الحقائق؛ لأنهم هم المؤمنون. واستمع إلى قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه. «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم»[1]. وهٰذه حقيقة لا يجهلها المخاطبون.

واستمع إلى قول المتنبي يخاطب كافوراً في شأن ابن الإخشيد[2]:

إنَّما أنتَ والِدٌ والأبُ القا ... طِعُ أحْنى مِن واصِلِ الأولادِ

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، رقم الحديث (٥٥).

(٢) الحسن بن عبيد الله بن طغج أبو محمد، أمير تركي الأصل، كانت له إمارة في دولة عمه الاخشيد، وفي أيام كافور، وكان صاحب الرحلة، توفي في مصر سنة (٣٧١ هـ). [الأعلام: ٢/ ١٩٨]

(٣) «الديوان» (٢/ ١٣٣).

فإن كافوراً لا يجهل هٰذه القضية، وكذلك قول سعيد بن مسلم:

إنَّما الدُّنيا هِباتٌ وعَوارٍ مُسْتَرَدَّة
شِدَّةٌ بعدَ رَخاءٍ ورَخاءٌ بعْدَ شِدة[1]

ومن الحكم: إنما المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه. ومن ذٰلك قولك لمن تذكره بأحد أصدقائه، وقد حدث بينهما ما يعكر الصفو: إنما هو صديقك. ولمن تذكره ببر والديه: إنما هما والداك. ولا يصح أن تقول: ما هو إلا صديقك. وما هما إلا والداك.

٣ ـ لمن ينزَّل منزلة العالم بالشيء غير المنكر له:

وذٰلك كقول ابن قيس الرقيات[2] في مصعب بن الزبير رضي الله عنهما:

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِن اللـ ـهِ تَجَلَّتْ عنْ وَجْهِهِ الظَّلْماءُ[3]

فهو يدَّعي أن ذٰلك أمر واضح بيِّن لا ينبغي أن يجهله أحد.

ومن ذٰلك قولك: إنما عدوُّنا يحاربنا بمكره وتخطيطه قبل سلاحه المادي. فأنت تريد أن تجعل هٰذه القضية لا ينبغي أن يجهلها الجاهلون. إنما يسرق عدونا خيراتنا كما يسرق تراثنا.

والمتأمل في التنزيل الحكيم لا يصعب عليه أن يهتدي إلى هٰذه الحقيقة، وأن يفيد من تلك القاعدة.

ها هي مريم عليها السلام وقد تمثل لها الملك بشراً سويًّا، فتقول: ﴿إِنِّي أَعوذُ

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٨١).

(٢) عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك من بني عامر بن لؤي، شاعر قريش في العصر الأموي، كان مقيماً في المدينة، خرج مع مصعب بن الزبير على عبدالملك بن مروان، لقب بابن قيس الرقيات؛ لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة. اسم كل واحدة منهن رقية، توفي سنة (٨٥ هـ). [الأعلام: ٤/ ١٩٦].

(٣) «ديوان ابن قيس»، و«الدلائل» (ص ٣٣١).

بالرَّحْمنِ منكَ إن كُنتَ تقيا، قالَ إنما أنا رسولَ ربِّك﴾ [مريم: ١٨-١٩]؛ كان التعبير بـ(إنما)، فإن مريم رضي الله عنها وإن كانت تجهل هذه الحقيقة وتنكرها، إلا أنها نزّلت منزلة غير المنكر وغير الجاهل، وقد رأت كثيراً من الكرامات، وكيف جاءها الروح الأمين، حيث لا يستطيع أن يصلها أحد، حريٌّ بمريم إذن أن لا تنكر هذا الأمر.

واقرأ قوله تعالى حكاية عن اليهود وقد قيل لهم: ﴿لا تُفْسِدوا في الأرْضِ﴾ [البقرة: ١١]، فحكى القرآن عنهم قولهم: ﴿إنَّما نَحْنُ مُصْلِحونَ﴾ [البقرة: ١١]، ولم يقولوا: ما نحن إلا مصلحون. أرادوا أن يبيِّنوا أن تلك قضية بدهية، وأن كونهم مصلحين أمر لا ينبغي أن يرتاب فيه أحد، وأن ينزلوا المنكر لهذه القضية منزلة غير المنكر[1].

واقرأ قوله سبحانه: ﴿الذينَ يأْكُلونَ الرِّبا لا يَقومونَ إلا كَما يَقومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطانُ مِنَ المَسِّ ذلك بأنَّهم قالوا إنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فأنت ترى أن القرآن الكريم حكى عنهم هذه العبارة، فقد جعلوا هذه القضية من المسلَّمات؛ كأنها لا ينبغي لأحد أن ينكرها أو يجهلها، ألم تر أنهم جعلوا الربا هو الأصل، فلم يقولوا: ما الربا إلا مثل البيع. أو: إنما الربا مثل البيع. وإنما جعلوا الربا أصلاً، وعبروا بـ(إنما)، ولذا رد القرآن عليهم ردًّا حاسماً قويًّا بقوله: ﴿وأحَلَّ اللهُ البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبا﴾ [البقرة: ٢٧٥]؛ كما رد الله على اليهود ردًّا حاسماً قويًّا بقوله: ﴿ألا إنَّهُم هُم المُفْسِدونَ﴾ [البقرة: ١٢].

وكذلك قوله سبحانه يحكي لنا ما قاله المنافقون: ﴿وإذا خَلَوْا إلى شَياطينِهِمْ قالوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وكذلك قول كل من قوم صالح، وقوم شعيب عليهما السلام: ﴿قالوا إنَّما أنْتَ مِن المُسَحَّرينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وفي التنزيل كذلك: ﴿إنَّما إلهُكُمْ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو وسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلْماً﴾ [طه: ٩٨]، وقوله عز وجل: ﴿إنَّما يَفْتَري الكَذِبَ الذينَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ﴾ [النحل: ١٠٥].

---

(١) وتلك قضية حريَّة بنا أن لا نغفلها، والواقع الذي نعيشه لها، ألم يسمُّوا جيشهم جيش الدفاع؟ ألم يسمُّوا المطالبين بحقوقهم المخربين؟.

وهٰكذا لا تخرج (إنَّما) عن هٰذين الموقعين في كل كلام بليغ.

ولعلك تتساءل هنا: كيف هٰذا مع أن أسلوب القصر ـ كما عرفت ـ لا يؤتى به إلا حينما يكون هناك داعٍ من إنكار المخاطب، أو جهله، كما قررنا ذٰلك في أول هٰذا البحث؟! فما بالنا نأتي به هنا لمن لا يجهل الشيء، ولا ينكره، أو لمن ننزله هٰذه المنزلة؟! أليس في ذٰلك تناقض؟!

والجواب: لا تناقض في الأمر؛ فأسلوب القصر هنا يجاء به لأننا نريد أن ننبه المخاطب إلى قضية حريٌّ به أن لا يغفل عنها، ألا ترى أن قول الشاعر: إنما الدنيا هبات وعوار مستردة. رغم أنه لا يجهله المخاطب، لكن الغرض منه تنبيه المخاطب، حتى لا تملك الدنيا عليه تفكيره وإحساسه وكل مشاعره، فتنسيه الواجبات الكثيرة الملقاة على عاتقه؟

فأسلوب القصر إذن لم يكن عبثاً، ولم نخرج به عمَّا قررناه من قبل.

أما (ما) و (إلا)؛ فإنها تقال في الشيء الذي يجهله المخاطب وينكره: مثال ذٰلك: ترى شخصاً مقبلاً، فتقول لصاحبك: ما هٰذا إلا فلان. ولكن صاحبك ينكِّره لظنِّه أن فلاناً لا يأتي في هٰذا الوقت، وعلى هٰذا جاء قوله تعالى: ﴿ما المَسيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلا رَسولٌ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ خطاباً للذين ينكرون أنه رسول، ويزعمون غير ذٰلك.

وتقال أيضاً فيما ينزَّل منزلة المنكر أو الجاهل، ومنه قوله تعالى: ﴿وما مُحَمَّدٌ إلا رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فالآية نزلت في معركة أحد، والصحابة رضوان الله عليهم لا ينكرون هٰذه الحقيقة، ولكن لما هالهم ما سمعوه حينما أُشيع أن النبي ﷺ قد قتل، وهم يعلمون أن النبي ﷺ بشر، ومن شأن البشر أن يموت، فلما استنكروا موته عليه السلام، فكأنهم أنكروا بشريته، وإنكارهم لبشريته يلزم منه إنكارهم لرسالته؛ لذا جاء القصر بـ (ما) و (إلا)؛ لا بـ (إنما).

ومن ذٰلك قول الأمم المكذبين لأنبيائهم: ﴿ما أَنْتُمْ إلا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ [يس: ١٥]، فإن الأنبياء لا ينكرون أنهم بشر، بل هم يعترفون بذٰلك، ولكن هٰؤلاء الأقوام كانوا

يزعمون أن الأنبياء لا يكونون من البشر، فهم ينكرون أن يكونوا أنبياء؛ لكونهم بشراً، فكأن الأنبياء أنكروا بشريتهم بادعائهم النبوة؛ لذا نزلهم أقوامهم منزلة المنكر، فجاء القصر بـ (ما) و (إلا)؛ لا بـ (إنما).

أما قول الأنبياء لأقوامهم: ﴿إنْ نَحنُ إلا بشرٌ مِثْلُكُمْ ولٰكِنَّ الله يَمُنُّ على مَن يشاءُ مِن عِبادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، إن هو إلا مجاراة للخصم؛ كأنهم يقولون: نعم، نحن بشر، ولكننا بشر أكرمنا الله بالرسالة.

ومن هٰذا قوله تعالى: ﴿وما هٰذهِ الحياةُ الدُّنْيا إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وهٰذا من دقائق الإعجاز القرآني، فلقد مرَّ معك من قبل قوله تعالى: ﴿إنَّما الحياةُ الدُّنيا لعِبٌ ولَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]، وقلنا هناك: إن هٰذا أمر لا يجهله المخاطبون، ولا ينكرونه؛ فالسورة مدنية، والمخاطب بها المؤمنون.

أما هنا، فإن المخاطبين غير المؤمنين؛ بدليل السياق، فالآية التي قبل هذه: ﴿ولَئِنْ سألْتَهُمْ مَن نَزَّلَ من السماء ماءً فأحْيا به الأرضَ منْ بَعد مَوْتها لَيَقولُنَّ اللهُ قُلِ الحمدُ لله بَلْ أكثَرُهُم لا يعقلونَ. وما هَذه الحياةُ الدُّنْيا إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لهيَ الحَيوانُ لو كانوا يعلمونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣-٦٤]، فانظر إلى دقائق الإعجاز ولطائفه، وكيف اختلف النظم حينما اختلف السياق والمخاطبون، وهذا كثير في كتاب الله.

وذٰلك كقوله سبحانه: ﴿وما يَسْتَوي الأحياءُ ولا الأمواتُ إنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشاءُ وما أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن في القُبورِ. إنْ أنْتَ إلا نَذيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢ ـ ٢٣]، فأنت ترى أن القصر هنا جاء بأداة النفي (إن) و (لا)، مع أن هٰذا لا يجهله النبي ﷺ، ولكن لما كان عليه وآله الصلاة والسلام حريصاً على هدايتهم، وتذهب نفسه حسرات عليهم، كأنما يظن أن باستطاعته هدايتهم؛ قيل له: ليس باستطاعتك أن تسمع من في القبور، فلا تظنَّن أنك ـ لكونك رسولاً ـ تستطيع هدايتهم، فما أنت إلا نذير.

ولكننا نجد في آية أخرى: ﴿إنَّما أنتَ نَذيرٌ﴾ [هود: ١٢]؛ ذلك لأن السياق هنا يختلف عن السياق هناك، وتلك قضية تدركها إن تدبرت آي الكتاب الحكيم.

ولم أجـد مَن نبَّه إلى هٰذه الدقائق؛ لذا حرصت أن أسجلها لك، وأن أدعوك للوقوف مع آي الكتاب وقفة تأمل وتدبر.

٣ ـ (إنما) تفيد التعريض مع إفادتها القصر:

بقي فرق ثالث بين الطريقتين، وهو كون (إنما) ـ مع دلالتها على القصر ـ تدل في كثير من استعمالاتها على أمر آخر هو التعريض، فقول الله تعالى: ﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الذِينَ يَسْمَعونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أولو الألبابِ﴾ [الرعد: ١٩]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّما أنت مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها﴾ [النازعات: ٤٥]؛ ليس المقصود ظاهر اللفظ فحسب، إنما يُقصد به أمر آخر، وهو التعريض بهٰؤلاء الذين لا يستجيبون، ولا يتذكرون، ولا يستفيدون من الإنذار.

ويظهر لك ذٰلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فليس الغرض منه بيان خشية العلماء فحسب، وإنما هو تعريض بأولٰئك الذين لا يخشون الله تبارك وتعالى ـ وإن حفظوا المسائل، وحذقوا قضايا العلم ـ ليسوا حريين بأن يكونوا من العلماء ما داموا لا يخشون الله تبارك وتعالى.

مثال ذٰلك أن تقول لمن يدَّعي صداقتك وقد تخلَّى عنك في أحرج أوقاتك: إنما الصديق عند الضيق. فأنت لا تريد أن تعرفه هٰذه الحقيقة، إنما تعرِّض به.

قال الشيخ عبدالقاهر رحمه الله في هٰذا المعنى وهو يتحدث عن (إنَّما):

«ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب؛ إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿إِنَّما يَتَذَكَّرُ أولو الألبابِ﴾ [الرعد: ١٩، الزمر: ٩] أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذم الكفار، وأن يُقال: إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل، وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا؛ كنتم كمن طمع في ذٰلك من غير أولي الألباب، وكذٰلك قوله: ﴿إِنَّما أنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها﴾ [النازعات: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

بالغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨]؛ المعنى على أن من لم تكن له هٰذه الخشية؛ فهو كأنه ليس له أذن تسمع، وقلب يعقل، فالإنذار معه كلا إنذار.

ومثال ذٰلك من الشعر قول العباس بن الأحنف:

أنا لم أرْزَقْ مَحَبَّتَها ... إنَّما للعَبْدِ ما رُزِقا[١]

الغرض أن يفهمك من طريق التعريض أنه قد صار ينصح نفسه، ويعلم أنه ينبغي له أن يقطع الطمع من وصلها، وييأس من أن يكون منها إسعاف.

ومن ذٰلك قوله:

وإنَّما يَعْذُرُ العُشَّاقَ مَن عَشِقا

يقول: إنه ليس ينبغي للعاشق أن يلوم من يلومه في عشقه، وإنه ينبغي أن لا ينكر ذٰلك منه، فإنه لا يعلم كنه البلوى في العشق، ولو كان ابتلي به لعرف ما هو فيه وعذره.

وقول الباخرزي[٢]:

ما أنتَ بالسَّبَبِ الضَّعيفِ وإنَّما ... نُجْحُ الأمورِ بِقُوَّةِ الأسبابِ
فاليَوْمَ حاجَتُنا إليكَ وإنَّما ... يُدْعَى الطَّبيبُ لساعَةِ الأوْصابِ[٣]

يقول في البيت الأول: إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه.

ويقول في البيت الثاني: إنا قد وضعنا الشيء في موضعه، وطلبنا الأمر من جهته؛ حين استعنا بك في ما عرض من الحاجة، وعولنا علی فضلك؛ كما أن من عوَّل على الطبيب في ما يعرض له من السقم كان قد أصاب بالتعويل موضعه، وطلب الشيء من معدنه.

---

(١) «الدلائل» (ص ٣٥٥)، و«ديوان العباس».

(٢) علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي الشافعي، أديب، ناثر، ناظم، من أهل باخرز، من نواحي نيسابور، رحل وسمع الحديث، واشتغل في شبابه بالفقه على مذهب الشافعي، قتل بباخرز سنة (٤٦٧ هـ). [المعجم: ٧/ ٦٥].

(٣) «دلائل الإعجاز» (ص ٣٥٥).

ثم إن العجب في أن هٰذا التعريض الذي ذكرت لك لا يحصل من دون (إنما)؛ فلو قلت: يتذكر أولو الألباب. لم يدل على ما دل عليه في الآية، وإن كان الكلام لم يتغير في نفسه، وليس إلا أنه ليس فيه (إنما)، والسبب في ذٰلك أن هٰذا التعريض إنما وقع بأن كان من شأن (إنما) أن تضمّن الكلام معنى النفي من بعد الإثبات، والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل، وإذا أسقطت من الكلام، فقيل: يتذكر أولو الألباب؛ كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون، ولم يكن فيه معنى نفي للتذكر عمّن ليس منهم»[1].

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص ٣٥٤).

□ المبحث الرابع:

دراسة تطبيقية لأهمية القصر ووظيفته البيانية

الغرض البياني الذي يؤديه القصر ليس كماليًّا، فالقصر من مباحث علم المعاني، وعلم المعاني يشرح نظرية النظم كما علمنا من قبل؛ لذلك كان الغرض الذي يؤديه القصر غرضاً جوهريًّا رئيساً يتعلق بمعاني الجمل، وقد يختلف المعنى اختلافاً كليًّا؛ لتقديم كلمة تارة، وتأخيرها أخرى، وقد يخفى ذٰلك على كثير من المتعلمين.

سألني يوماً أحدهم: إذا رضع طفل مسلم من امرأة غير مسلمة، أيكون بينه وبين أولادها أخوَّة؟

قلت: نعم، هم إخوته في الرضاعة.

فقال أحد جلسائنا ممن له قسط لا بأس به من التحصيل العلمي: كيف يكونون إخوته والله عز وجل يقول: ﴿إِنَّما المُؤمِنونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؟! أليست هٰذه الآية الكريمة تدلنا على غير ما قلت؟!

قلت له: ما أحوجك لدراسة موضوع القصر؛ إن الآية الكريمة جاءت تبيِّن للمؤمنين أن من شأنهم أن لا يكونوا متقاطعين متدابرين، فقد قصر المؤمنين على الأخوة، فالمؤمنون مقصور، وإخوة مقصور عليه، فالصفة التي ينبغي أن تكون بين المؤمنين قبل غيرها هي صفة الأخوة، كأنه قال: إنما المؤمنون إخوة لا متباعدون.

فالآية لا تنفي أن يكون بين غير المؤمنين أخوة، والمعنى الذي أشرت إليه يا صاحبي يصح ويصلح لو أن الآية الكريمة جاءت على غير هٰذا النظم، أي: لو أنه قيل: إنما الإخوة المؤمنون. فالمعنى حينئذ قصر الأخوة على المؤمنين، وكأن كل أخوة بين غير المؤمنين لا تسمى أخوة، ولكن القرآن الكريم لم يقل ذٰلك؛ لأن أسباب الأخوة من الدم والرضاعة وغيرهما من الأسباب لا ينكرها القرآن.

ذكرت لك هٰذه الحادثة لتدرك خطر القصر وغرضه الذي يؤديه من حيث المعنى،

وإذا عرفت هٰذا استطعت أن تعبر عن المعنى الذي تريد، فتختار له القالب الذي يناسبه من اللفظ؛ ليكون النظم صحيحاً غير فاسد.

فإذا أردت أن تبيِّن أن الجائزة مثلاً لفاطمة دون سعاد؛ فإنك تقول: إنما الجائزة لفاطمة. ولا يصح أن تقول: إنما لفاطمة الجائزة. والفرق بين الجملتين كبير، فقولنا: إنما الجائزة لفاطمة. يفهم منه قصر الجائزة على فاطمة؛ لأن (إنما) يليها المقصور - كما عرفت من قبل - فكأننا قلنا: إنما الجائزة لفاطمة لا لسعاد. ولو أننا قلنا: إنما لفاطمة الجائزة. فإن المعنى قصر فاطمة على الجائزة، فكأنما قلنا: إنما لفاطمة الجائزة لا التوبيخ ولا الرسوب.

ويمكنك أن تفهم قول الله تبارك وتعالى بعد ذٰلك: ﴿فإنَّما عليكَ البَلاغُ وعَلَيْنا الحِسابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله سبحانه: ﴿إنما السبيلُ على الذين يَسْتَأذِنُونَكَ وهُمْ أغْنِياءُ﴾ [التوبة: ٩٣]، ففي الآية الأولى تتبين أن (عليك) - وفيها ضمير الرسول ﷺ - مقصور، و(البلاغ) مقصور عليه، ومعنى هٰذا: إنما عليك البلاغ لا الحساب. ولو أنه قيل: إنما البلاغ عليك. لكان المعنى: البلاغ عليك لا على غيرك. وهٰذا المعنى لا تقصد إليه الآية الكريمة.

أما الآية الثانية: ﴿إنَّمَا السَّبِيلُ على الذين يَسْتَأذِنُونَكَ وهُم أغنياءُ﴾ [التوبة: ٩٣]؛ فهي تبين أن المسؤولية والإثم على الذين يستأذنون؛ ليقعدوا عن الجهاد - مع القدرة على أسبابه -، لا على الفقراء، ولو أنه قيل: إنما على الذين يَسْتَأذِنُونَكَ السبيل. لتغير المعنى تغيراً تاماً، إذ يؤول إلى أن عليهم السبيل لا الأجر ولا المدح.

والأمثلة التي مرت معك كان القصر فيها جملة اسمية يدور بين المبتدإ والخبر، تارة تقدم هٰذا، وتارة ذاك، حسب المعنى الذي تنظمه في نفسك، وتريد التعبير عنه.

والقصر كما يكون في المبتدإ والخبر؛ يكون كذٰلك في الجمل الفعلية بين الفاعل والمفعول، وبين المفعول الأول والثاني، وبين الحال وصاحبه؛ كل ذٰلك خاضع للمعنى الذي تريد التعبير عنه.

فإذا أردت أن تعبر عن أن الطلاب جاؤوا على أقدامهم، وأن واحداً منهم جاء راكباً فقط؛ فإنك تقول: ما جاء راكباً إلا أحمد. ولا تقول: ما جاء أحمد إلا راكباً.

وإذا أردت أن تبيِّن أنه لم يحفظ القصيدة سوى أمينة؛ فإنك تقول: ما حفظت القصيدة إلا أمينة. لكن إذا أردت أن تبيّن أن أمينة حفظت القصيدة، ولم تحفظ شيئاً من القرآن أو السنة؛ فإنك تقول: ما حفظت أمينة إلا القصيدة. وهٰكذا تقدم الفاعل أو المفعول به.

وإذا أردت أن تثبت أن الجائزة كانت لأحمد وحده؛ قلت: ما أعطيت الجائزة إلا أحمد. لكن حينما تريد أن تبين أنك أعطيت أحمد الكتاب لا الدينار، فإنك تقول: ما أعطيت أحمد إلا الكتاب.

وفي ضوء ما تقدم؛ تستطيع أن تفهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَن آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، ففي هاتين الآيتين الكريمتين قُدِّم المفعول على الفاعل.

وأما قوله سبحانه: ﴿إِنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»[1]؛ ففي هٰذين النصين قُدِّم الفاعل على المفعول.

فإذا قُدِّم المفعول على الفاعل؛ كان التركيز على الفاعل، وإذا قُدم الفاعل على المفعول؛ كان التركيز على المفعول.

فإن قلت: إنما حرر فلسطين صلاح الدين. كان التركيز على الفاعل، أي: إنما حررها صلاح الدين لا غيره. وإذا قلت: إنما يحرر المؤمنون فلسطين. كان التركيز عليها، أي: هي القضية الأولى التي ينبغي أن توجه إليها الأنظار، وتشدُّ من أجلها السواعد.

---

(١) «مسند أحمد بن حنبل» (٦ / ٤٤٦).

وعلى هٰذا الأساس نفهم قوله تعالى: ﴿إنَّما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: الذين يخشونه حق الخشية، فمعنى الآية أن العلماء هم الذين يخشون الله أكثر من غيرهم من الناس. ولو أنه قيل: إنما العلماء يخشون الله. لكان المعنى: إن العلماء يخشون الله ولا يخشون غيره. وليس هٰذا المعنى مقصوداً في الآية الكريمة، والدليل على ذٰلك أن السياق الذي جاءت فيه الجملة الكريمة؛ جاء يتحدث عن قضايا كونية لا يدركها إلا العلماء، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِن السَّماءِ ماءً فأخْرَجْنا بهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً ألوانُها ومِن الجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُها وغَرابيبُ سودٌ.ومِن النَّاسِ والدَّوابِّ والأنْعامِ مُخْتَلِفٌ ألوانُهُ كذٰلكَ إنَّما يَخْشى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلماءُ إنَّ اللهَ عزيزٌ غفورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

أما قوله: ﴿إنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، فإن التركيز فيه على الفاعل، وهم المؤمنون، ذٰلك أن الآية الكريمة جاءت ردًّا على المشركين الذين يزعمون أن لهم عمارة المسجد الحرام، فجاءت الآية؛ لتقول لهم: ليست العمارة ما تظنون، وإنما عمارة المساجد هي بالإيمان بالله واليوم الآخر، وإقامة الشعائر، وأداء الفرائض، فالآية الكريمة تقصر العمارة على المؤمنين، ولكنها لا تنفي عن المؤمنين أي نوع من أنواع العمارة في هٰذه الأرض، ولو أنه قيل: إنما يعمر المؤمنون مساجد الله. لكان المعنى أن المؤمنين لا يعنون بشيء غير المساجد، فهم تقتصر عمارتهم عليها دون غيرها، وهٰذا معنى غير صحيح؛ لأن المؤمن ينبغي أن يعمر دنياه وآخرته.

أما النصان الآخران اللذان قدم فيهما الفاعل: ﴿إنَّما حَرَّمَ رَبِّي الفَواحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣]؛ فلقد جاء ردًّا على الذين يحرِّمون على أنفسهم الطيبات من الرزق، والزينة الحلال، فجاءت لتقول لهم: إن ربنا لم يحرم هٰذا، بل حرم الفواحش وحدها، فما بالكم تحرمون ما أحل الله، وتحرمون ما حرم، ولو أنه قيل: إنما حرم الفواحش ربي. لكان المعنى: إن الفواحش حرمها الله لا غيره. وكان هٰذا ردًّا على الذين يدَّعون أنهم هم الذين حرموا الفواحش، وهٰذا غير مراد هنا.

أما قوله ﷺ: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»؛ فإنه جاء في شأن تحذير الأمة من الفرقة، وأمرها أن تكون موحدة الكلمة والوسائل والأهداف؛ فالتركيز في الحديث الشريف على القاصية، ولو أنه قيل: إنما يأكل القاصية الذئب. لكان التركيز على الفاعل، أي أن الذي يأكل الذئب، وليس الضبع أو الأسد، ولا يعقل أن يقصد الرسول ﷺ هٰذا المعنى؛ لأن التركيز على المأكول، وأيًّا كان الآكل فلا يضيرنا.

تقدُّم الفاعل والمفعول في القصر قضية لها شأن، ولعلك بعد هٰذا تدرك السر في بيت الفرزدق:

أنــا الـذَّائِـدُ الحـامي الـذِّمـارَ وإنَّمـا يُدافِــعُ عَنْ أحْســابِهِمْ أنــا أو مِثْلي

فلم يقل: وإنما أدافع عن أحسابهم. وليس هٰذا لضرورة الشعر؛ لأنه من حيث الوزن لا فرق بين (يدافع) و(أدافع)، لكنه قصد أن يقول بأن الذي يدافع عن أحسابهم أنا وليس غيري، ولو أنه قال: إنما أدافع عن أحسابهم أنا. لكان المعنى: أنا أدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم.

ولعلك تتساءل ما سرُّ هٰذا الاختلاف في المعنى واللفظ يكاد يكون واحداً؛ (يدافع)، و(أدافع)؟! أهو تغيير حرف المضارعة فقط؟! أفيكون هٰذا الاختلاف في المعنى بسبب حرف واحد؟!

وأقول لك: نعم. وتلك هي دقة النظم.

وكي تتصور الفرق جليًّا أصغِ إليَّ وتنبَّه لما أقوله لك، والله ييسر الأمر لي ولك:

الفعل المضارع يجب أن يكون مبدوءاً بأحد حروف مجموعة في قولنا: (أتينا)؛ الهمزة، والتاء، والياء، والنون، فالنون للجماعة؛ نأكل ونشرب، والتاء للمخاطب؛ تأكل وتقرأ، والمخاطبة؛ تأكلين وتقرئين، والهمزة للمتكلم؛ آكل وأشرب وأدرس، والياء للغائب؛ يأكل ويشرب.

ويعنينا الآن هٰذان الأخيران، أي: ما بُدِىء بالهمزة أو الياء.

فإذا كان الفعـل مبدوءاً بالهمزة؛ كان فاعله ضميراً مستتراً وجوباً، ومعنى كونه مستتراً: ليس ظاهراً. ومعنى قولنا: وجوباً: أي لا يجوز إبرازه أو ظهوره. فإذا قلت: أشرح للطلاب. فـ (أشرح): فعل مضارع. والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا.

أما الفعل المضارع المبدوء بالياء؛ فقد يكون فاعله ضميراً أو اسماً ظاهراً، مثال الاسم الظاهر: يشرح الأستاذ الدرس، ومثال الضمير المستتر: الأستاذ يشرح الدرس. فالفاعل ضمير مستتر يعود على الأستاذ، لكنه هنا مستتر جوازاً، لا وجوباً؛ لأنه يجوز أن يظهر في الكلام.

إذا فهمت هٰذا ـ وأرجو أن تكون كذٰلك ـ تستطيع الآن أن تفرق بين قولي: أدافع أنا. ويدافع أنا. فـ (أنا) في الجملة الأولى ـ (أدافع) ـ ليست فاعلاً؛ لأن فاعل (أدافع) ضمير مستتر وجوباً؛ كما عرفت، أما (أنا)؛ فهي تأكيد لهٰذا الفاعل المحذوف، وليست كذٰلك الجملة الثانية: (يدافع أنا)، فـ (أنا) هي الفاعل.

وعلى هٰذا (أدافع أنا)؛ فيها ضمير الفاعل ـ وهو المستتر وجوباً ـ والظاهر ـ وهو تأكيد له ـ أما (يدافع أنا)؛ فليس فيها إلا ضمير واحد، وهو الفاعل.

بعد هٰذا الشرح نرجع إلى قول الفرزدق: «يدافعُ عن أحسابِهِمْ أنا...»، ولم يقل: (أدافع)، ولقد شرحنا لك من قبل أن التركيز على المتأخر؛ فاعلاً كان أو مفعولاً.

خذ الآن كلمة الفرزدق: «يدافع عن أحسابهم أنا...»؛ تر أنه أخر الفاعل، فجملة (عن أحسابهم) بمنزلة المفعول، وهي متقدمة على الفاعل (أنا)؛ التركيز إذن هنا على الفاعل، أي: يدافع عن أحسابهم أنا لا غيري.

ومثـل هٰذا: إنمـا يعمُـر مساجد الله من آمن لا غيرهـم... وهٰذا الذي يريده الفرزدق؛ لأنه أولى بالمدح والفخر، وقد اشتهر به الفرزدق.

ولو قال: أدافع عن أحسابهم أنا. لفات هٰذا المعنى؛ لأن الفاعل متقدم، فهو ضمير مستتر، و (عن أحسابهم) متأخر عنه، فيكون التركيز عليه، ويصير المعنى: أدافع

عن أحسابهم لا عن غيرها. وشتان بين المعنيين.

وعلى هٰذا تقول: أدافع عن الحق أنا. إذا كنت ترد على الذي يتهمك أنك تدافع عن الباطل. لكن إذا أردت أن تبين أنك وحدك الذي تدافع عن الحق؛ قلت: يدافع عن الحق أنا.

هٰذا الاختلاف الكبير بين المعنيين جاء من تقديم الفاعل تارة، وتأخيره أخرى.

ونكتفي بما ذكرناه، ونرجو أن يكون في ذٰلك الكفاية والغنية.

□□□

تدريب

* بيِّن طرق القصر وأنواعه:

١ - قال تعالى: ﴿إنْ حِسابُهُمْ إلا على رَبي لَوْ تَشْعُرونَ﴾ [الشعراء: ١١٣].

٢ - قال تعالى: ﴿وما تَوْفيقي إلا باللهِ عليهِ تَوَكَّلْتُ وإليهِ أُنيبُ﴾ [هود: ٨٨].

٣ - قال تعالى: ﴿إنَّما يفتَري الكَذِبَ الذينَ لا يُؤمنونَ بآياتِ اللهِ وأولٰئكَ هُم الكاذِبونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

٤ - قال تعالى: ﴿للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

٥ - قال تعالى: ﴿إنَّما أمْوالُكُمْ وأولادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٦ - قال ﷺ: «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، وما دون ذٰلك فلغيرك»[١].

٧ - وقال ﷺ: «إنما أنا قاسمٌ، والله معطي»[٢].

٨ - قال لبيد:

وما المَرْءُ إلا كالهِلالِ وضَوْئِهِ ... يُوافي تَمامَ الشَّهْرِ ثُمَّ يَغيبُ

٩ - ليس عارٌ بأنْ يُقالَ فَقيرٌ ... إنَّما العارُ أنْ يُقالَ بَخيلُ

١٠ - قال ابن المعتز:

ألا إنَّما الدُّنيا بَلاغٌ لِغايَةٍ ... فإمَّا إلى غيٍّ وإمَّا إلى رُشْدِ

١١ - إنَّما يَشْتَري المَحامِدَ حُرٌّ ... طابَ نَفْساً لهُنَّ بالأثْمانِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد، حديث رقم (٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب خمس، باب: قول الله تعالى: ﴿فإن لله خمسه وللرسول﴾، حديث رقم (٢٩٤٨).

١٢ - ومِنَ البَلِيَّةِ عِذْلُ مَنْ لا يَرْعَوي عنْ غيِّهِ وخِطابُ مَنْ لا يَفْهَمُ

١٣ - إلى اللهِ أشْكو أنَّ في النَّفْسِ حاجَةً تَمُرُّ بها الأيامُ وهْيَ كَما هِيا

١٤ - قال المتنبي:

لَيسَ التَّعَجُّبُ مِن مَواهِبِ مالِهِ بلْ مِن سَلامَتِها إلى أوْقاتِها[1]

١٥ - قال ابن الرومي:

يَتَغابى لهُمْ ولَيْسَ لِمَوْقٍ بلْ لِلُبٍّ يَفوقُ لُبَّ اللَّبيبِ[2]

١٦ - قال ابن الرومي:

أمْوالُهُ في رِقابِ النَّاسِ مِن مِنَنٍ لا في الخَزائنِ مِن عينٍ ومِن نشبِ[3]

١٧ - ليسَ اليَتيمُ الذي قد ماتَ والِدُهُ بلِ اليَتيمُ يَتيمُ العِلْمِ والأدبِ

١٨ - قال الأبيوردي[4]:

لا تَصْطَنِعْ إلا الكِرامَ فإنَّهُمْ يُجازونَ بالنَّعماءِ مَنْ كانَ مُنْعِما

١٩ - لا يألف العلم إلا ذكي، ولا يجفوه إلا غبي.

* متى نقول:

إنما الكتاب لك. إنما لك الكتاب. ما الكتاب إلا لك. وما لك إلا الكتاب؟

---

(١) «ديوانه» (١/ ٣٥٣).

(٢) «ديوانه» (١/ ١١١).

الموق الحمق في غباوة.

(٣) العين: الذهب والفضة. والنشب: المال. يقول: إنه ينفق أمواله في المنن التي يقلد بها أعناق الرجال ولا يخزنها في خزانة.

والبيت في «ديوانه» (١/ ٢٠٤).

(٤) علي بن إسحاق الابيوردي، الحاوراني، أوحد الدين، شاعر حكيم، له ديوان شعر، توفي سنة (٥٥١ هـ). [المعجم: ٧/ ٣٣].

*** ما الفرق بين قولنا :**

إنما يحرر فلسطين المؤمنون . وإنما يحرر المؤمنون فلسطين؟

*** متى تقول لصاحبك :**

إنما يعشق المعالي الكريم . وإنما يحمل الحقد اللئيم؟

*** ومتى تقولين لصديقتك :**

إنما ترتدي الجلباب العفيفات . وإنما ترتدي العفيفات الجلباب؟

*** متى نقول :**

إنما جمع القرآن أبو بكر . وإنما جمع أبو بكر القرآن؟

*** هل صحيح قولنا :**

ما الكريم إلا التقي لا السخي .

إنما الكريم التقي لا السخي .

ما البطل إلا الشجاع لا الرياضي .

إنما البطل الشجاع لا الرياضي؟

□□□

الفصل التاسع

الفصل والوصل

وسوف نتناول هٰذا الموضوع المهم ضمن ستة مباحث رئيسة:

المبحث الأول: مدخل وتعريف؛ يتضمن بعض الأمور التي لا بد من معرفتها قبل الغوص في دقائق هٰذا الموضوع.

المبحث الثاني: أحوال الجمل.

المبحث الثالث: مواطن الفصل.

المبحث الرابع: مواطن الوصل.

المبحث الخامس: الجملة الحالية بالواو أو بغير الواو.

المبحث السادس: عطف الجمل.

□□□

□ المبحث الأول:

مدخل وتعريف

■ **تمهيد:**

إذ كنا في ما مضى لا نخرج في بحثنا عن الجملة الواحدة ـ كما رأيت ـ فإننا في هذا البحث سوف نخرج عما ألفناه، فلا نقتصر علىٰ الجملة الواحدة، بل سيكون بحثنا عن الجمل بعضها مع بعض؛ متى نصل إحداها بالأخرى؟ ومتى نقطعها عنها؟ إذ **الفصل؛ ترك العطف بين الجملتين، والوصل؛ هو عطف الجملة على الجملة بأحد حروف العطف، وهو الواو.**

ومن هنا احتلّ هٰذا الموضوع مكانة رفيعة في المباحث البلاغية، وكان له شأن عند البلغاء، ولكونه دقيق المسلك، لطيف المأخذ؛ جعله بعضهم حدًّا للبلاغة، وقصرها عليه؛ حينما سئل ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل. وتلك إشارة واضحة إلى العناية التي خُصَّ بها هذا المبحث.

ويقيننا أن قضية الفصل والوصل من أبرز القضايا المرتكزة على الذوق البياني؛ لما لها من صلة بالمعنى المراد، فكم من متكلم أفسد معناه بالوصل، ولم يكن حقه كذٰلك، أو بالفصل، والموضع موضع وصل! لذلك لم تكن قضية الفصل والوصل وأمرهما أمر حرف تُرك تارة ووُجد أخرى، بل هو أمر يتعلق بالمعنى الذي لا يصلح إلا بالوصل حيناً، وبالفصل آخر.

لذا وجدنا كثيراً من الإشارات فيما كتبه الجاحظ في «البيان والتبيين»، ثم نجدها على نطاق أوسع عند أبي هلال في «الصناعتين»، وفي هٰذه الإشارات نجد عناية الشعراء والأمراء والخلفاء بهٰذا الموضوع قبل عهد التدوين، وقبل أن تقعَّد القواعد.

وهذه الإشارات؛ بعضها يتحدث عن الفصل والوصل بهٰذا العنوان الذي استقر فيما بعد، وبعضها يتحدث عن التطبيق العملي لهٰذا المبحث دون ذكر له باسمه

وعنوانه؛ كما روي عن أبي بكر رضي الله عنه في الحادثة المشتهرة حينما قوَّم أحدَهم ـ وقد قال: لا، عافاك الله ـ فقال له: قل: لا، وعافاك الله.

■ فضل عبد القاهر:

كان هذا المبحث ـ إذن ـ يعتمد على الذوق قبل أن توضع له القواعد والضوابط، ولا نرتاب بأن أول من أبان عن أسراره، وكشف عن أكمام أستاره، وأسعد بشذا أزهاره؛ كان الإمام عبد القاهر ـ رحمه الله ـ في كتابه «دلائل الإعجاز».

صحيح أن الذين جاؤوا من بعده كان لهم ميزة الترتيب والتبويب، ولكنهم مع ذٰلك أقحموا مباحث، ووضعوا فصولاً؛ لم يكن لها ضرورة في هذا الموضوع؛ كما فعل السكاكي في مباحث الجامع بين الجملتين، حيث عدَّد أنواعه، وبنى على ذٰلك أموراً كان حريًّا بها أن لا تبحث في موضوع البلاغة، ثم نهج نهجه صاحب «التلخيص» الخطيب القزويني.

ولم يكن فضل عبد القاهر لحيازته قصب السبق فحسب، بل إن الإمام عبد القاهر كان أغنى غناء وأكثر ثراء؛ بما جاء به من أمثلة ونصوص ذات صلة بالسليقة والحقيقة، السليقةِ اللغوية، وحقيقةِ البيان العربي.

ونعجب من ابن السبكي في «شرحه للتلخيص» عند الحديث عن الفصل والوصل إذ يدَّعي أن أحداً لم يوف هٰذا الموضوع حقَّه من الكاتبين، ولم يبيِّنه بياناً تامًّا إلا السكّاكي في «مفتاحه»! وهٰذا أمر لا يمكننا أن نوافق شيخنا ابن السبكي عليه، فمباحث الفصل والوصل في «دلائل الإعجاز» إذا قيس بها غيرها؛ يتبيَّن منها أحوذية الرجل؛ لا لسبقه فحسب ـ كما قلت من قبل ـ، بل لمزايا أسلوبية كثيرة، يدركها من وقف على ما كتبه الشيخ عن كثب وقرب.

■ تعريف الفصل والوصل:

الفصل والوصل هو العلم بمواضع العطف، أو الاستئناف، والتهدِّي إلى كيفية

إيقاع حرف العطف في مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة إليها[1].

قال الشيخ عبد القاهر:

«اعلم أن العلم بما ينبغي أن يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى؛ من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتّى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلَّص، والأقوام الذين طُبعوا على البلاغة، وأتوا فنًّا من المعرفة في ذوق الكلام، هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدًّا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها، فقال: معرفة الفصل من الوصل. ذلك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد؛ إلا كمل لسائر معاني البلاغة»[2].

■ أمور أساسية تعين على فهم موضوع الفصل والوصل:

وقبل أن أحدثك عن مواطن الفصل والوصل؛ يجمل أن نقدم لذلك ببعض الأمور التي نرجو أن تجد فيها ما يسهّل عليك، وييسِّر لك تذوق هذا المبحث واستيعابه.

أولاً:

قبل البحث عن الجمل؛ نحدثك عن المفردات:

إذا ذكرت عدة صفات لموصوف واحد، فقد تعددها دون حرف عطف، فتقول: يعجبني الطالب المجتهد، السخي، الذكي، نقي القلب، طاهر الذيل، عزيز النفس. وتعجبني الطالبة العفيفة، الوقورة، المجتهدة، المبتعدة عن الشبهات. فأنت ترى أن هذه الصفات جميعاً؛ ذُكر بعضها إثر بعض؛ دون أن يتوسطها حرف من حروف العطف.

ولكننا قد نجد أنفسنا مضطرين أن نوسط حرف العطف بين بعض الصفات، أو

---

(١) «علوم البلاغة»، للمراغي، (ص ١٩٣).

(٢) «دلائل الإعجاز» (ص ١٧٠).

نجد أن ذلك يكون أحسن في النظم، وأجمل في الأداء، وفي الكتاب العزيز خير هاد، وأعظم معلم؛ اقرأ هذه الآيات:

* ﴿هُوَ اللهُ الَّذي لا إلٰهَ إلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللهُ الَّذي لا إلٰهَ إلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الخالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأسْمَاءُ الحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ ما في السَّمٰواتِ والأرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]

* ﴿هُو الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ وَهو بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ﴾ [الحديد: ٣].

* ﴿التَّائِبُونَ العابِدُونَ الحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢].

* ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أنْ يُبْدِلَهُ أزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّبَاتٍ وأبْكاراً﴾ [التحريم: ٥].

تأمل في الآيات الكريمة؛ تجد أن كل واحدة منها ذكرت فيها صفات متعددة، فالآيات الأولى ذكر فيها طائفة من أسماء الله تبارك وتعالى، ولكنها كلها جاءت دون حرف العطف، أما الآيات الأخر؛ فإنك ترى أن حرف العطف قد جاء في كل منها، وإذا نظرت إلى هذه الآيات الكريمة وجدت أن هذه الصفات منها ما هو متغاير بحسب الظاهر، فهي صفات متقابلة؛ كالأول والآخر، والظاهر والباطن، فإن هذه وإن كانت كلها لله تبارك وتعالى؛ إلا أن لكل منها معناه الخاص به، فالأول: الذي ليس قبله شيء، والآخر: الذي ليس بعده شيء، وكذلك الأمر والنهي، وهو ما جاء في الآية الكريمة: ﴿الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]، فالصفات التي ذكرت في الآية الكريمة كلها سردت دون حرف عطف؛ إلا هاتين الصفتين: الأمر والنهي.

ومنها ما هو متضادٌّ في الحقيقة والواقع؛ كالصفتين الأخيرتين في الآية الأخيرة، وهي قوله تعالى: ﴿ثَيِّباتٍ وأبْكاراً﴾؛ فإن جميع الصفات ذكرت على نسق واحد في

الآية الكريمة: ﴿مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ...﴾؛ إلا الأخيرتين - كما رأيت -.

من هنا تدرك أن هٰذه الصفات؛ إن كانت متضادة أو متقابلة - سواء كان ذٰلك في الظاهر، أم على سبيل الحقيقة - فإنك تأتي بحرف العطف، وإلا فلا داعي لهٰذا الحرف؛ كما رأيت في الأمثلة السابقة.

وهٰكذا تستطيع أن تبني كلامك على هٰذه القاعدة؛ تقول - مثلاً - تبدي إعجابك بأحد أصدقائك: إنه طالب ومدرس. كما تقول: أعان الله فلانة، فهي بنت وأم، طالبة ومدرسة[1].

ثانياً:

إذا أردت أن تأتي بأحد التوابع، وهي: النعت، والتوكيد، والبدل، وعطف البيان؛ لا يجوز أن توسط حرف العطف بين هٰذه التوابع والمتبوع؛ تقول: يعجبني الطالب المجتهد. وجاء الأستاذ نفسه. وأعجبتني الفتاة عفتها. رحم الله أبا حفص عمر. ولا يجوز أن نضع حرف العطف؛ فنقول: يعجبني الطالب والمجتهد... وهذا من بدهيات العلم، وإنما أوردناه مذكِّرين لما يُبنى عليه من قواعد في المبحث الذي نحن بصدده.

ثالثاً:

العطف يقتضي أمرين اثنين: التغاير والتشريك؛ فإذا قلت: نجحت سعاد وفاطمة. فإن هذا العطف يدلُّنا على أن فاطمة غير سعاد، ولكنهما اشتركتا في أمر، وهو النجاح، فإذا انتفى أحد هذين الأمرين - أعني: التغاير والتشريك - لم يحسن العطف.

أما أمر التغاير؛ فظاهر، إذ لا يصح عطف الشيء على نفسه أو على جزئه.

---

(١) وقد يؤتى بالواو بين صفات غير متضادة في الظاهر أو الحقيقة، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾ [آل عمران: ١٧]، وقوله: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وذلك لهدف بياني، وهو العناية بكل صفة من هذه الصفات، وقد فصلت هذا في كتاب الإعجاز

وأما أمر التشريك ـ ويسمونه الجامع ـ؛ فلا بد منه كذلك، فلا نستطيع أن نجمع بين أمرين ليس بينهما نوع من الصلة، ألا ترى أنك لا تقول: جاء خالد والحجر. فإنه؛ وإن وجد أحد شرطي العطف ـ وهو التغاير ـ؛ لكن انتفى الشرط الآخر، وهو الجامع.

رابعاً:

حروف العطف التي ذكرها النحاة كل واحد منها له مع دلالته على العطف معنى آخر، فالفاء تدل على الترتيب والتعقيب، و(ثم) للترتيب والتراخي، و(أو) للتخيير أو الشك، و(بل) للإضراب، و(حتى) للغاية، وبعض هٰذه الحروف للمفردات دون الجمل، وبعضها للجمل والمفردات معاً.

ولكن الواو وحدها من بين حروف العطف هي التي ليس لها أي معنى آخر؛ من هنا اختُصّت في مباحث الفصل والوصل، أما غيرها من الحروف، فلا يحتاج لكثير ذكاء؛ لأننا إذا أردنا التعقيب؛ جئنا بالفاء، أو التراخي؛ جئنا بـ(ثم)، أو الإضراب؛ جئنا بـ(بل)، أما الذي يدقُّ فيه المسلك، ويتسابق الأقران؛ فهو العطف بين الجمل بالواو.

خامساً:

الجمل قسمان:

١ ـ **جمل لها محل من الإعراب**: وهي الجمل التي تقع خبراً، أو حالاً، أو صفة، أو مفعولاً به، أو مضافاً إليها، أو جواباً لشرط جازم، أو التابعة لواحدة من هذه.

٢ ـ **جمل ليس لها محل من الإعراب**: وهي الابتدائية، والمعترضة، وصلة الموصول، والاستئنافية، والتعليلية، والتفسيرية، والواقعة جواباً للقسم ولشرط غير جازم، أو التابعة لواحدة من هٰذه

وكل هذا مفصل في علم النحو.

والفرق بين هٰذين النوعين، أن الحملة التي لها محل من الإعراب تسد مسد

المفرد؛ فإذا قلت مثلاً: أبصرت الشمس تغرب. فإن جملة (تغرب)؛ جملة حالية، ويمكن أن يسد مسدها المفرد، فتقول: أبصرت الشمس غاربة. وهكذا تقول في الجملة الواقعة خبراً؛ مثل: المصباح ضوؤه منير. الحركة تقوي العضلات. فتقول: المصباح منير الضوء. الحركة مقوية للعضلات.

أما الجملة التي ليس لها محل من الإعراب؛ فليست كذلك، أي: لا يسد مسدها المفرد.

وأكثر مباحث الفصل والوصل تتعلق بالنوع الثاني، ذٰلك أن النوع الأول ـ كما يقول الشيخ عبد القاهر رحمه الله ـ:

«حكمه حكم المفرد؛ لذٰلك يكون في العطف إذا أردت التشريك، ويكون هٰذا العطف من باب عطف المفرد على المفرد».

ويمثل الشيخ عبد القاهر رحمه الله بقولك: مررت برجل خُلُقه حسن وخَلْقه قبيح فهنا جملتان: الأولى: خُلُقه حسن. والثانية: خَلْقه قبيح. والجملة الأولى وقعت صفة لرجل، فلها محل من الإعراب إذن، وقد قصدنا التشريك بين الجملة الأولى والثانية، وذٰلك لأننا نتحدث عن رجل جمع بين هاتين الصفتين؛ حسن الخُلُق، وسوء الخَلْق. وهٰذا النوع كثير، والأمر فيه يسير.

ويحسن موقع العطف بين هاتين الجملتين إذا قصدت التشريك بينهما؛ كالمثال المتقدم، ويزداد هٰذا العطف حسناً:

١ ـ إذا كان في الكلام ما يشبه التضاد.

٢ ـ أو أردت ذكر أمرين لا يُتصور فصل أحدهما عن الآخر.

مثال النوع الأول قولك: هو يعطي ويمنع، ويضع ويرفع، ويحل ويعقد، ويحسن ويسيء، ويروح ويجيء. فإن العطف يحسن ويجمُل بين هٰذه الجمل، فقولك: هو يعطي ويمنع. الجملة الأولى (يعطي)؛ وقعت خبراً لـ (هو)، فهي في محل

رفع، وقولك: (ويمنع) جملة معطوفة عليها، داخلة في حكمها.

ومما حسَّن فيه الواو؛ زيادةً على ما مر ـ أي: وجود ما يشبه التضاد ـ هو أنك إذا حذفت الواو، فقلت: يعطي يمنع، يحسن يسيء. يمكن أن توهم في كلامك بأنك غلطت، أو تراجعت، فقلت أولاً: يعطي. ولكنك أردت أن تتراجع عن هذا القول، فقلت: يمنع. ترك العطف يسبب هذا الإيهام، ومن هنا جاء هذا العطف في موضعه وموقعه؛ كما رأيت.

ومثال الثاني وهو الجمع بين أمرين ـ لا تريد انفراد أحدهما عن الآخر؛ قولك: عجبت من أنني أحسن إليه ويسيء إلي[1]. فأنت لا تعجب من الإحسان وحده، ولا من الإساءة وحدها، إنما الذي جعلك تقف مشدوهاً حائراً أنك تحسن وهو يسيء.

ومنه قوله سبحانه: ﴿وَيا قَوْمِ ما لي أَدْعُوكُم إلىٰ النَّجاةِ وتَدْعُونَني إلىٰ النَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، ومثل هذا قولك. إنني أعطيه ويمنعني، وأقبل ويدبر. ومنه قوله تبارك وتعالى يحذر المؤمنين من أن يتخذوا بطانة من دونهم: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤمِنُونَ بِالكِتابِ كُلِّهِ وإذا لَقُوكُمْ قَالوا آمَنَّا، وإذا خَلَوا عَضُّوا عَليكُمُ الأنامِلَ مِنْ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُم﴾، وكأنه قال: «تؤمنون بكتبهم ولا يؤمنون بكتابكم».

ومن هذا قول حافظ:

أمِنَ العَدْلِ أنَّهم يُطْلِقونَ الأسدَ منهُم وأن تُقَيَّدَ أُسْدي
أمِنَ الحقِّ أنَّهم يردونَ الماءَ صَفْواً وأن يُعَكَّرَ وِرْدي

وقريب من هذا قول الآخر:

يَداك يَدٌ خيرُها يُرْتَجى وأُخْرى لأعدائِها غائِظَهْ

---

(١) وهاتان جملتان لهما محل من الإعراب كذلك، أي: من إحساني وإساءتي.

ومما لطف فيه موقع العطف؛ قول الفضل بن العباس[1] ـ وهو قول نرجو لأمتنا أن تتأسى به ـ:

لا تَطْمَعوا أنْ تُهينونا ونُكْرِمَكُم وأنْ نَكُفَّ الأذى عنكُم وتُؤْذونا[2]

هٰكذا ينذر الشاعر أعداءه، وخصومه، وخصوم قومه؛ بأنهم لن يعطوا من أنفسهم الدنية، ولن يقبلوا بإهانة عدوهم، ولن يقفوا مكتوفي الأيدي؛ فيقابل الإهانة بالإكرام، والأذى بالإحسان.

ومثل هذا العطف في جماله وحسن موقعه؛ قول أبي تمام:

لَهانَ عَلَيْنا أنْ نَقولَ وتَفْعلا ونَذْكُرَ بعضَ الفَضْلِ منكَ وتَفْضُلا[3]

فهو يود أن يجمع بين أمرين: القول منه، والفعل من ممدوحه، وذكره للمناقب والفضائل، وبذل ممدوحه وتفضله.

كل هٰذا في الجملة التي لها محل من الإعراب؛ كما رأيت.

وقد رأيت أن العطف يحسن إذا قصد التشريك بين الجملتين، ويزداد حسناً في مواطن من القول ـ كما مرَّ معك ـ، ولكن إذا لم يكن هناك تشريك بين الجملتين، أي: لم يكن هناك أمر جامع بينهما، وكان معنى الثانية بعيداً كل البعد عن معنى الأولى وسياقها؛ فإن العطف يقبح، فإذا قلت لصاحبك: قلت: إن المتنبي شاعر وأمريكا غزت جزيرة غرينادا. فأنت ترى أن هٰذا كلام بعيد بعضه عن بعض، غير مقبول ولا مستحسن، ومن هنا شُهِّر بأبي تمام، وعيب عليه قوله:

(1) الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب من قريش، شاعر من فصحاء بني هاشم، كان معاصراً للفرزدق والأحوص، ومدح عبدالملك بن مروان، وهو أول هاشمي مدح أمويًا بعد ما كان بينهما، فأكرمه، وكان شديد السمرة، جاءته من جدته، وكانت حبشية، وكان يقال له: الأخضر، توفي سنة (٩٥ هـ). [الأعلام: ٥/ ١٥٠].

(2) «خزانة الأدب» (٨/ ٣٢٧)، «الدلائل» (٢٢٦).

(3) «الديوان» (ص ٣٥٢).

لا والـذي هُو عالِـمٌ أنَّ الـنَّـوى صَبْـرٌ وأنَّ أبـا الـحُـسَـيْنِ كَريمُ[1]

فقوله: «أن النوى صبر»؛ جملة في محل نصب؛ لأنها وقعت مفعولاً به، ويقصد بها مرارة النوى والفراق؛ يقول: لا، والذي هو عالم مرارة الفراق والبعد وكرم أبي الحسين. وأنت تعرف أنه لا مناسبة من قريب أو بعيد بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين.

إذن الجملة التي لها محل من الإعراب؛ إن ذكرت بعدها جملة أخرى؛ يؤتى بالواو؛ إذا قصد التشريك، ويحسن العطف؛ إن كان ما يشبه التضاد، أو أردت ذكر أمرين لا تفرد أحدهما عن صاحبه.

أما إذا لم يكن بينهما تشريك؛ فيقبح العطف؛ كالمثال السابق وبيت أبي تمام.

وخلاصة الأمر أن ليس هناك خفاء في الجمل التي لها محل من الإعراب، إنما الخفاء في النوع الثاني، وهو ما سأحدثك عنه.

قال الشيخ في «دلائل الإعجاز»:

«والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني، وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى؛ كقولك: زيد قائم، وعمرو قاعد. والعلم حسن، والجهل قبيح. لا سبيل لنا إلى أن ندَّعي أن الواو أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه، وإذا كان كذلك؛ فينبغي أن تعلم المطلوب من هذا العطف، والمغزى منه، ولِمَ لم يستو الحال بين أن تعطف، وبين أن تدع العطف، فتقول: زيد قائم، عمرو قاعد[2]؟ بعد أن لا يكون هنا أمر معقول يؤتى بالعاطف؛ ليُشرِك بين الأولى والثانية فيه»[3].

وهذا ما سنحدثك عنه إن شاء الله في المباحث التالية:

---

(1) «ديوانه» (ص ٢٩٩).

(2) ذلك لأن (زيد قائم)؛ جملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب، و(العلم حسن) كذلك.

(3) (ص ١٧١، ١٧٢)

□ المبحث الثاني

أحوال الجمل

الجملة مع الجملة ليستا شيئاً واحداً في جميع الأحوال، فقد يكون بين الجملتين اشتراك في المعنى، فتقع الجملة الثانية من الأولى كأنها هي أو جزء منها، فليس بينهما تغاير؛ لأن الثانية ليست أجنبية عن الأولى.

وقد يكون الأمر على العكس من ذلك، فنجد أن بين الجملتين تغايراً تامًّا؛ لا تمتُّ إحداهما إلى الأخرى بأيِّ نسب أو رابطة؛ من حيث المعنى، أو حيث الصورة اللفظية، وكأنهما يصدق عليهما قول عمر بن أبي ربيعة:

أيُّها المُنْكِحُ الثُّريَّا سُهَيْلا عَمْرُكَ اللهُ كيفَ يَجْتَمِعانِ

تِلْكَ شامِيَّةٌ إذا ما اسْتَهَلَّتْ وسُهَيْلٌ إذا اسْتَقَلَّ يَمانِ[1]

وهنا نوع ثالث من الجمل؛ نجده وسطاً بين النوعين السابقين، ففي هٰذا؛ الجملة الثانية فيه ليست مماثلة للأولى، ولا مشاركة لها في معناها، ولا هي جزء منها؛ كما هو حال النوع الأول، وليست بعيدة عنها كل البعد؛ لا رابطة بينهما ولا صلة؛ كما هو حال النوع الثاني، ولكننا نجد في هٰذا النوع تغايراً، ومع هٰذا التغاير روابط وصلات ومعنى مشتركاً أو جامعاً؛ كما هي التسمية الاصطلاحية بين هاتين الجملتين، وإليك الأمثلة لكل من هذه الأقسام:

*** أمثلة النوع الأول:**

١ ـ إنه تقي، إنه يقوم الليل.

---

(١) «العمدة» (ص٢٧٩)، «غريب الحديث» (١/ ٣٧٧)؛ قال أبو عبيد: «فجعل النجوم لهما مثلاً؛ لاتفاق أسمائهما بالنجوم، ثم قال: هي شآمية. يعني: الثريا التي في السماء، وذٰلك أن الثريا إذا ارتفعت؛ اعترضت ناحية الشآم مع الجوزاء، حتى تغيب تلك الناحية. قال: وسهيل إذا استقل يماني؛ لأنه يعلو من ناحية اليمن، فسمى تلك شآمية، وهٰذا يمانياً، وليس منهما شآمي ولا يمان، إنما هما نجوم السماء، ولكن نسب كل واحد منهما إلى ناحيته».

٢ ـ إنها ذات دين، إنها تلبس الجلباب.

٣ ـ صاحبك وطني، إنه لا يفشي لأعدائه سرًّا.

٤ ـ سناء ذكية، كانت الأولى في امتحانها النهائي.

الجملة الثانية في هٰذه الأمثلة الأربعة؛ إذا تأملتها؛ وجدت أنها ليست أجنبية عن الجملة الأولى، فإن قيام الليل في المثال الأول ليس أمراً مغايراً للتقوى، وكذلك لبس الجلباب في المثال الثاني، وكذلك المثالان الأخيران.

* **أمثلة على النوع الثاني:**

١ ـ خرجت من بيتي صباحاً. أصدق بيت في الشعر بيت لبيد.

٢ ـ الجو السياسي ملبَّد بالغيوم. أغزل بيت في الشعر بيت جرير.

٣ ـ العربية لغة الإيجاز والموسقة في اللفظ. الزنوج في أمريكا ينافحون لنيل حقوقهم.

إذا نظرت لهذه الأمثلة الثلاثة؛ تجد أن الجملة الثانية لا صلة لها مطلقاً بالجملة الأولى، فهي على النقيض تماماً من القسم الأول.

* **أمثلة على النوع الثالث:**

١ ـ الجاحظ كاتب، والمتنبي شاعر.

٢ ـ الإيمان حياة، والكفر موت.

٣ ـ الوحدة قوة، والتفرق ضعف.

هٰذه الأمثلة؛ كما ترى؛ الجملة الثانية فيها مغايرة للأولى، ولكنك مع ذٰلك ترى جامعاً بين الجملتين، فالعقل لا ينكر الصلة بين الكتابة والشعر، وبين المتنبي والجاحظ، وبين الإيمان والكفر، والحياة والموت.

ونذكرك بما بُيِّن لك من قبل، من أن العطف؛ حتى يكون في موقعه، ويحسن

في موضعه، يتطلب أمرين اثنين: التغاير والاشتراك؛ كما سبق في المبحث الأول.

ولما كان النوع الأول من الجمل متماثلاً ليس بينه تغاير، وكان النوع الثاني متغايراً ليس بينه اشتراك؛ فإن العطف لا ينبغي، ولا يحسن؛ لأنه فقد في كل نوع من هٰذين أحد شرطيه، ففي النوع الأول لا تغاير، والعطف يقتضي التغاير، وفي النوع الثاني ليس هناك اشتراك بين الجملتين، والعطف يقتضي الاشتراك.

العطف إذن لا يحسن إلا في النوع الثالث من الجمل، وذٰلك لتحقق شرطيه في هٰذا النوع. قال الشيخ عبد القاهر رحمه الله:

«وإذ قد عرفت هٰذه الأصول والقوانين في شأن فصل الجمل ووصلها، فاعلم أنا قد حصلنا من ذٰلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب:

جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها العطف ألبتة؛ لشبه العطف فيها ـ لو عطفت ـ بعطف الشيء على نفسه.

وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله، إلا أنه يشاركه في حكم، ويدخل معه في معنى؛ مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلاً، أو مفعولاً، أو مضافاً إليه؛ فيكون حقها العطف.

وجملة ليست في شيء من الحالين، بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم؛ لا يكون منه في شيء، فلا يكون إياه، ولا مشاركاً له في معنى، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به، ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله؛ لعدم التعلق بينه وبينه رأساً، وحق هذا ترك العطف ألبتة.

فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين، فاعرفه»[1].

يسهل عليك الآن ـ إذن ـ أن نحدد لك مواطن الفصل، ومواطن الوصل كذلك.

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص ١٨٧).

◻ المبحث الثالث:

مواطن الفصل

■ أول موجبات الفصل؛ كمال الاتصال:

أن يكون بين الجملتين كمال اتصال، ويعنون بهٰذا الاصطلاح أن تكون الثانية متصلة بالأولى اتصالاً كاملاً تامًّا، وهٰذا يندرج تحته صور متعددة:

١ ـ أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى:

والتأكيد ـ كما نعلم ـ هو تحقيق المعنى الذي دلَّ عليه لفظ سابق بلفظ جديد، والدافع لهٰذا التأكيد دفع توهم التجوُّز أولاً، ودفع توهُّم الغلط ثانياً، وهٰذا أمر قُرِّر في علم النحو.

وقد قرر النحويون أن التأكيد قسمان:

أ ـ تأكيد لفظي: ويكون بإعادة اللفظ نفسه، مثل: جاء جاء أخوك. اقرأ اقرأ كتاب الله. الوطنَ الوطنَ لا تفرط في حقه.

٢ ـ تأكيـد معنـوي: وله ألفاظ مخصوصة، مثل: جاء القائد نفسه. ومنه قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[1] [الحجر: ٣٠].

والتأكيد الذي نتحدث عنه هنا ليس هو الذي تحدث عنه علماء النحو، إنما هو أن تأتي الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى من حيث معناها، وإليك أمثلة على هٰذا النوع:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ ذٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلمُتَّقينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

---

(١) لكل من هاتين الكلمتين (كلهم) و(أجمعون) فائدة، فـ(كلهم) تدل على الشمول، أي: لم يتخلف منهم واحد. و(أجمعون) تدل على اجتماعهم في السجود، أي: سجدوا مجتمعين في وقت واحد ولحظة واحدة.

هٰذه جمل أربع ؛ جاءت كل واحدة منها مؤكدة للتي قبلها، فقوله تعالى: ﴿ذٰلك الكتاب﴾؛ جاءت عقب قوله ﴿الٓم﴾، فإن معنى ﴿الٓم﴾؛ إشارة إلى أن القرآن يتكون من هٰذه الحروف التي تنطقون بها. وقوله سبحانه: ﴿لا ريبَ فيه﴾؛ تأكيد لـ﴿ ذٰلكَ الكتابُ﴾؛ لأن معنى ﴿ذٰلك الكتاب﴾؛ أي: الكتاب في علو الشأن، وبعد المنزلة، والسمو، والرفعة، وإذا كان كذٰلك؛ فلا ينبغي أن يكوْن فيه أي نوع من أنواع الريب. وقوله سبحانه: ﴿هُدىً للمتَّقينَ﴾؛ تأكيد لقوله سبحانه: ﴿لا ريبَ فيه﴾؛ لأن الغرض الأسمى من الكتب السماوية أن تكون هداية.

فانظر إلى هٰذا الترتيب البديع، وقد جاءت كل جملة تؤكد سابقتها بتقوية المعنى[1].

وقال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ كَفَروا سَواءٌ عَليهِمْ أأَنْذَرْتَهُمْ أمْ لَم تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنونَ﴾ [البقرة: ٦]، فإن قوله تعالى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾؛ جاء تأكيداً لقوله سبحانه: ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أأَنْذَرْتَهُمْ أمْ لمْ تُنْذِرْهُمْ﴾؛ لأن معنى هٰذه الجملة: إنذارك وعدمه سواء. فجاءت الجملة الثانية مؤكدة هٰذا المعنى، مع زيادة تقرير له، وهو أنهم لا يؤمنون.

ومثل هٰذا قوله تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقولُ آمَنَّا باللهِ وباليَومِ الآخِرِ وَما هُمْ بمُؤمنينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[البقرة: ٨-٩]،فإن قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾؛ جاء تأكيداً للجملة الأولى؛ لأن معنى الجملة الأولى أنهم يدَّعــون الإيمان بألسنتهم، وهم في الحقيقة ليسوا كذٰلك، فجاءت الجملة الثانية: ﴿يُخَادِعُونَ﴾ تأكيداً لهٰذا المعنى، ولكن فيها زيادة تقرير له، وهو أنهم يقصدون بقولهم هٰذا خداع الله والمؤمنين.

---

(١) قسم الشيخ عبد القاهر هذا التأكيد إلى لفظي ومعنوي، وفرق بينهما بأن اللفظي يكون معنى الجملة الثانية فيه معنى الأولى تماماً، مثل: ﴿لا ريب فيه﴾؛ بعد ﴿ذلك الكتاب﴾، أما المعنوي؛ فليس معنى الجملة الثانية والأولى شيئاً واحداً، بل هو تقرير له، وفي الثانية زيادة، وذلك مثل قوله: ﴿هدى للمتقين﴾؛ بعد قوله: ﴿لا ريب فيه﴾.

ومثل هـذا قوله سبحانه: ﴿وإذا لقوا الذينَ آمنُوا قالوا آمنَّا وإذا خلَوا إلى شياطينهمْ قالوا إنا مَعَكُم إنما نحنُ مُستَهزئون﴾ [البقرة: ١٤]، فقوله: ﴿إنما نحنُ مُستَهزئون﴾؛ ليست إلا تأكيداً لما قبلها، فإن قولهم للمؤمنين: ﴿آمنَّا﴾، وقولهم لشياطينهم: ﴿إنا مَعَكُم﴾؛ لا يعدو أن يكون نوعاً من الاستهزاء، لكن الجملة الأخيرة فيها زيادة تقرير على ما جاء في الجملة الأولى.

ومن بديع هذا القسم قوله سبحانه: ﴿وقُلْنَ حاشَ لله ما هذا بَشَراً إن هذا إلا مَلَكٌ كَريمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، فإن قولهن: ﴿إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ﴾؛ تأكيد للجملة التي قبلها: ﴿ما هذا بشراً﴾، ونحن نعلم أننا حينما ننفي البشرية في شخص ما في حالة المدح والثناء، فليس معنى ذلك إلا أننا نُدخلهُ في زمرة الملائكة.

ومما جاء في التنزيل كذلك: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيهِ آيَاتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ [لقمان: ٧]، فإن قوله سبحانه: ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها﴾؛ يدل على عدم فائدته من الاستماع، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾؛ تأكيد لهذا المعنى، فيه زيادة تقرير، بما بيَّنته من وجود الوقر في أذنيه.

ومن هذا قوله ﷺ: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله»[١]، فإن الجملة الثانية جاءت تأكيداً للجملة الأولى.

ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

أصونُ عِرْضي بمالي لا أدَنِّسُهُ لا بارَكَ اللهُ بعدَ العِرْضِ في المالِ[٢]

فإن قوله: «لا أدنسه»؛ جملة فُصلت عن سابقتها؛ لأنها جاءت تأكيداً لها، فإن عدم التدنيس ليس إلا صون العرض.

ومن هذا قول الشريف الرضي:

---

(١) «سنن ابن ماجه»، باب: صفة الإمام، كتاب الجهاد، حديث رقم (٢٨٥٨).

(٢) «ديوانه» (ص١٩٠)، دار بيروت للطباعة والنشر.

أعَـلِمْـتَ مَنْ حَمَلُوا على الأعْـوادِ   أرَأيْتِ كيفَ خَبا ضياءُ الـنـادي[1]

فإن الشطر الثاني جاء تأكيداً للشطر الأول؛ لأن الهدفَ من كل منهما التحسر والتوجع.

ومنه قول المتنبي في ذلك:

ومـا الـدَّهْـرُ إلا مِن رواةِ قَصـائِـدي   إذا قُلتُ شِعـراً أصْبَحَ الدَّهرُ مُنْشِدا[2]

فإن الجملة الثانية ليست إلا تأكيداً للجملة الأولى، فإن كون الدهر من رواة قصائده، ليس لها معنى إلا أنه ينشد شعره، وهذه هي مهمة الراوي.

وكذلك قوله:

الـرَّأْيُ قَبْـلَ شَجـاعـةِ الشُّجْعـانِ   هُوَ أوَّلٌ وهِـيَ الـمَـحَـلُّ الـثَّـانـي[3]

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الكافِرينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ [الطارق: ١٧]، فإن الجملة الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾؛ جاءت تأكيداً لفظيًّا للجملة التي قبلها.

٢ ـ ومن كمال الاتصال كذلك أن تقع الجملة الثانية بدلاً من الجملة الأولى:

وذلك لكونها أدل على الغرض، وأوفى بالمطلوب من جهة، وللعناية بشأنها من جهة أخرى.

وقد قسم النحويون البدل أقساماً كثيرة: **البدل المطابق**، وهو المسمى بدل الكل من الكل، وهذا لا يتحدث عنه البلاغيون. ولقد وهم الأستاذ المراغي صاحب علوم البلاغة رحمه الله حينما ذكره ومثَّل له، وسننبهك له إن شاء الله.

والذي يعني البلاغيين قسمان فقط: **بدل الاشتمال، وبدل بعض من الكل**.

---

(١) «الديوان» (١/ ٣٨١).

(٢) «ديوان المتنبي» (٢/ ١٤).

(٣) «الديوان» (٤/ ٣٠٧).

وقبل أن نمثل لهما؛ ننبهك إلى الفرق بين هٰذين القسمين، ففي بدل بعض من الكل، يكون المبدّل جزءاً من المُبدل منه، فإذا قلت: أكلت الرغيف ثلثه. أعجبني الطفل وجهه. فإن الثلث داخل في مفهوم الرغيف، وإن الوجه داخل في مفهوم الطفل؛ لأننا لا نتصور طفلاً بدون وجه.

وأما بدل الاشتمال؛ فهو ما كان المبدل منه ليس داخلاً في مفهوم البدل؛ كما تقول: أعجبني خالد رأيه. سرَّني عمر شجاعته. نفعني أحمد علمه. فإن كلاً من الرأي، والشجاعة، والعلم؛ ليست داخلة في مفهوم المبدل منه؛ لأننا يمكن أن نتصور خالداً وعمر وأحمد بدون هذه الأمور.

فمثال ما كانت الجملة الثانية فيه بدل بعض من كل: ﴿واتَّقُوا الذي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٣]، فإن قوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛ جملة لا محل لها من الإعراب؛ لأنها صلة الموصول، وقوله: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾؛ بدل منها؛ لأن الأنعام والبنين من جملة ما يعلمون، وإنما خصَّها ونصَّ عليها هنا للعناية بشأنها؛ لكونها أدل على المقصود، وألزم للحجة، وكونها أوفى بالغرض المقصود من الآية.

ومنه قوله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ [الرعد: ٢]؛ لأن تفصيل الآيات جزء من تدبير الأمر، فهو بدل بعض من كل.

ونعد من هٰذا القبيل قوله سبحانه: ﴿يَسومونَكُمْ سُوءَ العَذابِ يُذَبِّحونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]؛ لأن تذبيح الأبناء جزء من سومهم العذاب، وهو أدل على المقصود من الامتنان بالنعمة[١].

---

(١) جاء في آية كريمة: ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم﴾ [إبراهيم: ٦]، وهذه الآية جاءت حديثاً على لسان موسى عليه السلام، والآيات التي جاءت بدون الواو امتنان من الله تبارك وتعالى، ومجيء الواو - كما في سورة إبراهيم - يدلُّ على أن كلاً من السوم والتذبيح أمر مستقل بذاته، وهو المناسب لذكر النعمة التي ذكَّر بها موسى عليه السلام قومه. وذهب بعض =

ومن هذا القبيل ما تقوله لأخيك أو ابنك: حافظ على صحتك، نظف أسنانك. فإن تنظيف الأسنان جزء من المحافظة على الصحة، وهذه الجملة بدل من التي قبلها.

كذلك قولك: تجولت كثيراً، ذهبت إلى مصر. فإن قولك: ذهبت إلى مصر. بدل من الجملة التي قبلها.

وقولك: كسوت زينب، اشتريت لها نقاباً. فإن الجملة الثانية - كما ترى - بدل من الأولى.

أما بدل الاشتمال؛ فقد مثلوا له بقوله تعالى: ﴿وجاءَ من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال يا قَوْمي ٱتَّبِعُوا المُرسلين. أتبعوا مَن لا يسألُكُم أجْراً﴾ [يس: ٢٠-٢١]، فقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾؛ بدل من قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وإنما ذكرت هٰذه الجملة البدلية؛ لأنها أوفى بالغرض من حيث ما تحمله من ترغيب على الاتباع؛ لأن اتِّباع المرسلين الذين لا يسألون أجراً فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم.

وإنما كان هٰذا بدل اشتمال؛ لأن عدم سؤال الأجر ليس داخلاً في مفهوم الرسالة، فإن مفهوم الرسول مَن أرسل لتبليغ الناس رسالة الله.

ومن هذا قول الشاعر:

أقـولُ لهُ ٱرْحَـلْ لا تُقيمَنَّ عنْـدَنـا ... وإلا فَكُنْ في السِّرِّ والجَهْرِ مِسْلِما[1]

فإن قوله: «لا تقيمنَّ»؛ بدل اشتمال من قوله: «ٱرحل»، وهي أدل على المعنى؛ لأن الرحيل يشتمل على عدم الإقامة.

ومثل هذا قولك لزميلك: قلت لك ادرس لا تضيعن وقتك. وقولك: احترم الناس

= الكاتبين إلى أن قوله تعالى: ﴿يذبحون أبناءكم﴾؛ عطف بيان، وليست بدلاً.
وقد فصلت لك هذا في كتاب «الإعجاز».

(١) «خزانة الأدب» (٨/ ٤٦٣)، «حاشية الأشموني» (٣/ ١٣٢)، «المعاهد» (١/ ٩٤)، «شرح شواهد المغني» (١/ ٣٠٠)، والبيت لم يعرف قائله.

لا تحقرنَّ أحداً. تواضع لا تتكبر. استري نفسك لا تظهري بمظهر غير لائق.

٣ ـ أن تكون الجملة الثانية عطف بيان للأولى:

وبين البدل وعطف البيان تشابه[١]، وبينهما فروق كذلك ذُكرت في علم النحو، إلا أنّا نذكرك هنا أن عطف البيان ليس هو المقصود بالحكم كالبدل، المقصود هو المبيَّن، ولكن عطف البيان جاء توضيحاً وزيادة في البيان فحسب.

والمثال الذي يذكرونه لعطف البيان قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إليهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه: ١٢٠]، فإن قوله تعالى: ﴿قالَ يَا آدَمُ﴾؛ عطف بيان لقوله سبحانه: ﴿فوسوس﴾، جاءت لبيان الوسوسة وتوضيحها، لكن المقصود هو الوسوسة التي كانت من إبليس لآدم عليه السلام.

ومن هذا القبيل قول المعري:

النَّـاسُ للنَّـاسِ مِن بَدْوٍ وحـاضِـرَةٍ   بعضٌ لبَـعْضٍ وإنْ لَمْ يَشْعُـروا خَدَمُ

فإن قوله: «بعض لبعض»؛ بيان لقوله: «الناس للناس».

وعدُّوا من هٰذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوى.إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحى﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]؛ فجعلوا قوله سبحانه: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾؛ بيان لقوله سبحانه: ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوى﴾.

ومن عطف البيان قول النابغة الذبياني يرثي أخاه من أمه:

حَسْبُ الخَليلَيْنِ نَأْيُ الأرضِ بَيْنَهُمـا   هٰذا عليهـا وهٰـذا تَحْـتَـهـا بالـي

فإن قوله: «هذا عليها»؛ بيان لقوله: «حسب الخليلين».

---

(١) إذا قلت: قام زيد أخـوك. (أخـوك)؛ يجـوز أن تكـون بدلا، أو عطف بيان، والفـرق بين الإعرابين فرق دقيق يحتّمه المعنى، فإذا كان المقصود زيداً؛ كانت (أخوك) عطف بيان، أما إذا كان المقصود أخاك؛ فإنه يعرب بدلاً.

ومن هذا قوله:

يداكَ يدٌ خَيْرُها يُرْتَجى وأخرى لأعْدائِها غائِظَهْ

فإن قوله: «يد»؛ عطف بيان لقوله: «يداك».

هذا هو السبب الأول من الأسباب الموجبة للفصل، وقد رأيت فيه أن الجملة الثانية كانت متصلة بالأولى اتصالاً تامًّا كأنها هي، ومن أجل ذلك قيل: إن بين الجملتين كمال اتصال.

■ ثاني موجبات الفصل: شبه كمال اتصال:

ومعنى هٰذا أن تأتي الجملة الثانية جواباً عن سؤال فُهِم من الجملة الأولى، وهٰذا هو الغالب الأكثر، وقد يكون السؤال مذكوراً صراحة في الجملة الأولى، وهٰذا كثير في كتاب الله تعالى، وفي كلام سيد البلغاء ﷺ، وفي الكلام الجيد.

فمن ذٰلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيَ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فإن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾؛ إنما جاءت جواباً عن سؤال فُهِم من قوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾، كأنه قيل: ولم لا تبرىء نفسك ـ إن كان **الكلام ليوسف**ـ؟ أو: لم لا تبرئين نفسك ـ إن كان الكلام لامرأة العزيز ـ؟

ومما لطف موقعه، وحسن موضعه من الاستئناف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الذِينَ أُوتوا نَصِيباً مِنَ الكِتابِ يَشْتَرونَ الضَّلاَلَةَ وَيُريدونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبيلَ﴾ [النساء: ٤٤]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلىٰ الَّذِينَ أوتوا نَصيباً مِنَ الكِتابِ يُؤمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وفي آية ثالثة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنوا بِما أُنْزِلَ إِلَيكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُريدونَ أَنْ يَتَحاكَموا إِلى الطَّاغوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

فأنت ترى أن هٰذه الآيات الثلاث ابتدأت بهذا الاستفهام التقريري الذي يقصد منه التعجيب من شأن أولٰئك، فكأنه قيل: ما شأن هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب؟ وماذا يفعلون؟ فقال: ﴿يشترون الضلالة﴾ في الآية الأولى، ﴿يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغوتِ﴾ في الآية الثانية.

أما الآية الثالثة ؛ فكأنه قيل فيها: ماذا يفعل هٰؤلاء؟ وما الحجة على أنهم يزعمون الإيمان وليسوا بمؤمنين في الحقيقة؟ فقيل: ﴿يُريدونَ أَنْ يَتَحاكَموا إلى الطَّاغوتِ﴾.

ومن هٰذا قوله سبحانه: ﴿بَلْ قالوا مِثْلَ ما قالَ الأَوَّلونَ . قالوا أَإذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعوثونَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٢]، فقوله تعالى: ﴿أَإذا كُنَّا تُراباً وَعِظاماً﴾ ؛ جاء جواباً عن سؤال مفهوم من الجملة الأولى: ﴿بَلْ قالوا مِثْلَ ما قال الأَوَّلون﴾ ؛ كأنه قيل: وماذا قال الأولون؟ فجاءت في الجملة الثانية جواباً عن هٰذا السؤال.

وقد ذهب الأستاذ المراغي رحمه الله إلى عدِّ هٰذا من البدل المطابق، أي: بدل الكل من الكل، وليس الأمر كذٰلك.

ويلوح لي أن من هٰذا الباب قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، بعد قوله: ﴿سَوَاءٌ عَليهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أم لَم تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنونَ﴾ [البقرة: ٦]، فكأن سؤالاً فُهم من الجملة الأولى: ما بالهم لا يؤمنون والنبي ﷺ هو الذي ينذرهم؟! وهل هناك أبلغ من إنذار النبي؟! فقيل: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾.

وقد ذهب الشيخ عبد القاهر رحمه الله إلى أن هٰذا من باب التأكيد.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ بعد قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقولُ آمَنَّا باللهِ وباليومِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنينَ﴾ [البقرة: ٨]، كأنه قيل: لم يدَّعون الإيمان وليسوا كذٰلك؟ فقيل: ﴿يخادعون الله﴾.

ويمكن أن يكون من باب التأكيد؛ كما مر معك من قبل.

وبهٰذا الصدد أنبِّه إلى أن **النص الواحد قد يُختلف في فهمه، فيحمله كلٌّ حسب ما فهم.**

من هذا قول اليزيدي[1]:

---

(١) يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي، عالم بالعربية والأدب، من أهل البصرة، ولد سنة (١٣٨ هـ)، كان نازلاً في بني عدي بن عبد مناة، سكن بغداد، عاش في أيام خلافة المأمون، توفي في مرو سنة (٢٠٢ هـ).

مَلَّكْتُهُ حَبْلي ولٰكِنَّهُ أَلْقاهُ مِنْ زُهْدٍ على غارِبي
وقالَ إنِّي في الهَوى كاذِبٌ انْتَقَمَ اللهُ مِنَ الكاذِبِ[1]

فقوله: «انتقم الله من الكاذب»؛ ذهب السكاكي إلى أن سبب فصلها عما قبلها اختلاف الجملتين خبراً وإنشاء؛ لأن هٰذه الجملة إنشائية معنى، وإن كانت خبرية لفظاً، فهي جملة دعائية، والجملة التي قبلها: «وقال إني في الهوى كاذب»؛ جملة خبرية.

ولكن الشيخ عبد القاهر ذهب إلى أن سبب الفصل هنا هو أن هٰذه الجملة جاءت جواباً عن سؤال مقدر، فحينما قيل: «وقال إني في الهوى كاذب»؛ قيل له: فماذا تقول؟ هل أنت كاذب في هواك حقاً؟ فقال: «انتقم الله من الكاذب».

ومنه قوله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُم بِلِقاءِ رَبِّكُمْ توقِنونَ﴾ [الرعد: ٢]، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُم تُوقِنونَ﴾، كأنما جاءت جواباً عن سؤال مقدر: لم كل هٰذا؟ ومن أجل من؟

وهذا يكثر في النص القرآني وفي الآيات المبتدأة بـ (قال) ـ كما ذكر الشيخ عبد القاهر ـ.

ومنه قوله سبحانه: ﴿هل أتاكَ حَديثُ ضَيْفِ إبراهيمَ المُكرمينَ. إذ دَخَلوا عليه فقالوا سلاماً قالَ سلامٌ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٥]، فإنهم حينما قالوا ﴿سلاماً﴾، فإن هناك سؤالاً يتوجه: فماذا قال إبراهيم؟ فقيل: ﴿قال سلامٌ﴾.

ويظهر هٰذا جلياً في هٰذه الآية الكريمة: ﴿قالَ فِرْعَونُ وَمَا رَبُّ العَالَمينَ . قالَ رَبُّ السَّماواتِ والأرْضِ وَما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُمْ مُوقنينَ . قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ألا تَسْتَمِعُونَ . قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمْ الأوَّلينَ . قالَ إنَّ رَسُولَكُمْ الذي أُرْسِلَ إلَيكُمْ لَمَجْنُونٌ . قالَ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إلهاً غَيْري لأجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجُونينَ. قالَ أوَلَوْ جِئْتُكَ بشيءٍ مُبينٍ. قالَ فَأْتِ به إنْ كُنْتَ من الصادقينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٣١].

(١) «الأغاني» (٢٢/ ١٦٨)؛ غير منسوبين، و«الدلائل» (٢٣٧).

فانظر إلى هٰذه الآيات الكريمة، وكيف أن كل آية جاءت مفصولة عن سابقتها؛ لأن كل آية تحمل في ثناياها سؤالاً تتشوف النفس إليه، وتتشوق إلى معرفته، فتجيء كلٌّ جواباً عن هٰذا السؤال المقدر، ويسمى هٰذا النوع **استئنافاً بيانياً**.

وقد قسم العلماء الاستئناف إلى قسمين:

١ ـ الاستئناف النحوي:

وهو كل كلام منقطع عن غيره، وإن شئت قلت: ما كان مبتدأ به. فالجملة الاستئنافية عند النحويين قريبة من الجملة الابتدائية، وتأتي مقترنة بالواو وغير مقترنة بها، ومثال الجملة الاستئنافية غير المقترنة بالواو: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾، بعد قوله: ﴿بِسمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾. ومثال الثاني: ﴿واللهُ أَرْسَلَ الرِّياحَ﴾ [فاطر: ٩]، وهو كثير، والجملة الاستئنافية ـ كما مر معنا ـ لا محل لها من الإعراب.

ب ـ الاستئناف البياني:

وهو ما كانت الجملة فيه جواباً عن سؤال مفهوم من الجملة الأولى.

وسمي الأول نحوياً؛ لأن بحثه في علم النحو، وسمي الثاني بيانياً؛ لأنه هو الذي يعني علماء البلاغة، وهٰذا هو الذي نتحدث عنه هنا، وقد عرفت كثيراً من أمثلته، ونزيدك كذٰلك:

فمنه قول الشاعر:

زَعَمَ العَواذِلُ أَنَّني في غَمْرَةٍ ... صَدَقوا ولٰكنْ غَمْرَتي لا تَنْجَلي[1]

فإنه لما أبدى الشكاية من جماعات العذال؛ كان ذٰلك مما يحرك السامع ليسأل: أصدقوا في ذٰلك أم كذبوا؟ فأخرج الكلام مخرجه إذا كان ذٰلك قد قيل له، ففصل، وطبق بذٰلك المفصل.

---

(١) «معاهد التنصيص» (١/ ٢٨٠)، «شرح شواهد المغني» (٦/ ١٨٠)، وقال: لم يعرف قائله.

ومثله قول جندب بن عمار[1]:

زَعَمَ العَواذِلُ أنَّ ناقةَ جُنْدَبٍ ... بِجَنوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وأجمَّتِ[2]
كَذَبَ العَواذِلُ لو رَأَيْنَ مُناخَنا ... بالقادِسيَّةِ قُلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ[3]

ومن الحسن البيِّن في هٰذا الباب قول الوليد بن يزيد[4]:

عَرَفْتَ المَنْزِلَ الخَالي ... عَفَا مِنْ بَعْدِ أحْوالِ
عَفَاهُ كُلُّ حَنَّانٍ ... عَسُوفِ الوَبْلِ هَطَّالِ[5]

لما قال: «عفا من بعد أحوال»؛ قدر كأنه قيل له: فما عفاه؟ فقال: «عفاه كل حنان».

وما دمنا نتحدث عن الاستئناف، فيحسن أن نبيِّن لك هنا أن هٰذا الاستئناف تارة يحصل بإعادة الاسم المتحدَّث عنه، وتارة بذكر صفته:

فمثال الأول: أكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، رسول الله الرحمة المهداة.

ومثال الثاني: ترحم على صلاح الدين، القائد المخلص حريٌّ بأن يذكر.

---

(١) جندب بن الحارث بن مالك، من بني تغلب بن وائل، جدّ جاهلي لبنيه، ذكر شعره الوليد بن عقبة بن أبي المعيط. [الأعلام: ٢/ ١٤٠].

(٢) خبت: موضع بالشام، وبلدة بزبيد. أجمت: أي: تركت أن تركب وأريحت. لج: جدَّ في السير والتباعد. وذلت الناقة: من طول السفر.

(٣) «شرح ديوان الحماسة» (١/ ١٦٢)، «معاهد التنصيص» (١/ ٢٨١)، «الدلائل» (٢٣٦).

(٤) الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان أبو العباس، ولد سنة (٨٨ هـ)، من ملوك الدولة المروانية بالشام، كان من فتيان بني أمية، يعاب بالانهماك في اللهو وسماع الغناء، له غناء رقيق، ولي الخلافة سنة (١٢٥ هـ) قتله عبد العزيز بن الحجاج سنة (١٢٦ هـ). [الأعلام: ٨/ ٢١٠].

(٥) الحنان: من صفة السحاب الذي يسمع رعده كحنين الإبل. وعسوف: مطره شديد العسف. والوبل: المطر الشديد. وهطال: متتابع الودق.
والبيت في «الأغاني» (٧/ ٣٢)، «الخزانة» (١/ ٦٢)، «دلائل الإعجاز» (٢٣٨)، «المعاهد» (١/ ٢٨).

وقد جعل الزمخشري من هٰذا قوله سبحانه: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنونَ بِالغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٣]، فـ ﴿الذين يؤمنون﴾ ذكرهم بأوصافهم، وهم المتقون، الذين يؤمنون بالغيب.

وحكم آخر لهذا الاستئناف، وهو أنه قد يُحذف صدره إذا دلت عليه قرينة، وذلك مثل قوله سبحانه ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] - ببناء الفعل للمجهول، أي: بضم الياء وفتح الباء- فكأنه قيل: من المسبِّح؟ فقيل: ﴿رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ﴾ [النور: ٣٦]، فحُذف صدر هذا الكلام؛ لقيام القرينة عليه.

وقد يحذف كله، ويقام ما يدل عليه مقامه؛ كقول مساورِ بن هند[1]:

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلافُ[2]

فحينما قال لبني أسد: «زعمتم أن إخوتكم قريش»؛ كأنهم قالوا: أنحن صادقون أم كاذبون في هذا الزعم؟ فقال: كذبتم، والدليل على كذبكم أنهم لهم إلف. . . إلخ، فهم يؤلفون وأنتم لا تؤلفون، فكيف تكونون إخوة؟!

فأنت ترى هنا أنه لم يحذف السؤال فقط، وإنما حذف السؤال والجواب[3]، وأقام مقامهما ما يدل على الجواب المحذوف[4].

ونمثل لهٰذا بقولك: أتدَّعي أنك ستكون الأول في الفصل، تقضي ليلك نائماً. فكأنه سأل: أجادٌّ أنا أم هازل؟ أصادق أنا أم كاذب؟ فقيل له: لست جادًّا ولا صادقاً،

---

(١) مساور بن هند بن قيس بن زهير العبسي، شاعر معمَّر، قيل: ولد في حرب داحس والغبراء قبل الإسلام.

(٢) «خزانة الأدب» (١١/ ٤٢٠).

(٣) السؤال: ألسنا صادقين في هذا الزعم؟ والجواب: كذبتم.

(٤) بيان ذلك أن قوله: «لهم إلف»؛ ليس متصلاً بما قبله، وهو قوله: «زعمتم أن إخوتكم قريش»، فإن زعمهم هو أخوة قريش لهم فحسب، أما قولهم: «لهم إلف»؛ فليست داخلة في هذا الزعم، وإنما هي رد عليهم من الشاعر.

وأقام مقام هٰذا كله: تنام ليلك.

وكذٰلك قولك: يدَّعون تحرير الأقصى، صلتهم بعدوهم وثيقة.

ومن باب الاستئناف ما يحذف في باب (نعم) و(بئس) في قولك: نعم الرجل خالد، وبئس الرجل أبو رغال. عند من يرى أن المخصوص بالمدح والذم محذوف؛ كأنه قيل: من الرجل؟ فقيل: فلان. فحذف الضمير (هو)[1].

■ ثالث موجبات الفصل كمال الانقطاع:

من موجبات الفصل أن يكون بين الجملتين كمالِ انقطاع، وهٰذا له صورتان اثنتان:

١ ـ أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء.

٢ ـ أن تتفقا، ولٰكن ألا يكون بينهما جامع ولا رابط.

فمثال الصورة الأولى قول الأخطل[2]:

وقالَ رائِدُهُمْ أرْسوا نُزَاوِلُها   فكُلُّ حَتْفِ امْرِىءٍ يَجْري بمِقْدارِ[3]

فقوله: «أرسوا»؛ جملة إنشائية، و«نزاولها»؛ خبرية. والضمير للسفينة.

ومنه قوله سبحانه: ﴿وأعِدُّوا لهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ ومِن رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فـ(أعدوا)؛ جملة إنشائية، و(ترهبون)؛ جملة خبرية.

وقال أبو العتاهية:

---

(١) راجع هذا في باب (نعم) و(بئس).

(٢) غياث بن غوث بن الصلت الملقب بالأخطل، شاعر نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة بالعراق، كانت إقامته طوراً في دمشق؛ مقر الخلفاء من بني أمية، وحيناً في الجزيرة؛ حيث يقيم بنو تغلب، توفي سنة (٩٠ هـ).

(٣) «معاهد التنصيص» (١/ ٢٧١).

يا صاحِـبَ الـدُّنْـيا الـمُـحِـبَّ لهـا أنْـتَ الـذي لا يَنْـقَـضـي تَـعَـبُـهْ[1]

فإن الجملة الأولى إنشائية ـ وهي : «يا صاحب الدنيا» ـ، وإن الثانية خبرية ـ وهي : «أنت الذي لا ينقضي تعبه» ـ.

ولا فرق في هٰذا بين أن تكون الجملة إنشائية لفظاً ومعنى ـ كما مر ـ أو تكون إنشائية معنى، خبرية لفظاً؛ كقولك : ذهب المخلصون رحمهم الله. فإن الجملة الأولى خبرية، وإن الجملة الثانية ـ وهي : «رحمهم الله» ـ وإن كانت خبرية من حيث اللفظ، ولكنها إنشائية من حيث المعنى.

ومن هٰذا بيت اليزيدي الذي مرَّ معنا من قبل.

وأما الصورة الثانية ـ وهي اتفاق الجملتين خبراً أو إنشاء، ولكن دون أن يكون بينهما جامع ـ؛ فيمثل لها بقول الشاعر:

إنـمـا الـمَـرْءُ بأصْـغَـرَيْهِ كُلُّ امـرىءٍ رَهْـنٌ بمـا لَدَيْهِ

وكذٰلك قولك: العمل مقياس السعادة، المعدن يتمدد بالحرارة. هٰذا في الجملتين الخبريتين.

أما الجملتان الإنشائيتان؛ فكقولك: احترس من عدوِّك، كل مما يليك. فأنت ترى أنه لا جامع بين هٰذه الجمل، ومن هنا وجب الفصل؛ لأن بينهما كمال انقطاع.

■ رابع موجبات الفصل : شبه كمال الانقطاع :

من موجبات الفصل أن يكون بين الجملتين شبه كمال انقطاع، وذٰلك أن تكون هناك جملة مسبوقة بجملتين، يجوز عطفها على الأولى منهما، ولا يجوز عطفها على الثانية، فتترك العطف؛ حتى لا يُتوهَّم عطفها على الجملة القريبة منها، وقد مثلوا لهٰذا بقول الشاعر:

---

(١) «أبو العتاهية أشعاره وأخباره» (ص ٤٤).

وتَــظُنُّ سَلْمــى أنَّــني أبْـغـي بهــا بَدَلاً أُراهــا في الــضَّلالِ تَهــيمُ[1]

ففي هٰذا البيت ثلاث جمل: الجملة الأولى: «تظن سلمى»، والجملة الثانية: «أنني أبغي بها بدلًا»، والجملة الأخيرة: «أُراها في الضلال تهيم».

ولا مانع من أن تعطف هٰذه الجملة الأخيرة على الجملة الأولى، حيث يصير المعنى: تظن سلمى، وأُراها هائمة في الضلال.

ولكن الذي لا يجوز؛ عطفها على الجملة الثانية ـ وهي قوله: «أبغي بها بدلًا» ـ فإن المعنى لا يستقيم على ذٰلك؛ لأنه يؤول إلى أن سلمى تظن به أمرين اثنين: أولاً: أنه يبغي بها بدلًا. والثاني: أنه يراها في الضلال تهيم. فتكون الجملة الأخيرة من مظنونات سلمى، وهٰذا لا يقصده الشاعر.

ومثل هٰذا قولك: أتحسب أنني أنسى وطني؟! أؤكِّد أنك مخطىء. فإن جملة أؤكد يمكن أن تُعطف على الجملة الأولى، فتصير: أتحسب أنني أنسى وطني وأؤكد أنك مخطىء. وهٰذا معنى صحيح لا غبار عليه.

ولكن لا يجوز عطفها على الجملة الثانية؛ لأن المعنى يصير: أتحسب أنني أنسى وأؤكد. فيكون التأكيد داخلًا ضمن الحسبان، وهٰذا غير صحيح؛ لأن ما يحسبه هو النسيان فقط، أما التأكيد؛ فهو مستأنف من جهتي، وليس له دخل في حسبانه.

* تعقيب:

هٰذا السبب من أسباب الفصل، لم يذكره الشيخ عبدالقاهر رحمه الله، بل ذكره المتأخرون بعده، وأظن أن أول من أشار إليه السكاكي، ثم تبعه من بعده، ويلوح لي أن الدافع لهم لذكر هٰذا السبب محافظتهم على القسمة العقلية المنطقية، فقد ذكروا للفصل أسباباً؛ منها: كمال الاتصال، وكمال الانقطاع، والتوسط بين الكمالين، وشبه كمال الاتصال، وشبه كمال الانقطاع.

---

(١) «معاهد التنصيص» (١/ ٢٧٩)، وقال: لا أعرف له قائلاً.

وهٰذه التسميات كلها لم يذكرها الشيخ ـ رحمه الله ـ في «الدلائل».

وهٰـذه قسمـة عقلية ـ كمـا ترى ـ: كمال اتصال، وكمال انقطاع، وتوسط بين الكمالين، وشبه كمال اتصال، وشبه كمال انقطاع، وأنت خبير بأن أمر البلاغة لا ينبغي أن يخضع لهٰذه القسمة العقلية المنطقية.

ليس هٰذا فحسب، بل إن الذين ذكروه لم يجيئوا له إلا بمثال واحد، ولا أقول بشاهد واحد، وشتان بين المثال والشاهد، وهو البيت الذي سمعت: «وتظن سلمى»، ولا يصح في العقل أن تكون هناك قاعدة لا نجد لها إلا مثالاً واحداً، أرأيت إلى أسباب الفصل التي حدثتك عنها كيف كان لكل منها شواهد متعددة؟!

ليس هٰذا فحسب، بل إن ما ذكروه غير مسلم لهم، بل هو منتقض ومردود بأفصح الكلام وأفضله، وهو كتاب الله تبارك وتعالى، وأكتفي هنا بمثال واحد مبرهناً على ما قلته لك:

استمع إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦]؛ ففي هٰذه الآية جمل ثلاث:

الأولى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾.

الثانية: جملة الشرط وجوابه؛ ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ... فَادْفَعُوا﴾.

الثالثة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾.

والشاهد في هٰذه الجملة الثالثة، إذ لا يصح عطفها على الجملة الثانية؛ جملة الشرط؛ لأن معنى جملة الشرط: حينما يكبر اليتامى، وتأنسون منهم رشداً، ويصيرون قادرين على التصرف في أموالهم، فادفعوا إليهم هٰذه الأموال. والجملة الثالثة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾؛ نهي للمسلمين عن أن يأكلوا أموال اليتامى حال صغرهم.

لا يجوز إذن عطف الجملة الأخيرة على الثانية؛ لأن العطف يقتضي التشريك،

ولا تشريك بين الجملتين ؛ لأن الثانية تتحدث عن اليتامى بعد أن انتهى يتمهم ، والثالثة تتحدث عن حال يتمهم وصغرهم .

لكن يجوز عطف الجملة الأخيرة على الأولى ؛ ﴿وابْتَلوا﴾ ، وهو عطف في غاية الحسن، إذ يصير المعنى : وابتلوا اليتامى ، ولا تأكلوا أموالهم .

وعلى القاعدة التي ذكرها المتأخرون، والتي شرحتها لك من قبل، وهي أنها إذا جاءت مسبوقة بجملتين، وجاز عطفها على إحداهما، ولم يجز عطفها على الأخرى؛ امتنع مجيء الواو.

أقـول: على هٰذه القـاعـدة؛ ينبغي أن تأتي الجملة الثـالثـة في الآية: ﴿ولا تأكُلوهـا. . .﴾ بدون واو، مع أنهـا جاءت بالـواو؛ كما ترى، وكتاب الله هو المرجع الأساس؛ لذٰلك نبهتك لهٰذه القاعدة المهمة.

وعلى هٰذا؛ فقول الشاعر: «أراها في الضلال تهيم» ؛ جاء بدون واو؛ لأنها جواب عن سؤال مقـدر، كأنه قيل له: وماذا تقول في ظن سلمى بأنك تبغي بها بدلاً؟ هل صحيح ذٰلـك؟ فقال: أراها في الضلال تهيم. وهٰذا احتمال ذكره كثير من الكاتبين الأقدمين، ولكنه عندي ليس احتمالاً، بل هو الرأي.

■ خامس موجبات الفصل التوسُّط بين الكمالين:

يجب الفصل إذا كان الوصل يخل بالمعنى، وهو أن لا نقصد تشريك الجملة الأخيرة مع ما قبلها؛ لأن التشريك يغير المعنى، وذٰلك مثل قوله تعالى: ﴿وإذا خَلَوْا إلى شَياطينِهم قالوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِئونَ . اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بهم﴾ [البقرة: ١٤]، فإنـه لو عطف هٰذه الجملة: ﴿الله يستهـزئُ بهـم﴾؛ لكان هٰذا من قول المنافقين، ويصير المعنى: إن المنـافقين إذا خلوا إلى شياطينهم؛ قالـوا. إنا معكم، إنما نحن مستهزئون. وقالوا: إن الله يستهزىء بالمؤمنين كذٰلك مع أن الجملة الأخيرة إنما هي تعقيب على قولهم، فهي من قول الله تبارك وتعالى، وهٰذا يختلف عن قوله سبحانه: ﴿إنَّ المُنافِقينَ يُخادِعونَ اللهَ وهُو خادِعُهُم﴾[النساء:١٤٢]،فإن حملة: (وهو خادعهم)

عطفت على ما قبلها؛ لأن الجملتين كلتيهما من قول الله تبارك وتعالى.

هٰذا ما ذهب إليه الشيخ عبدالقاهر رحمه الله.

وذهب الزمخشري رحمه الله في «الكشاف» مذهباً آخر، حيث رأى أن ترك العطف هنا للاستئناف، ومعنى الاستئناف أنه جواب عن سؤال مقدر، كأنما قيل: فما جزاؤهم على هٰذه الأفعال الشنيعة والأقوال البذيئة؟! فقال: ﴿الله يستَهْزِىء بهم﴾.

ولا حرج في هٰذا، فلقد عرفت أن النص الواحد يمكن أن يعلل بأكثر من علة واحدة؛ لاختلاف الأفهام.

قال الزمخشري:

«فإن قلتَ: كيف ابتدأ قوله: ﴿الله يستهزىء بهم﴾، ولم يعطف على الكلام قبله؟!

قلتُ: هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته؛ لما ينزل بهم من الهوان والذل. وفيه أن الله هو الذي يتولّى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله»[1].

تلك هي مواطن الفصل، ويمكنك أن تحاول الإفادة منها؛ مراعياً ذٰلك عند حديثك أو كتابتك.

□□□

(١) «الكشاف» (١/ ٦٧).

□ المبحث الرابع :

مواطن الوصل

■ أولاً : اتفاق الجملتين خبراً وإنشاء :

عرفت أن الفصل بين الجملتين قد يكون لما بين الجملتين من اتصال تام، أو شبهه، أو انقطاع تام، أو شبهه.

الوصل إذن إنما يأتي في حالة وسط، وقد عرفت أن العطف يقتضي أمرين: التغاير والتشريك، فإذا كانت الجملتان متغايرتان، وكان بينهما جامع؛ فإنه يجب الوصل، كأن تكون الجملتان خبريتين أو إنشائيتين.

فمثال الخبريتين قوله تعالى : ﴿إِنَّ الأبرارَ لَفي نَعيمٍ . وإِنَّ الفُجَّارَ لَفي جَحيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]، وقوله ﷺ : «الطهور شطر الإيمان، وسبحان الله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك»(١).

ومثال الإنشائيتين قوله سبحانه: ﴿آمِنوا باللهِ ورَسولِهِ وأَنْفِقوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفينَ فيهِ﴾ [الحديد: ٧]، وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنوا قاتِلوا الذينَ يَلونَكُمْ مِن الكُفَّارِ ولْيَجِدوا فيكُمْ غِلْظَةً واعْلَموا أَنَّ اللهَ معَ المُتَّقينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله ﷺ: «اتّق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٢).

ومما اجتمع فيه الخبر والإنشاء قوله تعالى: ﴿وما لَكُمْ لا تُقاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفينَ مِن الرجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ الذينَ يَقولونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِن هٰذه القريةِ الظالِمِ أَهْلُها واجْعَلْ لنا مِن لَدُنْكَ وليًّا واجْعَلْ لنا مِن لَدُنْكَ نَصيراً . الذينَ آمَنوا يُقاتِلونَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب: فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، ورواه أحمد بن حنبل، (٥ / ٣٤٢).

(٢) رواه الترمذي في أبواب البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرة الناس، رقم (١٩٨٨).

في سبيلِ الله والّذينَ كفروا يقاتلونَ في سبيلِ الطاغوت﴾ [النساء: ٧٥-٧٦]، فانظر إلى الإنشائيتين في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجنا﴾، ﴿واجْعَلْ لَنا﴾، وإلى الخبريتين في قوله تعالى: ﴿الذينَ آمنوا﴾، ﴿والذينَ كَفروا﴾.

ثم إن الجملة الإنشائية قد تكون لفظاً ومعنى؛ كما مر، وقد تكون إنشائية معنى خبرية لفظاً، وذٰلك في مثل قوله سبحانه: ﴿وإذْ أخَذْنا مِيثاقَ بَني إسْرائيلَ لا تَعْبُدونَ إلا اللهَ وبالوالِدَيْنِ إحْساناً﴾ [البقرة: ٨٣]، فإن قوله سبحانه: ﴿لا تَعبدونَ إلا اللهَ﴾؛ جملة خبرية لفظاً، لكنها إنشائية معنى، بمعنى: لا تعبدوا إلا الله. ولهٰذا عطف عليها قوله سبحانه: ﴿وبالوالدينِ إحْساناً﴾، أي: وأحسنوا إحساناً. فكلتا الجملتين إنشائية.

■ ثانياً: كون الفصل مخلّاً بالمعنى:

وهناك سبب آخر من أسباب الوصل، وهو أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء، فيكون بينهما كمال انقطاع، وهنا يجب الفصل ـ كما عرفنا من قبل ـ ولكن قد يكون هناك مانع من الفصل؛ لأنه يترتب عليه إخلال في المعنى.

يسألك سائل: هل خرج صاحبك من المستشفى؟ ويسألك صاحبك: هل تريد مني شيئاً؟ فتقول للأول: لا، وعافاه الله. وتقول للثاني: لا، وبارك الله فيك. فقولك: «لا»؛ جملة خبرية؛ لأن التقدير: لا أريد شيئاً، ولم يخرج من المستشفى. وقولك: عافاك الله، وبارك الله فيك. جملتان إنشائيتان؛ لأن المقصود بهما الدعاء، وقد علمت أنه إذا اختلفت الجملتان وجب الفصل، لكنك لو قلت: لا، عافاه الله. لا، بارك الله فيك. لأوهم ذٰلك الدعاء عليه، وأنت لا تقصد ذٰلك، ونفياً لهٰذا الوهم جيء بهٰذه الواو.

ولهٰذا؛ فإن علماء البلاغة يسمون هٰذا **كمال الانقطاع مع الإيهام**، ويعنون بأن كمال الانقطاع إذا كان بين الجملتين يجب الفصل، إلا إذا كان هناك إيهام بتغيير المعنى؛ فإنه يجب الوصل.

■ تطبيق وتمثيل:

بعد أن عرفت محسنات الفصل والوصل، يحسن بنا أن نذكر لك بعض

النصوص، وندرسها دراسة تطبيقية:

قال الله تعالى: ﴿بِسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ . آلم . ذٰلكَ الكِتابُ لا ريبَ فيهِ هُدىً للمُتَّقينَ . الذينَ يُؤمِنونَ بالغَيْبِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقونَ . والذينَ يؤمِنونَ بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ مِن قبلِكَ وبالآخِرَةِ هُم يوقِنونَ . أولٰئكَ على هُدىً مِن ربِّهِم وأولٰئكَ هُم المُفْلِحونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

وقال تعالى: ﴿ولَقَدْ ذَرَأْنا لجَهَنَّمَ كثيراً مِن الجِنِّ والإنسِ لهُم قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بها ولهُمْ أعْيُنٌ لا يُبْصِرونَ بها ولهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعونَ بها أولٰئكَ كالأنْعامِ بلْ هُمْ أضَلُّ أولٰئكَ هُم الغافِلونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَستَعينُ . اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ﴾ [الفاتحة: ٤ - ٥].

وقال تعالى: ﴿قالوا إنما أنتَ من المُسحَّرينَ. ما أنت إلا بشرٌ مثلُنا فَأْتِ بآيةٍ إن كُنْتَ مِن الصادِقينَ . قالَ هٰذهِ ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكُمْ شِرْبُ يومٍ مَعْلومٍ . ولا تَمَسُّوها بِسوءٍ فيأْخُذَكُمْ عذابُ يومٍ عظيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿قالوا إنَّما أنْتَ مِن المُسَحَّرينَ . وما أنتَ إلا بَشَرٌ مِثْلُنا وإنْ نَظُنُّكَ لَمِن الكاذِبينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٦].

هٰذه النصوص الكريمة تأملها جيداً؛ ستجد فيها شواهد للفصل والوصل معاً.

ففي النص الأول؛ ترى الفصل بين قوله تعالى: ﴿ذٰلك الكتاب﴾، وقوله سبحانه: ﴿لا ريبَ فيه﴾، وقوله سبحانه: ﴿هُدىً للمُتَّقينَ﴾، وقد عرفت ما فيه من قبل.

وتجد الوصل في قوله سبحانه: ﴿يُؤمِنونَ بالغيبِ ويُقيمونَ الصلاةَ. . .﴾ إلخ، وأنت تدرك أن هٰذه جمل خبرية، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها وقعت صلة الموصول، لذا جاء معطوفاً بعضها على بعض.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿أولٰئكَ على هُدىً مِن ربِّهم وأولٰئكَ هُم المُفْلِحونَ﴾، فهما جملتان وصلت إحداهُما بالأخرى؛ لأنهما خبريتان قصد تشريكهما في الحكم؛ لأن في كل منهما جزاء مستقلاًّ للمؤمنين.

أما النص الثاني؛ فإذا تأملته وجدت فيه فصلاً ووصلاً، فأنت ترى أن قوله تعالى: ﴿لهُمْ قلوبٌ لا يفْقَهونَ بها﴾؛ جاءت مفصولة عن سابقتها، ولا يخفى عليك أن هٰذا الفصل كان له ما يسوغه ويقتضيه؛ لأنها جاءت جواباً عن سؤال مقدر في الأولى، كأنه قيل: ولم استحق أولئك جهنم؟ ولم ذُرئوا لها؟ فقيل: لهم قلوب لا يفقهون بها.

أما الجمل الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ولهمْ آذانٌ﴾، ﴿ولهم أعيُنٌ﴾؛ فإنها مشابهة للأولى من حيث الخبرية، مشتركة معها في الحكم.

أما قوله سبحانه: ﴿أولٰئكَ كالأنعامِ﴾؛ فإنما جاءت مفصولة عن سابقتها؛ لأنها تأكيد لها، فإنهم ما داموا لا يستفيدون من هٰذه الجوارح التي أنعم الله بها عليهم ـ وهي القلوب، والأعين، والآذان ـ فليس معنى هٰذا إلا أنهم كالأنعام.

ولعلك تتساءل هنا عن مجيء العطف تارة، وتركه تارة؛ مع تماثل الجمل، فقوله تعالى: ﴿أولٰئك على هُدى من ربهم وأولٰئك هم المفلحون﴾؛ يشبه من حيث التركيب قوله: ﴿أولٰئكَ كالأنعامِ بل هُم أضلُّ أولٰئك هُم الغافِلونَ﴾، ولكن جاءت الواو في إحداهما، وتُركت في الأخرى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إنَّما أنت من المُسحَّرين. ما أنتَ إلا بشرٌ مثلُنا﴾؛ حكاية عن ثمود لصالح عليه السلام، وقوله سبحانه: ﴿قالوا إنَّما أنتَ مِن المُسَحَّرينَ. وما أنْتَ إلا بشرٌ مثلُنا﴾؛ حكاية عن مدين لشعيب عليه السلام.

وسبب هٰذا الاختلاف في النظم ـ والله أعلم ـ أن قوله تعالى: ﴿أولٰئك على هدىً من ربِّهم وأولٰئك هُم المُفْلِحون﴾؛ تختلف فيه الجملة الأولى عن الثانية؛ لأن كلاًّ منهما جزاء خاص، فهم على هدى من ربهم أولاً، وفي هٰذا تصحيح لمسيرتهم، وهم مفلحون ثانياً، وفي هٰذا تحقيق للغاية والنتيجة الطيبة التي حصلوا عليها.

أمـا قولـه سبحانه في الآية الثانية: ﴿أولٰئك كالأنعام بلْ هُمْ أضلُّ أولٰئك هُم الغـافِلونَ﴾؛ فإن الجملة الثـانية لا تختلف عن الأولى، فهي تأكيد لهـا؛ لأن كونهم كالأنعام لا معنى له إلا أنهم غافلون، ولو أن هٰذه الجملة وصلت، فقيل: وأولٰئك هم الغافلون. لأدّى هٰذا إلى معنى غير صحيح، وهو أن الأنعام ليست في غفلة.

أمـا الآيتـان في سورة الشعـراء: ﴿إنما أنت من المسحَّرين﴾؛ حيث فصلت إحداهما عن سابقتها، ووصلت الثانية، فلأن معنى المسحّر في الآية الأولى هو الذي له رئـة يأكل ويشرب[1]، يقولون: ما نراك إلا ذا رئة؛ تأكل وتشرب، وهٰذا وصف له بالبشرية؛ لهٰذا جاء عقبه: ﴿ما أنْتَ إلاّ بشرٌ مثلُنا﴾، فإن هٰذه الجملة جاءت تأكيداً لما قبلها، وأما الآية الثانية؛ فمعنى كلمة مسحَّر؛ المسحور. وهٰذا يختلف معناه عن معنى الجملة التي بعدها، وهي أنه بشر؛ لذا وصلت الثانية بالأولى؛ لأن لكل منهما معنى.

أمـا قولـه تعالى: ﴿إيَّاك نعبد وإياك نستعين﴾؛ فإن العطف جاء بين جملتين خبريتين؛ بينهما جامع، وقد فصل عنهما ما بعدهما ـ وهو قوله تعالى: ﴿اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ﴾ ـ عما قبله؛ لأنه جملة إنشائية.

□□□

(١) ومنه قول السيدة عائشة رضي الله عنها: «توفي الرسول ﷺ وهو بين سحري ونحري». «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (٦ / ١٢١).

* المبحث الخامس :

الجملة الحالية بواو أو بغير واو

هٰذا الموضوع يلحقه علماء البلاغة بالفصل والوصل، وأول من نبه إليه وفصَّل فيه القول الإمام عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ، وهو من الدقة بمكان، فاحرص على فهمه وتدبره، وسأحاول أن أبسطه لك، والله المستعان.

يقسم العلماء الحال إلى مؤكدة ومنتقلة.

ويقصدون **بالمؤكدة**: الوصف الثابت الذي لا يتغير، وذٰلك كقولك: هٰذا أخوك عطوفاً. ومثل هٰذا كل وصف ثابت؛ كالطول، والقصر، والسواد، والبياض.

أما **الحال المنتقلة**: فهي الوصف غير الثابت؛ كالركب، والمشي، والضحك، والبكاء؛ تقول: جاءني راكباً. وأقبل ضاحكاً.

والذي يُبحث في هٰذا الموضوع هو القسم الثاني.

والحال قد تأتي مفردة، وقد تأتي جملة؛ تقول: جاءني ضاحكاً. وجاءني يضحك. فالأولى مفرد، والثانية جملة.

والحال يشبه الوصف من جهة، ويشبه الخبر من جهة، لكن كلاًّ من الخبر والوصف لا يقترن بالواو، والحال وحدها قد تقترن بالواو إذا كانت جملة، فما هو سرُّ ذٰلك؟!

يجيب الإمام عبدالقاهر رحمه الله عن هٰذا التساؤل بأن الحال حينما تأتي جملة غير مقترنة بالواو، فإننا نربط الفعل الذي وقع حالاً بالفعل الذي في أول الجملة، فإذا قلت: جاء خالد يضحك. فأنت قد ربطت الفعل يضحك بكلمة جاء. أما حينما تأتي الجملة بالواو، فكأنما أردت استئناف معنى جديد، فإذا قلت: جاءني والسيف على عاتقه. فقد استأنفت شيئاً جديداً.

يقول الشيخ عبدالقاهر رحمه الله:

«وإذ قد عرفت هٰذا، فاعلم أن كل جملة وقعت حالاً، ثم امتنعت من الواو، فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها، فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالاً، ثم اقتضت الواو، فذٰلك لأنك مستأنف بها خبراً، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات.

تفسير هٰذا أنك إذا قلت: جاءني زيد يسرع. كان بمنزلة قولك: جاءني زيد مسرعاً. في أنك تثبت مجيئاً فيه إسراع، وتصل أحد المعنيين بالآخر، وتجعل الكلام خبراً واحداً، وتريد أن تقول: جاءني كذٰلك، وجاءني بهٰذه الهيئة...»[1].

«... وإذا قلت: جاءني غلامه يسعى بين يديه. ورأيت زيداً وسيفه على كتفه. كان المعنى على أنك بدأت، فأثبت المجيء والرؤية، ثم استأنفت خبراً، وابتدأت إثباتاً ثانياً بسعي الغلام بين يديه، ولكون السيف على كتفه. ولما كان المعنى على استئناف الإثبات؛ احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى، فجيء بالواو؛ كما جيء بها في قولك: زيد منطلق، وعمرو ذاهب. والعلم حسن، والجهل قبيح. وتسميتنا لها واو الحال لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة، ونظيرها في هٰذا الفاء في جواب الشرط، نحو: إن تأتني فأنت مكرم. فإنها؛ وإن لم تكن عاطفة؛ فإن ذٰلك لا يخرجها من أن تكون بمنزلة العاطفة في أنها جاءت لتربط جملة ليس من شأنها أن تربط بنفسها، فاعرف ذٰلك»[2].

إذا تمهّد هٰذا لديك؛ فاعلم أنه كما لا بد للصفة من موصوف، وللخبر من مبتدأ؛ فلا بد للحال من صاحب كذٰلك، والجملة الحالية إما أن تكون مشتملة على ضمير لصاحب الحال، وإما أن لا تكون كذٰلك، مثال الأولى: جاء خالد يسعى. فإن (يسعى) جملة حالية، وهي مكونة من فعل وفاعل، والفاعل ضمير مستتر يعود على خالد، وهو

---

(١) «دلائل الإعجاز» (ص١٦٤ ـ ١٦٥).

(٢) «دلائل الإعجاز» (ص١٦٥ ـ ١٦٦).

صاحب الحال.

ومثال الثانية: جاءني والشمس طالعة. ومنه قولك: بُعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعـالم في ضلال وتفرق. جاء صلاح الدين والأمة مزق وأوزاع. دخل اليهود حرب سبعة وستين وتسع مائة وألف والعرب في حرب كلامية وحرب فعلية.

فإذا كانت الجملة الحالية خالية من الضمير الذي يعود على صاحب الحال؛ فلا بدَّ لها من الواو.

انظر إلى الجمل الأربع السابقة؛ تجد الواو في كل واحدة منها، وسبب ذلك أنك لو حذفت الواو؛ لكان الكلام منفصلاً بعضه عن بعض، مفكك الأجزاء، فإن قلت: جاءني خالد الشمس طالعة! فإن كلتا الجملتين بعيدة عن الأخرى، فلا بدَّ من رابط يربط بينهما، والرابط بين الحال وصاحبه قد يكون الضمير، وقد يكون الواو، وقد يكونانْ معاً، ولما كانت هٰذه الجملة خالية من الضمير، فلا بدَّ من الواو.

أما إذا كانت الجملة الحالية مشتملة على ضمير لصاحب الحال؛ فإن للواو فيها أحوالاً خمساً:

١ ـ قد تكون الواو ممتنعة.

٢ ـ وقد تكون الواو واجبة.

٣ ـ وقد يكون وجودها أرجح من تركها.

٤ ـ وقد يكون تركها أرجح من وجودها.

٥ ـ وقد يتساوى الأمران.

هٰذه أحوال خمس، وإليك بيانها:

■ الحالة الأولى: امتناع الواو:

أمـا الحـالة الأولى ـ وهي امتناع الواو ـ؛ فذٰلك إذا كانت الجملة الحالية فعلاً مضارعاً غير منفي؛ تقول: جاءني يبتسم. وفي التنزيل منه كثير؛ قال تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ

في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال سبحانه: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تَتَّخذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولياءَ تُلْقونَ إليهِمْ بالمودَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال سبحانه: ﴿ثُم ذَهَبَ إلى أهلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ [المدثر: ٦]، وقال سبحانه: ﴿وسَيُجَنَّبُها الأتقى . الذي يُؤتي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧ - ١٨]. فـ (يعمهون)، و(تلقون)، و(يتمطى)، و(تستكثر)، و(يتزكى)؛ جمل حالية لم تقترن بها الواو.

ومثاله من الشعر قول علقمة بن العبد[١]:

وقد عَلَوْتُ قُتودَ الرَّحْلِ يَسْفَعُني ... يَوْمَ قُدَيْدِيمَةِ الجَوزاءِ مَسْمومُ[٢]

وقول أبي دُؤاد[٣]:

ولقد اغْتَذي يُدافِعُ رُكْنَيَّ ... أحوذِيٌّ ذو مَيْعَةٍ إضْريجُ[٤]

---

(١) علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرىء القيس، وله معه مساجلات، توفي سنة (٢٠ ق. هـ).

(٢) قتود: جمع قتد، وهو خشب الرحل المعهود. ويسفعه اليوم: يلفحه بحره، فيغير لونه، وأصله تأثير النار وتعليمها ما تصيبه. وقديديمه: ظرف تصغير (قدام) على أنها مؤنثة، وهو الأكثر. والجوزاء: برج تنزله الشمس في آخر الربيع، حينئذ تهب الرياح الحارة. ويقال: سم اليوم؛ إذا كانت ريحه سموماً حارة، فهو مسموم، وفي رواية: يوم تجيء به الجوزاء مسموم. والبيت لعلقمة بن العبد، انظر «المفضليات» (١٢٠).

(٣) جارية بن الحجاج الإيادي المعروف بأبي دؤاد، شاعر جاهلي، كان من وُصّاف الخيل المجيدين، له ديوان شعر. [الأعلام: ٣/ ١٠٦].

(٤) الأحوذي: الحاذق المشمر للأمور، القاهر لها، والسريع في كل ما أخذ به. وفي «الأساس»: «رجل أحوذي: يسوق الأمور أحسن مساق؛ لعلمه بها». والميعة: أول الشيء؛ يقولون: ميعة الشباب، وميعة الفرس، أو: جريه وأنشطه. والميعة تطلق على أول الشيء الذي تكون قوته وكماله في ابتدائه، ثم يضعف، أو ينقص. والإضريج: الفرس الشديد العدو، ومن معانيه: الكساء الأصفر، والخز الأحمر.

والبيت في ديوانه «دراسات في الأدب العربي» (٢٩٩)، «الدلائل» (٩١).

فجملة (يسفعني) في البيت الأول، و(يدافع) في البيت الثاني؛ حاليتان، جاءتا بدون واو.

هٰذا هو الوجه عند البلاغيين.

أما ما جاء مقترناً بالواو؛ فهو شاذٌ لا يُقاس عليه؛ من ذٰلك قول ابن همام السلولي[1]:

وَلَمَّا خَشِيتُ أَظَافِيرَهُ نَجَوْتُ وأَرْهَنْتُهُ مالِكاً[2]

وقولهم: قمت وأصك وجهه.

فإن (أرهنته)، و(أصك)؛ جملتان فعليتان، فعلهما مضارع مثبت، وقد جاءت فيهما الواو، وحقهما أن لا تكونا كذلك.

وقد أجاب العلماء عن ذٰلك إجابات متعددة:

قال بعضهم: إن هٰذه الواو داخلة على مبتدإ محذوف، والتقدير: وأنا أرهنته مالكاً. وأنا أصك وجهه. فلا خروج عن القاعدة، إذ الجملتان اسميتان حينئذ، والجملة الاسمية تقترن بالواو.

وقال بعضهم: إنه ضرورة في الشعر، وشذوذ في المثال الثاني.

ونرى في هاتين الإجابتين تكلُّفاً لا ضرورة له، وإن كانت الإجابة الثانية مقبولة أكثر من الأولى.

ونرجِّح ما اختاره الشيخ عبدالقاهر رحمه الله، وهو أن الواو هنا ليست واو الحال، فالجملة لبست حالية، وإنما الواو للعطف، والفعل المضارع المعطوف يقصد به

---

(١) عبد الله بن همام بن نيشه السلولي، من بني مرة بن صعصعة، شاعر إسلامي، أدرك معاوية، وبقي إلى أيام سليمان بن عبدالملك أو بعده، له أخبار، يقال: إنه هو الذي بعث يزيد بن معاوية على البيعة لابنة معاوية، وكان يقال له: العطار. لحسن شعره، توفي نحو (١٠٠ هـ).

(٢) «خزانة الأدب» (٩/ ٣٦٠).

الماضي، والتقدير: نجوت ورهنتهم مالكاً. وقمت وصككت وجهه. وإنما جيء بالفعل المضارع لحكاية الحال، وهٰذا كثير، وشواهده لا تحصى أن يأتي المضارع مُراداً به الماضي، مثل قوله:

ولقد أمُرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني فمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنيني(1)

وهٰذا كثير في التنزيل، وسنزيده تفصيلاً في المبحث التالي إن شاء الله.

■ الحالة الثانية: وجوب اقتران الجملة الحالية بالواو:

وذٰلك إذا كانت الجملة اسمية، وكان المبتدأ فيها ضميراً لصاحب الحال؛ تقول: جاءني وهو ذاهل، ورأيته وهو مسرع.

وقد جاء الحالان في التنزيل، أعني: امتناع الواو ووجوبها؛ كقوله تعالى: ﴿وأمَّا مَن جاءَكَ يَسْعى . وهُو يَخْشى﴾ [عبس: ٨ ـ ٩]، فإن جملة (يسعى)؛ لا يجوز أن تقترن بالواو، وجملة (وهو يخشى) تجب فيها الواو.

ومثل الآية السابقة قوله تعالى: ﴿فلا تَجْعَلوا للهِ أنداداً وأَنْتُم تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله سبحانه: ﴿ولا تُباشِروهُنَّ وأَنْتُم عاكِفونَ في المَساجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

■ الحالة الثالثة: ترجيح وجود الواو:

وذٰلك إذا كانت الجملة اسمية؛ ليس المبتدأ فيها ضميراً؛ تقول: جاؤوا وسيوفهم على عواتقهم. نحارب عدونا وأرواحنا على أكفنا. دخل العرب حرب سبعة وستين وبأسهم بينهم شديد(2). ومنه قوله سبحانه: ﴿وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢](3).

وقد تجيء بدون واو:

---

(١) مرَّ فيما مضى.

(٢) ونفي مثل هذه الجمل يجوِّز حذف الواو، ولكن وجودها أرجح.

(٣) الواو هنا ليست للعطف، بل هي واو الحال.

١ - إذا قدِّم الخبر على المبتدإ؛ سواء كان الخبر جاراً ومجروراً أم غير ذٰلك:

فمن الأول قول بشار[١]:

إذا أنْكَرَتْني بَلْدَةٌ أو نَكِرْتُها ... خَرَجْتُ مَعَ البازي عليَّ سَوادُ[٢]

فإن قوله: «عليَّ سواد»؛ جملة حالية، وهي جملة اسمية؛ ليس المبتدأ فيها ضميراً، وإنما حسَّن ترك الواو فيها تقديم الجار والمجرور.

ومنه قول أميَّة[٣]:

فاشْرَبْ هَنيئاً عليكَ التاجُ مُرْتَفِقاً ... في رأسِ غُمْدانَ داراً منكَ مِحْلالا[٤]

وقول الآخر:

لقَدْ صَبَرَتْ للذُّلِّ أعوادُ مِنْبَرٍ ... تَقومُ عليها في يَدَيْكَ قَضيبُ[٥]

ومن ذٰلك قولك: جاءني على كتفه سيفه، ورأيتهن على وجوههن الاستحياء.

---

(١) «ديوان بشار»، «الدلائل» (٢٠٣).

(٢) وكلمة سواد مرفوعة؛ إما على أنها مبتدأ مؤخر، وإما على أنها مرفوعة بما دل عليه الجار والمجرور، أي: كائن أو مستقر عليَّ سوادٌ، فتكون فاعلاً لـ (كائن) أو (مستقر).

(٣) أمية بن عبد الله بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف، قدم دمشق قبل الإسلام، وكان مطلعاً على الكتب القديمة، يلبس المسوح تعبداً، وهم ممن حرموا على أنفسهم الخمر، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية، توفي سنة (٥ هـ)، ولم يدخل في الإسلام. قال الأصمعي: ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة. [الأعلام: ٢/ ٢٣].

(٤) «ديوانه»، و«الدلائل» (ص ٢٠٣).

غمدان: في رأس جبل بناحية صنعاء. ومنه محلال: إذا أكثر الناس الحول بها، فهي مختارة للنزول بها.

(٥) البيت لوائلة بن خليفة السدوسي؛ يهجو عبد الملك بن المهلب، «البيان والتبيين» (١/ ٢٩١، ٢٩٢)، «الأغاني» (٧/ ١٦٩).

ومثال ما لم يكن فيه الخبر ظرفاً قوله:

إذا أتَـيْتَ أبـا مَروانَ تسـألُـهُ   وجَـدْتَـهُ حاضِـراهُ الجـودُ والكَـرَمُ[1]

فإن الذي حسَّن ترك الواو هنا تقديم الخبر، ولو أنه أخر ما حسن تركها، بل كان ينبغي أن يقال: والجود والكرم حاضراه.

٢ ـ إذا تقدم على الجملة الاسمية الحالية حال مفردة:

ومنه قول ابن الرومي:

واللهُ يُبْـقـيكَ لَنـا سالِـمـاً   بُرداكَ تَبْـجـيلٌ وتَـعْـظيمُ[2]

فإن قولـه: (بُـرداك)؛ جملة حالية جاءت دون واو، والـذي حسَّن هٰذا قولـه: «سالماً»، وهي حال مفردة، ولو حُذفت؛ لكان الكلام نابياً بدون الواو، فلا يقال: والله يبقيك لنا برداك. وإنما: وبرداك.

ويمكن أن نمثِّل لذلك بقولنا: جاءني مبتسماً يداه تتسابقان في العطاء. فإذا حذفنا (مبتسماً)؛ فالأحسن أن نقول: جاءني ويداه.

■ الحالة الرابعة: ترجح ترك الواو:

من محسِّنات ترك الواو أن تتقدم على الجملة أداة من الأدوات؛ كقول الفرزدق[3]:

فقلتُ عسى أنْ تُبْصِـريني كأنَّمـا   بَنِـيَّ حوالَـيَّ الأسـودُ الـحـوارِدُ[4]

فإن قوله: «بني حوالي»؛ جملة حالية، وإنما حسَّن ترك الواو فيها قوله: «كأنما»، ولو أنك حذفت هٰذه الأداة؛ لوجدت الكلام ينبو بدون الواو، فلا يكون مقبولاً أن يقال:

---

(١) البيت ينسب للأخطل، «الدلائل» (ص ٢٠٤).

(٢) «ديوانه» (٢٣١٥)، «الدلائل» (٢١٢).

(٣) «ديوان الفرزدق»، و«معاهد التنصيص» (١/ ٣٠٤).

(٤) الحوارد: جمع حارد، وهو المجتمع الخلق، المهيب المنظر، يرى لعزته كالغضبان.

عسى تبصريني بني حوالي كالأسود. وإنما: عسى أن تبصريني وبني حوالي كالأسود الحوارد.

وربما تأتي الجملة الحالية من غير هٰذه الأسباب بدون واو، ولكن على قلة، من ذٰلك قولهم: كلمته فوه إلى فيَّ. ورجع عوده على بدئه. إذا رفعنا كلمة (عود)؛ لأنها إذا نُصبت لا تكون جملة اسمية، فليست مما نحن بصدده.

ويرى الشيخ عبدالقاهر أنها جاءت بدون واو؛ لأنها تؤوَّل بمفرد، فقولنا: كلمته فوه إلى فيَّ أي: مشافهة. وقولنا: رجع عوده على بدئه. معناه ذاهباً في طريقه الذي جاء منه.

ومما جاء في ذٰلك من الشعر قول المسيب بن علس[1]:

نَصَفَ النَّهارُ الماءُ غامِرُهُ ... ورَفيقُهُ بالغَيْبِ لا يَدْري[2]

فإن قوله: «الماء غامره»؛ جملة حالية، جاءت بدون واو.

ومنه قول سلامة بن جندل[3]:

ولولا جَنانُ الليلِ ما آبَ عامِرٌ ... إلى جَعْفَرٍ سِرْبالُهُ لَمْ يُمَزَّقِ[4]

---

(١) المسيب بن علس بن مالك بن عمرو بن قمامة من ربيعة بن نزار، شاعر جاهلي، كان أحد المقلين المفضلين في الجاهلية، وهو خال الأعشى ميمون، وكان الأعشى راويته.

(٢) «شعر الأعشى» (٣٥٢)، «الدلائل» (٢٠٣).
يصف غواصاً يغوص في الماء لاستخراج الدرر، أي: ظل في الماء غائصاً من الصباح حتى الظهر، وصديقه واقف على البر ممسكاً بالحبل لا يدري عنه شيئاً.

(٣) سلامة بن جندل بن عبد عمرو من بني كعب بن سعد التميمي، أبو مالك، شاعر جاهلي من الفرسان، من أهل الحجاز، في شعره حكمة وجودة، وهو من وصاف الخيل، توفي سنة (٢٣ ق. هـ). [الأعلام: ٣/ ١٠٦].

(٤) «ديوانه» (٢٠٤)، و«الأصمعيات» رقم (٤٢).
وقوله: سرباله لم يخرق: أي لم تخرقه الرماح والسهام. وجنان الليل: ما يسترك من ظلمته.

فقوله: «سرباله لم يمزق»؛ جملة حالية جاءت بدون واو.

مما تقدم تدرك أن الجملة الاسمية إذا كانت حالاً؛ ترجَّح اقترانها بالواو، إلا إذا كان هناك سبب يحسِّن ترك هٰذه الواو؛ كتقدم الخبر أو تقدم حال مفردة، أو أداة، فإن لم يكن من ذٰلك شيء؛ قل مجيئها بدون الواو؛ وربما يؤوَّل بعض ما جاء منه؛ كما رأيت في قوله: كلمته فوه إلى فيَّ. ورجع عوده على بدئه.

■ الحالة الخامسة: أن يتساوى الأمران:

وذٰلك إذا كان الحال جملة فعلية فعلها مضارع منفي أو فعلٌ ماضٍ، ولا بد حينذاك من وجود (قد) ظاهرة أو مقدرة.

فمثال المضارع بدون واو: كلمته لا أخشاه. رأيته ينفق لا يخشى الفقر. ومنه قوله سبحانه: ﴿وتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرونَ﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله سبحانه: ﴿والله أخْرَجَكُم مِن بطونِ أمَّهاتِكُم لا تَعْلَمونَ شَيئاً﴾ [النحل: ٧٨]، فقوله: ﴿لا يُبْصرون﴾، ﴿لا تَعْلَمونَ شَيْئاً﴾؛ جمل حالية لم تقترن بالواو.

ومن ذٰلك قول عكرشة[١]:

ثَوَوْا لا يُريدونَ الرواحَ وغالَهُم ... مِن الدَّهرِ أسبابٌ جَرَيْنَ على قَدْرِ[٢]

وقال أرطاة بن سهية[٣]:

إن تَلْقَني لا تَرى غَيْري بناظِرَةٍ ... تَنْسَ السِّلاحَ وتَعْرِفْ جَبْهَةَ الأسَدِ[٤]

---

(١) أبو الشغب العبسي: شاعر من شعراء الدولة الأموية واسمه عكرشة.

(٢) «شرح الحماسة» (٣/ ١٠٥٥)، «مجالس ثعلب» (٢٤٢).

(٣) أرطاة بن زفر بن عبد الله بن سهية، وهي أمه بنت زامل، وقيل: كانت أمه لضرار بن الأزور، وصارت إلى زفر وهي حامل، فجاءت بأرطاة شاعر من فرسان الجاهلية، معمر، عاش قريباً من نصف عمره في الإسلام، وأدرك خلافة عبدالملك بن مروان، ودخل عليه وعمره (١٣٠) سنة، وعمي قبل وفاته، توفي سنة (٦٥هـ).

(٤) «الأغاني» (١٣/ ٣٤)، «الدلائل» (٢٠٩).

ومنه قول أعشى همدان(١):

أتَيْنا أصْبهانَ فهزَّلَتْنا ... وكُنّا قبلَ ذلكَ في نَعيمِ
وكانَ سَفاهَةً منّي وجَهْلاً ... مَسيري، لا أسيرُ إلى حَميمِ(٢)

فقوله: «لا يريدون الرواح» في البيت الأول، وقوله: «لا ترى» في البيت الثاني، وقوله: «لا أسير إلى حميم» في البيت الثالث؛ جمل حالية جاءت بدون واو.

ومثالها في الفعل الماضي قوله تعالى: ﴿إلا الذينَ يَصِلونَ إلىٰ قَوْمٍ بينَكُمْ وبَيْنَهُم ميثاقٌ أَوْ جاؤوكُمْ حَصِرَتْ صُدورُهُم﴾ [النساء: ٩٠]، فقوله: ﴿حصرت صدورهم﴾؛ جملة حالية.

وكقول حندج بن جندح المري:

مَتى أرى الصبحَ قد لاحَتْ مَخايِلُهُ ... والليلُ قد مُزِّقَتْ عنهُ السَّرابيلُ(٣)

وقول عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني(٤):

فآبوا بالرِّماحِ مُكَسَّراتٍ ... وأُبْنا بالسُّيوفِ قَدِ انْحَنَيْنا(٥)

وقال آخر:

يَمْشونَ قد كَسَروا الجُفونَ إلى الوَغى ... مُتَبَسِّمينَ وفيهِمُ اسْتِبْشارُ(٦)

فقوله في البيت الأول: «قد مزقت عنه السرابيل»؛ جملة حالية، وكذلك قوله في

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني، شاعر اليمانيين بالكوفة، وفارسهم في عصره، يعد من شعراء الدولة الأموية، كان أحد الفقهاء والقراء، توفي سنة (٨٣ هـ).

(٢) «مجموع الأعشين» (٣٤١)، «الأغاني» (٦/ ٤٣)، «الدلائل» (٢٠٩).

(٣) «شرح الحماسة» (٤/ ١٨٢٨)، «الدلائل» (٢١٠).

(٤) هو شاعر جاهلي كما يظهر من تسميته؛ لأن الشارق اسم صنم لهم.

(٥) «ديوان الحماسة» (١/ قصيدة رقم ١٥٢).

(٦) «الدلائل» (ص ٢١٠).

البيت الثاني: «قد انحنينا»، و «قد كسروا» في البيت الثالث، أي: والليل ممزقة عنهم السرابيل، والسيوف منحنيات، وكاسري الجفون.

ومنه قولك: جاءني قد اشتد ساعداه، ورأيته أنهكه التعب، وأبصرته شفَّه الوجد.

ومثال مجيء الواو: أجوع ولا أرضى الذلَّ. أي: أجوع غير راض بالذل مهما بلغ الجوع مني مبلغه.

ومنه قول مسكين الدارمي[1]:

أكـسـبـتـه الـوُرْق الـبـيض أبـاً ... ولـقـد كانَ ولا يُدْعـى لأبْ[2]

فق ه: «ولا يدعى لأب»؛ جملة حالية اقترنت بالواو.

و ل مالك بن ربيع ـ وكان جنى جناية، فطلبه مصعب بن الزبير ـ:

بَغـانـي مُصْـعَـبٌ وبَـنـو أبـيهِ ... فأينَ أحـيدُ عنـهُـم لا أحـيدُ

أقـاد[3] من دَمـي وتَـوَعَّـدونـي ... وكـنـتُ ومـا يُنَـهْـنِـهُـنـي الـوعيدُ[4]

والشاهد في قوله: «وما ينهنهني الوعيد»، فإنها جملة مقترنة بالواو، مع أنها فعل مض ع منفي.

---

(1) ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح الدارمي التميمي، شاعر عراقي شجاع، من أشراف تميم، لقب مسكيناً لأبيات «أنا مسكين لمن أنكرني»؛ توفي سنة (٨٩ هـ).

(2) «الأغاني» (٢٠/ ٢١١).

(3) أقادوا: أي جعلوا من دمي قوداً.

(4) «الدلائل» (ص ٢٠٨)، وفي «الأمالي» (٣/ ١٢٧).

قال: وأنشدنا الزبير بن بكار لمالك ابن أخي رفيع الأسدي؛ قال: أنشدنيها ابن أنس الأسدي، وكان صعلوكاً، فطلبه مصعب بن الزبير، فهرب منه، وقال:

بغـانـي مصـعـب وبـنـو أبـيه ... فأين أحـيد منـهـم لا أحـيد

أسـود بالـحـجـار على أسـود ... خوادر ما تنـهـنـهـهـا الأسـود

أقـادوا من دمـي وتـوعـدونـي ... وكـنـت ومـا ينـهـنـهـني الـوعـيد

ومثاله في الماضي قولك: جئت وقد أجهدني السير. سهرت وقد أزعجتني أحوال الأمة. ومنه قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

تلك خلاصة للجملة الحالية من حيث اقترانها أو عدم اقترانها بالواو.

ويمكنك بعد هٰذا أن تتدبر من ذٰلك في كتاب الله تعالى، وحديث الرسول ﷺ، وفي الشعر والنثر، وأن تنزل كلامك على ذٰلك، والله يتولانا بفضله.

□□□

□ المبحث السادس :

عطف الجمل

هٰذا بحث دقيق، ومسلك يحتـاج إلى فطنـة، وسأحصر الحديث لك عنه في مطلبين اثنين :

المطلب الأول في عطف الجملة على ما قبلها.

المطلب الثاني في تناسق الجمل المعطوفة.

* المطلب الأول :

عطف الجملة على ما قبلها

وخـلاصة هٰذا المطلب أن الجملة المعطوفة حريٌّ بها أن تُعطف على ما قبلها مباشرة، وذٰلك مثل قوله سبحانه : ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا اصْبِروا وصابِروا ورابِطوا﴾ [آل عمران : ٢٠٠]، وقوله سبحانه : ﴿فألْقى عَصاهُ فإذا هِي ثُعبانٌ مُبينٌ . ونَزَعَ يَدَهُ فإذا هِي بيضـاءُ للنَّاظرينَ﴾ [الأعراف : ١٠٧ ـ ١٠٨]؛ ففي الآية الأولى جمل إنشائية عُطف بعضها على بعض، وفي النص الثاني جملتان خبريتان عُطفت إحداهما على الأخرى، هٰذا هو المتبادر.

ولكننا قد نجد الجملة معطوفة، فإذا نحن أنعمنا النظر؛ وجدنا أنه لا يجوز عطفها على ما قبلها مباشرة، وإنما ينبغي أن تُعطف على جملة سابقة للتي قبلها، وذٰلك إذا كان في النص جمل متعددة، فإذا جئنا للجملة الأخيرة لنعطفها على ما قبلها؛ وجدنا ذٰلك غير ممكن؛ لأنه يخلُّ بالمعنى، فلا بد أن نبحث عن جملة سابقة لهٰذه الجملة، حتى يصح العطف عليها، وهٰذا مسلك دقيق ـ كما قلت من قبل ـ لأنه يتعلق بالمعاني.

ومثال ذٰلك قوله تعالى : ﴿وابْتَلوا اليَتامى حتى إذا بَلَغوا النِّكاحَ فإنْ آنَسْتُم منهُم

رُشْداً فادْفعوا إليهِمْ أموالَهُم ولا تأْكُلوها إسرافاً وبِداراً أنْ يَكْبَروا﴾ [النساء: ٦].

في هٰذا النص الكريم أكثر من جملة، الجملة الأولى: ﴿وابتلوا اليتامى﴾، والجملة الثانية؛ جملة الشرط والجواب: ﴿فإنْ آنَسْتُم منهُم رُشداً فادْفعوا﴾، والجملة الثالثة: ﴿ولا تأْكُلوها إسرافاً وبداراً﴾، والمتبادر للفهم لأول وهلة أن قوله تعالى: ﴿ولا تأْكُلوها﴾ معطوف على الجملة التي قبلها، وهي: ﴿فادفعوا﴾، ولكنا إذا حققنا ذٰلك، وأنعمنا النظر فيه؛ نجد أن ذٰلك لا يجوز؛ لأنه لا يستقيم به المعنى.

بيان ذٰلك أننا إذا قلنا: فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا ولا تأكلوا. كان النهي عن الأكل معطوفاً على جواب الجملة الشرطية، والمعنى: إنكم حينما تأنسون رشداً من اليتامى، ينبغي أن تدفعوا إليهم أموالهم، ولا تأكلوها. فيكون النهي عن الأكل بعد إيناس الرشد منهم، وهٰذا غير صحيح؛ لا يستقيم به المعنى، وتأباه الشريعة، ويرفضه الذوق البياني، ويأباه نظم الآية؛ ﴿ولا تأْكُلوها إسْرافاً وبداراً أنْ يَكْبَروا﴾، والمعنى: لا تستغلوا ضعف اليتامى، فتبادروا إلى أكل أموالهم قبل أن يكبروا. فالنهي عن الأكل إذن مقيد بهٰذه الحالة، فكيف نعطف الجملة على دفع الأموال الذي لا يكون إلا بعد كبرهم، وإيناس الرشد منهم، ولو عُطفت عليه؛ لكان النهي عن الأكل مقيداً بحال الكبر فقط؛ لأن النهي عن الأكل مطلق قبل الإيناس وبعده، لذا فنحن مضطرون إلى أن نبحث عن جملة أخرى يُعطف عليها قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوها﴾، وهٰذه الجملة هي قوله تعالى: ﴿وابْتَلوا اليَتامى﴾؛ ويكون المعنى مستقيماً حينذاك.

وهاك مثالاً آخر، وهو ما ذكره الشيخ في «دلائل الإعجاز»، وهو قوله سبحانه: ﴿وما كنتَ بجانِبِ الغَرْبِيِّ إذ قَضَيْنا إلى موسى الأمرَ وما كُنْتَ مِن الشاهِدينَ . ولكنَّا أنْشأنا قُروناً فتطاولَ عليهِمُ العُمُرُ وما كُنْتَ ثاوِياً في أهلِ مَدْيَنَ تَتْلو عليهِمْ آياتِنا ولكنَّا كُنَّا مُرْسِلينَ . وما كُنْتَ بجانِبِ الطُّورِ إذْ نادَيْنا ولٰكنْ رحمَةً مِن ربِّكَ لتُنْذِرَ قوماً ما أتاهُمْ مِن نَذيرٍ مِن قبلِكَ لعلَّهُم يَهْتَدونَ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦].

هٰذه جمل كثيرة، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وما كُنْتَ ثاوِياً في أهلِ مدْيَنَ﴾؛ تجد

أن الجملة التي جاءت قبلها قوله تعالى: ﴿ولكنَّا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمرُ﴾، ولكنك إذا أجلت الفكر، وتأملت المعنى، وجدت أنه يستحيل عليك أن تعطف قوله تعالى: ﴿وما كنتَ ثاوياً﴾ على قوله سبحانه: ﴿ولكنَّا أنْشأنا قروناً فتطاولَ عليهِمُ العُمرُ﴾؛ لأن المعنى حينذاك يصير هٰكذا: أنشأنا قروناً، فتطاول عليهم العمر - أي طال عليهم الزمن - وما كنت مقيماً في أهل مدين، وهٰذا غير صحيح؛ لأن البديهة تأباه، وإذن فلا بد أن نبحث لهٰذه الجملة في الآية الكريمة عن جملة أخرى نعطفها عليها، وهٰذه الجملة ليست إلا قوله تعالى: ﴿وما كُنْتَ بجانِبِ الغَرْبِيِّ﴾.

وقد ذكر الشيخ - رحمه الله تعالى - مثالاً من الشعر لهٰذا الأسلوب، وهو قول المتنبي من قصيدته التي يمدح فيها بدر بن عمار:

تَوَلَّوْا بغْتَةً فكأنَّ بَيناً ... تَهَيَّبَني ففاجأني اغْتِيالا
فكانَ مسيرُ عيسِهِمُ ذَميلاً ... وسَيرُ الدَّمْعِ إثْرَهُمُ انْهِمالا
كأنَّ العيسَ كانَتْ فوقَ جَفْني ... مُناخاتٍ فلمَّا ثُرْنَ سالا[1]

يقول المتنبي: لقد أدبروا بغتة على غير علم، فكأن البعد تهيبني، ففاجأني غيلة، وكان سير إبلهم سيراً متوسطاً، ليس فيه بطء ولا إسراع، ودموع العين تنسكب إثرهم بقوة وغزارة، كأن هٰذه العيس كانت مناخة وجاثمة على جفني، فلما قمن للسير؛ سال دمع العين، فكأنها هي التي كانت تحبس دمع العين، وتمنعه من الانسكاب. وهو خيال فيه خصوبة وإبداع.

والذي يعنينا من هٰذا كله قوله: «فكان مسير عيسهم»؛ فإن هٰذه الجملة تقدمها قوله: «كأن بيناً تهيَّبني ففاجأني». ولا يجوز أن نعطفها عليها؛ لأنها تكون داخلة ضمن ما توهمه المتنبي من أن البين تهيبه، ففاجأه اغتيالاً، فهو قد توهم هٰذا، فإذا عطفنا: «فكان مسير عيسهم ذميلاً»؛ فإن مسير العيس يكون متوهماً كذٰلك، وكأنه لا مسير في

---

(١) «ديوانه» (٣ / ٣٣٨).

العيس: الكرام من الإبل. الزميل: السير المتوسط.

الحقيقة، والأمر ليس كذٰلك، بل إن مسيرهم أمر محقق، إذ لا بد من جملة تُعطف عليها هٰذه الجملة، بحيث يكون المعنى صحيحاً مقبولاً، والجملة التي يصح العطف عليها هي قوله: «تولوا بغتة»، ويكون المعنى: أدبروا ورحلوا، فسارت إبلهم سيراً ذميلاً. وهٰذا معنى لا غبار عليه»[1].

☐ المطلب الثاني:

تناسق الجمل المعطوفة

إن عطف الجملة على الجملة المشابهة لها من حيث التركيب يكون أكثر انسجاماً، وتكون النفس أكثر قبولاً له، كأن تعطف الجملة الاسمية عى جملة اسمية، وأن تعطف الجملة ذات الفعل المضارع على مثلها، وكذٰلك الجملة ذات الفعل الماضي، وهٰذا هو الأصل؛ كقولنا: يقوم ويقعد، وقام وقعد.

وفي التنـزيل منه كثير؛ قال تعالى: ﴿فإنَّهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمينَ . الذي خَلَقني فهو يَهْدينِ . والذي هُو يُطْعِمُني ويَسقينِ . وإذا مَرِضْتُ فهُو يَشْفِينِ . والذي يُميتُني ثُم يُحيينِ﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨١]، وقال تعالى: ﴿ونادى نوحٌ ربَّهُ فقالَ ربِّ إنَّ ابني مِن أهْلي﴾ [هود: ٤٥]، وقال: ﴿وأنَّهُ هو أضْحَكَ وأبكَى . وأنَّهُ هُو أماتَ وأحْيا﴾ [النجم: ٤٣ ـ ٤٤].

فأنت ترى أن هنا جملًا اشتركت في المضي؛ عُطفت بعضها على بعض،

---

(١) يرى الدكتور شوقي ضيف أن عبد القاهر استفاد هذا من أرسطو، ولا نوافقه على ذلك، فإن من هم أقل شأناً من عبد القاهر لا يخفى عليهم هذا، فما بالك بالشيخ وقد علك اللغة شيحها وقيصومها، وأعطي عظيم حظ من تحقيق، وحفظ ومعرفة بدقيق المعنى، والبارع من اللفظ؟ ولكن الدكتور شوقي ضيف متأثر بأستاذه الدكتور طه حسين، وقد بسطنا القول في هذا في كتابنا «البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية».

وأخرى اشتركت في المضارعة؛ عُطفت بعضها على بعض كذلك، وهذا من محسنات الوصل ـ كما يقولون ـ.

ولكن قد يخالف هذا الأصل؛ لحكمة بيانية، وغرض بلاغي، فقد تُعطف الجملة الاسمية على فعلية، والمضارع على الماضي، وبالعكس.

الجملة الاسمية ـ كما عرفنا من قبل ـ تدل على الثبوت، والجملة الفعلية تدل على الحدوث، والفعل المضارع يدل على التجدد؛ كما يُقصد منه استحضار صورة الماضي، فإذا قُصد معنى من هذه المعاني؛ غُوير في العطف بين الجمل، فإذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿وإنْ تَدعوهُم إلى الهُدى لا يَتَّبِعوكُمْ سَواءٌ عليكُمْ أدعَوْتُموهُم أمْ أنتُم صامِتونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]؛ فإن قوله تعالى: ﴿أنتم صامِتونَ﴾؛ جملة اسمية عُطفت على قوله سبحانه: ﴿أدَعَوْتُموهم﴾، وهي جملة فعلية، فمقتضى الظاهر أن يقال: دعوتموهم أم صمتُّم. ولكن غُوير بين الجملتين؛ لهدف بلاغي، وهو بيان أن صمتهم ـ أي المسلمين أو الدعاة ـ أمر ثابت دائم؛ لأن دعوتهم لا تجدي شيئاً.

ومثله قوله سبحانه حكاية عن قوم أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قالوا أجِئْتَنا بالحَقِّ أمْ أنتَ مِن اللاَّعِبينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، فإن قوله سبحانه: ﴿أنت من اللاعبين﴾؛ جملة اسمية عُطفت على جملة فعلية، وهي قوله سبحانه: ﴿أجئتنا بالحقِّ﴾، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: جئتنا بالحق أم لعبت ولهوت. ولكن القوم أرادوا بتعنُّتِهم أن يصوّروا إبراهيم ﷺ بأن دأبه وشأنه اللعب واللهو، ذلك هو ديدنه، وتلك هي طبيعته، فعدلوا إلى الجملة الاسمية بدل الفعلية.

ومن هذا القبيل قوله تعالى نعياً على اليهود، وتوبيخاً لهم: ﴿فَفَريقاً كذَّبْتُم وفريقاً تَقْتُلونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، فمقتضى الظاهر أن يقال: فريقاً كذبتم وقتلتم. ولكن لما كان القتل شيئاً شنيعاً مستعظماً؛ عدل عن الماضي إلى المضارع؛ لأن المضارع استحضار صورة الماضي؛ لتكون ماثلة أمام النفس، فتكون أكثر تأثيراً، وتكون النفس منها أشد اشمئزازاً.

وعكس هٰذا قوله سبحانه: ﴿إذ تَسْتَغيثونَ ربَّكُم فاسْتجابَ لكُم﴾ [الأنفال: ٩]، فإنه عبر عن الاستغاثة بالفعل المضارع استحضاراً للصورة، وعبَّر عن الاستجابة بالفعل الماضي؛ لأن فيها زيادة اطمئنان للنفوس.

وهٰذا كثير يدركه من تأمل ونظر في الكلام البليغ، وتذوق النظم؛ لينسج على منواله، وقد مرَّ معنا من هٰذا القبيل: نجوت وأرهنته مالكاً. وقمت وأصك وجهه.

■ ■ ■

هٰذه هي موضوعات الفصل والوصل، أما الجامع؛ فقد رأينا أن لا نعرض له؛ لأنه بحث أقحم إقحاماً في البلاغة، وهو لا ينمي الثروة البيانية بشيء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

□ □ □

تدريب

* بيِّن مواضع الفصل والوصل فيما يأتي مع ذكر السبب، واستخرج الجمل الحالية التي فيها:

١ - قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوا إلى الطَّيرِ مُسَخَّراتٍ في جوِّ السماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الله إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

٢ - وقال تعالى: ﴿وإذْ قالَ ربُّكَ للملائِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا أتَجْعَلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٣ - وقال تعالى: ﴿واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلا بالله ولا تَحْزَنْ عليهِمْ ولا تَكُ في ضيقٍ مما يَمْكُرونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

٤ - وقال تعالى: ﴿وترى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهِيَ تَمُرُّ مرَّ السَّحابِ﴾ [النمل: ٨٨].

٥ - وقال تعالى: ﴿ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ﴾ [المدثر: ٦].

٦ - قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»(١).

٧ - وقال ﷺ: «الأرواح جنود مجندة؛ ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»(٢).

٨ - وقال ﷺ: «أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»(٣).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة، ولكل امرىء ما نوى، باب رقم (٣٩)، حديث رقم (٥٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب: الأرواح جنود مجندة رقم (١٦٠)، وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب رقم (٢).

(٣) «سنن الترمذي»، كتاب الزهد، باب: في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، رقم الباب (٩)، رقم الحديث (٢٣١٣)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

٩ - وفي الأثر: «الحق لا يبلى، والدين لا ينسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت».

١٠ - قال علي كرم الله وجهه: «دع الإسراف مقتصداً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدِّم الفضل ليوم حاجتك».

١١ - قال أبو العلاء المعري:

لا يعجبنَّكَ إقبالٌ يريكَ سَنا ... إنَّ الخُمودَ لعَمري غايةُ الضرمِ

١٢ - وقال الغزِّي يشكو الناس:

يَصُدُّونَ في البأساءِ مِن غير علَّةٍ ... ويَمْتَثِلونَ الأمرَ والنَّهْيَ في الخَفْضِ

١٣ - قالتْ بَليتَ فما نَراكَ كَعَهْدِنا ... ليتَ العهودَ تَجَدَّدَتْ بعد البِلى

١٤ - قال عمارة اليمني:

وغدرُ الفَتى في عهدِهِ ووفائِهِ ... وغدرُ المواضي في نُبُوِّ المضاربِ[1]

١٥ - قال المتنبي:

أعَزُّ مكانٍ في الدُّنا سرجُ سابحٍ ... وخَيْرُ جليسٍ في الزَّمانِ كِتابُ[2]

١٦ - يرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً ... إنَّ الكريمَ يرى في مالِهِ سُبُلا

١٧ - قال أبو تمام:

ليسَ الحِجابُ بمُقْصٍ عنكَ لي أملاً ... إنَّ السماءَ تُرَجَّى حينَ تَحْتَجِبُ[3]

---

(١) المواضي: السيوف القاطعة. ونبو المضارب: عدم قطعها.

(٢) «ديوانه» (١ / ٣١٩).
الدنا: جمع دنيا. السابح: الفرس السريع الجري. يقول: سرج الفرس أعز مكان؛ لأن صاحبه يجاهد عليه في طلب المعالي، والكتاب خير جليس؛ لأنه مأمون الأذى.

(٣) «ديوانه» (ص ٢٢)، فسر ألفاظه محيي الدين الخياط.

١٨ ـ قال عكرشة:

ثَوَوْا لا يُريدونَ الرَّواحَ وغالَهُم ... مِن الدَّهْرِ أسبابٌ جَرَيْنَ على قَدْرِ

١٩ ـ قال خالد بن يزيد بن معاوية:

لو أنَّ قوماً لارتفاع قبيلةٍ ... دَخلوا السَّماءَ دَخَلْتُها لا أحجَبُ(١)

٢٠ ـ لا تأخُذَنِّي بأقوالِ الوُشاةِ ولم ... أذْنِبْ وإنْ كَثُرَتْ فيَّ الأقاويلُ

٢١ ـ قال امرؤ القيس:

فجئتُ وقد نَضَّتْ لنومٍ ثِيابَها ... لدى السِّتْرِ إلا لبسةَ المُتَفَضِّلِ(٢)

٢٢ ـ عَهِدْتُكَ لا تصبو وفيكَ شبيبَةٌ ... فما بكَ بعدَ الشَّيبِ صبًّا مُتَيَّماً

٢٣ ـ قال المتنبي:

ذلَّ مَن يغبطُ الذليلَ بعَيْشٍ ... رُبَّ عيشٍ أخَفُّ منهُ الحِمامُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوانُ عليهِ ... ما لِجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ(٣)

٢٤ ـ يَهْوى الثناءَ مُبَرِّزٌ ومُقَصِّرٌ ... حُبُّ الثَّناءِ طَبيعَةُ الإنسانِ

٢٥ ـ كَفى بالشَّيْبِ واعِظاً ... صَلاحُ الإنسانِ حفظُ الوِدادِ

٢٦ ـ فليتَكَ تَحْلو والحَياةُ مَريرَةٌ ... وليتَكَ تَرْضى والأنامُ غِضابُ

٢٧ ـ قالَ عمرُ بنُ أبي ربيعة:

حورٌ حَرائِرُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كَظِباءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ

٢٨ ـ وما أُبَرِّىءُ نفسي إنَّني بشرٌ ... أسْهو وأخطِىءُ ما لَمْ يَحْمِني القَدَرُ

---

(١) «الخزانة» (٣/ ١٩١)، «الدلائل» (٢٠٩).

(٢) «الديوان» (ص ١٤)، تحقيق محمد أبو الفضل.
نضت: نزعت. واللبسة: هيئة اللباس. والمتفضل: اللابس ثوباً واحداً رقيقاً.

(٣) «ديوان المتنبي» (٤/ ٢١٦).

٢٩ ـ ألا لَيْتَ شِعْـري هَلْ أبيتَنَّ ليلَةً بمَـكَّـةَ حَوْلي إذْخِـرٍ وجَـليلُ[1]

* **أيها أصح :**

جاء محارباً يداه ترتعشان .

جاء يداه ترتعشان .

جاء ويداه ترتعشان؟

* **متى تحسن الواو في هٰذه الجمل؟ ولم؟**

جاءت مواسية على وجهها استحياء .

جاءت وجهها يتهلل .

* **علام تعطف الجملتين الأخيرتين في المثالين الآتيين؟ ولم؟**

اقرأ كتاب الله ، فإن عسر عليك الفهم ، فاسأل العلماء ، وتدبر آياته .

تجنبي مواضع الشبهات ، فإن وقعت في مأزق ؛ فاستعملي ذكاءك ، وقومي بواجبك .

□□□

(١) الإذخر: نبات طيب الرائحة، الواحدة: إذخره. والجليل: النخلة العظيمة الكثيرة الحمل.

الفصل العاشر

الإيجاز والإطناب والمساواة

وسوف نتحدث عن هٰذا الموضوع في أربعة مباحث؛ نجعل المبحث الأول منها بمثابة مدخل للموضوع وتعريف به، أما المباحث الثلاثة التالية؛ فسوف نفردها لكل من الإيجاز، والإطناب، والمساواة؛ كل على حدة.

□ المبحث الأول:

مدخل وتعريف

لم يخصَّ عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ في كتابه «دلائل الإعجاز» هٰذا الموضوع بباب مستقل، وما ذٰلك إلا لأنه يتحدث عن نظرية النظم؛ ليضع لها قواعدها المنضبطة، وأسسها الثابتة.

والإيجاز، والإطناب، والمساواة؛ يمكن أن تختلف فيها الأفهام، فما يعدُّه بعضهم إيجازاً مثلاً، يعده آخرون من باب المساواة، أو الإطناب، وسنطلعك على طرف من هٰذا إن شاء الله.

وليس معنى هٰذا ـ أي: عدم ذكر الشيخ عبدالقاهر لها بباب مستقل ـ يغض من شأن هٰذا الموضوع، مع أنه رحمه الله تعالى أشار إلى شيء من هٰذا في ثنايا كتابه عند الحذف وغيره، بل إن الإيجاز والإطناب في الحقيقة من الأساليب التي تحتاج إلى

فطنة، حتى جعلهما بعضهم البلاغة، وذلك لدقة مسلكهما.

يقول الأستاذ عبدالرحمن البرقوقي - رحمه الله - في تعليقه على «تلخيص القزويني»:

«هو باب رفيع المنزلة، شامخ الشرف، بل هو أنف البلاغة الذي تعطس منه، ونابها الذي تفتر عنه، وقديماً تكلم العلماء فيه، وأفردوه بالقول والإيضاح»(١).

ولقد عُرفت كلمة الإيجاز قديماً، حتى في العصر الجاهلي، والمتتبع لما كتبه العلماء عن الإيجاز يجد العبارات الكثيرة، التي ترفع من شأنه، وتثني على من رزق حظًّا وافراً منه، ولا عجب أن نجد أن موضوع الإيجاز كان من أسبق موضوعات علم المعاني، التي أشاد بها الكاتبون، فهٰذا هو الجاحظ(٢) كثيراً ما يذكره في كتبه، ومن بعده ابن قتيبة ذكره في كتبه، والرماني(٣)، والباقلاني، كما يطيل الحديث عنه أبو هلال في «الصناعتين»(٤)، وكذٰلك ابن سنان الخفاجي في «سر الفصاحة»(٥)، ولقد أطلق عليه اسم الإشارة تبعاً لقدامة في «نقد الشعر».

وجاء ابن الأثير بعد ذٰلك، فخصَّه بجمل مفيدة، وذكر له شواهد كثيرة من كلام الله وكلام الناس(٦)، فليرجع إلى هٰذه الكتب من شاء.

■ الإيجاز بين الوسيلة والغاية:

وقبل أن نفصل القول في هٰذه الأساليب، نودُّ أن نعرض لقضية قد تكون إلى الشكل أقرب منها إلى الجوهر.

---

(١) (ص ٢٠٩).

(٢) كتاب «الحيوان» (٣ / ٨٦، ٦ / ٧).

(٣) «النكت في إعجاز القرآن»، «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن» (ص ٧٦).

(٤) كتاب «الصناعتين» (ص ١٧٣).

(٥) (ص ١٩٤).

(٦) «المثل السائر» (ص ١٩٤ - ٢١٧).

ذكر بعض الفضلاء من المُحْدَثين(1) أن العرب في جاهليتهم لم تكن لهم معرفة بالقراءة والكتابة، ولم يكن لهم من وسائل الحفظ إلا ما مُنحوه من ذاكرة، وصفاء ذهن، وقوة حافظة؛ لذلك كانوا مضطرين إلى اختصار القول؛ لأن الشيء إذا كَثُر صعب استيعابه، فكانوا مضطرين إلى أسلوب الإيجاز إذن، حتى يَعوا ما يريدون وعيه، ولكي لا تكل ذاكرتهم، ولا تمل حافظتهم.

وكان الأمر قريباً من ذٰلك في العصر الإسلامي، فكان الإيجاز فيه وسيلة كذٰلك، ولما تغيرت الحال، وتبدل الأمر، وصار للقوم علم وفلسفة، وكتب ودواوين؛ غدا الإيجاز غاية لا وسيلة.

ومع تقديرنا وإجلالنا، ومع أن هٰذا التعليل يبدو لأول وهلة منطقيًّا متسقاً مع طبيعة الأشياء، إلا أننا إذا أنعمنا النظر نجد الأمر على عكس ذٰلك، فالعربية أولاً لغةُ الإيجازُ هو من صميم طبيعتها، ومن صلب ذاتياتها، فقد تعبر عن الكلمات الكثيرة بالعبارة القصيرة، فقولك: أعطيتكه. تتكون من كلمات أربع: فعل، وفاعل، ومفعولين. وهٰذا لا يتسنى في أي لغة من اللغات.

ثم إن الحافظة والذاكرة عند أولٰئك كان ينميها ويعين عليها عوامل كثيرة؛ بيئتهم الطبيعية من جهة، وبيئتهم الاجتماعية من جهة، وينبثق عنهما أسباب كثيرة، فعدم التعقيد في العيش، ورواج الصناعة الكلامية، وكونها هي البضاعة الرائجة، وعدم معرفتهم بالقراءة والكتابة، إلى غير ما هنالك من أسباب من شأنها أن تعمل على تنمية هٰذه الحافظة، واستيعاب تلك الذاكرة، ولذا رأينا لهم القصائد الطوال، ومع هٰذا كان الإيجاز فيهم أمراً محموداً، ينتزع من أعطيه إعجاب الآخرين به.

وأكرم الله العرب وغيرهم بالإسلام، ونزل القرآن الكريم، وفيه من الإيجاز ما لا يوجد في غيره، وفضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على غيره ـ حتى من الأنبياء عليهم السلام ـ بأمور منها أنه أُعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، فكان

---

(1) «علم المعاني»، الدكتور عبد العزيز عتيق، (ص ١٨٨).

يعبر عن المعاني الكثيرة بكلمات قليلة، بل أثنى على الذين يتكلمون فيوجزون.

■ تعريف الإيجاز والإطناب:

من كل ما سبق ندرك أن الإيجاز في حد ذاته أمر محمود مرغّب فيه، ولم يكن في يوم ما وسيلة من الوسائل، ولم تحتمه ظروف، وإنما هو غاية؛ ذلك لأن المعنى هو المقصود، فإذا أمكن تأدية هٰذا المعنى بلفظ قليل؛ ففي ذٰلك خير للمتكلم والمخاطب على السواء.

قال ابن سنان:

«والأصل في مدح الإيجاز والاختصار في الكلام أن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام، فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعاني التي هي مقصودة، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء في السهولة، إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر؛ فلا بد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما إلى القصر»[1].

الإيجاز غاية إذن دائماً إذا كان يستدعيه المقام، وتتطلبه أوضاع المخاطبين، فقد عرفنا أن عمود البلاغة بعامة، وعلم المعاني بخاصة؛ هو: لكل مقام مقال. فقد يتطلب المقام الإيجاز، فيكون الإيجاز بلاغة، وتركه تقصيراً، وقد يتطلب المقام الشرح والتفصيل، فيكون أمراً لا مندوحة عنه، ويمثل هٰذا قول أبي داود الإيادي:

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارَةً ... وَحْيُ المَلاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَباءِ

ولكن؛ ما معنى هٰذه الكلمات: الإيجاز، الإطناب، والمساواة؟ وما هو موقف العلماء منها؟

إن نظرة إلى ما كتبه الأدباء وعلماء البلاغة تُطلعنا على ما يلي:

الإيجاز أو الإشارة ـ كما عبَّر عنه قدامة وابن سنان، وابن الزملكاني ـ: هو أن

(1) «سر الفصاحة» (ص ٢٠٣).

تكون الألفاظ أقل من المعنى الذي يُراد التعبير عنه. وهم وإن اختلفوا في تعريف الإيجاز، إلا أن ما قالوه لا يخرج عن هٰذا المعنى.

فالإيجاز ـ إذن ـ: قصد اللفظ مع وفاء المعنى، أو استثمار أقل قدر من الألفاظ في أكبر قدر من المعنى.

ولا بد أن يكون اللفظ وافياً بأداء المعنى، فإن لم يكن وافياً كان في الكلام خلل، ولا يعد من البلاغة في شيء، ولذلك عابوا على كثير من المتكلمين؛ لأن ألفاظهم كانت لا تؤدي المعنى المطلوب.

ليس الإيجاز ـ إذن ـ قلة اللفظ فحسب، بل لا بدَّ من أن يكون المعنى وافياً كاملاً. وهٰذا هو العنصر الأهم.

ولقد فطن الجاحظ إلى هٰذه الجزئية المهمة، فهو يقول:

«ولو أن قائلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز؟! لظننت أنه يقول: الاختصار. والإيجاز ليس يُعنى به قلة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز»(1).

ويقابل الإيجاز الإطناب.

ولكن؛ هل بين الإيجاز والإطناب واسطة؟!

ذهب الأكثرون إلى هٰذا، فقالوا: إن المساواة وسط بين الإيجاز والإطناب، وذهب بعضهم ـ ومنهمْ ابن الأثير ـ إلى أنهُ لا واسطة بينهما.

قال السيوطي في «الإتقان»:

«واختُلف؛ هل بين الإيجاز والإطناب واسطة أو لا؟ وهل هي داخلة في قسم

---

(1) «الحيوان» (1 / 44).

ومعنى كلام الجاحظ أنه قد تكون الألفاظ كثيرة، ويسمى إيجازاً؛ لأن تأدية المعنى لا تكون بأقل من هذه الألفاظ.

الإيجاز؟ فالسكاكي وجماعة على الأول، لكنهم جعلوا المساواة غير محمودة ولا مذمومة؛ لأنهم فسروها بالمتعارف من كلام أوساط الناس الذين ليسوا في رتبة البلاغة، وفسّروا الإيجاز بأداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف، والإطناب أداؤه بأكثر منها؛ لكون المقام خليقاً بالبسط، وابن الأثير وجماعة على الثاني، فقالوا: الإيجاز: التعبير عن المراد بلفظ غير زائد، والإطناب بلفظ أزيد.

وقال القزويني: الأقرب أن يقال: إن المقبول من طرق التعبير عن المراد تأدية أصله، إما بلفظ مساو للأصل المراد، أو ناقص عنه واف، أو زائد عليه لفائدة، والأول المساواة، والثاني الإيجاز، والثالث الإطناب.

واحترز بـ (واف) عن الإخلال، وبقولنا: (لفائدة) عن الحشو والتطويل، فعنده ـ أي القزويني في «التلخيص» ـ ثبوت المساواة واسطة، وأنها من قسم المقبول»[1].

ويقول الأستاذ المراغي ـ رحمه الله ـ:

«واعلم أن علماء البيان افترقوا فرقتين، فرقة منهم تثبت واسطة بين الإيجاز والإطناب، هي المساواة، وعليها درج السكاكي ومن تبع طريقته، وقالوا: إنها ليست محمودة ولا مذمومة، وفرقة ـ منها ابن الأثير ـ في جماعة ذهبوا إلى نفي الواسطة، ومن ثم قسموا إيجاز غير الحذف إلى قسمين: إيجاز تقدير، وهو ما ساوى لفظه معناه من غير زيادة، وهٰذا هو المساواة على الرأي الأول، وإيجاز قصر، وهو ما يزيد معناه على لفظه.

ومما أسلفته لك تعلم أن الخلاف بينهم في الاسم لا المسمى»[2].

□□□

(١) جزء (٣ / ١٨٠).

(٢) «علوم البلاغة» (ص ١٧٦)

□ المبحث الثاني:

الإيجـــاز

وقد قسموه إلى إيجاز حذف، وإيجاز قصر.

فإيجاز الحذف أن نحذف جزءاً من الكلام الذي نعبر به عن المعنى المراد، وقد يكون هٰذا الجزء كلمة، وقد يكون جملة، وهٰذا المحذوف لا بد أن يستغني الكلام عنه، أي: يُفهم بدونه، كما أن هٰذا الحذف لا بدَّ من قرينة تدل عليه.

والأدلة على الحذف كثيرة؛ منها:

ـ دلالة الحال:

وذٰلك مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ أتاكَ حديثُ ضَيْفِ إبراهيمَ المُكْرَمينَ . إذ دَخَلوا عليهِ فقالوا سَلاماً قالَ سلامٌ قومٌ مُنْكَرونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٥]، فإن الحال يدل على أن في الآية أكثر من محذوف.

أ ـ في قوله سبحانه: ﴿فقالوا سلاماً﴾؛ أي: نسلم سلاماً.

ب ـ في قوله سبحانه: ﴿قالَ سلامٌ﴾؛ أي: عليكم سلام.

جـ ـ في قوله سبحانه: ﴿قومٌ منكرونَ﴾؛ أي: أنتم قوم منكرون.

٢ ـ دلالة المقال:

وذٰلكَ مثل قوله سبحانه: ﴿وقيلَ للذينَ اتَّقوا ماذا أنْزَلَ ربُّكُمْ قالوا خيراً﴾ [النحل: ٣٠]، أي: أنزل خيراً. وإنما دلنا على هٰذا المحذوف: (أنزل)؛ القول الذي تقدم عليه: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾.

٣ ـ دلالة العقل:

وقد يرشد إلى المحذوف العقل، وهٰذا المحذوف الذي يُرشد إليه العقل، تارة يعينه العقل نفسه، وتارة يعينه الشرع، وتارة يعينه العرف.

ما دلَّ العقل على حذفه إذن أقسام ثلاثة:

أ ـ ما عينه العقل: وذلك مثل قوله ﷺ في حديث جابر الطويل: «نادِ الجفنة». فقال: يا جفنة الركب! والجفنة لا تُنادى، وإنما يُنادى صاحبها؛ ليحضرها، وهي وعاء كبير يوضع فيه طعام القوم[1].

ب ـ ما عينه الشرع: فقد يدل العقل على الحذف، ولكن الشرع هو الذي يعيِّن المحذوف، وذلك كقوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عليكُمُ المَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، فهل حُرِّم أكلها أم الانتفاع بها من شعر وجلد وغير ذلك؟! الشرع يعين المحذوف هنا، وهو الأكل، وكذلك إذا قلنا: حُرِّم علينا الأسد. فما الذي حرم يا ترى؟ أركبه، أم الانتفاع به؟! الشرع يعين المحذوف، وهو الأكل كذلك.

جـ ـ ما عينه العرف: وقد يدل العقل على أصل الحذف، ولكن العرف هو الذي يعين المحذوف، وذلك كقوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز تخاطب النسوة: ﴿قالتْ فذلك الذي لُمْتُنَّني فيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، فإن العقل هنا يدل على محذوف، فيوسف عليه السلام ليس محلاً للوم، وإنما اللوم في شأن من شؤونه، ويحتمل أن يكون لومهن لها إما على حبها المفرط له؛ لقولهن: ﴿قد شغفها حبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، وإما على مراودته؛ لقوله سبحانه: ﴿وقالَ نسوةٌ في المَدينةِ امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتاها عنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠]، ولكن الحب لا لوم فيه؛ لأنه لا اختيار لصاحبه فيه، وإنما هو شيء خارج عن نطاق إرادته.

العرف إذن يعين المحذوف، وهو المراودة.

٤ ـ دلالة العادة:

وقد يكون هناك محذوف لم يدل عليه العقل، وإنما أشارت إليه العادة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وما أصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقى الجَمعانِ فبإذْنِ اللهِ وليَعْلَمَ المؤمِنينَ.وليَعْلَمَ الذينَ

(١) هذه الجملة من حديث جابر رضي الله عنه الطويل، فيه علم كثير، أخرجه الإمام مسلم في آخر «صحيحه».

نافقوا وقيلَ لهُم تعالَوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نَعلَمُ قتالاً لاتبعناكُم﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧]، والمحذوف هنا تعينه العادة؛ لأن القوم كانوا ذوي معرفة في القتال، فكأنهم قالوا: لو نعلم ما يسمى قتالاً.

وقدره السيوطي: لو نعلم مكان قتال. وفيه نظر؛ وإن نقله عن مجاهد[1]؛ لأن القوم كانوا يعرفون المكان.

٥ ـ دلالة الصناعة النحوية:

مثل قوله سبحانه: ﴿تاللهِ تفتأُ تذكُرُ يوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]؛ فإن النحويين يقدّرون في مثل هٰذا (لا)، أي: تاللهِ لا تفتأ. ولذا إذا قلت: والله أفعل كذا. وفعلت، فقد حنثت؛ لأن معنى؛ والله أفعل: والله لا أفعل. فلا بد من تقدير (لا) في مثل هٰذا التركيب، فإذا أردت أن تقسم على الفعل الذي تريد أن تفعل؛ فينبغي أن تقول: والله لأفعلنَّ كذٰلك. وهٰذا مبسوط في علم النحو.

تلك هي أدلة الحذف.

ثم هٰذا المحذوف تارة لا يقام شيء مقامه، وتارة يقام ما يدل عليه؛ نحو قوله سبحانه: ﴿فإنْ تَوَلَّوْا فقدْ أبْلَغْتُكُم ما أرسلْتُ بهِ إليكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، فليس الإبلاغ هو الجواب؛ لتقدمه على توليهم، وإنما التقدير: فإن تتولوا؛ فلا لوم علي، أو: فلا عذر لكم؛ لأني أبلغتكم.

وقوله سبحانه: ﴿وإنْ يُكَذِّبوكَ فقدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قبلِكَ﴾ [فاطر: ٤]، أي: فلا تحزن، واصبر.

وقوله سبحانه: ﴿وإنْ يَعودوا فقدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأولينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، أي: يصيبهم مثل ما أصابهم[2].

---

(١) «الاتقان» (٣ / ١٩٦).

(٢) «الاتقان» (٣ / ٢١٦).

□ المطلب الأول:

إيجاز الحذف

■ حذف الكلمة:

حدثناك من قبل أن الحذف قسمان: حذف كلمة، أو حذف جملة، وسنحدثك عن حذف الكلمة، وهو كثير، وله مواضع متعددة:

١ ـ حذف المبتدأ:

كقوله تعالى: ﴿وما أدراكَ ما هِيَهْ . نارٌ حامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠-١١]، أي: هي نار. وقوله سبحانه: ﴿فقالوا ساحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤]، أي: هٰذا ساحر. وقوله سبحانه: ﴿بلْ عِبادٌ مُكْرَمونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، أي: هم عباد.

٢ ـ حذف الخبر:

نحو: ﴿أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها﴾ [الرعد: ٣٥]، أي: دائم. وقوله سبحانه: ﴿لولا أنتُمْ لكُنَّا مؤمِنين﴾ [سبأ: ٣١]، الخبر محذوف، أي: لولا أنتم حاضرون.

٣ ـ حذف الفاعل:

وهٰذا في فاعل المصدر، نحو قوله سبحانه: ﴿لا يسأمُ الإنسانُ مِن دُعاءِ الخيرِ﴾ [فصلت: ٤٩]، أي: دعائه الخير. وجوَّز السكاكي حذف الفاعل مطلقاً؛ إذا وجدنا ما يدل عليه، نحو قوله سبحانه: ﴿كَلَّا إذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦]، أي: الروح. وتقول العرب: أرسلت المطر. أي: السماء. فهم يقولون هٰذا عند نزوله. وقال حاتم:

أمــاويَّ ما يُغْـنـي الـثَّـراءُ عنِ الفتى ... إذا حَشْـرَجَتْ يومـاً وضـاقَ بها الصَّدْرُ

أي: حشرجت النفس يوماً.

٤ ـ حذف المفعول:

وقد تقدم معنا أن هٰذا كثير في مفعول المشيئة، ويرد في غيره، مثل قوله سبحانه:

﴿إنَّ الذينَ اتَّخَذوا العِجْلَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، أي: إلٰهاً. وقوله سبحانه: ﴿فَذوقوا بِما نَسيتُمْ لِقاءَ يومِكُمْ هٰذا﴾ [السجدة: ١٤]، أي: فذوقوا العذاب، وقد مرت هٰذه الأقسام في باب الحذف والذكر.

٥ ـ حذف حروف المعاني[1]:

كقوله تعالى: ﴿تاللهِ تَفْتَأُ تذكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٥]؛ أصله: لا تفتأ.

ومنه قول امرىء القيس:

فقُلْتُ يمينُ اللهِ أبْرَحُ قاعِداً ... ولو قَطَعوا رأسي لديكَ وأوصالي[2]

أي: لا أبرح قاعداً.

وقول عاصم المنقري:

رأيْتُ الخَمْرَ جامِدَةً، وفيها ... خِصالٌ تُفْسِدُ الرَّجُلَ الحليما

فلا واللهِ أشرَبُها. حياتي ... ولا أسقي بها أبداً نديما

يريد: لا أشربها.

٦ ـ حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه:

كقوله تعالى: ﴿واسألِ القريَةَ التي كُنَّا فيها﴾ [يوسف: ٨٢]، والمقصود: أهل القرية. وقوله تعالى: ﴿حتى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، أي: سدُّ يأجوج ومأجوج.

٧ ـ حذف المضاف إليه:

نحو قوله تعالى: ﴿للهِ الأمرُ مِن قبلُ ومِن بعدُ﴾ [الروم: ٤]، أي: من قبل ذٰلك

---

(١) لا تحذف حروف المعاني إلا إذا كان ذٰلك سماعاً، مثل الآية الكريمة، ودل عليه المعنى وحتَّمه، وهٰذا ما نص عليه ابن جني وبرهن له؛ فلا تلتفت لمن يعمِّمون هذا الحذف، ويتكلفون له كثيراً من الأمثلة.

(٢) «ديوانه» (ص ٣٢).

ومن بعده. وقوله تعالى: ﴿وواعَدْنا موسى ثَلاثينَ ليلةً وأَتْمَمْناها بعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، أي: عشر ليال.

٨ ـ حذف الجار والمجرور:

نحو قوله سبحانه: ﴿خَلَطوا عَمَلاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ [التوبة: ١٠٢]، أي: عملاً صالحاً بسيىء، وآخر سيئاً بصالح، ودل على هٰذا كلمة (خلط). ومثل قوله تعالى: ﴿ولَذِكْرُ اللهِ أكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي: من كل شيء.

ومنه قول البحتري:

اللهُ أعْطاكَ المحبةَ في الوَرَى ... وحَباكَ بالفَضْلِ الذي لا يُنْكَرُ
ولأنتَ أمْلأ في العُيونِ لدَيْهِمُ ... وأجَلُّ قَدْراً في الصُّدورِ وأكْبَرُ(١)

أي: أملأ في العيون من غيرك.

٩ ـ حذف الموصوف:

نحو قوله تعالى: ﴿وعندَهُم قاصِراتُ الطرفِ﴾ [الصافات: ٤٨]، أي: حور قاصرات. وأكثر ما يكون في باب النداء، نحو: يا أيها المؤمنون. أي: القوم المؤمنون. وكقولك: يا أيها الظريف! أي: الرجل الظريف. وفي باب المصدر، مثل قوله تعالى: ﴿ومَن تابَ وعَمِلَ صالِحاً﴾ [الفرقان: ٧١]، أي: وعمل عملاً صالحاً.

ومنه قول البحتري يصف التصاوير التي في إيوان كسرى:

وإذا ما رأيْتَ صُورةَ أنطا ... كيَّةَ ارْتَعْتَ بينَ رومٍ وفُرْسِ
والمَنايا مَواثِلُ وأنُو شُرْوا ... نَ يُزَجِّي الصُّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ
في اخْضِرارٍ من اللباسِ على أصْفَـ ... ـرَ يَخْتالُ في صَبيغَةِ وَرْسِ(٢)

---

(١) «ديوانه» (٢ / ١٠٧٣).

(٢) «الديوان» (٢/ ١١٥٦، ١١٥٧).
الدرفس: العلم الكبير. الورس: نبات يصبغ به.

فقوله: على أصفر. أي: على فرس أصفر. وهٰذا مفهوم من قرينة الحال؛ لأنه لما قال: على أصفر. عُلم أنه أراد فرساً أصفر، كما أن (يختال) قرينة لفظية؛ لأنها صفة للخيل الحسنة.

١٠ ـ حذف الصفة:

ومنه قوله تعالى: ﴿الذي أَطْعَمَهُم مِن جوعٍ وآمَنَهُم مِن خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، أي: من جوع شديد، وآمنهم من خوف عظيم. ويدل على هٰذا التنكير قوله تعالى: ﴿فزادَتْهُم رِجساً إلى رِجسِهِم﴾ [التوبة: ١٢٥]، أي: مضافاً إلى رجسهم.

ومنه قول الحماسي:

كُلُّ امرىءٍ سَتَئيمُ منـ ـهُ العُرْسُ أو منها يَئيمُ[1]

يريد: كل امرىء متزوج؛ إذ دل عليه ما بعده من قوله: «ستئيم منه... ومنها يئيم»، إذ لا تئيم هي إلا من زوج، ولا يئيم هو إلا من زوج.

وحذف الصفة أقل من حذف الموصوف؛ لأن الصفة تأتي لإيضاح الموصوف، وبيانه، فيكثر قيامها مقام الموصوف.

١١ ـ حذف الشرط:

ومنه قوله تعالى: ﴿يا عِبادي الذينَ آمَنوا إنَّ أرْضي واسِعَةٌ فإيَّاي فاعْبُدونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، أي: إن لم يتسن لكم إخلاص العبادة في أرض؛ فأخلصوها في غيرها، وقوله سبحانه: ﴿قُل لِعباديَ الذينَ آمَنوا يُقيموا الصَّلاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، أي: إن قلت لهم: أقيموا يقيموا. وقوله سبحانه: ﴿اتَّبعوني يُحْبِبْكُمُ الله﴾ [آل عمران: ٣١]، أي: فإن تتبعوني.

---

(١) آمت المرأة من زوجها تئيم أيماً: إذا مات عنها زوجها أو قتل، وأقامت لا تتزوج. وكذلك: آم الرجل من زوجته يئيم: إذا ماتت عنه زوجته، ولم يتزوج بعدها.
والمعنى: كل امرىء متزوج سيأتي يوم تفقده فيه زوجته، كل امرأة متزوجة سيأتي عليها يوم يفقدها فيه زوجها. «علم المعاني» (ص ١٩٨).

ومنه حذف لو مع الشرط، ومن ذلك قول قريط بن أنيف:

لو كُنتُ مِن مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إبلي ... بنو اللقيطَةِ مِن ذُهْلِ بن شَيْبانا
إذاً لقامَ بنَصْري مَعْشَرٌ خَشِنٌ ... عندَ الحفيظةِ إنْ ذو لوثَةٍ لانا[1]

فـ (لو) في البيت الثاني محذوفة؛ لأنها في البيت الأول قد استوفت جوابها بقوله: لم تستبح إبلي. ثم حذفها في الثاني، وتقدير حذفها: إذ لو كنت منهم؛ لقام بنصري معشر خشن. أو: إذ لو كانوا قومي؛ لقام بنصري معشر خشن.

١٢ ـ حذف جواب الشرط:

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أرَأيْتُم إنْ كانَ مِن عندِ اللهِ وكَفَرْتُم بهِ﴾ [الأحقاف: ١٠]؛ تقديره: ألستم ظالمين؟ ويدل على هذا المحذوف قوله سبحانه: ﴿إنَّ الله لا يَهْدي القومَ الظالِمينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]. وقوله سبحانه: ﴿ولو ترى إذْ وُقِفوا على النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، أي: لرأيت أمراً فظيعاً. ومنه قوله سبحانه: ﴿ولو تَرى إذِ الظالِمونَ في غَمراتِ الموتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي: لرأيت سوء حالهم.

١٣ ـ حذف القسم:

وذلك كقولك: لأخرجن، أو لأفعلن. أي: والله لأفعلن.

١٤ ـ حذف جواب القسم:

ومنه قوله تعالى: ﴿والفَجْرِ. وليالٍ عشرٍ. والشَّفْعِ والوَتْرِ. والليلِ إذا يَسْرِ. هَلْ في ذلك قَسَمٌ لِذي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥]؛ تقدير الجواب: لتعذبن. ومنه قوله سبحانه: ﴿والنازعاتِ غَرقاً. والنَّاشِطاتِ نَشْطاً. والسابِحاتِ سَبحاً. فالسابِقاتِ

---

(١) معنى البيت الأول: لو كنت مازنياً لم يُغر بنو اللقيطة على إبلي. والبيت الثاني: إذن والله لقام بنصري ـ أي: لتكفل به ـ قوم أشداء عند الغضب إذا الضعيف لان. وقوله: «إن ذو لوثة»؛ تعريض منه بقومه؛ ليغضبوا ويهتاجوا لنصرته. والحفيظة: الخصلة يُحفظ لها، أي: يغضب. وقيل: هي الحميَّة.
«خزانة الأدب» (٨/ ٤٤٦).

سَبْقاً . فالمُدَبِّراتِ أمراً . يومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفةُ﴾ [النازعات : ١ ـ ٦]؛ تقديره: لتبعثنّ، ولتحاسبن؛ بدليل إنكارهم للبعث في قولهم: ﴿أئِنَّا لَمردودونَ في الحافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]. وهٰذا كثير في كتاب الله.

١٥ ـ حذف الحال:

ومنه قوله تعالى: ﴿والملائكَةُ يَدْخُلونَ عليهِمْ مِن كُلِّ بابٍ . سَلامٌ عليكُم﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]؛ أي: قائلين: سلام عليكم.

■ حذف الجمل:

وإذا كان القسم الأول من الحذف يمكن أن يأتي كثيراً في كلام البلغاء، فإن هٰذا القسم ـ أعني حذف الجمل ـ لا تكاد تجده إلا في كتاب الله تبارك وتعالى، ذٰلك أن الجملة ذات فائدة مستقلة، وحينما تحذف فإن ذٰلك سيحدث خللاً في المعنى، ونقصاً في الغرض المقصود، فلا يستطيع أحد أن يرتب كلامه بحيث إذا حذفت منه جمل مستقلة يؤدِّي الغرض المراد.

لكن كلام ربِّ العالمين المعجز يعطيك المعاني كاملة، وإنك مع ذٰلك تجد حلاوة الإيجاز في هٰذا الحذف ناشئة عن روعة الإعجاز، وذٰلك كثير في كتاب الله تعالى:

اقرأ قوله تعالى: ﴿وإذ قالَ إبراهيمُ ربِّ أرِني كيفَ تُحيي المَوْتى قالَ أوَلَمْ تؤمن قالَ بلى ولكنْ ليطمَئِنَّ قلبي قالَ فخُذْ أربعةً مِن الطيرِ فصُرْهُنَّ إليكَ ثم اجْعَلْ على كلِّ جبلٍ منهُنَّ جُزءاً ثم ادعُهُنَّ يأتينَكَ سَعْياً واعْلَمْ أنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

تأمل قوله سبحانه: ﴿فصُرْهُنَّ إليكَ ثم اجْعَل على كل جبلٍ منهُنَّ جُزْءاً﴾، والمعنى: أملهن، واضمُمهُن إليك، وقطعهن أجزاء مختلفة، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً. فأنت تدرك هٰذا الحذف بذوقك، وتتذوق جمال الإيجاز فيه.

نقرأ في سورة يوسف، وهي سورة يكثر فيها هٰذا اللون من الحذف، نقرأ فيها

طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يرسله معهم، ويجيبهم بأنه يخاف أن يأكله الذئب، ويقولون: ﴿لَئِنْ أكَلَهُ الذئبُ ونحنُ عُصبةٌ إنا إذاً لخاسِرونَ﴾ [يوسف: ١٤]، وأنت تترقب لا شك نتيجة هٰذا الحوار بين الأبناء وأبيهم، تُرى أيقبل منهم هٰذا القول فيرسله معهم، أم يأبى ذٰلك؟ والآيات الكريمة تطوي هٰذا الجواب، فنقرأ قوله سبحانه بعد الآية الآنفة الذكر: ﴿فلمَّا ذَهَبوا بِهِ وأجْمَعوا أن يَجْعَلوهُ في غَيابَةِ الجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]، إن هناك جملاً طُويت ولم تذكر، إلا أن حذفها لا يتأثر به المعنى مطلقاً، بل إنها تزيد النظم طلاوة وحلاوة.

وفي السورة نفسها نقرأ قوله سبحانه بعد شهادة الشاهد من أهلها: ﴿يُوسفُ أعْرِضْ عن هٰذا واسْتَغْفِري لذنبِكِ إنَّكِ كُنتِ مِن الخاطِئينَ . وقالَ نِسوةٌ في المدينَةِ امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فتاها عن نَفْسِه﴾ [يوسف: ٢٩ ـ ٣٠]، تُرى من أعلم هٰؤلاء النسوة بالخبر، والقضية حساسة ليس من شأنها أن تُذاع، ندرك أن هنا جملاً محذوفة، ولكننا مع ذٰلك نجد المعنى كاملاً غير منقوص.

ونقرأ في السورة الكريمة كذٰلك: ﴿وقالَ الذي نَجا منهُما وادَّكَرَ بعدَ أُمَّةٍ أنا أُنَبِّئُكُم بتأويلِهِ فأرْسِلونِ . يوسُفُ أيها الصِّدِّيقُ أفْتِنا في سَبْعِ بقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عِجافٌ وسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وأخَرَ يابِساتٍ لعلِّي أرجِعُ إلى النَّاسِ لعلَّهُم يَعْلَمونَ﴾ [يوسف: ٤٥ ـ ٤٦]، فأنت تستنتج أن جملاً قد حُذفت، أي: فأرسلوه إلى يوسف، فقال ما قال.

وبعد هٰذه الآيات نقرأ قوله سبحانه: ﴿وجاءَ إخوةُ يوسُفَ فدَخَلوا عليهِ فعَرَفَهُم وهُم له منْكِرونَ . ولما جَهَّزَهُمْ بجَهازِهِم قال ائْتوني بأخٍ لكُمْ مِن أبيكُم﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٥٩]، ولا بد أن تتساءل هنا: ماذا حدث بينهم وبينه، هل عرفهم بنفسه؟ يقيناً لا. كيف طلب منهم هٰذا الطلب؟ لا بدَّ من أن تكون هنا جمل محذوفة، فبعد أن عرَّفوه بأنفسهم، وشرحوا شيئاً عن أسرتهم، وأخبروه أن لهم أخاً آخر من أبيهم، قال لهم ما قال.

ومثل هٰذا الحذف تجده عند قوله سبحانه: ﴿ارْجِعُوا إلى أبيكُم فقولوا يا أبانا إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وما شَهِدْنا إلا بِما عَلِمْنا وما كُنَّا للغيبِ حافِظينَ . واسألِ القريةَ التي كُنَّا فيها

والعيرَ التي أقْبَلْنا فيها وإنَّا لصادِقونَ . قالَ بلْ سَوَّلَتْ لكُم أنفسُكُم أمراً﴾ [يوسف: ٨١ ـ ٨٣]، فالجمل المحذوفة: فرجعوا إلى أبيهم، فتركوا أخاهم ذاك الذي قال ما قال، ورجعوا إلى بلادهم، فلما وصلوا؛ قالوا لأبيهم ما قالوه.

وفي سورة النمل نقرأ قوله سبحانه: ﴿اذْهبْ بكتابي هذا فألقهْ إليهمْ ثمَّ تولَّ عنهُم فانظر ماذا يَرجعونَ. قالت يا أيُّها الملأ إني ألقيَ إليَّ كتابٌ كريم﴾ [النمل: ٢٨-٢٩]، وهنا تجد جملاً كثيرة قد حُذفت، أي: فذهب الهدهد، وحمل الكتاب، فألقاه فأخذته، وقرأته، وجمعت قومها؛ ﴿قالت يا أيها الملأ إني أُلقيَ إليَّ كتابٌ كريمٌ، إنهُ من سُليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا عليَّ وَأتُوني مُسلمينَ﴾ [النمل: ٢٩-٣١].

٢٩ ـ ٣١].

وفي سورة القصص: ﴿فَسَقى لهُما ثمَّ تولَّى إلى الظِّلِّ فقالَ ربِّ إنِّي لما أنْزَلْتَ إليَّ مِن خيرٍ فقيرٌ. فجاءَتْهُ إحداهُما تَمْشي على اسْتِحياءٍ قالَتْ إنَّ أبي يدعوكَ ليَجْزيَكَ أجْرَ ما سقَيْتَ لنا فلمَّا جاءَهُ وقصَّ عليهِ القصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِن القومِ الظَّالِمينَ﴾ [القصص: ٢٤ ـ ٢٥]، وأظنك بعد ما مر تدرك مواطن الحذف، أي: فذهبتا إلى أبيهما، فأخبرتاه الخبر، فأرسل إحداهما تدعوه، فجاءته، وأخبرته، فسار معها إلى أبيها، فلما جاءه، وقص عليه القصص؛ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين.

وقد يكون إدراك هٰذا الحذف من الأمور السهلة الميسرة؛ كالجمل التي حدثناك عنها، وقد يحتاج إلى تأمل، وذٰلك مثل قوله سبحانه بعد أن بيَّن آثار قدرته: ﴿أوَ لمْ يَرَوْا إلى الطَّير فوقَهُم صافات ويَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إلا الرحمٰنُ إنَّه بكلِّ شيءٍ بصيرٌ. أمَّن هٰذا الذي هُو جندٌ لكمْ يَنْصُرُكُم مِن دونِ الرحمٰنِ إنِ الكافِرونَ إلا في غُرورٍ. أمَّنْ هٰذا الذي يَرْزُقُكُمْ إنْ أمسَكَ رِزْقَهُ بلْ لَجُوا في عُتُوٍّ ونُفورٍ﴾ [الملك: ١٩ ـ ٢١]، فكأنه بعد هٰذا التبكيت قيل: إنهم لم يتأثروا بذٰلك كله، ولم يرعووا، ولم يذعنوا للحق، بل لجوا في عتو ونفور.

وهذا كثير في كتاب الله تعالى، وإنما أحببنا أن نذكر لك بعض أمثلته؛ لتستنتج بيقظة ذهنك وثاقب فكرك ما لم يذكر لك، وهو الأكثر.

أما إيجاز الحذف في قوله ﷺ؛ فهو كثير. يقول ﷺ لعبدالرحمن بن عوف: «أولِمْ ولو بشاةٍ»[1]، وقد مر معنا شيء من هٰذا في باب الحذف والذكر، وسنذكر لك شيئاً في آخر هٰذا الموضوع.

أما حذف الجملة في غير كتاب الله وسنة رسول ﷺ فهو قليل؛ كما قلنا لك من قبل، وذكرنا لك السبب في ذٰلك، ومثلوا له بقول المتنبي:

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ في شَبِيبَتِهِ ... فَسَرَّهُمْ وأَتَيْنَاهُ على الهَرَمِ[2]

أي: فساءنا. يقول: إن الذين سبقونا أتوا الزمان وهو في شبيبته، فكان من شأنه أن يجلب لهم السرور؛ لأن ذٰلك من شأن الشباب، وأتيناه على الهرم، فساءنا، وتلك طبيعة الشيخوخة.

* المطلب الثاني:

إيجاز القصر

وهو تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف، فهو الذي لا يمكن أن نعبر عن معانيه بألفاظ مساوية لتلك الألفاظ التي عُبِّر بها عن هٰذه المعاني.

قال ابن الأثير:

«وهٰذا النوع هو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً، وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد في كلام

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض...﴾ [الجمعة: ١٠]، رقم الباب (١)، رقم الحديث (١٩٤٣).

(٢) «ديوان» (٤/ ٢٩٦).

بعض البلغاء، فإنما يوجد شاذًّا نادراً، ويكثر ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى»(1).

وقال الجاحظ:

«إنه ـ أي القرآن ـ قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها، وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن، لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول، وأقل دلالة»(2).

ويمثل لذلك بقوله سبحانه يصف خمر الجنة: ﴿لا يُصَدَّعونَ عنها ولا يُنْزِفونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، ويبين أن هذه الآية الكريمة جمعت جميع عيوب خمر الدنيا. وقوله سبحانه في وصف فاكهة الجنة: ﴿وفاكِهَةٍ كثيرَةٍ . لا مَقطوعَةٍ ولا مَمْنوعةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢ ـ ٣٣]، فقد دلَّ بهاتين الكلمتين على ما يطرأ لفاكهة أهل الدنيا من قطع من جهة، وما يلقاه الناس من منع من جهة ثانية. وقوله تعالى: ﴿والأرْضَ بعدَ ذلك دَحاها . أخرجَ مِنها ماءَها ومَرعاها﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣١]، يقول: قالت الحكماء: إنما تُبنى المدائن على الماء والكلأ والمحتطبة، فجمع بقوله: ﴿أخرجَ منها ماءَها ومَرعاها﴾: النجم والشجر والملح واليقطين والبقل والعشب، فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح، وكل ذلك مرعى، ثم قال على النسق: ﴿متاعاً لكُم ولأنعامِكُم﴾ [النازعات: ٣٣]، فجمع الشجر والماء والكلأ والماعون كله؛ لأن الملح لا يكون إلا بالماء»(3)

ومنه قوله سبحانه: ﴿ألا لهُ الخَلْقُ والأمرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فهاتان الكلمتان لم تبقيا شأناً من الشؤون، ولا حالاً من الأحوال، ولذا قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما لما قرأها: «من بقي له شيء بعد هذا فليطلبه». ومنها قوله سبحانه: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُر بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهِلينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

«فجمع جميع مكارم الأخلاق بأسرها؛ لأن في العفو صلة القاطعين، والصفح

---

(1) المثل السائر ص ٢١٧ مطبعة حجازي / القاهرة ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.

(2) «البيان والتبيين» (٢/١)، طبعة السندوبي.

(3) «البيان والتبيين»، طبعة لجنة التأليف سنة (١٩٥٠م/ ١٣٦٩هـ)، بتحقيق هارون الرشيد (٣/ ٣٣)، (٢/ ١٩٣).

عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وصلة الرحم، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات، والتبرؤ من كل قبيح؛ لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف، وهو يلامس شيئاً من المنكر، وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مقابلة السفيه بما يفسد الدين.

وقوله تعالى: ﴿وقيلَ يا أرضُ ابْلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أقْلِعي وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ واستوت على الجُوديِّ وقيلَ بُعداً للقوم الظَّالمينَ﴾ [هود: ٤٤]، فهذه الآية الكريمة تتضمن مع الإيجاز والفصاحة دلائل القدرة»[1].

ومنها قوله سبحانه: ﴿إنَّ الله يأمُرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُرْبى﴾ [النحل: ٩٠].

يقول السيوطي رحمه الله:

«فإن العدل هو الصراط المستقيم المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، المومىء به إلى جميع الواجبات في الاعتقاد، والأخلاق، والعبودية. والإحسان: هو الإخلاص في واجبات العبودية؛ لتفسيره في الحديث بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه». أي: تعبده مخلصاً في نيتك، وواقفاً في الخضوع، آخذاً أهبة الحذر إلى ما لا يحصى، ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ هو الزيادة على الواجب من النوافل، هٰذا في الأوامر، وأما النواهي، فبـ ﴿الفحشاء﴾ الإشارة إلى القوة الشهوانية، وبـ ﴿المنكر﴾ إلى الإفراط الحاصل من آثار الغضبية، أو كل محرم، وبـ ﴿البغي﴾ إلى الاستعلاء الفائض عن الوهمية.

قلت: ولهٰذا قال ابن مسعود: ما في القرآن آية أجمع للخير والشر من هٰذه الآية، أخرجه في «المستدرك».

وروى البيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن أنه قرأها يوماً، ثم وقف، فقال: إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من

---

(١) «علم المعاني»، الدكتور عبد العزيز عتيق، (ص ١٩٣).

طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه»[1].

ومـع ما قيل في هٰذه الآية، نجد بعض الكاتبين يعدها من المساواة! وهٰذا ما وعدتك في أول هٰذا الباب أن أنبهك له.

ومنهـا قوله سبحانه: ﴿فلما استيأسوا منه خَلَصوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، أي: حينما يئسوا أن يأخذوا يوسف معهم؛ اعتزلوا الناس ليتناجوا في أمرهم، وفي هٰذه الآية من الإيجاز ما لا يزال يدهش البلغاء، وسيبقى كذٰلك.

ومنها قوله تعالى: ﴿ولكُمْ في القِصاص حياةٌ﴾؛ يقول الأستاذ البرقوقي:

«يقول ـ صاحب «التلخيص» ـ: إن قوله تعالى: ﴿ولكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، يفضل ما كان عن العرب أوجز كلام في هٰذا المعنى، وهو قولهم: القتل أنفى للقتل. من وجوه:

أحدها: أن عدة حروف ما يناظره منه وهو: القصاص حياة. عشرة في التلفظ، وعدة حروفه أربعة عشر.

ثانيهـا: ما فيها من التصريح بالمطلوب الذي هو الحياة بالنص عليها، فيكون أزجر عن القتل بغير حق؛ لكونه أدعى إلى الاقتصاص.

ثالثها: ما يفيده تنكير (حياة) من التعظيم، وذٰلك لمنعهم عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد، أو النوعية، وهي الحياة الحاصلة للقاتل بانكفافه، والمقتول بالكف عنه.

رابعها: اطراده؛ بخلاف قولهم، فإن القتل الذي ينفي القتل، هو ما كان على وجه القصاص لا غيره.

خامسها: سلامته من التكرار الذي هو من عيوب الكلام، بخلاف قولهم.

---

(١) «الاتقان» للسيوطي، (٣ / ١٨٢).

سادسها: استغناؤه عن تقدير محذوف بخلاف قولهم، فإن تقديره القتل أنفى للقتل من تركه.

سابعها: أن القصاص ضد الحياة، فالجمع بينهما إطباق.

وزاد في الإيضاح وجهاً آخر، وهو جعل القصاص كالمنبع والمعدن للحياة بإدخال (في) عليه، وهناك وجوه أخر قد تمحلها الناس»[1].

ولقد كتب الأستاذ الرافعي ـ رحمه الله ـ في «وحي القلم» تحت هٰذا العنوان: «كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة»، بيَّن فيه روعة الآية الكريمة، وخلص إلى القول بأن هٰذه الكلمة لم يكن يعرفها العرب الأوائل، ولا يمكن أن يخفى عليهم الفرق بينها وبين الكلمة القريبة، وإنما هٰذه الكلمة: «القتل أنفى للقتل» من وضع الزنادقة الحاقدين على الإسلام في عصر متأخر، فرحمه الله، وجزاه عن كتابه خيراً.

ومن الإيجاز الرائع في كتاب الله قوله سبحانه: ﴿ولكنَّ البرَّ مَنِ اتَّقى وأْتوا البيوتَ مِن أبوابِها﴾ [البقرة: ١٨٩]، ففي الجملة الأولى إيجاز حذف، أي: ولكن البر بر من اتقى، وفي كلتا الجملتين إيجاز قصر، حيث أمر المؤمنين أن لا يشغلوا نفوسهم بما ليس لهم به شأن، بل يجب عليهم أن ينظروا ما فيه خيرهم ومصلحتهم، وأن يفكروا في واقعهم، حتى لا يضلوا الطريق، ولا ينحرفوا عن الجادَّة، فالذي ينشغل بما ليس له فيه مصلحة، ويترك ما هو أولى، كالذي يأتي البيت من ظهره، والبيوت إنما تؤتى من أبوابها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وهل يستطيع أحد أن يعد ما جمعته هٰذه الكلمات القصار؟!

ومن هٰذا الإيجاز قوله سبحانه: ﴿واذْكُرْ عبادَنا إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ أولي الأيدي والأبصارِ﴾ [صٓ: ٤٥]، فقد جمعت هاتان الكلمتان ـ الأيدي والأبصار ـ جميع

---

(١) «التلخيص في علوم البلاغة»، شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي (ص ٢١٦).

الفضائل العملية، والنظرية، والفكرية، والعقلية، والروحية.

والحق أن هٰذا النوع لا يمكن أن يُحصر في كتاب الله تبارك وتعالى، وإنما يمثل كل واحد بما هيىء له.

ومنه قوله تعالى: ﴿والفُلْكِ التي تَجْري في البَحْرِ بما ينفَعُ الناسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، هٰذه جملة من آية، ولقد جمعت كثيراً مما يصلح به شأن الناس من تجارة، وجهاد، وصيد، وحل، وترحال.

ومنه قوله سبحانه: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهُم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، فإن هٰذه الآية الكريمة قد جمعت كما جاء في الحديث: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أما الإيجاز في قول النبي ﷺ الذي أُعطي جوامع الكلم؛ فهو كثير، لا يمكن استقصاؤه ولا حصره، قال ﷺ: «إنَّ من البيان لسحراً»[١]، فإنه كلام كثير المعاني، أي: من البلاغة في القول ما يعمل عمل السحر، فيؤثر في النفس، ويحملها على الإقدام.

وقال عليه السلام: «إياكم والطمع، فإنه هو الفقر، وإياكم وما يعتذر منه»[٢].

وسئل النبي ﷺ: ما الغنى؟ فقال: «اليأس مما في أيدي الناس»[٣].

وقال ﷺ لأبي مسعود الأنصاري وقد كان يضرب غلاماً: «اعلم أبا مسعود! (مرتين) لله أقدرُ عليك منك عليه»[٤].

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الخطبة، حديث (٨٥١)، باب رقم (٤٧).

(٢) قال في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٤٨):
«رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه محمد بن أبي حميد، وهو مجمع على ضعفه».

(٣) قال في «مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٨٦):
«رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه إبراهيم بن زياد العجلي، وهو متروك».

(٤) أخرجه مسلم، والترمذي في كتاب البر، باب: النهي عن ضرب الخدم، وقال: حسن صحيح، رقم (١٩٤٩). وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب: في حق المملوك، (١٣٣/ ٥١٥٩).

وقال ﷺ: «إنما الناس كإبل مائة، لا تجد فيها راحلة»[1].

وهٰذا من جوامع كلمه ﷺ؛ قال الراغب: الإبل في تعارفهم اسم لمائة بعير، فمائة إبل عشرة آلاف بعير، فالمراد أنك ترى واحداً كعشرة آلاف، وترى عشرة آلاف دون واحد.

ولـم أر أمـثـالَ الـرجـالِ تَفـاوَتَتْ ... لَدى المَجْـدِ حَتى عُدَّ ألفٌ بواحِـدِ[2]

ومن جوامع كلمه ﷺ: «إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات»[3].

وبالجملة؛ فإن هٰذا كثير في كلام النبي عليه وآله الصلاة والسلام، والمتأملون في السنة المطهرة يجدون ما يعز على الحصر.

أما الإيجاز في كلام البلغاء؛ فليس على درجة واحدة، بل تجده متفاوتاً يفوق بعضه بعضاً، وإنك لمدرك ذٰلك مما نذكره لك من أمثلة، ونتحفك به من أقوال:

قال السموأل:

وإنْ هُو لَمْ يَحْمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها ... فليسَ إلـى حُسْـنِ الـثَّنـاءِ سَبيـلُ

فقـد جمـع مكـارم الأخلاق من سماحة، وشجاعة، وتواضع، وحلم، وصبر، واحتمال مكاره، فإن هٰذه الأمور كلها مما تضيم النفوس؛ لما يحصل في تحملها من المشقة والعناء.

وقيل لأعرابي يسوق مالاً كثيراً: لمن هٰذا المال؟ فقال: لله في يدي.

---

(١) «فيض القدير شرح الجامع الصغير»، للعلامة المناوي، (٢ /٥٦٢)، وقال: حديث صحيح.

(٢) «الإتقان»، للسيوطي، (٣ / ١٨٢).

(٣) ونعجب لكثير من الكاتبين المحدثين؛ إذ عدُّوا هٰذا من المساواة.
والحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، وفي كتاب البيوع، باب: الحلال بين والحرام بين، رقم (١٩٤٦).

وقال علي كرم الله وجهه: آلة الرياسة سعة الصدر.

وقال: قيمة كل امرىء ما يحسن.

وقال أعرابي: أولٰئك قوم جعلوا أموالهم مناديل لأعراضهم، فالخير بهم زائد، والمعروف لهم شاهد.

وقال آخر: أما بعد؛ فعظ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك، واستحيِ من الله بقدر قدرته عليك[1].

وقال معاوية لعائشة بنت عثمان وهي تثيره على قتلة أبيها: يا ابنة أخي! إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه، وهو يرى مكان أنصاره، وإن نكثنا نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا يكون أم لنا، ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عراض المسلمين.

وخطب زياد فقال: أيها الناس! لا يمنعنكم سوء ما تعلمون عنا أن تنتفعوا بأحسن ما تسمعون منا.

ومن بديع الإيجاز وجيِّده ما كتبه الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر، وقد أرسل إليه أحد الحكام الفاطميين رسالة مطولة يهجوه فيها، ويعيره بقومه وأصوله من الأمويين، فلما قرأ الناصر الرسالة، ردَّ على الحاكم الفاطمي بقوله: عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك!

أفترى جواباً مسكتاً أكثر من هٰذا؟! وهل هناك أكثر هجاء وأنكى ذمًّا من أن يقال: إنك مجهول الأصل، مبهم النسب؟! إن هاتين الجملتين القصيرتين في موضوعهما، لا تغني عنهما الصفحات الطوال.

□ □ □

(١) قال في «كشف الخفاء» (١ / ٣٦٠): ذكره في «المواهب» من غير عزوه إلى أحد.

* **المطلب الثالث:**

مراتب الإيجاز

ولا تظنن أنه لا يكون في الكلام إيجاز إلا إذا كان الكلام حكمة بديعة، أو مثلاً سائراً، أو أجوبة مسكتة، فقد قلت لك من قبل: إن الإيجاز مراتب كثيرة، فقد يبدو الكلام لأول وهلة ليس فيه شيء من الإيجاز، ولكنك حينما تتأمله وتعي طريقة نظمه وتدرك أسرار تركيبه؛ لا تتردد في الحكم عليه بأنه من قبيل الإيجاز.

وإذا رجعت إلى بعض الأساليب التي حدثتك عنها من قبل؛ كالتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والذكر؛ تبين لك أن الإيجاز كان من أول الأغراض والأهداف التي تؤديها هٰذه الأساليب، ألا ترى إلى قولك: ما أنا بخلت. إذا أردت أن تعبر عن معناه بغير هٰذه العبارة؛ فإنك تجد نفسك مضطرًّا أن تزيد كثيراً على الألفاظ التي نطقت بها؛ لأن معنى هٰذه العبارة ـ كما عرفت في التقديم والتأخير ـ أنك لا تريد نفي البخل عن نفسك فقط، وإنما تريد كذٰلك أن تثبت البخل لغيرك، فمعنى العبارة إذن: لست أنا الذي أبخل، إنما الذي يبخل غيري. ولو أردت أن تعبر عن معنى بيت المتنبي الذي ذكرناه هناك:

ومـا أنـا أسْـقَـمْـتُ جِسْـمي بِهِ ... ولا أنـا أضْـرَمْـتُ في الـقَلْبِ نارا[1]

فلا بد أن تأتي بأضعاف هٰذه الكلمات؛ لتوفي هٰذا المعنى حقه.

وكذٰلك لو قرأت قوله تعالى: ﴿لقدْ جاءَكُمْ رَسولٌ مِن أنْفُسِكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّمْ حَريصٌ عليكُمْ بالمؤمِنينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ تجد أنك بحاجة إلى ألفاظ كثيرة تقوم مقام التنكير في (رسول)، و(عزيز) و(حريص)، وتقوم مقام الذي دلَّ عليه القسم (لقد)، وتقوم مقام التقديم في قوله تعالى: ﴿بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ﴾، إذ ليس

(١) «الديوان» (٢/ ١٩٧).

الإيجاز إلا كون المعنى أكثر من اللفظ.

تلك قضية أحببت أن أنبهك لها، فمع ما لها من شأن، أهملها أكثر الكاتبين، ولقد وجدت إشارة موجزة لها في كلام الشيخ عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ يقول عند كلامه عن سر النظم في قوله سبحانه: ﴿وجَعَلوا للهِ شُرَكاءَ الجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]؛ حيث قدم المفعول الثاني ـ وهو (شركاء) ـ ولم يقل: وجعلوا لله الجنَّ شركاء. وعن سرِّ التنكير في قوله تعالى: ﴿ولَتَجِدَنَّهُم أحرَصَ الناسِ على حَياةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]:

«فانظر الآن إلى شرف ما حصل من المعنى بأن قدم الشركاء، واعتبره، فإنه ينبهك لكثير من الأمور، ويدلك على عظم شأن النظم، وتعلم به كيف يكون الإيجاز به؟ وما صورته؟ وكيف يزاد في المعنى من غير أن يزاد في اللفظ؟ إذ قد ترى أن ليس إلا تقديم وتأخير، وإنه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى ما إن حاولته مع تركه لم يحصل لك، واحتجت إلى أن تستأنف له كلاماً، نحو أن تقول: وجعلوا الجن شركاء لله، وما ينبغي أن يكون لله شريك؛ لا من الجن ولا من غيرهم، ثم لا يكون له إذا عقل من كل من الشرف والفخامة، ومن كرم الموقع في النفس ما تجده له الآن، وقد عقل من هذا الكلام الواحد.

ومما يَنْظُرُ إلى مثل ذلك قولُه تعالى: ﴿ولَتَجِدَنَّهُم أحْرَصَ الناس على حياةٍ﴾؛ إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسك؛ وجدت لهذا التنكير، وإن قيل: على حياة. ولم يقل: على الحياة. حسناً، وروعة، ولطف موقع؛ لا يقادر قدره، وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والإنس إلى خلافهما، والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها، وذلك لا يحرص عليه إلا الحي، فأما العادم للحياة؛ فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها، وإذا كان كذلك؛ صار كأنه قيل: ولتجدنهم أحرص الناس، ولو عاشوا ما عاشوا على أن يزدادوا إلى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه حياةً في الذي يستقبل، فكما أنك لا تقول ها هنا: أن يزدادوا إلى حياتهم الحياة (بالتعريف). وإنما تقول: حياة. إذ كان التعريف يصلح حيث تزاد الحياة

على الإطلاق؛ كقولنا: كل أحد يحب الحياة، ويكره الموت. كذلك الحكم في الآية[1].

ومن هنا تدرك أنك بمراعاتك لهذه الأساليب تنطق بالإيجاز، وهو شرف - لو علمت - عظيم.

□□□

(1) «دلائل الإعجاز» (ص ٢٢٢ - ٢٢٣).

□ المبحث الثالث:

الإطنـــــاب

الإطناب؛ المبالغة في الشيء؛ يقال: أطنب في المكان إذا أطال الإقامة فيه، وإذا كان الإيجاز استثمار الألفاظ القليلة في معان كثيرة؛ فإن الإطناب زيادة اللفظ على المعنى.

وكما اشترطوا للإيجاز أن تكون الألفاظ القليلة المعبّر بها لا تُخل بالمعنى، فقد اشترطوا للإطناب أن تكون الألفاظ الزائدة جاءت لفائدة، وأظنك كثيراً ما تسمع هٰذه العبارة: تجنب الإيجاز المخل، والإطناب الممل.

فالاختصار؛ إن لم يف بالمعنى؛ فهو خلل، والإطالة؛ إن لم تكن لفائدة؛ تطويل وملل. ولذا فرّقوا بين الإطناب والتطويل؛ كلاهما زاد اللفظ فيه على المعنى، إلا أن أحدهما أفادت فيه الزيادة، وهو الإطناب، والآخر لم تفد، وهو التطويل.

فالإطناب إذن: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. ـ كما يقول ابن الأثير ـ والتعريفات التي قيلت قبله وبعده لا تخرج عن هٰذا المعنى.

ولقد وُفِّق ابن الأثير، وأحسن صنعاً، وهو يمثل لنا للفرق بين الإيجاز، والإطناب، والتطويل؛ حيث يقول:

«إن مثال الإيجاز والإطناب والتطويل مثال مقصد يسلك إليه في ثلاثة طرق، فالإيجاز هو أقرب الطرق الثلاثة إليه، والإطناب والتطويل هما الطريقان المتساويان في البعد إليه، إلا أن طريق الإطناب تشتمل على منزه من المنازه لا يوجد في طريق التطويل»(1).

---

(1) «المثل السائر» (ص ٢١٧ - ٢١٨).
أصل هذا الكلام والتمثيل للرماني عند حديثه عن الإعجاز في «رسالة الإعجاز»، ونعجب من بعض الكاتبين الذين نقلوا عن ابن الأثير دون أن يشيروا إلى الرماني مع أنه له السبق.

ولقد وقف العلماء وقفة تأمل أمام نظم الكلام وأساليبه؛ باحثين عن أسباب هٰذه الزيادة - أعني: زيادة اللفظ على المعنى - وعما تؤديه من أغراض بيانية، فخلصوا إلى نتائج مشكورة؛ كانت آية في الدقة، وغاية في الإحكام، شأنه في ذلك شأن كثير من القضايا البلاغية ذات القواعد المعتمدة على الذوق وعلى الذهن معاً.

وخلاصة ما قالوه عن هٰذه الأغراض التي يفيدها الإطناب:

١ - الإيضاح بعد الإبهام، وهو ذو فوائد جمة.

٢ - ذكر الخاص بعد العام.

٣ - التكرير لفائدة.

٤ - الإيغال.

٥ - التذييل.

٦ - الاحتراس.

٧ - التتميم.

٨ - الاعتراض.

٩ - وضع الظاهر مكان المضمر.

١٠ - غير ما تقدم.

وهٰذا إجمال لا بد له من تفصيل، وإنما أجملنا أولاً؛ لأن ذٰلك متسق مع الموضوع الذي نتحدث عنه - وهو الإطناب - ألا ترى أنك بعد ما ذكرت لك هٰذه الأمور تجد نفسك تواقاً لشرحها وتفصيلها، وهٰذا هو الإيضاح بعد الإبهام الذي ذكرناه لك في أول أسبابه، والذي سنحاول أن نفصله، ونبيِّن ميادينه؟

■ أولاً: الإيضاح بعد الإبهام:

وللإيضاح بعد الإبهام أثر في النفس، ذٰلك لأن المعنى يظهر بصورتين مختلفتين: الأولى: مبهمة مجملة، والثانية: موضحة مفصلة، فيتمكن فيها خير تمكن وأفضله. هٰذا من جهة. وتكمل لذة العلم به من جهة أخرى.

وبدهي أن تدرك الفرق بين شيئين: أحدهما حصل لك به العلم دفعة واحدة، وثانيهما: علمته على سبيل التدرج شيئاً بعد شيء، فإنك لا شك واجد لهٰذا الأخير لذة في نفسك، لا تجدها لسابقه.

استمع إلى قوله تعالى حديثاً عن لوط عليه السلام: ﴿فأَسْرِ بأهْلِكَ بقِطْعٍ من الليلِ واتَّبِعْ أدْبارَهُم ولا يَلْتَفِتْ مِنْكُم أحدٌ وامْضوا حيثُ تُؤمَرونَ . وقضينا إليه ذٰلك الأمرَ﴾ [الحجر: ٦٥ - ٦٦]. وأنت تتساءل عن هٰذا الأمر الذي قضاه الله إلى لوط، وتتشوَّف ويتشوَّق فؤادك إلى معرفته، ويبيِّن الله هٰذا الأمر بعد ذٰلك بقوله: ﴿أنَّ دابِرَ هٰؤلاءِ مَقْطوعٌ مُصْبِحينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، فهٰذا المقضي ذُكر مرتين؛ مجملاً أولاً في قوله تعالى: ﴿ذٰلك الأمر﴾، ومفصلاً ثانياً في قوله سبحانه: ﴿أنَّ دابر هٰؤلاء مقطوع مصبحين﴾.

ومثل هٰذا قوله سبحانه: ﴿فوَسْوَسَ إليهِ الشيطانُ﴾ [طه: ١٢٠]، فأنت تترقب؛ ما الذي وسوس به الشيطان؟ إن في ذٰلك إجمالاً لا بد من بيانه، فيبيّنه سبحانه بقوله: ﴿قال يا آدَمُ هل أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى﴾ [طه: ١٢٠].

ومن هٰذا قول الله عز وجل: ﴿واتَّقوا الذي أمَدَّكُم بما تَعْلَمونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢]، والنفس تترقب ما هٰذا الذي أُمدوا به، وتفصله الآية التي بعد هٰذه الآية: ﴿أمدَّكُمْ بأنعامٍ وبنينَ . وجنَّاتٍ وعيونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٣ - ١٣٤].

ولعلك بعد هٰذه الأمثلة الكريمة لا يعسر عليك أن تدرك هٰذا فيما تقرأ، وأن تمثِّل له فيما تتكلم، فإذا قلت: قمت بواجبي نحو فلان. فهٰذا كلام مجمل، فإذا قلت: نفَّست عنه كربته. أو: شرحت له الدرس. أو: خصصت له مبلغاً من المال. أو: دفعت عنه أذى المعتدين. فذٰلك كله تفصيل يدخل في هٰذا الباب.

وجعل منه صاحب «التلخيص»: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري﴾ [طه: ٢٥]؛ فإن هنا شرحاً، فُهم من قوله تعالى: ﴿اشرح﴾، ومشروحاً له؛ دل عليه قوله سبحانه: ﴿لي﴾، فتترقب النفس معرفة الشيء الذي لا بدَّ من شرحه، فقال تعالى: ﴿صَدْري﴾.

وكأنه -أي : صاحب «التلخيص» - فهم هذه الإشارة من عبارة الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ألم نشرحْ لكَ صدرك﴾ [الإنشراح : ١]، ونظن أن الزمخشري لم يرد المعنى الذي أراده صاحب «التلخيص» ، ولذا نرجح أن هذا ليس من باب الإطناب؛ لأن الإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة وما نخال أن ههنا زيادة.

ومن الإيضاح بعد الإبهام ما يجيء في بابي (نعم) و(بئس)، فإذا قلت: نعم الرجل خالد. فأنت ذكرت خالداً مرتين؛ مجملة تارة في قولك: نعم الرجل. ومفصلة تارة أخرى في قولك: خالد. وفي هٰذا إيجاز بالحذف كذلك إذا أعربنا خالداً خبراً لمبتدأ محذوف تقديره (هو)، فيكون في الجملة إيجاز وإطناب.

بقي من الإجمال بعد الإبهام باب بديع المسرد، لطيف المأخذ، وهو التوشيع، والتوشيع لغة: لف القطن المندوف. واصطلاحاً: هو أن يؤتى في عجز الكلام غالباً بمثنى مفسر باسمين، ثانيهما معطوف على الأول.

ونجد صلة بين المعنى اللغوي وهٰذا الاصطلاحي، إذ القطن إنما يُنتفع به بعد جمعه ولفه، لا في حالة تفريقه وندفه.

ومثلوا له بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يهرم ابن آدم وتشب معه خصلتان: الحرص والأمل»[1]. ونمثل له كذلك بقول النبي ^ لأشج عبد قيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله؛ الحلم والأناة»[2]. ومنه قول الشاعر:

سَقَتني في ليلٍ شبيهٍ بشعرها شبيهَةَ خدَّيْها بغيرِ رَقيبِ
فما زِلْتُ في ليلَيْنِ شعرٍ وظُلْمَةٍ وشمْسَيْنِ من خمرٍ ووجهِ حبيبِ

وقول البحتري:

لما مَشَيْنَ بذي الأراكِ تَشابَهتْ أعطافُ قُضْبانٍ بهِ وقُدودِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب: كراهة الحرص على الدنيا، حديث رقم (١١٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان أسقية الأدم، رقم حديث (٢٥، ٢٦)

في حُلَّتيْ حَبْرٍ ورَوْضٍ فالتقى وشْيانِ وشْيُ رُبىً ووشْيُ بُرودِ
وسَفَرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقَها وردانِ وردُ جنىً وورِدُ خُدودِ
ومتى يُساعِدُنا الوِصالُ ويومُنا يومانِ يومُ نوىً ويومُ صُدودِ[1]

ومنه قول شوقي في قصيدته يا جارة الوادي:

وَدَخَلْتُ في ليلَيْنِ فرعِكِ والدُّجى ولَثَمْتُ كالصُّبْحِ المُنَوِّرِ فاكِ

ويمكننا أن نمثل لهذا: إن لنا لخصمين لدودين؛ التبشير والاستشراق. وأخطر ما يصيب الأمة داءان؛ الميوعة والإلحاد. وما أحرانا أن نَحْذَرَ صنفين من الناس؛ الأعداء والأدعياء.

وعبارة بعض الكاتبين توهم أن التوشيع خاص بالمثنى، وليس كذلك، بل يأتي في الجمع كثيراً، ومنه قول النبي ﷺ: «ثلاث مَن كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار»[2].

ومنه قوله: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً؛ وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[3].

ومنه بيت محمد بن وهيب المتقدم:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

---

(١) الحِبَر ـ بكسر الحاء وفتح الباء ـ: جمع الحَبَر ـ بفتح الحاء والباء ـ؛ ضرب من الثياب اليمانية المنمرة. والوشي: النقش. والبُرود ـ بضم الباء ـ: جمع بُرْد ـ بضم وسكون ـ وهو الثوب الموشى. والجنى: ما يجنى من الشجر ما دام غضًا طريًا.
«الديوان» (٢/ ٦٩٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، حديث رقم (١٦)، باب رقم (٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق، حديث رقم (٣٤)، باب رقم (٢٤).

ومن التوشيع قولنا: ما أحوج أمتنا إلى خصال ثلاث: الجود، والجرأة، والجماعة. وما أحوجنا أن نتجنب خصالاً ثلاثاً: الجبن، والجور، والجمود.

فأنت ترى في هٰذه الأمثلة المتقدمة أنها جميعاً من باب الإيضاح بعد الإبهام، ذٰلك هو أول موطن من مواطن الإطناب، وجدنا أن فيه زيادة اللفظ على المعنى، ولكنها ذات فوائد جليلة.

■ ثانياً: ذكر الخاص بعد العام:

من أسباب الإطناب ذكر الخاص بعد العام، وذٰلك تنويهاً بشأن الخاص، وتنبيهاً على فضله، كأنما هو شيء آخر، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿حافِظوا على الصَّلواتِ والصَّلاةِ الوُسْطى﴾ [البقرة: ٢٣٨]؛ فلقد ذكرت الصلاة الوسطى مرتين، فهي داخلة في قوله تعالى: ﴿حافِظوا على الصلواتِ﴾، ثم ذكرت مرة أخرى تنويهاً وتعظيماً، كأنما هي شيء آخر.

ومثل هٰذا قوله سبحانه: ﴿بِسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ . إنَّا أنْزَلْناهُ في ليلةِ القدْرِ . وما أدراكَ ما ليلَةُ القدرِ . ليلةُ القدرِ خيرٌ مِن ألفِ شهرٍ . تَنَزَّلُ الملائِكَةُ والرُّوحُ فيها﴾ [القدر: ١ ـ ٤]، فالروح في الآية هو جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة، وإنما ذكر معطوفاً على ما قبله؛ لما عرفت، ومن هٰذا القبيل قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ عَدوّاً للهِ وملائِكَتِهِ ورُسُلِهِ وجِبريلَ وميكالَ فإنَّ اللهَ عدوٌ للكافرينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فجبريل وميكال داخلان في عموم الملائكة.

ومن هٰذا قوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُم أُمَّةٌ يَدعونَ إلى الخَيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنهونَ عن المُنكرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فإن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ داخلان في عموم الدعوة إلى الخير، وإنما نُصَّ عليهما بخاصة لكونهما من الدعائم التي لا تصلح الأمة بدونهما.

ومن هذا قولنا: إن فلسطين والأقصى حجة الله على أمتنا في هذا العصر. فقد ذكر الأقصى مرتين: أولاً في فلسطين؛ لأنها تشتمل عليه، ومرة أخرى؛ لما له من

الشرف والفضل.

ويمكنك أن تروز نفسك لتأتي بأمثلة كثيرة لهٰذا النوع، وما أظنك بحاجة لأن تنبه إلى أن هٰذا السبب يختلف عن السبب الذي قبله، أعني: الإيضاح بعد الإبهام، فهٰذا جاء بحرف العطف، ولا كذٰلك الأول. هٰذا من جهة، ومن جهة ثانية، فهٰذا ذُكر فيه العام أولاً، والأول ذكر فيه المجمل.

■ ثالثاً: التكرير لفائدة:

من أسباب الإطناب التكرار لفائدة، وتختلف باختلاف السياق، فقد يكون لتأكيد الإنذار، وتأكيد الردع، ومثلوا له بقوله سبحانه: ﴿بسمِ اللهِ الرحْمٰنِ الرحيمِ . أَلهاكُمُ التَّكاثُرُ . حتى زُرْتُم المقابِرَ . كَلَّا سوفَ تَعْلَمونَ . ثم كَلَّا سوفَ تَعْلَمونَ﴾ [التكاثر: ١ - ٤].

وقريبٌ منه قوله سبحانه: ﴿كَلَّا سَتَعْلَمونَ . ثُمَّ كَلا سَتَعْلَمونَ﴾ [النبأ: ٤ - ٥].

وقد يكون تبكيتاً؛ كما في قوله سبحانه: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمُكَذِّبينَ﴾ [المرسلات]، فقد ذكرت هٰذه الآية الكريمة في سورة المرسلات أكثر من مرة، ولكنها في كل مرة تُذكر عقب آية من آيات الله؛ سواء كانت هٰذه الآية في أحوال الأمم، أم في أحوال النفس، أم في آثار قدرة الله في الأرض، أم في أخبار الآخرة.

وقد يكون للحث على شكر نعمة من النعم؛ كما في قوله سبحانه: ﴿فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن]، وقد يكون التكرار للتحسُّر، وهٰذا كثير في أشعار العرب، كمرثية كُليب، وقصيدة الخنساء في أخيها صخر، ومن هٰذا قول الحسين بن مطير[1] يرثي معن بن زائدة:

فيا قَبْـرَ مَعـنٍ أنـتَ أولُ حُفْـرَةٍ ... مِن الأرضِ خَطَّتْ للسَّماحَةِ مَوْضِعا

(١) الحسين بن مطير بن مكمل الأسدي، شاعر متقدم في القصيد والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، له أماديح في رجالها، وكان زيه وكلامه كزي أهل البادية وكلامهم، مدح معن بن زائدة، توفي سنة (١٦٩ هـ).

ويا قبرَ مَعْنٍ كيفَ وارَيْتَ جودَهُ وقـد كانَ منـهُ البـرُّ والبحرُ مُتْرعـا

وقد يأتي التكرار لطول الفصل، وتجد هٰذا كثيراً في كلام الناس، فقد تحدث جماعة بقولك: قلت لكم والأمل يملأ نفسي لما أجده فيكم من أريحية وحب للبذل وشوق للتضحية، قلت لكم: إن الطريق شاقٌ وعسير. فلقد كُررت هٰذه الجملة: قلت لكم. وذٰلك لطول الفصل بين القول والمقول.

وعدُّوا منها الآية الكريمة: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الذينَ يَفْرَحونَ بما أتَوْا ويُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدوا بِما لَمْ يَفْعَلوا فلا تَحْسَبَنَّهُم بِمفازَةٍ مِن العذابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

ومنه قول الشاعر:

لقـدْ عَلِمَ الـحَيُّ اليمـانـونَ أنَّني إذا قلتُ أمـا بعـدُ إنـي خَطيبُـهـا

فلقد كرر (إني)، وأصل الكلام: لقد علم الحي اليمانون أنني ـ إذا قلت: أما بعد ـ خطيبها. ولكنه جاء بـ (إني) الثانية لطول الفصل.

ومثله قول الحماسي:

وإنَّ امـرأ دامَـتْ مواثـيقُ عهـدِهِ على مِثْـلِ هٰذا إنَّـه لَكـريمُ

وأصل القول: وإن امرأ دامت مواثيق عهده على مثل هٰذا لكريم.

واعلم أن التكرار أسلوب من أساليب العربية يؤتى به لتأكيد القول وتثبيته حينما يستلزم المقام ذٰلك، ومع هٰذا كله؛ فإننا نستبعد وجود التكرار في كتاب الله تعالى، ولهٰذا موضع آخر، وقد بسطنا القول فيه في كتابنا: «إمتاع الطرف في سلامة القرآن من التكرار والحذف».

■ رابعاً: الإيغال:

من أسباب الإطناب الإيغال، والإيغال؛ لغة: البعد. يقال: أوغل في المكان؛ إذا ذهب فيه بعيداً. والمعنى الاصطلاحي الذي قصده علماء البلاغة لوحظ فيه هٰذا المعنى اللغوي، فقد عرفوه بأنه ختم البيت بكلمات يتم المعنى بدونها، ولكن الشاعر

يأتي بها لنكتة ولغرض.

الإيغـال ـ إذن ـ: لفظ زائد على ما قصده الشاعر، يتمم به قافيته، ويؤدي به معنى، فإذا كان اللفظ لإتمام القافية، ولا يفيد معنى، فليس من الإيغال.

وأنت ترى من تعريفه أنه خاص بالشعر، ولكن قوماً لم يقصروه على الشعر، بل جعلوه عامًّا في الكلام كله.

ومثال الإيغال من الشعر قول الخنساء:

وإنَّ صخـراً لتـأتَـمُّ الـهُـداةُ بهِ ... كأنَّـهُ علمٌ في رأسـهِ نارُ[1]

فإن قول الخنساء تم عند قولها: «كأنه علم»؛ حيث ذكرت أن أخاها صخراً في ائتمام الهداة به كأنه جبل، ولكنها لم تكتف بذلك، وهي مضطرة أن تكمل البيت، فلم تكمله بأي كلام، وإنما جاءت بكلام متصل بالمعنى الذي أرادته، وهو قولها: «في رأسه نار»؛ والجبل يصلح أن يهتدي الناس به بدون شيء، فما بالك إذا كان في رأسه نار؟! فذلك أبلغ في الهداية.

ومن ذلك قول امرىء القيس:

كأنَّ عُيونَ الـوَحْشِ حَوْلَ خِبـائِـنـا ... وأرْحلنـا الجـزعُ الـذي لم يُثْقَبِ[2]

والخباء والرَّحل: ما يُعمل من الوبر والصوف على عمودين أو ثلاثة، فإن كان على أكثر من ذلك سمي بيتاً، وهو ما تتخذه البادية في حلها وترحالها. والجَزْع ـ بفتح الجيم وسكون الزاي ـ: هو الخرز، فإذا فتحت الزاي؛ كان معناه. الهلع.

يتحـدث امـرؤ القيس عن كثرة ما يصطادون من الظباء، وبقر الوحش، فيشبه عيونها بعد موتها حول خبائهم التي يقطنون فيها لكثرتها بالخرز، وقد انتهى التشبيه هنا، ولكن القافية لم تنته، فالقصيدة بائية، ومطلعها:

---

(١) «العمدة» (٢/ ٧٤)..

(٢) «ديوان امرىء القيس» (ص ٥٣).

خَليلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ[1]   لِنَقْضِيَ حاجاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ

ففطن امرؤ القيس لتحقيق هٰذا التشبيه، فأكمله بقوله: «الذي لم يثقب». ذٰلك أن عيون الظباء وبقر الوحش بعد موتها تكون أشبه بالخرز الذي لم يثقب. قال الأصمعي: والظبي والبقر؛ إذا كانا حيين؛ فعيونهما كلها سواد، فإذا ماتا؛ بدا بياضها، وإنما شبههما بالجزع ـ وفيه سواد وبياض ـ بعدما موتت، والمراد كثرة الصيد، يعني: مما أكلنا؛ كثرت العيون عندنا[2].

بقي أن نتساءل: ما فائدة قوله: «لم يثقب»؟! والفائدة ـ كما قلنا ـ هي تحقيق التشبيه، أي: تحقيق المساواة التامة بين المشبه والمشبه به، فالعيون تشبه الخرز، ولكن لما كان الخرز يثقب غالباً، وكانت العيون لا تثقيب فيها، أراد الشاعر أن يبين المساواة التامة بين المشبه والمشبه به، فختم البيت بقوله: «لم تثقب». فأنت ترى أن هٰذه الزيادة التي تم التشبيه بدونها لم تأت عبثاً، وإنما جاءت لفائدة تدل على مساواة المشبه للمشبه به، لذٰلك كان الإيغال يدل على قدرة الشاعر وبصره في إيراد المعاني؛ لذا وجدنا إعجاب الكثيرين بمثل هٰؤلاء الشعراء.

فهٰذا هو الرشيد كان كثير الإعجاب بقول مسلم بن الوليد:

إذا ما عَلَتْ منا ذؤابة شاربٍ   تمشَّتْ بهِ مشيَ المقيدِ في الوحْلِ

وكان يقول: قاتله الله! أما كفاه أن يجعله مقيداً، حتى يجعله في وحل؟!

وقد سئل الأصمعي: من أشعر الناس؟ فقال: من ينقضي كلامه قبل انقضاء القافية، فإذا احتاج إليها؛ أفاد بها معنى. قيل: نحو من؟ قال: ذو الرمة حيث يقول:

---

(١) أم جندب: هي زوجة امرىء القيس، ولهٰذه القصيدة قصة، فلقد تحاكم امرؤ القيس وعلقمة الفحل عند أم جندب أيهما أشعر، ولما سمعت القصيدتين، وهما بائيتان؛ حكمت لعلقمة، ولم تصدر حكمها عن هوىً، بل عللت حكمها تعليلاً نقديًا، وهٰذا يدلنا على الذوق النقدي عندالعرب. «الديوان» (ص ٤١).

(٢) «شروح التلخيص» (٣ / ٢٢٣).

قِفِ العيسَ في أطــلالِ ميَّةَ فاسـألِ رســومـاً كأخــلاقِ الـرِّداءِ المُسَلْسَـلِ

فتم كلامه بـ (الرداء)، ثم قال: «المسلسل»، فزاد به شيئاً.

ثم قال:

أظُنُّ الـذي يُجْـدي عليكَ سؤالُهـا دُمـوعـاً كتَبْـذيرِ الجُمـانِ المفصَّـلِ[1]

فتم كلامه بـ (الجمان)، ثم قال: «المفصل»، فزاد شيئاً.

قيل: ونحو من قول الأعشى:

كَنـاطِـحٍ صخـرَةٍ يومـاً ليَفْـلِقَهـا فَلَمْ يَضِـرْهـا وأوْهى قرنَـهُ الـوَعِـلُ[2]

فتم كلامه بـ (يضرها)، فلما احتاج إلى القافية؛ قال: «وأوهى قرنه الوعل»، فزاد معنى»[3].

والذين ذهبوا إلى أن الإيغال يكون في غير الشعر، مثلوا له بقوله سبحانه: ﴿وجاءَ مِن أقْصى المَدينَةِ رَجُلٌ يَسعى قالَ يا قومِ اتَّبِعوا المُرْسَلينَ . اتَّبِعوا مِن لا يسألُكُم أجْراً وهم مُهتَدونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١]، فإن الرسل لا يكونون إلا مهتدين، وقد جيء بهذه الجملة الكريمة حثّاً على اتباع الرسل.

ولا نرى ذٰلك في كتاب الله.

يمكننا أن نمثل للإيغال من غير الشعر بقولنا: جدير بنا أن ننهج نهج الكرام الشهداء، فانهجوا نهجهم، نهج الذين لم يطلبوا منكم ثمناً، ولم ينسوا أن لهم ديناً ووطناً، وهم لأنفسهم باذلون، وبدمائهم مضحون. فالجملة الأخيرة إيغال؛ على رأي هٰذا الفريق الآخر؛ لأن الشهداء لا يكونون إلا كذٰلك.

---

(١) «ديوان ذي الرمة» (٣/ ١٤٥١). تحقيق عبد القدوس صالح.

الرسوم: الآثار بلا أشخاص. المسلسل: المسلسل الذي تسلسل من الأخلاق. العيس: الناقة الشديدة.

(٢) «ديوان الأعشى»، دار صادر، (ص ١٤٨).

(٣) «شرح تلخيص القزويني»، للشيخ عبد الرحمن البرقوقي، (ص ٣٢٥).

■ خامساً: التذييل:

من أسباب الإطناب التذييل، وهو في اللغة جعل شيء ذيلاً لشيء آخر، والمعنى الاصطلاحي منبثق عن هٰذا المعنى، فقد عرفوا التذييل بأنه تعقيب الجملة بجملة أخرى متفقةٍ معها في المعنى تأكيداً للجملة الأولى.

ومثَّلوا له بقوله سبحانه: ﴿ذٰلك جَزَيْناهُم بما كَفَروا وهَلْ نُجازي إلا الكَفورَ﴾ [سبأ: ١٧]، ففي الآية الكريمة جملتان: الأولى: ﴿ذٰلك جزيناهم بما كفروا﴾، وقد جاء الحديث عن سبأ أصحاب سد مأرب، حيث كان لهم جنتان عن يمين وشمال، ولكنهم أعرضوا، وجحدوا نعم الله، فبُدلوا بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، فعاقبهم الله تبارك وتعالى بسبب كفرهم، هٰذا معنى قوله سبحانه: ﴿ذٰلك جزيناهم بما كفروا﴾، فجاءت الجملة الثانية، وهي قوله سبحانه: ﴿وهل نُجازي إلا الكفورَ﴾؛ تأكيداً للجملة الأولى، فهي مشتملة على معناها.

ومثله قوله سبحانه: ﴿وقُلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]، ثم أكد هٰذه الجملة بقوله سبحانه: ﴿إن الباطلَ كانَ زَهوقاً﴾ [الإسراء: ٨١].

تدبر هاتين الآيتين الكريمتين؛ تجد أن الجملة الثانية في كل منهما جاءت تأكيداً للجملة الأولى، ولكنك تلمح بينهما فرقاً، فالجملة الثانية في الآية الثانية: ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ نجدها تتردد على أفواه كثيرين من الناس حينما يرون مصرع الباطل، يسارعون إلى القول: ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾، فقد جرت هٰذه الجملة مجرى المثل، وليس الأمر كذٰلك في قوله سبحانه: ﴿وهل نُجازي إلا الكفور﴾.

ومن هنا قسموا التذييل قسمين:

١ ـ **ما يجري مجرى المثل**: إذا كان مما تردده الألسنة، ويصلح أن يكون مثلاً للعبرة والتأسي.

٢ ـ **غير جار مجرى المثل**: إذا لم يكن كذٰلك.

وهناك تقسيم آخر للتذييل:

١ ـ فقد تكون الجملة الثانية تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى، بأن يكون هناك اشتراك بين الجملتين في نفس اللفظ؛ كالمثالين السابقين، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾؛ متفقة في كثير من ألفاظها مع الجملة الأولى: ﴿ذٰلك جزيناهُم بما كفروا﴾، وكذٰلك قوله سبحانه: ﴿إنَّ الباطلَ كانَ زهوقاً﴾؛ جاءت متفقة من حيث مادة اللفظ ـ ولا أقول صيغته ـ مع قوله سبحانه: ﴿زَهَقَ الباطلُ﴾.

٢ ـ أن تكون الجملة الثانية تأكيداً لمفهوم الجملة الأولى، أي: تأكيداً لمعناها دون أن يكون هناك اشتراك باللفظ بين الجملتين، وذٰلك كقول النابغة من قصيدته البائية التي يمدح بها النعمان، ويعتذر له:

ولستَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ(١)

واللم: الضم. يقول: إنك لن تستبقي أحداً من الناس لا تضمه إليك، ولا تقربه منك؛ إذا كنت ترى منه خصالاً ذميمة، وخلقاً غير مرضي. ومعنى البيت: إنك لا تجد أحداً كامل خصال الخير خالياً من أي وصف سيىء. ثم قال: «أي الرجال المهذب». وهٰذا الاستفهام معناه النفي، أي: لا أحد يسلم من خصلة سوء. فقوله: «أي الرجال المهذب». جاءت تأكيداً لما قبله؛ لأن ما قبله أفاد هٰذا المعنى ـ كما رأينا ـ.

ولكننا نجد هٰذا التأكيد يختلف عن سابقه؛ لأننا لا نجد في هٰذا البيت كلمات مشتركة من حيث مادتها بين الجملة الثانية وما قبلها، فقوله: «أي الرجال المهذب»؛ كلمات لم يذكر منها شيء في الجملة الأولى.

وقد كثر التذييل في أقوال الشعراء، فمن التذييل الذي لم يجر مجرى المثل قول ابن نباتة السعدي:

لم يُبْقِ جودُكَ لي شيئاً أؤمِّلُهُ ... تَرَكْتَني أصْحَبُ الدنيا بلا أملِ

---

(١) «ديوانه» (٩٦)، «معاهد التنصيص» (١/ ٣٥٨).

فالجملة الثانية ـ كما ترى ـ جاءت تأكيداً لمنطوق الجملة الأولى ؛ لأن المعنى : إن كثرة جودك وبرك وإحسانك ؛ لم تبق لي شيئاً أرجوه في هٰذه الدنيا، فلقد أعطيتني فبلغت من عطائك كل ما أؤمله، فليس لي بعد عطائك شيء أرجوه، فقوله : «تركتني أصحب الدنيا بلا أمل» ؛ تأكيد للجملة الأولى . ومنه قول المتنبي :

تُمسي الأماني صَرْعى دونَ مَبْلَغِـهِ ... فمـا يَقـولُ لشيءٍ ليتَ ذٰلـك لي[1]

فالجملة الثانية تأكيد للأولى، فما دامت الأماني تمسي صرعى، وتتلاشى كلها دون مبلغه، فماذا سيتمنى إذن؟ لا شيء يمكن أن يتمناه، فالشطر الثاني تأكيد لمعنى الأول .

ومن القسم الثاني ـ أي الجاري مجرى المثل ـ قول الحطيئة :

نَزورُ الفَتى يُعطي على الحَمْدِ مالَهُ ... ومَنْ يُعْطِ أثْمـانَ المَكارِمِ يُحْمَدِ[2]

ألا ترى أن الشطر الثاني يصلح مثلاً .

ومنه بيت النابغة المتقدم في قوله :

.... أيُّ الرجالِ المُهَذَّبُ

وبعد هٰذا يمكنك أن تمثل للتذييل بقولك ـ وقد ظهرت نتائج الامتحانات، وقد سئلت عن بعض زملائك الذين كانوا مجدين مجتهدين ـ: لقد نجحوا بتفوق مشرف، وكل من سار على الدرب وصل . وقلت عن آخرين ممن هم على النقيض من سابقيهم : لقد أخفقوا بما كسبت أيديهم، ومن يزرع الشوك لا يجني العنب .

■ سادساً : الاحتراس :

من أسباب الإطناب الاحتراس، ويسمى التكميل كذٰلك، وأظن أن المعنى اللغوي لا يعسر عليك فهمه، فأنت لا تجهل معنى الحارس والحراسة، فأصل المادة

---

(١) «الديوان» (٣/ ٢٠٦).

(٢) «العمدة» (٢/ ١٣٧).

المحافظة على الشيء، وكذلك أمر التكميل، والحق أن هناك صلة وثيقة بين المعنى الاصطلاحي الذي يقصده علماء البلاغة وبين المعنى اللغوي، فإذا كانت مادة الاحتراس تدل على المحافظة؛ فإن ما نقصده هنا كذلك، **فالاحتراس: المحافظة على المعنى من كل ما يفسده ويغيره**، وهذا ما ترشد إليه عبارة القوم، فلقد قالوا في تعريفه: **هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه**.

ومعنى هذا التعريف أن يدل الكلام على معنى لا يقصده المتكلم، فيأتي بما يزيل هذا الفهم، ويبدد هذا الوهم.

انظر مثلاً إلى قول ابن المعتز يتحدث عن فرسه:

صَبَبْنا عليها ـ ظالمينَ ـ سِياطَنا   فطارَتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرْجُلُ[1]

فهو يخبرك أنه صبَّ على هذه الفرس سياطه، وأنت تعرف أن السياط إنما تصب على الفرس البليد، إذ الفرس الكريم لا يحتاج إلى شيء من ذلك، ألا ترى أن أم جندب حكمت لعلقمة على زوجها امرىء القيس؛ لأنه جعل فرسه يطير بدون ضرب، ولا كذلك امرؤ القيس؟

ولكن ابن المعتز ـ وقد أدرك أن كلامه يوهم غير المقصود ـ أراد أن يحترس بما يزيل هذا الوهم، ويبدد هذا الفهم، فجاء بكلمة (ظالمين)، فهو يقول: إن السياط التي صُبت على هذه الفرس لا لبلادة فيه، بل ذلك ظلم منا، إذ هي لا تستحق تلك السياط، فكانت كلمة (ظالمين) احتراساً من أن تفهم معنىً غير مراد.

وانظر إلى بيت طرفة بن العبد يمدح قتادة بن مسلمة الحنفي[2] على كرمه وصنيعه في قصيدته الميمية، ومطلعها:

---

(١) «العمدة» (٢/ ٦٩).

(٢) قتادة بن مسلمة الحنفي، شاعر جاهلي، أجار الحارث بن ظالم حين قتل خالد بن جعفر بن كلاب، وخرج مستجيراً بالقبائل محتمياً بها، وفي ذلك يقول الحارث بن ظالم:

قتادة الخير نالتني حديته   وكان قدماً إلى الخير والطاعات

أَبْــلِغْ قَتَــادَةَ غيرَ سائِـلِهِ   منــهُ الـثـوابُ وعــاجِــلُ الـشُّكـمِ
فَسَـقَـى بلادَكَ غيرَ مُفْـسِـدِهــا   صوبُ الـغَـمــامِ وديمـةٌ تَهـمـي(١)

والديمة: المطر الكثير. وتهمي: تسيل. إن البيت دعاء ـ كما ترى ـ بكثرة الخير، وبنـزول المـطر الكثير، ولكن هٰذا المطر الكثير قد يكون سبباً في الفساد والإغراق؛ فاحترس طرفة بن العبد ـ حتى لا يؤدي كلامه إلى هٰذا المعنى ـ بقوله: «غير مفسدها»، أي: إن هٰذا المـطر الذي يسقي ديارك لا فساد فيه، فـ (غير مفسدها) جملة حالية، و (صوب)؛ فاعل. أي: سقى المطر الكثير ديارك حال كونه غير مفسدها.

وشبيه بهٰذا قول نافع الغنوي:

رِجــالٌ إذا لَمْ يُقْبَــلِ الـحَـقُّ منـهُمُ   ويُعْـطَوْهُ عاذوا بالسُّيوفِ القَـواضِبِ(٢)

ولعلك تتساءل: أين الاحتراس هنا؟ إنه ليس ظاهراً ـ كما هو مبين في البيتين السابقين ـ ولكنك إذا فهمت البيت، وعرفت معناه، تعرف موضع الاحتراس فيه. فماذا يقول نافع عن قومه؟! يقول: إن هٰؤلاء الرجال من شأنهم إحقاق الحق، فهم لا يرضون الباطل أبداً، هم يحكمون بالحق إن حكموا، وإن كان لهم حق عند غيرهم أخذوه، ولـم يرضـوا بالـذل، فـإذا أبى خـصـمـهم أن يعطيـهـم حقـهـم؛ لجأوا إلى السـيـوف، ونزلوا ساحة الوغى

هل أدركت موضع الاحتراس؟ إنه في كلمة (يعطوه)، ولولا أن الشاعر جاء بهٰذه الكلمة؛ لفُهم أن قومه يحملون السيوف، وينزلون ساحة الحرب؛ إذا لم يقبل الحق منهم، وإذا لم ينزل الناس عند أحكامهم، ولكن الشاعر لا يريد هٰذا المعنى، وإنما الذي يريده أن قومه لا يلجأون إلى الحرب إلا إذا مُنعوا حقوقهم، أما عدم قبول الحقّ منهم؛ فليس من شأنهم أن يرغموا الناس عليه، فيعلنوا حرباً من أجله.

---

(١) الديمة: المطر يدوم. وتهمي: تسيل. الشكم: العوض.
انظر «ديوان طرفة» (ص ٨٨)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).
(٢) «أمالي الزجاجي» (ص ١٨٢).

ومنه قول صفي الدين الحلّي(1):

فَوَفِّنـي غيرَ مأمـورٍ وُعـودَكَ لي   فليسَ رؤياكَ أضْغـاثـاً مِن الحلمِ

والاحتراس في قوله: «غير مأمور»؛ فـ (وفِّني) فعل أمر، فربما فهم المخاطب أنه يأمره بذلك، وهٰذا المعنى لا يريده الشاعر، فاحترس بقوله: «غير مأمور»؛ ليزيل هٰذا الفهم الذي يحتمله الكلام.

ومن هٰذا قول الشاعر:

واصْفَـحْ عَنْ سِبـابِ النـاسِ حِلْمـا   وشَـرُّ النـاسِ مَن يَهْـوى السِّبـابـا

والاحتراس في قوله: «حلما»؛ حتى لا يظن أن صفحه عن السباب من أجل ضعفه.

تسمع من زميلك قوله: لقد تركت الدراسة. فيخطر ببالك أنه تركها إهمالاً وكسلاً، أو بلادةً وغباء، فيحترس عن هٰذا المعنى الذي يمكن أن يُفهم من كلامه بقوله: سعياً على والديَّ الكبيرين.

وقد عدُّوا منه قوله سبحانه: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا مَن يَرْتَدَّ منكُم عن دينِهِ فسوفَ يأتي اللهُ بقـومٍ يحِبُّهُم ويُحِبُّـونَهُ أذِلَّةٍ على المؤمنينَ أعِزَّةٍ على الكافِرينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقالوا: إن قوله سبحانه: ﴿أعزةٍ على الكافرينَ﴾؛ احتراس، حتى لا يُفهم أن الذلة طبيعة فيهم ناشئة عن ضعف.

ولكن الـذي يبـدو لي أن الأمـر ليس كمـا قالـوا؛ لأن قوله سبحانه: ﴿يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَه﴾؛ يفهم منه أنهم ليسوا ضعفاء أذلاء؛ لأن الله لا يحب الأذلاء المستضعفين

وشبيه بالآية قولـه سبحـانه: ﴿محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ مَعَهُ أشدَّاءُ على الكُفَّارِ

---

(1) عبد العزيز بن سرايل بن أبي القاسم، شاعر عصره، ولد ونشأ في الحلة بين الكوفة وبغداد، واشتغل بالتجارة، رحل إلى القاهرة سنة (٧٢٦ هـ)، فمدح السلطان الملك الناصر، وتوفي في بغداد سنة (٧٥٠ هـ). [الأعلام. ٤/ ١٨]

رُحماءُ بينَهُم﴾ [الفتح: ٢٩]، فالآيتان ترشدان إلى أن الله تبارك وتعالى لا يحب إلا من كَمُل إيمانهم، وهم الذين اجتمع لهم هٰذان الوصفان: الشدة والعزة على الكفار، والذلة والرحمة للمؤمنين. فهما وصفان متلازمان، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

وعدُّوا من الاحتراس قوله سبحانه: ﴿وأدْخِلْ يَدَكَ في جيبِكَ تَخْرُجْ بيضاءَ مِن غيرِ سوءٍ﴾ [النمل: ١٢]، فقوله سبحانه: ﴿من غيرِ سوءٍ﴾؛ احتراس عن أن يكون هٰذا البياض علة من العلل؛ كالبرص أو غيره.

وأظنك بعد كل هٰذا يسهل عليك أن تتبين مواضع الاحتراس فيما تقرأ وتسمع، أو أن تضمنه كلامك إذا دعت الحاجة إليه.

■ سابعاً: التتميم:

ومن أسباب الإطناب التتميم، **وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة لنكتة**. هٰذا ما قالوه في تعريفه، وأظن أن هٰذا التعريف بحاجة إلى شيء من الشرح والتفصيل.

عرفت من قبل أن الاحتراس إنما يؤتى به إذا كان الكلام يوهم غير المقصود، أما التتميم الذي نحن بصدد الحديث عنه؛ فليس كذٰلك، فالكلام هنا لا يوهم شيئاً آخر غير الذي يريده المتكلم، وإنما يكون التتميم لفائدة بيانية، ونكتة بلاغية.

التكميل والاحتراس إذن فيما يوهم خلاف المقصود، والتتميم ليس كذٰلك.

بقي أن يقال: فما معنى الفضلة في هٰذا التعريف؟!

ونجيبك على هٰذا التساؤل بأن الكلام ينقسم إلى قسمين: عمدة، وهو ما كان ركناً في الجملة؛ كالمسند إليه والمسند، وهما يعبَّر عنهما في علم النحو بالمبتدأ والخبر، والفعل والفاعل. وفضلة: وهي ما ليس كذٰلك؛ كالحال، والتمييز، والجار والمجرور، والظرف، وهو ما يسميه البلاغيون قيداً، ولعله أولى هنا من كلمة (فضلة) التي ذكرها القوم.

ومن هنا تعرف أن التتميم لا يكون بجملة مستقلة أولاً، ولا يكون بركن رئيس في الجملة ثانياً؛ لأن الفضلة لا تشمل هٰذين الأمرين.

والأمثلة ستوضح لك ذٰلك، وتبينه خير بيان.

قلنا: إن التتميم إنما يكون لنكتة بيانية؛ كالمبالغة، ومثلوا لهٰذا بقوله سبحانه: ﴿لَيسَ البرَّ أن تولُّوا وجوهَكُم قِبَلَ المشرقِ والمَغْرِبِ ولٰكِنَّ البرَّ مَن آمَن باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائِكَةِ والكِتابِ والنَّبيِّينَ وآتى المالَ على حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فقوله سبحانه: ﴿على حبه﴾؛ له معنيان؛ لأن الضمير إما أن يعود إلى الله تبارك وتعالى، أي: على حبِّ الله تبارك وتعالى، فهم يعطون المال من أجل الله وحده، لا رياء ولا سمعة، وعلى هٰذا المعنى، لا يكون قوله تعالى: ﴿على حبِّه﴾ من التتميم في شيء؛ لأنه من تمام معنى الآية الكريمة. وإما أن يعود الضمير على المال، أي: يؤتون المال على حبهم له، والتتميم يتم على هٰذا التفسير؛ لأن المعنى انتهى عند قوله سبحانه: ﴿وآتى المال﴾، ثم قال: ﴿على حبه﴾، وهٰذه فضلة؛ لأنها ليست جملة مستقلة، وليست ركناً رئيساً في الجملة، وجيء بها للمبالغة، فهم يعطون المال رغم حبهم له.

ومثل هٰذا قوله سبحانه: ﴿ويُطْعِمونَ الطعامَ على حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨].

ومن هٰذا قول زهير في مدح هرم بن سنان(١):

مَن يَلْقَ يومـاً على عِلَّاتِـهِ هَرِمـاً ... يَلْقَ السمـاحَـةَ منهُ والنَّـدى خُلُقـا(٢)

فقوله: «على علاته»؛ تتميم جيِّد، وأنت ترى أنه فضلة أولاً، والمعنى يتم بدونه ثانياً، ولا يوهم تركه خلاف المقصود ثالثاً، وهٰذا هو التتميم، ونكتته ظاهرة؛ فهو يقول لك: إن السماحة والندى طبيعة فيه، هٰذا إن تلقه على علاته، فكيف إذا لقيته وكان

(١) هرم بن سنان بن أبي الحارثة المري، من أجواد العرب في الجاهلية، يضرب به المثل، وهو ممدوح زهير بن أبي سلمى. اشتهر هو وابن عمه الحارث بن أبي حارثة بدخولهما في الإصلاح بين عبس وذبيان، ومات قبل الإسلام سنة (١٥ ق. هـ).

(٢) «خزانة الأدب» (٢ / ٣٣٥).

متأهباً للقائك، مستعدًا له؟! وقول الآخر:

إنِّـــي علـى مـا تَرَيْنَ مِن كِبَــري ... أعــرِفُ مِن أينَ تُؤكَــلُ الـكَـتِـفُ

فقوله: «من كبري» ؛ تتميم لاستيفائه الشروط الثلاثة المتقدمة، فهو يقول: إنني أعرف مداخل الأمور، رغم هذا السنِّ الذي أنا فيه.

واعلم أن المبالغة في التتميم تختلف باختلاف السياق، فقد تكون لما عرفت من قبل، وقد تكون غير ذلك، وذلك كقوله سبحانه: ﴿سبحانَ الذي أسْرى بعَبْدِهِ ليلاً مِن المَسْجِد الحرامِ إلى المَسْجِدِ الأقصى الذي بارَكْنا حولَهُ﴾ [الإسراء: ١]، فقوله سبحانه: ﴿ليلاً﴾؛ تتميم جيء به لتقليل المدة؛ لأن الإسراء لا يكون إلا ليلاً.

وبإمكانك الآن أن تستخرج التتميم من كل كلام تقرؤه أو تسمعه، كما يمكنك أن تضمنه كلامك؛ تقول: أعشق المعالي على ما فيها. ولا أملُّ البلاغة على صعوبتها. وأتحمل إخواني وزملائي على إيذائهم لي.

ويمكن أن يكون من التتميم قوله تعالى: ﴿بغيرِ حَقٍّ﴾ في هذه الآية: ﴿ويَقْتُلونَ النَّبيِّينَ بغيرِ حقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١] ، وقوله سبحانه: ﴿بأيديهم﴾ في هذه الآية: ﴿فويلٌ للذينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بأيديهم﴾ [البقرة: ٧٩].

■ ثامناً: الاعتراض:

من أسباب الإطناب الاعتراض، **وهو أن يؤتى بجملة في كلام متصل بعضه ببعض.**

وأنت تعرف الجملة المعترضة من خلال دراستك وقراءتك بأنها قد تأتي بين الفعل والفاعل، والفعل والمفعول، أو المبتدأ والخبر، أو الموصوف والصفة؛ تقول: نجح ـ والحمد لله ـ أخوك. احفظ ـ وفقك الله ـ سورة البقرة. أخوك ـ عافاه الله ـ مريض. إن «دلائل الإعجاز» كتاب ـ لو علمت ـ مفيد. وقد تأتي الجملة الاعتراضية في غير هذه المواضع كذلك. والجملة الاعتراضية لا محل لها من الإعراب، وهذا كله مقرر في علم النحو.

لكن أرباب البيان وعلماء البلاغة يتناولون هٰذا الموضوع من زاوية أخرى، من الزاوية التي تعنيهم، فيبحثون عن الأغراض البلاغية التي تأتي من أجلها الجملة المعترضة.

وهٰذه الأغراض كثيرة.

١ ـ التنزيه:

قال تعالى: ﴿ويَجْعَلونَ للهِ البَناتِ سُبحانَهُ ولهُم ما يَشْتَهونَ﴾ [النحل: ٥٧]، فقوله تعالى: ﴿سُبحانه﴾؛ جاءت معترضة؛ لأن أصل الكلام: ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون. أي: ويجعلون لهم ما يشتهون.

٢ ـ الدعاء:

كقول عوف بن محلم الشيباني[1]:

إنَّ الثَّمانينَ وبُلِّغْتَها ... قد أحْوَجَتْ سَمعي إلى تَرجمانِ

إذ أصل الكلام: إن الثمانين سنة التي بلغتُها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان. ولكنه جاء بقوله: «وبلِّغْتَها»؛ جملة اعتراضية دعاء لمن يخاطبه، يقول: أرجو لك أن تبلغ هٰذا السن[2].

ومنه قول المتنبي:

وتَحْتَقِرُ الدُّنيا احْتِقارَ مجرِّبٍ ... يَرى كُلَّ ما فيها وحاشاكَ فانِيا[3]

فقوله: «وحاشاك»؛ دعاء حسن في موصعه.

---

(١) عوف بن محلِّم بن شيبان، من أشراف العرب في الجاهلية، كان مطاعاً في قومه، قويًّا في عصبيته، طلب منه الملك عمرو بن هند رجلاً كان قد أجاره فمنعه، فقال الملك: لا حر بوادي عوف. أي: لا سيد فيه يناوئه، توفي سنة (٤٥ هـ). [الأعلام: ٥/ ٩٦].

(٢) وللبيت قصة معروفة، انظر «الأمالي» (١/ ٥٠)، «شرح شواهد المغني» (٦/ ١٩٩).

(٣) «ديوانه» (٤/ ٤٢٧)

ومنه قول عباس بن الأحنف:

إنْ تمَّ ذا الـهـجـرُ يا ظلومُ ولا تمَّ فمـا لي في الـعـيشِ من أربِ

فجملة: (ولا تم)؛ معترضة، وغرض الشاعر منها المسارعة إلى دعاء الله بألا يقدر وقوع هٰذا الهجر، والتقاطع بينه وبين حبيبته.

٣ ـ وقد تكون للتنبيه:

ومنه ما أنشده أبو علي الفارسي[(١)]:

واعْـلَمْ فعِـلْمُ الـمـرءِ ينـفَـعُـهُ أنْ سوفَ يأتـي كُلُّ ما قُدِرا[(٢)]

والمعنى أن المقدور آت لا محالة، وإن وقع فيه تأخير، وجاءت جملة: (فعلم المرء ينفعه)؛ معترضة بين (اعلم) ومفعوله.

ومنه قول أبي خراش الهذلي يذكر أخاه عروة:

تقـول أُراهُ بعـد عروةَ لاهـياً وذٰلـك رُزْءٌ لو علمـتِ جليلُ

فلا تَحْسَـبي أنـي تنـاسيتُ عهْـدَهُ ولـكـنَّ صبـري يا أمَيْمَ جمـيلُ[(٣)]

فجملة: (لو علمت) في البيت الأول معترضة، والغرض من الاعتراض هنا التنبيه على عظم المصاب، وشدة تأثيره في نفسه. وفي البيت الثاني اعتراض بجملة النداء: (يا أميم)؛ لتنبيه المخاطب إلى جمال صبره.

٤ ـ المطابقة مع الاستعطاف:

كقول أبي الطيب:

---

(١) الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي؛ أبو علي، نحوي، صرفي، عالم بالعربية والقراءات، ولُد ببلدة فارس، وقدم بغداد، سمع الحديث، وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان، ثم رجع إلى بغداد، وتوفي فيها سنة (٣٧٧ هـ).

(٢) «المعاهد» (١/ ٣٧٧).

(٣) «ديوان الهذليين» (٢/ ١١٦)، «الكامل» للمبرد (٣/ ١٣٧٧).

وخُـفـوق قلبٍ لو رأيتِ لهيبَـهُ   يا جنَّتـي لظنـنـتِ فيهِ جَهَـنَّـمـا[1]

فقوله: «يا جنتي»؛ اعتراض للمطابقة مع جهنم والاستعطاف.

٥ ـ بيان السبب لأمر فيه غرابة:

كقول ابن ميادة[2]:

فلا هَجْـرُهُ يبـدو وفي اليأسِ راحَـةٌ   ولا وصْـلُهُ يبـدو لنـا فنُـكـارِمُـهْ

فقوله: «وفي اليأس راحة»؛ معترضة؛ ليبين سبب طلبه لهجر الحبيب، وهٰذا أمر غريب.

٦ ـ زيادة التأكيد:

كقـوله تعالى: ﴿ووصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وهْناً على وَهْنٍ وفصالُهُ في عامَيْنِ أنِ اشْكُـرْ لي ولـوالِـدَيْكَ إليَّ المصيرُ﴾ [لقمـان: ١٤]، فجملة: (حملتـه)؛ معترضة، وذٰلك إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً، وتذكيراً لحقها العظيم، وقد لا تكون كذٰلك، بل تكون جواباً عن سؤال مقدر.

٧ ـ التحسُّر:

ومنه قول إبراهيم بن المهدي[3] في رثاء ابنه:

وإنِّـي وإنْ قُدِّمْـتَ قبـلي لعـالِـمٌ   بأنِّـي وإنْ أبْـطَأْتُ منـكَ قريبُ[4]

---

(١) «ديوانه» (٤/ ١٤٣).

(٢) الرماح بن أبرد الذبياني أبو شرحبيل، شاعر، رفيق، هجاء، مُن مخضرمي الأموية والعباسية، كان خيراً لقومه من النابعة، اشتهر بنسبته إلى أمه ميادة، توفي سنة (١٤٩ هـ). [الأعلام: ٣/ ٣١].

(٣) إبراهيم بن محمد المهدي بن عبدالله المنصور العباسي الهاشمي، أبو إسحاق الأمير، أخو هارون الرشيد، ولد ونشأ في بغداد وولّاه الرشيد إمرة دمشق، ثم عزله عنها بعد سنتين، ثم أعاده إليها، مات في سر من رأى، سنة (٢٢٤ هـ).

(٤) «الكامل للمبرد» (٣/ ٣٧٧).

فقـوله: «وإن قدمت قبلي» في الشطر الأول، و«إن أبطأت منك» في الثاني؛ جملتان اعتراضيتان، والغرض هو إظهار الأسى والتحسُّر على أن الموت سبق إلى ولده.

٨ ـ التعظيم:

ومنه قوله تعالى: ﴿فلا أقسِمُ بمواقِعِ النُّجوم . وإنَّهُ لقسمٌ لو تَعْلَمونَ عظيمٌ . إنَّه لقـرآنٌ كريمٌ . في كِتـابٍ مكنـونٍ﴾ [الـواقعة: ٧٥ ـ ٧٨]، فجملة: (لو تعلمون)؛ معترضة، والغرض منها تعظيم القسم بمواقع النجوم، وتفخيم أمره، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه، وتنويه برفعة شأنه، وهو القرآن الكريم.

وقد يكون الاعتراض بأكثر من جملة، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿ولا تقرَبوهُنَّ حتى يَطهُرنَ فإذا تَطَهَّرْنَ فَأتوهُنَّ من حيثُ أمركُم الله إن الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين . نساؤكم حرثٌ لكم فَأتوا حَرْثَكُم أنَّى شِئتم﴾ [البقرة: ٢٢٢-٢٢٣]، فقوله سبحانه: ﴿إن الله يحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهِّرين﴾؛ جملتان اعتراضيتان بين قوله سبحانه: ﴿فَأتوهُنَّ من حيث أمركُم الله﴾، وقوله سبحانه: ﴿نساؤكم حرثٌ لكم﴾؛ فإن قوله سبحانه: ﴿نساؤكم حرثٌ لكم﴾؛ بيان لقوله سبحانه: ﴿فَأتوهُنَّ من حيثُ أمركُم الله﴾.

ومثل هٰذا قوله سبحانه: ﴿فلمَّا وضَعَتْها قالَتْ ربِّ إنِّي وضَعتُها أُنْثى واللهُ أعلمُ بما وَضَعَتْ وليسَ الذَّكَرُ كالأنثى وإنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فقوله سبحانه: ﴿والله أعلمُ بما وَضَعَتْ وليسَ الذَّكَرُ كالأنثى﴾؛ جملتان معترضتان بين قوله سبحانه: ﴿إني وضعتها أنثى﴾، وقوله تعالى: ﴿إنِّي سميتُها مريم﴾.

وبالجملة؛ فأسلوب الاعتراض من الأساليب الشائعة المشتهرة، وقد يكون له فوائد غير ما ذكرنا تُعلم من السياق.

■ تاسعاً: وضع الظاهر مكان الضمير:

ويمكن أن يكون من الإطناب كذٰلك وضع الظاهر مكان الضمير، وقد كثر هٰذا في كتاب الله تبارك وتعالى، وله فوائد كثيرة؛ تدرك بالذوق، وتدل عليها القرائن.

من ذٰلك ـ مثلاً ـ قوله سبحانه: ﴿أمَّنْ هٰذا الذي هُو جُنْدٌ لكُم ينصُرُكُم من دونِ الرحمٰنِ إنِ الكافِرونَ إلا في غُرورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، فمقتضى الظاهر أن يقال: إن أنتم. لأن أول الآية خطاب لهم، ولكنه أراد أن يبين أن علة الغرور إنما هي الكفر.

ومثله قوله سبحانه: ﴿قُلْ أرأيْتُم إنْ أهْلَكَنِيَ اللهُ ومَن معيَ أوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجيرُ الكافِرينَ مِن عذابٍ أليمٍ﴾ [الملك: ٢٨]، ومقتضى الظاهر أن يقال: فمن يجيركم. ولكنه أراد أن يبيِّن أن علة العذاب إنما هي الكفر.

وبالجملة؛ فإن هٰذا باب عظيم من العلم، وإن لم ينبِّه له البيانيون، وقد نبَّه له الكاتبون في علوم القرآن، فراجعه في «برهان» الزركشي، وما يشبهه من الكتب.

■ عاشراً: غير ما ذكر:

وقد يكون هناك أسباب للإطناب غير ما تقدم، يمكن أن تدركها بثاقب ذهنك، وصائب فكرك، وحسن سليقتك، ولمحة فطنتك، من ذٰلك مثلاً قوله سبحانه: ﴿الذينَ يَحْمِلونَ العَرْشَ ومَن حولَهُ يُسَبِّحونَ بحَمْدِ ربِّهِم ويؤمِنونَ بهِ﴾ [غافر: ٧]، فإن قوله سبحانه: ﴿ويؤمنون به﴾؛ إطناب جاء لبيان فضل الإيمان وشرفه، وإنما قلنا: إنه إطناب؛ لأن إيمانهم مما يرتكز في الطباع.

ومثل هٰذا قولك: الطلاب المجتهدون يحرصون على الإفادة من أوقاتهم؛ يذهبون إلى معاهدهم، يقفون أمام كل جزئية من جزئيات العلم. فقولنا: يذهبون إلى معاهدهم. إطناب.

وأظنك أدركت مما سبق أن الإطناب مع كونه زيادة في اللفظ على المعنى، لكنه زيادة يدعو إليها المقام من جهة، ولهٰذه الزيادة فوائد كثيرة من جهة أخرى، ولو لم يكن له إلا توضيح المعنى وزيادة تقرير؛ لكفى[1]. ولذا فقد فضله بعضهم على الإيجاز.

---

(١) ومن هذا تدرك أن الإطناب يوجد في كل موضعين بينهما فصل لكمال الاتصال، كأن تكون الجملة الثانية تأكيداً أو بدلاً أو عطف بيان.

ولكن وجه الحق في ذلك أن لكل من الإيجاز والإطناب مقامه الذي يفضل فيه على غيره، وموطنه الذي ينبغي أن يستعمل فيه.

فمن مقامات الإيجاز التي يحسن فيها: الاختصار، وتسهيل الحفظ، وتقريب الفهم، وضيق المقام، وإخفاء الأمر على غير السامع، والضجر، والسآمة، وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير.

ويستحسن الإيجاز في: الاستعطاف، وشكوى الحال، والاعتذارات، والتعزية، والعتاب، والوعد، والوعيد، والتوبيخ، ورسائل طلب الخراج وجباية الأموال، ورسائل الملوك في أوقات الحرب إلى الولاة، والأوامر والنواهي الملكية، والشكر على النعم.

ومرجعك في إدراك أسرار البلاغة إلى الذوق الأدبي والإحساس الروحي[1].

ومن المقامات التي يحسن فيها الإطناب: الصلح بين العشائر، والمدح، والثناء، والذم، والهجاء، والوعظ، والإرشاد، والخطابة في أمر من الأمور العامة، والتهنئة، ومنشورات الحكومة إلى الأمة، وكتب الولاة إلى الملوك لإخبارهم بما لديهم من مهام الأمور[2].

□□□

(١) «جواهر البلاغة»، السيد أحمد الهاشمي، (ص ٢٢٦).

(٢) «جواهر البلاغة»، السيد أحمد الهاشمي، (ص ٢٢٣).

☐ المبحث الرابع :

المساواة

إذا كان الإيجاز التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، والإطناب زيادة اللفظ على المعنى، فإن المساواة كون الألفاظ مساوية للمعاني، لا زائدة عليها، ولا ناقصة عنها.

وقد ذكروا لها أمثلة كثيرة؛ منها: ﴿إِنَّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى ويَنْهَى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقد قلنا: إن هٰذا من قبيل الإيجاز؛ سواء كان هٰذا الإيجاز مما تعطيه الكلمات من معان كثيرة، أم من حيث النظم الذي جاء على هٰذه الصيغة.

ومثلوا له بقوله سبحانه: ﴿ولا يحيقُ المكرُ السَّيِّيءُ إلا بأهله﴾ [فاطر: ٤٣]، وبعض الكاتبين المحدثين ذكر هٰذا مثالاً للإيجاز، ثم ذكره مثالاً للمساواة، ولعله سهو منه.

والحق أن أسلوب المساواة لا يُستغنى عنه في كثير من المقامات، إلا أنه بحاجة إلى روية وفكر، وقد قدمنا لك من قبل أن الجملة الواحدة قد تختلف بحسب نظمها من أسلوب إلى أسلوب، فقولي: أريدك. يختلف عن قولي: إياك أريد. فالجملة الأولى مساواة، ولكن الثانية من قبيل الإيجاز؛ لأن ألفاظها أقل من معانيها.

ومن أمثلتها قول كثير عزة(١):

ولـمَّـا قَضَيْنـا مِن منى كل حاجـةٍ ... ومَـسَّـحَ بالأركـانِ مَن هُو ماسِـحُ
وشُـدَّتْ على دُهْمِ المـطايا رِحـالُنـا ... ولم يَنْـظُرِ الغـادي الـذي هو رائِـحُ

---

(١) كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عامر بن عويمر، أبو صخر الخزاعي، الشاعر المشهور، أحد عشاق العرب، وإنما صغروه؛ لأنه كان شديد القصر.

أخـذنـا بأطـرافِ الأحـاديثِ بيننـا ... وسـالَتْ بأعنـاقِ المَطِيِّ الأبـاطِحُ(١)

ومنها أبيات أبي نواس التي قال فيها الجاحظ: لا أعرف شعراً يفضل هٰذه الأبيات:

ودارِ ندامـى عطَّلوهـا وأدْلَـجـوا ... بهـا أثَـرٌ منـهُـم جَديدٌ ودارِسُ
مساحِبُ مِن جَرِّ الـزقـاقِ على الثرى ... وأضـغـاثُ ريحـانٍ جنـيٌّ ويابِسُ
حَبَسْتُ بهـا صَحْبي فجَدَّدْتُ عهدَهم ... وإنِّـي على أمـثـالِ تلكَ لحـابِسُ
تُدارُ عليهـا الـرَّاحُ في عَسْـجَـدِيةٍ ... حَبَتْـهـا بألـوانِ الـتـصـاويرِ فارِسُ
قراراتُـهـا كِسـرى وفـي جَنَبـاتِهـا ... مهـا تدَّريهـا بالـقـسـيِّ الـفـوارِسُ
فللرَّاحِ ما زُرَّتْ عليهِ جُيوبُـهـا ... ولِـلمـاءِ ما دارَتْ عليهِ الـقَـلانِسُ(٢)

وقد يكون هناك كلامان؛ أحدهما إيجاز بالنسبة للآخر؛ كقول أبي تمام يرثي أبا الحسين محمد بن الهيثم:

يَصُـدُّ عنِ الـدُّنـيا إذا عنَّ سُؤدُدٌ ... ولـو بَرَزَتْ في زِيِّ عذراءَ ناهِـدُ(٣)

فالمصراع الأول من البيت إيجاز بالنسبة إلى بيت المعدل بن غيلان(٤):

---

(١) في «معاهد التنصيص» (٢/ ١٣٤). وقيل: الأبيات للمضرب عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى. وانظر «ديوان الحماسة» (٢/ ٥٨٤).

(٢) «ديوانه» (ص ٣٧)، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي. المها: الظباء والغزلان وبقر الوحش. والقسي: جمع مفرده القوس التي يرمى عنها. يريد أبو نـواس أنهم شربوا الراح في كؤوس من الـذهب، منقوشة نقوشاً فارسية، استقرت في قرارتها صورة كسرى، ودارت في باطنها صور فرسانه متنكبي قسيهم، كأنما هم يطاردون بقر الوحش أمامهم، وقد مـلأوا تلك الكؤوس إلى مـا يوازي أعنـاق أولئك الفرسان، ثم مزجوها بالماء حتى غطت رؤوسهم. العسجد: الذهب. وحباه: أعطاه، والفوارس تدَّري المها: أي يحتالون لصيدها. وزرَّت: جمعت. «علوم البلاغة للمراغي» (ص ١٨٨).

(٣) «معاهد التنصيص» (١/ ٣٧٧).

(٤) المعدل بن غيلان بن الحكم بن أعين العبدي أبو عمرو، أديب، شاعر، من أهل الكوفة، انتقل =

ولَسْتُ بمَيَّالٍ إلى جانِبِ الغِنى　　إذا كانَتِ العلياءُ في جانِبِ الفَقْرِ[1]

لمساواته له في أصل المعنى، وقلة حروفه، والبيت إطناب بالنسبة إليه.

وكذلك بيت الشماخ:

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ　　تَلَقَّاها عرابَةُ باليَمينِ[2]

فإنه إيجاز بالنسبة لقول بشر بن أبي حازم[3]:

إذا ما المَكْرُماتُ رُفِعْنَ يوماً　　وقَصَّرَ مُبْتَغوها عن قداها
وضاقَتْ أذْرُعُ المُثْرينَ عنها　　سما أوسٌ إليها فاحْتَواها[4]

وشعر بشرٍ إطناب بالنسبة إليه.

وأخيراً اقرأ قوله سبحانه: ﴿لا يُسأل عمَّا يفعَلُ وهُم يُسألونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وانظر إلى قول السموأل:

ونُنكِرُ إنْ شئنا على النَّاسِ قولَهُم　　ولا يُنْكِرونَ القولَ حينَ نَقولُ

ومعاذ الله أن نقارن بين قول الله وقول الناس، وإنما هدفنا أن نتدبر الآية الكريمة، وروعة الإيجاز الذي جاء فيها.

□□□

= إلى البصرة، وسكنها، جرت بينه وبين سعيد بن مسعدة الأخفش مكاتبات بالأشعار، توفي سنة (٢١٠ هـ). «المعجم» (١٢/ ٣٠٥).

(١) «الأغاني» (١٢/ ٧)، «المعاهد» (١/ ٣٧٩).

(٢) «العمدة في صناعة الشعر» (٢/ ١٣٨).

(٣) بشر بن أبي حازم بن عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل، شاعر جاهلي، فحل من الشجعان، من أهل نجد، من بني أسد بن خزيمة، له قصائد في الفخر والحماسة جيدة، توفي قتيلاً في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية نحو (٢٢ ق. هـ). [الأعلام: ٢/ ٥٤].

(٤) «خزانة الأدب» (٣/ ٤٢).

تدريب

* بين الإيجاز والإطناب والمساواة وأقسام الإيجاز وأسباب الإطناب في ما يأتي:

١ - قال تعالى: ﴿بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ . قٓ والقرآنِ المجيدِ . بل عَجِبوا أنْ جاءَهُم مُنْذِرٌ منهُم﴾ [ق: ١ - ٢].

٢ - وقال تعالى: ﴿فأما الذينَ اسوَدَّتْ وجوهُهُم أكفَرْتُم بعد إيمانِكُم﴾ [آل عمران: ١٠٦].

٣ - وقال تعالى: ﴿ولو أنَّ قرآناً سُيِّرتْ بِهِ الجبالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأرضُ أو كُلِّمَ بِهِ الموتى بل للهِ الأمرُ جَميعاً﴾ [الرعد: ٣١].

٤ - وقال تعالى: ﴿وما كانَ معهُ من إلٰهٍ إذاً لذَهَبَ كلُّ إلٰه بما خَلَقَ ولَعلا بعضُهم على بعضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

٥ - وقال تعالى: ﴿أفأمِنَ أهلُ القُرى أنْ يأتِيَهُمْ بأسُنا بياتاً وهُم نائِمونَ . أو أمِنَ أهلُ القُرى أنْ يأتِيَهُم بأسُنا ضُحىً وهُم يَلْعَبونَ . أفأمِنوا مكرَ اللهِ فلا يأمَنُ مَكْرَ اللهِ إلا القومُ الخاسِرونَ﴾ [الأعراف ٩٧ - ٩٩].

٦ - وقال تعالى: ﴿وما جَعَلْنا لبَشَرٍ من قبلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهُم الخالِدونَ . كُلُّ نفسٍ ذائِقَةُ الموتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤ - ٣٥].

٧ - وقال تعالى: ﴿والليلِ إذا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤].

٨ - وقال تعالى: ﴿فتُوبوا إلى بارِئِكُم فاقْتُلوا أنْفُسَكُم ذٰلكم خيرٌ لكُم عندَ بارِئِكُم فتابَ عليكُم﴾ [البقرة: ٥٤].

٩ - وقال تعالى: ﴿فَخَرَّ عليهِمُ السَّقْفُ مِن فوقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

١٠ - وقال تعالى: ﴿يا أبتِ إنِّي رأيتُ أحَدَ عَشَرَ كوكباً والشَّمْسَ والقمرَ رأيتُهُم لي ساجِدينَ﴾ [يوسف: ٤].

وقال تعالى: ﴿وإن كُنتُم في ريبٍ مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شُهداءكُم مِن دونِ اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ . فإنْ لمْ تفْعَلوا ولنْ تفْعَلوا فاتَّقوا النَّارَ التي وَقودُها النَّاسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ للكافِرينَ﴾ [البقرة: ٢٣ - ٢٤].

١٢ - قال تعالى: ﴿إذ قالَ لأبيهِ يا أبتِ لِمَ تعْبُدُ ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يُغْني عنكَ شيئاً . يا أبتِ إنِّي قد جاءَني مِن العلمِ ما لَم يأتِكَ فاتَّبِعْني أهْدِكَ صراطاً سويًّا . يا أبتِ لا تَعْبُدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كانَ للرحمٰنِ عَصِيًّا . يا أبتِ إنِّي أخافُ أنْ يَمَسَّكَ عذابٌ مِن الرحمٰنِ فتكونَ للشيطانِ وليًّا﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥].

١٣ - قال تعالى: ﴿يا بَني آدَمَ خذوا زينَتَكُم عندَ كل مسجدٍ وكُلوا اشْرَبوا ولا تُسْرِفوا﴾ [الأعراف: ٣١][(١)].

١٤ - وقال تعالى: ﴿وما أكْثَرُ النَّاسِ ولو حَرَصْتَ بمُؤْمِنينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٥ - وقال تعالى: ﴿لقَدْ صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرُّؤيا بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسجِدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

١٦ - قال رسول الله ﷺ في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هٰذا: كل مال نحلتُه عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم؛ عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. وإن الله أمرني أن أحرِّق قريشاً، فقلت: ربِّ! إذاً يثلغوا رأسي، فيدعوه خبزة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك،

---

(١) جمعت الآية أصول الكلام: النداء، والعموم، والخصوص، والأمر، والإباحة، والنهي، والخبر، ففيها إيجاز قصر.

وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى مسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل، أو الكذب، والشنظير الفحّاش»(١).

١٧ - وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله! وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٢).

١٨ - روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل؛ أبرص، وأقرع، وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس. قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل. قال: فأعطي ناقة عشراء. قال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هٰذا الذي قذرني الناس. قال: فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر. فأعطي بقرة حاملاً. فقال: بارك الله لك فيها.

---

(١) الشنظير: الفحاش، السيىء الخلق.
رواه مسلم، كتاب الجنة، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم (٦٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب: قول الله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾، باب رقم (٢٣)، حديث رقم (٢٦١٥).

فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس. قال: فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والداً.

فأنتج هٰذان، وولد هٰذا، فكان لهٰذا واد من الإبل، ولهٰذا واد من البقر، ولهٰذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الجبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلَّغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً، فأعطاك الله؟! فقال: إنما ورثت هٰذا المال كابراً عن كابر. فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل هٰذا، وردَّ عليه ما ردَّ هٰذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل، انقطعت بي الجبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلَّغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئاً أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»(١).

١٩ - وفي الأثر: «إذا أعطاك الله؛ فليبن عليك، وابدأ بمن تعول، وارتضخ من الفضل، ولا تلم على الكفاف، ولا تعجز عن نفسك».

٢٠ - قال الشاعر:

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الزهد، حديث رقم (١٤).

أنـا ابـنُ جَلا وطَـلَّاعُ الـثَّـنـايا   مَتى أضَـعُ العَـمـامَـةَ تَعْـرِفـوني

٢١ ـ حليمٌ إذا ما الـحِـلْـمُ زَيَّنَ أهْـلَهُ   مع الحِلْمِ في عينِ العَـدُوِّ مَهيبُ

٢٢ ـ للهِ لَذَّةُ عيشٍ بالـحـبيبِ مضتْ   ولـم تدُمْ لي وغـيرُ اللهِ لمْ يَدُمِ

٢٣ ـ قال عنترة بن شداد:

يدعـونَ عنتَـرَ والـرِّمـاحُ كأنَّهـا   أشـطانُ بئـرٍ في لَبـانِ الأدْهَـمِ
يَدْعـونَ عَنْـتَـرَ والسُّيوفُ كأنَّهـا   لمْـعُ البـوارِقِ في سَحـابٍ مُظْلِمِ

٢٤ ـ وقال الحطيئة:

نَزورُ فَتًى يُعـطي على الحَمْدِ مالَهُ   ومَن يُعْطِ أثْمـانَ المحـامِـدِ يُحْمَدِ

٢٥ ـ وقال النابغة الجعدي[1]:

ألا زَعَـمَـتْ بَنـو عَبْسٍ بأنِّـي   ألا كَذَبـوا كَبـيرُ الـسِّـنِّ فإني[2]

٢٦ ـ أهـابُـكَ إجْـلالًا ومـا بكَ قدرَةٌ   عليَّ ولٰكِنْ ملءُ عينٍ حَبيبُهـا[3]

٢٧ ـ وقال النابغة الجعدي:

لو آنَّ الـبـاخِـلينَ وأنـتِ منـهُـم   رأوْكِ تَعَلَّمـوا منـكِ المَـطالا[4]

٢٨ ـ وقال الشاعر:

أُحِبُّ مكـارِمَ الأخـلاقِ جَهْـدي   وأكْـرَهُ أنْ أعـيبَ وأنْ أُعـابـا

---

(١) قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة الجعدي، شاعر مفلق، صحابي، من المعمرين، اشتهر في الجاهلية، وسمي النابغة؛ لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر، ثم نبغ، فقاله، وكان ممّن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر، وأسلم، مات في أصبهان سنة (٥٠ هـ).

(٢) «العمدة» (٢/ ٤٥).

(٣) معاذ ليلى. «ديوان المجنون» (ص ٧١، ٧٢)، «الزهرة» لأبي بكر الأصبهاني (١/ ١٨٣).

(٤) «العمدة» (٢/ ٤٥).

وأصفَحُ عن سِبابِ النَّاسِ حِلما وشرُّ النَّاسِ مَن يَهوى السِّبابا
ومَن هابَ الرجالَ تَهَيَّبوهُ ومَن حَقَرَ الرِّجالَ فلنْ يُهابا

٢٩ - وقال الشافعي رحمه الله[1]:

سَهِرَتْ أعْيُنٌ ونامَتْ عُيونُ في أمورٍ تَكونُ أو لا تَكونُ
إنَّ ربًّا كَفاكَ ما كانَ في الأمْـ ـسِ سيكفيكَ في غدٍ ما يَكونُ[2]

٣٠ - حورٌ حَرائرُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ كَظِباءِ مَكَّةَ صيدُهُنَّ حَرامُ
يُحْسَبْنَ مِن لينِ الكلامِ زَوانيا ويَصُدُّهُنَّ عنِ الخَنا الإسلامُ

٣١ - واهْتَمَّ للسَّفَرِ القريبِ فإنَّهُ أنأى مِن السفَرِ البعيدِ وأشْنَعُ

٣٢ - وقع أبو جعفر المنصور في شكوى قوم على عاملهم: «كما تكونوا يؤمَّر عليكم».

٣٣ - ووقع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان: «داوِ جُرْحَكَ لا يتَّسعْ».

٣٤ - ووقع جعفر بن يحيى لعامل كثرت الشكوى منه: «كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت».

٣٥ - من أحد سنان الغضب لله، قوي على قتل أسد الباطل.

٣٦ - قالت أعرابية لرجل: كبت الله كل عدو لك إلا نفسك.

٣٧ - قالت امرأة لزوجها: أنا وأنت من أهل الجنة: قال: لم؟ قالت: لأنك أعطيت فشكرت، وأنا ابتليت فصبرت.

٣٨ - قال لها: تعالي نجلس في ضوء القمر. قالت: ما أولعك في الجمع بين الضرائر!

---

(١) الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ولد عام (١٥٠ هـ)، وتوفي في عام (٢٠٤ هـ)، وهو إمام في الدين، والفقه، والأصول، والحديث، واللغة، والأدب، والشعر، والنقد.

(٢) «ديوانه» (ص ١٠٣).

* هل في هٰذه الأقوال إيغال؟

١ - كأنَّ قلوبَ الطَّيرِ رطباً ويابساً ... لدى وَكْرِها العنَّابُ والحَشَفُ البالي[1]

٢ - قال بشار بن برد:

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنا ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كَواكِبُهْ[2]

□□□

(١) البيت لامرىء القيس في «ديوانه» (ص ٣٨).

(٢) «معاهد التنصيص» (٢/ ٢٨).

خاتمة

أثر علم المعاني في الكلام

بعد هٰذا التطواف والتجوال، ونحن ننتقل من فنن إلى فنن؛ من أفنان تلك الدوحة الباسقة، وفي تلك الرياض، وهاتيك الخمائل، يجمل بنا أن نحظى بعصارة لهٰذا الرحيق الذي نعمنا به في مسيرتنا، فأروينا به ظمأ، وأذهبنا به صدى؛ لتكون خلاصة نتبين بها خطر هٰذا العلم وعلو شأنه.

أولاً: إذا كانت فنون البلاغة جميعها ذات شأن وخطر، فإن من أرفعها شأناً، وأعظمها أثراً؛ علم المعاني، ففي هٰذا العلم عرفنا أن لكل مقام مقالاً، وعرفنا كيف نهتدي لنعطي كل مقام مقاله الذي لا يناسبه غيره، فقد عرفنا متى نؤكد الخبر ومتى نلقيه مجرداً عن التأكيد، وعرفنا من مباحث الجملة متى نعبر عن الثبوت أو الثبات أو الحدوث أو التجدد، وعرفنا متى يحسن التعريف والتنكير، والمقام الذي يقتضيه التقديم أو التأخير، ولا ننسى المقام الذي يصلح فيه القيد، وروعة الدقة في أدوات الشرط، ومتى يتطلب المقام أن نعبر بصيغة الماضي أو صيغة المستقبل، والمقام الذي يجمل فيه الفصل أو الذي لا يحسن فيه إلا الوصل، كما أدركنا من أسلوب القصر كثيراً من اللفتات والفوائد والبدائع مما مرَّ بك شرحه وتفصيله، ولا تَنسَ مقامي الإيجاز والإطناب؛ كل ذلك كان تطبيقاً لتلك الجملة الموجزة: «لكل مقام مقال».

ثانياً: ولم تكن الفائدة التي جنيناها من علم المعاني مقتصرة على معرفة هٰذه القضية، أي: على أداء المقال في المقام المناسب، وإنما رأينا لعلم المعاني فائدة

أخرى لا تقل عن هٰذه خطراً، تلك هي قضية خروج الصيغة عن معناها إلى معاني كثيرة متعددة، وكثر هٰذا بخاصة في أساليب الإنشاء، فقد عرفنا كيف تخرج صيغة الأمر والنهي والاستفهام.

ثالثاً: ولعل أكثر المتع الروحية والفكرية التي سعدنا بها في هٰذا العلم الوقوف على بليغ الكلام بعامة، والنظم القرآني بخاصة، هٰذا النظم الذي هو أساس الإعجاز وعموده العظيم.

إن علم المعاني أو نظرية النظم الذي لا ينضب معينه؛ سيظل ويبقى النور الذي يهتدي به السائرون؛ ليكشفوا ويكتشفوا كثيراً من أسرار الإعجاز التي ما زالت مصونة مكنونة، إضافة لما اكتشفوه، وهو كثير.

رابعاً: وإذا كانت الأهداف الثلاثة السابقة وقفتنا عن قرب وكثب أمام ذٰلك القرآن العظيم الذي نملكه، وأطلعتنا على ما لأئمتنا من منزلة وذوق رفيع وذهن ثاقب، وبيَّنت لنا روعة الإعجاز الذي سيبقى على أمد الدهر؛ فإن هٰذه القضية الرابعة تبيِّن لنا هٰذا الحقد الذي يضمره لنا الأعداء والأدعياء على السواء، فلقد رأينا في مسيرتنا كيف تجرأ الكثيرون على أن يرموا هٰذه الأمة بالتقليد، وأن يرموا لغة الضاد (ابنة عدنان) بالعقم، وهم يزعمون أن بلاغتنا مزق ـ يعسر تجميعها ـ من تراث اليونان والهند والفرس والرومان، وأن لغتنا مدينة بكثير من الكلمات ـ حتى تلك التي تكثر استعمالاً ـ لكثير من اللغات، حتى اللاتينية. ويعلم الله أنها افتراءات إنما دفع إليها وحمل عليها الحقد من جهة، والضعف والانهزام من جهة أخرى، حقد المتبوعين، وضعف الأتباع.

خامساً: عرفت من المباحث السابقة أن لعلم المعاني صلة وثيقة بمباحث النحو، رأيت هٰذا عند الحديث عن الشرط، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والحق أن علم المعاني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعاني النحو، ولهٰذا رأينا الشيخ عبدالقاهر رحمه الله يعرف النظم بأنه توخي معاني النحو.

وإذا كان ذلك كذلك، فإننا لا نرتضي النيل من قواعد النحو، كما نادى به كثير من

الحاقدين، أو تغيير هٰذه القواعد؛ كما رأينا من بعض علماء اللغة، وممن لا نسمح لأنفسنا أن يحوم فيها الشك حولهم، لكنهم تأثروا بغيرهم عن حسن نية، أو غفلة، فأرادوا أن يغيروا إعراب بعض الكلمات مثلاً أو الجمل، فيجعلوا التمييز بدلاً، ويجعلوا الخبر في بعض أخوات كان حالاً، بحجة التيسير على الناشئين، ومن هٰؤلاء الدكتور شوقي ضيف في محاضرة ألقاها في مجمع اللغة العربية في الأردن!

ونحن لا يعنينا الآن أن نناقش هٰذه القضية من جوانبها الكثيرة، إنما الذي ننبه إليه ـ لأنه هو الذي يعنينا هنا ـ أن تغيير الإعراب، ليس أمراً شكليًّا، بحيث أسمي التمييز بدلاً، والحال خبراً، إلى غير ما هنالك من إعرابات تطرأ على الجمل، فنحن لا تهمنا التسميات، وإنما الذي يعنينا المعنى، فالأئمة ـ رحمهم الله ـ حينما بيَّنوا وفصلوا البدل، والحال، والتمييز، والنعت؛ لم يعنوا الأسماء فحسب، وإنما ذهبوا إلى ما هو أبعد وأعمق، فحينما نعرب الكلمة بدلاً، فإن هناك معنى تدل عليه البدلية، فإذا أردت أن تغير هٰذا الإعراب، وتجعله تمييزاً؛ فإن المعنى يتغير تغيراً تامًّا.

إن الفرق بين البدل والتمييز لا من حيث اللفظ فقط، إنما من حيثية أخرى؛ لأن لكل منهما معنى يُفهم من السياق، ولأضرب مثلاً بما قاله المحاضر الفاضل:

أراد أن يعرب كلمة (عيوناً) في قوله تعالى: ﴿وفجَّرنا الأرض عيوناً﴾ [القمر: ١٢]؛ بدلاً، للتيسير على الطلاب، والجمهور يعربونها تمييزاً.

ولو أن الأمر وقف عند تغيير الإعراب من مصطلح إلى مصطلح، ومن لفظ إلى لفظ؛ لهان الأمر، ولطف، ولكنه يتجاوز ذلك كثيراً. فالحق أن هناك فرقاً كبيراً من حيث المعنى بين أن نعرب كلمة تمييزاً، أو نعربها بدلاً.

إليك بيان ذٰلك:

البدل هو التابع المقصود بالحكم بلا واسطة ـ كما يقول النحويون ـ وإذا أردت أن تعرف ضابطاً للبدل يسهل عليك، فتصير معرفته سهلة لديك، فاعلم أن علامته أن تحذف المبدل منه، فلا تجد في الكلام نقصاً، فإذا قلت: جاء زيد أخوك. فأخوك

بدل، وزيد مبدل منه. ولو أنك حذفت كلمة (زيد)؛ فقلت: جاء أخوك. ما نقص شيء من المعنى، اللهم إلا أن البدل كان فيه زيادة تقرير.

وليس أمر التمييز كذٰلك، و﴿فجّرنا الأرضَ عيوناً﴾، ومعنى هٰذه الجملة أن هناك عيوناً فجرت يوم الطوفان، وقد تكون هٰذه العيون عشرة، وقد تكون عشرين، وقد تكون مئة، لكن جعلها تمييزاً يعطي معنى آخر؛ فيكون معنى الآية حينذاك ـ والله أعلم بمراده ـ ﴿وفجرنا الأرضَ عيوناً﴾، أي: جعلنا الأرض كلها عيون ماء، سواء كانت تلك العيون موجودة من قبل، أم أنها كانت في يوم الطوفان فقط.

ولو قيل: وفجرنا عيوناً. وحذفنا كلمة أرض؛ لكان المعنى فجرنا عيوناً معدودة؛ عشراً، أو عشرين، أو ثلاثين. ويقيناً ليس هٰذا ما تقصده الآية.

لعلك الآن أدركت الفرق بين أن تعرب الكلمة تمييزاً، وبين أن تعربها بدلاً.

وهٰكذا يمكن أن تقيس أحوال الإعراب وأبوابه على هٰذا المثل الذي ذكرته لك، والذي التقطناه من محاضرة الأستاذ الفاضل!

بعد ذٰلك تدرك أن قواعد الإعراب التي قعدها الأئمة، والتي ارتاد روضها الشيخ عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ ليخلصك من شوكها، وليحول بينك وبين صعوبتها؛ أقول: إن قواعد النحو هٰذه؛ إنما قصد بها المعنى قبل اللفظ، فلا ينبغي أن نقلل من شأن ذٰلك.

تلك عجالة أو عصارة أحببنا أن نختتم بها هٰذا الفن من القول، وهٰذه المباحث التي كان الفيصل فيها الذوق، فاحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وحذار أن تصيبك السآمة، أو أن يدب إليك داء الكسل:

لا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أربابُهُ   كُلُّ مَن سارَ على الدَّرْبِ وَصَلْ

والله يتولانا وإياك، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

□□□

تحليل سورة السجدة

إتماماً للفائدة؛ آثرت أن أختم هٰذه الطبعة الثانية للكتاب بمسك الختام، فنقف مع سورة كريمة من سور القرآن الكريم، ولأكثر من سبب ينبغي أن لا تكون هٰذه السورة من الطوال؛ لذا فإن السورة التي شاء الله اختيارها هي سورة السجدة، وهي من السور المكية.

والسور القرآنية امتازت كل منها بشخصيتها، فكل سورة لها موضوعها وإيقاعها، وقد تشتمل على أغراضٍ متعددة لخدمة الموضوع الرئيس الذي تحدثت عنه، لذٰلك فإنـك تجد السورة القرآنية جيدة السبك، محكمة الترتيب، عجيبة السرد، بديعة من حيث اتصال آياتها، وهٰذا من أوجه إعجاز القرآن.

وتحليل السـور القـرآنية قد يكون تحليلاً موضوعيًّا يشتمل على التحليل الفني والبياني، فيكون الحديث عن السورة من حيث: عناصرها، وأغراضها، واختيار ألفاظها لتلائم المعاني المعبَّر عنها بهٰذه الألفاظ، وما تحدثه في النفس من آثار إيجابية؛ تطرد الوساوس، والهواجس، والشبهات. وفي هٰذا التحليل بيان لأسلوب السورة من جزالة أو سهولة.

وبـالجملة؛ فالتحليل المـوضـوعي يعرض فيه المحلل لكل ما يتصل بالسورة الكريمة لفظاً، ومعنى، ونظماً، وأسلوباً، وموضوعاً، وترابط آيات، واختيار كلمات، بل

اختيار الفاصلة كذلك من حيث إيقاعها، واختيار ألفاظها، هٰذا هو القسم الأول من التحليل، وهو تحليل عام؛ كما رأينا.

وقد يكون تحليلاً بيانيًا، وهٰذا هو النوع الثاني من التحليل، وهو تحليل خاص؛ إذا قيس بسابقه، ففي هٰذا القسم من التحليل نقف مع الجزئيات البيانية والبلاغية في السورة وقفة تتصل بموضوع البلاغة: المعاني، والبيان، والبديع.

ولا ريب أن بين هٰذين القسمين وشائج كثيرة، وأن الثاني يكمل الأول.

وكنت أود أن لا أكتفي بهذا القسم من التحليل للسورة الكريمة هنا، لكن خشية الإطالة وحجم الكتاب الزماني بالاكتفاء بالتحليل البياني، بل سأقتصر غالباً على موضوع هٰذا الجزء، وهو علم المعاني، وسأجتزىء وأوجز ما استطعت.

وكان لزاماً أن أسلك أحد مسلكين اثنين:

الأول: أن يكون الحديث حسب موضوعات الكتاب.

الثاني: أن يكون حسب آيات السورة الكريمة.

وشاء الله أن أؤثر المسلك الثاني.

□□□

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ
ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ
إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ
عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ
كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ
نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا
مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي
خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم
مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ
١٢ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ
مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٣
فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ
وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤ إِنَّمَا يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ
عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ
جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟
فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ
لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ
﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ
بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾
قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

ابتدأت السورة الكريمة بهٰذه الحروف المقطعة ﴿ألم﴾، بل هي آخر سورة في المصحف تبتدىء بهٰذه الأحرف الثلاثة، ولم تكن بدعاً من السور التي ابتدأت بهٰذه الأحرف، فهي غالباً ما يُذكر فيها الكتاب بعد ذكر هٰذه الأحرف، وهٰكذا هٰذه السورة ذكرت الكتاب بخصائصه الكبرى، وحجة إعجازه، فهو الكتاب الكامل في موضوعه، وهو الذي لا ريب فيه، وهو المنزل من رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علماً، وأتقن كل شيء صنعاً.

وهٰذا الموضوع ـ وهو موضوع الكتاب من هٰذه الحيثيات ـ كان الفلك الذي تدور السورة عليه في كل ما عرضت له.

وإذا تدبَّرت السورة الكريمة؛ فإنك لن تجد صعوبة ـ إن شاء الله ـ في إدراك ذلك كله، وتيسيراً نقسم السورة إلى عدة مجموعات، فنتحدث عن كل مجموعة على حدة.

■ المجموعة الأولى [الآيات ١ ـ ٩]:

﴿ألم﴾: يرى كثير من الحذاق أن هٰذه الأحرف جاءت على سبيل التعداد؛ للإيقاظ والتنبيه والتحدي، ذٰلك أن العرب ما تعوَّدوا مثل هٰذا الأسلوب في النظم، فكانت هٰذه الأحرف موقظة لهم، تنبههم إلى ما بعدها من الحديث عن هٰذا الكتاب، ثم هي بعد ذٰلك كله تلزمهم الحجة، فالنبي الكريم ﷺ الذي جاءهم بهٰذا القرآن أمي ـ كما يعلمون ـ لم يسبق له أن قرأ وعرف مثل هٰذه الأحرف، ثم إن القرآن الذي تحداهم الله به إنما يتكون منها، وهي حروفهم، فعجزهم حريٌّ أن يقودهم إلى الإيمان والتصديق بهذا الكتاب.

و(ال) في ﴿الكتاب﴾ للعهد الذي حدثتك عنه في باب التعريف، وهو عهد ذهني، إذ لم يسبق له ذكر هنا، فهو معلوم لهم.

وتقديم ﴿ريب﴾ ـ وهو المسند إليه ـ؛ لأن الهدف نفي جنس الريب عن الكتاب، أي: ليس شيء يمكن أن يُرتاب فيه، فهو نفي لأساس الريب، وليس الهدف نفي الريب عنه، وإثباته لغيره، ولو كان المراد ذٰلك؛ لقيل: لا فيه ريب. كما قال عن

خمر الآخرة: ﴿لا فيها غوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧].

و(ال) في ﴿العالَمينَ﴾ للجنس، وقد تكون للاستغراق، وذِكر الرب فيه توطئة لإقامة الحجة على المنكرين لهٰذا القرآن، فالرب هو المربي ذو الرحمة.

و(أمْ) في قوله سبحانه: ﴿أم يقولونَ افْتراهُ﴾ منقطعة، وقد حدثتك عنها في موضوع الاستفهام، فارجع إليها إن شئت، وتكون بمعنى (بل) والهمزة، فهي هنا للإضراب، فبعد أن أقام الحجة على أن هٰذا الكتاب هو المعجز الذي لا ارتياب فيه، أضرب عن هٰذا معجباً ممّن لا يؤمن بذٰلك، وفي هٰذا الإضراب إنكار؛ لأن (بل) معناها الهمزة والإنكار، فكأنه قيل: بل أيقولون افتراه.

وقوله سبحانه: ﴿بلْ هُو الحَقُّ﴾: إضراب آخر، كأنه قيل: دع قولهم هٰذا، ولا تلتفت إليه، فليس الأمر ما قالوه، بل هو الحق من ربك.

والفرق بين الإضرابين أن الإضراب في قوله سبحانه: ﴿أم يقولون افتراه﴾؛ إضراب انتقالي، والإضراب في قوله سبحانه: ﴿بل هو الحق﴾؛ إضراب إبطالي. **والإضراب الانتقالي**: انتقال من أمر إلى أمر هو أفظع منه وأشد مع بقاء الحكم الأول، **والإضراب الإبطالي**: انتقال عن الحكم الأول مع إبطاله، فليس في قوله سبحانه: ﴿أم يقولون افتراه﴾؛ إبطال للحكم الذي قبله، وهو أنه منزل من رب العالمين، ولكن قوله سبحانه: ﴿بل هو الحق﴾؛ فيه إبطال لقولهم.

وجملة ﴿هو الحق﴾ معرَّفة الجزئين، وفي هٰذا ما فيه، فهو الكتاب الذي جمع خصائص الحق، وإذا أردت أن تتصور الحق تصوراً تامًّا؛ فهو هٰذا الكتاب، وقد حدثتك عن هٰذا في باب التعريف.

وفي قوله تعالى: ﴿من ربِّك﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ربِّ العالمين﴾؛ تشريف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتأنيس، وإلزام بالحجة للمنكرين.

والتنكير في قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قوماً﴾ يدل على التنويع والتكثير؛ لأن المقصود به العرب على أصح الأقوال.

و(من) في قوله تعالى: ﴿مِن نذيرٍ﴾ و﴿مِن قبلِكَ﴾؛ للتأكيد.

و(لعل) في قوله تعالى: ﴿لعلَّهُم يَهْتَدونَ﴾؛ للترجي، أي: رجاء هدايتهم، وليس الترجي في جانب الله.

وقوله سبحانه: ﴿الله الذي خَلَقَ السَّماواتِ﴾؛ جاء بأسلوب الفصل؛ لأنه كلام مستأنف هدفه إقامة الحجة. والتعبير بالاسم الموصول للتنبيه على أهمية الصلة، وهي: ﴿خلق السماوات﴾، وتقديم ﴿السماوات﴾؛ لعظمها، وتعريفها؛ للجنس، وقد يكون للعهد.

وقوله سبحانه: ﴿ما لَكُمْ مِن دونِه من وليٍّ﴾؛ إن كان خبراً لاسم الجلالة؛ فهو متمم الجملة، وإن كان الخبر: ﴿الذي خلق﴾؛ فيكون جملة مستأنفة، وإنما جاءت مفصولة عما قبلها؛ لأنها جواب عن سؤال، فكأنهم قالوا: نحن لا ننكر أن الله خلق السماوات والأرض، فقيل لهم: ولكن اعترافكم لا ينفعكم شيئاً، فإذا كنتم تعترفون بأنه الخالق، فكيف اتخذتم من دونه شفعاء، ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع.

وفي قوله تعالى: ﴿ما لكم من دونه﴾؛ التفات من الغيبة إلى المخاطب، فبعد قولـه تعالى: ﴿أم يقولون﴾، وقوله تعالى: ﴿ما أتاهم﴾؛ قال سبحانه: ﴿مالكم﴾. وفائدة هٰذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب إقامة الحجة عليهم، ذٰلك لأن من شأن المخاطب أن يردَّ ما يوجَّه إليه من تبكيت واعتراض، وليس كذٰلك الغائب، وهٰذا الالتفات كذٰلك في قوله تعالى: ﴿وجعَلَ لكُم السمعَ والأبصارَ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿ثمَّ سوَّاهُ﴾؛ لإقامة الحجة كذٰلك.

و(من) للتأكيد، وتقديم الولي؛ لأن النفس به أكثر إيناساً لمنزلة ولايته.

وقوله سبحانه: ﴿أفلا تتذكَّرون﴾؛ استفهام إنكاري، أي: أتعرضون فلا تتذكرون، وفصلت عما قبلها؛ لأنها جملة إنشائية، وما قبلها خبرية.

وقوله سبحانه: ﴿يُدَبِّر الأمرَ﴾؛ مستأنفة، فكأنه قيل: كيف يكون لكم ولي وشفيع وكل شيء في قبضته؛ يدبر الأمر؟ والتعبير بالفعل المضارع يفيد التجدد، وكذٰلك في

قوله سبحانه: ﴿يعرج﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ذٰلك﴾؛ اسم إشارة، ولامه للبعد، وهو بعد عظمة وعلو، وقد عرفت أن اسم الإشارة لبناء ما بعده على ما قبله، كأنه قيل: ذٰلك المتصف بهٰذه الأوصاف من إنزال الكتاب، وخلق السماوات، وتدبير الأمر، هو الحري بتلك الأوصاف التي ذُكرت بعد اسم الإشارة؛ من كونه عالم الغيب والشهادة، عزيزاً رحيماً. . . إلى غير ذٰلك[1].

و (ال) في ﴿الغيب والشهادة﴾؛ للاستغراق، وليس ذكر الشهادة احتراساً[2]؛ كما ذكر بعض المفسرين، والجمع بين العزة والرحمة متلائم مع موضوع السورة، يجمع بين التيئيس والإطماع لأولٰئك المنكرين، تيئيسهم من بلوغ غاياتهم في إيذاء النبي ﷺ، وطمس الكتاب، وإطماعهم برحمة الله؛ ليؤمنوا.

وذكر الموصول ﴿الذي﴾ إرشاد لأهمية الصلة بعده، و ﴿خلق﴾ فعل ماض على إحدى القراءتين، وبإسكان اللام؛ بدل على القراءة الأخرى، غايته التوضيح، وزيادة التقرير.

ولم يأت التعبير عن خلق الإنسان بالقسم؛ كما جاء في سورة المؤمنون: ﴿ولقد خَلَقْنا الإنسان﴾ [المؤمنون: ١٢]؛ لاختلاف السياق، فلقد كان القسم هناك مقصوداً ليُبنى عليه ما بعده.

وتقديم (لكم) في قوله سبحانه: ﴿وجَعَل لكُم السمْعَ﴾ على ما بعده للاهتمام والعناية، وترتيب هٰذه الثلاثة: السمع، والأبصار، والأفئدة؛ مقصود[3].

و (ما) في قوله سبحانه: ﴿ما تَشْكُرونَ﴾ للنفي، وقد تكون لتأكيد عدم الشكر.

---

(١) راجع اسم الإشارة.

(٢) وقد عرفت الاحتراس في مبحث الإطناب.

(٣) وفي ذٰلك إعجاز علمي ليس محله هنا.

■ المجموعة الثانية: [الآيات ١٠ ـ ١٧]:

قوله تعالى: ﴿وقالوا﴾؛ وُصلت هٰذه الآية بما قبلها، فكأنه قيل: لقد قال هٰؤلاء إن الكتاب مفترى عليهم، وإن لنا أولياء وشفعاء، وقالوا كذٰلك: ﴿أإذا ضَلَلْنا﴾؛ فليست الواو للحال؛ كما ذهب إليه بعض الفضلاء.

وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة، فكأنهم ليسوا حريين أن يخاطَبوا، ومن حقك أن تسأل هنا: كيف يكون الالتفات تارة من الغيبة إلى الخطاب؛ كما حدثتنا عنه في المجموعة الأولى، ومن الخطاب إلى الغيبة؛ كما في هٰذه الآية، والمتحدث عنهم فريق واحد؟

وأجيبك بأن للالتفات هدفين؛ هدفاً عامًّا، وهو لفت نظر السامع وإيقاظه؛ لأنك حينما تنتقل به من أسلوب إلى أسلوب، تحرك نفسه ودواعيها لما سيُلقى إليه، وهٰذا الهدف العام نجده في كل التفات. وهدفاً خاصًّا، وهو يختلف باختلاف المواضع التي يجيء فيها، فقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب أشد تبكيتاً وألزم للحجة، وأغلب للخصم، وقد يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أكثر تأثيراً؛ لأن فيه إعراضاً؛ كما تشيح بوجهك عن بعض الناس إذا أردت أن تعبر عن استيائك منه.

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أإذا ضَلَلْنا﴾ ﴿أإنا﴾؛ إنكار وتعجب.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ بِلقاءِ ربِّهِم كافِرونَ﴾؛ إضراب عن إنكارهم البعث إلى ما هو أفظع منه وأشد، وأقسى وأخزى، وهو كفرهم بلقاء الله، والتعبير بالجملة الاسمية لبيان ثبوتهم وعراقتهم في هٰذا الكفر، وكذٰلك تقديم الجار والمجرور: ﴿بلقاء ربهم﴾، وليس لرعاية الفاصلة كما قيل.

وقوله سبحانه: ﴿قل يَتَوَفَّاكُم﴾؛ جملة مفصولة؛ لأنها جواب، والتعبير بالفعل المضارع للتجدد، وفي الآية للالتفات كذٰلك من الغيبة إلى الخطاب، ولا شك أن أسلوب الخطاب هنا من شأنه أن يكون أكثر تأثيراً؛ لأنه إلزام لهم بالحجة، وفيه من التخويف والتهديد ما لا يخفى، فهو أشد عليهم من أن يقال: يتوفاهم. وكل بهم. ثم

إلى ربهم.

وتقديم ﴿إلى ربكم﴾؛ فيه قصر وتخصيص، أي: ترجعون إليه لا إلى غيره.

وقوله سبحانه: ﴿ولَوْ ترَى﴾ حرف امتناع حذف جوابه؛ لما في حذف الجواب من البلاغة والإيجاز، ولتذهب النفس فيه كل مذهب، وقد تكون (لو) للتمني ـ كما عرفت من قبل ـ ولا تحتاج إلى جواب حينئذ.

والخطاب في قوله سبحانه: ﴿ترى﴾؛ يمكن أن يكون للرسول ﷺ، أو لكل أحد يمكن أن يخاطب[1]، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، والتعبير بالجملة الاسمية: ﴿إذ المجرمون ناكسو﴾؛ لبيان أن هٰذه صفة ملازمة لهم، عليها يدومون، وفيها يثبتون.

والتعبير بقولهم: ﴿ربَّنا﴾؛ استعطاف منهم. وقوله سبحانه: ﴿أبْصَرْنا وسَمِعْنا﴾؛ إما أن ينزل هذان الفعلان منزلة اللازم، كأنهم قالوا: صرنا من أهل البصر ومن أهل السمع، وكأنهم يعترفون بأنهم لم يكونوا من قبلُ يسمعون أو يعقلون، وإما أن يكون الفعلان متعدِّيين والمفعول محذوفاً، أي أبصرنا ما حل بنا وسمعنا ماقيل لنا من هول وتعنيف.

وقالوا: ﴿لو كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ﴾، وقد يكون مفعول كل منهما حُذف للتعميم[2].

وتقديم البصر على السمع في قوله سبحانه: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾؛ منسجم مع أحداث يوم القيامة، أما في الدنيا؛ فيقدم السمع.

وقد أكدوا قولهم هٰذا بـ ﴿إنَّا موقِنونَ﴾ رجاء أن يُستجاب لهم.

وقوله سبحانه: ﴿ولو شِئنا﴾؛ حذف مفعول المشيئة، أي: ولو شئنا إيتاء كل نفسٍ[3].

وقوله سبحانه: ﴿حق القول منِّي﴾، ولم يقل: حق قولي. كأنما هو قول معهود، وهو ما قيل لإبليس: ﴿لأملأنَّ جهنم منك وممَّن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص:

---

(١) ارجع إلى الضمير في فصل التعريف والتنكير.

(٢، ٣) راجع حذف المفعول.

٨٥]، وجاء الأسلوب مؤكداً؛ ليقطع أطماع هٰؤلاء، وليتداركوا أنفسهم قبل أن يفوت الفوت، وتقديم الجِنَّة على الإنس؛ لأنهم أقدم زمناً، ولأن الغواية بسببهم غالباً.

وقوله سبحانه: ﴿فذوقوا﴾؛ الفاء للتفريغ، والتعبير بالذوق عن الإحساس نوع من المجاز؛ تفصيله في علم البيان.

وكذٰلك قوله سبحانه: ﴿يومكم﴾؛ تهكم بهم؛ لأن يوم الإنسان هو الذي يسر فيه، وهو نوع من المجاز كذٰلك.

وقوله سبحانه: ﴿إنا نَسيناكُم﴾؛ جاءت مفصولة عما قبلها؛ لأنها ناشئة عنها، فلا يصح أن توصل، وأُكدت بـ (إنا)؛ لتيئيسهم، وقطع آمالهم.

وقوله سبحانه: ﴿وذوقوا عذابَ الخُلْدِ﴾؛ ليس تكراراً، فإن لكل من الفعلين سببه الخاص، كان الأول بسبب نسيانهم، وتركهم لما هو خير، وكان الثاني بسبب أعمالهم، وقد حذف المفعول من الأول؛ لدلالة الثاني عليه

وقوله سبحانه: ﴿إنما يؤمِنُ﴾؛ بيان لمن يتّصف بالإيمان، ورد عليهم، وجاءت الآية بأسلوب القصر، وهو قصر الإيمان على صنف معين، فهو قصر موصوف على صفة، وهو قصر قلب؛ ليبين أن هٰؤلاء هم المؤمنون لا غيرهم، وليرد على الذين يزعمون أن الإيمان قد يكون لغير هٰؤلاء الموصوفين.

وفي الآية لفتة بيانية عجيبة، ذٰلك أن كثيراً من الآيات التي جاءت بهٰذا الأسلوب، كان التعبير فيها بالجملة الاسمية، مثل: ﴿إنَّما المؤمِنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلوبُهُم﴾ [الأنفال: ٢]، و﴿إنَّما المؤمِنونَ الذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِهِ﴾ [النور: ٦٢، الحجرات: ١٥]، وهي كلها سور مدنية، ولكن الآية في هٰذه السورة: ﴿إنما يؤمن﴾؛ فعبر بالفعل المضارع، وهي سورة مكية، ولعلك بدأت تسلك الطريق الذي تهتدي به لمعرفة الفرق بين الأسلوبين.

ففي الآيات الأولى كان هناك مجتمع مؤمن، بل كان هو الأصل، وكان غير المؤمنين فيه متسللين أو مدَّعين، أما في هٰذه السورة؛ فليس الأمر كذٰلك، فليس هنا

مجتمع مؤمن متميز، بل الأصل في المجتمع غير ذٰلك، فكيف يُقال: إنما المؤمنون؟ ففي التعبير بالفعل المضارع غير ما قلته قبل بشارة بطريق غير مباشر إلى تحقُّق ما في حيز أداة القصر، وقد كان.

ويفهم من (إنما) أسلوب آخر، وهو أسلوب التعريض، فهو تعريض بأولٰئك الذين يتّصفون بهٰذه الصفات، ويدّعون الإيمان.

وبناء الفعل لما لم يسم فاعله في قوله سبحانه: ﴿ذُكِّروا بآياتِ ربِّهِم﴾ للدلالة على سرعة إجابتهم من جهة، ولبيان أنهم يستجيبون أيًّا كان المذكّر من جهة أخرى، فهم ليسوا بحاجة إلى أسلوب مؤثر، فالحكمة ضالة المؤمن، فحذف الفاعل إذن لهدف بياني؛ لأن المقصود تأثرهم بالآيات.

والتعبير بكلمة ﴿خرُّوا﴾ فيه ملحظ نفسي ينبيء عن التفاعل بينهم وبين الآيات، وفي قوله سبحانه: ﴿وهُم لا يَسْتَكْبِرونَ﴾ إبداعٌ بلاغي أبينه لك في ما يلي:

أولاً: ذكر المسند إليه (هم)، وكان من الممكن أن يُقال: ولا يستكبرون.

ثانياً: تقديمه.

ثالثاً: مجيء الخبر فعلاً مضارعاً؛ ليدل على التجدد والحدوث.

رابعاً: مجيء الخبر جملة فعلية مسبوقة بنفي. وقد عرفت عند تقديم المسند إليه بأنه إن كان معرفة، وكان المسند فعلاً منفيًّا، فإنه يدل على تقوية الحكم وتأكيده، وقد يفيد التخصيص.

ومعنى التأكيد هنا تقوية الحكم، وأن هٰذه صفتهم دائماً، ومعنى التخصيص أنهم هم الذين لا يستكبرون، أما غيرهم فهو مستكبر، ولا مانع من إفادة التخصيص هنا لوجود القرينة

وقوله سبحانه: ﴿تتجافى جُنوبُهُم﴾؛ فيه ملحظان بلاغيان:

أولاً: التعبير بالفعل المضارع؛ لما عرفته من قبل.

ثانياً: مجيء الجملة بأسلوب الفصل، فإن تجافي جنوبهم عن المضاجع ليس أجنبياً عن قوله سبحانه: ﴿خرُّوا سُجَّداً﴾، بل هو تأكيد له.

كذلك قوله سبحانه: ﴿يَدْعونَ ربَّهم خَوْفاً وطَمَعاً﴾؛ عُبر فيه بالفعل المضارع، وجاء بأسلوب الفصل، ولو قيل: ويدعون ربهم. لفسد المعنى، إذ يصير الدعاء مغايراً للتجافي، فقد تكون الجملة بدلاً من سابقتها، وقد تكون إجابة عن سؤال.

أما قوله سبحانه: ﴿ومِمَّا رَزَقْناهُم يُنْفِقونَ﴾؛ فقد جاء بأسلوب الوصل؛ لأن قضية الإنفاق غير قضية التجافي والدعاء، فهي صفة أخرى مستقلة. وتقديم (مما) بيان لفضل الله عليهم، وإيراد الفعل الماضي (رزقنا) دون الفعل المضارع؛ دلالة على سخائهم وتوكلهم، فهم ينفقون مما أعطاهم الله، دون أن ينتظروا تجدد العطاء، والتعبير بالفعل المضارع (ينفقون)؛ لما عرفت من قبل. فأنعم على هٰذا النظم الذي ينادي على نفسه بأنه من عند الله، وبأنه علامة الإعجاز.

وتنكير (نفس) في قوله سبحانه: ﴿فلا تَعْلَمُ نفسٌ﴾؛ للتعميم، أي: لا يعلم أيُّ أحد.

والتعبير بالاسم الموصول ﴿ما أُخْفِي لهم﴾؛ لتفخيم الأمر وإبهامه، وحُذف الفاعل في ﴿أُخفِي﴾ للعلم به، فما دام المخلوقون جميعاً يجهلون هٰذا الذي أُخفي لهم، فمعنى ذٰلك أنه لا يعلمه إلا الله.

وفي قوله سبحانه: ﴿جزاء﴾؛ إيجاز حذف، والتعبير بـ ﴿كانوا﴾ دلالة على استمرار عملهم الخير في الدنيا.

■ المجموعة الثالثة: [الآيات ١٨ ـ ٢٢]:

قوله تعالى: ﴿أفمنْ كانَ مؤمِناً كمنْ كانَ فاسِقاً﴾ بعدما ذكر للفريقين من أوصاف، تحدثت الآيات عمَّا بينهما من فروق، وعما لكل منهما من جزاء.

وفي قوله سبحانه: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾؛ استفهام، ولكنه خرج عن معناه،

فالغرض هنا إنكار أن يكونوا سواء، والتعجيب ممن يظنهما كذلك، فهو كقوله سبحانه: ﴿أفَنَجْعَلُ المسلمينَ كالمُجْرِمينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وفي هٰذه العبارة الكريمة إيجاز ظاهر.

وقوله سبحانه: ﴿لا يَسْتوونَ﴾؛ تصريح بعدم الاستواء، ومجيئها بأسلوب الفصل ظاهر؛ لأنها إجابة عن السؤال المتقدم.

وقـولـه سبحانه: ﴿أما الذينَ آمَنوا . . . وأما الذين فسقوا﴾؛ جملتان مؤكدتان بـ (أما)؛ كما عرفت في موضوع التوكيد، وسبب التأكيد هنا طمأنينة المؤمنين، وبخاصة في العهد المكي، وإفساح المجال للآخر؛ ليقلع عن فسقه وكفره.

وأنعم النظر في التعبير القرآني عن الجزاء لكل من الفريقين، حيث قيل في جزاء المؤمنين: ﴿فلهم جنَّات المـأوى﴾، وقيل في جزاء الفاسقين: ﴿فمأواهم النار﴾، ويعلم الله أنه الإعجاز:

أما أولاً: فقوله سبحانه: ﴿لهم جنَّات المأوى﴾، حيث قدم الخبر: (لهم)، ففيه قصر، وتخصيص، أي: لهم لا لغيرهم.

وأمـا ثانيـاً: فقـال: ﴿فمـأواهم النـار﴾، ولم يقـل: فلهم النـار. لنفي هٰذا التخصيص، ولو قيل: فلهم النار. لأفادت أنها لهم لا لغيرهم، والأمر ليس كذٰلك؛ لأن النار ستكون لعصاة المؤمنين كذٰلك، فالفاسقون في الآية هم الكافرون، بدليل المقابلة.

وفي قوله سبحانه: ﴿كُلَّما﴾ استمرار وتعميم.

وحـذف الفاعل في قوله سبحانه: ﴿وقيل لهم﴾؛ لأنه لا فائدة من ذكره، وهو منسجم مع أحداث يوم القيامة التي يُحذف فيها الفاعل غالباً، ويُقال في ﴿كنتم﴾ ما قيل في ما قبلها.

وقوله سبحانه: ﴿ولَنُذيقَنَّهُم﴾؛ جملة فعلية مؤكدة بالقسم أولاً، وهو ما تدل عليه

اللام، وبنون التوكيد ثانياً، والداعي إلى التأكيد هنا إدخال الفرحة إلى قلوب المؤمنين، والجزع والهلع لغيرهم، وفيه إيماء لإقلاعهم عن ذٰلك، يدل عليه قوله سبحانه: ﴿لعلهم يرْجعونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ومَن أظْلَمُ﴾؛ استفهام معناه النفي، أي: لا أحد أظلم، والتعبير بـ(ثم) في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أعرَضَ عنها﴾؛ لتراخي الرتبة بين التذكير والإعراض، فهم حينما أعرضوا؛ إنما أعرضوا عن قصد وسبق إصرار وتعمد، فشتان بينهم وبين الفريق الأول الذين قيل فيهم: ﴿إنَّما يؤمنُ بآياتِنا الذينَ إذا ذُكِّروا بها﴾.

وتقدُّمُ قوله سبحانه: ﴿من المُجْرِمينَ﴾ على الخبر: ﴿مُنْتَقمونَ﴾، وإظهارُهُ دون ذكر ضميره، وكان الظاهر أن يقال: إنا منهم؛ لبيان المسارعة في ذكرهم؛ لإدخال الحسرة عليهم، ولبيان علة الانتقام، حيث جمعوا بين الظلم والإجرام، ولو قيل: إنا منهم. لذهبت تلك الفائدة، وهي التنصيص على إجرامهم.

والتعبير بنون العظمة في قوله سبحانه: ﴿إنا﴾؛ لشدة ما سيلاقون.

■ المجموعة الرابعة: [الآيات ٢٣ ـ ٢٥]:

وبعد أن بيَّن الله جزاء الفريقين، انتقلت الآيات لتسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتثبيت فؤاده، فهو ليس أول نبي يلاقي العنت والتكذيب، بل هناك أنبياء كذٰلك؛ قال تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْنا موسى الكِتابَ﴾.

ولقد ابتدأت هٰذه الجملة بالتأكيد بالقسم أولاً، الذي دلت عليه اللام، وبكلمة (قد) ثانياً، وقد تتساءل عن هٰذا التأكيد ما سببه، والرسول ﷺ ليس بحاجة إليه، وهٰذا صحيح، فالتأكيد هنا ليس لإيتاء موسى الكتاب، ولكنه لمضمون الجملة التي سيقت من أجله، فالجملة ـ كما قلت ـ سيقت للتسلية والتثبيت، تسلية الرسول ﷺ، وتثبيت المؤمنين، ولهٰذا جاء التوكيد، فالهدف ـ إذن ـ التأكيد على انتصار الحق، وذهاب الباطل.

وقوله سبحانه: ﴿فلا تَكُنْ في مِرْيَةٍ مِن لقائِهِ﴾؛ إن كان الخطاب فيها خاصًّا

للرسول ﷺ؛ فالغرض من النهي التثبيت والدوام، وإن كان الغرض من الخطاب المسلمين؛ فالنهي على حقيقته[1].

وقوله سبحانه: ﴿وجَعَلْنا منْهُم أئِمَّةً﴾؛ التنوين فيه للتعظيم، وقد يفيد التقليل أيضاً، و(من) للتبعيض، وفيه بشارة للمؤمنين بالنصر، بأن سيكونوا أئمة، والتعبير بالفعل المضارع (يهدون)؛ لاستحضار الصورة، فعند نزول القرآن الكريم لم يكن هٰؤلاء.

وقوله سبحانه: ﴿لما صَبَرُوا وكانوا بآياتِنا يُوقِنونَ﴾؛ قدم الصبر؛ لأنه هو الأساس في تحمُّل التبليغ، وعبَّر بقوله سبحانه: ﴿وكانوا بآياتِنا يُوقِنون﴾؛ لما عرفت قريباً في مثل هٰذا التركيب

وإضافة الرب إلى ضميره ﷺ فيه مزيد تسلية وإيناس وتشريف، والضمير في قوله سبحانه: ﴿هو يفصل﴾ للتأكيد، وكونه هو الذي يفصل بينهم لا غيرهم، وفي الجملة إشارة إلى ما كان بين بني إسرائيل من خلاف.

■ المجموعة الخامسة [الآيات ٢٦ - ٣٠]:

وبعد هٰذا البيان، وبعد التذكير بآيات الكتاب يُذكرهم القرآن بآيات من نوع آخر، وهي الآيات الكونية، وذٰلك في قوله تعالى: ﴿أوَلَمْ يَهْدِ لهُم﴾، والاستفهام إنكاري، أي: ألم يرشدوا ويبين لهم كثرة الذين أهلكوا من قبلهم من القرون الماضية؟ إن قلنا: إن الفاعل مضمون الجملة: ﴿كم أهلكنا﴾، أو: ألم يرشدهم الله ويبين لهم؟ إن قلنا:

---

(١) اختلف المفسرون في الضمير في قوله تعالى: ﴿في لقائه﴾، فالزمخشري يرجعه إلى الكتاب، وغيره يرجعه إلى موسى، وقد اختلف هٰذان الفريقان في تأويل الآية، فارجع إليه، فليس عرضنا هنا تفسير السورة الكريمة. وتدبَّر قوله سبحانه: ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾، ولكنه عند الحديث عن القرآن قال: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾، فانظر كيف كان القرآن هدى للناس جميعاً.

إن فاعل يهدي هو الله[1].

وقوله سبحانه: ﴿يَمْشونَ في مساكِنِهم﴾؛ جملة جاءت بأسلوب الفصل، كأنه قيل: من أين عرفوا هٰذا؟ فقيل: يمشون في مساكنهم، وتنكير الآيات للتكثير والتعظيم ﴿إن في ذٰلك لآيات﴾.

ويقال في الآية الثانية: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء. . .﴾؛ ما قيل في هٰذه الآية. وفي قوله سبحانه: ﴿نسوقُ﴾؛ نوع مجاز، موضعه علم البيان.

ومما يجب الوقوف عنده في هاتين الآيتين ما ختمت به كل منهما، فهو بحق دليل من أدلة إعجاز هٰذا الكتاب:

لما كانت الآية الأولى متصلة بالتاريخ والأخبار، والطريق لهٰذا كله السمع، خُتمت الآية بقوله سبحانه: ﴿أفلا يَسْمَعونَ﴾، ولما كان إنزال الماء وإنبات الأرض يعتمد على الرؤية؛ ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿أفلا يُبْصِرونَ﴾، فسبحان من نزل هٰذا الكتاب رحمة وتبياناً.

وقوله سبحانه: ﴿ويقولونَ متى هٰذا الفتح﴾؛ استفهام غرضه الاستبعاد والإنكار، والفتح هو النصر، أو الفصل في الأمور.

وفي قوله سبحانه: ﴿إن كُنْتُم صادِقينَ﴾؛ إيجاز، حيث حذف جواب الشرط أولاً، ومتعلق قوله سبحانه: ﴿صادقين﴾ ثانياً.

وتقديم المفعول في قوله سبحانه: ﴿لا يَنْفَعُ الذينَ كَفَروا﴾ مسارعة في التنصيص على حسرة أولٰئك الكافرين.

قوله سبحانه: ﴿ولا هُمْ يُنْظَرونَ﴾؛ حيث قدم المسند إليه مسبوقاً بالنفي، وكان الخبر جملة فعلية، وفي هٰذا تخصيص كما عرفت من قبل.

وفي قوله سبحانه: ﴿فأعْرِضْ عنهُم وانتظر﴾؛ تسلية للرسول صلى الله عليه وآله

(١) وفي معنى الآية خلاف بين المفسرين.

وسلم، وقد قدم الإعراض على الانتظار.

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّهم منتَظِرونَ﴾ زيادة تهديد لهم.

فانظر كيف بدأت السورة بحكاية قولهم، وخُتمت بهٰذه النتيجة، فلله الحمد.

هٰذه عجالة لهٰذه السورة الكريمة؛ كتبتها على عجل، فلا تلمني إن ظهر لك تقصير وزلل، وأسأل الله أن يصرف عنا الهوى ويجنبنا الخطل، وأن يكرمنا بحسن القول والعمل، وأن لا يقطعنا من الرجاء في رحمته وعفوه ومن الأمل، إنه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على النبي الشفيع سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

□ □ □

الفهارس

١- فهرس المصادر والمراجع.

٢- فهرس الآيات.

٣- فهرس الأحاديث.

٤- فهرس الأعلام.

٥- فهرس الأشعار.

٦- فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع

* «أبو العتاهية؛ أشعاره»: تحقيق: د. شكري فيصل، دار الملاح للطباعة والنشر.

* «الإتقان في علوم القرآن»: جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٥، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم.

* «الإحكام في أصول الأحكام»: سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد الآمدي، مطبعة المعارف، مصر، ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م، دار الكتب الخديوية.

* «أسرار البلاغة»: عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: هـ. ريتر، دار المسيرة، بيروت.

* «الأعلام»: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين.

* «الأمـالي»: لأبي علي القـالي، دار الحديث للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

* «الأمالي الشجرية»: لأبي السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي، الطبعة الأولى، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ.

* «البـرهان في علوم القرآن»: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق:

محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م.

* «البلاغة في ثوبها الجديد»: الدكتور بكري شيخ أمين، توزيع دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

* «البلاغة الواضحة»: علي الجارم ومصطفى أمين.

* «البيان والتبيين»: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، وطبعة دار الفكر ودار الجيل.

* «تاج العروس من جواهر القاموس»: محمد مرتضى محسن الزبيدي، تحقيق: الترزي وحجازي والطحاوي والقرباوي، مطبعة حكومة الكويت.

* «تحرير التحبير»: لأبي الإصبع المصري، تحقيق: د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، مصر، ١٣٨٣هـ.

* «التلخيص في علوم البلاغة»: جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني، شرح عبدالرحمن البرقوقي.

* «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن»: الخطابي، والرماني، والجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، والدكتور زغلول سلام، الطبعة الثالثة، دار المعارف.

* «جمهرة أشعار العرب»: لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، دار صادر، بيروت.

* «جواهر الأدب»: السيد أحمد الهاشمي.

* «جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع»: السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

* «الحيوان»: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، طبعة هارون.

* «خزانة الأدب»: عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* «دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبدالقاهر في التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير»: عبدالهادي العدل، تعليق: عبدالسلام سرحان، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ / ١٩٥٥م، المطبعة المنيرية.

* «دفاع عن البلاغة»: الأستاذ أحمد حسن الزيات، مطبعة النهضة ١٩٦٧م، مطبعة الرسالة ١٩٤٥م.

* «دلائل الإعجاز»: عبدالقاهر الجرجاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

  «دلائل الإعجاز»، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* «ديوان أبي تمام وشرح الخطيب التبريزي»: تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥.

  «ديوان أبي تمام»: ضبط: الأديب شاهين عطية، دار الكتب العلمية.

  «ديوان أبي تمام»: فسر ألفاظه: محيي الدين الخياط.

* «ديوان أبي فراس الحمداني»: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* «ديوان أبي نواس»: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية.

* «ديوان امرىء القيس»: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية.

* «ديوان البحتري»: تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، الطبعة الثانية.

* «ديوان ذي الرمة»: تحقيق: عبدالقدوس صالح.

* «ديوان حسان بن ثابت»: تحقيق: د. حسن حنفي حسين، حسن كامل الصيرفي، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٤م.

* «ديوان الخنساء»: دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
* «ديوان السموأل»: دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
* «ديوان الشافعي»: دار الكتب العلمية، بيروت.
* «ديوان طرفة بن العبد»: دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
* «ديوان العباس بن أحنف»: تحقيق: عاتكة الخزرجي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.
* «ديوان العجاج»: شرح الأصمعي، تحقيق: عزة حسن، مكتبة دار الشرق.
* «ديوان عروة بن الورد»: دار صادر، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
* «ديوان عنترة بن شداد»: دار صادر، بيروت.
* «ديوان الفرزدق»: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
«ديوان الفرزدق»: شرح الأستاذ علي الفاعور، المكتب العلمي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
* «ديوان لبيد بن ربيعة»: تحقيق: إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.
* «ديوان المتنبي»: دار صادر، بيروت.
* «ديوان ابن نباتة السعدي»: تحقيق: عبدالأمير مهدي حبيب الطائي.
* «ديوان الهذليين».
* «الزهرة»؛ لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني، تعليق: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار.
* «سر الفصاحة»: ابن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م.
* «سنن الترمذي»: أبو عيسى محمد بن سورة الترمذي، تعليق: عزت عبيد

الدعاس، مطابع الفجر الحديثة، حمص، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ. / ١٣٦٨م.

* «سنن ابن ماجه»: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة البابي الحلبي وشركاه.

* «سيرة ابن هشام».

* «شرح ابن عقيل على ألفية مالك»: دار القلم، لبنان.

* «شرح ديوان الحماسة»؛ لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، نشره: أحمد أمين وعبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.

* «شرح ديوان صريع الغواني»: تحقيق: د. سامي الدهان، دار المعارف، مصر.

* «شرح ديوان الفرزدق»: المستشرق جيمس د. سايمز، مكتبة الثقافة العربية، بغداد.

* «شرح ديوان المتنبي»: وضعه عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي.

* «شرح شذور الذهب»: لابن هشام، تأليف: محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر.

* «شرح شواهد المغني»: عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبدالعزيز تاج، أحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.

* «شرح القصائد السبع الطوال»: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف.

* «شرح قصيدة بانت سعاد»: تحقيق: المستشرق ف. كرنكو، دار الكتاب الجديد، لبنان.

* «شرح المفصل»: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، عالم الكتب، بيروت،

ومكتبة المتنبي، القاهرة.

* **«شرح المفضليات للخطيب التبريزي»**: تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

* **«شروح التلخيص»**: «مختصر» السعد التفتازاني، و«مواهب الفتاح» لابن يعقوب، و«عروس الأفراح» للسبكي، و«الإيضاح» للقزويني، و«حاشية الدسوقي»، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.

* **«الشوقيات»**: أحمد شوقي، دار الكتاب العربي.

* **«صحيح البخاري»**: محمد بن إسماعيل البخاري، تعليق: د. مصطفى ذيب البغا، دار القلم، بيروت.

* **«صحيح مسلم بشرح النووي»**: مسلم بن الحجاج.

* **«الصناعتين»**: لأبي هلال العسكري، طبع دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧١هـ، القاهرة.

* **«علم المعاني»**: عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

* **«علوم البلاغة»**: أحمد مصطفى المراغي، مطبعة: محمد محمد مطر بالعتبة الخضراء، ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م.

* **«العمدة»**: لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.

* **«فيض القدير شرح الجامع الصغير»**: محمد عبدالرؤوف المناوي، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م، المكتبة التجارية الكبرى.

* **«الكامل»**: لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

* **«الكتاب»**: لسيبويه، تحقيق: عبدالسلام هارون، عالم الكتب، الطبعة الثالثة،

١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

* «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل»: محمود بن عمر الزمخشري، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة، الطبعة الأولى، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م.

* «كشف الخفاء ومزيل الإلباس»: العجلوني، مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

* «المثل السائر»: نصر الله محمد بن عبدالكريم أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، طبعة البابي الحلبي، ١٩٧٩م.

* «مجمع الزوائد»: الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة.

* «مسند الإمام أحمد بن حنبل»: المكتب الإسلامي، ودار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

* «معاهد التنصيص»: عبدالرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م.

* «معجم المؤلفين»: عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي.

* «مفتاح العلوم»: أبو يعقوب بن بكر السكاكي، دار الكتب العلمية، بيروت.

* «المفردات في غريب القرآن»: الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

* «الموازنة»: للآمدي، تحقيق: محمد صقر.

* «البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية»: د. فضل حسن عباس، تحت الطبع.

* «إعجاز القرآن المجيد عرض ونقد وتجديد»: د. فضل حسن عباس، مخطوط.

□□□

فهرس الآيـات

السورة	الآية	الصفحة	السورة	الآية	الصفحة
الفاتحة	١	٢٠٨/ ٢٠٩	تابع البقرة	٥٤	٥١٠
	٤	١٥١/ ٢١١/ ٢٣٥/ ٤٢٦		٧٩	٥٠٠
	٥	٢٣٩/ ٢٩٩/ ٤٢٦		٨٣	٤٢٥
	٦	٢٩٥		٨٧	٤٤٦
				٩٦	١٧٩
البقرة	١	٨٧/ ٣٠٥/ ٤٠٥/ ٤٢٦		٩٨	٤٨٦
	٢	٨٧/ ٢٢٩/ ٣٠٤/ ٣٠٥/		١٠٢	٢٨٩
		٤٠٥/ ٤١٧/ ٤٢٦		١٠٩	٣٤٨
	٣	٤١٧		١١٤	٢٥٤
	١-٥	٣٠٥/ ٤٢٦		١٢٦	٢٩٥
	٥	٢٥٠/ ٣٢٨		١٢٧	٣٠١
	٦	١١٦/ ٤٠٦/ ٤١٣		١٣٧	٣٥٥
	٧	٣٢٩/ ٤١٣		١٤٣	٢٣٠/ ٢٤٦
	٨	٤١٣		١٤٥	٣٥٠
	٩	٤٠٦/ ٤٢٢		١٤٧	٢٠٤
	١١	١٤٩/ ٢٧٥		١٦٣	١٣٦
	١٢	١٢٤/ ٣٧٤		١٦٤	٤٧٥
	١٣	١٢٤		١٦٦	١٥٩
	١٤	٣٧٤/ ٤٠٧/ ٤٢٢		١٦٧	١٥٩
	١٥	٩٣/ ٢١٩		١٧٣	٢٤١
	١٦	٣٠٧		١٧٧	٤٩٩
	١٧	٤٣٨		١٧٨	٢٤٢
	٢٢	٤٣٤		١٧٩	٢٣١/ ٤٧٣
	٢٣	٣٤٥/ ٥١١		١٨٧	٤٣٤
	٢٤	١٥٢/ ٣٤٦/ ٥١١		١٨٩	٤٧٤
	٢٦	١١٧		١٩٨	٣٤١
	٢٨	١٩٧		٢١٤	٢٠١
	٣٠	٤٤٨		٢٢١	١١٦
	٣٢	٢٤١		٢٢٢	٥٠٤
	٤٣	٢٣٩		٢٢٣	١٩٠/ ٥٠٤

السورة	الآية	الصفحة
تابع النساء	٧٥	٤٢٥
	٧٦	٤٢٥
	٧٨	٣٣٠/ ٣٤١
	٨٧	٢٥٥
	٨٨	١٧٨
	٩٠	٤٣٩
	٩٥	١٠٩/ ٢٥٥
	١٠١	٣٤٢
	١٠٣	٣٤٢
	١٢٨	٢٧٣
	١٤٢	٩٣
	١٦٤	٣٣١
	١٧٥	٢٩٠
	١٧٦	٢٧٣
المائدة	٣	٤٦٠
	٣٧	٢١٦
	٤٢	٣٥٥
	٥٤	٤٩٧
	٦١	٢١٩
	٦٩	٢٧١
	٧٣	٣٧٠
	٧٥	٣٦٥/ ٣٧٥
	٩١	١٨٥/ ١٨٦/ ٢٠٠
	٩٣	٣١٧
	١٠١	١٥٤
	١١٦	٣١٧
الأنعام	١٤	٢٣٤
	٢٧	٣٥٢/ ٤٦٦

السورة	الآية	الصفحة
تابع الأنعام	٣٠	٣٥٢
	٣٢	٣٧٢
	٣٥	٣٥٠
	٣٦	٣٧١/ ٣٧٧
	٤٠	٢١٦/ ٢٣٤
	٥٤	١٤٠
	٧٤-٨٢	٣٠٦
	٨١	١٨٨
	٨٣	٢٤١/ ٣٠٦
	٨٤	١٧٨/ ٢٣٦
	٨٤-٨٧	٣٠٦
	٨٩	٣٠٦
	٩٣	٣٥٢/ ٤٦٦
	٩٤	٢٩٠
	٩٩	١٥٠
	١٠٠	٢٣٩/ ٤٧٩
	١٠١	٢٠١
	١٠٤	٢١٦/ ٢١٧
	١٠٧	٢١٦
	١١٢	٢٨٥
	١١٤	٢٣٤
	١٢٢	١٧٥
	١٢٤	٢٢٢
	١٢٥	٤٩
	١٣٧	٨٢
	١٤١	٢٨٥
	١٤٣-١٤٤	١٧٧
	١٤٩	٢٦٠/ ٢٨٥
الاعراف	١١	٢٠١

فهرس الأحاديث

الحرف	الصفحة
لو أنكم تتوكلون على الله حق التوكل	٣٥٥
لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً	٣٥٦
لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلاف سرية	٢٥٥
ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت	٣٨٧
ما أنا بقارئ	١٢٣
ما رأيت منه . . . ولا رأى مني	٢٨٥
الماهر في القرآن مع السفرة	١١١
والله للدنيا أهون على الله من هذا على أصحابه	١٢٥
يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم	١٣٣
يا غلام سم الله	١٥١
يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك	١٥٧
يهرم ابن آدم وتشب معه خصلتان : الحرص والأمل	٤٨٤
اليأس مما في أيدي الناس	٤٧٥

فهرس الأعلام

فهرس الأشعـــار

الهمزة المضمومة

الباء المضمومة

الباء المفتوحة

التاء المكسورة

أوبوا أن	لملت	طفيل الغنوي	٢٨٠
جزى الله	فزلتَ	طفيل الغنوي	٢٨٠
خبير	مرتِ		٢٧٣
زعم العواذل	وأجمّتِ	جندب بن عمار	٤١٦
سأشكر	جلتِ	ابراهيم الصولي	٢٦٣
فتى غيرُ	زلتَ	ابراهيم الصولي	٢٦٣
قتادة الخير	والطّاعاتِ	الحارث بن ظالم	٤٩٥
كذب العواذل	ودلت	جندب	٤١٦
هم خلطونا	وأظلتَ	طفيل	٢٨٠، ٢٨٢
ولو أن قومي	أجرتِ	عمرو معدي كرب	٢٨١

الجيم

الجيم المضمومة

فمن شاء	معوجُ		١٢٨
كأن أصوات	الفراريجُ	ذو الرمة	٨٢
لئن كنت	احوجُ		١٢٨
ولقد اغتذي	إضريجُ	أبو دؤاد	٤٣٢
ولي فرس	مسرجُ		١٢٨
وما كنت	أحرجُ		١٢٨

الجيم المفتوحة

أزمان	أبرجاً	رؤبة	٢٥
ومقلة	مسرجاً	رؤبة	٢٥

الجيم المكسورة

يقر	تزوجِ	الشماخ بن ضرار	٣٦

الحاء المضمومة

أخذنا	الأباطحُ	كثير عزة	٥٠٨
ليبك يزيد	الطوائحُ	ضرار بن نهشل	٢٧٠
ما عاتب	الصالحُ	لبيد	١٠٧
وشدت	رائحُ	كثير	٥٠٧
ولما قضينا	ماسحُ	كثير	٥٠٧

الراء المفتوحة

الراء المكسورة

اللام المضمومة

اللام المفتوحة

اللام المكسورة

اللام الساكنة

الميم
الميم المضمومة

فهرس الموضوعات

علم المعاني

الفهارس

دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة - العبدلي - عمارة جوهرة القدس
مقابل وزارة التربية والتعليم
هاتف : ٦٤٠٩٣٧ - ٦٤٥٩٣٧ - فاكس : ٦٢٨٣٦٢
ص.ب : ٩٢١٥٢٦ عمان - الأردن
مكتبة دار الفرقان - إربد - مقابل جامعة اليرموك